

شرح
غنية القصاص
في نظم مسائل
الإعتقاد

نظم وشرح

محمد مريس الحجاجي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ، وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون ، بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون .

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وعلى التابعين لهم بإحسان ، الذين لا ينحرفون عن السنة ولا يعدلون ، بل إياها يقتفون وبها يتمسكون وعليها يوالون ويعادون ، وعندها يقفون ، وعنهما يذبون ويناضلون ، وعلى جميع من سلك سبيلهم وقفا أثرهم إلى يوم يبعثون .

أما بعد :

فان العقيدة هي اصل الدين واساس الملة وهي اول ما يجب ان يعتني به المسلم تعلمنا وتعلينا اذ لا يقبل الله عملا الا اذا قام على صحة اعتقاد واخلاص العبادة له سبحانه وقد كان الانبياء جميعا يبدؤون دعوتهم بتقرير التوحيد وتصحيح المعتقد قبل سائر الاحكام كما قال تعالى { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } .

ومن اجل ذلك اعتني علماء المسلمين قديما وحديثا بتأليف المختصرات والمنظومات والشرح لها في تقرير عقيدة اهل السنة والجماعة .

ورجاء الاندراج في هذا المسلك قمت بعمل بنظم كتاب اعتقاد أئمة الحديث لابي بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس الإسماعيلي الجرجاني (ت ٣٧١هـ). وقد اسميته ((غنية القُصَّاد في نظم مسائل الاعتقاد)).

وقد ضمنت النظم قواعد اهل السنة والجماعة في باب الاسماء والصفات واتماما للفائدة وتحقيقا النفع بهذا النظم قمت بجمع شرح لهذا النظم مستفيدا مما كتب في كل باب من قبل اهل العلم في

الابواب المختلفة سائلا الله العلي العظيم ان يجعله عملا متقبلا عنده وان يكتب له القبول في الارض
وان ينفع به المسلمين انه ولي ذلك والقادر عليه.

كتبه

العبد الفقير الى رحمة ربه

ابو عبدالرحمن محمد مريس الحجاجي

الحمد لله الملك الباري	على عيم فضله المدرار
ثم الصلاة والسلام الوافي	على النبي سيد الاشراف
وآل بيت المصطفى الابرار	وزوجه وصحبه الاطهار
وبعد فاعلم أيها الخلّ الوفي	يا من لخير الناس انت مُقتفٍ
عقيدة الايمان مبناها على	اقرارنا بربنا له العلا(١)

١ — لكل امة على وجه الارض معتقداتها التي تميزها عن غيرها من الامم ومن فضل الله تعالى على العبد ان يهديه لدين الفطرة التي فطر الناس عليها وهو ملة التوحيد وشرعة خاتم الانبياء عليه الصلاة والسلام التينجاة للعبد بدونها .

وهذه الملة تقوم على اركان في الايمان ستة ذكرها الله تعالى في كتابه كثيرا وجاء ذكرها في حديث جبريل عليه السلام المروي في الصحيحين .

وتشمل: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره .

قال تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } (البقرة : ٢٨٥) .

وهو ما جاء موضحاً في حديث جبريل المشهور الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد

بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ! أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له ، يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر . وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربّتها . وأن ترى

الخُفاة العُراة ، العالة ، رعاء الشاء ، يتطاولون في البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لي : يا عمر ! أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم »

والركن الأول من أركان الإيمان هو الإيمان بالله تعالى؛ هو التصديق الجازم بوجود الله، واتصافه بكل صفات الكمال، ونعوت الجلال، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئناناً تُرى آثاره في سلوك الإنسان، والتزامه بأوامر الله، واجتناب نواهيه. وهو أساس العقيدة الإسلامية ولُبّها؛ فهو الأصل، وكل أركان العقيدة مضافة إليه وتابعة له.

فالإيمان بالله يتضمن الإيمان بوحْدانيته واستحقاقه للعبادة وحده؛ لأنَّ وجوده لا شك فيه، وقد دلَّ على وجوده سبحانه وتعالى:

الفطرة، والعقل، والشرع، والحس.

ومن الإيمان بالله تعالى؛ الإيمان بوحْدانيّته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وذلك بإقرار أنواع التوحيد الثلاثة، واعتقادها، والعمل بها، وهي:

١ - توحيد الربوبية : ومعناه الاعتقاد الجازم بأنَّ الله وَحْدَهُ ربَّ كلِّ شيء ومليكه، لا شريك له، وهو الخالق وحده وهو مدبر العالم والمتصرف فيه، وأنَّه خالق العباد ورازقهم ومحبيهم ومميتهم، والإيمان بقضاء الله وقدره وبوحْدانيته في ذاته، وخلاصته هو: توحيد الله تعالى بأفعاله.

٢ - توحيد الألوهية:- وهو إفراد الله تعالى بأفعال العباد، ويسمى توحيد العبادة، ومعناه الاعتقاد الجازم بأنَّ الله - سبحانه وتعالى - هو: الإله الحق ولا إله غيره، وكل معبود سواه باطل، وإفراده تعالى بالعبادة والخضوع والطاعة المطلقة، وأن لا يشرك به أحد كائناً من كان، ولا يُصَرَّف شيء من العبادة لغيره؛ كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والدعاء، والاستعانة، والنذر، والذبح، والتوكُّل، والخوف والرجاء، والخُب، وغيرها من أنواع العبادة الظاهرة والباطنة، وأن يُعْبَدَ الله بالْحُبِّ والخوف والرجاء جميعاً، وعبادته ببعضها دون بعض ضلال.

قال الله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] وتوحيد الألوهية هو ما دعت إليه جميع الرسل، وإنكاره هو الذي أورد الأمم السابقة موارد الهلاك.

وهو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها ولأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وسُلت سيوف الجهاد، وفرق بين المؤمنين والكافرين، وبين أهل الجنة وأهل النار.

وهو معنى قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [الصفات: ٣٥] قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥] . ومن كان ربا خالقا، رازقا، مالكا، متصرفا، محييا، مميتا، موصوفا بكل صفات الكمال، ومنزها من كل نقص، بيده كل شيء، وَجِبَ أَنْ يَكُونَ إِلَهاً واحداً لا شريك له، ولا تُصَرَفَ العبادة إلا إليه، وتوحيد الربوبية من مقتضيات توحيد الألوهية؛ لأنَّ المشركين لم يعبدوا إلهاً واحداً، وإنما عَبَدُوا آلهة مُتَعَدِّدة، وزعموا أنَّها تقربهم إلى الله زلفى، وهم مع ذلك معترفون بأنها لا تضر ولا تنفع، لذلك لم يجعلهم الله مؤمنين رغم اعترافهم بتوحيد الربوبية؛ بل جعلهم في عداد الكافرين بإشراكهم غيره في العبادة. ومن هنا يختلف مُعْتَقِدُ السَّلَفِ - أهل السُنَّة والجماعة - عن غيرهم في الألوهية؛ فلا يعنون كما يعني البعض أنَّ معنى التوحيد أَنَّهُ لا خالق إلا الله فحسب؛ بل إن توحيد الألوهية عندهم لا يتحقق إلا بوجود أصليين: الأول: أَنْ تُصَرَفَ جميع أنواع العبادة له - سبحانه - دون ما سواه، ولا يُعْطَى المخلوق شيئاً من حقوق الخالق وخصائصه.

فلا يُعْبَدُ إلا الله، ولا يصلى لغير الله، ولا يُسَجَدُ لغير الله، ولا يُنْذَرُ لغير الله، ولا يُتَوَكَّلُ على غير الله، وإن توحيد الألوهية يقتضي إفراد الله وحده بالعبادة.

والعبادة: إما قول القلب واللسان وإمّا عمل القلب والجوارح.

قال تعالى: {قُلْ إِنْ صَلَّيْتُمْ وَنُسَكِيْتُمْ وَنَمَّيْتُمْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣] وقال. سبحانه: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر: ٣]

الثاني: أَنْ تكون العبادة موافقة لما أمر الله تعالى به، وأمر رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فتوحيد الله سبحانه بالعبادة والخضوع والطاعة هو تحقيق شهادة أن: (لَا إِلَهَ إِلَّا الله) .

ومتابعة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والإذعان لما أمر به ونهى عنه هو تحقيق أن: (مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ).

فمنهج أهل السنة والجماعة: أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الله تعالى ولا يشركون به شيئاً، فلا يسألون إلا الله، ولا يستعينون إلا

بالله، ولا يستغيثون إلا به سبحانه، ولا يتوكلون إلا عليه جلَّ وعلا، ولا يخافون إلا منه، ويتقربون إلى الله تعالى

بطاعته، وعبادته، وبصالح الأعمال، قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء: ٣٦] .

٣ - توحيد الأسماء والصفات: معناه الاعتقاد الجازم بأنَّ الله - عزَّ وجلَّ - له الأسماء الحسنى والصفات العلى،

وهو مُتَّصِفٌ بجميع صفات الكمال، ومنزَّهٌ عن جميع صفات النقص، متفردٌ بذلك عن جميع الكائنات.

مع الرضا بما اتى وما نُقِلَ

ثم الملاك^(١) والكتاب^(٢) والرُّسُل^(١)

١ - الركن الثاني من اركان الايمان:- الايمان بالملائكة .

وهو الإِيمان بوجودهم إيماناً جازماً لا يتطرق إليه شك، ولا ريب، قال الله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [البقرة: ٢٨٥]

فمن ينكر وجود الملائكة؛ فقد كفر، لقوله تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١٣٦]

فأهل السنة والجماعة: يؤمنون بهم إجمالاً، وأما تفصيلاً فما صح به الدليل، ومن سمّاه الله ورسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - منهم كجبريل الموكّل بالوحي، وميكائيل وإسرافيل وملك الموت الموكّل بقبض الأرواح، ومالك خازن النار وملك القبر .

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بوجودهم، وأنّهم عباد مخلوقون، خلقهم الله من نور، وهم ذوات محسوسة، وليسوا أموراً معنوية، ولا قوى خفية، وهم خلق من خلق الله، يسكنون السماء.

والملائكة خلقتهم عظيمة، منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، وثبت أن جبريل - عليه السلام - له ستمائة جناح.

وهم جند من جنود الله، قادرون على التمثيل بأمثال الأشياء، والتشكّل بأشكال جسمانية؛ حسبما تقتضيها الحالات التي يأذن بها الله - سبحانه وتعالى - وهم مقربون من الله ومكرمون، لا يوصفون بالذكورة والأنوثة، ولا يتناكحون، ولا يتناسلون.

والملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وإنّما شغلهم التسبيح والتهليل ولا يملون، ولا يفترّون، ولا يتعبون، ويتصفون بالحسن، والجمال، والحياء، والنظام.

والملائكة يختلفون عن البشر؛ بأنّهم جُبلوا على الطاعة وعدم العصيان، خلقهم الله لعبادته وتنفيذ أوامره، قال تعالى عنهم: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ - لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ - يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨]

والملائكة يسبحون الله ليلاً ونهاراً، ويطوفون بالبيت المعمور في السماء، وهم يخشون الله تعالى ويخافونه.

٢ - الركن الثالث من اركان الايمان : الإِيمان بالكتب المنزلة على انبياء الله تعالى :

فأهل السنة والجماعة: يؤمنون بالله ويعتقدون اعتقاداً جازماً أن الله - عزّ وجلّ - أنزل على رُسُلِهِ كُتُباً فيها: أمره، ونهيه، ووعدته ووعدته، وما أرادته الله من خلقه، وفيها هدى ونور، قال تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [البقرة: ٢٨٥] .

وَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ عَلَى رَسُولِهِ لَهْدَايَةَ الْبَشَرِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: {الرَّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [إبراهيم: ١] .

وهذه الكتب هي: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وأعظمها التوراة والإنجيل والقرآن، وأعظم الثلاثة وناسخها وأفضلها هو القرآن. وعندما أنزل الله الكتب - عدا القرآن - لم يتكفل بحفظها؛ بل استُحفظَ عليها الأحرار والربانيون، لكنهم لم يحافظوا عليها، وما رعوها حق رعايتها، فحصل فيها تغيير وتبديل.

١ - الركن الرابع من أركان الإيمان: الإيمان بالرسول.

أهل السنة والجماعة: يؤمنون ويعتقدون اعتقاداً جازماً أَنَّ اللَّهَ - سبحانه - أرسل إلى عباده رُسُلاً مبشرين ومنذرين، ودعاة إلى دين الحق، لهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

فكانت دعوتهم إنفاذا للأمر من الشرك والوثنية، وتطهيراً للمجتمعات من التحلل والفساد، وأنهم بلغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وقد جاؤوا بمعجزات باهرات تدل على صدقهم، ومن كفر بواحد منهم؛ فقد كفر بالله تعالى وجميع الرسل عليهم السلام، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا - أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا - وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ١٥٠ - ١٥٢] .

وقد بين الله الحكمة من بعثة الرسل الكرام، فقال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: ١٦٥] .

ولقد أرسل الله رُسُلاً وأنبياء كثيرين منهم من ذكره لنا في كتابه أو على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم - ومنهم من لم يخبرنا عنهم، قال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} [غافر: ٧٨] .

وقال: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]

والمذكور من أسمائهم في القرآن الكريم خمسة وعشرون رسولاً ونبياً، وهم: أبو البشر آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، شعيب، أيوب، ذو الكفل، موسى، هارون، داود، سليمان، إلياس، اليسع، يونس، زكريا، يحيى، عيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد فَضَّلَ الله تعالى بعض الأنبياء والرسل على بعض، وقد أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل من الأنبياء، والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم، وأفضل الرسل والأنبياء أولو العزم، وهم خمسة: محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأفضل أولي العزم نبي الإسلام، وخاتم الأنبياء والمرسلين ورسول رب العالمين؛ محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال الله تبارك وتعالى: {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠].

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بهم جميعاً من سمي الله منهم ومن لم يُسم، من أولهم آدم عليه السلام. . . إلى آخرهم وخاتمهم وأفضلهم نبينا محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم أجمعين.

والإيمان بالرسل إيمان مُجْمَلٌ، والإيمان بنبيينا محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - إيمان مُفَصَّل يقتضي ذلك منهم اتباعه فيما جاء به على وجه التفصيل.

والركن الخامس من اركان الايمان (وسيأتي ذكره لاحقاً في النظم) : الإيمان باليوم الآخر

فأهل السنة والجماعة : يعتقدون ويؤمنون باليوم الآخر ، ومعناه الاعتقاد الجازم والتصديق الكامل ؛ بيوم القيامة ، والإيمان بكل ما أخبر به الله - عز وجل - في كتابه الكريم ، وأخبر به رسوله الأمين - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - مما يكون بعد الموت ، وحتى يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار .

لقد أكد الله - سبحانه وتعالى - ذكر اليوم الآخر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة وربط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله .

قال تعالى : { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } [البقرة : ٤].

وأهل السنة والجماعة : يؤمنون بأن وقت قيام الساعة علمه عند الله تعالى ، لا يعلمه أحد إلا الله ، قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ } [لقمان : ٢٤].

وإذا كان الله قد أخفى وقت وقوع الساعة عن عباده ، فإنه قد جعل لها أمارات وعلامات وأشراطاً تدلُّ على قرب وقوعها .

ويؤمنون بكل ما يقع من أشراط الساعة الصغرى والكبرى التي هي أمارات على قيام الساعة لأنها تدخل في الإيمان باليوم الآخر .

والركن السادس من اركان الايمان (وسيأتي ذكره في النظم لاحقاً ايضاً) : الإيمان بالقدر خيره وشره .

فأهل السنة والجماعة : يعتقدون اعتقاداً جازماً أن كل خيرٍ وشرٍ يكون بقضاء الله وقدره ، وأن الله فعال لما يريد فكل شيء بإرادته ولا يخرج عن مشيئته وتدبيره ، وعلم كل ما كان وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل ، وقدر المقادير للكائنات حسبما سبق به علمه واقتضته حكمته ، وعلم أحوال عباده ، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم ، وغير ذلك من شؤونهم ؛ فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته . وملخصه : هو ما سبق به

وما أتى من أثرٍ صحيح

من الكتاب المحكم الفصيح

الا لشخصٍ عابثٍ جهول

من لا مناص منه في القبول

اذ الهدى في وحيه قد ضُمنّا^(١)

فمن يحد عن وحيه قد فُتْنَا

العلم وجرى به القلم ، مما هو كائن إلى الأبد ، قال تعالى : { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا } [الاحزاب : ٣٨] وقال : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر : ٤٩] .
وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مِنَ اللَّهِ ، وَحَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْهُ ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ » (رواه الترمذي وصححه الالباني) .

^١ — قبول ما نطق به كتاب الله تعالى وصحت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه و سلم لا معدل عن ما ورد به ولا سبيل إلى رده إذ كانوا مأمورين باتباع الكتاب والسنة مضمونا لهم الهدى فيهما مشهودا لهم بأن نبيهم صلى الله عليه و سلم يهدي إلى صراط مستقيم محذرين في مخالفته الفتنة والعذاب الأليم ولا شك أن اعتقاد أهل السنة والجماعة هو اعتقاد الرسل جميعاً ، فرسل الله تعالى من أولهم إلى آخرهم على عقيدة واحدة ، ولم يختلف واحد منهم عن الآخر في أمر العقيدة ، بل كلهم عقيدتهم واحدة ، وما ذاك إلا أن هذه العقيدة التي يدعون إليها ويوصلونها هي مما يتعلق بالأمور الغيبية وما ينتج عنها من الآثار الحسنة .
من عهد آدم عليه السلام ، ومرورا بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وانتهاء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء جميعا وغيرهم من الأنبياء ، جاءوا بدين واحد ، وهو دين التوحيد والاستسلام والانقياد لأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه ، وإن اختلفت شرائعهم في بعض الجزئيات والفرعيات ، كما قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الانبياء : ٢٥] . والأدلة على أن دين الله الحق واحد وهو الإسلام الذي جاء به أنبياء الله جميعا كثيرة ، فمن ذلك قول الله تعالى : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [الشورى : ١٣] . ومنها قوله تعالى : { وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ }* إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ* أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة : ١٣٠-١٣٣] .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (نحن -معاشر الأنبياء- أولاد علات، ديننا واحد)، وأولاد العلات هم الذين أبوهم واحد وأمهااتهم شتى، بمعنى أن أصل الدين الذي هو العقيدة متفق عليه بين أنبياء الله كلهم متقدمهم ومتأخرهم، وأما الشرائع والفروع فيحصل بينها اختلاف بحسب المناسبات: { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا } [المائدة: ٤٨]، ولكن أمر العقيدة مما هم متفقون فيه.

عقيدة الأنبياء جميعاً واحدة وهي التوحيد الخالص لله عز وجل، ونبد الشرك؛ مصداقاً لقول النبي محمد ﷺ: "الأنبياء إخوة لعلات، دينهم واحد وأمهااتهم شتى" (أي عقيدتهم واحدة وشرائعهم مختلفة). فكل الشرائع السماوية نزلت لترسيخ أصول الإيمان الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

أما اختلاف الشرائع (كعدد الصلوات، وطريقة الصيام، أو تفاصيل الحلال والحرام)، فهو راجع لحكمة الله تعالى في مراعاة أحوال كل أمة وزمانها، بينما العقيدة والتوحيد هما الثابت الذي لا يتغير.

وقد اتفقت الكتب المنزلة على أصول العقائد، فلا يزداد فيها ولا ينقص؛ ولهذا النسخ يمكن أن يدخل في الأحكام، يشرع الله - عز وجل - هذا الأمر، هذا الحكم، ثم ينسخه بحكم آخر، أما أمور العقائد فلا، لا يدخلها النسخ؛ لأنها أمور قائمة على الخبر، على الغيب، فلا يدخلها النسخ.

والأصل في عقيدة اهل السنة والجماعة أنها علوم مستوحاة من كتاب الله تعالى ومما جاء به النبي الاكرم محمد صلى الله عليه وسلم.

فمما يميز اهل السنة والجماعة اقتصارهم في التلقي على الكتاب والسنة لانهما معصومان ، والاهتمام بهما والتسليم لتوصيهما ، وفهمهما على مقتضى منهج السلف .

فمن أصول عقيدة السلف الصالح ؛ أهل السنة والجماعة : في منهج التلقي والاستدلال اتباع ما جاء في كتاب الله - عز وجل - وما صح من سنة نبيه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ظاهراً وباطناً ، والتسليم لهما ، قال الله تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الاحزاب ٣٦].

وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُم بِهِمَا : كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ » (رواه الحاكم وصححه الالباني).

وقال النبي ﷺ: ((تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي)) (رواه مالك في الموطأ). وأهل السنة والجماعة :

لا يقولون كتاب الله ثم سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - بل كتاب الله وسنة رسوله معا لأن السنة مقرونة مع كتاب الله ، ولأن الله فرض طاعة رسوله ، وسنته - صلى الله عليه وسلم - مبينة للمعنى الذي أراده الله .

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: "من لم يعتمد في دينه على كتاب الله وسنة رسوله، بل اعتمد على رأيه أو كلام شيخه أو مذهبه، فقد ضلّ سواء السبيل". (مجموع الفتاوى ١٨/١١).

فالسنة شارحة للقرآن ومبيّنة له ومفصلة لأحكامه، وهي وحي من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم]

واعتقاد اهل السنة والجماعة مبني على الاستسلام للنص الصحيح فالدين لا يقوم الا على قم التسليم لله ورسوله قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} وأكد التسليم بالمصدر تحقيقاً له، وأنه لا يحصل تمام الإيمان إلا بالتسليم التام لما جاء عن الله وعن رسوله، وكل من عارض كلام الله وكلام رسوله بالشبه والعقول الفاسدة والآراء الباطلة لم يحصل له الثبات على الإسلام.

قال ابن القيم في التبيان : " أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع، وأحكام الشرع وأحكام المعاد، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح، وتقبله كل القبول، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضا والتسليم، وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض " .

ولما كان اعتقاد اهل السنة والجماعة متعلق بالايمان بالغيبيات وطريقها كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام فقد سمى طائفة من العلماء ممن صنفوا في التوحيد كتبهم السنة، وهي كثيرة جداً كالسنة لعبد الله بن الإمام أحمد، والسنة للخلال، والسنة لابن أبي عاصم، والسنة للطبراني، وكذلك السنة في كتب الحديث -يعني في أثناء الكتاب- قد يُؤبَّ بعضهم بكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة أو السنة أو ما أشبه ذلك.

فقد كان السلف الأول يتلقى معرفة العقيدة الصحيحة من الكتاب و السنة مباشرة ، ثم حدث نزاع بين أهل الحديث و الأشاعرة في مصدر تلقيها ، هل هو النقل ، أم العقل ، أم الوجدان ؟ ، و بمعنى آخر هل مصدر التلقي هو الله تعالى ، أم الإنسان ؟ فأهل الحديث سبق أن ذكرنا مرارا ، إنهم لا يُثبتون من الصفات إلا ما أثبتته الشرع ، فهو مصدر التلقي الوحيد عندهم فيما يخص صفات الله تعالى . و أما الأشاعرة فقدموا العقل على النقل في مسألة الصفات ، فنفت الأشعرية المتقدمة قيام الأفعال الاختيارية بذات الله و أولت صفة الكلام ، ثم لما ظهرت الأشعرية المتأخرة زادت على ذلك بتأويل الصفات الخبرية ، و الاكتفاء بإثبات سبع صفات سمتها عقلية ، و قلة منهم -أي الأشاعرة- اتخذت الوجدان مصدرا للتلقي و قدمته على النقل و العقل معا (انظر درء التعارض لابن تيمية ، ج ٥ ص: ٣٢٨).

وكذلك غلاة الصوفية الذين عندهم مصدر التلقي عندهم ليس القرآن والسنة بل يقوم على الرؤى والأحلام، والكشف، وغير ذلك مما يخالف ما جاء في القرآن.

فالحجة للكتاب والسنة لا للرأي والعقل: ولقد عارض أهل الأهواء الكتاب والسنة معتمدين على تحكيم عقولهم وآرائهم، مما أدى إلى انحرافهم وضلالهم.

وقد وقف علماء هذه الأمة يردون على المبتدعة هؤلاء ويبينون لهم الطريق الأقوم... مع العلم بأن العقل السليم قلما يتعارض مع النقل الصحيح.

قال شارح الطحاوية: ((إذا تعارض العقل والنقل، وجب تقديم النقل، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، ورفضهما رفض النقيضين، وتقديم العقل ممتنع لأن العقل قد دل على صحته السمع، ووجب قبول ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم)).

فالأصل عند المسلمين عند التلقي هو القرآن والسنة وهما معيار على العقل. قال ابن عبد البر في علوم القرآن: ((واعلم يا أخي أن السنة والقرآن هما أصل الرأي والمعيار عليه، وليس الرأي بالمعيار على السنة، بل السنة معيار عليه، ومن جهة الأصل لم يصل الفرع أبداً...)) وقال أيضاً: ((من عارض السنن برأيه ورام أن يردّها إلى مبلغ نظره فهو ضال مضل)).

فمصدر التلقي عند أهل الحديث كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. وإذا سلم للإنسان مصدره سلم له. تبعاً لذلك. إيمانه ومعتقدده، فمن كان مصدره في الاعتقاد: الكتاب والسنة سلم له اعتقاده. ومن اتخذ لنفسه مصدراً سواهما ضل وانحرف.

يقول ابن القيم. رحمه الله: "كثيراً ما كان شيخ الإسلام. رحمه الله. يقول: من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم" (المستدرك على مجموع الفتاوى).

ولابن أبي العز الحنفي كلمة جميلة، يقول فيها: "كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم" (شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٢)). أي أن هذا محال، فلا يمكن للعبد أن يصل إلى الأصول التي هي العقيدة الصحيحة السليمة إلا من طريق الرسول صلى الله عليه وسلم؛ بأن يأخذ عقيدته من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ولهذا اعتنى السلف. رحمهم الله. بافتتاح مؤلفاتهم في المعتقد بالإرشاد إلى هذا المصدر؛ تنبيهاً للمسلم وطالب العلم إلى أهمية إقامة المعتقد على هذا المصدر؛ ليسلم له معتقده. فليس المعتقد للرجال، ولا لآرائهم وأقوالهم، ولا لأذواقهم ومواجيدهم وأهوائهم، وإنما المعتقد يؤخذ عن الله عز وجل وعند رسوله المبلغ عنه قال تعالى: {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ}.

كما قال الأوزاعي. رحمه الله: "ندور مع السنة حيث دارت" (رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (١/٦٤)). أي نفيًا وإثباتًا، ما ثبت في الكتاب والسنة أثبتناه، وما نفي في الكتاب والسنة نفينا. ويقول الإمام أحمد. رحمه الله: "لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، لا نتجاوز القرآن والحديث

وما أتى في مُحكم الآيات (١)

من سائر الاسماء (١) والصفات (١)

" (انظر: اقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات ص ٢٣٤ لمرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (المتوفى: ١٠٣٣ هـ)).

١ - قال تعالى : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [آل عمران/٧].

المراد منه أن القرآن الكريم فيه المحكم والمتشابه ، والمحكم هو البين الواضح الذي لا يلبس أمره ، وهذا هو الغالب في القرآن ، فهو أم الكتاب وأصل الكتاب ، وأما المتشابه ، فهو الذي يشبه أمره على بعض الناس دون بعض ، فيعلمه العلماء ولا يعلمه الجاهل ، ومنه ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

وأهل الحق يردون المتشابه إلى المحكم ، وأما أهل الزيغ فيتبعون المتشابه ، ويعارضون به المحكم ، ابتغاء الفتنة ، وجريا خلف التحريف والتضليل .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٦/٢) : " يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب ، أي : بينات واضحات الدلالة ، لا التباس فيها على أحد من الناس ، ومنه آيات آخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه ، وحكم محكمه على متشابهه عنده ، فقد اهتدى . ومن عكس انعكس ؛ ولهذا قال تعالى : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ } أي : أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه { وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } أي : تحتل دلالته موافقة المحكم ، وقد تحتل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد ...

{ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ } أي : ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ أي : إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها ، لاحتمال لفظه لما يصرفونه ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ؛ لأنه دامج لهم وحجة عليهم ، ولهذا قال : { ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ } أي : الإضلال لأتباعهم ، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهذا حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى : { إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ } [الزخرف : ٥٩] وبقوله : { إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [آل عمران : ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله ، وعبد ، ورسول من رسل الله .

وقوله : { وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ } أي : تحريفه على ما يريدون " انتهى .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : " قسم الله تبارك وتعالى القرآن الكريم إلى قسمين : محكم ومتشابه ، والمراد بالمحكم هنا الواضح البين الذي لا يخفى على أحد معناه مثل السماء والأرض والنجوم والجبال والشجر والدواب وما أشبهها ، هذا محكم ؛ لأنه لا اشتباه في معناه ، وأما المتشابهات فهي الآيات التي يشتهب معناها ويخفى على أكثر الناس ولا يعرفها إلا الراسخون في العلم ، مثل بعض الآيات المجملة التي ليس فيها تفصيل ، فتفصلها السنة مثل قوله تعالى { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } فإن إقامة الصلاة غير معلومة ، والمعلوم من هذه الآية وجوب إقامة الصلاة فقط ، لكن كيف الإقامة ، هذا يعرف من دليل آخر ، والحكمة من أن القرآن نزل على هذين الوجهين الابتلاء والامتحان ؛ لأن من في قلبه زيغ يتبع المتشابه ، فيبقى في حيرة من أمره ، وأما الراسخون في العلم فإنهم يؤمنون به كله ، متشابهه ومحكمه ، ويعلمون أنه من عند الله وأنه لا تناقض فيه . ومن أمثلة المتشابه : قول الله تبارك وتعالى { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْصَحُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } مع قوله { يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا } فيأتي الإنسان ويقول : هذا متناقض كيف يقولون { وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } ثم يقال عنهم إنهم { لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا } فيضرب الآيات بعضها ببعض ؛ ليوقع الناس في حيرة ، لكن الراسخين في العلم يقولون : كله من عند الله ولا تناقض في كلام الله ، ويقولون : إن يوم القيامة يومٌ مقداره خمسون ألف سنة ، فتتغير الأحوال وتبديل ، فتُنزل هذه على حال وهذه على حال " انتهى من "فتاوى نور على الدرب".

وقال أيضا : " وأما أهل الضلال والزيغ فاتبعوا المتشابه وجعلوه مثارا للشك والتشكيك فضلوا ، وأضلوا وتوهموا بهذا المتشابه مالا يليق بالله عز وجل ولا بكتابه ولا برسوله .

مثال الأول : قوله تعالى : { إنا نحن نحيي الموتى } . وقوله : { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } ونحوهما مما أضاف الله فيه الشيء إلى نفسه بصفة الجمع ، فاتبع النصراني هذا المتشابه وادعى تعدد الآلهة وقال : إن الله ثالث ثلاثة ، وترك المحكم الدال على أن الله واحد .

وأما الراسخون في العلم : فيحملون الجمع على التعظيم لتعدد صفات الله وعظمتها ، ويردون هذا المتشابه إلى المحكم في قوله تعالى : { وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو } . ويقولون للنصراني : إن الدعوى التي ادعيت بما وقع لك من الاشتباه قد كفرك الله بها وكذبك فيها فاستمع إلى قوله تعالى : { لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد } أي كفروا بقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .

ومثال الثاني : قوله تعالى : لنبيه صلى الله عليه وسلم : { إنك لا تهدي من أحببت } وقوله : { وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم } ففي الآيتين موهم تعارض ، فيتبعه من في قلبه زيغ ويظن بينهما تناقضا وهو النفي في الأولى ، والإثبات في الثانية . فيقول : في القرآن تناقض .

وأما الراسخون في العلم فيقولون : لا تناقض في الآيتين فالمراد بالهداية في الآية الأولى هداية التوفيق ، وهذه لا يملكها إلا الله وحده فلا يملكها الرسول ولا غيره . والمراد بها في الآية الثانية هداية الدلالة وهذه تكون من الله

تعالى ، ومن غيره فتكون من الرسل وورثتهم من العلماء الربانيين ... " انتهى من "مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين" (١٨٦/٤).

وهذه كلها أمثلة للمتشابهة النسبي الذي يخفى على بعض الناس ، ويعلمه الراسخون في العلم ، وأما المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله فمثل حقيقة وكيفية صفات الله تعالى ، وحقيقة ما يكون عند الله تعالى من نعيم لأهل الجنة ، وعذاب لمن عصاه ؛ فهذا كله لا يعلمه إلا الله .
ثانياً :

من التبس عليه أمر شيء من المتشابه ، فليرده إلى المحكم ، إن كان من أهل العلم القادرين على الاستدلال والاستنباط ، وإلا فليسأل أهل العلم ، كما قال تعالى : { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [النحل/٤٣] وليقل في كل حال : { آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا } .

وقد عمد قوم من أهل الزيغ والزندقة قديماً وحديثاً إلى تتبع المتشابهة من القرآن والسنة ، ابتغاء الفتنة والتشكيك ، وتصدى أهل العلم لذلك ، وألفوا مؤلفات نافعة في رد هذا التشكيك ، ومن ذلك ما ألفه الإمام ابن قتيبة رحمه الله بعنوان : تأويل مختلف الحديث . وما ألفه الشيخ الأمين الشنقيطي رحمه الله بعنوان : دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب .

فليس بحمد الله بين آيات الكتاب تناقض ولا اضطراب ، وليس بين السنة والقرآن تعارض ؛ لأن الأمر كله من عند الله ، وقد قال سبحانه : { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } [النساء/٨٢] .

١ — قال الله تعالى : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } [الأعراف: ١٨٠] ، والأسماء الحسنى هي التي سمى الله بها نفسه ، وهي التي بلغت النهاية في الحسن ، فهي حسنة كلها ليس فيها ما هو غير حسن وما هو موصوف بالقبح .

وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن لله تسعة وتسعين اسماً -مائة إلا واحداً- من أحصاها دخل الجنة) ، فلما روى هذا الحديث عمد بعض الرواة وجمعوها من القرآن ، فبلغت تسعة وتسعين اسماً ، وأخذوا الأسماء التي في آخر سورة الحشر { هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ } [الحشر: ٢٢-٢٤] ، ثم جمعوا من مواضع من القرآن الغفار ، والقهار ، والوهاب ، والعليم ، والقباض ، والباسط ، والرزاق ، والفتاح ، والعليم إلى آخرها . ولكن الصحيح أن أسماء الله تعالى لا تحصر في هذه التسعة والتسعين ، بل أسماء الله كثيرة وليست بهذا المقدار ، والدليل على هذا ما رواه أحمد رحمه الله ، وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا أصاب أحدكم هم أو غم فليقل : اللهم ! إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل

كذلك وصف المصطفى للباري^(٢)

فردّه من سُنَّة الاشرار^(١)

اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً)، فذكر في هذا الحديث قوله: (أو استأثرت به في علم الغيب عندك) فدل على أن الله سبحانه له أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده ولم يطلع عليها أحداً. أما الدعاء بها فهو فهم سؤال الله بأسمائه، وجعل الأسماء وسيلة، إذا أردت أن تدعو الله فإنك تقدم بين يدي الدعاء ذكراً للأسماء، فتقول: يا رحيم! يا رحمن! ارحمنا برحمتك. فهذا معنى (فادعوها بها)، ويمكن أن يكون الدعاء هو أن يقدم بين يديه الشاء على الله تعالى بها، وأفضل ما يثنى به عليه ذكره بأسمائه الحسنی.

^١ — فيجب على المسلم ان يؤمن بالصفات في التي وصف بها نفسه ووصفه بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، ذلك إن الله تعالى أعلم بنفسه وأعلم بغيره، فإذا كان أعلم بنفسه وأثبت لنفسه صفاتاً فإننا نشتها ولا نتحاشى من إثباتها، بل نؤمن بها حقاً ونعتقد صحتها وموافقها لعقيدة المسلمين مهما شنع المشنعون أو أنكر المنكرون، وكذلك ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لأنه أعلم بربه، وبمن أرسله، فالله تعالى خصه بالرسالة وأطلع على ما أطلع من العلم، وكلفه بالبيان والبلاغ، فلا بد من أنه عالم بربه وعالم بما يجوز على الله تعالى، فإذا أثبت لله تعالى صفة أو صفات فإننا نتقبلها ولا نردها؛ لأننا إذا رددناها فقد رددنا ما بلغه أو جاء به، فنكون من الذين لم يتبعوه ولم يتقبلوا سنته، فلا يتحقق لنا الاتباع في قوله: { وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [الأعراف: ١٥٨]. وقد سرد شيخ الإسلام ابن تيمية في أول كتابه (العقيدة الواسطية) في ثلاث ورقات آيات فيها الصفات، والأسماء، فيسرد مثلاً آيات العزة، ثم يأتي بآيات الحكمة، ثم الرحمة، ثم الأفعال، كآيات المكر والكيد والأسف في قوله: { فَلَمَّا آسَفُونَا } [الزخرف: ٥٥]، وكذلك آيات الكلام، والمجيء، والاستواء، والعلو، والمعية، وما أشبهها، وكذلك الأحاديث التي ورد فيها شيء من الصفات، مثل أحاديث النزول، والضحك، والعجب، والفرح، والأسماء، والأفعال، والرؤية، وما أشبهها، وكلها نتقبلها، وذلك لأن الذي بلغها هو الذي بلغ الرسالة كلها، فإذا قبلنا الأحكام أو الصلاة والصيام والحج والجهاد ونحوها فإننا نقبل العقيدة التي هي أساس الأعمال، والتي صحتها شرط لقبول الأعمال، فنقبل ما جاءنا من الآيات والأحاديث في أمر صفات الله تعالى حتى تصح عقيدتنا ثم تصح أعمالنا وتقبل.

^٢ — قال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — في مقدمة العقيدة الواسطية: "ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل

يؤمنون بأنَّ الله - سبحانه - {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، لأنه - سبحانه - لا سمِّي له ولا كُفِيَ ولا ندَّ له، ولا يقاس بخلقه - سبحانه وتعالى -، فإنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قِيلاً وأحسن حديثاً من خلقه، ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ولهذا قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.

وهو - سبحانه - قد جمع فيما وصف وسمي به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين".

١ - توحيد الأسماء والصفات: هو جعل الله تعالى واحداً لا مثل له في أسمائه وصفاته كما قال {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١] وكما قال {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤]، وكما قال {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: ٦٥].

فمن اصول الايمان الإيمان بما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه ووصف به رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وإمرارها كما جاءت بلا كيف ، كما جمع الله تعالى بين إثباتها ونفي التكيف عنها في كتابه في غير موضع كقوله تعالى : { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } ، وقوله تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ، وقوله تعالى : { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }.

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " العلم بالله وما يستحقه من الأسماء والصفات لا ريب أنه مما يفضل الله به بعض الناس على بعض ، أعظم مما يفضلهم بغير ذلك من أنواع العلم.

ولا ريب أن ذلك يتضمن من الحمد لله ، والثناء عليه، وتعظيمه وتقديسه، وتسبيحه وتكبيره ما يعلم به أن ذلك مما يحبه الله ورسوله." انتهى من "درء تعارض العقل والنقل" (١٢٩/٧).

ومتى تفكر العبد فيما ينبغي لله جل جلاله من ذلك ، وطرق باب معرفته سبحانه من حيث أمر ، فتح عليه من أبواب المعرفة والعبودية بحسب ما وفق له من ذلك ؛ فمن مقل ومستكثر.

• قال ابن القيم رحمه الله : "الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ ، وَقَدْ تَجَلَّى اللَّهُ فِيهِ لِعِبَادِهِ بِصِفَاتِهِ:

فَتَارَةً يَتَجَلَّى فِي جَلْبَابِ الْهَيْبَةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ ، فَتَخْضَعُ الْأَعْنَاقُ وَتَنْكَسِرُ النُّفُوسُ وَتَخْشَعُ الْأَصْوَاتُ ، وَيَذُوبُ الْكِبَرُ كَمَا يَذُوبُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ.

وَتَارَةً يَتَجَلَّى فِي صِفَاتِ الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ ، وَهُوَ كَمَالُ الْأَسْمَاءِ ، وَجَمَالُ الصِّفَاتِ ، وَجَمَالُ الْأَفْعَالِ الدَّالُّ عَلَى

كَمَالِ الذَّاتِ ؛ فيستنفد حُبُّهُ من قلب العَبْدِ قُوَّةَ الْحُبِّ كُلِّهَا ، بحسب مَا عرفه من صِفَاتِ جَمَالِهِ ونَعُوتِ كَمَالِهِ ،
فَيُصْبِحُ فُؤَادَ عَبْدِهِ فَارِعًا إِلَّا مِنْ مَحَبَّتِهِ...

وَإِذَا تَجَلَّى بِصِفَاتِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرِّ وَاللُّطْفِ وَالْإِحْسَانِ ، انبَعَثَتْ قُوَّةُ الرَّجَاءِ مِنَ الْعَبْدِ وَانْبَسَطَ أَمَلُهُ ، وَقَوِيَ طَمَعُهُ ،
وَسَارَ إِلَى رَبِّهِ وَحَادَى الرَّجَاءَ يَخْذُو رِكَابَ سِيرِهِ ، وَكَلِمَا قَوِيَ الرَّجَاءُ جَدَّ فِي الْعَمَلِ ، كَمَا أَنَّ الْبَادِرَ كُلَّمَا قَوِيَ طَمَعُهُ
فِي الْمَغْلِ ، غَلَّقَ أَرْضَهُ بِالْبَذْرِ ، وَإِذَا ضَعُفَ رَجَاؤُهُ قَصَرَ فِي الْبَذْرِ .

وَإِذَا تَجَلَّى بِصِفَاتِ الْعَدْلِ وَالْإِنْتِقَامِ وَالْغَضَبِ وَالسُّخْطِ وَالْعَقُوبَةِ ، انْقَمَعَتِ النَّفْسُ الْأَمَارَةُ ، وَبَطَلَتْ أَوْ ضَعُفَتْ
قُوَاهَا مِنَ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ وَاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالْحَرَصِ عَلَى الْمَحْرَمَاتِ...

وَإِذَا تَجَلَّى بِصِفَاتِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْعَهْدِ وَالْوَصِيَّةِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنزَالِ الْكُتُبِ وَشَرْعِ الشَّرَائِعِ ، انبَعَثَتْ مِنْهَا قُوَّةُ
الْإِمْتِثَالِ وَالتَّنْفِيزِ لِأَمْرِهِ ، وَالتَّبْلِيغِ لَهَا وَالتَّوَاصِي بِهَا ، وَذِكْرُهَا وَتَذَكُّرُهَا ، وَالتَّصَدِيقُ بِالْخَبَرِ ، وَالْإِمْتِثَالُ لِلطَّلَبِ ،
وَالْاجْتِنَابُ لِلنَّهْيِ .

وَإِذَا تَجَلَّى بِصِفَةِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعِلْمِ انْبَعَثَتْ مِنَ الْعَبْدِ قُوَّةُ الْحَيَاءِ ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ أَنْ يَرَاهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ ، أَوْ
يَسْمَعُ مِنْهُ مَا يَكْرَهُ ، أَوْ يَخْفِي فِي سَرِيرَتِهِ مَا يَمْقَتُهُ عَلَيْهِ ، فَتَبْقَى حَرَكَاتُهُ وَأَقْوَالُهُ وَخَوَاطِرُهُ موزونة بميزان الشَّرْعِ ،
غَيْرَ مُهْمَلَةٍ وَلَا مُرْسَلَةٍ تَحْتَ حُكْمِ الطَّبِيعَةِ وَالْهَوَى .

وَإِذَا تَجَلَّى بِصِفَاتِ الْكِفَايَةِ وَالْحَسْبِ وَالْقِيَامِ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ وَسَوْقِ أَرْزَاقِهِمْ إِلَيْهِمْ ، وَدَفْعِ الْمَصَائِبِ عَنْهُمْ ، وَنَصْرِهِ
لَأَوْلِيَائِهِ ، وَحِمَايَتِهِ لَهُمْ ، وَمَعِيَتِهِ الْخَاصَّةِ لَهُمْ : انبَعَثَتْ مِنَ الْعَبْدِ قُوَّةُ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالتَّفْوِيزِ إِلَيْهِ وَالرِّضَا بِهِ فِي كُلِّ
مَا يَجْرِيهِ عَلَى عَبْدِهِ ، وَيَقِيمُهُ فِيهِ ، مِمَّا يَرْضَى بِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ...

وَإِذَا تَجَلَّى بِصِفَاتِ الْعِزِّ وَالْكَبرِيَاءِ ، أَعْطَتْ نَفْسَهُ الْمَطْمَئِنَّةَ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ مِنَ الذِّلِّ لِعَظَمَتِهِ ، وَالْإِنْكَسَارَ لِعِزَّتِهِ ،
وَالْخُضُوعَ لِكِبْرِيَاءِهِ ، وَخُشُوعَ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ لَهُ ؛ فَتَعْلُوهُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ وَسَمْتِهِ ،
وَيَذْهَبُ طَيْشُهُ وَقُوَّتُهُ وَحَدَّتُهُ .

وَجَمَاعَ ذَلِكَ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْرِفُ إِلَى الْعَبْدِ بِصِفَاتِ إِلَهِيَّتِهِ تَارَةً ، وَبِصِفَاتِ رَبُوبِيَّتِهِ تَارَةً ؛ فَيُوجِبُ لَهُ شُهُودَ صِفَاتِ
الْإِلَهِيَّةِ الْمَحَبَّةِ الْخَاصَّةِ ، وَالشُّوقَ إِلَى لِقَائِهِ ، وَالْأَنَسَ وَالْفَرَحَ بِهِ ، وَالسُّرُورَ بِخِدْمَتِهِ ، وَالْمُنَافَسَةَ فِي قَرْبِهِ ، وَالتَّوَدُّدَ
إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ ، وَاللَّهَجَ بِذِكْرِهِ ، وَالْفِرَارَ مِنَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ ، وَيَصِيرُ هُوَ وَحْدَهُ هَمُّهُ دُونَ مَا سِوَاهُ .

وَيُوجِبُ لَهُ شُهُودَ صِفَاتِ الرَّبُوبِيَّةِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، وَالْإِفْتِقَارَ إِلَيْهِ ، وَالْإِسْتِعَانَةَ بِهِ ، وَالذِّلَّ وَالْخُضُوعَ وَالْإِنْكَسَارَ لَهُ .
وَكَمَالُ ذَلِكَ أَنَّ يَشْهَدَ رَبُوبِيَّتَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ ، وَإِلَهِيَّتَهُ فِي رَبُوبِيَّتِهِ ، وَحَمْدَهُ فِي مَلِكِهِ ، وَعِزَّهُ فِي عَفْوِهِ ، وَحِكْمَتَهُ فِي
قَضَائِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَنَعَمَتِهِ فِي بَلَاءِهِ ، وَعَطَاءِهِ فِي مَنَعِهِ ، وَبِرِّهِ وَلُطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي قِيُومِيَّتِهِ ، وَعَدْلَهُ فِي إِنْتِقَامِهِ ،
وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ فِي مَغْفِرَتِهِ وَسِتْرِهِ وَتَجَاوُزِهِ ، وَيَشْهَدُ حِكْمَتَهُ وَنَعَمَتَهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَعِزَّهُ فِي رِضَاؤِهِ وَغَضَبِهِ ، وَحِلْمِهِ
فِي إِمْهَالِهِ ، وَكَرَمِهِ فِي إِقْبَالِهِ ، وَغِنَاهُ فِي إِعْرَاضِهِ .

وَأَنْتَ إِذَا تَدَبَّرْتَ الْقُرْآنَ ، وَأَجْرَتَهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَأَنْ تَقْضِيَ عَلَيْهِ بَآرَاءَ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَأَفْكَارَ الْمُتَكَلِّفِينَ : أَشْهَدُكَ

وفي النزاع يا فتى فلتحتكم

الى القرون الفاضلات فالتزم^(١)

ملكا قيوما فوق سماواته على عَرْشه ، يدبر أمر عباده ، يَأْمُرُ وَيُنْهِي ، وَيُرْسِلُ الرُّسُلَ ، وَيَنْزِلُ الْكُتُبَ ، ويرضى ويغضب ، ويثيب ويعاقب ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ ، ويعز ويذل ، ويخفف ويرفع ، يرى من فوق سبع ويسمع ، ويعلم السرّ وَالْعَلَانِيَةَ ، فعّال لما يُريد ، مَوْصُوفٌ بِكُلِّ كَمَالٍ ، منزّه عن كل عيب ، لَا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلَا تَسْقُطُ وَرَقَةٌ إِلَّا بِعِلْمِهِ ، وَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، لَيْسَ لِعِبَادِهِ مِنْ دُونِهِ وَلِي وَلَا شَفِيعٌ . انتهى من "الفوائد"

^١ — السلف الصالح هم الصحابة والتابعون لهم بإحسان من أهل القرنين التاليين خاصة .

قال الشيخ ابن عثيمين : السلف معناه المتقدمون ، فكل متقدم على غيره فهو سلف له ، ولكن إذا أطلق لفظ السلف فالمراد به القرون الثلاثة الْمُفْضَلَةُ ، الصحابة والتابعون وتابعوهم ، هؤلاء هم السلف الصالح ، ومن كان بعدهم وسار على منهاجهم فإنه مثلهم على طريقة السلف ، وإن كان متأخراً عنهم في الزمن ، لأن السلفية تطلق على المنهاج الذي سلكه السلف الصالح رضي الله عنهم .

وكتاب الله تعالى وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هما الْعِصْمَةُ وَالنَّجَاةُ لِمَنْ اعْتَصَمَ وَتَمَسَكَ وعمل بهما بِفَهْمِ السلف الصالح .

قال اللالكائي : " فإن أوجب ما على المرء معرفة اعتقاد الدين ، وما كلف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته وتصديق رسله بالدلائل واليقين ، والتوصل إلى طرقها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين ، وكان من أعظم مقول ، وأوضح حجة ومعقول ، كتاب الله الحق المبين ، ثم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار المتقين ، ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون ."

• وقال ابن تيمية : والصواب في جميع مسائل النزاع : ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وقولهم هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والعقل الصريح .

• وقال السفاريني : المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام . رضوان الله عليهم . وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة ، وعُرفَ عِظَمُ شأنه في الدين ، وتلقى الناس كلامهم خلف عن سلف ، دون من رمي ببدعة ، أو شهر بلقب غير مرضي .

وقد أشار الشيخ ابن عثيمين إلى تناقض وبطلان قول من قال : " طريق السلف أسلم ، وطريق الخلف أحكم " بقوله : " أولاً : فيه تناقض ، لأنهم قالوا : طريق السلف أسلم ، ولا يُعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم وأحكم ، لأن الأسلم يستلزم أن يكون أعلم وأحكم ، فلا سلامة إلا بعلم بأسباب السلام ، وحكمة في سلوك هذه الأسباب . ثانياً : أين العلم والحكمة من التحريف والتعطيل ؟ . ثالثاً : يلزم منه أن يكون هؤلاء الخالفون أعلم بالله من رسوله

في ذاته ووصفه^(١) وما اتى

ليس كمثله الله شيءٌ يا فتى

اذ لا يحيط علمنا بما اتصف

في ذهن عبد ربنا عنه اختلف

حقيقة قد رُدَّ في الآيات^(١)

اذ علمنا كيفية الصفات

صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لأن طريقة السلف هي طريقة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.. فهذه العبارة باطلة حتى وإن أرادوا بها معنى صحيحاً.

الاعتصام بالكتاب والسنة، أصل من أصول أهل السنة، بل كل أصولهم ترجع إليه، ومن ثم يجب علينا أن نجعلهما . بفهم سلف هذه الأمة . منهجنا في حياتنا، وأن نعتصم ونتمسك بهما، وفي ذلك نجاة من الانحراف، وأمان من الضلال.

^١ — قال الله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}، وقال تعالى: {ولا يحيطون به علماً}، وقال تعالى: {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار} ، ففي هذه الآيات دلالة على ما يجب الإيمان به، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، من أنه تعالى لا مثل له، فليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا يحيط العباد به علماً ولا رؤية، وذلك يدل على امتناع العلم بكيفية ذاته، أو كيفية صفاته، فلا يعلم كيف هو إلا هو، ولا يعلم كيفية صفاته إلا هو، فالعباد لا يعلمون من شأن الله إلا ما علمهم، ولا يرونه إلا كيف شاء.

والقاعدة في باب الاسماء والصفات ان القول في الصفات كالقول في الذات

وبيانها : أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا صفاته ، ولا أفعاله . فإذا كان لله ذات حقيقية لا تماثل الذوات بلا خلاف فكذلك الصفات الثابتة له في الكتاب والسنة ، هي صفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات فالقول في الذات والصفات من باب واحد .

وهذه قاعدة عظيمة يناقش بها من ينكر الصفات مع إثباته الذات فإن إثبات الذات للرب عز وجل محل إجماع الأمة .

فإذا قال قائل : لا أثبت الصفات لأن في إثباتها تشبيهاً لله بخلقه .

يقال له : أنت تثبت لله ذاتاً حقيقية وتثبت للمخلوقين ذواتاً أفليس هذا تشبيهاً على قولك !! فإن قال : إنما أثبت ذاتاً لله لا تشبه الذوات ولا يسعه غير هذا . قيل له يلزمك هذا في باب الصفات فإن كانت الذات لا تشبه الذوات وهو حق فكذلك صفات الذات الإلهية لا تشبه الصفات . فإن قال : كيف أثبت صفة لا أعلم كيفيتها . قلنا : له كما تثبت ذاتاً لا تعلم كيفيتها .

١ - وينبغي أن نعلم أن عظمة الله في ذاته لا تُكَيَّف ولا تُحَدُّ ، لطلاقة الوصف وعجزنا عن معرفته ، فنحن لم

نره ولم نر له مثيل ، فالله عظيم في ذاته ووصفه وجلال قدره كما أخبر عن نفسه فالرب ؟ لا يمكن تَخْيُّله ، ولا يمكن أيضا أن يُفَكَّر فيه فَيُدْرَك .

وهذا معنى قول الله { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ } [الأنعام: ١٠٣] .

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) سبحانه، هنا الأبصار يأتي معنى البصر؛ هو سبحانه لا يحيط به البصر إذا رآه أهل الإيمان في الآخرة.

وفي الدنيا لا تدركه الأبصار أيضاً التي هي الرؤى والعيون، وكذلك الأبصار التي هي الأفهام والأوهام لا تدركه ؟ .
فالفهم إذاً منقطع، والوهم إذاً منقطع.

ولهذا قال بعض السلف (ما خطر ببالك فالله ؟ بخلافه)، لم؟

لأنه ذَكَرْتُ لك أنه لا يمكن أن يخطر ببالك ولا أن تتخيل إلا شيء مبني على نظرية المعرفة من قبل، وهذا مقطوعٌ يقيناً.

إذاً فصار الأمر أن إثبات الصفات لله ؟ بأنواعها مع قَطْع الطَّمَع في بلوغ الوهم لها من جهة الكيفية والكُنْه، وكذلك من جهة إدراك الأفهام لتمام معناها، فمن الجهتين:
؟ كنه الصفة - الكيفية - ...؟ وكذلك تمام المعنى.

هذا لا يمكن أن تبلغه الأوهام، ولا أن تدركه الأفهام. (اتحاف السائل للشيخ صالح ال الشيخ).

وقولهم : " كل ما خطر ببالك ، فالله بخلاف ذلك " ؛ يدخل فيه . بهذا الإطلاق . نفي قدر كبير من الحق ، فمن الحق أن يخطر بالبال أن الله سميع بصير حكيم خبير ، استوى على عرشه كيف شاء ، وهكذا سائر ما أثبتته الله لنفسه ، أو أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في نحو من ذلك المعنى :

" يؤكد ذلك أن حكم الوهم والخيال غالب على الآدميين في الأمور الإلهية ، بل وغيرها ؛ فلو كان ذلك كله باطلاً لكان نفي ذلك من أعظم الواجبات في الشريعة ، ولكان أدنى الأحوال أن يقول الشارع من جنس ما يقوله بعض النفاة : ما تخيلته فالله بخلافه ، لا سيما مع كثرة ما ذكره لهم من الصفات . " انتهى من "بيان تلبيس الجهمية" وأحسن من هذا القول ، وأقعد بالسنة ، قول يحيى بن عمار رحمه الله :

" لا نحتاج في هذا الباب إلى قول أكثر من هذا : أن نؤمن به ، وننفي الكَيْفِيَّة عنه ، ونتقي الشك فيه ، ونوقن بأن ما قاله الله سبحانه وتعالى وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا تَتَفَكَّر فِي ذَلِكَ وَلَا نَسْلُطَ عَلَيْهِ الْوَهْم ، والخطر، والوسواس .

وتعلم حقاً يقيناً أن كل ما تصور في همك ووهمك من كَيْفِيَّة أو تَشْبِيه ، فالله سبحانه بخلافه ، وَغَيْرُهُ ، نقول : هُوَ بِذَاتِهِ عَلَى الْعَرْشِ ، وعلمه مُحِيط بِكُلِّ شَيْء . " انتهى من "الحجة في بيان المحجة" لقوام السنة الأصبهاني .

فالحاصل:

أن ما خطر بالبال من أسماء الله وصفاته وأفعاله ، التي أثبتتها لنفسه في كتابه ، وأثبتها له رسوله : فهذا حق ، بل واجب اعتقاده ، والله تعالى هو بذلك الوصف الذي أخبرنا به في كتابه ، وأخبرنا عنه رسوله . وما خطر بالبال من تشبيه ، أو تمثيل ، أو تكييف لشيء من ذلك ، أو اعتقاد فيه غير ما ثبت في كتابه ، وسنة نبیه : فهو من الباطل الذي يجب الكف عنه ، وقطع الوهم والظن عن بابه : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } .

ومقولة: (كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك)

أباحها شيخ الإسلام ابن تيمية لو قصد المعنى الصحيح وأباحها الإمام ابن قدامة في اللعة والإمام الطحاوي في متن الطحاوية وابن أبي زيد القيرواني في المقدمة ولم ينكر إلا النادر ومنهم: الشيخ البراك ود. خالد المصلح . ودليلهم أنها كلمة مجملة تحتل معنى حقاً ومعنى باطلاً:

فإن كان ما خطر ببالك في الكيفيات فالمقولة صحيحة وإن كان ما خطر ببالك في المعاني فالمقولة غير صحيحة. ففي الطحاوية قوله: (لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام) ولم ينكر شارحوها إلا من سبق آنفاً. وقال ابن أبي زيد القيرواني: (لا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الوَاصِفُونَ، وَلَا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ ، يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بِآيَاتِهِ، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَا هِيَ ذَاتُهُ) ولم ينكر الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله بل وجه كلامه كما في مقدمة التحقيق.

. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: " وليس في رؤية الله في المنام نقص ولا عيب يتعلق به سبحانه وتعالى، وإنما ذلك بحسب حال الرائي، وصحة إيمانه وفساده، واستقامة حاله وانحرافه. وقول من يقول: ما خطر بالبال، أو دار في الخيال فالله بخلافه، ونحو ذلك إذا حمل على مثل هذا كان محملاً صحيحاً، فلا نعتقد أن ما تخيله الإنسان في منامه أو يقظته من الصور، أن الله في نفسه مثل ذلك، فإنه ليس هو في نفسه مثل ذلك، بل نفس الجن والملائكة، لا يتصورها الإنسان، ويتخيلها على حقيقتها، بل هي على خلاف ما يتخيله، ويتصوره في منامه ويقظته. وإن كان ما رآه مناسباً مشابهاً لها؛ فالله تعالى أجل وأعظم "

قال الشيخ البراك في شرح الطحاوية: "قوله: (لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام)

هذا فيه تنزيه أيضاً، وتقدم بعض ما يجب تنزيه الله تعالى عنه لكن المؤلف يُشَنِّي، فيذكر بعض ما يجب تنزيه الله تعالى عنه، وما يجب إثباته له سبحانه وتعالى.

(لا تبلغه الأوهام) يعني الظنون والخيال، فلا تبلغه ظنون الطائنين، ولا خيال المتخيلين، فلا يمكن للعباد أن يدركوا حقيقة ذات الرب أو شيء من صفاته بوهم وتخيل أبداً.

(ولا تدركه الأفهام) فالعباد يعرفون ربهم بما هداهم سبحانه وتعالى به من الوحي، ومن الآيات الكونية، لكنهم لا يحيطون به علماً؛ لذلك قال: (لا تدركه) الإدراك فيه الإحاطة، ولم يقل لا تعرفه الأفهام ولا يعرفه العباد! لا، العباد يعرفون ربهم على حسب مراتبهم في معرفة ربهم لكنهم لا يحيطون به علماً، قال تعالى: ((لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ))

مبسوطة سبحانه يداؤه	كما يليق جلّ في علاه
قد خلق الله بها ايينا	من ثم صترنا بعده بنيينا
ثم بها بحشرنا يقينا	يطتوي السماء ويقبض الارضينا
وهو الذي يمينه منبسطة	كي ما يتوب مذب من سقطه

وقال تعالى: ((وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)) والله سبحانه وتعالى: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)) وهذا يتضمن أن تخيل الإنسان وظنونه إنما هو مرتبط بما يعرفه، والله تعالى ليس كمثله شيء. ويقول بعض المتكلمين: (كل ما خطر ببالك فإن الله تعالى بخلاف ذلك) وهذا كلامٌ ولفظٌ مبتدع لم يأت في نص من كتاب ولا سنة، فيجب أن يحكم عليه بحكم الألفاظ المبتدعة المجملة.

(كل ما خطر ببالك) إن أراد من الكيفيات فصحيح، والله بخلاف ذلك؛ لأن كل ما يخطر ببالك من الكيفيات فإنه راجعٌ إلى شيء من المخلوقات، والله تعالى بخلاف ذلك {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}. فكيفية ذات الرب وكيفية صفاته لا سبيل للعباد إلى معرفتها.

أما ما خطر ببالك من أنه فوق السماوات فهذا علم وحق، وليس بخاطر، ويجب الإيمان بأنه فوق السماوات، وما يخطر ببالك أنه سبحانه وتعالى ينزل كما أخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهذا حق، فكل ما يخطر ببالك من المعاني الثابتة فهو حق.

إذاً؛ هذا التعبير لا يصح على الإطلاق، فهو لفظ مبتدع مجمل، فلا بد فيه من التفصيل، فالخواطر إما أن تكون مما يعلم بطلانه، أو مما يعلم صحته، أو مما لا يعلم صحته ولا بطلانه، فيمسك عنه، ولا يقال: إن الله بخلاف ذل".

وقال في شرح لمعة الاعتقاد: "قوله: ((وكل ما تخيل في ذهن أو خطر بالبال فإن الله تعالى بخلافه)): هذه قاعدة عظيمة في الكيفيات، وإلا فالمؤمن يخطر بباله؛ بل ويعلم ويعتقد أن الله في السماء، فوق جميع المخلوقات، ويعلم ويعتقد بأنه سبحانه له هذه الصفات الذاتية والفعلية، فكل هذا يؤمن به ويعتقده، لكن الشأن فيما يخطر بالبال من الكيفيات، وما يتخيله الإنسان؛ فإن الله تعالى بخلاف ذلك، لأن العبد إنما يتخيل في حدود ضيقة، مما يحسه وما يشاهده ونحو ذلك، وكيفية ذاته وصفاته بخلاف كيفية ذات وصفات المخلوقين، وقد علمنا أن الخوض في الكيفية يستلزم التمثيل، فالتشبيه يستلزم التمثيل، ولا يمكن للمرء أن يفكر في ذات الله سبحانه، لأن كيف مجهول".

فاضت يتداه بالندی لمن سأل

من غير كيف يده فلا تسل^(١)

^١ — أهل السنة يشنون صفة اليد لله بكيفية لا نعلمها.

قال أبو بكر الإسماعيلي (رحمه الله): وخلق آدم عليه السلام بيده، ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، بلا اعتقاد كيف يده، إذ لم ينطق كتاب الله تعالى فيه بكيف.

• وقال ابن القيم في الصواعق: "لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفرد، ومشى، ومجموعاً، فالْمُفْرَدُ كَقَوْلِهِ: {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: ١] وَالْمُشَى كَقَوْلِهِ: {خَلَقْتُ يَدَيَّ} [ص: ٧٥] وَالْمَجْمُوعُ {عَمِلْتُ أَيْدِينَا} [يس: ٧١] فَحَيْثُ ذَكَرَ الْيَدَ مُثَنَّاةً أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَى نَفْسِهِ بِضَمِيرِ الْإِفْرَادِ، وَعَدَّى الْفِعْلَ بِالْبَاءِ إِلَيْهَا فَقَالَ: {خَلَقْتُ يَدَيَّ} [ص: ٧٥] وَحَيْثُ ذَكَرَهَا مَجْمُوعَةً أَضَافَ الْعَمَلَ إِلَيْهَا وَلَمْ يُعِدِّ الْفِعْلَ بِالْبَاءِ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ فُرُوقٍ فَلَا يَحْتَمِلُ {خَلَقْتُ يَدَيَّ} [ص: ٧٥] مِنَ الْمَجَازِ مَا يَحْتَمِلُهُ {عَمِلْتُ أَيْدِينَا} [يس: ٧١] فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: {عَمِلْتُ أَيْدِينَا} [يس: ٧١] مَا يَفْهَمُهُ مِنْ قَوْلِهِ: عَمِلْنَا وَخَلَقْنَا، كَمَا يَفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: {فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى: ٣٠] ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: {خَلَقْتُ يَدَيَّ} [ص: ٧٥] فَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ مُجَرَّدَ الْفِعْلِ لَمْ يَكُنْ لِدِكْرِ الْيَدِ بَعْدَ نِسْبَةِ الْفِعْلِ إِلَى الْفَاعِلِ مَعْنَى، فَكَيْفَ وَقَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهَا الْبَاءُ؟ فَكَيْفَ إِذَا ثَنَيْتَ؟ وَسِرُّ الْفَرْقِ أَنَّ الْفِعْلَ قَدْ يُضَافُ إِلَى يَدِ ذِي الْيَدِ الْمُرَادِ الْإِضَافَةَ إِلَيْهِ؛ كَقَوْلِهِ: {بِمَا قَدَّمْتُ يَدَاكَ} [الحج: ١٠] {فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى: ٣٠] وَأَمَّا إِذَا أُضِيفَ إِلَيْهِ الْفِعْلُ ثُمَّ عُدِّي بِالْبَاءِ إِلَى يَدِهِ مُفْرَدَةً أَوْ مُثَنَّاةً فَهُوَ مِمَّا بَاشَرْتُهُ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ بِيَدِهِ إِلَّا ثَلَاثًا: خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ). فَلَوْ كَانَتِ الْيَدُ هِيَ الْقُدْرَةُ لَمْ يَكُنْ لَهَا اخْتِصَاصٌ بِذَلِكَ، وَلَا كَانَتْ لِآدَمَ فَضِيلَةٌ بِذَلِكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ بِالْقُدْرَةِ. وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَهْلَ الْمَوْقِفِ يَأْتُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ: "يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ" وَكَذَلِكَ قَالَ آدَمُ لِمُوسَى فِي مُحَاجَّتِهِ لَهُ: "اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ وَخَطَّ لَكَ الْأُلُوحَ بِيَدِهِ"، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: "كَتَبَ لَكَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ" وَهُوَ مِنْ أَصَحِّ الْأَحَادِيثِ، وَكَذَلِكَ الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ "أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالُوا: يَا رَبِّ خَلَقْتَ بَنِي آدَمَ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَنْكِحُونَ وَيَرْكَبُونَ، فَاجْعَلْ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَا أَجْعَلُ صَالِحَ ذَرِيَّةٍ مِنْ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي كَمَنْ قُلْتُ لَهُ كُنْ فَكَانَ" وَهَذَا التَّخْصِصُ إِنَّمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِهِ: {خَلَقْتُ يَدَيَّ} [ص: ٧٥] فَلَوْ كَانَ مِثْلَ قَوْلِهِ: {مِمَّا عَمِلْتُ أَيْدِينَا} [يس: ٧١] لَكَانَ هُوَ وَالْأَنْعَامُ فِي ذَلِكَ سَوَاءً. فَلَمَّا فُهِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ قَوْلَهُ: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥] يُوجِبُ لَهُ تَخْصِصًا وَتَفْضِيلًا بِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا بِالْيَدَيْنِ عَلَى مَنْ أُمِرَ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ، وَفُهِمَ

ذَلِكَ أَهْلُ الْمَوْقِفِ حِينَ جَعَلُوهُ مِنْ خَصَائِصِهِ، كَانَتْ التَّسْوِيَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} [يس: ٧١] خطأً محضاً.

ومن الأدلة النقلية على إثبات صفة اليد لله جل وعلا

١- قوله الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

٢- وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

٣- وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٥].

٤- حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((يمين الرحمن ملأى سحاً لا يغيضها الليل والنهار))، قال ((رأيت ما أنفق منذ خلق السماوات، فإنه لم يغيض ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع. (رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣)، والترمذي (٣٠٤٥) واللفظ له.

٥- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم ((تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزه في السفر نزلًا لأهل الجنة.)) (رواه البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢).

٦- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرّة.)) (رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) واللفظ له.

٧- وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده.)) رواه مسلم.

٨- حديث أبي موسى رضي الله عنه: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها.)) (رواه مسلم).

٩- حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: قَالَ: ((فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ)). (رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)).

١٠- حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: ((يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ يَضَعُ السَّمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ وَالْأَنْهَارَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ بِيَدِهِ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ:)) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ. (رواه البخاري (٧٤٥١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٦)).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ))، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ)). (رواه مسلم).

١١- حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟)). (رواه البخاري (٤٨١٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٧)).

١٢- حَدِيثُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذَرِيَّةً. (رواه أبوداود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وصححه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٧٦)).

١٣- حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكُلُّنَا يَدِيهِ يَمِينٍ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْ. (رواه مسلم (١٨٢٧)).

١٤- حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقَلَمُ، وَأَخَذَهُ بِيَمِينِهِ وَكَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينٍ. (رواه الآجري في ((الشریعة)) (٥٤٢) (٢/٩٤٧) بهذا السياق، قال الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٣١٣٦): إسناده صحيح .. وله شواهد متفرقة.

قال ابن القيم (رحمه الله): وَرَدَ لَفْظُ الْيَدِ فِي الْقُرْآنِ، وَالسُّنَّةِ، وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، فِي أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ مَوْضِعٍ وَرُودًا مُتَنَوِّعًا، مُتَصَرِّفًا فِيهِ، مَقْرُونًا بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا يَدٌ حَقِيقِيَّةٌ، مِنَ الْإِمْسَاكِ، وَالطِّيِّ، وَالْقَبْضِ، وَالْبَسْطِ،

والمصافحة، والحثيات، والنضح باليد، والخلق باليدين، والمباشرة بهما، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده، وتخمير طينة آدم بيده، ووقوف العبد بين يديه، وكون المقسطين عن يمينه، وقيام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة عن يمينه، وتخيير آدم بين ما في يديه، فقال: ((اخترتُ يمينَ ربي))، وأخذ الصدقة بيمينه يربّيها لصاحبها، وكتابه بيده على نفسه أن رحمته تغلب غضبه، وأنه مسح ظهر آدم بيده، ثم قال له - ويداه مقبوضتان -: "اختر"، فقال: ((اخترتُ يمينَ ربي))، وكلتا يديه يمين مباركة، وأن يمينه ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، ويده الأخرى القسط، يرفع ويخفض، وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وأنه يطوي السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يطوي الأرض باليد الأخرى، وأنه خطّ الألواح التي كتبها لموسى بيده. انظر: ((مختصر الصواعق المرسلة))، ص (٣٤٨).

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله: وأجمعوا على أنه عز وجلّ يسمع ويرى، وأن له تعالى يدين مبسوطتين. انظر: ((رسالته إلى أهل الثغر))، ص (٢٢٥).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمته...، وأن له يدين بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وأن له يمينًا بقوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾. ((طبقات الحنابلة)) لابن أبي يعلى (١/ ٢٨٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنَّ لله تعالى يدين مختصتين به، ذاتيتين له، كما يليق بجلاله. (مجموع الفتاوى) (٦/ ٢٦٣).

فائدة (١): وصف إحدى يدي الله جل وعلا بالشمال على قولين لأهل العلم:

١- القائلون بأنَّ كلتا يدي الله يمين لا شمال ولا يسار فيهما، ومنهم: الإمام ابن خزيمة في (كتاب التوحيد)، والإمام أحمد، والبيهقي، والألباني.

واستدلوا بحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً: ((إنَّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجلّ، وكلتا يديه يمين)). (... رواه مسلم).

٢- القائلون بإثبات صفة الشمال أو اليسار، ومنهم: الإمام عثمان بن سعيد الدارمي، وأبو يعلى الفراء، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، وصديق حسن خان، ومحمد خليل الهَرَّاس.

واستدلوا بحديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه مرفوعاً)) : يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول...)) رواه مسلم).

وسئل الشيخ ابن باز رحمه الله عن الجمع بين قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كلتا يديه يمين"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "ثم يطوي الأرضين بشماله".

فأجاب (رحمه الله): كلها أحاديث صحيحة عند علماء السنة، وحديث ابن عمر مرفوع صحيح، وليس موقوفاً، وليس بينها اختلاف بحمد الله، فالله سبحانه توصف يداه باليمين والشمال من حيث الاسم؛ كما في حديث ابن عمر، وكتاتهما يمين مباركة من حيث الشرف والفضل؛ كما في الأحاديث الصحيحة الأخرى)). مجموع فتاوى الشيخ ابن باز)).

وسئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عن الجمع بين الحديثين، فقال رحمه الله: قوله: "ثم يأخذهن بشماله"، كلمة (شمال) تختلف فيها الرواة، فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكموا على من أثبتها بالشذوذ؛ لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر، ومنهم من قال: إنه ثقة، ولكنه قالها من تصرفه، وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في "صحيح مسلم" أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين"، وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال، ولكن إذا كانت لفظة "شمال" محفوظة، فهي عندي لا تنافي "كلتا يديه يمين"؛ لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق، ناقصة عن اليمنى، فقال: "كلتا يديه يمين"؛ أي: ليس فيها نقص، ويؤيد هذا قوله في حديث آدم: "اخترت يمين ربي، وكلتا يديه يمين مباركة"، فلمَّا كان الوهم يذهب إلى أن إثبات الشمال يعني النقص في هذه اليد دون الأخرى، قال: "كلتا يديه يمين"، ويؤيده أيضاً قوله: "المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن"، فإن المقصود بيان فضلهم ومررتهم، وأنهم على يمين الرحمن سبحانه، وعلى كلٍّ فإن يديه سبحانه اثنتان بلا شك، وكل واحدة غير الأخرى، وإذا وصفنا اليد الأخرى بالشمال، فليس المراد أنها أقل قوة من اليد اليمنى، بل كلتا يديه يمين، والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنحن نؤمن بها، ولا منافاة بينها وبين قوله: "كلتا يديه يمين" كما سبق، وإن لم تثبت، فلن نقول بها)). مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)).

فائدة(٢): أن اليد ليست بمعنى القدرة بل يد حقيقية:

قال ابن تيمية (رحمه الله): إن لفظ: اليدين بصيغة التثنية لم يستعمل في النعمة ولا في القدرة؛ لأن من لغة القوم استعمال الواحد في الجمع؛ كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] ، ولفظ الجمع في الواحد

كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ، ولفظ الجمع في الاثنين؛ كقوله: ﴿فَقَدْ صَعَتَ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤] ، أما استعمال لفظ الواحد في الاثنين أو الاثنين في الواحد، فلا أصل له؛ لأن هذه الألفاظ عدد وهي نصوص في معناها لا يتجاوز بها، ولا يجوز أن يقال: عندي رجل، ويعني رجلين، ولا عندي رجلان، ويعني به الجنس؛ لأن اسم الواحد يدل على الجنس، والجنس فيه شيا، وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس والجنس يحصل بحصول الواحد، فقوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ، لا يجوز أن يراد به القدرة؛ لأن القدرة صفة واحدة، ولا يجوز أن يعبر بالاثنيين عن الواحد، ولا يجوز أن يراد به النعمة؛ لأن نعم الله لا تحصى، فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية... ولست تجد في كلام العرب ولا العجم إن شاء الله تعالى أن فصيحاً يقول: فعلت هذا بيدي، أو فلان فعل هذا بيديه، إلا ويكون فعله بيديه حقيقة، ولا يجوز أن يكون لا يد له، أو أن يكون له يد، والفعل وقَّع غيرها، وبهذا الفرق المحقق تتبين مواضع المجاز ومواضع الحقيقة، ويتبين أن الآيات لا تقبل المجاز البتة من جهة نفس اللغة؛ ١ هـ.

وقال ابن حجر (رحمه الله): لو كانت اليد بمعنى القدرة، لم يكن بين آدم وإبليس فرق لتشاركهما فيما خلق كل منهما به وهي قدرته، ولقال إبليس: وأي فضيلة له علي وأنا خلقتني بقدرتك كما خلقتك بقدرتك، فلما قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، دلَّ على اختصاص آدم بأن الله خلقه بيديه، ولا جائز أن يراد باليدين نعمتان؛ لاستحالة خلق المخلوق بمخلوق؛ لأن النعم مخلوقة (انظر: ((فتح الباري)) (١٣/ ٢٩٤).

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في تعليقه على لمعة الاعتقاد: الواجب في نصوص الكتاب والسنة إبقاء دلالتها على ظاهرها من غير تغيير؛ لأن الله أنزل القرآن بلسان عربي مبين... ولأن تغييرها عن ظاهرها قول على الله بلا علم، وهو حرام، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، فإن ظاهر الآية أن الله يدين حقيقتين، فيجب إثبات ذلك له، فإذا قال قائل: المراد بهما القوة، قلنا له: هذا صرف للكلام عن ظاهره، فلا يجوز القول به؛ لأنه قول على الله بلا علم؛ ١ هـ.

فائدة (٣): أهل السنة والجماعة يُشْتَبُونَ صفة الكف لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكيف ولا تمثيل:

• قال قَوَامُ السُّنَّةِ الأصبهاني رحمه الله بعد سرده لجملة من أحاديث الصفات: (وقوله): إِنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي بِصَدَقْتِهِ فَيُضَعُّهَا فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ ((، وقوله)): يَضَعُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ.. ((وأمثال هذه الأحاديث، فإذا تدبَّره متدبر، ولم يتعصب بأن له صحة ذلك، وأن الإيمان به واجب، وأن البحث عن كيفية ذلك باطل). (الحجة) (٢/ ٢٥).

وقال (رحمه الله): وللكف معانٍ، وليس يحتمل الحديث شيئاً من ذلك، إلا ما هو معروف في كلام العرب، فهو معلوم بالحديث، مجهول الكيفية)). (الحجة)) (٢ / ٢٦٢).

• وقال صديق حسن خان (رحمه الله): ومن صفاته سبحانه: اليد والإصبع والكف)). (قطف الثمر)) (٦٦).

فائدة(٤): أهل السنة والجماعة يُثبتون صفة الأصابع لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل:

• قال الإمام الشافعي (رحمه الله): لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيُّه صلى الله عليه وسلم أمته ... وأن له إصبعًا بقول النبي صلى الله عليه وسلم)) : ما من قلبٍ إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عزَّ وجلَّ)). (طبقات الحنابلة)) لابن أبي يعلى (١ / ٢٨٢).

• قال إمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة (رحمه الله) في كتاب ((التوحيد)): (باب إثبات الأصابع لله عزَّ وجلَّ)، وذكر بأسانيده ما يثبت ذلك.

• وقال أبو بكر الآجري (رحمه الله) في كتاب ((الشرعة)): (باب الإيمان بأن قلوب الخلائق بين إصبعين من أصابع الرب عزَّ وجلَّ، بلا كيف).

• وقال البغوي (رحمه الله): والإصبع المذكورة في الحديث صفةٌ من صفات الله عزَّ وجلَّ، وكذلك كلُّ ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل من صفات الله تعالى؛ كالتَّفس، والوجه، والعين، واليد، والرَّجل، والإتيان، والمجيء، والنَّزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والضحك، والفرح)). (شرح السنة)) (١ / ١٦٨).

• قال الشيخ عبدالرحمن البراك: هذا الحديث يستدل به أهل السنة على إثبات الأصابع لله عزَّ وجلَّ، وأنها من صفة يديه؛ لأن هذا هو المفهوم من لفظ الإصبع في هذا السياق، وقد أقرَّ النبي صلى الله عليه وسلم اليهودي على قوله؛ كما فهم ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: (فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبًا وتصديقًا له)، ويؤيد ذلك قراءة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]. وقول أهل السنة في الأصابع لله تعالى، كقولهم في اليدين والوجه، وغير ذلك من الصفات، وهو الإثبات مع نفي مماثلة المخلوقات، ونفي العلم بالكيفية)). تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري)) (ص ٨٧).

فائدة (٥): أهل السنة والجماعة يُثبتون صفة الأنامل لله تعالى كما يليق بجلاله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل:

ويدل على هذه الصفة حديث معاذ بن جبل - حديث اختصام المملأ الأعلى - وفيه: ((أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي يَا رَبِّ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ، فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيْ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي)) . ((رواه أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٥)، وصححه الالباني)).

واستدل شيخ الإسلام رحمه الله بهذا الحديث على إثبات صفة الأنامل لله تعالى على الوجه الذي يليق بجلاله وعظيم سلطانه . انظر: ((نقض أساس التقديس)) (٥٢٤-٥٢٦).

فائدة (٦): الرد على من يُؤَوِّل صفة اليدين لله جل وعلا:

المخالفون لأهل السنة والجماعة من المعطلة - كالجهمية والمعتزلة - يُؤَوِّلُون صفة اليدين، ويقولون: المراد بها القدرة، أو النعمة، أو القدرة والنعمة، وتقدم أن من أوَّل صفة من الصفات فقد عطَّلها عن معناها الحقيقي؛ ولذا نقول: هم معطلة أيضاً، وهذا أشهر تأويلاتهم: أن المراد باليدين النعمة والقدرة، وهناك تأويلات أخرى لهم، فيؤولونها بـ(القوة، والملك، والسلطان، والرزق، والخزائن، والبركة، والكرامة، والعناية)، ولكن كما تقدم: أن أشهر تأويلاتهم النعمة والقدرة، فهذا قول الجهمية، والمعتزلة، ومتأخري الأشاعرة، ويسمون (الأشاعرة المحضة)، بخلاف متقدمي الأشاعرة فهم يُثَبِّتُونَ صفة اليدين ولا يُؤَوِّلُونها.

والرد عليهم من وجوه:

١- أن تفسير اليد بالقدرة والنعمة مخالفٌ لظاهر لفظ الآية، ولا دليل على هذا التأويل.

٢- أنه مخالفٌ لإجماع السلف، فلا يُعْرَفُ أَحَدٌ أَوَّلَهَا بالقدرة والنعمة.

٣- أن تأويلها بالقدرة والنعمة ممتنعٌ في بعض الآيات؛ مثال ذلك قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ﴾، اليد جاءت بالثنائية، وتأويلها بالنعمة يلزم أن تكون النعمة نعمتين فقط، وهذا ممتنع؛ لأن نعم الله لا تُحْصَى؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] ، وأيضاً تأويلها بالقدرة يستلزم أن يكون له سبحانه قدرتان، ولا يجوز أن يكون له سبحانه قدرتان بإجماع العلماء، فهذا لا يقوله أحدٌ، وكذلك في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، يلزم أن يكون له قدرتان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. انظر: ((شرح لمعة الاعتقاد))؛ لحمود الفريح.

فائدة (٧): من أنكر صفة اليد لله:

وعن سؤال كيف ذو العلم ارعوى

كذاك فوق العرش ربنا استوى

الى العزيز ذي الجلال المقتر

والعرش محتاج له ومفتقر

رب السما والأرض من له العلا^(١)

بل كل خلق الله محتاج إلى

• قال الآجري رحمه الله: ويقال للجهمي الذي ينكر أن الله عز وجل خلق آدم بيده، كُفرت بالقرآن ورددت السنة، وخالفت الأمة. انظر ((كتابه الشريعة)) ص ٣٢٣.

• وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الإنكار نوعان: النوع الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحداً أنكر اسماً من أسماء الله، أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة؛ مثل أن يقول: ليس لله يد، فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفرٌ مُخرجٌ عن الملة.

النوع الثاني: إنكار تأويل، وهو ألا يجحدوها، ولكن يؤولها وهذا نوعان :

الأول: أن يكون لهذا التأويل مسوغ في اللغة العربية، فهذا لا يوجب الكفر،

الثاني: ألا يكون له مسوغ في اللغة العربية، فهذا موجب للكفر؛ لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار تكذيباً، مثل أن يقول: ليس لله يد حقيقة، ولا بمعنى النعمة، أو القوة، فهذا كافر؛ لأنه نفاها نفياً مطلقاً، فهو مكذب حقيقة، ولو قال في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾: المراد بيديه السماوات والأرض، فهو كافر؛ لأنه لا يصح في اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية، فهو منكر مكذب، لكن إن قال: المراد باليد النعمة أو القوة، فلا يكفر؛ لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة". (مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد صالح العثيمين) المجلد الأول - باب الأسماء والصفات.

^١ — قال الامام الاسماعيلي: (وأنه عز وجل استوى على العرش بلا كيف، فإن الله انتهى من ذلك إلى أنه

استوى على العرش، ولم يذكر كيف كان استواؤه)

من صفات الله تعالى التي دلّ عليها الكتاب والسنة والإجماع: استواؤه سبحانه على عرشه، وقد وردت هذه الصفة في سبعة مواضع من القرآن الكريم:

١- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].

٣- ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

٤- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

٥- ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩].

٦- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

٧- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

ومن السنة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كما في كتاب السنة للخلال: ((لما فرغ الله من خلقه استوى على عرشه.)) ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في اجتماع الجيوش الإسلامية أنه حديث صحيح على شرط البخاري. واستواء الله جل في علاه على عرشه استواء يليق بجلاله سبحانه ليس كاستواء المخلوقين، فكما أن ذاته سبحانه لا تشبه ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته لا تشبه صفاتهم، وكما أن كنه ذاته وحقيقتها لا يمكن للعقل إدراكها، فكذلك صفاته سبحانه؛ لأنَّ الكلام عن الصفات فرع عن الكلام عن الذات، فكما لا نعلم حقيقة ذاته سبحانه فليس لنا أن نعلم حقيقة صفاته جل جلاله.

قال بعض أهل العلم: إذا قال لك الجهمي: الله ينزل فكيف ينزل؟ فقل له: أخبرنا بأنه ينزل ولم يُخبرنا كيف ينزل؛ اهـ.

وهكذا في كل الصفات؛ ففي الاستواء أخبرنا سبحانه أنه استوى على عرشه، لكن لم يُخبرنا كيف استوى. وقد جاء رجل إلى الإمام مالك رحمه الله تعالى فسأله: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فكيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرضاء - أي: العرق - ثم قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً"، فأمر به أن يخرج. (أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات: (٢ / ٣٠٥ - ٣٠٦))

وروي في ذلك أيضاً عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيخ الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنهما. ومعنى كلام الإمام مالك رحمه الله تعالى: "الاستواء غير مجهول"؛ أي: غير مجهول المعنى، فالاستواء معلوم المعنى؛ إذ هو العلو والاستقرار، والقرآن إنما نزل بلسان عربي مبين. وقوله: "والكيف غير معقول"؛ أي: ليس لعقولنا القاصرة تكييف استوائه سبحانه على عرشه، فكأنه صفاته جل في علاه وحقيقتها ليس من مجال العقول، والنقل لم يثبت فيه شيء من ذلك. وقوله: "الإيمان به واجب"؛ لأنه أمر ورد في القرآن والسنة، فالواجب التسليم والتصديق والإيمان دون أدنى تردد أو شبهة.

وقوله: "السؤال عنه بدعة"؛ لأنَّ مثل هذا السؤال لم يكن في عهد النبي الكريم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، ولا في عهد الصحابة الكرام عليهم أفضل الرضوان، فلم يثبت ألبتة أن صحابياً سأل رسول الله صلى

الله عليه وسلم عن كيفية صفة من صفاته سبحانه، بل كانوا يؤمنون بنصوص الصفات على ظاهرها، مُثبتين لمعانيها اللائقة به جل جلاله.

لكن خَلَفَ مِنْ بعدهم خلف لبس عليهم الشيطان بتليساته، ونفخ فيهم من شبهاته، ونفث فيهم من ضلالاته، فعطّلوا الله تعالى عن صفاته، زاعمين أنهم بذلك منزّهين له عن مشابهة مخلوقاته، فزَيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم، وهم يَحْسِبُونَ أنهم يحسنون صنعًا.

وهذه المقولة من إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى تُعتبر في الحقيقة ميزانًا في كل الصفات الإلهية؛ فما من صفة من صفات رب البرية وردت في الكتاب أو صحيح السنّة إلا وجب الإيمان بها على ما عُلم من معانيها دون السؤال عن كيفيةها.

وقد أدى تحكيم العقل بأقوام وعدم استسلامهم لوحي الرحمن في باب الصفات إلى تأويلها - أو على التحقيق تعطيلها - بحجة أن إثباتها على ظاهرها يلزم منه لوازم باطلة.

ومن اللوازم الباطلة التي ذكرها المؤولة من الأشاعرة وغيرهم فيما يتعلّق بصفة الاستواء:

♦ أن استواء الله تعالى على عرشه يلزم منه افتقاره إلى العرش.

وهذا باطل؛ لأن الله تعالى كامل في غناه، وهو الصمد الذي تفتقر إليه جميع الخلائق، فالعرش ومن دونه من السموات والأرض كل ذلك يفتقر إليه سبحانه، والكل في قبضته، فهو سبحانه الذي يُمسك العرش، ويُمسك السموات والأرض لئلا تزولا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

♦ ومن اللوازم الباطلة كذلك: أن الاستواء يلزم منه إحاطة العرش بالله جل في علاه!

وهذا باطل، ومن عِلْمِ عظمة الله تعالى لا يُمكن أن يخطر بباله مثل هذا، فالله تعالى أجل وأعظم من أن يحيط به مخلوق، بل هو المحيط سبحانه بكل خلقه، والذي جعل المؤولة يقولون بهذا اللازم قياسُهم للخالق على المخلوق، وتحكيمهم للعقل القاصر عن إدراك كنه صفات البارئ سبحانه، والله المستعان!

يقول الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى في عقيدته: "وهو مُستغْنٍ عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه."

يقول الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله تعالى في شرحه: "أما قوله: "وهو مُستغْنٍ عن العرش وما دونه"، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا؛ لأنه لما ذكر العرش والكرسي، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش، ليبين أن خلقه للعرش واستواءه عليه ليس لحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوقًا للسافل، لا يلزم أن يكون السافل حاوياً للعالي، محيطاً به، حاملاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه، فانظر إلى السماء، كيف هي فوق الأرض وليست مُفتقرة إليها؟ فالرب تعالى أعظم شأنًا وأجلُّ من أن يلزم من علوّه

ذلك، بل لوازم علوّه من خصائصه، وهي حملّه بقدرته للسافل، وفقّر السافل، وغناه هو سبحانه عن السافل، وإحاطته عز وجل به، فهو فوق العرش مع حمّله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش، وفقّر العرش إليه، وإحاطته بالعرش، وعدم إحاطة العرش به، وحصره للعرش، وعدم حصر العرش له؛ شرح العقيدة الطحاوية. وهناك لوازم أخرى يذكرها المؤولة، لكنها باطلة، وكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم حق، ولازم الحق لا يكون إلا حقًا، وما كان باطلاً فليس بلازم.

هذا، وقد تأوّل المؤولة صفة الاستواء بالاستيلاء، فزعموا أن معنى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] على العرش استولى.

وهذا التأويل ما أنزل الله به من سلطان، ويلزم منه لوازم في غاية البطالان؛ من ذلك:
♦ أنه صرفٌ للفظ عن ظاهره بلا أدنى قرينة.

♦ أن الاستواء لا يرادُ بمعنى الاستيلاء في كلام العرب إطلاقاً، والقرآن إنما نزل بلسانهم، وقد ذكر عن الخليل الفراهيدي رحمه الله تعالى أنه سُئل: هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال: "هذا ما لا تعرفه العرب، ولا هو جائز في لغتها"، وقد كان رحمه الله إماماً كبيراً من أئمة اللغة.

♦ أنه مخالف لإجماع السلف الصالح الذين أمرنا بالافتداء بهم واتباع سبيلهم.

♦ أنه يلزم منه أن الله تعالى لم يكن مستولياً على العرش من قبل ثم استولى عليه، وهذا يعني أنه كان في ملك غيره؛ لأن الاستيلاء على الشيء يقتضي تنازعاً ومُغالبةً.

♦ ومن لوازم هذا التأويل الذي ما عليه من دليل أن الله تعالى مُستوٍ على كل مخلوقاته؛ لأنه مستولٍ عليها كلها؛ إذ هي في قبضته سبحانه، فهو إذاً مستوٍ على الأرض وما فيها من جبال وحجر وشجر، تعالى الله علوّاً كبيراً عن ذلك.

وهناك لوازم أخرى ذكرها أهل العلم؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى (وقد أبطل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى تأويل الاستواء بالاستيلاء من اثنين وأربعين وجهاً في كتابه الكبير: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة).

♦ عمدة الأشاعرة في هذا التأويل الفاسد إنما هو بيت لنصرانيّ يدعى الأخطل يقول فيه:

قد استوى بشرٌ على العراق ----- من غير سيف ولا دمٍ مُهراق

فقدّموا هذا البيت اليتيم على نصوص الوحي الكريم وأقوال السلف أجمعين، وهذا والله من أغرب الأمور. وإن تعجب فاعجب لحال هؤلاء المعتلة من الأشاعرة وغيرهم؛ كيف يدّعون أن أحاديث الآحاد لا تُفيد إلا الظن ولا يعوّل عليها في باب الاعتقاد وإن صحّت، ثم يستدلّون بكلام نصراني، أليس هذا من التناقض الكبير ومكابرة العقل؟!
العقل؟!

♦ قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: -

أصل الاستواء على العرش : ثابت بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة وأئمة السنة ، بل هو ثابت في كل كتاب أنزل ، على كل نبي أرسل ". مجموع الفتاوى " (٢ / ١٨٨) .

♦ وقال ابن القيم - رحمه الله - ردًا على من حرّف صفة الاستواء وعطلّها: -

هذا الذي قالوه باطل من اثنين وأربعين وجهًا:

أحدها : إن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم ، وأنزل بها كلامه : نوعان : مطلق ومقيد ، فالمطلق : ما لم يوصل معناه بحرف ، مثل قوله : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى } [القصص / ١٤] ، وهذا معناه : كمل وتمّ ، يقال : استوى النبات ، واستوى الطعام .

أما المقيد : فثلاثة أضرب:

أحدها : مقيد بـ " إلى " ، كقوله : { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } [البقرة / ٢٩] ، وهذا بمعنى العلو والارتفاع ، بإجماع السلف .

الثاني : مقيد بـ " على " ، كقوله تعالى : { لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ } [الزخرف / ١٣] ، وهذا أيضاً معناه العلو والارتفاع والاعتدال ، بإجماع أهل اللغة .

الثالث : المقرون بـ " واو " مع التي تعدي الفعل إلى المفعول معه ، نحو : استوى الماء والخشبة ، بمعنى ساواها وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ، ليس فيها معنى " استولى " ألبتة ، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم ، وإنما قاله متأخرو النحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية . مختصر الصواعق " (ص ٣٧١ ، ٣٧٢) .

فاستواء الله على العرش من الصفات التي اشتد النزاع فيها بين أهل السنة وبين أهل البدع، وصفتي الاستواء والعلو من الصفات التي ثبتت بالنصوص وبالعقل وبالفطرة، ومن الصفات اللازمة للرب عز وجل التي لا تنفك عن الباري، فالرب لم يزل عالياً فوق مخلوقاته، وفوق سماواته، وهو فوق العرش، الذي هو سقف المخلوقات، والله تعالى فوق العرش بعد أن تنتهي المخلوقات، والعلو من الصفات التي ثبتت بالنصوص والعقل والفطرة، فالله تعالى فطر الخلق على أن الله في العلو .

والأدلة التي فيها إثبات علو الله على خلقه تزيد على ثلاثة آلاف دليل، وهناك أنواع من الأدلة كل نوع تحته أفراد كثيرة .

والاستواء على العرش علو خاص، وهو علو على العرش، وهو من الصفات الفعلية، والعلو من الصفات الذاتية، فالفرق بين العلو والاستواء يكون من جهتين: أولاً: أن صفة العلو من الصفات الثابتة بالعقل والشرع والفطرة، أما صفة الاستواء فهي ثابتة بالشرع، فلولا أن الله أخبرنا بأنه استوى على العرش لما علمنا ذلك .

ثانياً: أن صفة العلو من الصفات الذاتية التي لا تنفك عن الباري، وصفة الاستواء من الصفات الفعلية، فالله تعالى خلق العرش أولاً، ثم خلق السماوات والأرض، ثم استوى على العرش بعد خلق السماوات والأرض. واثبات الاستواء على العرش هو مذهب أهل السنة والجماعة قديماً وحديثاً. فعن أبي العالية في قوله: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } [البقرة: ٢٩] يقول: ارتفع. وعن مجاهد في قوله تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الأعراف: ٥٤] قال: (علا على العرش). ♦ قال السمعاني: "أهل السنة يقولون: إن الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف، والإيمان به واجب، كذلك يحكى عن مالك بن أنس وغيره من السلف أنهم قالوا في هذه الآية: الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

♦ وقال البغوي: "ثم استوى على العرش، قال الكلبي ومقاتل: استقر. وقال أبو عبيدة: صعد. وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، فأما أهل السنة يقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكمل العلم فيه إلى الله عز وجل. وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق رأسه ملياً وعلاه الرخصاء ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالاً، ثم أمر به فأخرج. وروى عن سفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، وغيرهم من علماء السنة، في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهات: أمروها كما جاءت بلا كيف. والعرش في اللغة: هو السرير. وقيل: هو ما علا فأظلم، ومنه عرش الكروم".

♦ وقال ابن رشد: "أما من قال: إن الاستواء بمعنى الاستيلاء فقد أخطأ؛ لأن الاستيلاء لا يكون إلا بعد المغالبة والمقاومة، والله يتعالى عن أن يغالبه أحد. وحمل الاستواء على العلو والارتفاع أولى ما قيل، كما يقال: استوت الشمس في كبد السماء، أي: علت".

♦ وقال ابن كثير: "قوله تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الأعراف: ٥٤] للناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله؛ فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير [الشورى: ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة -منهم نعيم بن حماد الخزازي؛ شيخ البخاري-: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر. وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه»، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى".

ومن أقوال العلماء في إثبات صفة الاستواء لله عز وجل:

♦ قال أبو حنيفة: "نُقِرُّ بأنَّ الله تعالى على العرشِ استوى من غير أن يكون له حاجة".

وقال الشافعي في وصيته: "هذه وصية محمد بن إدريس الشافعي، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله... وأنَّ الله عزَّ وجلَّ يرى في الآخرة، ينظرُ إليه المؤمنون عيانًا جهارًا، ويسمعون كلامه، وأنه فوق العرش...".

وقال أيضًا: "القول في السنة التي أنا عليها، ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم فأخذت عنهم؛ مثل: سُفيان ومالك وغيرهما: الإقرارُ بشهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وأنَّ الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء".

♦ وقال أحمد بن حنبل: "وقد عَرَفَ أهلُ العلم أنه فوق السَّمَوَاتِ السَّبع: الكرسي، والعرش، واللوح المحفوظ، والحُجُب، وأشياء كثيرة لم يُسمَّها".

وقال الدارمي: "انتدبت أئمة المريسي مُكذِّبًا بعرش الله وكرسيه، مُطِنًا في التكذيب بجهلك، متأولًا في تكذيبه بخلاف ما تعقله العلماء، فرويت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ } [البقرة: ٢٥٥] :عَلِمُهُ ، قلت: فمعنى الكرسي: العلم، فمن ذهب إلى غير العلم أكذبه كتاب الله تعالى.

فيقال لهذا المريسي: أمَّا ما رويت عن ابن عباس فإنه من رواية جعفر الأحمر، وليس جعفر ممن يُتمدَّ على روايته؛ إذ قد خالفته الرواة الثقات المتقنون، وقد روى مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في الكرسي خلاف ما ادَّعيت على ابن عباس.

حدثنا يحيى وأبو بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن سُفيان، عن عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله) ، فأقر المريسي بهذا الحديث وصححه، وزعم أن وكيعًا رواه، إلا أن تفسير القدمين هاهنا في دعواه: الثقلين، قال: يضع الله علمه وقضائه للثقلين يوم القيامة، فيحكم به فيهم، فهل سمع سامع من العالمين بمثل ما ادَّعى هذا المريسي؟ وبذلك! عمن أخذته؟ ومن أي شيطان تلقَّيته؟ فإنه ما سبقك إليها آدمي نعلمه. أحتاج الرب عز وجل أن يضع محاسبة العباد على كتاب علمه وأفضيته يحكم بما فيه بينهم؟ ولا أراك مع كثرة جهلك إلا وستعلم أنك احتججت باطل جعلته أغلوطة تغالط بها أعمار الناس وجهالهم).

♦ وقال أبو حاتم الرازي: (مذهبنا واختيارنا اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين ومن بعدهم بإحسان، وترك النظر في موضع بدعهم، والتمسك بمذهب أهل الأثر؛ مثل أبي عبد الله أحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، وأبي عبيد القاسم بن سلام، والشافعي، ولزوم الكتاب والسنة، والذب عن الأئمة المتبعة لأثار السلف، واختيار ما اختاره أهل السنة من الأئمة في الأمصار؛ مثل: مالك بن أنس في المدينة، والأوزاعي بالشام،

وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ بِمِصْرَ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَحَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ بِالْعِرَاقِ... أَنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى: ١١].

♦ ونقل الإمام ابن القيم في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية نصوصاً للإمام الشافعي تدل على إثباته صفة العلو لله تعالى وأنه سبحانه في السماء مستو على عرشه فقال: قال الإمام ابن الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي حدثنا أبو شعيب وأبو نور عن أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى قال: القول في السنة التي أنا عليها ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهما الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن الله تعالى على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء. قال عبد الرحمن وحدثنا يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول وقد سُئِلَ عن صفات الله وما يؤمن به فقال: لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه أمته لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة ردها. لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القول (بها) فيما روى عنه العدول، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر فأما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالروية والقلب ولا نكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها، وتثبت هذه الصفات ونفي عنها التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه فقال: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. وصح عن الشافعي أنه قال خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه حق قضائها الله في سمائه وجمع عليها قلوب أصحاب نبيه ومعلوم أن المقضي في الأرض والقضاء فعله سبحانه وتعالى المتضمن لمشيئته وقدرته، وقال في خطبة رسالته: الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه. فجعل صفاته سبحانه إنما تتلقى بالسمع. انتهى.

♦ وقال ابن بطة في الابانة: "لكننا نقول: إن ربنا تعالى في أرفع الأماكن، وأعلى عليين، قد استوى على عرشه فوق سماواته، وعلمه محيط بجميع خلقه، يعلم ما نأى كما يعلم ما دنا، ويعلم ما بطن كما يعلم ما ظهر كما وصف نفسه تعالى."

♦ وقال الطحاوي: "العرش والكرسي حق، وهو مُستغنٍ عن العرش وما دونه، محيطٌ بكلِّ شَيْءٍ وفوقه". وقال أبو بكر الإسماعيلي: "اعلموا -رحمنا الله وإياكم- أن مذهب أهل الحديث أهل السنة والجماعة... يعتقدون أن الله مدعوٌ بأسمائه الحُسنى، وموصوفٌ بصفاته التي سَمَّى ووَصَفَ.

بها نفسه، ووصفه بها نبيه صلى الله عليه وسلم... وأنه عز وجل استوى على العرش، بلا كيف؛ فإن الله تعالى انتهى من ذلك إلى أنه استوى على العرش ولم يذكر كيف كان استواؤه."

♦ وقال ابن أبي زيد القيرواني: "إن الله إله واحد، لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له... وأنه فوق عرشه المجيد بذاته."

وقال أيضاً: "مما أجمعت عليه الأئمة من أمور الديانة، ومن السنن التي خلافها بدعة وضلالة... أنه فوق سماواته

على عَرْشِهِ دُونَ أَرْضِهِ، وَأَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَعْلَمُهُ، وَأَنَّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُرْسِيُّهُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ } [البقرة: ٢٥٥]. وَمِمَّا جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَضَعُ كُرْسِيَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا يَقُولُونَ: مَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي فَلَاةٍ... وَكُلُّ مَا قَدَّمْنَا ذَكَرَهُ فَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَثَمَةِ النَّاسِ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ، وَكُلُّهُ قَوْلُ مَالِكٍ؛ فَمِنْهُ مَنْصُوصٌ مِنْ قَوْلِهِ، وَمِنْهُ مَعْلُومٌ مِنْ مَذْهَبِهِ."

♦ وقال ابنُ أبي زَمِينٍ: "مِنْ قَوْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْعَرْشَ وَاخْتَصَّه بِالْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ فَوْقَ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَيْهِ كَيْفَ شَاءَ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [طه: ٥] ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا } [الحديد: ٤]. وقال أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي: "مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْعَرْشَ، وَاخْتَصَّه بِالْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ فَوْقَ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَيْهِ كَيْفَ شَاءَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحْدِثَ تَغْيِيرًا فِي ذَاتِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْكَبِيرُ، وَأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ الْكُرْسِيَّ، وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْ الْعَرْشِ".

♦ وقال أَبُو يَعْلَى: "نَصُّ الْقُرْآنِ وَالْأَخْبَارِ الصَّحَاحِ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ".

♦ وقال ابنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي شَرْحِ حَدِيثِ النَّزُولِ: "فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي السَّمَاءِ عَلَى الْعَرْشِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، كَمَا قَالَتِ الْجَمَاعَةُ، وَهُوَ مِنْ حُجَّتِهِمْ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَيْسَ عَلَى الْعَرْشِ".

وَمَعْنَى الْإِسْتَوَاءِ: الْعُلُوُّ، وَالِارْتِفَاعُ، وَالِاسْتِقْرَارُ، وَالصُّعُودُ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ:

"فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعٌ قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَّانِ
وَهِيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلَا وَكَذَلِكَ أَرَى تَفَعَّ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانٍ
وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ وَأَبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيْبَانِي
يَخْتَارُ هَذَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ أَدْرَى مِنَ الْجَهْمِيِّ بِالْقُرْآنِ"

وَأَمَّا مَا يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِ الْبِدْعِ فِي نَفْيِهِمْ لِلِاسْتَوَاءِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا فَوْقَ وَلَا تَحْتَ وَلَا.. وَلَا.. إِلَى آخِرِ تِلْكَ التَّرَاهَاتِ.

فَالنَّصِيحَةُ لَطَالِبُ الْعِلْمِ الْإِعْتَصَامُ بِمَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ، وَلَا يُلْزِمُهُ الْإِطْلَاعُ عَلَى مَقَالَاتِ الْمُخَالَفِينَ لَهُمْ، فَضْلًا عَنْ مَنَاطِرَتِهِمْ وَاسْتِمَاعِ شِبْهِهِمْ، فَإِنَّ السَّلَامَةَ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَنْهَوْنَ أَشَدَّ النَّهْيِ عَنْ مَجَالَسَةِ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ وَضَعُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ لئَلَّا يَصِلَ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ شِبْهِهِمْ، وَذَلِكَ مَعَ عِلْمِ السَّلَفِ وَفَهْمِهِمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ بَعْدَهُمْ!؟

♦ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ: وَقَالَ لِي شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وَقَدْ جَعَلَتْ أَوْرَدَ عَلَيْهِ إِيرَادًا بَعْدَ إِيرَادٍ- لَا تَجْعَلْ قَلْبَكَ لِلِإِيرَادَاتِ وَالشَّبَهَاتِ مِثْلَ السَّفِينَةِ فَيَتَشَرَّبُهَا، فَلَا يَنْصَحُ إِلَّا بِهَا، وَلَكِنْ اجْعَلْهُ كَالزَّجَاجَةِ

المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات -أو كما قال- فما أعلم أنني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك، وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل... انتهى.

وقال الإمام مالك: رأيت إن جاء رجل أجدل من رجل يدع الرجل دينه كل يوم لدين جديد؟!.

وعلى هذا فنصحك بتجنب الجدل مع أهل البدع الاعتقادية، وليسعك التمسك بما أنت عليه من الحق الثابت بالدليل، والذي عليه أئمة أهل السنة من لدن الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلى زماننا.

فمعنى الاستواء عند أهل السنة والجماعة هو: العلو والارتفاع والصعود، وليعلم أنه لا يجوز إبطال دلالة النصوص المثبتة لصفة الاستواء بمجرد أوهم يظن صاحبها أنها دلالات عقلية، إذ إن العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح.

واعلم كذلك أن صفة المكان لم تثبت في الكتاب ولا في السنة، فلا نثبتها ولا ننفيها، والقول بالمكان العدمي لم يسبق إلى إثباته أحد من سلف الأمة، وليسعنا ما وسعهم وإن كان شيخ الإسلام رحمه الله قد عبر بالفاظ مرادفة كالحيز العدمي، فلا ينبغي أن يلجئك النقاش مع المبتدعة إلى تكلف ما ليس لك به علم.

هذا وإن أهل السنة يعتقدون أن الله تعالى فوق خلقه عالٍ عليهم بائن منهم، وهذا إن سماه المبتدعة جهة فإن ذلك لا يزعجنا عن اعتقاده لتواتر النصوص به، وقد بين شيخ الإسلام في أكثر من موضع من كتبه أن الجهة لفظ مجمل يحتمل حقاً وباطلاً والسبيل فيما هذا شأنه من الألفاظ أن يستفصل عن معناه فإن كان باطلاً رد وإن كان حقاً قبل وعبر عنه باللفظ الشرعي وإليك شيئاً من كلامه رحمه الله فقد قال في منهاج السنة النبوية: وكذلك الكلام في لفظ الجهة فإن مسمى لفظ الجهة يراد به أمر وجودي كالفلك الأعلى ويراد به أمر عدمي كما وراء العالم، فإذا أريد الثاني أمكن أن يقال كل جسم في جهة وإذا أريد الأول امتنع أن يكون كل جسم في جسم آخر.

فمن قال: الباري في جهة وأراد بالجهة أمراً موجوداً فكل ما سواه مخلوق له ومن قال إنه في جهة بهذا التفسير فهو مخطئ، وإن أراد بالجهة أمراً عديمياً وهو ما فوق العالم، وقال إن الله فوق العالم فقد أصاب وليس فوق العالم موجود غيره فلا يكون سبحانه في شيء من الموجودات، وأما إذا فسرت الجهة بالأمر العدمي فالعدم لا شيء، وهذا ونحوه من الاستفسار وبيان ما يراد باللفظ من معنى صحيح وباطل يزيل عامة الشبه. انتهى.

وقال أيضاً في مجموع الفتاوى: وقد أخبرنا أيضاً أنه قد استوى على العرش فهذه النصوص يصدق بعضها بعضها والعقل أيضاً يوافقها ويدل على أنه سبحانه مباين لمخلوقاته فوق سماواته، وأن وجود موجود لا مباين للعالم ولا محايت له محال في بديهة العقل فإذا كانت الرؤية مستلزمة لهذه المعاني فهذا حق وإذا سميتم أنتم هذا قولاً بالجهة وقولاً بالتجسيم لم يكن هذا القول نافياً لما علم بالشرع والعقل إذا كان معنى هذا القول والحال هذه ليس منتفياً لا بشرع ولا عقل.

ويقال لهم ما تعنون بأن هذا إثبات للجهة والجهة ممتنعة أتعنون بالجهة أمراً وجودياً أو أمراً عدمياً، فإن أردتم أمراً وجودياً وقد علم أنه ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق والله فوق سماواته بائن من مخلوقاته لم يكن والحالة هذه في جهة موجودة فقولكم إن المرئي لا بد أن يكون في جهة موجودة قول باطل فإن سطح العالم المرئي وليس هو في عالم آخر.

وإن فسرتم الجهة بأمر عديمي كما تقولون إن الجسم في حيز والحيز تقدير مكان وتجعلون ما وراء العالم حيزاً فيقال لكم الجهة والحيز إذا كان أمراً عدمياً فهو لا شيء وما كان في جهة عدمية أو حيز عديمي فليس هو في شيء ولا فرق بين قول القائل هذا ليس في شيء وبين قوله هو في العدم أو أمر عديمي فإذا كان الخالق تعالى مبانياً للمخلوقات عالياً عليها وما ثم موجود إلا الخالق أو المخلوق لم يكن معه غيره من الموجودات فضلاً عن أن يكون هو سبحانه في شيء موجود يحصره أو يحيط به.

فطريقة السلف والأئمة أنهم يراعون المعاني الصحيحة المعلومة بالشرع والعقل ويراعون أيضاً الألفاظ الشرعية فيعبرون بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ومن تكلم بما فيه معنى باطل يخالف الكتاب والسنة ردوا عليه ومن تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حقاً وباطلاً نسبوه إلى البدعة أيضاً وقالوا إنما قابل بدعة ببدعة ورد باطلاً باطل . انتهى .
وأما العرش، فالصحيح أنه أعلى جميع المخلوقات وهو سقفها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والعرش فوق جميع المخلوقات، وهو سقف جنة عدن التي هي أعلى الجنة، كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا سألت الله فأسأله الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وسقفه عرش الرحمن.

♦ وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره...: "هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش، مقهورون بقدرته الله تعالى". انتهى.

وأما الجمع بين كون الله مستويا على عرشه وأن عرشه فوق جميع المخلوقات، وبين الحديث الدال على أن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش، فلم نجد لأئمة أهل السنة ذكراً لذلك بحسب بحثنا، ونحن نؤمن بكل ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد سمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث فلم يستشكلوه، فليسعنا ما وسعهم، ولا نخوض فيما ليس لنا به علم، وقد أحسن من انتهى إلى ما سمع.
فالقاعدة عند أهل السنة في أسماء الله تعالى وصفاته هي قاعدة من سبقهم من سلف من هذه الأمة، وعلى رأسهم الصحابة الكرام والتابعون الأجلاء، وصارت أصلاً متفقاً عليه عند أهل السنة والجماعة، وهي: أ. أنهم يشتهون ما أثبتته الله تعالى لنفسه، وما أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف، ولا تمثيل، ولا تعطيل.

ب. وينفون عنه تعالى ما نفاه عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم.

وكلُّ فعلٍ عنده مُعتلُّ(١)

لكنه عن فعله لا يُسأل(١)

ج. وما لم يرد فيه نفي ولا إثبات فإنهم يتوقفون فيه حتى يُعرف المعنى المراد منه ، فإن كان معنى فاسداً نفوا لفظه ومعناه ، وإن كان معنى صحيحاً أثبتوا المعنى دون اللفظ.

فقد أثبت الله تعالى لنفسه صفة " الاستواء على العرش " في أكثر من موضع من القرآن .

فالاستواء صفة فعلية للرب تعالى ، أثبتها أهل السنّة والجماعة بالمعاني اللاتئة له عز وجل ، من غير تحريف لمعناها ، كما يقول أهل التأويل أن معناها : " الاستيلاء " ! ، ولا تمثيل لها باستواء المخلوق ، فإن الله جل جلاله لا يشبهه أحد في ذاته ، ولا يشبهه أحد في صفاته.

وأما الجلوس : فقد ورد في أحاديث لم تصح ، لكن أثبتته بعض السلف تفسيراً للاستواء.

كما جاء عن الإمام خارجة بن مصعب الضبي ، أخرجه عبد الله بن أحمد في " السنة " (١ / ١٠٥).

وأثبت الحافظ الدارقطني : القعود ، في أبيات مشهورة له.

والمختار هو التوقف في إطلاق لفظ الجلوس والقعود.

ومن جزم بإثبات هذا اللفظ ، فهو تابع لمن أثبتته من السلف ، كخارجة بن مصعب ، والدارقطني ، وعبد الوهاب

الوراق ، وقد أثنى عليه أحمد بأنه إمام ، وكذلك أثبتته : القاضي أبو يعلى ، وأبو القاسم الأصفهاني .

١ — ويجب على المسلم أن يعلم أن الله تعالى لا يفعل شيئاً إلا لحكمة علمها من علمها وجهلها من جهلها.

♦ قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وعلى هذا فكل ما فعله علمنا أن له فيه حكمة ، وهذا يكفيننا من حيث الجملة ، وإن لم نعرف التفصيل ، وعدم علمنا بتفصيل حكمته بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته ، وكما أن ثبوت صفات الكمال له معلوم لنا وأما كنهه . أي حقيقة . ذاته فغير معلومة لنا : فلا نكذب بما علمناه . أي من كماله . ما لم نعلمه . أي من تفاصيل هذا الكمال . ، وكذلك نحن نعلم أنه حكيم فيما يفعله ويأمر به ، وعدم علمنا بالحكمة في بعض الجزئيات لا يقدح فيما علمناه من أصل حكمته ، فلا نكذب بما علمناه من حكمته ما لم نعلمه من تفصيلها ، ونحن نعلم أن من علم حذق أهل الحساب والطب والنحو ولم يكن متصفاً بصفاتهم التي استحقوا بها أن يكونوا من أهل الحساب والطب والنحو : لم يمكنه أن يقدح فيما قالوه لعدم علمه بتوجيهه ، والعباد أبعد عن معرفة الله وحكمته في خلقه من معرفة عوامهم بالحساب والطب والنحو ، فاعتراضهم على حكمته أعظم جهلاً وتكلفاً للقول بلا علم من العامي المحض إذا قدح في الحساب والطب والنحو بغير علمٍ بشيءٍ من ذلك . اهـ هذا الكلام الجميل من " مجموع الفتاوى . "

وينبغي أن يعلم أن قياس أفعال الله تعالى على أفعال البشر من أفسد القياس وأشنع ، فلا يمكن للإنسان أن يحيط علماً بحكمة الله تعالى في خلقه وأمره ، وقضائه وقدره ، مهما أوتي من الفطنة والذكاء والعلم والفهم .

♦ قال ابن القيم في (مفتاح دار السعادة): (مذهب أهل السنة والجماعة أن أفعال الله تعالى لا تقاس بأفعال عباده، ولا تدخل تحت شرائع عقولهم القاصرة، بل أفعاله لا تشبه أفعال خلقه، ولا صفاته صفاتهم، ولا ذاته ذواتهم، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . اهـ).

وقد وصف الله نفسه بالحكمة، وسمى نفسه الحكيم في مواضع كثيرة من كتابه، قال تعالى: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْغَحِ الصَّغْحَ الْجَمِيلَ } [الحجر: ٨٥]، وقال تعالى: { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } [الروم: ٨]، وقال تعالى: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ } [ص: ٢٧].

وأي فعل يصدر عن غير حكمة يقصدها فاعله، فهو عبث منه ولعب، وقد نزه - سبحانه - نفسه عن العبث واللعب، فقال: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ } [الدخان: ٣٨]. وإذا كانت أفعال العقلاء من العباد الذين تعتريهم الغفلة والسهو والخطأ، مصونة عن العبث، فأفعال الله جل جلاله أولى بذلك وأحق. ودلائل هذا الأصل كثيرة جداً، لا تكاد تحصى.

ولا شك أن معرفة الحكمة من الفعل، أو الخلق، أو الأمر: تزيد المرء إيماناً، ولكن ليس شرطاً في الإيمان أن نتعرف على تفاصيل حكمة الله تعالى في خلقه وأمره، ونطلع عليها. وإنما مدار أمر العبد التسليم أولاً، وقبل كل شيء؛ فإن من أدرك الحكمة، فليحمد الله، وإن لم يدركها رجع إلى التسليم لربه تعالى، مع إيمانه أنه سبحانه حكيم عليم، لا يخرج فعل من أفعاله عن الحكمة.

فإن الناس متفاوتون في عقولهم وفهومهم ودينهم، والله يصطفي من عباده من يشاء، ويمن على من يشاء بما شاء من فضله، وقد قال تعالى: { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [البقرة/ ٢٦٩].

♦ قال ابن أبي العز رحمة الله: "اعلم أن مَبْنَى الْعُبُودِيَّةِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ - عَلَى التَّسْلِيمِ، وَعَدَمِ الْأَسْئَلَةِ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالشَّرَائِعِ.

وَلِهَذَا لَمْ يَحْكِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ أُمَّةٍ نَبِيٍّ، صَدَقَتْ بِنَبِيِّهَا، وَآمَنَتْ بِمَا جَاءَ بِهِ، أَنَّهَا سَأَلَتْهُ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ وَنَهَاها عَنْهُ، وَبَلَّغَهَا عَنْ رَبِّهَا.

وَلَوْ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَمَا كَانَتْ مُؤْمِنَةً بِنَبِيِّهَا، بَلْ انْقَادَتْ وَسَلَّمَتْ وَأَدْعَنْتْ، وَمَا عَرَفَتْ مِنَ الْحِكْمَةِ عَرَفَتَهُ، وَمَا خَفِيَ عَنْهَا لَمْ تَتَوَقَّفْ فِي انْقِيَادِهَا وَتَسْلِيمِهَا عَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَلَا جَعَلَتْ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهَا، وَكَانَ رَسُولُهَا أَعْظَمَ عِنْدَهَا مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا فِي الْإِنْجِيلِ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَقُولُوا: لِمَ أَمَرَ رَبُّنَا؟ وَلَكِنْ قُولُوا: بِمَ أَمَرَ رَبُّنَا.

وَلِهَذَا كَانَ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الْأُمَمِ عُقُولًا وَمَعَارِفَ وَعُلُومًا - لَا تَسْأَلُ نَبِيَّهَا: لِمَ أَمَرَ اللَّهُ بِكَذَا؟ وَلَمْ نَهَى عَنْ كَذَا؟ وَلَمْ قَدَّرَ كَذَا؟ وَلَمْ فَعَلَ كَذَا؟ لِعَلِمِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ مُضَادٌّ لِلْإِيمَانِ وَالْإِسْتِسْلَامِ، وَأَنَّ قَدَمَ الْإِسْلَامِ لَا تَثْبُتُ إِلَّا عَلَى دَرَجَةِ التَّسْلِيمِ.

فَأَوَّلُ مَرَاتِبِ تَعْظِيمِ الْأَمْرِ: التَّصَدِيقُ بِهِ، ثُمَّ الْعَزْمُ الْجَازِمُ عَلَى امْتِنَالِهِ، ثُمَّ الْمُسَارَعَةُ إِلَيْهِ وَالْمُبَادَرَةُ بِهِ الْقَوَاطِعِ وَالْمَوَانِعِ، ثُمَّ بَذْلُ الْجُهِدِ وَالنُّصْحِ فِي الْإِثْنَانِ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، ثُمَّ فِعْلُهُ لِكُونِهِ مَأْمُورًا، بِحَيْثُ لَا يَتَوَقَّفُ الْإِثْنَانُ بِهِ عَلَى مَعْرِفَةِ حِكْمَتِهِ - فَإِنْ ظَهَرَتْ لَهُ فَعْلُهُ وَإِلَّا عَطَّلَهُ، فَإِنَّ هَذَا يُنَافِي الْإِنْقِيَادَ، وَيَقْدَحُ فِي الْإِمْتِنَالِ". انتهى من "شرح الطحاوية" (٣٤١).

والحاصل:

أن من فهم الحكمة في البلاء والمرض صبر واحتسب وعلم أنه شيء قدره الله بحكمته وعلمه ، وأنه خير للمسلم في دينه ودنياه.

ومن فهم الحكمة في الغنى والفقر ، شكر إذا أغناه الله ، وصبر إذا قدر الله عليه الحاجة.

ومن فهم الحكمة في تشريع الجهاد ، بادر بالجهاد في سبيل الله بنفسه وماله ، لإعلاء كلمة الله ونشر دينه ، ومحاربة الكفر وأهله.

ومن فهم الحكمة في الصدقة وعلم أنه يكون بها نماء المال وزكاؤه ونفع صاحبه في الدنيا والآخرة وأنه ما نقص مال من صدقة بادر بالصدقة حتى يكون ما يخرج في الله أحب إلى نفسه مما يمسكه. ومن لم يعلم الحكمة:

بادر بالتسليم والرضا، وعلم أنه ربما أتى من قبل جهله ، وعدم علمه ، فيسيء الظن بنفسه ، ويحسن الظن بربه ، فما أسعد المسلم بدينه ، إن هو علم الحكمة زادته إيمانا وفقها ، وعلمها وعملا ، وإن هو جهلها أحسن الظن بربه ، وأساء الظن بنفسه ، وما زاده عدم العلم بها إلا تسليما لربه ، ورضا بما قدره وشاءه وشرعه سبحانه ، قال تعالى : {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة / ٢١٦].

♦ قال ابن القيم رحمه الله: " العبد لا يريد مصلحة نفسه من كل وجه ، ولو عرف أسبابها، فهو جاهل ظالم، وربه تعالى يريد مصلحته ، ويسوق إليه أسبابها.

ومن أعظم أسبابها: ما يكرهه العبد؛ فإن مصلحته فيما يكره ، أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحب " انتهى من "مدارج السالكين" (٢ / ٢٠٥).

وقد انقسم الناس في الحكمة إلى قسمين: القسم الأول: نفاة الحكمة، والقسم الثاني: مثبتو الحكمة، والحكمة والتعليل بمعنى واحد.

فنفاة الحكمة وهم الأشاعرة يقولون: إن الله عز وجل لا يفعل الفعل لحكمة، وإنما يفعله لمحض المشيئة والإرادة، فإذا قال لهم أحد: إن الحكم واضحة في مخلوقات الله عز وجل.

قالوا: هذه الحكم ليست قبل الفعل، وإنما هي بعد الفعل، وثمرة من ثمرات هذا الفعل، وأما الفعل فإن منشأه الأساسي محض المشيئة والإرادة وليس لحكمة أو غاية قبل الفعل.

أما مثبتو الحكمة فهم طائفتان: الطائفة الأولى: المعتزلة: فقد أثبتوا الحكمة، وقالوا: إن الله عز وجل خلق الخلق لحكمة، لكن قالوا: إن هذه الحكمة تعود إلى العباد ولا تعود إلى الله عز وجل بوجه من الوجوه.

وقالوا كذلك: إن هذه الحكمة التي نعلمها بعقولنا واجبة على الله عز وجل، وهذا أصل عندهم يسمونه: إيجاب الأصلح على الله سبحانه وتعالى؛ فإنهم يرون أنه إذا كان الأصلح لهذا العبد أن يوفق لعمل من الأعمال، فيجب على الله أن يفعل هذا العمل.

تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، ولهذا يسميهم السلف الصالح: معطلة الصفات مشبهة الأفعال؛ لأنهم شبهوا الله عز وجل بخلقه في الأفعال.

الشاهد: أنهم حين أثبتوا الحكمة قالوا: إن هذه الحكمة ليست راجعة إلى الله، وإنما هي راجعة إلى العبد، يعني: هذه المصلحة والغاية راجعة إلى العبد وليست راجعة إلى الله سبحانه وتعالى.

والسبب في ذلك: أنهم ينفون الصفات، ويقولون: إن الله سبحانه وتعالى ليست له صفات، ويشبتون الأسماء على أنها أعلاماً محضة فقط، ولا تتضمن شيئاً من الصفات، وحتى العلم ينفونه، ويقولون: عالم بلا علم، فإذا قيل لهم: هل هو جاهل؟ قالوا: لا، علمه هو ذاته علمه هو ذاته.

هكذا يقولون ويسفستون.

وأما السلف الصالح رضوان الله عليهم فإنهم أثبتوا الحكمة، وقالوا: إن الله عز وجل يفعل الفعل لحكمة عظيمة، وهذه الحكمة التي خلق الخلق من أجلها، أو أمر بالشرع من أجلها تعود إليه؛ فهو يحبها سبحانه وتعالى ويرضاها، وتعود إلى العباد من ناحية أنهم يفرحون بها، ويلتذنون بها، وتطمئن نفوسهم إليها.

والسبب الذي جعل الأشاعرة ينفون حكمة الله عز وجل أنهم قالوا: إن حكمة الله عز وجل لو أثبتناها للزم من ذلك أن الله عز وجل يفعل لغاية، قلنا: وما الذي يضر في هذا؟ إذا كان يفعل لغاية فهذا من الكمال، قالوا: لا، معنى هذا أن الله محتاج لهذه الغاية.

ونحن نقول لهم: لا يلزم أن الله عز وجل محتاج لهذه الغاية التي خلق الخلق لأجلها؛ لأنه خلق مخلوقات كثيرة وهو غير محتاج إليها.

ثم إنكم أردتم الفرار وخفتم من إلصاق النقص بالله عز وجل بفهمكم السيئ فألصقتم به النقص بأوضح ما يكون؛ حيث قلتم: إنه يعمل لغير حكمة.

ولهذا وصل الأمر بالأشاعرة أنهم قالوا: إن الله عز وجل قد يدخل الصالحين النار، ويدخل الكفار الجنة، وأن هذا تحت مشيئة الله عز وجل، لو شاء لأدخل الصالحين النار، وأن هذا من إثبات قدرة الله. ونحن نقول: نعم، الله عز وجل قدير، لكن قدرته مرتبطة أيضاً بحكمته فهو قدير حكيم، وليس كل فعل يقدر عليه الرب سبحانه وتعالى لابد بالضرورة أن يفعله.

بقي أن الأشاعرة الذين نفوا صفة الحكمة لله عز وجل نفوها في كتبهم المتعلقة بعلم الكلام، فلما جاءوا إلى كتبهم المتعلقة بأصول الفقه وبالأحكام وبالفقه ونحو ذلك تورطوا؛ لأنهم يشتون القياس، فوجد عدداً كبيراً من الأشاعرة يشتون القياس، مثلاً الفخر الرازي له كتاب اسمه: (نهاية العقول)، وله أيضاً: (معالم أصول الدين)، و(الأربعين في أصول الدين)، و(المطالب العالية)، وغيرها من الكتب الكلامية، يقرر فيها ما يقرره أصحابه من نفي الحكمة، لكن له كتب في أصول الفقه مثل (المحصول)، وهكذا الغزالي له (المستصفى)، و (الاقتصاد في الاعتقاد)، ولهم كتب في علم الكلام، ولهم كتب أيضاً في علم أصول الفقه، فلما جاءوا إلى أصول الفقه وأرادوا أن يقرروا الأدلة الشرعية بدءوا يحددونها أولاً: القرآن، وثانياً السنة، وثالثاً الإجماع، ورابعاً القياس، ولما عرفوا القياس قالوا: هو قياس فرع غير محكوم فيه على أصل محكوم فيه لعله.

قلنا: أنتم تنفون العلة في أمر الله وخلقه فكيف تثبتونها هنا؟ (شرح الواسطية لعبد الرحيم السلمي)

١ - قال تعالى: { لا يسأل عما يفعل وهم يسألون } [الانباء: ٢٣]

♦ قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وهو سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه، وله فيما خلقه حكمة بالغة، ونعمة سابعة، ورحمة عامة وخاصة، وهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لا لمجرد قدرته وقهره، بل لكمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته"

♦ قال الطبري في تفسيرها: " لا سائل يسأل رب العرش عن الذي يفعل بخلقه، من تصريفهم فيما شاء، من حياة وموت وإعزاز وإذلال، وغير ذلك من حكمه فيهم؛ لأنهم خلقه وعبيده، وجميعهم في ملكه وسلطانه، والحكم حكمه، والقضاء قضاؤه، فلا شيء فوقه يسأله عما يفعل، فيقول له: لم فعلت؟ ولم لم تفعل؟ {وَهُمْ يُسْأَلُونَ} فجميع من في السماوات والأرض من عباده مسئولون عن أفعالهم، ومحاسبون على أعمالهم، وهو الذي يسألهم عن ذلك، ويحاسبهم عليه، لأنه فوقهم، ومالكهم، وهم في سلطانه. فَقَوْلُهُ " { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } " أَيُّ هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ أَحَدٌ لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَلُطْفِهِ، ويقول الامام الطحاوي رحمه الله في القدر: " الله خلق الخلق بعلمه، وقدر لهم أقداراً، وضرب لهم آجالاً، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته. وكل شيء يجري بتقديره ومشئته، ومشئته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء الله لهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل

يخلق ما شاء وما شاء فعل

له الكمال مطلقاً عز وجل^(١)

ويبتلي عدلاً . وكلهم متقبلون في مشيئته بين فضله وعدله . وهو متعال عن الأضداد والأنداد ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره . ونحن آمننا بذلك كله ، وأيقنا أن كلاً من عنده ، فمن سأل : لِمَ فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين . فقول الله تعالى : { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء: ٢٣] ، فهذه الآية تؤكد أن الخالق تعالى لا يُسأل عما يفعل ، ولكن الخلق يُسألون عما يعملون ! ، وإن كان الله تعالى الله { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } - فهو سبحانه وتعالى - منزّه عن الظلم ، ومتصف بالعدل ؛ فلا يظلم أحداً مثقال ذرة ، وكل أفعاله عدل ورحمة . قال الله تعالى : { وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ } [ق: ٢٩] . وأهل السنة والجماعة : يعتقدون أن القدر سر الله في خلقه ، لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ضلالة ؛ لأن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، وهم يسلمون تسليماً مطلقاً لقول الله تبارك وتعالى : { قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } [النساء: ٧٨] .

^١ - أخرج ابن أبي حاتم ، واللالكائي في " السنة " والخلعي في " فوائده " عن علي أنه قيل له : إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له علي : يا عبد الله ، خلقتك الله لما يشاء أو لما شئت؟ قال : بل لما يشاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ : الآية ٤٧] .

تأمل قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ، لتعلم أن قدرة الله تعالى لا تنتهي لها ، وأن حكمة الله تعالى لا تحيط بها عقول الخلق .

﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ .. عبارة تلخص لك هذا التنوع الكبير في المخلوقات التي تراها ، منها الصغير الذي تناهى صغره فلا يرى بالعين المجردة ، ومنها الكبير الذي لا يحيط به بصرك ، ويروعك كبره ، وتهولك عظمته ، ومنها ما لا نرى فيه إلا النفع ، ومنها ما لا نرى فيه نفعاً ، ومنها ما ينفع تارةً ويضر أخرى ..

فإذا بحثت عن الحكمة في وجود كثيرٍ منها أعيك الجوابُ ، ورجعت إليك سوانح الفكر حسيّرةً ، وما ذلك إلا لضعف أفهامنا ، وتقاصر عقولنا ، وقلة علومنا .

ومن هذه المخلوقات ما يطير في الهواء ؛ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [سُورَةُ الْمُلْكِ : الآية ١٩] .

وفيه من دلائل قدرة الله ما يدهش الألباب، ويذهل العقول، ولكنها الغفلة التي تحول بيننا وبين التفكير في عظيم صنع الله تعالى؛ ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: الآية ١٠٥].

ومنها ما يسبح في الماء، وما يخفى علينا من مخلوقات البحار أضعاف أضعاف ما نعلمه.
ومنها ما يدبُّ على الأرض ديبياً، وتحت كل جنسٍ أنواعٌ لا يحصيها إلا الذي خلقها، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سُورَةُ النُّورِ: الآية ٤٥].

ومنها ما لا علم لأحدٍ من البشر به؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ الآية ٨].
ثم تأملُ حكمة الله تعالى في خلقه، فبعضهم مبتلى، فهذا أعمى، وهذا أبكم، وهذا أصم، وهذا ولد بداء عضال، وهذا ولد بعضو زائد، لو أنك رجعت إلى عقلك، وثاب إليك رشذك، لقلت من فورك: ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ..﴾
ولا يخلو شيء من خلق الله تعالى من حِكْمٍ تتقاصرُ عنها العقولُ، وتضلُّ في دروبها أفهامُ الفحول..
فكم من شاكرٍ لله على المعافاة، وكم من صابرٍ على البلاء، وكم من داعٍ لكشف الضرِّ ورفع البلاء، وكم من راجٍ لرحمة ربِّ الأرضِ والسماءِ.

^١ — من قواعدِ أسماءِ الله أَنْ أَسْمَاءَهُ كُلُّهَا حُسْنَى

قال الله تعالى: { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الأعراف: ١٨٠].

أي: لله أحسنُ الأسماءِ الدالة على صفاتِ كماله سبحانه.

♦ قال ابن القيم: "أسماءُ الله تعالى كُلُّهَا مَدْحٌ وَثَنَاءٌ وَتَمَجِيدٌ؛ ولذلك كانت حُسْنَى، وصفاته كُلُّهَا صفاتُ كمالٍ".
وقال أيضاً: "أطلقَ الله على نَفْسِهِ أفعالاً لم يتسمَّ منها بأسماءِ الفاعلِ، كأراد، وشاء، وأحدث، ولم يُسمَّ بالمُريدِ والشَّائِ والمُحْدِثِ، كما لم يُسمَّ نَفْسَهُ بالصَّانِعِ والفاعِلِ والمُتَقِنِ وغير ذلك من الأسماءِ التي أطلقَ على نَفْسِهِ؛ فبابُ الأفعالِ أوسعُ من بابِ الأسماءِ.

وقد أخطأَ أَقْبَحَ خَطَأً مَنْ اشْتَقَّ لَهُ مِنْ كُلِّ فِعْلٍ اسْمًا، وَبَلَغَ بِأَسْمَائِهِ زِيَادَةً عَلَى الْأَلْفِ، فَسَمَّاهُ الْمَاكِزَ، وَالْمَخَادِعَ، وَالْفَاتِنَ، وَالْكَائِدَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ بَابُ الْإِخْبَارِ عَنْهُ بِالْأَسْمِ أَوْسَعُ مِنْ تَسْمِيَّتِهِ بِهِ، فَإِنَّهُ يُخْبِرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ شَيْءٌ، وَمَوْجُودٌ، وَمَذْكُورٌ، وَمَعْلُومٌ، وَمَرَادٌ، وَلَا يُسَمَّى بِذَلِكَ.

فأَمَّا الْوَاجِدُ فَلَمْ تَحْجِ تَسْمِيَّتُهُ بِهِ إِلَّا فِي حَدِيثِ تَعْدَادِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ؛ فَإِنَّهُ ذُو الْوُجْدِ وَالْغِنَى، فَهُوَ أَوْلَى بِأَنْ يُسَمَّى بِهِ مِنَ الْمَوْجُودِ وَمِنَ الْمَوْجِدِ؛ أَمَّا

الموجود فإنه مُنْقَسِمٌ إلى كاملٍ وناقصٍ، وخَيْرٍ وشرٍّ. وما كان مسمَّاه مُنْقَسِمًا لم يَدْخُلْ اسمه في الأسماءِ الحُسْنَى، كالشَّيءِ، والمَعْلُومِ؛ ولذلك لم يُسمَّ بالمُرِيدِ، ولا بالمتكَلِّمِ، وإن كان له الإرادةُ والكلامُ؛ لانقسامِ مُسمَّى المرِيدِ والمتكَلِّمِ، وأمَّا الموجدُ فقد سَمَّى نفسه بأكملِ أنواعه، وهو الخالقُ، البارئُ، المصورُ، فالموجدُ كالمحدثِ والفاعلِ والصَّانعِ.

وهذا من دقيقِ فقهِ الأسماءِ الحُسْنَى، فتأملْه، وباللهِ التَّوفيقُ".

وقال مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْوَزِيرُ: "معنى الأسماءِ الحُسْنَى ما يُفِيدُ أَحْسَنَ المَدْحِ الحَسَنِ، والوصفِ الجميلِ الحميدِ اللَّائِقِ بِالْمَلِكِ المَجِيدِ؛ لأنَّ الحُسْنَى أَحْسَنُ الأسماءِ لا حَسَنُها".

وقال أيضًا: "اعلم أنَّ الحُسْنَى في اللُّغةِ هو جَمْعُ الأحسنِ، لا جَمْعُ الحسنِ؛ فإنَّ جَمْعَهُ حِسانٌ وحَسَنَةٌ، فأسماءُ اللهِ التي لا تُحصى، كُلُّها حَسَنَةٌ، أي: أَحْسَنُ الأسماءِ، وهو مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرَّوم: ٢٧] أي: الكَمالُ الأعظمُ في ذاتِهِ وأسمائِهِ ونُعوَتِهِ؛ فلذلك وَجِبَ أن تكونَ أَسْماءُ أَحْسَنِ الأسماءِ، لا أن تكونَ حَسَنَةً وحِسانًا لا سِوَى، وكم بين الحسنِ والأحسنِ مِنَ التَّفَاوُتِ العَظِيمِ عَقْلًا وَشَرْعًا وَلُغَةً وَغَرَفًا".

وقال سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ آلِ الشَّيْخِ: "يُخْبِرُ تعالى أنَّ له أَسْمَاءً وَصَفَها بِكَوْنِها حُسْنَى، أي: حِسانًا. وقد بَلَغَتْ الغايةَ في الحُسْنِ، فلا أَحْسَنَ منها، كما يَدُلُّ عليه من صِفاتِ الكَمالِ، ونُعوَتِ الجَلالِ، فأسماءُ الدَّالَّةِ على صِفاتِهِ هي أَحْسَنُ الأسماءِ وأَكْمَلُها، فليس في الأسماءِ أَحْسَنُ منها، ولا يَقُومُ غَيْرُها مَقامَها".

♦ وقال محمود الألويسي: "والحُسْنَى تَأْنِيثُ الأحسنِ، أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ، ومعنى ذلك أَنَّها أَحْسَنُ الأسماءِ وأَجْلُها؛ لِإِنْبائِها عن أَحْسَنِ المعاني وأَشْرَفِها".

وقال أيضًا: "وَصَفُ الأسماءِ بالحُسْنَى؛ لِدَلالِها على ما هو جَامِعٌ لَجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ، بحيث لا يَشِدُّ منها شيءٌ، وما هو من صِفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والإِكْرامِ".

♦ وقال ابنُ عُثَيْمِينَ: "أَسْماءُ اللهِ كُلُّها حُسْنَى، أي: بِالغَةِ في الحُسْنِ غايَتُهُ؛ لِأَنَّها مُتَضَمِّنَةٌ لَصِفاتِ كَامِلَةٍ لا نَقْصَ فيها بَوَجهِ مِنَ الوُجُودِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فَمَثَلًا: (الحَيُّ) اسمٌ مِنْ أَسْماءِ اللهِ تعالى، وهو مُتَضَمِّنٌ لَصِفَةِ الحِياةِ الكَامِلَةِ التي لم تُسَبِّقْ بَعْدَمَ، ولا يَلْحَقُها زَوالٌ، وهي حِياةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لَكَمالِ الصِّفاتِ؛ مِنَ العِلْمِ، والقُدْرَةِ، والسَّمْعِ، والبَصَرِ، وَغَيرِها.

و(العَلِيمُ) اسمٌ مِنْ أَسْماءِ اللهِ، وهو مُتَضَمِّنٌ لِلْعِلْمِ الكَامِلِ، الذي لم يُسَبِّقْ بِجَهْلٍ، ولا يَلْحَقُهُ نِسْيَانٌ، وهو ذو عِلْمٍ واسعٍ مُحِيطٍ بِكُلِّ شَيْءٍ جَمَلَةً وَتَفْصِيلًا.

و(الرَّحْمَنُ) اسمٌ مِنْ أَسْماءِ اللهِ تعالى، وهو مُتَضَمِّنٌ لِلرَّحْمَةِ الكَامِلَةِ.

والحُسْنُ في أَسْماءِ اللهِ تعالى له اعتباران:

• باعتبارِ كُلِّ اسمٍ على انفرادِهِ.

- باعتبار جمعه مع غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى اسم آخر كمال فوق كمال.
- ومثال ذلك: (العزیز الحکیم) فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيراً، فيكون كل منهما دالاً على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحكم والحكمة في الحكيم، والجمع بينهما دال على كمال آخر، وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة، فعزته لا تقتضي ظلمًا وجورًا وسوء فعل، كما قد يكون من أعزاء المخلوقين؛ فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم، فيظلم ويجور ويُسِيء التصرف، وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل بخلاف حكم المخلوق وحكمته؛ فإنهما يعتريهما الدُّل .

وكل اسم لا يفيد صفة كمال وجلال فإنه لا يجوز إطلاقه على الله تعالى .

ومن ذلك اسم: (الدَّهْر) فهو اسم جامد لا يتضمن معنى يلحقه بالأسماء الحسنى، فهو اسم للوقت والزمن، كما قال الله تعالى عن منكري البعث: { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } [الجاثية: ٢٤] يريدون مرور الليالي والأيام، فأما قوله صلى الله عليه وسلم ((قال الله عز وجل: يُوْذِنِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)) فلا يدلُّ على أن الدهر من أسماء الله تعالى؛ وذلك أن الذين يسبون الدهر إنما يريدون الزمان الذي هو محلُّ الحوادث، فيكون معنى قوله: ((وأنا الدهر)) مُفسِّراً بقوله: ((بيدي الأمر أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)) فهو سبحانه خالق الدهر وما فيه، وقد بين أنه يُقْلَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وهما الدهر، ولا يمكن أن يكون المقلب - بكسر اللام - هو المقلب - بفتحها - وبهذا تبين أنه يمتنع أن يكون الدهر في هذا الحديث مراداً به الله تعالى .

♦ وقال سليمان بن عبد الله آل الشيخ: (قوله: ((وأنا الدهر))، قال الخطابي: معناه: أنا صاحب الدهر، ومُدَبِّرُ الْأُمُورِ التي ينسبونها إلى الدهر، فمن سبَّ الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عادَّ سبُّه إلى ربِّه الذي هو فاعلها، وإنما الدهر زمانٌ جعل ظرفاً لمواقع الأمور.

قلت: ولهذا قال في الحديث: ((وأنا الدهر بيدي الأمر أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)) وفي رواية لأحمد: ((بيدي الليل والنهار أَجْدُّه وأبْلِيه، وأذهب بالملوك)) . ((وفي رواية)) (لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر، الأيام والليالي أَجْدُّها وأبْلِيها، وآتي بملوك بعد ملوك) قال الحافظ: وسنده صحيح. فقد تبين بهذا خطأ ابن حزم في عده الدهر من أسماء الله الحسنى، وهذا غلط فاحش، ولو كان كذلك لكان الذين قالوا: { وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية: ٢٤] مُصِيبِينَ.

فأسماء الله تعالى كلها حسنى أي: بالغة في الحسن غايته، وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالاً ولا تقديراً.

بها الدعاء يرتضيه الباري

كيما تُنتال رحمة الغفار^(١)

والْحُسْنُ في أسماء الله تعالى يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال. مثال ذلك: (العزیز الحكيم)

فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيراً. فيكون كل منهما دالا على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزیز، والحُكْم والحكمة في الحكيم. والجمع بينهما دال على كمال آخر، وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة، فعزته لا تقتضي ظلما وجورا وسوء فعل، كما قد يكون من أعزاء المخلوقين، فإن العزیز منهم قد تأخذ العزة بالإثم فيظلم ويجور ويسئ التصرف. وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل، بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما الذل. (شرح القواعد المثلى لابن عثيمين رحمه الله تعالى)

^١ — قال تعالى { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } [الأعراف: ١٨٠]. فأمر بالدعاء، وعلمنا الأدب في الدعاء أن يكون بذكر أسمائه الحسنى، وأسمائه سبحانه حسنى في ألفاظها، وحسنى في معانيها، وحسنى في مقتضياتها، وكل اسم من أسمائه سبحانه مفتاح من مفاتيح الخير، وباب من أبواب الرجاء. وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل معرفة أسماء الله تعالى وكيف ندعو ربنا بها فقال: ((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)) متفق عليه.

ومن معاني الإحصاء في هذا الحديث: أن نعرف أسماء الله ونذكرها ونحفظها، ومنه أن نتعبد الله تعالى بها، ومنه أن ندعوه بمقتضاها سبحانه وتعالى. فمن إحصاء أسماء الله تعالى ودعائه بها: أن يمجّد العبد ربّه إذا ما قام يدعوه، فيذكر من أسماء الله سبحانه بين يدي مسألته قبل الدعاء، فيقول مثلاً: يا رحمن، يا رحيم، يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام. وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول في قيامه قبل أن يذكر مسألته: ((اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنِيتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)) رواه البخاري ومسلم.

فاكمل الاوصاف لله اتى

وكل وصفٍ للإله أثبتا

اصدق قِلاً في الورى وأعلم

كما به من أرسلوا تكلموا

ومن إحصاء أسماء الله تعالى ودعائه بها: أن نتعبد لله تعالى بها في جوارحنا في أعمالنا، فنستحي أن نعصيه سبحانه لأننا نؤمن أنه البصير الرقيب، ونكثر من ذكره سبحانه لأننا نؤمن أنه السميع العليم، ونكثر من التوبة والإنابة إليه لأننا نؤمن أنه تواب غفور رحيم، وهكذا.

ومن إحصاء أسماء الله تعالى ودعائه بها: أن نسأل الله حاجاتنا بأسمائه الحسنی ونذكر في كل دعاء الاسم الذي يتناسب مع ما نطلب وندعو به، فنقول: اللهم ارزقنا فإنك أنت الرزاق ذو القوة المتين، ونقول اللهم اغفر لنا فإنك أنت الغفور الرحيم، ونقول اللهم اشفنا فإنك الشافي، ونقول اللهم ارحمنا فإنك أنت الرحيم وأرحم الراحمين، وهذا من تمام الأدب مع الله تعالى، أن يُسأل كل مطلوب بما يناسبه من أسمائه. ومن الخطأ أن يختتم الداعي على الكفار بالعذاب دعاءه مثلاً فيقول: "اللهم عذبهم يا أرحم الراحمين"! فهذا تناقض في الدعاء، لأن اسم الرحيم لا يناسب مقام الانتقام. بل يُقال: اللهم عليك بهم يا قوي يا جبار يا منتقم يا عزيز، ونحوها من الأسماء التي تتناسب وهذا الدعاء.

ومن أعظم وجوه إحصاء أسماء الله تعالى ودعائه بها: التأمل في ترتيب أسماء الله تعالى في القرآن، فالله تعالى ما ذكر اسماً مع آخر إلا لحكمة بالغة. قال تعالى: { وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } في مواضع كثيرة، فقدّم العزة لأنها تدل على القدرة والغلبة، وأتبعها بالحكمة لأنها تضبط القوة بالعدل والعلم. ولم يقل: "الغفور الرحيم" في موضع و"الرحيم الغفور" في آخر عبثاً، بل كل ترتيب له مناسبة وسياق، ف"الغفور الرحيم" حين تكون المغفرة مقدمة على الرحمة، و"الرحيم الغفور" حين تكون الرحمة سبب المغفرة. ومعرفة ذلك والتأمل فيه مما ينبغي على المسلم الوقوف عليه ليتعرف على ربه ويزداد إيمانه به سبحانه.

وإن لله تعالى في أسمائه الحسنی كنوزاً من الإيمان والمعرفة، فمن عرف الله بها أحبه، ومن أحبه أطاعه، ومن أطاعه سعد في دنياه وأخراه. تأملوا اسم الله العظيم الجامع لكل صفات الكمال، واسمه الحي القيوم الذي إذا دُعي به أجاب، واسمه الغفور الذي لا يُقنط العاصي من رحمته، واسمه الرزاق الذي يفتح أبواب البركات، واسمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة؛ وادعوا الله بها، فمن دعاه بها على علم ويقين، كان من المحسنين الذين قال الله فيهم: { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } [الأعراف: ٥٥].

لأنه سبحانه ليس يرى

وليس شيء مثله بلا مرا(١)

١ - قال شيخ الاسلام في الفتاوى : " إثبات صفات الكمال له طرق . أحدها ما نبهنا عليه من أن الفعل مستلزم للقدرة ولغيرها .

وأما الطريق الأخرى في إثبات الصفات وهي : الاستدلال بالآثر على المؤثر وأن من فعل الكمال فهو أحق بالكمال . والثالثة طريقة قياس الأولى وهي الترجيح والتفضيل وهو أن الكمال إذا ثبت للمحدث الممكن المخلوق فهو للواجب القديم الخالق أولى . والقرآن يستدل بهذه وهذه وهذه . فالاستدلال بالآثر على المؤثر أكمل كقوله تعالى { وقالوا من أشد منا قوة } قال الله تعالى { أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة } وهكذا كل ما في المخلوقات من قوة وشدة تدل على أن الله أقوى وأشد وما فيها من علم يدل على أن الله أعلم وما فيها من حياة يدل على أن الله أولى بالعلم والحياة .

وهذه طريقة يقر بها عامة العقلاء حتى الفلاسفة يقولون : كل كمال في المعلوم فهو من العلة . وأما الاستدلال بطريق الأولى فكقوله { والله المثل الأعلى } ومثل قوله : { ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم } وأمثال ذلك مما يدل على أن كل كمال لا نقص فيه يثبت للمحدث المخلوق الممكن فهو للقديم الواجب الخالق أولى من جهة أنه أحق بالكمال لأنه أفضل . وذلك من جهة أنه هو جعله كاملاً وأعطاه تلك الصفات .

واسمه " العلي " يفسر بهذين المعنيين يفسر بأنه أعلى من غيره قدراً فهو أحق بصفات الكمال ؛ ويُفسر بأنه العالي عليهم بالقهر والغلبة فيعود إلى أنه القادر عليهم وهم المقدورون . وهذا يتضمن كونه خالقاً لهم ورباً لهم . وكلاهما يتضمن أنه نفسه فوق كل شيء فلا شيء فوقه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم { أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء . وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء } فلا يكون شيء قبله ولا بعده ولا فوقه ولا دونه كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم وأثنى به على ربه . وإلا فلو قدر أنه تحت بعض المخلوقات كان ذلك نقصاً وكان ذلك أعلى منه . وإن قيل : إنه لا داخل العالم ولا خارجه كان ذلك تعطيلاً له فهو منزّه عن هذا . وهذا هو العلي الأعلى مع أن لفظ " العلي " و " العلو " لم يستعمل في القرآن عند الإطلاق إلا في هذا وهو مستلزم لذنيك لم يستعمل في مجرد القدرة ولا في مجرد الفضيلة . وللفظ " العلو " يتضمن الاستعلاء وغير ذلك من الأفعال إذا عُدّي بحرف الاستعلاء دل على العلو كقوله { ثم استوى على العرش } فهو يدل على علوه على العرش . والسلف فسروا " الاستواء " بما يتضمن الارتفاع فوق العرش كما ذكره البخاري في صحيحه عن أبي العالية في قوله { ثم استوى } قال : ارتفع . وكذلك رواه ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم رواه من حديث آدم بن أبي إياس عن أبي جعفر عن أبي الربيع عن أبي العالية : { ثم استوى } قال : ارتفع .

وَقَالَ الْبَخَارِيُّ : وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } عَلَا عَلَى الْعَرْشِ . وَلَكِنْ يُقَالُ : " عَلَا عَلَى كَذَا " و " عَلَا عَنْ كَذَا " وَهَذَا الثَّانِي جَاءَ فِي الْقُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ لَكِنْ بِلَفْظِ " تَعَالَى " كَقَوْلِهِ { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا } { عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } وَبَسَطَ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ وَأَنَّهُ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ يَدُلُّ عَلَى هَاتَيْنِ الطَّرِيقَتَيْنِ مِنْ إِبْثَاتِ الصِّفَاتِ كَمَا دَلَّنَا عَلَى الطَّرِيقَةِ الْأُولَى طَرِيقَةُ الاسْتِدْلَالِ بِالْفِعْلِ . فَإِنَّ قَوْلَهُ { الْأَكْرَمُ } يَقْتَضِي أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ فِي الْكَرَمِ وَالْكَرَمِ اسْمٌ جَامِعٌ لِجَمِيعِ الْمَحَاسِنِ . فَيَقْتَضِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ وَالْمَحَامِدِ هِيَ صِفَاتُ الْكَمَالِ فَيَقْتَضِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ وَالرَّحْمَةِ وَأَحَقُّ بِالْحِكْمَةِ وَأَحَقُّ بِالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ { خَلَقَ } . فَإِنَّ الْخَالِقَ قَدِيمٌ أَرْزَلِي مُسْتَعْنٍ بِنَفْسِهِ وَاجِبُ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ قَيُّومٌ . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ أَحَقُّ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ مِنَ الْمَخْلُوقِ الْمُحْدِثِ الْمُمْكِنِ . فَهَذَا مِنْ جِهَةِ قِيَاسِ الْأُولَى . وَمِنْ جِهَةِ الْأَثَرِ فَإِنَّ الْخَالِقَ لِعَبْدِهِ الَّذِي جَعَلَهُ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا سَمِيعًا بَصِيرًا هُوَ أَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ حَيًّا عَالِمًا قَدِيرًا سَمِيعًا بَصِيرًا . وَ { الْأَكْرَمُ } { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } . فَجَعَلَهُ عَلِيمًا وَالْعَلِيمُ لَا يَكُونُ إِلَّا حَيًّا . وَكَرَّمَهُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ قَدِيرًا سَمِيعًا بَصِيرًا . وَالْأَكْرَمُ الَّذِي جَعَلَ غَيْرَهُ عَلِيمًا هُوَ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ عَلِيمًا . وَكَذَلِكَ فِي سَائِرِ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْمَحَامِدِ . فَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِالْمَخْلُوقِ الْخَاصِّ وَالْأَوَّلِ اسْتِدْلَالٌ بِجِنْسِ الْخَلْقِ . وَلِهَذَا دَلَّ هَذَا عَلَى ثُبُوتِ الصِّفَاتِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَكَذَلِكَ طَرِيقَةُ التَّفْصِيلِ وَالْأَوَّلَى وَأَنْ يَكُونَ الرَّبُّ أَوْلَى بِالْكَمَالِ مِنَ الْمَخْلُوقِ . "

١ — الله تعالى منزّه عن كل صفة تنافي الكمال وكل صفة نفاها الله تعالى عن نفسه اما متصلة او منفصلة فقد نفى تعالى عن نفسه الموت في قوله : { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ } [الفرقان: ٥٨] ، ونفى الظلم عنه بقوله : { وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا } [الكهف: ٤٩] . فقد نفى أيضا: العجز والضعف، والفقر، والسنة والنوم، والإعياء والتعب واللغوب، والجهل، والغفلة، والنسيان، والحاجة إلى الطعام والزرق، والعبث، والشفاعة دون إذنه. كما نفى عن نفسه: الشريك، والزوجة، والولد، والكفء، والولي، والظهير، فقال تعالى : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا } [فاطر: ٤٤] . وقال سبحانه : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ } [المائدة: ٦٤] .

وقال : { لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا } [البقرة: ٢٥٥] .

وقال : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] وقال : { أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى } [القيامة: ٣٦].

وقال : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا } [مريم: ٦٤].

وقال : { وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [يونس: ٦١].

وقال : { وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ } [المؤمنون: ١٧].

وقال : { قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ } [الأنعام: ١٤].

وقال : { مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [الذاريات: ٥٧ - ٥٨].

وقال : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ } [ق: ٣٨].

وقال : { بِدَبِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [الأنعام: ١٠١].

وقال : { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } [الإسراء: ١١١].

وقال : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [سبا: ٢٢، ٢٣].

وقال : { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا } [الفرقان: ٢].

وقال : { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص: ٣، ٤].

وقد جمع ابن القيم ذلك في نونيته، حينما ذكر تقسيم التوحيد إلى: قولي وعملي، وقسم القولي إلى: نفي وإثبات، وقسم النفي إلى: متصل ومنفصل، فقال:

سلب النقائص والعيوب جميعها ... عنه هما نوعان معقولان

سلب لمتصل ومنفصل هما ... نوعان معروفان، أما الثاني

سلب الشريك مع الظهير مع الش... فيع بدون إذن الخالق الديان

وكذاك سلب الزوج والولد الذي ... نسبوا إليه عابدو الصلبان

وكذاك نفي الكفاء أيضا والولي ... لنا سوى الرحمن ذي الغفران

والأول التنزيه للرحمن عن ... وصف العيوب وكل ذي نقصان

كالموت والإعياء والتعب الذي... ينفى اقتدار الخالق الديان
والنوم والسنة التي هي أصله... وعزوب شيء عنه في الأكوان
وكذلك العبث الذي تنفيه حكمت... به وحمد الله ذي الإتيقان
وكذاك ترك الخلق إهمالا سدى... لا يعيشون إلى معاد ثان
كلا ولا أمر ولا نهى... عليهم من إله قادر ديان
وكذاك ظلم عباده وهو الغني... فما له والظلم للإنسان
وكذاك غفلته تعالى وهو علا... م الغيوب فظاهر البطلان
وكذاك النسيان جل إلهنا... لا يعتريه قط من نسيان
وكذاك حاجته إلى طعام ورزق... وهو رزاق بلا حسابان.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله:- " وَمِنْ أَبْلَغِ الْعُلُومِ الصَّرُورِيَّةِ أَنَّ الطَّرِيقَةَ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ بِهَا أَنْبِيََاءَهُ وَرُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهَا كُتُبَهُ، مُشْتَمِلَةً عَلَى الْإِثْبَاتِ الْمُفَصَّلِ، وَالنَّفْيِ الْمُجْمَلِ، كَمَا يُقَرَّرُ فِي كِتَابِهِ، وَعِلْمِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَسَمْعِهِ، وَبَصَرِهِ، وَمَشِيَّتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَقُولُ فِي النَّفْيِ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم: ٦٥]، { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } [الإخلاص: ٣]، { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص: ٤]، وَعَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ اتِّبَاعُ الْمُرْسَلِينَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَأَمَّا طَرِيقُهُ هَؤُلَاءِ، فَهِيَ نَفْيٌ مُفَصَّلٌ، لَيْسَ بِكَذَا وَلَا كَذًا، وَإِثْبَاتٌ مُجْمَلٌ. انتهى.

♦ وقال في الفتاوى " وهكذا عامة ما يأتي به القرآن في نفي السوء والنقص عنه يتضمن إثبات محاسنه وكماله كقوله تعالى: { الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم } فنفي أخذ السنة والنوم له يتضمن كمال حياته وقيوميته وقوله: { وما مسنا من لغوب } يتضمن كمال قدرته ونحو ذلك فالتسبيح المتضمن تنزيهه عن السوء ونفي النقص عنه يتضمن تعظيمه ففي قوله: { سبحانك } تبرئته من الظلم وإثبات العظمة الموجبة له براءته من الظلم فإن الظالم إنما يظلم لحاجته إلى الظلم أو لجهله والله غني عن كل شيء عليم بكل شيء وهو غني بنفسه وهو غني بنفسه وكل ما سواه فقير إليه وهذا كمال العظمة ".
♦ وقال الشيخ العثيمين في تقريب التدمرية: الضابط في باب الإثبات أن نشأت لله تعالى ما أثبتته لنفسه من صفات الكمال على وجه لا نقص فيه بأي حال من الأحوال، لقوله تعالى: { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [النحل: ٦٠]. والمثل الأعلى هو الوصف الأكمل الذي لا يماثله شيء، فصفات الله تعالى كلها صفات كمال سواء كانت صفات ثبوت أم صفات نفي، وقد سبق أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله تعالى، وأن المقصود بصفات النفي نفي تلك الصفة لا تصافه بكمال ضدها، ولهذا لا يصح في ضابط الإثبات أن نعتمد على مجرد الإثبات بلا تشبيه، لأنه لو صح ذلك لجاز أن يثبت المفترى لله سبحانه كل صفة نقص مع نفي التشبيه، فيصفه بالحزن والبكاء والجوع والعطش ونحوها مما ينزه الله عنه مع نفي التشبيه، فيقول: إن الله يحزن لا كحزن العباد

وبيكي لا كبكائهم، ويجوع لا كجوعهم، ويعطش لا كعطشهم، ويأكل لا كأكلهم، كما أنه يفرح لا كفرحهم ويضحك لا كضحكهم، ويتكلم لا ككلامهم، ثم يقول المفترى لمن نفى ذلك وأثبت الفرح والضحك والكلام والوجه واليدين: أي فرق بين ما نفيت وما أثبت، إذا جعلت مجرد نفى التشبيه كافياً في الإثبات، فأنا لم أخرج عن هذا الضابط فإني أثبت ذلك بدون تشبيه، فإن قال النافي: الفرق هو السمع أي الدليل من الكتاب والسنة فما جاء به الدليل أثبته وما لم يجرى به لم أثبته، قال المفترى: السمع خبر والخبر دليل على المخبر عنه، والدليل لا ينعكس فلا يلزم من عدمه عدم المدلول عليه، لأنه قد يثبت بدليل آخر، فما لم يرد به السمع يجوز أن يكون ثابتاً في نفس الأمر وإن لم يرد به السمع، ومن المعلوم أن السمع لم يرد بنفي كل هذه الأمور بأسمائها الخاصة، فلم يرد بنفي الحزن، والبكاء، والجوع، والعطش، وإذا لم يرد بنفيها جاز أن تكون ثابتة في نفس الأمر، فلا يجوز نفيها بلا دليل، وبهذا ينقطع النافي لهذه الصفات حيث اعتمد فيما ينفيه على مجرد نفى التشبيه، ويعلم أنه لا يصح الاعتماد عليها، وإنما الاعتماد على ما دل عليه السمع والعقل من وصف الله تعالى بصفات الكمال على وجه لا نقص فيه، وعلى هذا فكل ما ينافي صفات الكمال الثابتة لله، فالله منزّه عنه، لأن ثبوت أحد الضدين نفي للآخر ولما يستلزمه، وبهذا يمكن دفع ما أثبته هذا المفترى لله تعالى من صفات النقص فيقال: الحزن، والبكاء والجوع، والعطش صفات نقص منافية لكماله فتكون منتفية عن الله، ويقال أيضاً: الأكل، والشرب مستلزم للحاجة والحاجة نقص، وما استلزم النقص فهو نقص، ويقال أيضاً: الكبد، والمعدة، والأمعاء آلات الأكل والشرب، والمنزه عن الأكل والشرب منزّه عن آلات ذلك، وأما الفرح، والضحك، والغضب، ونحوها فهي صفات كمال لا نقص فيها فلا تنتفي عنه، لكنها لا تماثل ما يتصف به المخلوق منها فإنه سبحانه لا كفء له ولا سمي، ولا مثل، فلا يجوز أن تكون حقيقة ذاته كحقيقة شيء من ذوات المخلوقين، ولا حقيقة شيء من صفاته كحقيقة شيء من صفات المخلوقين، لأنه ليس من جنس المخلوقات، لا الملائكة، ولا الآدميين، ولا السموات ولا الكواكب، ولا الهواء، ولا الأرض وغير ذلك. اهـ.

وقال الشيخ أيضاً في القواعد المثلى في ذكر قواعد الصفات :

القاعدة الأولى: صفات الله كلها صفات كمال لا نقص فيها، وإذا كانت الصفة نقصاً لا كمال فيها فهي ممتنعة في حق الله تعالى، كالموت والجهل والنسيان والعجز، والعمى والصمم، ونحوها، وقد عاقب الله تعالى الواصفين له بالنقص، كما في قوله تعالى: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ } وقوله: { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } ونزه نفسه عما يصفون به من النقائص، فقال سبحانه: { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }، وقال تعالى: { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ } . وإذا كانت الصفة كمالاً في حال، ونقصاً في حال لم تكن جائزة في حق الله، ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق، فلا تُثبت له

وليس شيءٌ يُعجز القديرا(١)

في فعله قد احكم التديرا(١)

إثباتا مطلقا، ولا تُنفَى عنه نفيا مطلقا، بل لا بد من التفصيل، فتجوز في الحال التي تكون كمالاتها، وتمتنع في الحال التي تكون نقصا، وذلك كالمكر، والكيد، والخداع، ونحوها. اهـ.

والخلاصة أن موقف أهل الحق مبني على تنزيه الله تعالى عن صفات النقص مطلقا، قال الدكتور محمد بن خليفة التميمي في كتابه: مواقف الطوائف من توحيد الأسماء والصفات: قولهم. يعني أهل السنة. في الصفات مبني على أصليين:

أحدهما: أن الله سبحانه وتعالى منزّه عن صفات النقص مطلقا، كالسنة والنوم والعجز والجهل، وغير ذلك. والثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها، على وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات. اهـ.

وقال السفاريني في لوامع الأنوار البهية: لا خلاف بين العقلاء أن الله سبحانه وتعالى متصف بجميع صفات الكمال، منزّه عن جميع صفات النقص، لكنهم مع اتفاقهم على ذلك اختلفوا في الكمال والنقص، فتراهم يثبت أحدهم لله ما يظنه كمالات، وينفي الآخر عين ما أثبتته هذا لظنه نقصا، وسبب ذلك أنهم سلطوا الأفكار على ما لا سبيل إليه من طريق الفكر، فإن الله تعالى خلق العقول، وأعطاهما قوة الفكر وجعل لها حدا تقف عنده من حيث ما هي مفكرة، لا من حيث ما هي قابلة للوهب الإلهي، فإذا استعملت العقول أفكارها فيما هو في طورها وحدها ووفت النظر حقه، أصابت بإذن الله تعالى، وإذا سلطت الأفكار على ما هو خارج عن طورها ووراء حدها الذي حده الله لها، ركبت متن عمياء، وخبطت خبط عشواء، فلم يثبت لها قدم ولم ترتكن على أمر تطمئن إليه، فإن معرفة الله التي وراء طورها مما لا تستقل العقول بإدراكها من طريق الفكر وترتيب المقدمات، وإنما تدرك ذلك بنور النبوة وولاية المتابعة، فهو اختصاص إلهي يختص به الأنبياء وأهل وراثتهم مع حسن المتابعة، وتصفية القلب من ضرر البدع والفكر من نزغات الفلسفة، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. اهـ.

١ — فالله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء من خلقه، فلا يتوذه حفظ السماوات والأرض، كما قال: { وَلَا يَتَوَدَّهِ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [البقرة: ٢٥٥]. كذلك لا يعجزه أحد من خلقه، ولذلك فإن الجن قالوا هذا كما حكى الله عنهم: { وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا } [الجن: ١٢] ، فهذا لا يمكن أن يقع أبداً.

♦ قال ابو العز الحنفي في شرح الطحاوية " قَوْلُهُ: (وَلَا شَيْءٌ يُعْجِزُهُ). لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [سورة البقرة آية: ٢٠]. ، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا} [سورة الكهف آية: ٤٥] ، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [سورة فاطر آية: ٤٤]. ، {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [سورة

البقرة آية: ٢٥٥] ، "لَا يَتُودُهُ" أَي: لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ وَلَا يُعْجِزُهُ، فَهَذَا النَّفْيُ لثُبُوتِ كَمَالِ صِدِّهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ نَفْيٍ يَأْتِي فِي صِفَاتِ اللَّهِ - تَعَالَى - فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِنَّمَا هُوَ لثُبُوتِ كَمَالِ صِدِّهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا} [سورة الكهف آية: ٤٩] ، لِكَمَالِ عَدْلِهِ، {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} [سورة سبأ آية: ٣] لِكَمَالِ عِلْمِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [سورة ق آية: ٣٨] لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ، {لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ} [سورة البقرة آية: ٢٥٥] لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وَقِيُومِيَّتِهِ، {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} [سورة الأنعام آية: ١٠٣] ، لِكَمَالِ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ، وَإِلَّا فَالْتَفْيُ الصَّرْفُ لَا مَدْحَ فِيهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

قُبَيْلَةً لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

لَمَّا افْتَرَنَ بِنَفْيِ الْعُدْرِ وَالظُّلْمِ عَنْهُمْ مَا ذَكَرَهُ قَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ وَبَعْدَهُ .

وَتَصْغِيرُهُمْ بِقَوْلِهِ: "قُبَيْلَةً" عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ عَجْزُهُمْ وَضَعْفُهُمْ، لَا كَمَالُ قُدْرَتِهِمْ وَقَوْلُ الْآخَرِ:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

لَمَّا افْتَرَنَ بِنَفْيِ الشَّرِّ عَنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى ذِمَّتِهِمْ، عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ عَجْزُهُمْ وَضَعْفُهُمْ أَيْضًا.

وَلِهَذَا يَأْتِي الْإِثْبَاتُ لِلصِّفَاتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مُفَصَّلًا، وَالنَّفْيُ مُجْمَلًا، عَكْسَ طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ: فَإِنَّهُمْ

يَأْتُونَ بِالنَّفْيِ الْمُفَصَّلِ وَالْإِثْبَاتِ الْمُجْمَلِ، يَقُولُونَ: لَيْسَ بِجِسْمٍ، وَلَا شَيْءٍ، وَلَا جُثَّةٍ، وَلَا صُورَةٍ، وَلَا دَمٍ، وَلَا لَحْمٍ،

وَلَا شَخْصٍ، وَلَا جَوْهَرٍ، وَلَا عَرَضٍ، وَلَا لَوْنٍ، وَلَا رَائِحَةٍ، وَلَا طَعْمٍ، وَلَا بَحْثَةٍ، وَلَا بِذِي حَرَارَةٍ، وَلَا بُرُودَةٍ، وَلَا رُطُوبَةٍ،

وَلَا يُبُوسَةٍ، وَلَا طُولٍ، وَلَا عَرْضٍ، وَلَا غُمُقٍ، وَلَا اجْتِمَاعٍ، وَلَا افْتِرَاقٍ، وَلَا يَتَحَرَّكُ، وَلَا يَسْكُنُ، وَلَا يَتَبَعَّضُ، وَلَيْسَ

بِذِي أَبْعَاضٍ وَأَجْزَاءٍ وَجَوَارِحٍ وَأَعْضَاءٍ، وَلَيْسَ بِذِي جِهَاتٍ، وَلَا بِذِي يَمِينٍ وَلَا شِمَالٍ وَأَمَامٍ وَخَلْفٍ وَفَوْقٍ وَتَحْتَ،

وَلَا يُحِيطُ بِهِ مَكَانٌ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ زَمَانٌ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْمَمَاسَةُ وَلَا الْعِزْلَةُ وَلَا الْحُلُولُ فِي الْأَمَاكِنِ، وَلَا يُوصَفُ

بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ الدَّالَّةِ عَلَى خُدُوثِهِمْ، وَلَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ مُتَنَاهٍ، وَلَا يُوصَفُ بِمَسَاحَةٍ، وَلَا ذَهَابٍ فِي الْجِهَاتِ،

وَلَيْسَ بِمُخْدُودٍ، وَلَا وَالِدٍ وَلَا مَوْلُودٍ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَقْدَارُ، وَلَا تُحْبِطُهُ الْأُسْتَارُ إِلَى آخِرِ مَا نَقَلَهُ أَبُو الْحَسَنِ

الْأَشْعَرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنِ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَيُظْهَرُ ذَلِكَ لِمَنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ. وَهَذَا النَّفْيُ الْمُحْدَدُ مَعَ كَوْنِهِ لَا مَدْحَ فِيهِ، [

فِيهِ] إِسَاءَةٌ أَدَبٍ، فَإِنَّكَ لَوْ قُلْتَ لِلسُّلْطَانِ: أَنْتَ لَسْتَ بِزَبَّالٍ وَلَا كَسَّاحٍ وَلَا حَجَّامٍ وَلَا حَائِكٍ ! لَأَذْبَكَ عَلَى هَذَا

الْوَصْفِ وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا، وَإِنَّمَا تَكُونُ مَادِحًا إِذَا أَجْمَلْتَ النَّفْيَ فَقُلْتَ: أَنْتَ لَسْتَ مِثْلَ أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ، أَنْتَ

أَعْلَى مِنْهُمْ وَأَشْرَفُ وَأَجَلُّ، فَإِذَا أَجْمَلْتَ فِي النَّفْيِ أَجْمَلْتَ فِي الْأَدَبِ.

وَالْتَعْبِيرُ عَنِ الْحَقِّ بِالْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ هُوَ سَبِيلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. وَالْمُعْطَلَةُ يُعْرِضُونَ عَمَّا قَالَهُ

الشَّارِعُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَلَا يَتَدَبَّرُونَ مَعَانِيَهَا، وَيَجْعَلُونَ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنَ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ هُوَ الْمُحْكَمُ الَّذِي

يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَاعْتِمَادُهُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ وَالسُّنَّةِ وَالْإِيمَانِ فَيَجْعَلُونَ مَا قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ

اعْتِقَادُهُ واعْتِمَادُهُ. وَالَّذِي قَالَ هَؤُلَاءِ إِمَّا أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهُ إِغْرَاضًا جَمَلِيًّا، أَوْ يُبَيِّنُوا حَالَهُ تَفْصِيلًا، وَيُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَا يُحْكَمُ بِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ غَالِبَ عَقَائِدِهِمُ السُّلُوبُ: "لَيْسَ بِكَذَا"، وَأَمَّا الْإِثْبَاتُ فَهُوَ قَلِيلٌ، وَهِيَ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ حَيٌّ، وَأَكْثَرُ النَّفْيِ الْمَذْكُورِ لَيْسَ مُتَلَقَّى عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا عَنِ الطَّرِيقِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي سَلَكَهَا غَيْرُهُمْ مِنْ مُثَبِّتَةِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} .

فَفِي هَذَا الْإِثْبَاتِ مَا يُقَرَّرُ مَعْنَى النَّفْيِ. فَفُهِمَ أَنَّ الْمُرَادَ انْفِرَادُهُ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصُوفٌ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَسْمَائِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، مِمَّا أَخْبَرَنَا بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَلَهُ صِفَاتٌ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُهُ الصَّادِقُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي دُعَاءِ الْكَرْبِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي»

وَلَيْسَ قَوْلُ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَلَا شَيْءٌ يُعْجِزُهُ" مِنَ النَّفْيِ الْمَذْمُومِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [سورة فاطر آية: ٤٤].
فَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِ الْآيَةِ عَلَى دَلِيلِ انْتِفَاءِ الْعَجْزِ، وَهُوَ كَمَالُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، فَإِنَّ الْعَجْزَ إِنَّمَا يَنْشَأُ إِمَّا مِنْ الضَّعْفِ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا يُرِيدُهُ الْفَاعِلُ، وَإِمَّا مِنْ عَدَمِ عِلْمِهِ بِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَقَدْ عُلِمَ بِبَدَايِهِ سورة البقرة آية: (١٦٣) الْعُقُولِ وَالْفِطْرِ كَمَالُ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، فَانْتَفَى الْعَجْزُ، لِمَا بَيَّنَّهُ وَبَيَّنَ الْقُدْرَةَ مِنَ التَّضَادِّ، وَلِأَنَّ الْعَاجِزَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا. "

♦ وقال الشيخ الفوزان في شرح الطحاوية " - أما العبارة التي يقولها بعض المؤلفين : إنه على ما يشاء قدير . فهذه غلط؛ لأن الله لم يقيد قدرته بالمشيئة، بل قال: على كل شيء قدير، فقل ما قاله الله سبحانه وتعالى. إنما هذه وردت في قوله تعالى: { وهو على جمعهم إذا يشاء قدير } [الشورى: ٢٩]؛ لأن الجمع له وقت محدد في المستقبل، وهو قادر على جمعهم في ذلك الوقت، أي أهل السماوات وأهل الأرض، قال تعالى: { ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير } [الشورى: ٢٩].
وقال ايضا: " { ذلك بأنه على كل شيء قدير } .

هذا وصف أزلي، لا يقال بأنه ما استفاد القدرة إلا بعد أن خلق وأوجد المخلوقات، بل القدرة صفة أزلية، وإنما كونه أوجد المخلوقات فهذا أثر ناتج من كونه على كل شيء قدير.

والله هو الذي وصف نفسه بأنه على كل شيء قدير من الموجودات ومن المعدومات، لم يقيد قدرته بشيء معين، لا يعجزه شيء، ولا يجوز التقييد بأنه قدير على كذا، ولا يقال: إنه على ما يشاء قدير، إنما هذا خاص بجمع الله

سبحانه وتعالى لأهل السموات والأرض : { ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير } [الشورى: ٢٩] وهذه قضية معينة. " .

١ — قال البيهقي في الاسماء والصفات : " الْحَكِيمُ هُوَ الْمُحْكِمُ لَخَلْقِ الْأَشْيَاءِ صُرْفَ عَنْ مَفْعَلٍ إِلَى فَعِيلٍ ، وَمَعْنَى الْإِحْكَامِ لَخَلْقِ الْأَشْيَاءِ إِنَّمَا يَنْصَرِفُ إِلَى إِتْقَانِ التَّدْبِيرِ فِيهَا ، وَحُسْنِ التَّقْدِيرِ لَهَا ، إِذْ لَيْسَ كُلُّ الْخَلِيقَةِ مَوْصُوفًا بِوَثَاقَةِ الْبُنْيَةِ وَشِدَّةِ الْأَسْرِ كَالْبَقَّةِ وَالنَّمْلَةِ ، وَمَا أَشْبَهُهُمَا مِنْ ضِعَافِ الْخَلْقِ ، إِلَّا أَنَّ التَّدْبِيرَ فِيهِمَا وَالِدَلَالَةَ بِهِمَا عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ وَإِثْبَاتِهِ ، لَيْسَ بِدُونِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ بِخَلْقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ، وَسَائِرِ مَعَاضِمِ الْخَلِيقَةِ ، وَكَذَلِكَ هَذَا فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، لَمْ تَقَعْ الْإِشَارَةُ بِهِ إِلَى الْحُسْنِ الرَّائِقِ فِي الْمُنْظَرِ ، فَإِنَّ هَذَا الْمَعْنَى مَعْدُومٌ فِي الْقِرْدِ وَالْخِنْزِيرِ وَالذَّبِّ وَأَشْكَالِهَا مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَإِنَّمَا يَنْصَرِفُ الْمَعْنَى فِيهِ إِلَى حُسْنِ التَّدْبِيرِ فِي إِنْشَاءِ كُلِّ خَلْقٍ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى مَا أَحَبَّ أَنْ يُنْشِئَهُ عَلَيْهِ ، وَإِبْرَازِهِ عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي أَرَادَ أَنْ يُهَيِّئَهُ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا } . "

♦ قال البيضاوي: يدبر الأمر. يقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته، وسبقت به كلمته، ويهيئ بتحريكه أسبابها وينزلها منه، والتدبير النظر في أدبار الأمور لتجيء محمودة العاقبة .اهـ.

♦ وقال ابن كثير: يدبر الأمر. أي: يدبر أمر الخلائق: { لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض } [سبأ: ٣] ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يترجم بالحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والقفار: { وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين } [هود: ٦] { وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين } [الأنعام: ٥٩] .اهـ.

♦ وقال الألوسي: وقوله تعالى: { يدبر الأمر } . استئناف لبيان حكمة استوائه جل وعلا على العرش وتقرير عظيمته، والتدبير في اللغة النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود، والمراد به هنا: التقدير الجاري على وفق الحكمة والوجه الأتم الأكمل، وأخرج أبو الشيخ وغيره عن مجاهد أن المعنى يقضي الأمر، والمراد بالأمر أمر الكائنات علويها وسفليها حتى العرش، فال فيه للعهد أي يقدر أمر ذلك كله على الوجه الفائق، والنمط اللائق حسبما تقتضيه المصلحة وتستدعيه الحكمة، ويدخل فيما ذكر ما تعجبوا منه دخولا ظاهرا، وزعم بعضهم أن المعنى يدبر ذلك على ما اقتضته حكمته، ويهيئ أسبابه بسبب تحريك العرش، وهو فلك الأفلاك عندهم، وبحركته يحرك غيره من الأفلاك الممثلة وغيرها لقوة نفسه، وقيل: لأن الكل في جوفه فيلزم من حركته حركته لزوم... اهـ.

وأنواع التوحيد ثلاثة:

الأول: توحيد الربوبية وهو "إفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق، والملك والتدبير" .

الثاني: توحيد الألوهية وهو "إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة بأن لا يتخذ الإنسان مع الله أحداً يعبد ويتقرب إليه كما يعبد الله تعالى ويتقرب إليه".

الثالث: توحيد الأسماء والصفات وهو "إفراد الله تعالى بما سمي به نفسه ووصف به نفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك بإثبات ما أثبتته ، ونفي ما نفاه من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ، ولا تمثيل".

فالله عز وجل منفرد بالتدبير فهو الذي يدبر الخلق ويدبر السماوات والأرض كما قال الله سبحانه وتعالى : { ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين } . وهذا التدبير شامل لا يحول دونه شيء ولا يعارضه شيء . والتدبير الذي يكون لبعض المخلوقات كتدبير الإنسان أمواله وعلمانه وخدمه وما أشبه ذلك هو تدبير ضيق محدود ، ومقيد غير مطلق .

ومن العقائد المضادة للحق ما يعتقده البعض من أن بعض ما يسمونهم بالأولياء يشاركون الله في التدبير ، ويتصرفون في شؤون العالم ، ويسمونهم بالأقطاب والأوتاد والأغوات وغير ذلك من الأسماء التي اخترعوها لآلهتهم ، وهذا من أقبح الشرك في الربوبية ، وهو شر من شرك جاهلية العرب ، لأن كفار العرب لم يشركوا في الربوبية ، وإنما أشركوا في العبادة ، وكان شركهم في حال الرخاء ، أما في حال الشدة فيخلصون لله العبادة ، كما قال الله سبحانه : { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت: ٢٥] أما الربوبية فكانوا معترفين بها لله وحده ، كما قال سبحانه : { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [الزخرف: من الآية ٨٧] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

♦ قال ابن عثيمين في القول المفيد : " وأما إفراد الله بالتدبير : فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا الله وحده ؛ كما قال تعالى : { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } [يونس: ٣١] .

وأما تدبير الإنسان ؛ فمحصور بما تحت يده ومحصور بما أذن له فيه شرعاً . وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل كانوا مقربين به ، قال تعالى : { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [الزخرف: ٩] فهم يقرون بأن الله هو الذي يدبر الأمر ، وهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، ولم ينكره أحد معلوم من بني آدم ؛ فلم يقل أحد من المخلوقين : إن للعالم خالقين متساويين .

فلم يجحد أحد توحيد الربوبية ، لا على سبيل التعطيل ولا على سبيل التشريك ، إلا ما حصل من فرعون ؛ فإنه أنكره على سبيل التعطيل مكابرة .

فاستفصلوا في شأنه مع الحذر

وكل وصف جاء من قول البشر

نفي الصفات مثل ذا لا ينبغي

كالنفي للأعضاء ممن ينبغي

عن الشبيه لم يكن ضلالاً^(١)

وان يُرد أفراده تعالى

وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}.

♦ وقال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن في (البراهين الاسلامية): قال بعض السلف: هذه الآية تقطع عروق الشرك فإنه تعالى نفى عن دعاه المشركون أن يكون له من الملك شيء ولو مثقال ذرة ونفى مشاركته ولو قلت ونفى أن يكون له ظهير يعاونه ويؤازره لكمال غناه وعلمه ورحمته وعموم قيوميته ثم نفى الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ففي هذا من صرف الوجوه إليه وترك التعلق على غيره كائناً من كان ما لا يخفى على من عقل عن الله، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}.

فذكر عجزهم عن خلق الذباب الذي هو من أضعف المخلوقات وأخبر أنه لو سلبهم شيئاً لم استطاعوا استنقاذه منه وهذا غاية في الحجة والبيان وتقرير ضعف من دعا مع الله ممن يستمد منه عباد القبور ومن يدعوا الأموات لأن العجز عن خلق الذباب وصف مشترك بين جميع المخلوقات، فدلّت هذه الآية الكريمة مع اختصار لفظها على إبطال دعوة كل مخلوق وقررت دليله بذكر العجز عن خلق الذباب واستنقاذ ما سلب بأي شيء يستمد ويطلب ممن هذا حاله؟، فالحمد لله الذي جعل كتابه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة".

^١ — الألفاظ التي لم يأت في الكتاب والسنة نفيها ولا إثباتها، فإننا نمتنع عن إطلاقها على الله تعالى لفظاً، وأما معناها فنستفصل من قائلها، فإن أراد به معنى صحيحاً وافقناه على ذلك المعنى الصحيح، ولم نوافق على استعمال ذلك اللفظ.

♦ قال السفاريني رحمه الله: "قال الإمام أحمد رضي الله عنه: لا يوصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لا نتجاوز القرآن والحديث".

♦ وهذا قد قرره الشيخ ابن عثيمين في مواضع من كتبه، ومما قال في ذلك: "نفي الجسمية والتجسيم لم يرد في الكتاب والسنة، ولا في كلام السلف، فالواجب على العبد التأدب مع الله ورسوله وسلف الأمة، فلا ينفي عن الله تعالى إلا ما نفاه عن نفسه، ولا يثبت له إلا ما أثبتته لنفسه. أما ما لم يرد به نفي ولا إثبات مما يحتمل حقاً

وباطلاً، فإن الواجب السكوت عنه، فلا ينفي ولا يثبت لفظه، وأما معناه فيسأل عنه، فإن أريد به حق قبل، وإن أريد به باطل رد، وعلى هذا فيسأل من نفي التجسيم، ماذا تريد بالجسم؟ فإن قال: أريد به الشيء المركب المفتقر بعضه إلى بعض في الوجود والكمال، قلنا: نفي الجسم بهذا المعنى حق؛ فإن الله تعالى واحد أحد صمد غني حميد. وإن قال: أريد به الشيء المتصف بالصفات القائمة به من الحياة، والعلم والقدرة، والاستواء والنزول، والمجيء، والوجه، واليد ونحو ذلك مما وصف الله به نفسه. قلنا: نفي الجسم بهذا المعنى باطل، فإن الله تعالى ذاتاً حقيقية، وهو متصف بصفة الكمال التي وصف بها نفسه من هذه الصفات وغيرها على الوجه اللائق به. ومن أجل احتمال الجسم لهذا وهذا، كان إطلاق لفظه نفيًا وإثباتًا من البدع التي أحدثت في الإسلام، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٥٢ ج ٤ من مجموع الفتاوى لابن قاسم: "لفظ التجسيم لا يوجد في كلام أحد من السلف لا نفيًا ولا إثباتًا، فكيف يحل أن يقال: مذهب السلف نفي التجسيم أو إثباته بلا ذكر لذلك اللفظ ولا لمعناه عنهم." وقال قبل ذلك ص ١٤٦: "وأول من ابتدع الذم بها المعتزلة الذين فارقوا جماعة المسلمين" اهـ. يعني أن المعتزلة جعلوا من أثبت الصفات مجسمًا وشنعوا عليهم بهذه الألفاظ المبتدعة ليغزوا بذلك عوام المسلمين. اهـ.

ولذلك قال الشيخ ابن عثيمين بعد الكلام الذي نقله عنه السائل من شرح الواسطية: على أن القول بالجسم نفيًا أو إثباتًا مما أحدثه المتكلمون، وليس في الكتاب والسنة إثباته ولا نفيه. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل: "الكلام في التمثيل والتشبيه ونفيه عن الله مقام، والكلام في التجسيم ونفيه مقام آخر، فإن الأول دل على نفيه الكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة، واستفاض عنهم الإنكار على المشبهة الذين يقولون يد كيدي وبصر كبصري وقدم كقدمي، وأما الكلام في الجسم والجوهر ونفيهما أو إثباتهما فبدعة ليس لها أصل في كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا تكلم أحد من السلف والأئمة بذلك. لا نفيًا ولا إثباتًا. والنزاع بين المتنازعين في ذلك بعضه لفظي وبعضه معنوي، أخطأ هؤلاء من وجه، وهؤلاء من وجه، فإن كان النزاع مع من يقول: هو جسم أو جوهر، إذا قال: لا كالأجسام ولا كالجواهر، إنما هو اللفظ، فمن قال: هو كالأجسام والجواهر، يكون الكلام معه بحسب ما يفسره من المعنى، فإن فسر ذلك بالتشبيه الممتنع على الله تعالى كان قوله مردودًا، وذلك بأن يتضمن قوله إثبات شيء من خصائص المخلوقين لله، فكل قول تضمن هذا فهو باطل، وإن فسر قوله: جسم لا كالأجسام، بإثبات معنى آخر. مع تنزيه الرب عن خصائص المخلوقين. كان الكلام معه في ثبوت ذلك المعنى وانتفائه". اهـ.

♦ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولفظ الجسم فيه إجمال، قد يراد به المركب الذي كانت أجزاؤه مفرقة فجمعت أو ما يقبل التفريق والانفصال، أو المركب من مادة وصورة، أو المركب من الأجزاء المفردة التي تسمى الجواهر الفردة، والله تعالى منزّه عن ذلك كله، أو كان متفرقا فاجتمع، أو أن يقبل التفريق والتجزئة التي هي مفارقة بعض الشيء بعضا وانفصاله عنه أو غير ذلك من التركيب الممتنع عليه.

وقد يراد بالجسم ما يشار إليه ، أو ما يُرى ، أو ما تقوم به الصفات ، والله تعالى يُرى في الآخرة ، وتقوم به الصفات ، ويشير إليه الناس عند الدعاء بأيديهم وقلوبهم ووجوههم وأعينهم ، فإن أراد بقوله : ليس بجسم هذا المعنى ، قيل له : هذا المعنى الذي قصدت نفيه بهذا اللفظ معنى ثابت بصحيح المنقول وصريح المعقول ، وأنت لم تُقم دليلا على نفيه ، وأما اللفظ فبدعة نفيًا وإثباتًا ، فليس في الكتاب ولا السنة ولا قول أحد من سلف الأمة وأئمتها إطلاق لفظ الجسم في صفات الله تعالى لا نفيًا ولا إثباتًا ، وكذلك لفظ الجوهر والمتحيز ونحو ذلك من الألفاظ التي تنازع أهل الكلام المحدث فيها نفيًا وإثباتًا " انتهى من "بيان تلبيس الجهمية"

وقال ايضا : " إثبات لفظ الجسم ونفيه بدعة لم يتكلم به أحد من السلف والأئمة كما لم يشبوا لفظ التحيز ولا نفوه ولا لفظ الجهة ولا نفوه ولكن أثبتوا الصفات التي جاء بها الكتاب والسنة ونفوا مماثلة المخلوقات " وقال ايضا : " الكلام في وصف الله بالجسم نفيًا وإثباتًا بدعة لم يقل أحد من سلف الأمة وأئمتها أن الله ليس بجسم كما لم يقولوا أن الله جسم بل من أطلق أحد اللفظين استفصل عما أراد بذلك فإن في لفظ الجسم بين الناطقين به نزاعا كثيرا فإن أراد تنزيهه عن معنى يجب تنزيهه عنه مثل أن ينزهه عن مماثلة المخلوقات فهذا حق. ولا ريب أن من جعل الرب جسما من جنس المخلوقات فهو من أعظم المبتدعة ضلالا دع من يقول منهم أنه لحم ودم ونحو ذلك من الضلالات المنقولة عنهم وإن أراد نفي ما ثبت بالنصوص وحقيقة العقل أيضا مما وصف الله ورسوله منه وله فهذا حق وإن سمي ذلك تجسيما أو قيل إن هذه الصفات لا تكون إلا لجسم فما ثبت بالكتاب والسنة وأجمع عليه سلف الأمة هو حق وإذا لزم من ذلك أن يكون هو الذي يعنيه بعض المتكلمين بلفظ الجسم فلازم الحق حق كيف والمثبتة تقول إن ثبوت هذا معلوم بضرورة العقل ونظره وهكذا مثبت لفظ الجسم إن أراد بإثباته ما جاءت به النصوص صوبنا معناه ومنعناه عن الألفاظ المبتدعة المجملة وإن أراد بلفظ الجسم ما يجب تنزيهه الرب عنه من مماثلة المخلوقات رددنا ذلك عليه وبيننا ضلاله وإفكه ."

♦ وقال الشيخ ابن عثيمين في تفسير سورة غافر : " ومن ذلك وأنا أحب أن أستطرد لأن معنا إخوانا لم يدركوا ما نقوله في بعض المجالس، من ذلك مثلا لفظ الجسم، الجسم تعلمون أن جميع المعطلة بنوا تعطيلهم على مسألة الجسم، حيث ادعوا أنهم إذا أثبتوا الوجه أو اليد أو ما أشبه ذلك فإنه يقتضي أن يكون الله جسما، حتى الاستواء يقول إذا أثبتنا أن الله استوى فهو جسم، ونحن نقول لهم ما هذا الجسم الذي جعلتموه دبوسا معلقا تخرقون به كل سياج لإثبات الصفات ؟

إن أردتم أنه جسم مكون مخلوق يمكن انفصال بعضه عن بعض، وبانفصال بعضه ينقص وربما يهلك، فالله منزّه عن هذا ولا شك، ومن اعتقد هذا في ربه فهو كافر.

وإن أردتم بالجسم أنه ذو ذات يفعل ما يشاء، ويتكلم، ويجيء، وينزل، ويستوي، ويتصف بالصفات اللائقة به فهذا حق، لكن من جهة إثبات لفظ الجسم أو نفيه فهذا ممنوع، لا تقل إثباتا إن الله جسم ولا نفيًا أن الله ليس بجسم، لأنه لم يرد إثباته ولا نفيه.

فأثبت لذات الله وجهاً لائقاً

ولا تمثّل بالعباد الخالقاً^(١)

فهذه مسائل ينبغي لطالب العلم أن يفهمها، فمثلاً إذا جادلنا إنسان ويقول ما تقول في الجسم ؟ أقول: أما باعتبار لفظه فالواجب الكف عنه إثباتاً أو نفياً، أما من جهة معناه فنحن نستفصل".

^١ — صفة الوجه لله عز وجل ثابتة بالكتاب والسنة وهي صفة ذاتية خبرية، وليست صفة فعلية، بل هي صفة ذاتية، بمعنى أنها لازمة لذاته منذ الأزل وإلى الأبد، فهي لازمة له أولاً وآخراً ولا تنفك عنه، فهي ليست من صفات الأفعال التي إذا شاء الله تعالى فعلها وإذا شاء لم يفعلها كصفة الكلام والضحك والغضب والإتيان والمجيء والسرور والفرح، وغير ذلك، فهذه صفات فعلية إذا شاء فعلها وإذا شاء لم يفعلها، بخلاف الصفات الذاتية اللازمة له، والتي لا تنفك عنه سبحانه وتعالى. وثبتت هذه الصفة كغيرها من الصفات الخبرية بكتاب الله عز وجل. قال الله عز وجل ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] فهذه الآية أثبتت أن الله تبارك وتعالى وجهاً.

وقال ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]. أي: وجه الله تبارك وتعالى.

وعن أبي موسى: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات فقال: ((إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه - يعني: يخفض الميزان ويرفعه - يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجاب النور، لو كشفها - أي: لو كشف هذا الحجاب - لأحرقت سبحات وجهه (زاد عبد الله : ((كل شيء أدركه بصره)). فأثبت في هذا الحديث أن له وجهاً.

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث طويل: ((ما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)) ، فإذا رفع هذا الحجاب رأى الناس ربهم تبارك وتعالى وذلك في الآخرة. أي المؤمنون. وهذا الحديث قطعة من حديث طويل عند البخاري ومسلم في أبواب رؤية الرب تبارك وتعالى لأهل الإيمان. وقد أطبق سلفنا رضي الله عنهم وأتباعهم على الإيمان بهذه الصفة كغيرها من صفات الرب تبارك وتعالى، وإثباتها على ما يليق بالله، وهم لا يفسرونها ولا يؤولونها، وإنما يؤمنون بها كما جاءت، ويمرونها كما جاءت، وهذا مذهب سلفنا رضي الله عنهم في جميع الصفات الخبرية لله عز وجل، بل وفي جميع الصفات، فهم يؤمنون بها على ما وردت في النص دون أن يتعرضوا لها بالتأويل أو التحريف أو التمثيل أو التكيف، ولا يطلقون عليها شيئاً من الألقاب التي يرددها النفاة - أي: المعطلة أو المتأولون - مثل العضو أو الجزء.

المعطلة والمؤولة يقولون: الوجه لله عز وجل يلزم منه إثبات أنه كل يتجزأ. قالوا: فالوجه جزء من البدن والذات، فلو أننا قلنا: إن لله وجهاً لزم أن نقول: إن الله ذات مكون من أبعاد وأجسام وأجزاء.

ومثل ذاك العين (١) أو وصف القدم (١)

اثباتها كما يليق فالتزم

وهذه هي شبهة الممثلة أو المعطلة الذين أرادوا أن ينزهوا بزعمهم الله تبارك وتعالى عن مشابهته للمخلوقين. قالوا: ولو أننا أثبتنا الوجه للزم من ذلك أن نقول بالأبعاد أو الأجزاء لكل وللذات العلية، ولما كان هذا عندهم يتنافى مع تنزيه المولى تبارك وتعالى فقد قالوا: نحن لا نشب له وجهاً؛ لأن إثبات الوجه يلزم منه أنه سبحانه وتعالى جسم.

وسلفنا رضي الله عنهم لم يذهبوا في هذه الصفة - كما لم يذهبوا في غيرها - إلى مثل هذه التأويلات، بل قالوا: ثبت لله تبارك وتعالى ما أثبتته لنفسه، ونفي عنه ما نفاه عن نفسه من صفات النقص، ونثبت له ما أثبتته له رسوله من صفات الكمال، ونفي عنه ما نفاه عنه رسوله من صفات النقص، وإذا أثبتنا شيئاً لله تبارك وتعالى قد ورد في الكتاب والسنة فإنما نشبته على الوجه اللائق بالله عز وجل، ولا نخوض فيه بتأويل أو تعطيل أو تحريف؛ لأننا لو عطلنا هذه الصفة قلنا: ليس لله وجه فلا بد وأن نكون مكذبين بالقرآن الكريم وبأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام.

والله تبارك وتعالى أعلم بنفسه من خلقه، ونبيه أعلم به من بقية الخلق، وإذا كان الله تبارك وتعالى - وهو أعلم بذاته العلية - قد أثبت لنفسه الوجه فلم لا نشبته نحن؟ وإذا أثبت الرسل لله تبارك وتعالى الوجه فلم لا نشبته نحن؟ وإذا كنا متبعين غير مبتدعين فلم لا نتبع النبي عليه الصلاة والسلام فيما أمرنا؟ ولم لا ننته عما حذرنا منه؟ ولماذا نعطل الله تبارك وتعالى عن صفاته العلية وأسمائه الحسنی؟

١ - من جملة الايمان بالله تعالى الإيمان بربوبيته وبألوهيته وأسمائه وصفاته ، ودخل في هذه الجملة - جملة

الإيمان بالله - الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه
فمن تلك الصفات إثبات صفة (العينين) لله جل وعلا .

قال ابن تيمية في الجواب الصحيح : " وأما لفظ العينين فليس هو في القرآن ولكن جاء فيه حديث وذكر
الأشعري عن أهل السنة والحديث أنهم يقولون إن الله عينين .

ولكن الذي جاء في القرآن: {وَلْتَصْنَعْ عَلَىٰ عَيْنِي} {وَأَصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} {وَوَحِّينَا} {وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ
وَدُسْرِ تَجْرِ بِأَعْيُنِنَا} .

وأما الأدلة من السنة ؛ فمنها ما رواه البخاري (٦٨٥٨) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : ((إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور - وأشار بيده إلى عينه - وإن المسيح
الذجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبه طافية)).

قال الشيخ صالح ال الشيخ في شرح الواسطية : " قال أهل اللغة (إن الأعور هو من فقد أحد عينيه) وذلك لأن مخلوقات الله المعروفة لدى العرب من الإنسان كذلك الحيوان كلها لها عينان فوضعت العرب هذا الاسم (العُور) لمن فقد أحد عينيه

فهو خاص بذلك وليس العور هو ذهاب البصر .

لهذا دل هذا الحديث (إن ربكم ليس بأعور) على إثبات صفة (العينين) لله جل وعلا بدلالة الوضع اللغوي من أن (العُور) في اللغة عند العرب هو فقد أحد العينين .

إذا تبين لك ذلك فأهل السنة والجماعة يفهمون النصوص الواردة في صفة (العينين) لله جل وعلا بما يوافق بعضها بعضا :

- ففيها الأفراد في قوله جل وعلا {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} والأفراد لا ينافي التشية في السنة كذلك لا ينافي الجمع ، لأن السنة مبينة للقرآن ومن المعلوم أن المفرد المضاف لا يدل على الوحدة بل قد يدل وهو الأكثر على الكثرة كما في قوله مثلا {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} {نِعْمَةُ اللَّهِ} هنا لم يرد بالنعمة واحدة النعم وإنما أراد الجنس وهي كثرة .

وهذا متقرر في العربية أن المفرد إذا أضيف فإنه قد يفيد الكثرة وهو الغالب وقد يفيد الوحدة كما تقول (هذا كتاب فلان) يعني الكتاب واحد وقد يفيد الكثرة .

ولذلك هنا الأفراد لا ينافي الجمع الذي جاء في الآيتين الأخريين اللتين ساقهما شيخ الإسلام ولا ينافي التشية التي جاءت في الحديث وذلك لأن المفرد يدل على أكثر من الواحد إذا أضيف ، يعني قد يدل على أكثر من الواحد إذا أضيف .

كذلك قوله جل وعلا { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا }

هنا جمع فقال (أعين) ثم أضافها إلى ضمير العظمة هو الموافق للجمع فقال { بِأَعْيُنِنَا } .

و(الأعين) جمع والجمع يصدق على الاثنين فما زاد عند كثير من أهل العلم أو على الثلاثة فما زاد بإجماع أهل السنة من أهل العربية أهل الأصول .

السنة فيها إثبات العينين لله جل وعلا ، فكيف نفهم الجمع ؟

مرت معكم القاعدة في ذلك في العربية في بحث يدي الله جل وعلا وبينت لكم أن من قواعد العربية (أن المشى إذا أضيف إلى ضمير تشية أو جمع جمع على الأفصح) كما قال جل وعلا { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .

قال { فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا } السارق تقطع منه يد واحدة والسارقة تقطع منها يد واحدة فصار المجموع يدين ، والله جل وعلا قال { فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا } والأيدي جمع يد والمثنى يديهما .

ولم جمعت ؟

لأنه أضيف إلى ضمير تشية قال { فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا } .

أصل الكلام (فاقطعوا يديهما) لكن فيه ثقل والقاعدة عرفتها فصارت { فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا } هذا هو الفصح ، كذلك قوله جل وعلا { إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } والمرأتان لكل واحدة منهما قلب فعائشة لها قلب وحفصة لها قلب فصارا لهما قلبان إذا أضيفا إلى ضمير التشية جمعا فقال { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } وهكذا النصوص التي جاءت في (اليدين) أو جاءت في (العينين) لله جل وعلا هي على هذا الأصل.

قال جل وعلا { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } هنا الأعين يعني العينين .

ليس لله جل وعلا أكثر من عينين بل له عينان جل وعلا .

هذا معتقد أهل السنة لدلالة السنة على ذلك وموافقتها للسان العربي الشريف .

كذلك الآية الثانية قال { وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا }

فجمع لأن المثنى أضيف إلى ضمير جمع ، قال { بِأَعْيُنِنَا } فجمع المثنى لأن المثنى أضيف إلى ضمير جمع فجعل المثنى جمعا للتناسب كما جاءت القاعدة .

إذا تبين لك ذلك وأن الإيمان بأن الله جل وعلا متصف بأن له (عينين) جل وعلا فهما صفتان ذاتيتان من صفات الذات .

إثبات صفة العين لله جل وعلا وأن له جل وعلا (عينين) هذه من صفات الذات التي لا تنفك عنه جل وعلا مثل (الوجه) و (اليدين) وغيرها من الصفات هذا معتقد أهل السنة والجماعة .

أما المعطلة معطلة الصفات :

– فالمعتزلة ينفون صفة البصر لله جل وعلا وينفون صفة العين والعينين لله جل وعلا فعندهم أن الله جل وعلا ليس له عين وليس له بصر جل وعلا .

– والأشاعرة تناقضوا فأثبتوا صفة البصر لدلالة لعقل على ذلك ونفوا صفة العينين لله جل وعلا .

وأهل السنة أعملوا النصوص فأثبتوا البصر لله جل وعلا وأثبتوا (العينين) لله جل وعلا ، وأبو الحسن الأشعري – رحمه الله – في كتابه الإبانة أثبت صفة (العينين) لله جل وعلا ...".

وقال في شرح الطحاوية : " ومن قال إِنَّ الآية { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } فيها إثبات الأعين لله ؟ ، فهذا باطل من جهتين : الجهة الأولى : الإجماع فَإِنَّ أهل السنة أجمعوا على أن الله موصوف بصفة العينين .

والجهة الثانية : أَنَّ الأعين مخالفة لقوله ((وإن ربكم ليس بأعور))؛ لأن لفظة أعور في اللغة تدل على ذهاب إحدى العينين ، فتكون الإضافة { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } هي إضافة مثنى إلى مجموع فجمع لأجل هذه الإضافة كما هو مقرر في لسان العرب يعني في لغة العرب . "

وهناك من يتأول العينين بنفس البصر أو الرؤية عند من يثبت الرؤية والبصر كالأشاعرة يشبتون البصر والرؤية بمعناهما أو قريب ولكنهم لا يشبتون العينين له سبحانه، وأمّا أهل السنة فمجمعون على إثبات هذه الصفات .

قال ابن خزيمة رحمه الله - بعد ذكره للنصوص السابقة - : " فوجب على كل مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبت الخالق البارئ لنفسه من العين ، وغير مؤمن من ينفي عن الله تبارك وتعالى ما قد ثبتته الله في محكم تنزيله ببيان النبي صلى الله عليه الذي جعله الله مبيناً عنه عز وجل في قوله : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن لله عينين ، فكان بيانه موافقاً لبيان محكم التنزيل ، الذي هو مسطور بين الدفتين ، مقروء في المحاريب والكتاتيب " انتهى . (كتاب التوحيد" (١/٦٤).

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله : " والعين لله سبحانه وتعالى هي عين حقيقة ، ودليل ذلك أن الله أثبتها لنفسه في غير موضع ، وأثبت الرؤية في غير موضع ، وإثبات هذا تارة وهذا تارة يدل على التباين بينهما ، فالرؤية شيء ، والعين شيء آخر ، فقوله تعالى : { وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ } [التوبة/١٠٥] ، وقوله : { أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى } [العلق/١٤] ، فهاتان في الرؤية.

ولكن : { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } [القمر/١٤] ، وقوله : { وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } [طه/٣٩] ، فهاتان الآيتان ليستا في الرؤية ، بل أثبتنا عيناً مخالفة للرؤية ، ولهذا نقول : إن العين صفة حقيقية " انتهى من "شرح العقيدة السفارينية." قال الشيخ البراك في شرح الواسطية : " أهل السنة: إن لله عينين وإن كان لفظ العينين لم يرد في القرآن ولم يصح به حديث فيما أعلم وإن ذكر فيه حديث لكن في ثبوته نظر لكن أهل السنة فهموا من كلام في القرآن أن لله عينين ولا يجوز الخروج عن سبيل المؤمنين فسبيل المؤمنين هو هذا .

وقوله : { وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } [سورة طه آية : ٣٩] الآية تدل على إثبات العين لله لكن لا يصح أن يقال: إنها تدل على أنه ليس لله إلا عين هذا فهم خاطئ لا يخطر إلا للجاهل بدلالات الكلام . وهكذا قوله -تعالى- : { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } [سورة القمر آية : ١٤] هذا الأسلوب لا يدل على أن لله أعين كما أن قوله -تعالى- : { مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا } [سورة يس آية : ٧١] لا يدل على أن لله أيدي كثيرة والحقيقة أنه يعني لولا وجود بعض الأفكار والوساوس والتساؤلات لما كان يعني هناك داع لهذا التوقف لكن هناك إلقاءات شيطانية تكلم بها من تكلم بها من أهل البدع وتكلم بها من تكلم من جهال الناس مما عملت أيدينا هذا الأسلوب لا يدل على أن لله أيدي .

إذن { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } لا يدل على أن لله أعين ؛ لأن من قواعد اللسان العربي أن المشئ إذا أضيف إلى الجمع أو صيغة الجمع يذكر بلفظ الجمع قال: أهل العلم كقوله -تعالى- : { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } للمرأتين قلوب أم قلوبان هذه قصة عائشة وحفصة إذن الجمع لا يدل على عدد كبير من القلوب إذن هذه الآيات استدلت بها أهل السنة على إثبات العينين لله -سبحانه وتعالى- ولا يجوز التوقف في هذا البتة لا يتوقف بهذا إلا جاهل بما عليه السلف الصالح وجاهل بما عليه السلف الصالح وجاهل بدلالات الكلام فيجب الإيمان بكل هذه الصفات على ما يليق به سبحانه لا تشبه صفة من صفاته صفات المخلوقين { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا يعلم العباد كيفية شيء من هذه الصفات .

فلا يجوز أن نتخيل وجهه أو كفيته أو كيفية العينين له -تعالى- لا تفكر فيما لا سبيل إليه فهذا من العبث ومن الهوس ومن التشاغل، ومن فتح أسباب الأفكار فلا تفكر في ذلك نؤمن بأنه -تعالى- ذو سمع وذو بصر فهو سميع وسمعه واسع لجميع أسرارهِ وذو بصر كما تقدم واسع بصره نافذ لجميع المخلوقات وأن له -تعالى- عينين يرى بهما كيف يشاء وله عينين تلقيان به حقيقة كما أن له يدين حقيقة كما أن له علماً وقدره وحياة حقيقة كل ذلك للرب -تعالى- على ما يليق به ويختص به لا يماثله شيء من صفاته".

١ - من الصفات الثابتة لله عز وجل : الرَّجُلُ أَوْ الْقَدَمُ.

ودليل ذلك : ما روى البخاري (٦٦٦١) ومسلم (٢٨٤٨) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَتَقُولُ قَطُّ وَقِرَّتِكَ وَيُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ)).

وروى البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُوتِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبَّرِينَ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَلُؤُهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ قَطُّ فَهَذَا تَمْتَلِي وَيُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا)).

ولفظ مسلم : ((فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِي فَيَضَعُ قَدَمَهُ عَلَيْهَا)) .

فهذا يدل على إثبات القدم أو الرجل لله تعالى.

وقال ابن عباس رضي الله عنه : " الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره " رواه ابن خزيمة في "التوحيد" (١ / ٢٤٨ رقم : ١٥٤) ، وابن أبي شيبة في "العرش" (٦١) ، والدارمي في "الرد على المريسي" ، وعبد الله ابن الإمام أحمد في "السنة" ، والحاكم في "المستدرک" (٢ / ٢٨٢) ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في "مختصر العلو" ص ١٠٢ ، وأحمد شاكر في "عمدة التفسير" (٢ / ١٦٣).

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : " الكرسي موضع القدمين، وله أطيظ كأطيظ الرُّحْل " رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في "السنة" ، وابن أبي شيبة في "العرش" (٦٠) ، وابن جرير ، والبيهقي، وغيرهم ، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (٨ / ٤٧) والألباني في "مختصر العلو" ص ١٢٣-١٢٤) وهذان الأثران يدلان على إثبات القدمين لله تعالى ، وعلى هذا درج أهل السنة.

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله : " هذه الأحاديث التي يقول فيها : ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره ، وأن جهنم لا تمتلي حتى يضع ربك قدمه فيها ، والكرسي موضع القدمين ، وهذه الأحاديث في

الرواية هي عندنا حق ، حملها الثقات بعضهم عن بعض ، غير أنا إذا سألنا عن تفسيرها لا نفسرها وما أدركنا أحدا يفسرها " رواه البيهقي في "الأسماء والصفات" (٢ / ١٩٨)، وابن عبد البر في "التمهيد" (٧ / ١٤٩).. وقال الإمام ابن خزيمة في كتاب التوحيد ٢ / ٢٠٢ : باب ذكر إثبات الرجل لله عز وجل وإن رغمت أنوف المعطلة الجهمية ، الذين يكفرون بصفات خالقنا عز وجل التي أثبتها لنفسه في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم.

قال الشافعي : " لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمته... وأن له قدماً، بقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((حتى يضع الرب فيها قدمه)) يعني جهنم. قال الترمذي : " روي عن النبي صلى الله عليه وسلم روايات كثيرة، مثل: هذا ما يذكر فيه أمر الرؤية؛ أن الناس يرون ربهم، وذكر القدم، وما أشبه هذه الأشياء، والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة - مثل سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وابن المبارك، وابن عيينة، ووكيع، وغيرهم - أنهم رَوَوْا هذه الأشياء، ثم قالوا: تُروى هذه الأحاديث، ونؤمن بها، ولا يقال: كيف؟ وهذا الذي اختاره أهل الحديث؛ أن تُروى هذه الأشياء كما جاءت، ويُؤمن بها، ولا تُفسر، ولا تُتوهم، ولا يقال: كيف؟ وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه". وقال ابن جرير: " القول فيما أدرك علمه من صفات الصانع خبراً لا استدلالاً... وذلك نحو إخبار الله تعالى ذكره إيانا أنه سميع بصير... وأن له قدماً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ((حتى يضع الرب قدمه فيها)) يعني: جهنم.

وروى الأزهري عن محمد بن إسحاق السعدي عن العباس الدوري أنه سأل أبا غبيد عن تفسيره وتفسير غيره من حديث النزول والرؤية، فقال: هذه أحاديث رواها لنا الثقات عن الثقات حتى رفعوها إلى النبي عليه السلام، وما رأينا أحداً يفسرها، فنحن نؤمن بها على ما جاءت ولا نفسرها. أراد أنها تُترك على ظاهرها كما جاءت. وقال ابن أبي زمنين: "ومن قول أهل السنة: أن الكرسي بين يدي العرش، وأنه موضع القدمين". وقال أبو يعلى الفراء: " اعلم أنه غير ممتنع حمل هذا الخبر على ظاهره، وأن المراد به «قدم» هو صفة لله تعالى، وكذلك الرجل".

وبوب أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه (الأربعون في دلائل التوحيد) باب: الدليل على أن القدم هي الرجل . وقال البغوي : " القدم والرجلان المذكوران في هذا الحديث من صفات الله سبحانه وتعالى، المنزه عن التكيف والتشبيه، وكذلك كل ما جاء من هذا القيل في الكتاب أو السنة؛ كاليد، والإصبع، والعين، والمحيي، والإتيان. فالإيمان بها فرض، والامتناع عن الخوض فيها واجب، فالمهتدي من سلك فيها طريق التسليم، والخائض فيها زائغ، والمنكر مُعْطَل، والمكيف مُشَبَّه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

وفي "فتاوى اللجنة الدائمة" (٢ / ٣٧٦) : " الواجب إثبات ما أثبتته الله لنفسه من اليدين والقدمين والأصابع وغيرها من الصفات الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بالله سبحانه ، من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ؛ لقول الله سبحانه : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ، وقوله سبحانه : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وهي حقيقة لا مجاز . وأما التنطع في إثبات ما لم يرد به الكتاب والسنة فالواجب تركه " انتهى.

♦ وقال الشيخ ابن عثيمين في شرح العقيدة الواسطية : والحاصل أنه يجب علينا أن نؤمن بأن الله تعالى قدماً، وإن شئنا قلنا رجلاً على سبيل الحقيقة مع عدم المماثلة، ولا تكييف الرجل، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا بأن الله تعالى رجلاً أو قدماً، ولم يخبرنا كيف هذه الرجل أو القدم . انتهى

♦ وقال الشيخ عبد الرحمن البراك حفظه الله : " وفي هذا الحديث إثبات الرجل والقدم له - سبحانه وتعالى - ، وأهل السنة يشبّهون الله ما جاء في هذا الحديث على حقيقته، كما يشبّهون سائر الصفات، كما يشبّهون اليدين والعينين له - سبحانه وتعالى - ، ويقولون: إن له تعالى قدمين، كما جاء في الأثر المشهور عن ابن عباس في تفسير الكرسي: أنه موضع القدمين، أي: قدمي الرب - سبحانه وتعالى - .

القول في القدمين واليدين، القول في ذلك واحد، لا مجال للتفريق " انتهى من "شرح الواسطية" ص ١٧٢
والثابت هو أن الله تعالى يضع على النار رجله أو قدمه ، فنؤمن بهذا ، ونقف عنده ، ولا نتجاوزه ، ولا نقول : يضع قدميه بحجة أن المفرد المضاف يعم ، كما لا نقول: كتب التوراة بيديه ، بل تقتصر على الوارد ؛ لأن الصفات مبناها على التوقيف .

والضابط في باب الإيمان بصفات الله هو أن نؤمن بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل نؤمن بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . فلا ننفي عنه ما وصف به نفسه ولا نحرف الكلم عن مواضعه، ولا نلحد في أسماء الله وآياته، ولا نكيف ولا نمثل صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفاء له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى، فإنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من خلقه.

وهذا يشتمل على قواعد لمعرفة صفات الله منها:

١ - الأدلة التي تثبت بها أسماء الله وصفاته هي الكتاب والسنة، لا تثبت أسماء الله وصفاته بغيرهما .

٢ - الواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف، لا سيما نصوص الصفات حيث لا مجال للرأي فيها .

٣ - ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار، ومجهولة لنا باعتبار آخر، فباعتبار المعنى هي معلومة، وباعتبار الكيفية التي هي عليها مجهولة .

مع قولنا في ذاته ويتفق

فقولنا في وصف ربي ينطبق

والكيف مجهول لنا لا يُعقل^(١)

معنى الصفات عندنا لا يُجهل

٤ - ظاهر النصوص ما يتبادر منها إلى الذهن من المعاني، وهو يختلف بحسب السياق وما يضاف إليه الكلام، فالكلمة الواحدة يكون لها معنى في سياق ومعنى آخر في سياق. وتركيب الكلام يفيد معنى على وجه، ومعنى آخر على وجه.

فالصواب في هذه المسألة هو مذهب السلف -رضوان الله عليهم- من إثبات صفة القدم لله سبحانه وتعالى على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، مع تفويض العلم بكيفيتها إلى الله عز وجل فهو أعلم بذاته منا. وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة، فعن مالك، والأوزاعي، وسفيان، والليث، وأحمد بن حنبل أنهم قالوا في الأحاديث في الرؤية والنزول: أمروها كما جاءت. وروى عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة أنه قال في الأحاديث التي جاءت إن الله يهبط إلى السماء الدنيا، ونحو هذا من الأحاديث: إن هذه الأحاديث قد رواها الثقات فنحن نرونها ونؤمن بها ولا نفسرها. انظر مجموع فتاوى ابن تيمية.

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي يقول: وقد سئل عن صفات الله وما يؤمن به؟ فقال: لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه أمته لا يسع أحدا من خلق الله قامت عليه الحجة ردها لأن القرآن نزل بها. اهـ

ونقل أيضاً عن حنبل أنه قال: سألت أبا عبد الله -يقصد الإمام أحمد بن حنبل- عن الأحاديث التي تروى أن الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا، وأن الله يرى، وأن الله يضع قدمه، وما أشبه هذه الأحاديث فقال أبو عبد الله: نؤمن بها ونصدق بها، ولا كيف ولا معنى، ولا نرد منها شيئاً، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق إذا كانت بأسانيد صحاح، ولا نرد على الله قوله، ولا يوصف الله تبارك وتعالى بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ليس كمثله شيء. انظر مجموع فتاوى ابن تيمية.

^١ - ذكر علماء أهل السنة والجماعة جملةً من القواعد التي تضبط القول في صفات الباري سبحانه، وتعصم المؤمن من الانحراف والزلل، وتحفظه من الزيغ والضلال، ومن جملة هذه القواعد وأشهرها قاعدة: "القول في الصفات كالقول في الذات"، وهي قاعدة قد اتفق عليها أهل السنة والجماعة قاطبةً، ولأهميتها جعلها شيخ الإسلام ابن تيمية الأصل الثاني من الأصلين اللذين بنى عليهما كتابه التدمرية، حيث يقول فيه: "وهذا يتبين بالأصل الثاني - وهو أن يقال: القول في الصفات كالقول في الذات. أقوال العلماء في تقرير القاعدة:

أجمع أهل السنة والجماعة قاطبةً على القول بهذه القاعدة، ووافقهم على القول بها جمعٌ من علماء أهل الإسلام عامةً، تارةً تصريحًا مع اختلاف ألفاظهم، وتارةً تلميحًا وإشارةً، وفيما يلي جملة من هذه الأقوال مرتبةً على سني وفاة أصحابها:

- ١- قول الإمام أبي الحسن عبد العزيز الكناني المكي (ت ٢٤٠ هـ).
قال الإمام عبد العزيز الكناني في كتابه (الحيدة): "فقلت له [أي: لبشر المريسي]: قال الله عز وجل. {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} [آل عمران: ١٨٥]، أفقول: إن نفس رب العالمين داخله في هذه النفوس التي تذوق الموت؟! فصاح المأمون بأعلى صوته -وكان جهير الصوت- معاذَ الله، معاذَ الله، معاذَ الله، فقلت: إذا -ورفعت صوتي- معاذَ الله معاذَ الله أن يكون كلام الله داخلًا في الأشياء المخلوقة، كما أن نفسه ليست بدخلة في الأنفاس الميتة، وكلامه خارج عن الأشياء المخلوقة، كما أن نفسه خارجة عن الأنفس الميتة "الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن (ص: ٥٣ - ٥٤)."
- ٢- قول الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ).
قال الإمام أحمد: "إنما التشبيه أن يقول: يد كيد أو وجه كوجه. فأما إثبات يد ليست كالأيدي، ووجه ليس كالوجوه، فهو كإثبات ذات ليست كالذوات، وحياة ليست كغيرها من الحياة، وسمع وبصر ليس كالأسماع والأبصار" ينظر: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة لابن القيم (١ / ٢٣٠)."
- ٣- قول الإمام أبي سليمان الخطابي (ت ٣٨٨ هـ).
قال الخطابي في رسالته المشهورة (الغنية عن الكلام وأهله): "فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء منها في الكتاب والسنة، فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبتته الله، وحققها قوم من المثبتين، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، وإنما القصد في سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والجافي والمقصر عنه. والأصل في هذا: أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، ويحتذي في ذلك حذوه ومثاله، فإذا كان معلومًا أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف."
- فإذا قلنا: يد وسمع وبصر وما أشبهها، فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه؛ ولسنا نقول: إن معنى اليد: القوة أو النعمة، ولا معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول: إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إن القول إنما وجب بإثبات الصفات؛ لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها؛ لأن الله ليس كمثله شيء، وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات". هذا كله كلام الخطابي (ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٣ / ١٦٧، ٥ / ٥٨ - ٥٩). وهذه الرسالة مفقودة، وقد نقل جزءًا منها

السيوطي في صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام (١/ ١٣٧ - ١٤٧)، وقد قامت دار المنهاج بالقاهرة بإخراجه من كتاب السيوطي وطباعته سنة (١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م).

٤- قول الإمام أبي نصر السّجزي (ت ٤٤٤ هـ).

قال أبو نصر السّجزي: "واتفق المنتمون إلى السّنة بأجمعهم على أنه [يعني القرآن الكريم] غير مخلوق، وأنّ القائل بخلقه كافر، فأكثرهم قال: إنه كافر كفراً ينقل عن الملة، ومنهم من قال: هو كافر بقول غير الحق في هذه المسألة. والصحيح الأوّل؛ لأن من قال: إنه مخلوق؛ صار منكراً لصفة من صفات ذات الله عز وجل، ومنكر الصفة كمنكر الذات، فكفره كفر جحود لا غير" (رسالة السجزي إلى أهل زييد في الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص: ١٥٣)).

وقال أيضاً: "الفصل الثامن: في بيان أن الذي يزعمون بشاعته من قولنا في الصفات ليس على ما زعموه، ومع ذلك فلازم لهم في إثبات الذات مثل ما يلزمون أصحابنا في الصفات"

٥- قول شيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني (ت ٤٤٩ هـ).

قال الشيخ أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني في كتابه (عقيدة السلف وأصحاب الحديث): "فلما صحّ خبر النزول عن الرسول صلى الله عليه وسلم أقرّ به أهل السنة، وقبلوا الخبر، وأثبتوا النزول على ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يعتقدوا تشبيهاً له بنزول خلقه، ولم يبحثوا عن كيفيته؛ إذ لا سبيل إليها بحال، وعلموا وتحققوا واعتقدوا أن صفات الله سبحانه لا تشبه صفات الخلق، كما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق، تعالى الله عما يقول المشبهة والمعطلة علواً كبيراً، ولعنهم لعناً كثيراً" (عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: ٤٨)).

٦- قول أبي يعلى الحنبلي (ت ٤٥٧ هـ).

قال ابن أبي يعلى في كتابه (طبقات الحنابلة): "اعتقد الوالد السعيد [يعني: أبا يعلى محمد بن الحسين] ومن قبله ممن سبقه من الأئمة: أن إثبات صفات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد لها، حقيقة في علمه، لم يُطْلَع الباري سبحانه على كنه معرفتها أحداً من إنس ولا جان، واعتقدوا: أن الكلام في الصفات فرع الكلام في الذات ويحتذي حذوه ومثاله، وكما جاء.

٧- قول الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ).

أسند الحافظ الذهبي (في كتابه العرش كما أوردها في كتبه: العلو للعلي الغفار وسير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام وتذكرة الحفاظ) عن الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي قوله: "أما الكلام في الصفات، فأما ما روي منها في السنن الصحاح، فمذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيف والتشبيه عنها. والأصل في هذا: أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، ويحتذي في ذلك حذوه ومثاله، وإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فكذلك إثبات صفاته، فإنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف.

فإذا قلنا: يد وسمع وبصر، فإنما هو إثبات صفات أثبتها الله لنفسه، ولا نقول: إن معنى اليد: القدرة، ولا نقول: إن معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول: إنها جوارح وأدوات الفعل، ونقول: إنما وجب إثباتها؛ لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها؛ لقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، وقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤] (ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في جوابه عن سؤال أهل دمشق في الصفات).

٨- قول الإمام محيي السنة البغوي (ت ٥١٦ هـ).

قال الإمام أبو محمد البغوي الشافعي في كتابه (شرح السنة) - بعد ذكره جملة من صفات الله تعالى -: "فهذه ونظائرها صفات لله عز وجل، ورد بها السمع، يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها، معرضاً فيها عن التأويل، مجتنباً عن التشبيه، معتقداً أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال الله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، وعلى هذا مضى سلف الأمة وعلماء السنة، تلقوها جميعاً بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل، ووكّلوا العلم فيها إلى الله عز وجل".

٩- قول ابن أبي يعلى (ت ٥٢٦ هـ).

قال ابن أبي يعلى في (طبقات الحنابلة): "ومما يدل على أن تسليم الحنبلية لأخبار الصفات من غير تأويل، ولا حمل على ما يقتضيه الشاهد، وأنه لا يلزمهم في ذلك التشبيه: إجماع الطوائف من بين موافق للسنة ومخالف أن الباري سبحانه ذات وشيء وموجود، ثم لم يلزمنا وإياهم إثبات جسم ولا جوهر ولا عرض، وإن كانت الذات في الشاهد لا تنفك عن هذه السمات، وهكذا لا يلزم الحنبلية ما يقتضيه العرف في الشاهد في أخبار الصفات".

١٠- قول الإمام قوام السنة إسماعيل بن محمد الأصبهاني (ت ٥٣٥ هـ).

قال أبو القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني الملقب بقوام السنة في كتابه (الحجة في بيان المحجة): "الكلام في صفات الله تعالى ما جاء منها في كتاب الله، أو روي بالأسانيد الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمذهب السلف -رحمة الله عليهم أجمعين- إثباتها وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها، وقد نفاه قوم فأبطلوا ما أثبتته الله، وذهب قوم من المشبتهين إلى البحث عن التكيف.

والطريقة المحمودة هي الطريقة المتوسطة بين الأمرين؛ وهذا لأن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، وإثبات الذات إثبات وجود، لا إثبات كيفية، فكذاك إثبات الصفات، وإنما أثبتناها؛ لأن التوقيف ورد بها، وعلى هذا مضى السلف.

قال مكحول والزهري: "أمرنا هذه الأحاديث كما جاءت"، فإن قيل: كيف يصح الإيمان بما لا نحيط علماً بحقيقته؟ قيل: إن إيماننا صحيح بحق من كلّفناه، وعلمنا محيط بالأمر الذي ألزّمناه، وإن لم نعرف ما تحتها حقيقة كيفيته، وقد أمرنا بأن نؤمن بملائكة الله وكتبه ورسوله وباليوم الآخر وبالجنة ونعيمها، وبالنار وعذابها، ومعلوم

أنا لا نحيط علمًا بكل شيء منها على التفصيل، وإنما كلفناه الإيمان بها جملة" (من كتابه الحجة في بيان المحجة).

١١- قول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: "القول في الصفات كالقول في الذات؛ فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل سائر الصفات".

١٢- قول الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ).

قال الحافظ الذهبي في (سير أعلام النبلاء): "ومعلوم عند أهل العلم من الطوائف أن مذهب السلف إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت، من غير تأويل ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تكييف؛ فإن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات المقدسة. وقد علم المسلمون أن ذات الباري موجودة حقيقة، لا مثل لها، وكذلك صفاته تعالى موجودة، لا مثل لها".

١٣- قول الإمام ابن القيم (ت ٧٥١هـ).

قال الإمام ابن القيم في (الصواعق المرسلة): "فكان الباب عندهم [يعني: عند السلف] بابًا واحدًا، قد اطمأنت به قلوبهم، وسكنت إليه نفوسهم، فأنسوا من صفات كماله ونعوت جلاله بما استوحش منه الجاهلون المعطلون، وسكنت قلوبهم إلى ما نفر منه الجاحدون، وعلموا أن الصفات حكمها حكم الذات، فكما أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات، فما جاءهم من الصفات عن المعصوم تلقّوه بالقبول، وقابلوه بالمعرفة والإيمان والإقرار؛ لعلمهم بأنه صفة من لا شبيه لذاته ولا لصفاته".

١٤- قول الشيخ يوسف بن محمد السرمري (ت ٧٧٦هـ).

قال الشيخ في نظمه (نهج الرشاد): "...كَمَا كَالصِّفَاتِ الذَّاتُ صَيَّنَتْ عَنِ الْحَزْرِ (نهج الرشاد في نظم الاعتقاد) والمعنى: أن الكلام في صفات الباري سبحانه كالكلام في ذاته سبحانه، وأنها تصان عن الحزر والتخمين والتكييف.

١٥- قول ملا علي القاري (١٠١٤ هـ).

قال في ردّه على القائلين بوحدة الوجود: "ثم اعلم أنه سبحانه كما أن ليس له مثل في الذات ليس له مثل في الصفات، وهذا بطريق الإجمال مستفاد من قوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، أي: ذاتًا وصفة وفعلاً" (الرد على القائلين بوحدة الوجود لملا علي القاري).

١٦- قول مرعي الكرمي (ت ١٠٣٣هـ).

قال الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي: "فإن الصفات كالذات، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته ثابتة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات" (أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات).

١٧- قول ابن فقيه فُصَّة (ت ١٠٧١هـ).

قال الشيخ عبد الباقي المعروف بابن فقيه فُصَّة في كتابه (العين والأثر): "وعلى كل حال مهما خطر بالبال، أو توهمه الخيال، فهو بخلاف ذي الإكرام والجلال، فيحرم تأويل ما يتعلق به تعالى، وتفسيره، كآية الاستواء وحديث النزول، وغير ذلك من آيات الصفات، إلا بصادر عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو بعض الصحابة، وهذا مذهب السلف قاطبة، فلا نقول في التنزيه كقول المعطلة، بل نثبت ولا نحرف، ونصف ولا نكيف، والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فمذهبنا حق بين باطلين، وهُدًى بين ضاللتين، وهو إثبات الأسماء والصفات، مع نفي التشبيه والأدوات" (العين والأثر في عقائد أهل الأثر).

١٨- قول السفاريني (ت ١١٨٨هـ).

قال السفاريني في (لوامع الأنوار البهية): "فالكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، فصفاته تعالى قديمة ثابتة كذاته تعالى، فليس لنا أن نتأول في صفات الله تعالى، ولا في ذاته، من غير ما إثبات عن صاحب الشرع وأصحابه، وأئمة التابعين المعبرين من علماء السلف وأتباعهم، فهم العمدة دون غيرهم".

وبيان القاعدة: أن الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله؛ فإذا كان لله ذات حقيقية لا تماثل الذوات بلا خلاف، فكذلك الصفات الثابتة له في الكتاب والسنة، هي صفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات، فالقول في الذات والصفات من باب واحد يطرد في الجميع.

وقد أفادت القاعدة: أنه إذا كانت ذات الله تعالى ثابتة حقيقة، من غير أن تكون من جنس ذوات المخلوقين، فكذلك يقال في صفاته تعالى: إنها ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقين.

وبها يرد على من شبه صفات الله تعالى بصفات المخلوقين: فمن قال: لا أعقل علماً ويداً إلا من جنس العلم واليد المعهودين. قيل له: فكيف تعقل ذاتاً من غير جنس ذوات المخلوقين؟

ومن المعلوم أن صفات كلِّ موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته، فمن لم يفهم من صفات الرب سبحانه -الذي ليس كمثله شيء- إلا ما يناسب المخلوق، فقد ضل في عقله ودينه.

كما أفادت القاعدة أيضاً: أن إثبات الذات لله سبحانه إذا كان إثبات وجود وإيمان، لا إثبات كيفية وتحديد، فكذلك إثبات صفات الباري سبحانه إثبات وجود وإيمان، لا إثبات كيفية وتحديد.

قال بعض المحققين: صفات الرب تعالى معلومة من حيث الجملة والثبوت، غير معقولة من حيث التكييف والتحديد، فالمؤمن مبصر بها من وجه، أعمى من وجه، مبصر من حيث الإثبات والوجود، أعمى من حيث التكييف والتحديد.

وبها يرد على الجهمية النافين للصفات: فإذا قال الجهمي: كيف استوى على العرش؟ وكيف ينزل إلى السماء الدنيا؟ وكيف يدها؟ ونحو ذلك.

يقال له -جواباً عن شبهته-: كيف هو في نفسه؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

فإذا قال لك الجهمي: لا يعلم ما هو إلا هو، وكنه الباري غير معلوم للبشر.

فيقال له: فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف، فكيف يمكن أن تعلم كيفية صفة لموصوف، ولم تعلم كيفيته، وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي له" (ينظر: الفتوى الحموية الكبرى).

وبها يرد على من توهم المماثلة بين صفات الله تعالى وصفات خلقه: فمن توهم في كثير من الصفات أو أكثرها أو كلها أنها تماثل صفات المخلوقين، ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه، فإنه يقع في محاذير:

- منها: أنه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل.
- ومنها: أنه ينفي تلك الصفات عن الله بلا علم، فيكون معطلاً لما يستحقه الرب من صفات الكمال ونعوت الجلال، فيكون قد عطل ما أثبتته الله ورسوله من الصفات الإلهية اللاتئة بجلال الله وعظمته.
- ومنها: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الجمادات أو صفات المعدومات، فيكون قد عطل صفات الكمال التي يستحقها الرب، ومثله بالمنقوصات والمعدومات، وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات، فجمع في الله وفي كلام الله بين التعطيل والتمثيل، فيكون ملحدًا في أسمائه وآياته" (التحفة المدنية في العقيدة السلفية لحمد بن ناصر النجدي).

دليل القاعدة:

قد دل على هذه القاعدة الكتاب العزيز، كما أجمع عليها علماء الأمة، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: الدليل من الكتاب العزيز:

قال الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]. يقول ابن قتيبة: "أي: ليس كهو شيء، والعرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول: مثلي لا يقال له هذا، أي: أنا لا يقال لي هذا" (غريب القرآن لابن قتيبة). ويقول الزجاج: "هذه الكاف مؤكدة، والمعنى: ليس مثله شيء، ولا يجوز أن يقال: المعنى مثل مثله شيء؛ لأن من قال هذا فقد أثبت المثل لله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً" (معاني القرآن وإعرابه للزجاج).

وجه الدلالة:

في الآية الكريمة نفي صريح للمماثلة والمثابته بين الله تعالى وبين مخلوقاته، فهو تعالى لا يماثله ولا يشبهه شيء من خلقه، لا في ذاته ولا في صفاته.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: "أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسمائه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثل شيء؛ لانفراده وتوحيده بالكمال من كل وجه" (تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي).

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إذا كان له [تعالى] ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل صفات سائر الذوات" (التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع).

ثانيًا: الإجماع:

يقول ابن أبي يعلى: وقد أجمع أهل القبلة: أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وكيفية، وأن إثبات الصفات للباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وكيفية، وأنها صفات لا تشبه صفات البرية، ولا تدرك حقيقة علمها بالفكر والروية" (ينظر: طبقات الحنابلة (٢/ ٢٠٨)).

تطبيقات القاعدة:

لا تنحصر تطبيقات القاعدة في بعض الصفات دون بعض، بل تتسع تطبيقاتها لتشمل القول في جميع صفات الباري سبحانه، ومن الأمثلة على أعمالها:

- ثبت لله تعالى صفة اليد والسمع والبصر، ولا نقول: إن معنى اليد: القوة أو النعمة، ولا معنى السمع والبصر: العلم؛ ولا نقول: إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إن القول إنما وجب بإثبات الصفات؛ لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها؛ لأن الله ليس كمثل شيء؛ وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات (ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٥٨ - ٥٩)).

- ثبت لله تعالى الاستواء على العرش، فإذا قال السائل: كيف استوى على العرش؟ قيل له - كما قال ربعة ومالك وغيرهما رضي الله عنهما -: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه (ينظر: التدمرية (ص: ٤٤)).
- ينزل ربنا سبحانه إلى السماء الدنيا كل ليلة نزولًا يليق بجلاله، فإذا قال السائل: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له وتابع له، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره، وتكليمه، واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته، وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس

الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء، فسمعه وبصره وكلامه، ونزوله واستواؤه، ثابت في نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم، ونزولهم واستواؤهم (ينظر: التدمرية).

- من الصفات الثابتة له تعالى صفة الوجه، إثبات وجود لا إثبات تكييف وتحديد، وهذا الذي نقل الخطابي وغيره أنه مذهب السلف والأئمة الأربعة، وبه قال الحنفية والحنابلة وكثير من الشافعية وغيرهم، وهو إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها؛ محتجين بأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فإذا كان إثبات الذات وجوداً لا إثبات تكييف، فكذلك إثبات الصفات، وقالوا: إنا لا نلتفت في ذلك إلى تأويل لسنا منه على ثقة ويقين؛ لاحتمال أن يكون المراد غيره؛ لأنه مأخوذ بالظن والتخمين، لا بالقطع واليقين، فلا نبني اعتقادنا عليه، ولا نرجع عن النص الثابت إليه، فإن هذا عند السلف مذموم، وناهج هذا المنهج معيب ملوم (لوامع الأنوار البهية).
- العلم والقدرة والكلام والمشية والرحمة والرضا والغضب، ونحو ذلك في حق العبد أعراض، والوجه واليد والعين في حقه أجسام، فإذا كان الله موصوفاً عند عامة أهل الإثبات بأن له علماً وقدرة وكلاماً ومشية - وإن لم تكن أعراضاً يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين - فكذلك الوجه واليد والعين صفات له تعالى ليست كصفات المخلوقين، وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره عن السلف، وعليه يدل كلام جمهورهم، وكلام الباقيين لا يخالفه، وهو أمر واضح؛ فإن الصفات كالذات، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته ثابتة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات (أقويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات).
- يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : “أنا نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله، وأن تلتزموا بثلاث جمل من كتاب الله:

الأولى: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى: ١١]، فتزهوا رب السماوات والأرض عن مشابهة الخلق.

الثانية: { وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى: ١١]، فتؤمنوا بصفات الجلال والكمال الثابتة في الكتاب والسنة على أساس التنزيه، كما جاء { وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } بعد قوله: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } .

الثالثة: أن تقطعوا أطماعكم عن إدراك حقيقة الكيفية؛ لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل، وهذا نص الله عليه في سورة طه، حيث قال: { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } [طه: ١١٠]... فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشري برب السماوات والأرض، فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها، فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين، فلا يشكل عليكم بعد هذا صفة نزول ولا مجيء ولا صفة يد ولا أصابع ولا عجب ولا ضحك؛ لأن هذه الصفات كلها من باب واحد، فما وصف الله به نفسه منها فهو حق، وهو لائق بكماله وجلاله، لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، وما وصف به المخلوق منها فهو حق مناسب لعجزهم وفنائهم وافتقارهم.

ومن يخض في الاسم والمسمى

حماقة لو قد درى المأ (١)

وهذا الكلام الكثير أوضحه الله في كلمتين: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} تنزيه بلا تعطيل، {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} إيمان بلا تمثيل. فيجب من أول الآية وهو {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} التنزيه الكامل الذي ليس فيه تعطيل، ويلزم من قوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} الإيمان بجميع الصفات الذي ليس فيه تمثيل، فأول الآية تنزيه، وآخرها إثبات، ومن عمل بالتنزيه الذي في {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، والإيمان الذي في قوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، وقطع النظر عن إدراك الكنه والحقيقة المنصوص في قوله: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} خرج سالمًا " (ينظر: منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص: ٤٣ - ٤٤). قاعدة القول في صفات الله تعالى كالقول في الذات لعلاء ابراهيم عبدالرحيم).

١ - سبب وصف المسألة بالحماقة

- أنها مسألة حادثة: لم يرد فيها نص من كتاب أو سنة، ولم يتكلم فيها الصحابة والسلف الصالح.
- لأنها مسألة لفظية فلسفية: الخوض فيها تعمق وتكلف لا يثمر عملاً، وقد يؤدي إلى الوقوع في البدع والجدال المذموم.

وقد اشاع القول فيها الجهمية بعد الامام احمد رحمه الله ولذلك لا يعرف للامام احمد كلام فيها ان الاسم غير المسمى وكل ما كان غير الله فانه مخلوق اذن اسماء الله مخلوقة هذا ما اراده الجهمية بهذه العبارة . واكثر اهل السنة ان الاسم للمسمى فوافقوا المعقول والمنقول كما ذكر شيخ الاسلام كما قال تعالى: " { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } [الاعراف ١٨٠] وقول النبي صلى الله عليه وسلم [ان لله تسعة وتسعين اسماً] .

واما من قال الاسم هو المسمى فلا بد من الاستفصال في من اطلق ذلك ما مراده فان قال المراد ان الاسم هو المسمى نفسه فهو صحيح كما قال تعالى { قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الإسراء: ١١٠] .

فمن دعا الله تعالى باسمائه تعالى فهو يدعو الرب المتصف بصفة الاسم المذكور ولا يدعو الاسم نفسه .
واما من قال الاسم غير المسمى فان اراد المعنى الذي تريده الجهمية فنرده واما ان اراد في سياق كلامه ان يقصد الاسم لا المسمى كقوله القائل: "الرحمن اسم عربي " فهذا لم يُرد المسمى في هذا السياق وانما اراد اللفظ.

والاصل هو ترك الخوض في ذلك لانه لم يرد عن الصحابة رضي الله عنهم وانما يُستعمل التفصيل مع من يستعمل مثل هذه الالفاظ ثم نستوضح المراد ونبني القبول او الرد بحسب المعنى واما من حيث الاطلاق فنقول الاسم للمسمى .

وخلاصة الكلام ان الاسم يرا به تارة الذات فاذا ناداك شخص فالتفت اليه فهو يريد ذاتك واحيانا يراد من الاسم ليس الذات ولكن نفس الاسم ولذلك غير النبي صلى الله عليه وسلم اسماء بعض اصحابه والمرجع في ذلك الى سياق الكلام هذا هو المعووف في لغة العرب .

قال أبو القاسم اللالكائي في اعتقاد اهل السنة : " وأما القول في الاسم أهو المسمى أو غير المسمى ؟ فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيتبع ولا قول من إمام فيستمع ، والخوض فيه شين ، والصمت عنه زين ، وحسب امريء من العلم به والقول فيه أن ينتهي إلى قول الصادق عز وجل ، وهو قوله : { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الإسراء: ١١٠] ، وقوله : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } [الأعراف: ١٨٠] ، ويعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى ، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ؛ فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر ."

وجاء في سير اعلام النبلاء : عن ابي " ذر الهروي: سمعت أبا طاهر المخلص، سمعت أبي: سمعت إبراهيم الحربي، وكان وعدنا أن يمل علينا مسألة في الاسم والمسمى، وكان يجتمع في مجلسه ثلاثون ألف محبرة، وكان إبراهيم مقلا، وكانت له غرفة، يصعد، فيشرف منها على الناس، فيها كوة إلى الشارع، فلما اجتمع الناس، أشرف عليها، فقال لهم: قد كنت وعدتكم أن أملئ عليكم في الاسم والمسمى، ثم نظرت فإذا لم يتقدمني في الكلام فيها إمام يقتدى به، فرأيت الكلام فيه بدعة، فقام الناس، وانصرفوا، فلما كان يوم الجمعة، أتاه رجل، وكان إبراهيم لا يقعد إلا وحده، فسأله عن هذه المسألة، فقال، ألم تحضر مجلسنا بالامس ؟ قال: بلى.

فقال: أتعرف العلم كله ؟ قال: لا.

قال: فاجعل هذا مما لم تعرف."

وقال ابن عثيمين في شرح السفارينية : " وهذه قاعدة يجب عليك أن تفهمها : (أن كل شيء سكت عنه الصحابة من أمور الدين فاعلم أن الخوض فيه من فضول الكلام ولا حاجة إليه) ، لأنه لو كان من مهمات ديننا ومن أصول ديننا ومما يجب علينا أن ندين الله به لتبين إما عن طريق القرآن أو عن طريق السنة أو الصحابة فإذا لم يوجد واحد من هذه الثلاثة عُلم أنه ليس من الدين في شيء ، وإذا بنيت نهجك على هذا استرحت من إشكالات كثيرة يوردها بعض المتعلمين اليوم فيما يتعلق بصفات الله عز وجل وفيما يتعلق باليوم الآخر من أمور الغيب التي لا مجال للعقل فيها ، فيوردون أشياء هي في الحقيقة تدخل في قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (هلك المتطعون) قالها ثلاثاً ، وصدق والله رسول الله كل إنسان يتطع فهو هالك ولا بد لو لم يكن من هلكه إلا

مخالفته لطريق الصحابة ، فنحن مثلاً نقول : ليت المؤلف لم يتكلم بهذا إذ لا فائدة لنا منه هذا من الناحية العقلية ، من الناحية الأثرية أن ذلك لم يكن في أسلافنا من الصحابة أن يخوضوا في هذا الأمر لكن مع ذلك خاض الناس ، واضطر بعض من يكره الخوض في هذا اضطر إلى أن يخوض فيه ويتكلم ، لماذا ؟ لئلا يترك المجال لمن لا يصلح أن يتكلم فيه وهذا كثير يا إخواني في العقائد وغير العقائد فمثلاً : وُجد من يتكلم في العقائد فيقول مثلاً هل الله جسم أو غير جسم ؟ ثم يقول ليس بجسم ثم ييني على ذلك جميع الصفات التي ينكرها بهذه الحجة ، هل الله في جهة أو ليس في جهة ؟ هل الله يُحد أو لا يُحد ؟ ما هذا الكلام ؟ هل الصحابة سألوا الرسول عن ذلك أو بحثوا فيه ؟ اسكت كما سكتوا فلا وسّع الله على من لم يسعه ما وسعهم اسكت ، لكن لما اضطر علماء السنة إلى الكلام في هذا بناءً على أن غيرهم تكلم قالوا : لم نكن ندع المجال والميدان لهؤلاء الضالّال يتلاعبون به بل لا بد أن نخوض ثم نبين الحق .

والسلف لم يتكلموا في كثير من المسائل المحدثّة لكن لما ابتلي الناس بالاهواء ردوا عليهم كما بين السلف ان القرآن غير مخلوق لرد قول من قال انه مخلوق .

وجاء في شرح الطحاوية للشيخ صالح ال الشيخ : "س/ ما هو الفرق بين الاسم والمسمى؟

الاسم والمسمى إذا اجتمعت فيُعْنَى بها بحث كلامي بحث عند أهل الكلام ودخل فيه أهل السنة رداً على أهل الكلام وبياناً للحق فيها، وإلا فبحث الاسم والمسمى ليس من البحوث الموجودة في الكتاب والسنة ولا في كلام الصحابة رضوان الله عليهم، وإنما الكلام فيها حادث؛ لكن جرّ إلى الكلام فيها أن المعتزلة خاضوا في ذلك توطئةً لنفي الصفات ولتحريف الأسماء لله - عز وجل - .

وتلخيص المسألة:

أنّ الاسم مثل: الرحمن، الرحيم، الكريم، ونحو ذلك، المسمى بهذا الاسم هو الله - عز وجل -، محمد المسمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، الكأس اسم المسمى هو هذا الذي ترى.

فإذاً الاسم دلالة عامة والمسمى انطباق هذا الاسم على العين أو على الذات.

إذا تبين ذلك، فإن المسألة التي اختلفوا فيها هي: قولهم هل الاسم عين المسمى أم أنّ الاسم غير المسمى؟ وهذه المسألة مبسّطة وطويلة الذيل؛ لكن اختصار القول فيها أنّ مذهب الأئمة أنّ الاسم لا يطلق القول بأنه عين المسمى ولا أنه غير المسمى؛ بل المسألة فيها تفصيل في دلالة الاسم على المسمى وأنّ الأسماء مختلفة؛ لأنّ كل اسم يدل على المسمى وزيادة صفة، فهو يدل على الذات ويدل على الصفة التي تضمنها هذا الاسم، كما ذكرنا لكم الرحيم تدل على ذات الله - عز وجل - المتصفة بالرحمة، والذين قالوا إنّ الاسم هو عين المسمى جعلوا أنه لا فرق بين الأسماء في دلالتها على المسمى فجعلوا العليم هو الرحيم مطابقة، وجعلوا الملك هو الودود، ونحو ذلك، بدون تفرقة بين الاسم والصفة، يعني جعلوا أنّ الأسماء دالة على الذات كما قال المعتزلة عليم بلا علم، رحيم بلا رحمة، وهكذا وهلم جرّاً.

والمسألة فيها طول لكن هذا بيان لأصلها. "

وجاء في شرح الحموية للراجحي: " قال في الحاشية: [وأما القول في الاسم فهو المسمى أم غير المسمى؟ فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع، فالقول فيه شين، والصمت عنه زين، وحسب امرئ من العلم به والقول فيه أن ينتهي إلى قول الله عز وجل ثناؤه الصادق وهو قوله: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠]، وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠].

فإذا قيل: هل الاسم هو المسمى أو غيره؟ فمنهم من قال: هو المسمى، ومنهم من قال: بل الاسم غير المسمى، والصحيح: أن الاسم للمسمى، ولا يطلق بأنه المسمى ولا غيره، بل لابد من التفصيل، فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه تارة أخرى، فإذا قيل: القرآن كلام الرحمن، فإن المراد به هنا: المسمى، وإذا قيل: الرحمن اسم عربي فالاسم هنا للمسمى، ولا يقال غير المسمى لما في لفظ غير من إيهام]. "

وقال الشيخ محمد بن عبد الرحمن الخميس في اعتقاد أئمة السلف أهل الحديث: " من البدع التي أحدثها أهل الكلام أن أسماء الله غير الله وما كان غيره فهو مخلوق وهذا من حماقاتهم وبذلك يمهدون الطريق لبدعة القول بخلق أسماء الله قال ابن جرير في كتابه صريح السنة.

"وأما القول في الاسم هو المسمى أم هو غيره فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيتبع ولا قول من إمام فيستمع".

قلت قول ابن جرير "ولا قول من إمام فيستمع" يشير إلى أن النزاع في هذه المسألة حدث بعد أئمة السلف الأوائل وذكر ابن أبي يعلى أن الإمام أحمد كان يشق عليه الكلام في الاسم والمسمى ويقول: هذا كلام محدث ولا يقول إن الاسم غير المسمى ولا هو ولكن يقول: إن الاسم للمسمى إتباعا لقول الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠]. "

ووقد اطال النفس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذه المسألة فقال في مجموع الفتاوى: " فصل: في الاسم والمسمى " هل هو أو غيره؟ أو لا يقال هو أو لا يقال هو غيره؟ أو هو له؟ أو يفصل في ذلك؟ . فإن الناس قد تنازعوا في ذلك والنزاع اشتهر في ذلك بعد الأئمة بعد أحمد وغيره والذي كان معروفا عند أئمة السنة " أحمد وغيره: الإنكار على " الجهمية " الذين يقولون: أسماء الله مخلوقة. فيقولون: الاسم غير المسمى وأسماء الله غير ما كان غيره فهو مخلوق؛ وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف وغلطوا فيهم القول؛ لأن أسماء الله من كلامه وكلام الله غير مخلوق؛ بل هو المتكلم به وهو المسمى لنفسه بما فيه من الأسماء. و " الجهمية " يقولون: كلامه مخلوق وأسماءه مخلوقة؛ وهو نفسه لم يتكلم بكلام يقوم بذاته ولا سمى نفسه باسم هو المتكلم به؛ بل قد يقولون: إنه تكلم به وسمى نفسه بهذه الأسماء بمعنى أنه خلقها في غيره؛ لا بمعنى أنه نفسه تكلم بها الكلام القائم به. فالقول في أسمائه هو نوع من القول في كلامه. والذين وافقوا

"السَّلَفَ" عَلَى أَنَّ كَلَامَهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَأَسْمَاءُهُ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ يَقُولُونَ : الْكَلَامُ وَالْأَسْمَاءُ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ ؛ لَكِنْ هَلْ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . وَيُسَمِّي نَفْسَهُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ؟ هَذَا فِيهِ قَوْلَانِ : النَّفْيُ هُوَ قَوْلُ " ابْنِ كَلَابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ . وَالْإِثْبَاتُ قَوْلُ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ " وَكَثِيرٍ مِنْ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكَلَامِ كَالْهَشَامِيَّةِ وَالْكَرَامِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ . (وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْمَعْرُوفَ عَنْ " أَئِمَّةِ السُّنَّةِ " إِنكَارُهُمْ عَلَى مَنْ قَالَ أَسْمَاءُ اللَّهِ مَخْلُوقَةٌ وَكَانَ الَّذِينَ يُطْلَقُونَ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْإِسْمَ غَيْرُ الْمُسَمَّى هَذَا مُرَادُهُمْ ؛ فَلِهَذَا يُرَوَى عَنْ الشَّافِعِيِّ وَالْأَصْمَعِيِّ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُ قَالَ : إِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ : الْإِسْمُ غَيْرُ الْمُسَمَّى فَاشْهَدْ عَلَيْهِ بِالزُّنْدَقَةِ ؛ وَلَمْ يُعْرِفْ أَيْضًا عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُ قَالَ الْإِسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى ؛ بَلْ هَذَا قَالَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَى السُّنَّةِ بَعْدَ الْأَئِمَّةِ وَأَنْكَرَهُ أَكْثَرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَيْهِمْ . ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ أَمْسَكَ عَنِ الْقَوْلِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا ؛ إِذْ كَانَ كُلُّ مَنْ الْإِطْلَاقِينَ بِدَعَا ذَكَرَهُ الْخَلَالُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْحَرْبِيِّ وَغَيْرِهِ ؛ وَكَمَا ذَكَرَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِي فِي الْجُزْءِ الَّذِي سَمَّاهُ " صَرِيحَ السُّنَّةِ " ذَكَرَ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمَشْهُورِ فِي الْقُرْآنِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِيمَانِ وَالْقَدَرِ وَالصَّحَابَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَذَكَرَ أَنَّ " مَسْأَلَةَ اللَّفْظِ " لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا كَلَامٌ ؛ كَمَا قَالَ لَمْ نَجِدْ فِيهَا كَلَامًا عَنْ صَحَابِيٍّ مَضَى وَلَا عَنْ تَابِعِيٍّ قَفَا إِلَّا عَمَّنْ فِي كَلَامِهِ الشُّفَاءُ وَالْغِنَاءُ وَمَنْ يَقُومُ لَدَيْنَا مَقَامَ الْأَئِمَّةِ الْأُولَى " أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ : اللَّفْظِيَّةُ جَهْمِيَّةٌ . وَيَقُولُ : مَنْ قَالَ لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ فَهُوَ جَهْمِي وَمَنْ قَالَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ . وَذَكَرَ أَنَّ الْقَوْلَ فِي الْإِسْمِ وَالْمُسَمَّى مِنَ الْحَمَاقَاتِ الْمُبْتَدِعَةِ الَّتِي لَا يُعْرِفُ فِيهَا قَوْلٌ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَأَنَّ حَسْبَ الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْإِسْمَ لِلْمُسَمَّى . وَهَذَا الْإِطْلَاقُ اخْتِيَارٌ أَكْثَرُ الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَى السُّنَّةِ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ . وَالَّذِينَ قَالُوا الْإِسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَى السُّنَّةِ : مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَبِي الْقَاسِمِ الطَّبْرِي وَالْإِسْمَاعِيلِيِّ وَأَبِي مُحَمَّدٍ الْبَغَوِيِّ صَاحِبِ " شَرْحِ السُّنَّةِ " وَغَيْرِهِمْ ؛ وَهُوَ أَحَدُ قَوْلِي أَصْحَابِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ اخْتَارَهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ فُورِكَ وَغَيْرُهُ . وَ (الْقَوْلُ الثَّانِي وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ أَنَّ الْأَسْمَاءَ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ تَارَةً يَكُونُ الْإِسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى كَاسْمِ الْمَوْجُودِ . وَ " تَارَةً " يَكُونُ غَيْرُ الْمُسَمَّى كَاسْمِ الْخَالِقِ . وَ " تَارَةً " لَا يَكُونُ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ كَاسْمِ الْعَلِيمِ وَالْقَدِيرِ . وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ الْإِسْمَ هُوَ الْمُسَمَّى لَمْ يُرِيدُوا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّفْظَ الْمُؤَلَّفَ مِنَ الْحُرُوفِ هُوَ نَفْسُ الشَّخْصِ الْمُسَمَّى بِهِ ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ . وَلِهَذَا يُقَالُ : لَوْ كَانَ الْإِسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى لَكَانَ مَنْ قَالَ " نَارٌ " اخْتَرَقَ لِسَانَهُ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ هَذَا مُرَادُهُمْ وَيُشْنَعُ عَلَيْهِمْ وَهَذَا غَلَطٌ عَلَيْهِمْ ؛ بَلْ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : اللَّفْظُ هُوَ التَّسْمِيَّةُ وَالْإِسْمُ لَيْسَ هُوَ اللَّفْظُ ؛ بَلْ هُوَ الْمُرَادُ بِاللَّفْظِ ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : يَا زَيْدُ يَا عُمَرُ فَلَيْسَ مُرَادُكَ دُعَاءَ اللَّفْظِ ؛ بَلْ مُرَادُكَ دُعَاءَ الْمُسَمَّى بِاللَّفْظِ وَذَكَرْتَ الْإِسْمَ فَصَارَ الْمُرَادُ بِالْإِسْمِ هُوَ الْمُسَمَّى . وَهَذَا لَا رَيْبَ فِيهِ إِذَا أَخْبَرَ عَنِ الْأَشْيَاءِ فَذَكَرْتَ أَسْمَاءَهَا فَقِيلَ : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ } { وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ } { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } فَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ هُوَ الرَّسُولُ وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ . وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ : جَاءَ زَيْدٌ وَأَشْهَدُ عَلَى عَمْرٍو وَقُلَانٌ عَدْلٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ فَإِنَّمَا تُذَكِّرُ الْأَسْمَاءَ وَالْمُرَادُ بِهَا الْمُسَمَّيَاتُ وَهَذَا هُوَ مَقْصُودُ الْكَلَامِ . فَلَمَّا كَانَتْ أَسْمَاءُ الْأَشْيَاءِ

إِذَا ذُكِرَتْ فِي الْكَلَامِ الْمُؤَلَّفِ فَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُوَ الْمُسَمَّيَاتُ : قَالَ هُوَ لَا : " الْإِسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى " وَجَعَلُوا اللَّفْظَ الَّذِي هُوَ الْإِسْمُ عِنْدَ النَّاسِ هُوَ التَّسْمِيَةُ كَمَا قَالَ الْبَغَوِيُّ : وَالْإِسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى وَعَيْنُهُ وَذَاتُهُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى } أَخْبَرَ أَنَّ اسْمَهُ يَحْيَى . ثُمَّ نَادَى الْإِسْمَ فَقَالَ { يَا يَحْيَى } وَقَالَ : { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا } وَأَرَادَ الْأَشْخَاصَ الْمَعْبُودَةَ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمُسَمَّيَاتِ . وَقَالَ : { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } و { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ } . قَالَ : ثُمَّ يُقَالُ " لِلتَّسْمِيَةِ " أَيْضًا اسْمٌ . وَاسْتَعْمَلَهُ فِي التَّسْمِيَةِ أَكْثَرُ مِنْ الْمُسَمَّى . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ فُورَكٍ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي حَقِيقَةِ " الْإِسْمِ " وَلَأَهْلِ اللُّغَةِ فِي ذَلِكَ كَلَامٌ وَلَأَهْلِ الْحَقَائِقِ فِيهِ بَيَانٌ وَبَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِيهِ خِلَافٌ . فَأَمَّا " أَهْلُ اللُّغَةِ " فَيَقُولُونَ : الْإِسْمُ حُرُوفٌ مَنْظُومَةٌ دَالَّةٌ عَلَى مَعْنَى مُفْرَدٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ قَوْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَذْكَورٍ يُضَافُ إِلَيْهِ ؛ يَعْنِي الْحَدِيثَ وَالْخَبَرَ . قَالَ : وَأَمَّا أَهْلُ الْحَقَائِقِ فَقَدْ اخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي مَعْنَى ذَلِكَ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : اسْمُ الشَّيْءِ هُوَ ذَاتُهُ وَعَيْنُهُ وَالتَّسْمِيَةُ عِبَارَةٌ عَنْهُ وَدَلَالَةٌ عَلَيْهِ فَيُسَمَّى اسْمًا تَوْسَعًا . وَقَالَتِ الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ " . الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ " هِيَ الْأَقْوَالُ الدَّالَّةُ عَلَى الْمُسَمَّيَاتِ وَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّا قَالَهُ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ . وَالثَّلَاثُ : لَا هُوَ هُوَ وَلَا هُوَ غَيْرُهُ ؛ كَالْعِلْمِ وَالْعَالَمِ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ اسْمُ الشَّيْءِ هُوَ صِفَتُهُ وَوَصْفُهُ . قَالَ : وَالَّذِي هُوَ الْحَقُّ عِنْدَنَا قَوْلٌ مَنْ قَالَ : اسْمُ الشَّيْءِ هُوَ عَيْنُهُ وَذَاتُهُ وَاسْمُ اللَّهِ هُوَ اللَّهُ وَتَقْدِيرُ قَوْلِ الْقَائِلِ : بِسْمِ اللَّهِ أَفْعَلُ أَيْ بِاللَّهِ أَفْعَلُ وَإِنَّ اسْمَهُ هُوَ هُوَ . قَالَ : وَإِلَى هَذَا الْقَوْلِ ذَهَبَ " أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِ لَبِيدٍ . إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَدَرَ وَالْمَعْنَى ثُمَّ السَّلَامُ عَلَيْكُمَا ؛ فَإِنَّ اسْمَ السَّلَامِ هُوَ السَّلَامُ . قَالَ : وَاحْتَجَّ أَصْحَابُنَا فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } وَهَذَا هُوَ صِفَةٌ لِلْمُسَمَّى لَا صِفَةٌ لِمَا هُوَ قَوْلٌ وَكَلَامٌ وَبِقَوْلِهِ : { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ } فَإِنَّ الْمُسَبِّحَ هُوَ الْمُسَمَّى وَهُوَ اللَّهُ وَبِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : { إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى } ثُمَّ قَالَ : { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } فَنَادَى الْإِسْمَ وَهُوَ الْمُسَمَّى . وَبِأَنَّ الْفُقَهَاءَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْحَالِفَ بِاسْمِ اللَّهِ كَالْحَالِفِ بِاللَّهِ فِي بَيَانِ أَنَّهُ تَنَعَّدُ الْيَمِينَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ؛ فَلَوْ كَانَ اسْمُ اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ لَكَانَ الْحَالِفُ بِغَيْرِ اللَّهِ لَا تَنَعَّدُ يَمِينُهُ ؛ فَلَمَّا انْعَقَدَ وَلَزِمَ بِالْحِنْثِ فِيهَا كُفَّارَةٌ دَلَّ عَلَى أَنَّ اسْمَهُ هُوَ . وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الْقَائِلَ إِذَا قَالَ : مَا اسْمُ مَعْبُودِكُمْ ؟ قُلْنَا اللَّهُ . فَإِذَا قَالَ : وَمَا مَعْبُودُكُمْ ؟ قُلْنَا اللَّهُ فَتُجِيبُ فِي الْإِسْمِ بِمَا تُجِيبُ بِهِ فِي الْمَعْبُودِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ اسْمَ الْمَعْبُودِ هُوَ الْمَعْبُودُ لَا غَيْرَ . وَبِقَوْلِهِ . { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ } وَإِنَّمَا عَبَدُوا الْمُسَمَّيَاتِ لَا الْأَقْوَالُ الَّتِي هِيَ أَعْرَاضٌ لَا تُعْبَدُ . قَالَ : فَإِنْ قِيلَ : أَلَيْسَ يُقَالُ : اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلَهُ أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ فَكَيْفَ يَكُونُ الْوَاحِدُ كَثِيرًا ؟ قِيلَ إِذَا أُطْلِقَ " أَسْمَاءٌ " فَالْمُرَادُ بِهِ مُسَمَّيَاتُ الْمُسَمَّيْنَ وَالشَّيْءُ قَدْ يُسَمَّى بِاسْمٍ دَلَالَتِهِ كَمَا يُسَمَّى الْمَقْدُورُ قُدْرَةً . قَالَ : فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ : بِاسْمِ اللَّهِ : أَيْ بِاللَّهِ وَالْبَاءُ مَعْنَاهَا الْإِسْتِعَانَةُ وَإِظْهَارُ الْحَاجَةِ وَتَقْدِيرُهُ : بِكَ أَسْتَعِينُ وَإِلَيْكَ أَحْتَاجُ وَقِيلَ تَقْدِيرُ الْكَلِمَةِ : أَيْتَدَّى أَوْ أَبْدَأُ بِاسْمِكَ فِيمَا أَقُولُ وَأَفْعَلُ . قُلْتُ : لَوْ اقْتَصَرُوا عَلَى أَنَّ أَسْمَاءَ الشَّيْءِ إِذَا ذُكِرَتْ فِي الْكَلَامِ فَالْمُرَادُ بِهَا الْمُسَمَّيَاتُ - كَمَا ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِهِ : { يَا يَحْيَى } وَنَحْنُ ذَلِكَ - لَكَانَ ذَلِكَ مَعْنَى وَاضِحًا لَا يُنَازَعُهُ فِيهِ مَنْ فَهِمَهُ لَكِنْ لَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى ذَلِكَ ؛ وَلِهَذَا أَنْكَرَ قَوْلَهُمْ

جُمْهُورُ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَغَيْرِهِمْ ؛ لِمَا فِي قَوْلِهِمْ مِنَ الْأُمُورِ الْبَاطِلَةِ مِثْلُ دَعْوَاهُمْ أَنَّ لَفْظَ اسْمِ الَّذِي هُوَ " ا س م " مَعْنَاهُ ذَاتُ الشَّيْءِ وَنَفْسُهُ وَأَنَّ الْأَسْمَاءَ - الَّتِي هِيَ الْأَسْمَاءُ - مِثْلُ زَيْدٍ وَعَمْرٍو هِيَ التَّسْمِيَّاتُ ؛ لَيْسَتْ هِيَ الْأَسْمَاءُ الْمُسَمِّيَّاتُ وَكِلَاهُمَا بَاطِلٌ مُخَالَفٌ لِمَا يَعْلَمُهُ جَمِيعُ النَّاسِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ وَلِمَا يَقُولُونَهُ . فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ زَيْدًا وَعَمْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ هِيَ الْأَسْمَاءُ النَّاسِ وَالتَّسْمِيَّةُ جَعْلُ الشَّيْءِ اسْمًا لِعَمَلِهِ هِيَ مَصْدَرُ سَمَيْتَهُ تَسْمِيَّةٌ إِذَا جَعَلْتَ لَهُ اسْمًا وَ " الْإِسْمُ " هُوَ الْقَوْلُ الدَّالُّ عَلَى الْمُسَمَّى لَيْسَ الْإِسْمُ الَّذِي هُوَ لَفْظُ اسْمٍ هُوَ الْمُسَمَّى ؛ بَلْ قَدْ يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى ؛ لِأَنَّهُ حُكْمٌ عَلَيْهِ وَدَلِيلٌ عَلَيْهِ . وَأَيْضًا : فَهُمْ تَكَلَّفُوا هَذَا التَّكْلِيفَ ؛ لِيَقُولُوا إِنَّ اسْمَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَمُرَادُهُمْ أَنَّ اللَّهَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَهَذَا مِمَّا لَا تُنَازِعُ فِيهِ الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزَلَةُ ؛ فَإِنَّ أَوْلَيْكَ مَا قَالُوا الْأَسْمَاءُ مَخْلُوقَةٌ إِلَّا لَمَّا قَالَ هَؤُلَاءِ هِيَ التَّسْمِيَّاتُ فَوَافَقُوا الْجَهْمِيَّةَ وَالْمُعْتَزَلَةَ فِي الْمَعْنَى وَوَافَقُوا أَهْلَ السُّنَّةِ فِي اللَّفْظِ . وَلَكِنْ أَرَادُوا بِهِ مَا لَمْ يَسْبِقْهُمْ أَحَدٌ إِلَى الْقَوْلِ بِهِ مِنْ أَنَّ لَفْظَ اسْمٍ وَهُوَ " أَلِفٌ سَيْنٌ مِيمٌ " مَعْنَاهُ إِذَا أُطْلِقَ هُوَ الذَّاتُ الْمُسَمَّاءُ ؛ بَلْ مَعْنَى هَذَا اللَّفْظِ هِيَ الْأَقْوَالُ الَّتِي هِيَ الْأَسْمَاءُ الْأَشْيَاءِ مِثْلُ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَعَالِمٍ وَجَاهِلٍ . فَلَفْظُ الْإِسْمِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ هِيَ مُسَمَّاهُ . ثُمَّ قَدْ عُرِفَ أَنَّهُ إِذَا أُطْلِقَ الْإِسْمُ فِي الْكَلَامِ الْمَنْظُومِ فَالْمُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى ؛ فَلِهَذَا يُقَالُ : مَا اسْمُ هَذَا ؟ فَيُقَالُ : زَيْدٌ . فَيَجَابُ بِاللَّفْظِ وَلَا يُقَالُ : مَا اسْمُ هَذَا فَيُقَالُ هُوَ هُوَ ؛ وَمَا ذَكَرُوهُ مِنَ الشَّوَاهِدِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ . أَمَّا قَوْلُهُ : { إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } ثُمَّ قَالَ : { يَا يَحْيَى } فَلَا اسْمَ الَّذِي هُوَ يَحْيَى هُوَ هَذَا اللَّفْظُ الْمُؤَلَّفُ مِنْ (يَا وَحَا وَيَا هَذَا هُوَ اسْمُهُ لَيْسَ اسْمُهُ هُوَ ذَاتُهُ ؛ بَلْ هَذَا مُكَابَرَةٌ . ثُمَّ لَمَّا نَادَاهُ فَقَالَ : { يَا يَحْيَى } . فَالْمَقْصُودُ الْمُرَادُ بِنِدَاءِ الْإِسْمِ هُوَ نِدَاءُ الْمُسَمَّى ؛ لَمْ يُقْصَدْ نِدَاءُ اللَّفْظِ لَكِنَّ الْمُتَكَلِّمَ لَا يُمَكِّنُهُ نِدَاءُ الشَّخْصِ الْمُنَادَى إِلَّا بِذِكْرِ اسْمِهِ وَنِدَائِهِ ؛ فَيَعْرِفُ حِينَئِذٍ أَنَّ قَصْدَهُ نِدَاءُ الشَّخْصِ الْمُسَمَّى وَهَذَا مِنْ فَائِدَةِ اللُّغَاتِ وَقَدْ يُدْعَى بِالْإِشَارَةِ وَلَيْسَتْ الْحَرَكَةُ هِيَ ذَاتُهُ وَلَكِنْ هِيَ دَلِيلٌ عَلَى ذَاتِهِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } فَبَيْنَهَا قِرَاءَتَانِ : الْأَكْثَرُونَ يَقْرَأُونَ { ذِي الْجَلَالِ } فَالرَّبُّ الْمُسَمَّى : هُوَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ : { ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } وَكَذَلِكَ هِيَ فِي الْمُصْحَفِ الشَّامِيِّ ؛ وَفِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالْعِرَاقِ هِيَ بِالْيَاءِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ { وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } فَهِيَ بِالْوَاوِ بِاتِّفَاقِهِمْ قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ وَغَيْرُهُ { تَبَارَكَ } تَفَاعَلَ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالْمَعْنَى أَنَّ الْبَرَكَةَ تُكْتَسَبُ وَتُنَالُ بِذِكْرِ اسْمِهِ ؛ فَلَوْ كَانَ لَفْظُ الْإِسْمِ مَعْنَاهُ الْمُسَمَّى لَكَانَ يَكْفِي قَوْلُهُ تَبَارَكَ رَبُّكَ فَإِنَّ نَفْسَ الْإِسْمِ عِنْدَهُمْ هُوَ نَفْسُ الرَّبِّ ؛ فَكَانَ هَذَا تَكْرِيرًا . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : إِنَّ ذِكْرَ الْإِسْمِ هُنَا صِلَةٌ وَالْمُرَادُ تَبَارَكَ رَبُّكَ ؛ لَيْسَ الْمُرَادُ الْإِخْبَارَ عَنْ اسْمِهِ بِأَنَّهُ تَبَارَكَ ؛ وَهَذَا غَلَطٌ فَإِنَّهُ عَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُ الْمُصَلِّي تَبَارَكَ اسْمُكَ أَيَّ تَبَارَكْتَ أَنْتَ وَنَفْسُ أَسْمَاءِ الرَّبِّ لَا بَرَكَةَ فِيهَا . وَمَعْلُومٌ أَنَّ نَفْسَ أَسْمَائِهِ مُبَارَكَةٌ وَبَرَكْتُهَا مِنْ جِهَةِ دَلَالَتِهَا عَلَى الْمُسَمَّى . وَلِهَذَا فَارْقَتْ الشَّرِيعَةُ بَيْنَ مَا يُذَكَّرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَمَا لَا يُذَكَّرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : { فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } وَقَوْلُهُ : { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } وَقَوْلُهُ { وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ } وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ((وَإِنْ خَالَطَ كَلْبُكَ كِلَابٌ أُخْرَى فَلَا تَأْكُلْ فَإِنَّكَ إِنَّمَا سَمَيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى غَيْرِهِ)) . " وَأَمَّا

قوله تعالى { ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ } . فَلَيْسَ الْمُرَادُ كَمَا ذَكَرُوهُ : أَنْكُمْ تَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ الْمُسَمَّاةَ فَإِنَّ هَذَا هُمْ مُعْتَرِفُونَ بِهِ . وَالرَّبُّ تَعَالَى نَفَى مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ وَأَثَبَتْ ضِدَّهُ وَلَكِنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ سَمَّوْهَا آلِهَةً وَاعْتَقَدُوا ثُبُوتَ الْإِلَهِيَّةِ فِيهَا ؛ وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ فَإِذَا عَبْدُوهَا مُعْتَقِدِينَ إِلَهِيَّتَهَا مُسَمِّينَ لَهَا آلِهَةً لَمْ يَكُونُوا قَدْ عَبْدُوا إِلَّا أَسْمَاءً ابْتَدَعُوهَا هُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْ بِعِبَادَةِ هَذِهِ وَلَا جَعَلَهَا آلِهَةً كَمَا قَالَ : { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } فَتَكُونُ عِبَادَتُهُمْ لِمَا تَصَوَّرُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ وَعَبَّرُوا عَنْهُ بِالْإِسْمِ وَذَلِكَ أَمْرٌ مَوْجُودٌ فِي أَذْهَانِهِمْ وَالْإِسْمُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْخَارِجِ ؛ فَمَا عَبْدُوا إِلَّا هَذِهِ الْأَسْمَاءَ الَّتِي تَصَوَّرُوهَا فِي أَذْهَانِهِمْ وَعَبَّرُوا عَنْ مَعَانِيهَا بِالْإِسْمِ ؛ وَهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا عِبَادَةَ الصَّنَمِ إِلَّا لِكَوْنِهِ إِلَهًا عِنْدَهُمْ وَإِلَهِيَّتُهُ هِيَ فِي أَنْفُسِهِمْ ؛ لَا فِي الْخَارِجِ فَمَا عَبْدُوا فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا ذَلِكَ الْخَيَالَ الْفَاسِدَ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ . وَلِهَذَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ } يَقُولُ : سَمُّوهُمْ بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَهَا هَلْ هِيَ خَالِقَةُ رَازِقَةٍ مُحْيِيَّةٌ مُمِيتَةٌ أَمْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ لَا تَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ؟ ؟ فَإِذَا سَمَّوْهَا فَوَصَفُوهَا بِمَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ الصِّفَاتِ تَبَيَّنَ ضَلَالُهُمْ . قَالَ تَعَالَى : { أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ } وَمَا لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مَوْجُودٌ فَهُوَ بَاطِلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَلَوْ كَانَ مَوْجُودًا لَعَلِمَهُ مَوْجُودًا { أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ } أَمْ بِقَوْلِ ظَاهِرِ الْبَلَّاسَانِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْقَلْبِ ؛ بَلْ هُوَ كَذِبٌ وَبُهْتَانٌ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إِنَّ الْإِسْمَ يُرَادُ بِهِ " التَّسْمِيَةُ " وَهُوَ الْقَوْلُ : فَهَذَا الَّذِي جَعَلُوهُ هُمْ تَسْمِيَةً هُوَ الْإِسْمُ عِنْدَ النَّاسِ جَمِيعِهِمْ وَالتَّسْمِيَةُ جَعْلُهُ اسْمًا وَالْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ اسْمٌ وَنَحْنُ ذَلِكَ وَقَدْ سَلَّمُوا أَنَّ لَفْظَ الْإِسْمِ أَكْثَرُ مَا يُرَادُ بِهِ ذَلِكَ وَادَّعَوْا أَنَّ لَفْظَ الْإِسْمِ الَّذِي هُوَ " أَلِفٌ سِينٌ مِيمٌ " : هُوَ فِي الْأَصْلِ ذَاتُ الشَّيْءِ وَلَكِنَّ التَّسْمِيَةَ سَمَّيْتُ اسْمًا لِذَلِكَ عَلَى ذَاتِ الشَّيْءِ : تَسْمِيَةً لِلذَّالِّ بِاسْمِ الْمَذْلُولِ وَمَثَلُوهُ بِالْفِظِ الْقُدْرَةِ ؛ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ بَلْ التَّسْمِيَةُ مُصَدَّرٌ سَمَى يُسَمِّي تَسْمِيَةً وَالتَّسْمِيَةُ نُطْقٌ بِالْإِسْمِ وَتَكَلُّمٌ بِهِ لَيْسَتْ هِيَ الْإِسْمُ نَفْسُهُ وَأَسْمَاءُ الْأَشْيَاءِ هِيَ الْأَلْفَاظُ الدَّالَّةُ عَلَيْهَا لَيْسَتْ هِيَ أَعْيَانُ الْأَشْيَاءِ . وَتَسْمِيَةُ الْمُقْدُورِ قُدْرَةٌ هُوَ مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ الْمَفْعُولِ بِاسْمِ الْمَصْدَرِ وَهَذَا كَثِيرٌ شَائِعٌ فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِهِمْ لِلْمَخْلُوقِ خَلَقَ وَقَوْلِهِمْ دَرَبَهُمْ ضَرَبَ الْأَمِيرُ أَيْ مَضْرُوبُ الْأَمِيرِ وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ . وَابْنُ عَطِيَّةٍ سَلَكَ مَسْلَكَ هَؤُلَاءِ وَقَالَ : الْإِسْمُ الَّذِي هُوَ " أَلِفٌ وَسِينٌ وَمِيمٌ " يَأْتِي فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْكَلَامِ الْفَصِيحِ يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى وَيَأْتِي فِي مَوَاضِعَ يُرَادُ بِهِ التَّسْمِيَةُ نَحْنُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((إِنْ لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتَسْعِينَ اسْمًا)) وَغَيْرُ ذَلِكَ وَمَتَى أُريدَ بِهِ الْمُسَمَّى فَإِنَّمَا هُوَ صِلَةٌ كَالزَّائِدِ كَأَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : سَبَّحَ رَبُّكَ الْأَعْلَى أَيْ نَزَّهَهُ . قَالَ : وَإِذَا كَانَ الْإِسْمُ وَاحِدَ الْأَسْمَاءِ كَزَيْدٍ وَعَمَرٍ فَيَجِيءُ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَا قُلْتُ لَكَ . تَقُولُ : زَيْدٌ قَائِمٌ تُريدُ الْمُسَمَّى وَتَقُولُ : زَيْدٌ ثَلَاثَةٌ أَخْرَفِ تُريدُ التَّسْمِيَةَ نَفْسَهَا عَلَى مَعْنَى نَزَّهَ اسْمَ رَبِّكَ عَنْ أَنْ يُسَمَّى بِهِ صَنَمٌ أَوْ وَثَنٌ فَيُقَالُ لَهُ : " إِلَهٌ أَوْ رَبٌّ " . قُلْتُ : هَذَا الَّذِي ذَكَرُوهُ لَا يُعْرَفُ لَهُ شَاهِدٌ لَا مِنْ كَلَامٍ فَصِيحٍ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ وَلَا يُعْرَفُ أَنَّ لَفْظَ اسْمٍ " أَلِفٌ سِينٌ مِيمٌ " يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى بَلِ الْمُرَادُ بِهِ الْإِسْمُ الَّذِي يَقُولُونَ هُوَ التَّسْمِيَةُ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : تَقُولُ زَيْدٌ قَائِمٌ زَيْدٌ الْمُسَمَّى . فَزَيْدٌ لَيْسَ هُوَ " أَلِفٌ سِينٌ مِيمٌ " بَلْ زَيْدٌ مُسَمَّى هَذَا اللَّفْظُ فَزَيْدٌ يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى وَيُرَادُ بِهِ اللَّفْظُ . وَكَذَلِكَ اسْمٌ

أَلِفٌ سَيْنٌ مِيمٌ " يُرَادُ بِهِ هَذَا اللَّفْظُ ؛ وَيُرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ وَهُوَ لَفْظُ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ ؛ فَبِتِلْكَ هِيَ الْأَسْمَاءُ الَّتِي تُرَادُ
بِلَفْظِ اسْمٍ ؛ لَا يُرَادُ بِلَفْظِ اسْمٍ نَفْسُ الْأَشْخَاصِ ؛ فَهَذَا مَا أَعْرِفُ لَهُ شَاهِدًا صَحِيحًا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَصْلُ
كَمَا ادَّعَاهُ هَؤُلَاءِ . قَالَ تَعَالَى : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } . فَاسْمَاؤُهُ
الْحُسْنَى مِثْلُ : الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْغُفُورِ الرَّحِيمِ فَهَذِهِ الْأَقْوَالُ هِيَ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَى وَهِيَ إِذَا ذُكِرَتْ فِي الدُّعَاءِ
وَالْخَبَرِ يُرَادُ بِهَا الْمُسَمَّى . إِذَا قَالَ : { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ } فَالْمُرَادُ الْمُسَمَّى لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى
الْأَسْمَاءِ الَّتِي هِيَ أَقْوَالٌ ؛ كَمَا فِي سَائِرِ الْكَلَامِ : كَلَامِ الْخَالِقِ وَكَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ . وَمَا ذَكَرُوهُ مِنْ أَنَّ الْقَائِلَ إِذَا قَالَ
: مَا اسْمُ مَعْبُودِكُمْ ؟ قُلْنَا : اللَّهُ . فَتُجِيبُ فِي الْإِسْمِ بِمَا تُجِيبُ بِهِ فِي الْمَعْبُودِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ اسْمَ الْمَعْبُودِ هُوَ
الْمَعْبُودُ : حُجَّةٌ بَاطِلَةٌ وَهِيَ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ . فَإِنَّ الْقَائِلَ إِذَا قَالَ : مَا اسْمُ مَعْبُودِكُمْ ؟ فَقُلْنَا : اللَّهُ . فَالْمُرَادُ أَنَّ اسْمَهُ
هُوَ هَذَا الْقَوْلُ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ اسْمَهُ هُوَ ذَاتُهُ وَعَيْنُهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ إِنَّمَا سَأَلَ عَنْ اسْمِهِ لَمْ يَسْأَلْ
عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَكَانَ الْجَوَابُ بِذِكْرِ اسْمِهِ . وَإِذَا قَالَ : مَا مَعْبُودُكُمْ ؟ فَقُلْنَا اللَّهُ : فَالْمُرَادُ هُنَاكَ الْمُسَمَّى ؛ لَيْسَ الْمُرَادُ
أَنَّ الْمَعْبُودَ هُوَ الْقَوْلُ فَلَمَّا اخْتَلَفَ السُّؤَالُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ اخْتَلَفَ الْمَقْصُودُ بِالْجَوَابِ وَإِنْ كَانَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ قَالَ
اللَّهُ لَكِنَّهُ فِي أَحَدِهِمَا أُريدَ هَذَا الْقَوْلُ الَّذِي هُوَ مِنَ الْكَلَامِ وَفِي الْآخَرِ أُريدَ بِهِ الْمُسَمَّى بِهَذَا الْقَوْلِ . كَمَا إِذَا قِيلَ :
مَا اسْمُ فَلَانٍ ؟ فَقِيلَ : زَيْدٌ أَوْ عُمَرُ فَالْمُرَادُ هُوَ الْقَوْلُ . وَإِذَا قَالَ : مَنْ أَمِيرُكُمْ أَوْ مَنْ أَنْكَحْتَ ؟ فَقِيلَ زَيْدٌ أَوْ عَمْرٍو
فَالْمُرَادُ بِهِ الشَّخْصُ فَكَيْفَ يُجْعَلُ الْمَقْصُودُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَاحِدًا . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى }
كَانَ الْمُرَادُ أَنَّهُ نَفْسُهُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى . وَمِنْهَا اسْمُهُ اللَّهُ . كَمَا قَالَ : { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا
تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } فَالَّذِي لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى هُوَ الْمُسَمَّى بِهَا ؛ وَلِهَذَا كَانَ فِي كَلَامِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّ
هَذَا الْإِسْمَ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى ؛ وَتَارَةً يَقُولُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى لَهُ أَيُّ الْمُسَمَّى لَيْسَ مِنَ الْأَسْمَاءِ ؛ وَلِهَذَا فِي قَوْلِهِ
{ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } لَمْ يَقْصِدْ أَنَّ هَذَا الْإِسْمَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ؛ بَلْ قَصَدَ أَنَّ الْمُسَمَّى لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى . وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ الصَّحِيحِ ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَقَشُ خَاتَمِهِ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ
اللَّهِ مُحَمَّدٌ سَطَرٌ وَرَسُولٌ سَطَرٌ وَاللَّهُ سَطَرٌ)) وَيُرَادُ الْخَطُّ الْمَكْتُوبُ الَّذِي كُتِبَ بِهِ ذَلِكَ ؛ فَالْخَطُّ الَّذِي كُتِبَ
بِهِ مُحَمَّدٌ سَطَرٌ وَالْخَطُّ الَّذِي كُتِبَ بِهِ رَسُولٌ سَطَرٌ وَالْخَطُّ الَّذِي كُتِبَ بِهِ اللَّهُ سَطَرٌ . وَلَمَّا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَاتَاهُ)) " فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُرَادَ تَحَرُّكَ شَفَاتِهِ بِذِكْرِ
اسْمِ اللَّهِ وَهُوَ الْقَوْلُ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ الشَّفَتَيْنِ تَتَحَرَّكُ بِنَفْسِهِ تَعَالَى . وَأَمَّا احتِجَاجُهُمْ بِقَوْلِهِ : { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ
الْأَعْلَى } وَأَنَّ الْمُرَادَ سَبِّحْ رَبَّكَ الْأَعْلَى وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ
فَهَذَا لِلنَّاسِ فِيهِ قَوْلَانِ مَعْرُوفَانِ وَكِلَاهُمَا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ . مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : " الْإِسْمُ " هُنَا صِلَةٌ وَالْمُرَادُ سَبِّحْ رَبَّكَ
وَتَبَارَكَ رَبُّكَ . وَإِذَا قِيلَ : هُوَ صِلَةٌ فَهُوَ زَائِدٌ لَا مَعْنَى لَهُ ؛ فَيُطِيلُ قَوْلُهُمْ إِنَّ مَذْلُولَ لَفْظِ اسْمٍ " أَلِفٌ سَيْنٌ مِيمٌ " هُوَ
الْمُسَمَّى فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ مَذْلُولٌ مُرَادٌ لَمْ يَكُنْ صِلَةً . وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ هُوَ الْمُسَمَّى وَأَنَّهُ صِلَةٌ كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ ؛ فَقَدْ
تَنَاقَضَ فَإِنَّ الَّذِي يَقُولُ هُوَ صِلَةٌ لَا يَجْعَلُ لَهُ مَعْنَى ؛ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ فِي الْحُرُوفِ الزَّائِدَةِ الَّتِي تَجِيءُ

لِلتَّوَكُّيدِ كَقَوْلِهِ : { فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ } و { قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ } وَنَحْنُ ذَلِكَ . وَمَنْ قَالَ :
 إِنَّهُ لَيْسَ بِصَلَةٍ بَلِ الْمُرَادُ تَسْبِيحُ الْإِسْمِ نَفْسِهِ فَهَذَا مُنَاقِضٌ لِقَوْلِهِمْ مُنَاقِضَةٌ ظَاهِرَةٌ . و " التَّحْقِيقُ " أَنَّهُ لَيْسَ بِصَلَةٍ
 بَلِ أَمَرَ اللَّهُ بِتَسْبِيحِ اسْمِهِ كَمَا أَمَرَ بِذِكْرِ اسْمِهِ . وَالْمَقْصُودُ بِتَسْبِيحِهِ وَذِكْرِهِ هُوَ تَسْبِيحُ الْمُسَمَّى وَذِكْرُهُ فَإِنَّ الْمُسَبَّحَ
 وَالذَّاكِرَ إِنَّمَا يُسَبِّحُ اسْمَهُ وَيَذْكُرُ اسْمَهُ ؛ فَيَقُولُ : سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى فَهُوَ نَطَقَ بِلَفْظِ رَبِّي الْأَعْلَى وَالْمُرَادُ هُوَ
 الْمُسَمَّى بِهَذَا اللَّفْظِ فَتَسْبِيحُ الْإِسْمِ هُوَ تَسْبِيحُ الْمُسَمَّى . وَمَنْ جَعَلَهُ تَسْبِيحًا لِلْإِسْمِ يَقُولُ الْمَعْنَى أَنَّكَ لَا تُسَمِّ بِهِ
 غَيْرَ اللَّهِ وَلَا تُلْحِدُ فِي أَسْمَائِهِ فَهَذَا مِمَّا يَسْتَحِقُّهُ اسْمُ اللَّهِ لَكِنَّ هَذَا تَابِعٌ لِلْمُرَادِ بِالْآيَةِ لَيْسَ هُوَ الْمَقْصُودُ بِهَا
 الْقَصْدُ الْأَوَّلُ . وَقَدْ ذَكَرَ " الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ " غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ كَالْبَغَوِيِّ قَالَ قَوْلُهُ : { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ
 الْأَعْلَى } أَيُّ قُلِّ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى . وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَذَكَرَ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ ((أَنَّ النَّبِيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ : { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } . فَقَالَ : سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى . قُلْتُ : فِي ذَلِكَ
 حَدِيثُ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ { فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } قَالَ اجْعَلُوهَا فِي
 رُكُوعِكُمْ وَلَمَّا نَزَلَ : { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } قَالَ ((اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ)) .
 وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّ يَقُولُوا فِي الرُّكُوعِ سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ وَفِي السُّجُودِ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى كَمَا ثَبَتَ
 فِي الصَّحِيحِ عَنْ حَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَامَ بِالْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ وَآلِ عِمْرَانَ ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ
 يَقُولُ : سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ وَسَجَدَ نَحْوًا مِنْ رُكُوعِهِ يَقُولُ : سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى .
 وَفِي السُّنَنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " إِذَا قَالَ الْعَبْدُ فِي رُكُوعِهِ : سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ ثَلَاثًا
 فَقَدْ تَمَّ رُكُوعُهُ وَذَلِكَ أَذْنَاهُ وَإِذَا قَالَ فِي سُجُودِهِ : سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى ثَلَاثًا فَقَدْ تَمَّ سُجُودُهُ وَذَلِكَ أَذْنَاهُ " .
 وَقَدْ أَخَذَ بِهَذَا جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ . قَالَ الْبَغَوِيُّ : وَقَالَ قَوْمٌ مَعْنَاهُ نَزَّ رَبُّكَ الْأَعْلَى عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْمُلْحِدُونَ . وَجَعَلُوا
 الْإِسْمَ صَلَةً . قَالَ : وَيَحْتَجُّ بِهَذَا مَنْ يَجْعَلُ الْإِسْمَ وَالْمُسَمَّى وَاحِدًا ؛ لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَقُولُ سُبْحَانَ اسْمِ اللَّهِ وَسُبْحَانَ
 اسْمِ رَبِّنَا إِنَّمَا يَقُولُونَ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَسُبْحَانَ رَبَّنَا . وَكَانَ مَعْنَى : { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ } سَبِّحْ رَبَّكَ . قُلْتُ : قَدْ تَقَدَّمَ
 الْكَلَامُ عَلَى هَذَا وَالَّذِي : يَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَسُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّمَا نَطَقَ بِالْإِسْمِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ وَالَّذِي هُوَ رَبَّنَا :
 فَتَسْبِيحُهُ إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى الْإِسْمِ لَكِنَّ مُرَادَهُ هُوَ الْمُسَمَّى فَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ يُنْطَقُ بِاسْمِ الْمُسَمَّى وَالْمُرَادُ الْمُسَمَّى . وَهَذَا
 لَا رَيْبَ فِيهِ لَكِنَّ هَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَفْظَ اسْمِ الَّذِي هُوَ " أَلِفٌ سَيْنٌ مِيمٌ " الْمُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى . لَكِنَّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
 " أَسْمَاءَ اللَّهِ " مِثْلُ اللَّهِ وَرَبَّنَا وَرَبِّي الْأَعْلَى وَنَحْنُ ذَلِكَ يُرَادُ بِهَا الْمُسَمَّى مَعَ أَنَّهَا هِيَ فِي نَفْسِهَا لَيْسَتْ هِيَ
 الْمُسَمَّى لَكِنَّ يُرَادُ بِهَا الْمُسَمَّى فَأَمَّا اسْمُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ " أَلِفٌ سَيْنٌ مِيمٌ " فَلَا هُوَ الْمُسَمَّى الَّذِي هُوَ الدَّاتُ وَلَا
 يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى الَّذِي هُوَ الدَّاتُ ؛ وَلَكِنَّ يُرَادُ بِهِ مُسَمَّاهُ الَّذِي هُوَ الْأَسْمَاءُ كَأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى فِي قَوْلِهِ : { وَلِلَّهِ
 الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } فَلَهَا هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى الَّتِي جَعَلَهَا هَؤُلَاءِ هِيَ التَّسْمِيَاتُ وَجَعَلُوا التَّغْيِيرَ عَنْهَا بِالْأَسْمَاءِ
 تَوْسَعًا ؛ فَخَالَفُوا إِجْمَاعَ الْأُمَمِ كُلِّهِمْ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَخَالَفُوا صَرِيحَ الْمُعْقُولِ وَصَحِيحَ الْمُنْقُولِ . وَالَّذِينَ
 شَارَكُوهُمْ فِي هَذَا الْأَصْلِ وَقَالُوا : الْأَسْمَاءُ ثَلَاثَةٌ " قَدْ تَكُونُ هِيَ الْمُسَمَّى وَقَدْ تَكُونُ غَيْرُهُ وَقَدْ تَكُونُ لَا هِيَ هُوَ وَلَا

ومن صفات الرب ما به اتصف

على الدوام شأن ذا لم يختلف^(١)

غَيْرُهُ وَجَعَلُوا الْخَالِقَ وَالرَّازِقَ وَنَحْوَهُمَا غَيْرَ الْمُسَمَّى وَجَعَلُوا الْعَلِيمَ وَالْحَكِيمَ وَنَحْوَهُمَا لِلْمُسَمَّى : عَظُمُوا مِنْ وَجْهِ
آخَرٍ فَإِنَّهُ إِذَا سَلِمَ لَهُمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْمِ الَّذِي هُوَ " أَلِفٌ سَيْنٌ مِيمٌ " هُوَ مُسَمَّى الْأَسْمَاءِ ؛ فَاسْمُهُ الْخَالِقُ هُوَ الرَّبُّ
الْخَالِقُ نَفْسُهُ لَيْسَ هُوَ الْمَخْلُوقَاتُ الْمُنْفَصِلَةُ عَنْهُ وَاسْمُهُ الْعَلِيمُ هُوَ الرَّبُّ الْعَلِيمُ الَّذِي الْعِلْمُ صِفَةٌ لَهُ فَلَيْسَ الْعِلْمُ
هُوَ الْمُسَمَّى ؛ بَلِ الْمُسَمَّى هُوَ الْعَلِيمُ ؛ فَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يُقَالَ عَلَى أَصْلِهِمْ : الْإِسْمُ هُنَا هُوَ الْمُسَمَّى وَصِفَتُهُ .
وَفِي الْخَالِقِ الْإِسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى وَفِعْلُهُ ؛ ثُمَّ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْخَلْقَ هُوَ الْمَخْلُوقُ وَلَيْسَ الْخَلْقُ فِعْلاً قَائِماً بِذَاتِهِ قَوْلٌ
ضَعِيفٌ مُخَالِفٌ لِقَوْلِ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ . كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ . فَتَبَيَّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا : " الْإِسْمُ هُوَ
الْمُسَمَّى " إِنَّمَا يَسْلَمُ لَهُمْ أَنَّ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ إِذَا ذُكِرَتْ فِي الْكَلَامِ أُريدَ بِهِ الْمُسَمَّى وَهَذَا مِمَّا لَا يُنَازَعُ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ
الْعُقَلَاءِ ؛ لَا أَنَّ لَفْظَ اسْمٍ . (أَلِفٌ سَيْنٌ مِيمٌ يُرَادُ بِهِ الشَّخْصُ . وَمَا ذَكَرُوهُ مِنْ قَوْلٍ لِيَبْدَ : إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ
السَّلَامِ عَلَيْكُمَا فَمُرَادُهُ ثُمَّ التَّنْقِطُ بِهَذَا الْإِسْمِ وَذَكَرَهُ وَهُوَ التَّسْلِيمُ الْمَقْصُودُ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ ثُمَّ سَلَامٌ عَلَيْكُمَا لَيْسَ مُرَادُهُ
أَنَّ السَّلَامَ يَحْصُلُ عَلَيْهِمَا بِدُونِ أَنْ يَنْطِقَ بِهِ وَيَذْكُرَ اسْمَهُ . فَإِنَّ نَفْسَ السَّلَامِ قَوْلٌ فَإِنْ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ نَاطِقٌ وَيَذْكُرُهُ لَمْ
يَحْصُلْ . وَقَدْ اِحْتَجَّ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِ سَيِّوِيَةِ إِنَّ الْفِعْلَ أَمْثَلُ أُحْدِثَ مِنْ لَفْظِ أَحْدَاثِ الْأَسْمَاءِ وَبُنِيَ لِمَا مَضَى وَلَمَّا لَمْ
يَكُنْ بَعْدُ وَهَذَا لَا حُجَّةَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ سَيِّوِيَةَ مَقْصُودُهُ بِذِكْرِ الْإِسْمِ وَالْفِعْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ الْأَلْفَافُ . وَهَذَا اصْطِلَاحُ
النَّحْوِيِّينَ سَمَّوْا الْأَلْفَافَ بِأَسْمَاءٍ مَعَانِيهَا ؛ فَسَمَّوْا قَامَ وَيَقُومُ وَقَمَ فِعْلاً ؛ وَالْفِعْلُ هُوَ نَفْسُ الْحَرَكَةِ ؛ فَسَمَّوْا اللَّفْظَ
الدَّالَّ عَلَيْهَا بِاسْمِهَا . وَكَذَلِكَ إِذَا قَالُوا : اسْمٌ مُعَرَّبٌ وَمَبْنِيٌّ فَمَقْصُودُهُمُ اللَّفْظُ لَيْسَ مَقْصُودُهُمُ الْمُسَمَّى وَإِذَا قَالُوا
هَذَا الْإِسْمُ فَاعِلٌ فَمُرَادُهُمْ أَنَّهُ فَاعِلٌ فِي اللَّفْظِ ؛ أَيْ أُسْنِدَ إِلَيْهِ الْفِعْلُ وَلَمْ يُرَدْ سَيِّوِيَةَ بِلَفْظِ الْأَسْمَاءِ الْمُسَمَّيَاتِ كَمَا
زَعَمُوا ؛ وَلَوْ أَرَادَ ذَلِكَ فَسَدَتْ صِنَاعَتُهُ .

^١ — قال ابن عثيمين في شرح لمعة الاعتقاد : " الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين : ذاتية ، وفعلية .

فالذاتية : هي التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها كالسمع والبصر .

والفعلية : هي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها كالاستواء على العرش ، والمجيء .

وربما تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام فإنه باعتبار أصل الصفة صفة ذاتية ، لأن الله لم يزل ولا يزال

متكلماً وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية ، لأن الكلام متعلق بمشيئته يتكلم بما شاء متى شاء . "

فالصفات منها صفات ذاتية نسبة إلى ذات الله ، وهي الصفات الملازمة لذاته التي لا تنفك عنها ذات الرب .

وأهل العلم يقسمون الصفات إلى : ذاتية وفعلية ، وذاتية فعلية ، وهذا التقسيم كغيره مما نبه إليه أهل العلم لدعاء

الحاجة إلى ذلك ، وإلا فالسلف والصحابة يدركون هذه المعاني دون أن يتكلموا بهذه المصطلحات ، لكن لما

جاءت البدع ووقع الناس في التخبط نبه العلماء إلى المسائل ، وقسموا وفصلوا مثل تقسيم التوحيد، ومثل تقسيم أفعال العبادات إلى أركان وواجبات وسنن.

فالصفات الذاتية هي التي لا تتعلق بها المشيئة، والفعالية هي التي تتعلق بها المشيئة. فالحيوة صفة ذاتية لا تتعلق بها المشيئة ، ولا تنفك عنها ذات الرب ، فلا تقول: إنه حي إذا شاء ، هذا لا يجوز ، أو عليم أو يعلم إذا شاء ، أو ذو عزة إذا شاء ، فهذا لا يستقيم؛ بل هذه صفات لازمة لذاته لا تتعلق بها المشيئة .

أما الصفات الفعلية - وتسمى الصفات الاختيارية، أو الأفعال الاختيارية: فهذه تابعة لمشيئته ، مثل: النزول ، فتقول: ينزل إذا شاء. ومثل: الاستواء على العرش، والمجيء يوم القيامة، وكذلك الغضب والرضى فهذه الصفات فعلية.

قال ابن عثيمين في تقريب التدمرية: "واعلم أن الصفات الثبوتية التي وصف الله بها نفسه كلها صفات كمال، والغالب فيها التفصيل، لأنه كلما كثر الإخبار عنها وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصوف بها ما لم يكن معلوماً من قبل، ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر من الصفات المنفية التي نفاها الله عن نفسه.

وأما الصفات المنفية التي نفاها الله عن نفسه فكلها صفات نقص ولا تليق به كالعجز، والتعب، والظلم، ومماثلة المخلوقين، والغالب فيها الإجمال لأن ذلك أبلغ في تعظيم الموصوف وأكمل في التنزيه فإن تفصيلها لغير سبب يقتضيه فيه سخرية وتنقص في الموصوف.

ألا ترى أنك لو مدحت ملكاً فقلت له: أنت كريم، شجاع محنك، قوي الحكم، قاهر لأعدائك إلى غير ذلك من صفات المدح لكان هذا من أعظم الشاء عليه، وكان فيه من زيادة مدحه وإظهار محاسنه ما يجعله محبوباً محترماً لأنك فصلت في الإثبات.

ولو قلت: أنت ملك لا يساميك أحد من ملوك الدنيا في عصرك لكان ذلك مدحاً بالغاً لأنك أجملت في النفي. ولو قلت: أنت ملك غير بخيل، ولا جبان، ولا فقير، ولا بقال، ولا كناس ولا بيطار، ولا حجام، وما أشبه ذلك من التفصيل في نفي العيوب التي لا تليق به لعد ذلك استهزاءً به وتنقصاً لحقه.

وقد يأتي الإجمال في أسماء الله تعالى: وصفاته الثبوتية كقوله تعالى: في الأسماء: { ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها } [الاعراف ١٨٠] وقوله في الصفات: { ولله المثل الأعلى } [النحل ٦٠]. أي الوصف الأعلى .

وقد يأتي التفصيل في الصفات المنفية لأسباب منها:

١. نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون المفترون كقوله تعالى: { ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله } [المؤمنون

٢. دفع توهم نقص في كماله كقوله تعالى: { ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب } [ق ٣٨].

٣. بيان عموم كماله في قوله تعالى: { ليس كمثله شيء } { ولم يكن له كفواً أحد } ".
وقال في شرح القواعد المثلى: " الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين: ذاتية وفعلية:
فالذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها، كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعزة، والحكمة، والعلو،
والعظمة، ومنها الصفات الخبرية، كالوجه، واليدين، والعينين.
والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين، كالكلام، فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية، لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية، لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء كما في قوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون } [يس ٨٢]. وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته. وقد تكون الحكمة معلومة لنا وقد نعجز عن إدراكها لكننا نعلم علم اليقين أنه سبحانه لا يشاء شيئاً إلا وهو موافق للحكمة، كما يشير إليه قوله تعالى: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً } [الانسان ٣٠]
ثم قال : : يلزم في إثبات الصفات التخلي عن محذورين عظيمين: أحدهما: التمثيل. والثاني: التكيف.
فأما التمثيل: فهو اعتقاد المثبت أن ما أثبتته من صفات الله تعالى مماثل لصفات المخلوقين، وهذا اعتقاد باطل،
بدليل السمع، والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: { ليس كمثله شيء } . وقوله: { أقمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون } . وقوله: { هل تعلم له سمياً } . وقوله: { ولم يكن له كفواً أحد } .
وأما العقل فمن وجوه:

الأول: أنه قد علم بالضرورة أن بين الخالق والمخلوق تبايناً في الذات، وهذا يستلزم أن يكون بينهما تباين في الصفات لأن صفة كل موصوف تليق به، كما هو ظاهر في صفات المخلوقات المتباينة في الدوات، ففوة البعير مثلاً غير قوة الذرة، فإذا ظهر التباين بين المخلوقات مع اشتراكها في الإمكان والحدوث، فظهر التباين بينها وبين الخالق أجلى وأقوى.

الثاني: أن يقال : كيف يكون الربّ الخالق الكامل من جميع الوجوه مشابهاً في صفاته للمخلوق المربوب الناقص المفتقر إلى من يكمله، وهل اعتقاد ذلك إلا تنقص لحق الخالق؟! فإن تشبيه الكامل بالناقص بجعله ناقصاً.
الثالث: أننا نشاهد في المخلوقات ما يتفق في الأسماء ويختلف في الحقيقة والكيفية، فنشاهد أن للإنسان يداً ليست كيد الفيل، وله قوة ليست كقوة الجمل، مع الاتفاق في الاسم، فهذه يد وهذه يد وهذه قوة وهذه قوة، وبينهما تباين في الكيفية والوصف، فعلم بذلك أن الاتفاق في الاسم لا يلزم منه الاتفاق في الحقيقة.

والتشبيه كالتمثيل ، وقد يُفَرَّق بينهما بأن التمثيل التسوية في كل الصفات ، والتشبيه التسوية في أكثر الصفات ، لكن التعبير بنفي التمثيل أولى لموافقة القرآن : { ليس كمثله شيء }
وأما التكيف: فهو أن يعتقد الميثب أن كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا، من غير أن يقيدها بمماثل. وهذا اعتقاد باطل، بدليل السمع، والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: { ولا يُحيطون به علماً } . وقوله: { ولا تقف ما ليس لك به علمٌ إن السمع والبصر والفؤاد كلٌ أولئك كان عنه مسؤولاً } . ومن المعلوم أنه لا علم لنا بكيفية صفات ربنا لأنه تعالى أخبرنا عنها ولم يخبرنا عن كيفيةها، فيكون تكيفنا قفواً لما ليس لنا به علم، وقولاً بما لا يمكننا الإحاطة به.

وأما العقل: فلأن الشيء لا تعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته أو العلم بنظيره المساوي له، أو بالخبر الصادق عنه، وكل هذه الطرق منتفية في كيفية صفات الله - عز وجل - فوجب بطلان تكيفها.

وأيضاً فإننا نقول: أي كيفية تقدّرها لصفات الله تعالى؟

إن أي كيفية تقدّرها في ذهنك، فالله أعظم وأجل من ذلك.

وأي كيفية تقدّرها لصفات الله تعالى فإنك ستكون كاذباً فيها، لأنه لا علم لك بذلك. وحينئذ يجب الكف عن التكيف تقديرًا بالجنان، أو تقريرًا باللسان، أو تحريرًا بالبنان.

ولهذا لما سئل مالك . رحمه الله تعالى . عن قوله تعالى: { الرحمن على العرش استوى } كيف استوى؟ أطرق رحمه الله برأسه حتى علاه الرضاء (العرق) ثم قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" وروي عن شيخه ربيعة أيضاً: "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول " . وقد مشى أهل العلم بعدهما على هذا الميزان. وإذا كان الكيف غير معقول ولم يرد به الشرع فقد انتفى عنه الدليلان العقلي والشرعي فوجب الكف عنه.

فالحذر الحذر من التكيف أو محاولته، فإنك إن فعلت وقعت في مفاوز لا تستطيع الخلاص منها، وإن ألقاه الشيطان في قلبك فاعلم أنه من نزغاته، فالحجاً إلى ربك فإنه معاذك، وافعل ما أمرك به فإنه طيبك قال الله تعالى: { وَإِذَا يَنْزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } . "

وقال في لقاء الباب المفتوح: " هؤلاء المبتدعة يقولون: إن الله تعالى لا يثبت له صفات ثبوتية، إنما يثبت له صفات إضافية أو سلبية أو مركبة منهما، فالصفات الإضافية إذا قلنا أنه خالق، فليس معناه: أنه اتصف بالخلق، ولكن معناه: أن له مخلوقاً، فوصفه بالخلق من باب الإضافة فقط. أما السلبية فيقولون: إنما لا نثبت لله شيئاً هو ثبوتي، فلا نثبت له سبحانه علماً، ولكن نقول: إن الله ليس بجاهل، ولا نقول: إن الله سميع بل نقول: إنه ليس بأصم، وهكذا، فيحولون الصفات الثبوتية إلى صفات سلبية، وهذا معنى قولهم: إنهم لا يشبّون إلا صفات إضافية أو سلبية أو مركبة منهما يجعلونها إضافية سلبية، نسأل الله العافية. الصفات السلبية الإضافية يقول مثلاً: إن الله خالق، يعني: ليس بعاجز عن الخلق، وهو خالق له مخلوق، فيجعلونها سلبية إضافية " .

فوصف ذاك ثابت في الازل	كقدرة الرب وقوة العلي
ثابتة للواحد القهار	ومثل ذاك عزة الجبار
لحكمة يفعل كما يشاء ^(١)	والبعض فعل للإله ان نشاء

^١ - ينكر المبتدعة (مثل الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم) الصفات الفعلية لله تعالى، مثل: الاستواء، والنزول، والمجيء، والغضب، والرضا، بناءً على أصل فلسفي وعقلي يعتمدونه وهو: أن الأفعال "حوادث" (أي تتجدد وتعلق بمشيئة الله)، ويزعمون أن قيام الأفعال بذات الله يقتضي تغييره ويستلزم حدوث الحوادث فيه، وهو ما ينتزه عنه الرب تعالى في نظرهم.

والشبه التي يستندون إليها في انكارهم .

شبهة قيام الحوادث: يزعمون أن الأفعال الاختيارية تتطلب وقتاً وحركة وتغيراً في الذات، وأن الحوادث لا تقوم إلا بحدوث، مما أدى بهم إلى نفي كل صفة تتعلق بمشيئة الله.

وشبهة التنزيه المبالغ فيه (التعطيل): (هرباً من "التشبيه والتجسيم" - كما يزعمون - لجأوا إلى تعطيل الصفات، فإذا أثبتوا صفات الفعل تخيلوا أنها تشبه أفعال المخلوقين من حركة وانتقال.

وشبهة تقديم العقل على النقل: يعتمدون على العقل كأصل في تلقي العقائد، ويرون أن النصوص النقلية (القرآن والسنة) إذا تضمنت ما لا يدركه عقلهم في هذه الصفات، فإنها تؤوّل أو تُنفى.

والصفة الذاتية الفعلية: هي التي لم يزل رب العزة، سبحانه، متصفاً بها، وتتجدد آحادها، كالكلام، والخلق والرزق والرحمة.

فلم يزل رب العزة سبحانه متكلماً، ويتكلم متى شاء، وكذلك لم يزل خالقاً ويخلق متى شاء، فهي ذاتية باعتبار قدم نوعها، وفعلية باعتبار تعلقها بالمشيئة وتتجدد آحادها.

♦ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"ولهذا كان مذهب جماهير " أهل السنة والمعرفة " - وهو المشهور عند أصحاب الإمام أحمد وأبي حنيفة، وغيرهم من المالكية والشافعية والصوفية، وأهل الحديث وطوائف من أهل الكلام، من الكرامية وغيرهم: أن كون الله سبحانه وتعالى خالقاً ورازقاً ومحيياً ومميتاً وباعثاً ووارثاً، وغير ذلك : من صفات فعله.

وهو من صفات ذاته؛ ليس من يخلق كمن لا يخلق" انتهى من "مجموع الفتاوى" (١٢ / ٤٣٥).

♦ وقال الشيخ عبد الرحمن البراك حفظه الله في "التعليق على القواعد المثلى"، ص ٧٨:

"ومن الصفات ما يصدق عليها أنها ذاتية فعلية باعتبارين، مثل: الكلام، والخلق، والرزق؛ فهذه باعتبار أن الله لم يزل موصوفاً بها، فتقول: الله لم يزل فعلاً لما يريد، ولم يزل خالقاً، ولم يزل غفوراً، ولم يزل رحيماً، فهذه صفات ذاتية.

وباعتبار أفراد أو آحاد هذه الأفعال هي تابعة للمشيئة، فهو يرحم من شاء إذا شاء، ويرزق من شاء إذا شاء، ويتكلم إذا شاء.

فالكلام قديم النوع، حادث الآحاد، فالكلام صفة ذاتية فعلية، والخلق صفة ذاتية فعلية، والمغفرة وكونه - تعالى - غفوراً، صفة ذاتية فعلية، وما أشبه ذلك" انتهى.

ثانياً:

النزول إلى السماء الدنيا: صفة فعلية دلت عليها السنة، كما روى البخاري (١١٤٥)، ومسلم (١٢٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له). والنزول إلى السماء الدنيا: ليس أزلياً؛ لا نوعه، ولا آحاده؛ لأننا نعلم أنه لم يكن إلا بعد وجود السماء الدنيا، فلا يصح أن يقال: إن النزول قديم الجنس.

ومن أهل العلم من اعتبر للنزول جنساً قديماً، وهو الفعل، والله لم يزل فعلاً، ويفعل متى شاء، فقال: إن جنس الفعل قديم، والنزول حادث أو متجدد.

♦ قال الشيخ السعدي في التنبهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة، ص ٤٨: "فائدة أخرى ذكرها شيخ الإسلام وغيره:

وهي أن صفات الرب القولية والفعلية قديمة النوع، حادثة الآحاد، كالكلام، والخلق والرزق، والنزول، وأشبه ذلك ونحو ذلك؛ فجنس الكلام والخلق والرزق والنزول: قديم، وأنواعه تحدث شيئاً فشيئاً، على حسب حكمة الرب سبحانه، كما في قوله تعالى: (ما يأتهم من ذكر من ربهم محدث) الآية، وكخلق آدم بعد أن لم يكن مخلوقاً، وغير ذلك، وهكذا الرزق والكلام.

وأما صفات الذات كاليد والقدم والسمع والبصر فهي صفات قديمة كالذات" انتهى.

♦ وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "الصفات الذاتية: هي صفات المعاني الثابتة لله أزلاً وأبداً، مثل الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعزة، والحكمة، إلى غير ذلك، وهي كثيرة، فهذه نسميها صفات ذاتية؛ لأنه متصف بها أزلاً وأبداً ولا تفارق ذاته.

الصفات الفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، مثل الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد، والفرح بتوبة التائب، والضحك إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر

كلاهما يدخل الجنة، والغضب على الكافرين، والرضا للمؤمنين، وغيرها، فهذه نسميها صفات فعلية؛ لأنها من فعله، وفعله يتعلق بمشيئته.

لكن هذا القسم من صفات الله آحاده حادثة، تحدث شيئاً فشيئاً، وأما جنس الفعل فإنه أزلي أبدي، فجنس كون الله فعالاً - أي جنس الفعل في الله عز وجل - أزلي، فلم يزل ولا يزال فعالاً، لم يأت وقت من الأوقات يكون الله تعالى معطلاً فيه عن الفعل، فإن الله لم يزل ولا يزال فعالاً لما يريد سبحانه وتعالى.

لكن نوع الفعل أو آحاده هي التي تكون حادثة.

مثلاً: الاستواء على العرش نوع من أنواع الفعل، وهو حادث، لأنه كان بعد خلق العرش، كذلك النزول إلى السماء الدنيا: نوع من أنواع الفعل، وهو حادث، لأنه كان بعد خلق العرش، كذلك النزول إلى السماء الدنيا نوع من أنواع الفعل، وهو حادث، لأنه كان بعد أن خلق السماء الدنيا، كذلك الرضا والغضب نوع من أنواع الفعل، وهو حادث لأنه إذا فعل العبد فعلاً يقتضي الرضا، رضي الله عنه، وإذا فعل فعلاً يقتضي الغضب، غضب الله عليه" انتهى من "شرح السفارينية"، ص ١٥٥ وينظر: ص ٢٤١

وقد أدخل الغضب في ذلك أيضاً، باعتبار تجدد آحاده.

♦ وكذلك قال الشيخ عبد العزيز السلمان في الكواشف الجلية على الواسطية، ص ٤٣٠ "مثال صفات الفعل: الاستواء النزول الضحك المجيء العجب الفرح الرضى الحب الكره السخط والإتيان والمقت والأسف، وهذه يقال لها قديمة النوع، حادثة الآحاد، ويصلح أن تقول قبلها: إذا شاء" انتهى.

والحاصل:

أن من أهل العلم من صرح بكون هذه الصفات ذاتية فعلية، وهذا اصطلاح للعلماء، والمقصود الأعظم: إثبات تعلق هذه الصفات بالمشيئة، وأن الله ينزل متى شاء، ويغضب متى شاء.

والله أعلم.

ومن ردود أهل السنة على أهل البدع في شبهتهم أن الحوادث لا تقوم إلا بحادث من وجوه

♦ قال ابن عثيمين في تفسير سورة البقرة: "قالوا: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث؛ وإن الحوادث إن كانت كمالات

كان فقدها نقصاً؛ وإن كانت نقصاً فكيف يتصف الله بها! إذاً هي ممتنعة؛ لأنها نقص على كل تقدير؛ وحينئذٍ

يجب أن ننزه الله عنها، وأن تكون ممتنعة عليه؛ والجواب عن ذلك أن قولكم: «الحوادث لا تقوم إلا بحادث»

مجرد دعوى؛ ونحن نعلم أن الحوادث تحدث منا، ولكنها ليست سابقة بسبقنا؛ ولا يعد ذلك فينا نقصاً؛

فالحوادث تحدث بعد من أحدثها؛ ولا مانع من ذلك؛ فمن الممكن أن يكون المتصف بها قديماً وهي حادثة؛

وأما قولكم: «إنها إن كانت كمالات كان فقدها نقصاً؛ وإن كانت نقصاً فكيف يوصف بها»؟ فنقول: هي كمال حال

وجودها؛ فإذا اقتضت الحكمة وجودها كان وجودها هو الكمال؛ وإذا اقتضت الحكمة عدمها كان عدمها هو

الكمال."

وقال في شرح السفارينية: "ونقول لهم: ماذا تقولون في قوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون} [يس ٨٢] فإن الآية واضحة بأنه عند إرادة الشيء يقول له: {كن فيكون} ،
والفاء تدل على الترتيب والتعقيب؟

إذن فالأمر بالكون سابق للكون لكنه متصل به {كن فيكون} ،
فإن ادعوا أن المراد يقول في الأزل: {كن} ،
فالجواب: أن هذا خلاف الظاهر ، لأن {كن فيكون} تدل على أنه هذه عقب هذه ، وهذا يستلزم أن يكون قوله حادثاً عند وجود ما أراده عز وجل .

فالمعطلة يقولون كل حادث فهو مخلوق فقالوا كل من قامت به الحوادث فهو مخلوق فلو اثبتنا الصفات الفعلية لله تعالى ستقوم به الحوادث والقاعدة عندهم أن كل من قامت به الحوادث فهو مخلوق فيكون الله مخلوقاً بزعمهم ولذلك ينفون عن الله تعالى الصفات الفعلية وهذا ليس هو المعنى الذي جاءت به النصوص الشرعية فالحدوث في النصوص الشرعية تأتي بمعنى التجديد فالحدوث المتجدد .

♦ قال شيخ الاسلام في درء التعارض: "وكذلك إحتجاجهم على أن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة بقوله تعالى {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه} [الأنبياء: ٢] بينت أن دلالة هذه الآية على نقيض قولهم أقوى فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث وبعضه ليس بمحدث وهو ضد قولهم والحدوث في لغة العرب العامة ليس هو الحدوث في اصطلاح أهل ال كلام فإن العرب يسمون ما تجدد حادثاً وما تقدم على غيره قديماً وإن كان بعد أن لم يكن كقوله تعالى {كالعرجون القديم} [يس: ٣٩] وقوله تعالى عن إخوة يوسف {تالله إنك لفي ضلالك القديم} [يوسف: ٩٥] وقوله تعالى {وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم} [الاحقاف: ١١] وقوله تعالى عن إبراهيم {أفرأيتم ما كنتم تعبدون* أنتم وآباؤكم الأقدمون} [الشعراء: ٧٥ - ٧٦] وكذلك استدلالهم بقوله: الأحد الصمد على نفي علوه على الخلق وأمثال ذلك مما قد بسط في غير هذا الموضع

..

وعمدة من نفي الأفعال والصفات من أهل الكلام الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم على هذه الحجة التي زعموا أنهم يقررون بها حدوث العالم وإثبات الصانع فجعلوا ما قامت به الصفات أو الأفعال محدثاً حتى يستدلوا بذلك على أن العالم محدث ويلزم من ذلك أن لا يقوم بالصانع لا الصفات ولا الأفعال
فإن عامة الطوائف . وإن ادعوا العقلية . فجمهورهم مقلدون لرؤوسهم فإذا رأوا الرؤوس قد تنازعوا واعترفوا بالحق انحلت عقدة الإصرار على التقليد .

فالمقصود بالمحدث: الجديد، ولا يشترط أن يكون مخلوقاً، وقد قال ابن عباس: (ما بالكم تسألون أهل الكتاب؟! وكتابكم أحدث شيء بالله، والله ما رأينا واحداً منهم أتى يسألنا) فهو محدث يعني: جديد؛ ولهذا قال

أهل السنة: آحاد كلام الله يتجدد، وقد يقال: حادث، يعني: جديد، وأما جنسه ونوعه فهو قديم أزلي؛ لأنه صفة من صفات الذات الأزلية.

فالمعطلة يقسمون الوجود الى قديم وحادث ويريدون بالحادث يعني المخلوق والقديم يعنون به الخالق ولذلك قالوا كل من قامت به الحوادث فهو مخلوق فلو اثبتنا الصفات الفعلية لله تعالى والتي عنهم تسمى حوادث والقاعدة عندهم ان الحوادث لا تقوم الا بحادث يعنون ان من قامت به الحوادث فهو مخلوق فبإثبات الصفات الفعلية يكون الله مخلوقا وفقا لقاعدتهم ولذلك هم ينفون الصفات الفعلية .

وكلمة الحدوث في النصوص الشرعية ليست بهذا المعنى بل هي بمعنى الجديد فالحدث هو المتجدد قَالَ تَعَالَى : { مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ } { لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } قال السلف في تفسيرها معنى محدث جديد انزاله يعني بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه رضي الله عنهم.

كما قال عليه الصلاة والسلام عن المطر [انه حديث عهد بربه] أي ان جديد انزاله وكما قال ايضا [اياكم ومحدثات الامور] أي الامور الجديدة التي استحدثت وكما قال ايضا [من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد] وكما روى ابو داود والنسائي عن ابن مسعود قال كنا نسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فيرد علينا السلام حتى قدمنا من أرض الحبشة فسلمت عليه فلم يرد علي فأخذني ما قرب وما بعد فجلست حتى إذا قضى الصلاة قال إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء وإنه قد أحدث من أمره أن لا يتكلم في الصلاة . وقال الالباني حسن صحيح . أي يشرع تشريعات جديدة بالنسبة لهم .

فالمحدث هو المتجدد عند اهل السنة والجماعة وهذا الحدوث نسبي ولذلك اهل السنة يقولون عن الكلام انه قديم النوع متجدد الاحاد . ومعنى قديم النوع أي ان الله لم يزل متكلماً ولم يزل خالقاً فهو خالق قبل ان يخلق الخلق . ولكن الله تعالى يتكلم بكلام مخصوص متعلق بمشيئته كما قال الله تعالى : { إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون } [يس: ٨٢] ، وقال تعالى : { ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه } [الأعراف: ١٤٣] ؛ حصل الكلام بعد مجيئه لميقات الله؛ ولهذا حصل بينهما مناجاة: { قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني } [الأعراف: ١٤٣] ؛ فقال تعالى: { لن تراني } بعد أن قال موسى: { رب أرني أنظر إليك } وكما قال تعالى { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [المائدة : ١٠٩] فيقول لهم ذلك بعد جمعهم بمشيئته سبحانه.

فعموماً لفضل الحادث اذا اورده المخالف يستفصل فيه فيقال ان كنت تريد ان الحادث المخلوق فالله تعالى لا يحل في مخلوق وان اردت به الامر النسبي المتجدد الذي يفعله الله تعالى متى شاء وكيف شاء فانا التزم ذلك فان الله تعالى يفعل ما شاء متى شاء .

قال ابن العز في شرح الطحاوية: " وَأَهْلُ الْكَلَامِ الْمَذْمُومُ يُطْلَقُونَ نَفْيَ حُلُولِ الْحَوَادِثِ ، فَيُسَلَّمُ السَّيِّئُ لِمُتَكَلِّمِ ذَلِكَ ، عَلَى ظَنِّ أَنَّهُ نَفَى عَنْهُ - سُبْحَانَهُ - مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ ، فَإِذَا سَلَّمَ لَهُ هَذَا النَّفْيَ أَلْزَمَهُ نَفْيَ الصِّفَاتِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ وَصِفَاتِ الْفِعْلِ ، وَهُوَ غَيْرُ لَازِمٍ لَهُ . وَإِنَّمَا أَتَى السَّيِّئُ مِنْ تَسْلِيمِ هَذَا النَّفْيِ الْمُجْمَلِ ، وَإِلَّا فَلَوْ اسْتَفْسَرَ وَاسْتَفْصَلَ لَهُ لَمْ يَنْقَطِعْ مَعَهُ " .

١ — حديث النزول ثابت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له.

♦ قال ابن تيمية: " وليس لله صفة يماثله فيها غيره، فلهذا لم يجر أن يستعمل في حقه قياس التمثيل ولا قياس الشمول الذي تستوي أفرادها، فإن ذلك شرك إذا سوي فيه بالمخلوق بل قياس الأولى، فإنه سبحانه له المثل الأعلى في السموات والأرض فهو أحق من غيره بصفات الكمال وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص ". اهـ وقال ايضا: " والثاني قول أئمة أهل الحديث والسنة وكثير من طوائف الكلام كما تقدم . ولهذا صار للناس فيما ذكر الله في القرآن من الاستواء والمجيء ونحو ذلك ستة أقوال . طائفة يقولون : تجري على ظاهرها ويجعلون إتيانه من جنس إتيان المخلوق ونزوله من جنس نزولهم . وهؤلاء المشبهة الممثلة ومن هؤلاء من يقول : إذا نزل خلا منه العرش فلم يبق فوق العرش . وطائفة يقولون : بل النصوص على ظاهرها اللائق به كما في سائر ما وُصف به في نفسه وهو { ليس كمثله شيء } لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . ويقولون : نزل نزولا يليق بجلاله وكذلك يأتي إتيانا يليق بجلاله . وهو عندهم ينزل ويأتي ولم يزل عاليا وهو فوق العرش كما قال حماد بن زيد : هو فوق العرش يقرب من خلقه كيف شاء . وقال إسحاق بن راهويه : ينزل ولا يخلو منه العرش ونقل ذلك عن أحمد بن حنبل في رسالته إلى مسدد . وتفسير النزول بفعل يقوم بذاته هو قول علماء أهل الحديث وهو الذي حكاه أبو عمر بن عبد البر عنهم وهو قول عامة القدماء من أصحاب أحمد وقد صرح به ابن حامد وغيره . " .

وقال الحافظ عبد الغني المقدسي في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد: " وتواترت الأخبار وصحت الآثار بأن الله عز وجل ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، فيجب الإيمان به، والتسليم له، وترك الاعتراض عليه، وإمراره من غير تكيف ولا تمثيل ولا تأويل ولا تنزيه ينفي حقيقة النزول .

فروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: ((من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له حتى يطلع الفجر))" (رواه البخاري وغيره)

وفي لفظ (ينزل الله عز وجل)

ولا يصح حمله على نزول القدرة ولا الرحمة، ولا نزول ملك.

لما روى مسلم بإسناده عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجب له، من ذا الذي يستغفرنني فأغفر له حتى يضيء الفجر)) (رواه مسلم)

وروى رفاعه بن عرابة الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا مضى نصف الليل أو ثلث الليل ينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا فيقول: لا أسأل عن عبادي أحداً غيري، من ذا الذي يستغفرنني أغفر له، من ذا الذي يدعوني أستجب له، من الذي يسأني أعطيه، حتى ينفجر الصبح)) رواه الإمام أحمد .
وهذان الحديثان يقطعان تأويل كل متأول ويدحضان حجة كل مبطل.

وروى حديث النزول: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وجبير بن مطعم، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وعمرو بن عنبسة وأبو الدرداء، وعثمان ابن أبي العاص، ومعاذ بن جبل، وأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وخلق سواهم (ذكر اللالكائي في شرح السنة أنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم عشرون نفساً، وقد ذكرها الدارقطني في كتابه النزول).

ونحن مؤمنون بذلك مصدقون من غير أن نصف له كيفية أو نشبهه بنزول المخلوقين وقد قال بعض العلماء سئل أبو حنيفة عنه -يعني النزول- فقال ينزل بلا كيف (رواه البيهقي في الأسماء والصفات، وفي الفقه الأكبر المنسوب إلى أبي حنيفة)

وقال محمد بن الحسن الشيباني صاحبه: الأحاديث التي جاءت أن الله يهبط إلى سماء الدنيا ونحو هذا من الأحاديث أن هذه الأحاديث قد روتها الثقات، فنحن نرونها ونؤمن بها ولا نفسرها.

وروي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ٤ قال كنت أنا وأبي عابرين في المسجد فسمع قاصاً يقص بحديثه النزول: فقال إذا كان ليلة النصف من شعبان ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا بلا زوال ولا انتقال، ولا تغير حال، فارتعد أبي رحمه الله وأصفر لونه ولزم يدي وأمسكته حتى سكن، ثم قال: قف بنا على هذا المتخرس فلما حاذاه قال: يا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أغير على ربه عز وجل منك، قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف.

قال حنبل: قلت لأبي عبد الله -يعني أحمد بن حنبل-: ينزل الله إلى سماء الدنيا قلت نزوله بعلمه أو ماذا فقال لي: اسكت عن هذا، ما لك ولهذا؟ مضى الحديث على ما روي بلا كيف ولا حد على ما جاءت به الآثار وبما جاء به الكتاب.

وقال إسحاق بن راهويه قال لي الأمير عبد الله بن طاهر: يا أبا يعقوب هذا الحديث الذي ترويه عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف ينزل؟ قال قلت: أعز الله الأمير لا يقال لأمر الرب عز وجل كيف إنما ينزل بلا كيف.

ومن قال يخلو العرش عند النزول أو لا يخلو فقد أتى بقول مبتدع ورأي مخترع. "

فالقاعدة المتبعة عند أئمة الإسلام (كالإمام مالك والإمام أحمد وغيرهم) هي إمرار النصوص كما جاءت بلا تكييف، فالنزل حقيقي يليق بجلال الله، وهو فوق عرشه لا تحيط به مخلوقاته. فالنزل معلوم المعنى في اللغة، ولكن كيفية حدوثه مجهولة بالنسبة لنا؛ لقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

♦ قال الراجحي في شرح عقيدة المقدسي: " فيجب على كل مؤمن الإيمان بصفة النزول والتسليم لله وترك الاعتراض، وإمرار هذه الصفة من غير تكييف ولا تمثيل فلا نكيف ولا نؤول، فلا نقول: ينزل على كيفية كذا، ولا نقول: ينزل كنزول المخلوق، ولا نؤول كما أول المبتدعة فقالوا: ينزل أمره أو ينزل ملك من ملائكته، فهذا تأويل باطل.

يقول المؤلف: ولا تنزيه ينفي حقيقة النزول، يشير إلى الرد على الذين أولوا صفة النزول بدعوى تنزيه الله فنقوا حقيقة هذه الصفة، وذلك أنهم يدعون أن الإثبات الحقيقي لهذه الصفة يتنافى مع التنزيه، ثم يقولون: التنزيه يقتضي نفي هذه الصفة، فنقول: هذا باطل، والمؤلف يقول: ولا تنزيه ينفي حقيقة النزول، فهذا التنزيه الذي ينفي حقيقة النزول باطل، والتنزيه الحقيقي هو إثبات الصفة على ما يليق بجلال الله وعظمته. يقول المؤلف رحمه الله: (ولا يصح حمله على نزول القدرة ولا الرحمة ولا نزول ملك).

هذا تأويل المتأولين، قال بعض المتأولين: ينزل الله أي قدرته، وبعضهم قال: تنزل الرحمة، وبعضهم يقول: ينزل ملك، وهذا من أبطل الباطل، فالرحمة نزولها في كل وقت، وليس نزولها مخصصاً في ثلث الليل، وكذلك الملك لا يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟! من يستغفرني فأغفر له؟! هل يمكن لمخلوق أن يقول: من يدعوني فأستجيب له؟! من يستغفرني فأغفر له؟! من يسألني فأعطيه؟! لا يقول هذا إلا الله سبحانه وتعالى، ومن هنا يعلم بطلان تأويل المبتدعة بأن نزول الله معناه نزول أمره أو نزول رحمته أو نزول ملك، هذا من أبطل الباطل.

ولهذا اتفق السلف على إثبات صفة النزول لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، ونزوله سبحانه لا يشبه نزول المخلوق، فالله مستوٍ على عرشه كما أخبر عن نفسه وهو فوق المخلوقات وهو ينزل كل ليلة إلى الدنيا كما يليق بجلاله وعظمته من غير تكييف، وأئمة السنة كلهم أجمعوا على هذا، واستدلوا بالنصوص على أن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، وينزل عشية عرفة، وينزل يوم القيامة للفصل والقضاء، ولا منافاة بين نزوله واستوائه على عرشه؛ لأنه سبحانه ينزل نزولاً لا يشابه نزول المخلوقين، بل كما يليق بجلاله وعظمته ولا نعلم كيفيته، ولهذا قال الإمام

محمد بن الحسين الآجري: الإيمان بهذا واجب، ولا يسع المسلم العاقل أن يقول: كيف ينزل؟ ولا يرد هذا إلا المعتزلة، وأما أهل الحق فيقولون: الإيمان به واجب بلا كيف؛ لأن الأخبار قد صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، والذين نقلوا إلينا هذه الأخبار هم الذين نقلوا إلينا الأحكام من الحلال والحرام، فكيف تقبل الأخبار التي رووها في الحلال والحرام ولا تقبل الأحكام التي رووها في الصفات؟! وكما قبل العلماء منهم ذلك، قبلوا منهم هذه السنن، قال الآجري: إن من ردها فهو ضال خبيث، يحذرونه ويحذرون منه.

ومن الأئمة أبو بكر بن خزيمة رحمه الله له كتاب التوحيد، وهو كتاب عظيم، ينقل عنه أهل الحق أهل السنة والجماعة، قال بعد أن ذكر هذه الأخطاء: نشهد شهادة مقر بلسانه، مصدق بقلبه، مستيقن بما في هذه الأخبار بنزول الرب بغير أن نصف الكيفية؛ لأن نبينا المصطفى لم يخبرنا كيفية نزول خالقنا إلى السماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل، والله جل وعلا لم يترك ولا نبه عليه الصلاة والسلام بيان ما في المسلمين إليه حاجة من أمر ديننا، فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول، غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية، إذ النبي صلى الله عليه وسلم لم يصف لنا كيفية النزول، وفي هذه الأخبار ما بان وثبت وصح أن الله جل وعلا فوق السماء الدنيا.

الذي أخبرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم: أنه ينزل إلينا، إذ محال في لغة العرب أن يقول: ينزل من أسفل إلى أعلى، ومفهوم الخطاب أن النزول من أعلى إلى أسفل. وبهذا يتبين أن صفة النزول أجمع عليها أهل السنة والجماعة، وتواترت بها الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقوله: (وهذان الحديثان يقطعان تأويل كل متأول ويدحضان حجة كل مبطل).

أي يقطعان قول من يقول: إنه ينزل أمره أو وينزل ملك، لصراحتهما أن الله هو الذي ينزل بنفسه، وأنه قال: من يسألني؟ من يدعوني؟ من يستغفري؟

فالرب تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، كما تواترت بذلك الأحاديث، وهو نزول يليق بجلاله سبحانه، لا نستطيع أن نكيفية أو نتصوره، وليس هو كنزول المخلوق بالانتقال من مكان إلى مكان، بحيث يكون شيء فوقه، بل ينزل إلى السماء الدنيا، وهو على عرشه، وفوق جميع خلقه، فلا يكون شيء فوقه. وهذا مغاير لنزول المخلوق، ولا يمكن للعبد تخيله، وليس له أن يتوهم أو يتخيل؛ فهو سبحانه "لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام" كما قال سبحانه: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه/١١٠].

وما قيل في المكان يقال مثله في الزمان، فنزول الله عز وجل على أهل كل بلد يكون في ثلث ليلهم الأخير، ولا يقال: إنه يلزم من ذلك أن يكون نازلا طول الليل لأن الثلث يختلف باختلاف البلدان، فهذا إنما يقال إذا كان النزول كنزول المخلوق، وأما الله تعالى فلا نعلم كيفية نزوله، فلا نتحكم عليه بلوازم نزول خلقه، فإن هذا من

أعظم أسباب ضلال الفرق في باب الأسماء والصفات.

وهو . تعالى . قادر على أن ينزل نزولاً واحداً، يقع لكل بلد في ثلثهم الأخير، ولا يكون متصفاً بالنزول على الدوام. والواجب أن نصفه بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا نخوض ولا نتكلف ، ولا نضرب له الأمثال، ولا نشبه نزوله بنزول المخلوق الذي يتقيد بالزمان والمكان.

ألا ترى أن الله تعالى يحاسب الخلق جميعاً في ساعة واحدة، يراه العبد مُخْلِياً به ، يتجلى له ربه ، ويناجيه ؛ لا يرى أنه متخلياً لغيره ، ولا مخاطباً لغيره.

فليس هذا إلا لله تعالى ، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

أليس هو سبحانه في اللحظة الواحدة يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويجيب هذا، وينصر ذاك، وينتقم من آخرين، لا يشغله سبحانه شأن عن شأن؟

وهذه الشبهة أجاب عنها أهل العلم قديماً، وبينوا أنها لا تصدر ممن يؤمن بعظمة الله تعالى ويقدره حق قدره.

♦ قال ابن رجب رحمه الله: "وقد اعترض بعض من كان يعرف هذا [أي علم النجوم] على حديث النزول ثلث الليل الآخر، وقال: ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان ؛ فلا يمكن أن يكون النزول في وقت معين.

ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أو خلفاء الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه، بل بادروا إلى عقوبته ، وإحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين" انتهى من "فضل علم السلف على الخلف" ص ٣.

♦ وأجاب شيخ الإسلام عن هذه الشبهة فقال: "ومن هنا يظهر الجواب عما ذكره ابن حزم وغيره في حديث النزول حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له حتى يطلع الفجر، فقالوا: قد ثبت أن الليل يختلف بالنسبة إلى الناس، فيكون أوله ونصفه وثلثه بالمشرق، قبل أوله ونصفه وثلثه بالمغرب. قالوا: فلو كان النزول هو النزول المعروف، للزم أن ينزل في جميع أجزاء الليل؛ إذ لا يزال في الأرض ليل. قالوا: أو لا يزال نازلاً وصاعداً، وهو جمع بين الضدين؟

وهذا إنما قالوه لتخيلهم من نزوله ما يتخيلونه من نزول أحدهم، وهذا عين التمثيل، ثم إنهم بعد ذلك جعلوه كالواحد العاجز منهم ، الذي لا يمكنه أن يجمع من الأفعال ما يعجز غيره عن جمعه.

وقد جاءت الأحاديث بأنه يحاسب خلقه يوم القيامة ، كل منهم يراه مخلياً به ، يتجلى ويناجيه ، لا يرى أنه متخلياً لغيره ولا مخاطباً لغيره.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا قال العبد الحمد لله رب العالمين ، يقول الله حمدني عبدي ، وإذا قال الرحمن الرحيم ، قال الله أثني على عبدي، فكل من الناس يناجيه ، والله تعالى يقول لكل منهم ذلك، ولا يشغله شأن عن شأن.

ولم يزل إلهنا سميعا		يسمع اصوات الورى جميعا
فسمعه العالي كسمع ما دنا		والسرُّ والاعلان يستوي هنا(١)

وذلك كما قيل لابن عباس: كيف يحاسب الله تعالى الخلق في ساعة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في ساعة واحدة. ومن مثل مفعولاته التي خلقها ، بمفعولات غيره، فقد وقع [في] تمثيل المجوس القدرية، فكيف بمن مثل أفعاله بنفسه ، أو صفاته بفعل غيره وصفته.

يقال لهؤلاء: أنتم تعلمون أن الشمس جسم واحد، وهي متحركة حركة واحدة متناسبة لا تختلف، ثم إنها بهذه الحركة الواحدة تكون طالعة على قوم ، وغاربة عن آخرين، وقريبة من قوم وبعيدة عن آخرين، فيكون عند قوم عنها ليل، وعند قوم نهار، وعند قوم شتاء، وعند قوم صيف، وعند قوم حر، وعند قوم برد، فإذا كانت حركة واحدة يكون عنها ليل ونهار في وقت واحد لطائفتين، وشتاء وصيف في وقت واحد لطائفتين. فكيف يمتنع على خالق كل شيء الواحد القهار ، أن يكون نزوله إلى عباده ، ونداؤه إياهم في ثلث ليلهم ، وإن كان مختلفاً بالنسبة إليهم، وهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يحتاج أن ينزل على هؤلاء ، ثم ينزل على هؤلاء، بل في الوقت الواحد الذي يكون ثلثاً عند هؤلاء ، وفجراً عند هؤلاء، يكون نزوله إلى سماء هؤلاء الدنيا ، وصعوده عن سماء هؤلاء الدنيا.

فسبحان الله الواحد القهار ؛ { سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين } [الصفات ١٨٠-١٨٢] انتهى من " بيان تلبيس الجهمية " (٥٤/٤).

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله: "والنزول في كل بلاد بحسبها؛ لأن نزول الله سبحانه لا يشبه نزول خلقه ، وهو سبحانه يوصف بالنزول في الثلث الأخير من الليل ، في جميع أنحاء العالم على الوجه الذي يليق بجلاله سبحانه ، ولا يعلم كيفية نزوله إلا هو ، كما لا يعلم كيفية ذاته إلا هو عز وجل : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ، وقال عز وجل : { فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } " انتهى من "مجموع فتاوى ابن باز" (٤٢٠ / ٤).

^١ — إثبات صفة السمع لله تعالى واجبٌ بالنصوص القطعية من القرآن والسنة وإجماع الأمة .وهو سبحانه

"السميع" يسمع جميع الأصوات باختلاف لغاتها وتفننها، في السر والعلن، دون أن يشغله صوت عن صوت أو دعاء عن دعاء.

وأهل السنة حينما أثبتوا صفة السمع والبصر لله تعالى كما أثبتها لنفسه في كتابه، لم يشبوا لها كيفية معلومة، وإنما فوضوا العلم بكيفيتها إلى الله تعالى، ونفوا مع ذلك التشبيه والتمثيل، فجمعوا بين الحسنيين: نفي المثال، وإثبات صفات الكمال، كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

فنحن نعلم معنى السمع في اللغة فهو إدراك المسموعات وسماعها، لكن حقيقة سمع الله تعالى وكيفيته هي التي لا نعلمها ونفوض أمر علمها إلى الله تعالى.

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية: ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. اهـ.

نقل الذهبي في كتاب العرش عن الخطيب البغدادي قال: أما ما روي من الصفات في السنن الصحاح، فمذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيف والتشبيه عنها، والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ونحتذي في ذلك حذوه ومثاله، وإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: يد وسمع وبصر، فإنما هو إثبات صفات أثبتها الله لنفسه، ولا نقول إن معنى اليد: القدرة، ولا نقول: إن معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول: إنها جوارح وأدوات الفعل، ونقول: إنما وجب إثباتها لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها، لقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ، وقوله: { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } . اهـ.

♦ وقال الامام عثمان بن سعيد الدارمي في نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما إفتى على الله عزوجل من التوحيد: " وادعى المريسي أيضا في قول الله تعالى إن الله سميع بصير والله بصير بالعباد أنه يسمع الأصوات ويعرف الألوان بلا سمع ولا بصر وأن قوله بصير بالعباد يعني عالم بهم لا أنه يبصرهم ببصر ولا ينظر إليهم بعين فقد يقال لأعمى ما أبصره أي ما أعلمه وإن كان لا يبصر بعين فيقال لهذا المريسي الضال الحمار والكلب أحسن حالا من إله على هذه الصفة لأن الحمار يسمع الأصوات بسمع ويرى الألوان بعين وإلهك بزعمك أعمى أصم لا يسمع بسمع ولا يبصر ببصر ولكن يدرك الصوت كما يدرك الشيطان والجناب التي ليس لها أسمع ويرى الألوان بالمشاهدة ولا يبصر في دعواك فقد جمعت أيها المريسي في دعواك هذه جهلا وكفرا أما الكفر فتشبيهك الله تعالى بالأعمى الذي لا يبصر ولا يرى وأما الجهل فمعرفة الناس بأنه لا يستقيم في كلام العرب أن يقال لشيء هو سميع بصير إلا وذلك الشيء موصوف بالسمع والبصر من ذوي الأعين والأسماع والأبصار والأعمى من ذوي الأعين وإن كان قد حجب فإن كنت تنكر ما قلنا فسم شيئا من الأشياء التي ليست لها أسمع وأبصار هل يجوز أن يقال هو سميع بصير ونحن نقول الله سميع بصير ثم نفيت عنه السمع والبصر اللذين هما السمع والبصر ونفيت عنه العين وكما يستحيل هذا في الأشياء التي ليست لها أسمع وأبصار فهو في الله السميع البصير أشد استحالة

وكيف استجزت أن تسمي أهل السنة وأهل المعرفة بصفات الله المقدسة مشبهة إذ وصفوا الله بما وصف به نفسه في كتابه بالأشياء التي أسماؤها موجودة في صفات بني آدم بلا تكييف وأنت قد شبهت إلهك في يديه وسمعه وبصره بأعمى وأقطع وتوهمت في معبودك ما توهمت في الأعمى والأقطع فمعبودك في دعواك مجدع منقوص أعمى لا بصر له وأبكم لا كلام له وأصم لا سمع له وأجذم لا يدان له ومقعد لا حراك به وليس هذا بصفة إله المصلين فأنت أوحش مذهبا في تشبيحك إلهك بهؤلاء العميان والمقطوعين أم هؤلاء الذين سميتهم مشبهة أن وصفوه بما وصف به نفسه بلا تشبيه فلولوا

أنها كلمة هي محنة الجهمية التي بها يبنزون المؤمنين ما سميها مشبها غيرك لسماجة ما شبهت ومثلت ويلك إنما نصفه بالأسماء لا بالتكييف ولا بالتشبيه كما يقال إنه ملك كريم عليم حكيم رحيم لطيف مؤمن عزيز جبار متكبر

وقد يجوز أن يدعى البشر ببعض هذه الأسماء وإن كانت مخالفة لصفاتهم فالأسماء فيها متفقة والتشبيه والكيفية مفترقة كما يقال ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء يعني في الشبه والطعم والذوق والمنظر واللون فإذا كان كذلك فالله أبعد من الشبه وأبعد فإن كنا مشبهة عندك أن وحدنا الله إلهها واحدا بصفات أخذناها عنه وعن كتابه فوصفناه بما وصف به نفسه في كتابه فالله في دعواكم أول المشبهين بنفسه ثم رسوله الذي أنبأنا ذلك عنه فلا تظلموا أنفسكم ولا تكابروا العلم إذ جهلتموه فإن التسمية في التشبيه بعيدة .

وأما ما ادعيت في تفسير قوله إن الله كان سميعا بصيرا أنه إنما عني عالما بالأصوات عالما بالألوان لا يسمع بسمع ولا يبصر ببصر ثم قلت ولم يجئ خبر عن النبي وغيره أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر ولكنكم قضيتم على الله بالمعنى الذي وجدتموه في أنفسكم

فيقال لك أيها المريسي أما دعواك علينا أنا قضينا عليه بالمعنى الذي وجدناه في أنفسنا فهذا لا يقضي به إلا من هو ضال مثلك غير أن الله تبارك اسمه أخبر عن نفسه أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر واتصلت عن رسول الله بذلك أخبار متصلة فإن حرمك الله معرفتها فما ذنبنا قال الله تعالى لموسى ولتصنع على عيني وقال ودرس تجري بأعيننا واصنع الفلك بأعيننا ثم ذكر رسول الله " الدجال فقال إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور والعور عند الناس ضد البصر والأعور عندهم ضد البصير بالعينين

ورويت أنت أيها المريسي عن أبي موسى عن النبي محتجا لمذهبك أن النبي سمع أصحابه يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال لهم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا فالصم ضد السمع الذي هو السميع عند الناس وهذا مما رويته وثبته عن النبي صحيحا في بعض دعواك به ففيما ذكرنا عن الله وعن رسوله بيان أن السمع غير البصر وأن البصر غير السمع وأنه يسمع بسمع ويبصر ببصر غير مكيف ولا ممثل . ومما يزيدك بيانا قول إبراهيم الخليل خليل الله صلوات الله عليه حين قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا يعني إبراهيم أن إلهه بخلاف الصنم يسمع بسمع ويبصر ببصر ولو كان على ما أولت أيها المريسي لقال أبو إبراهيم لإبراهيم فإلهك

أيضا لا يسمع بسمع ولا يبصر ببصر وكذلك قال في أصنام العرب أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها يعني أن الله بخلافهم له يد يبطش بها وعين يبصر بها وسمع يسمع به وادعيت أيضا أنا إن قلنا إن الله يسمع بسمع ويبصر ببصر فقد ادعينا أن بعضه عاجز وبعضه قوي وبعضه تام وبعضه ناقص وبعضه مضطر فإن قلتم هو أيها المريسي لا يجوز هذا القياس في صفة كلب من الكلاب فكيف في صفة رب العالمين بل حرام على السائل أن يسأل عن مثل هذا وحرام على المجيب أن يجيب فيه والعجب من قائله كيف لم يخسف الله به غير أن الله حليم ذو أناة وحلم عمن قال : الله ثالث ثلاثة، وعمن قال : اتخذ الله ولدا، وعمن قال : أنا ربكم الأعلى، ومن قال : يد الله مغلولة . وكذلك حلم عن هذا المريسي، إذ لم يخسف به ولم يعجزه هربا، ويلك أيها المريسي! إنا لا ندعي فيه هذه الخرافات التي احتججت بها مما ليس لمثلها جواب ونجمله أن نلفظ في صفاته بهذه الخرافات غير أنا سمعناه يقول : إنه سميع بصير، وإنني معكما أسمع وأرى . ففرق بين السمع والبصر، فأخذنا من الله ورددنا عليك جهلك وخرافاتك، أو لم تقل أيها المريسي : إنه لا يحل لأحد أن يتوهم في صفات الله بما يعرف معناه في نفسه، فكيف نسبت الله إلى العجز في سمعه وبصره على المعنى الذي تعرفه من نفسك؟ ثم قلت : فكما أنك بأحدهما مضطر إلى الآخر كذلك الله . فيما ادعيت علينا . مضطر إلى الآخر، فشبهت الله في مذهبك بالإنسان المجدع المنقوص، أو لم تسمع أيها المريسي قول الله تعالى : ليس كمثله شيء . وكما ليس كمثله شيء ليس كسمعه سمع، ولا كبصره بصر، ولا لهما عند الخلق قياس ولا مثال ولا شبيه، فكيف تقيسهما أنت بشبه ما تعرف من نفسك، وقد عبت على غيرك.

وأما دعواك أن قوله سميع بصير أنه يدرك الأصوات ويعلم الألوان فقد فهمنا بحمد الله معنى كفر ما تقصده به إليه فلا يجوز لك علينا في ذلك أغلوطة إن شاء الله يعني أن إلهك مهمل شبح هواء قائم في كل مكان لا يوصف بسمع ولا بصر ولا علم ولا كلام ولا وجه ولا يد ولا نفس ولا حد فالسمع عندك منه بصر والبصر منه سمع والوجه ظهر والأعلى منه أسفل والأسفل منه أعلى يسمع الأصوات بزعمك أنه يبلغه الصوت ولا يفهمه كما يبلغ الجبال التي ليست لها أسماع ولا تفقهه ويعرف الألوان بالترائي والمشاهدة لا أن له سمعا يسمع به فيفقهه ولا له بصر يبصر به فيراه ويعرفه كما يقال للدور والقصور يرى بعضها بعضا أي تتراءى وليست لها أبصار والجبال ينظر بعضها إلى بعض بلا بصر فكما يقال ذهب فلان بين سمع الأرض وبصرها من غير أن يكون للأرض سمع ولا بصر هو السمع والبصر فوصفت ربك بما وصف الله به الأصنام ما تقول وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون وكما قال للذين يدعون من دونه إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ولو كان معنى السمع والبصر إدراك الأصوات وترائي الأجسام لكان ذلك تدرك الأصنام كما يدرك الله في دعواكم ولكن ما وصفت أيها المريسي صفة الأصنام لا صفة الله فإلى هذا المعنى تقصد في سمع الله وبصره وقد سمعناه من بعض خطباءكم يغالط بمثل هذه الحجج أنباط كوئي أو أبطاطا أو يهود الحيرة أهل ملة أبيك وجيرانه فقد سمعت أبا هشام الرفاعي يذكر أنه سمع أبا نعيم يقول أنه رأى أباك يهوديا صابغا بالحيرة

وأما دعواك أن من وصف الله بالسمع الذي هو البصر الذي هو البصر وميز بينهما فقد نسبته إلى العجز فما ظننا أيها المريسي أنه يشك أحد من ولد آدم أن العاجز الضعيف المضطر المحتاج الذي لا سمع له ولا بصر حتى ادعيت أنت على جهل منك وما يدعوك إلى ذكر العاجز والقوة وما أشبههما من خرافاتك صفه بما وصف به نفسه فإنه أعلم بنفسه إنه القوي المتين الغني بجميع صفاته وجميع الذوات وعلى كل الحالات وهو بجميع ذلك إله واحد لا شريك له المتعالي عما نسبته إليه قاتلك الله ما أكفرك ولقد كنت أسمع بكفرك قديما وحكي لي بعضه عنك وما ظننت أنك تعتقد من أنواع الكفر كل ما روى عنك المعارض قلنا وما إخاله يعقل معاني كلامك وما يؤدبك إلى صريح الكفر فإن هو عقله وأعتقده فهو مثلك إذ يعتقده ثم يبشه وينشره للعوام إذ لم تكن أنت تجترئ أن تنشره في بلدك للأنام إلا مناجاة بينك وبين جهلة طغام وأما ما ادعيت أنه لم يجئ خبر عن النبي أن الله يسمع بسمع ويبصر ببصر فسنروي لك فيه ما قد غضبت منه إن شاء الله

حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن تميم ابن سلمة عن عروة قال قالت عائشة رضي الله عنها الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات كلها إن خولة جاءت تشتكي زوجها إلى رسول الله فيخفي علي أحيانا بعض ما تقول فأنزل الله تعالى قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله وحدثنا موسى بن إسماعيل أن جرير بن حازم حدثهم قال سمعت أبا يزيد المزني قال لقيت امرأة عمر يقال لها خولة بنت ثعلبة فقال عمر هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات

حدثنا أبو الربيع الزهراني ثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ثنا حرملة بن عمران التجيبي قال حدثني أبو يونس سليم بن جبير مولى أبي هريرة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قرأ رسول الله إن الله كان سميعا بصيرا فوضع أصبعه الدعا على عينيه وإبهامه على أذنيه

حدثنا نعيم بن حماد ثنا ابن المبارك أبنا خالد الحذاء عن أبي عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نهبط في واد إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير فدنا منا رسول الله فقال أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا بصيرا أفلا ترى أيها المريسي أن رسول الله ذكر الأصم والسميع وهما متضادان فأخبر أن الله سميع بخلاف الأصم حدثنا محمد بن كثير أبنا سفيان الثوري عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن وهب بن ربيعة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال إني لمستتر بأستار الكعبة إذ جاء ثلاثة نفر ثقفي وختناه قرشيان كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فتحديثوا الحديث بينهم فقال أحدهم أترى الله يسمع ما قلناه فقال الآخر إن كان يسمع إذا رفعنا أنه يسمع إذا خفضنا فأتيت النبي فذكرت ذلك له فأنزل الله تعالى وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين

حدثنا عبد الله بن صالح أن يحيى بن أيوب المصري حدثه عن عبد الله بن سليمان عن دراج قال حدثني أبو الهيثم عن أبي سعيد وعن ابن حجية الأكبر عن أبي هريرة

أو أحدهما عن رسول الله قال إذا كان يوم حار ألقى الله سمعه وبصره إلى أهل السماء والأرض فإذا قال الرجل لا إله إلا الله ما أشد حر هذا اليوم اللهم أجرنى من حر جهنم قال الله لجهنم إن عبدا من عبادي استجارني من حرّك فأني أشهدك فقد أجرته منك فإذا كان يوم شديد البرد ألقى الله سمعه وبصره إلى أهل الأرض فإذا قال العبد لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم اللهم أجرنى من زمهرير جهنم قال الله لجهنم إن عبدا من عبيدي استجارني من زمهريرك وإنني أشهدك أني قد أجرته قالوا وما زمهرير جهنم يا رسول الله قال بيت يلقي فيه الكفار يتميز من شدة برده بعضه من بعض

قلت لأبي اليمان أخبرك شعيب عن الزهري قال قال سالم قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قام رسول الله في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال إني سأقول لكم قولاً لم يقله نبي لقومه تعلمن أنه أعور وأن الله ليس بأعور فأخبرني أبو اليمان أن شعيباً أخبره به

ففي تأويل قول رسول الله أن الله ليس بأعور بيان أنه بصير ذو عينين خلاف الأعور حدثنا موسى بن إسماعيل ثنا جويرية بن أسماء عن نافع عن عبد الله أن الدجال ذكر عند رسول الله فقال رسول الله ألا إن المسيح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينيه عنبه طافية حدثنا مسلم بن إبراهيم ثنا شعبة عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ذكر الدجال فقال أعور

وإن ربكم ليس بأعور

حدثنا علي بن الجعد أبنا شريك عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله الله آلمر قال أنا الله أرى

حدثنا الزهراني أبو الربيع ثنا أبو معشر المدني عن سعيد وهو المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ما من نبي إلا وقد حذر أمته الدجال حتى نوح وسأخبركم عنه بشيء ما أخبر به نبي كان قبلي إنه كان أعور وإن الله ليس كذلك مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن.

♦ قال الشيخ ابن جبرين في كتاب اعتقاد أهل السنة: "أهل السنة يشبّهون الله عز وجل السمع والبصر، ويفسرونهما.

ويعرفون باللغة أن السمع هو إدراك الأصوات، وأن البصر هو إدراك المرئيات، ويقولون: نشبّه الله تعالى سمعاً. ونقول: إنه يسمع كل شيء من جهر القول وخفي الخطاب، ولا تشبّه عليه اللغات، ولا تغلظه كثرة المسائل مع اختلاف اللغات وتفنن المسئولات، فلا يشغله سمع عن سمع، لا يشغله سمع هذا الداعي عن هذا الداعي، يسمع الجميع ولا يشغله صوت هذا عن هذا، أما المخلوق فإذا تكلم عنده اثنان اشتبّه عليه كلام هذا بهذا، فلا

يزال يسكّت أحدهما حتى يسمع الآخر، أما الرب تعالى فإنه يسأله الملائكة والمخلوقات كلها بآن واحد، ومع ذلك يسمع أصواتهم جميعاً ويجيب من يستحق الإجابة ."

وكثيراً ما يقرن الله بين صفة السمع والبصر فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة ، والباطنة فالسميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرّاً وعلمها وكأنها لديه صوت واحد ، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه جميع اللغات، والقريب منها والبعيد والسر والعلانية عنده سواء : { سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار } ، { قد سمع الله قول النبي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير } قالت عائشة رضي الله عنها : تبارك الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في جانب الحجرة ، وإنه ليخفي علي بعض كلامها، فأنزل الله : { قد سمع الله قول النبي تجادلك في زوجها } الآية ، وسمعه تعالى نوعان :

أحدهما : سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة الخفية والجلية ، وإحاطته التامة بها .

الثاني : سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويشبههم ، ومنه قوله تعالى : { إن ربي لسميع الدعاء } وقول المصلي (سمع الله لمن حمده) أي استجاب ."

فقيام الصفات الفعلية أو الصفات الاختيارية بالله عز وجل من المسائل التي اتفق أهل السنة على إثباتها وقد نفاها المتكلمون كالشاعرة وغيرهم ويسمونها بمسألة حلول الحوادث.

وشبهة هؤلاء هي أنه لو قامت به الأفعال لكان محلاً للحوادث ، وإذا لم يخل منها لزم أن يكون حادثاً.

♦ قال شيخ الإسلام : " وإذا قالوا : لا تحله الحوادث ، أو هموا الناس أن مرادهم أنه لا يكون محلاً للتغيرات والاستحالات ، ونحو ذلك من الأحداث التي تحدث للمخلوقين فتحيلهم وتفسدهم ، وهذا معنى صحيح ، ولكن مقصودهم بذلك أنه ليس له فعل اختياري يقوم بنفسه ولا له كلام ، ولا فعل يقوم به يتعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه لا يقدر على استواء أو نزول أو إتيان أو مجيء ، وأن المخلوقات التي خلقها لم يكن منه عند خلقها فعل أصلاً بل عين المخلوقات هي الفعل ليس هناك فعل ومفعول وخلق ومخلوق بل المخلوق عين الخلق والمفعول عين الفعل ونحو ذلك " . درء التعارض " (١ | ٢٤٥) .

♦ قال ابن القيم رحمه الله : وأما حلول الحوادث فيريدون به أنه لا يتكلم بقدرته ومشيئته ، ولا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، ولا يأتي يوم القيامة ولا يجيء، ولا يغضب بعد أن كان راضياً ولا يرضى بعد أن كان غضبان ، ولا يقوم به فعل البتة ولا أمر مجدد بعد أن لم يكن ، ولا يريد شيئاً بعد أن لم يكن مريداً له ، ولا يقول له كن حقيقة ، ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستوياً عليه ، ولا يغضب يوم القيامة غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولا ينادي عباده يوم القيامة بعد أن لم يكن منادياً لهم ولا يقول للمصلي إذا قال : الحمد لله رب العالمين قال : حمدني عبدي . فإذا قال : الرحمن الرحيم . قال : أثني علي عبدي . وإذا قال : مالك يوم الدين . قال :

كذلك علم الله ذي المعالي		ملازم للرب ذي الجلال
ويعلم الاحداث في ذا الآن		وما جرى في سائر الازمان ^(١)

مجدني عبدي.

فإن هذه كلها حوادث ، وهو منزّه عن حلول الحوادث ، وبعضهم يختصر العبارة ، ويقول أنا أنزهه عن التعدد والتحدّد والتجدّد ؛ فيتوهم السامع الجاهل بمراده أنه ينزهه عن تعدد الآلهة ، وعن تحدّد محيط به حدود وجودية تحصره وتحويه كتحدّد البيت ونحوه ، وعن تجدد إلهيته وربوبيته ؛ ومراده بالتعدد الذي ينزه عنه تعدد أسمائه وصفاته ، وأنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ، ولا يتكلم ومراده بالتحدّد أنه ليس فوق خلقه ، ولا هو مستو على عرشه ، ولا فوق العرش إله يعبد ، وليس فوق العرش إلا العدم. ومراده بالتجدّد أنه لا يقوم به فعل ولا إرادة ولا كلام بمشيئته وقدرته وبعضهم يقتصر على حرفين ؛ فيقول نحن ننزهه عن التكثّر والتغير فيتوهم السامع تكثّر الآلهة وتغيره سبحانه واستحالته من حال إلى حال ، وحقيقة هذا التنزيه أنه لا صفة له ولا فعل " . الصواعق المرسلة " (٣ | ٩٣٧) .

♦ وقال شيخ الإسلام : والكلائية يقولون هو متصف بالصفات التي ليس له عليها قدرة ، ولا تكون بمشيئته ؛ فأما ما يكون بمشيئته ؛ فإنه حادث ، والرب تعالى لا تقوم به الحوادث ويسمون الصفات الاختيارية بمسألة حلول الحوادث

فإنه إذا كلم موسى بن عمران بمشيئته وقدرته ، وناداه حين أتاه بقدرته وبمشيئته كان ذلك النداء ، والكلام حادثاً قالوا : فلو اتصف الرب به لقامت به الحوادث.

قالوا : ولو قامت به الحوادث لم يخل منها و ما لم يخل من الحوادث فهو حادث.

قالوا : ولأن كونه قابلاً لتلك الصفة إن كانت من لوازم ذاته كان قابلاً لها في الأزل فيلزم جواز وجودها في الأزل. والحوادث لا تكون في الأزل ؛ فإن ذلك يقتضي وجود حوادث لا أول لها ، وذلك محال لوجوه قد ذكرت في غير هذا الموضع " . مجموع الفتاوى " (٦ / ٢٢٠) .

^١ — صفة العلم صفة ثابتة لله تعالى دل عليها الكتاب والسنة والإجماع.

قال الله عز وجل : { ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء } يقول : لا يعلمون شيئاً من علمه إلا بما شاء أن يعلمهم إياه ، فيعلموه بتعليمه.

وقال جلّ وعلا : { قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون }.

وقال جلّ جلاله : { لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه } وذلك حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نجد أحدا يشهد أنك رسول الله ، فأنزل الله عز وجل : { لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا }.

وقال تبارك وتعالى : { إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه }.

وقال تعالى : { فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين }.

وقال جلّت عظمته : { إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما }.

وقال جلّت قدرته فيما يقوله حملة العرش : { ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما }.

وقال جلّت قدرته : { الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء

قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما } أي علمه قد أحاط بالمعلومات كلها وقال عز وجل : { إن الله عنده علم

الساعة } . وقال تعالى : { إنما العلم عند الله } وقال تعالى : { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }

فهذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث،

وعلمه الكامل بالغيوب كلها التي يطلع على ما شاء منها من شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة

والمرسلين فضلا عن غيرهم من العالمين.

وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار، والرمال والحصى والتراب، وما في البحار من حيوانات

ومعادنها وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ويشتمل عليه ماؤها، كل ذلك عنده في كتاب مبين، أي في

اللوح المحفوظ، وهذا دليل على عظمته سبحانه وتعالى، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يحيطوا ببعض

صفاته لم يكن لهم قدرة ولا طاقة على ذلك.

فالنصوص الشرعية الدالة على صفة العلم كثيرة، فأهل السنة والجماعة أجمعوا على الإيمان بها وأثبتوا ما تدل

عليه معنى ونفوا الكيفية.

وورد في الصحيح في حديث الاستخارة قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين

من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم ! إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك

تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب)) وهذا هو الشاهد على صفة العلم من السنة.

والحديث الذي ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه في الخمس الذي لا يعلمهن إلا الله جل وعلا وقرأ: { وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } [لقمان: ٣٤] .

[ثبوت صفة العلم بالعقل]

دلالة هذه الصفة بالعقل من وجهين: الوجه الأول: النظر إلى الكون الشاسع المتقن المحكم الذي فيه كل هذا الإتقان، فإذا أردت أن تنظر هل فيه خلل رجع إليك البصر خاسئاً وهو حسير، قال الله تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا} * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: ٦١ - ٦٢]، فمن تدبر هذا الكون المحكم المتقن من قبل الله جل وعلا، علم أن هذا الإحكام وهذا الإتقان نابع عن إرادة، يعني: أراد الله أن يخلق هذا الكون بهذا الشكل وهذا الإحكام وهذا الإتقان، وهذه الإرادة تستلزم العلم بالمراد، فلا يمكن لأحد يريد شيئاً إلا وهو يعلم هذا الشيء الذي يريده، فالإرادة تستلزم العلم بالمراد.

الوجه الآخر من أوجه الدلالة بالعقل على علم الله: أن الله جل وعلا شرف بعض عباده بهذا العلم، وبين أنه بالنسبة لهم صفة كمال؛ كما قال الله تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف: ٧٦]، فعلم يوسف عليه السلام كيف يكيد ليأخذ أخاه، وهذه من صفات الكمال ليوسف، ووصف الله عز وجل يعقوب بأنه عليم فقال: {وَإِنَّهُ لَدَوْ عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٦٨]، فهذه صفة كمال في العبد، والقاعدة بين الرب وبين العبد قياس الأولى، فإن اتصف العبد بالكمال فمن باب أولى أن يتصف الخالق بالكمال؛ لأن الخالق هو الذي أوزع وأودع في المخلوق هذه الصفة، فصفة العلم ثابتة لله جل وعلا بالكتاب والسنة وبالعقل، وأقوال الصحابة .

وعلم الله جل وعلا واسع شاسع، يحيط بكل شيء علماً، {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: ١١٠]، {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [آل عمران: ٢٩] ما دق وما خفي، {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩]، يعلم جل وعلا كل شيء ولا يخفى عليه أي شيء: دق أو جل، عظم أو صغر؛ لأن الله جل وعلا أحاط بكل شيء علماً، قال الله تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢]، وعلم الله الواسع جل وعلا يتمثل في أنه عليم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون.

علم ما كان وعلم ما يكون مستقبلاً وعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون مثل قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}

واما العلم في قوله تعالى: {وَلَتَبْلُؤَنَّهُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: ٣١] وقوله تعالى: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا} [آل عمران: ١٦٧]، {وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٦] وقول الله

تعالى: { الم * أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } [العنكبوت: ١ - ٢]، ثم قال: {فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ٣].

أن الله جل وعلا علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، لكن لا بد أن يخرج به لأرض الواقع، ولا بد أن يقطع دابر حجة الظالمين-، وتقدير الكلام: حتى نعلم علماً نحاسبكم عليه؛ لأن الله لو جاء بالعبد فحاسبه على علمه السابق دون أن ينزله إلى أرض البسيطة وقال للعبد: أنا علمت سابقاً أنك ستعمل كذا وكذا وسأحاسبك عليه اليوم، فهو سيقول: لا يا رب! لو أنزلتني إلى الأرض لسمعت وأطعت الرسل، فكيف تحاسبني على علمك السابق لي؟! إذاً: الإشكال يجاب عنه بجواب هين جداً ألا وهو: أن الله جل وعلا لما علم سابقاً أخرج هذا العلم على أرض الواقع ليحاسب الناس ويقطع حجتهم.

وصفة العلم لله جل وعلا كسائر الصفات لله تبارك وتعالى صفة مستقلة ذاتية قائمة بالذات لكن ليست هي عين الذات ف (الْعَلِيمُ) من أسماء الله جل وعلا هو ذو العلم الواسع وليس معناه أنه (الْعَلِيمُ) بذاته وإنما هو (عليم) بالعلم .

يعبر المعتزلة عن ذلك بقولهم عليم بلا علم.

معنى قولهم (عليم بلا علم) يعني عليم بلا صفة زائدة عن ذاته هي العلم ، وهكذا يقولون في سائر الصفات سميع بلا سمع ، يعني بلا صفة زائدة هي السمع بصير بلا بصر وحفيظ بلا حفظ ، وهكذا ، يعني أن الأسماء إما أن يفسروها بمخلوقات منفصلة وإما أن يفسروها بالذات.

والقول في صفة العلم كالقول في الذات لكن ذاته جل وعلا هي المتصفة بالصفات . فالصفات أمر زائد على الذات ولا يعقل أن توجد ذات ليست بمتصفة بالصفات بل الصفات تكون للذات ، وليس الذات وجودها عينه هو وجود الصفات ، بل ثم صفات وثم ذات.

نعم الصفات لا يمكن أن تقوم بنفسها بل لا بد لها من ذات تقوم بها، فإذا صفات الله جل وعلا ومنها (العلم) على ذلك.

قال سبحانه وتعالى هنا { يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا }

وجه الدلالة هنا قوله (يَعْلَمُ) وكما ذكرت لكم ، الفعل المضارع ينحل عن مصدر وعن زمن.

يعني بالمصدر اللي هو الصفة (يعلم) فيه العلم (العلم زائد زمن) فإذا فيه إثبات الصفة وهذا معنى كون الأفعال فيها إثبات الصفة لأن الفعل هو حدث وزيادة على الحدث وهو الزمن.

قوله {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ} وجه الدلالة أيضا أنه أتى بـ (مَا) وهي اسم موصول تدل على عموم ما كان في حيز صلتها ، يعني يعلم جميع الوالج في الأرض ، والوالج في الأرض متجدد ، متغير ؟

كذلك يعلم جميع الذي يخرج من الأرض وهذا متغير.

إذن فالعلم صفة لله جل وعلا ذاتية ، قائمة بذاته لكن المعلومات متجددة ، فإذا صفة العلم لله جل وعلا ثابتة

أصلاً وآحادها متعلقة بالمعلومات وتتجدد المعلومات.

هنا قال {وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَغْرُجُ فِيهَا}

كذلك ، وهذه الآية تدل على علم الله جل وعلا - كما ذكرت لكم غير مرة - على علم الله جل وعلا بالصغير وبالكبير ، وبالجزئيات وكذلك بالكلييات ، وجه الدلالة أنه أتى بـ (مَا) وهي لفظ يدل على عموم الأشياء [شرح الواسطية للشيخ صالح ال الشيخ]

قال الأشعري في رسالة أهل الثغر [ص (٦٦)] : (وأجمعوا على أنه تعالى لم يزل موجوداً حياً قادراً عالماً .) ، أما الجهمية فأنكروا أن يكون لله علم أضافه لنفسه، وجحدوا أن يكون قد أحاط بكل شيء علماً، وحاربوا النصوص الدالة على ذلك، فمعبودهم على هذا الاعتقاد ليس العليم الخبير الذي هو بكل شيء عليم وإنما يعبدون العدم.

والأشاعرة المتقدمون يثبتون لله سبحانه صفة العلم، وأنكروا على المعتزلة قولهم: إن الله عالم بلا علم. قال أبو الحسن الأشعري: (الباب السابع: الرد على الجهمية في نفهم علم الله تعالى وقدرته وجميع صفاته؛ قال الله تعالى: { أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ } [النساء: ١٦٦] ، وقال تعالى: { وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ } [فاطر: ١١] ، ... وزعمت الجهمية أن الله تعالى لا علم له...، وقالت المعتزلة: إن الله عالم، قادر، حي، سميع، بصير من طريق التسمية، من غير أن يثبتوا له حقيقة العلم، والقُدرة، والسمع، والبصر...، وقد قال رئيس من رؤسائهم - وهو أبو الهذيل العلاف - إن علم الله هو الله، فجعل الله تعالى علماً! وألزم، فقل له: إذا قلت: إن علم الله هو الله، فقل: يا علم الله اغفر لي وارحمني، فأبى ذلك، فلزمه المناقضة...، من قال: إن الله تعالى عالم ولا علم له، كان ذلك مناقضاً خارجاً عن جملة المسلمين، وقد أجمع المسلمون قبل حدوث الجهمية والمعتزلة والحرورية على أن الله عالم لم يزل، وقد قالوا: علم الله لم يزل، وعلم الله سابق في الأشياء، ولا يمتنعون أن يقولوا في كل حادثة تحدث ونازلة تنزل: كل هذا سابق في علم الله، فمن جحد أن الله علماً فقد خالف المسلمين وخرج عن اتفاقهم)

♦ قال ابن العربي: (إنما العجب كل العجب من كلمات صدرت عن أبي المعالي فادحة تحوم أو تشف على أن علم الباري لا يتعلق بالمعلومات على التفصيل...، فنستخلص من هذا كله أن هذه الألفاظ من الجملة والتفصيل والحصر ألفاظ مؤلدة، ركبت عليها المبتدعة علومها، وخاض فيها علمائنا معهم، ولكل واحد فيها اصطلاح تركيب معناه على ما اصطلاح عليه فيها، ويختلف الاثنان في الوجه المصطلح عليه، فيتباريان ويتعارضان، ونحن إذا تكلمنا على ذلك قلنا: دعونا من العبارات المحدثه الفاسدة، الباري تعالى عالم بعلم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم ما كان وما يكون، ولا يقدر شيء إلا وهو عالم به، نعم، وقد كتبه، فهذا عقد صحيح مدلول عليه. فإن قلتم على التفصيل يعلم أو على الجملة؟ قلنا: لا ندرك ما تريدون، فإن أردتم بقولكم: على التفصيل، أنه لا يخفى عليه شيء، فذلك صحيح، وإن أردتم بالجملة أنه يعلم شيئاً، ويخفى عليه آخر، فلا

يَصِحُّ؛ لَأَنَّ الدَّلِيلَ قَدْ قَامَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ مَعَكُمْ فِي عُمُومِ عِلْمِهِ وَخُصُوصِهِ، وَالْجُمْلَةُ وَالتَّفْصِيلُ عِبَارَاتٌ بَارِدَةٌ، لَا نَلْتَفِتُ لَكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا نَبْنِي عَلَيْهَا حُكْمًا، وَلَا نَصِفُ الْبَارِي بِشَيْءٍ مِنْهَا، لَا نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا، وَإِنَّمَا نَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَدَلَّ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ مِنْ سَعَةِ عِلْمِهِ، وَتَقْدُسِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ، تَقَدَّمَ أَوْ تَأَخَّرَ، فَعَلَى هَذَا عَوَّلُوا، وَدَعَوْا بُنْيَاتِ الطَّرِيقِ، وَالْأَلْفَاظَ الْمُحَدَّثَةَ، وَخَذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ، وَهُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ).

وَقَدْ قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ مُبَيِّنًا ضَلَالَ الْفَلَّاسِفَةِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ فِي مَسْأَلَةِ عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: (قَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى فَسَادِ قَوْلِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَغَيْرِهِ مِنَ الصِّفَاتِ، وَبَيَّنَّا أُصُولَهُمُ الَّتِي أَوْجَبَتْ أَنْ قَالُوا مِثْلَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرْيَةِ عَلَى اللَّهِ، وَبَيَّنَّا فُسَادَهَا، وَأَعْظَمَ عُمدِهِمْ فِي نَفْيِهِ أَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ التَّكْثِيرَ وَالتَّغْيِيرَ، فَالتَّكْثِيرُ يُرِيدُونَ بِهِ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ...، مَعَ أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ قَطُّ حُجَّةٌ عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ إِلَّا مَا تَخِيلُوهُ مِنْ أَنَّ هَذَا تَرْكِيبٌ، وَقَدْ بَيَّنَّا فُسَادَهُ مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ. أَمَّا التَّغْيِيرُ فَقَالُوا الْعِلْمُ بِالْمُتَغَيِّرَاتِ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ بِأَنَّ الشَّيْءَ سَيَكُونُ غَيْرَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ قَدْ كَانَ، فَيَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لِلْحَوَادِثِ، وَهُمْ لَيْسَ عَنْدهُمْ عَلَى نَفْيِ هَذِهِ اللَّوْازِمِ حُجَّةٌ أَصْلًا، لَا بَيِّنَةٌ وَلَا شَهِيَّةٌ، وَإِنَّمَا نَفَوْهُ لِنَفْيِهِمُ الصِّفَاتِ لَا لِأَمْرِ يَخْتَصُّ بِذَلِكَ، بِخِلَافِ مَنْ نَفَى ذَلِكَ مِنَ الْكَلَابِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا اعْتَقَدُوا أَنَّ الْقَدِيمَ لَا يَقُومُ بِهِ الْحَوَادِثُ قَالُوا: لِأَنَّهُا لَوْ قَامَتْ بِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْهَا، وَمَا لَمْ يَخْلُ مِنَ الْحَوَادِثِ فَهُوَ حَادِثٌ، وَقَدْ بَيَّنَّ اتِّبَاعُهُمْ كَالرَّازِيِّ وَالْأَمِدِيِّ وَغَيْرِهِمْ فُسَادَ الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى الَّتِي يُخَالِفُهَا فِيهَا جُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ، وَيَقُولُونَ: بَلِ الْقَابِلُ لِلشَّيْءِ قَدْ يَخْلُو عَنْهُ وَعَنْ صِدْدهُ، أَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ حُجَّةُ الْمُتَكَلِّمِينَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَمَنْ وافَقَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ عَلَى إِثْبَاتِ حُدُوثِ الْأَجْسَامِ بِاسْتِلْزَامِهَا لِلْحَوَادِثِ، وَقَالُوا: مَا لَا يَخْلُو عَنْ الْحَوَادِثِ أَوْ مَا لَا يَسْقُهَا فَهُوَ حَادِثٌ، لِبُطْلَانِ حَوَادِثِ لَا أَوَّلَ لَهَا، وَهُوَ التَّسْلُسُ فِي الْأَثَارِ. وَالْفَلَّاسِفَةُ لَا يَقُولُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ عَنْدهُمْ الْقَدِيمُ تَحُلُّهُ الْحَوَادِثُ، وَيُجَوِّزُونَ الْحَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا؛ وَلِهَذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَصَاطِينِهِمْ وَمُتَأَخِّرِيهِمْ كَأَبِي الْبَرَكَاتِ يُخَالِفُونَهُمْ فِي إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ وَقِيَامِ الْحَوَادِثِ بِالْوَاجِبِ، وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمُ الْفَلَّاسِفَةِ: لَيْسَ مَعَكُمْ حُجَّةٌ عَلَى نَفْيِ ذَلِكَ، بَلْ هَذِهِ الْحُجَّةُ أَنْبَتُمُوهَا مِنْ جِهَةِ التَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمِ بَلَا حُجَّةٍ، وَالرَّبُّ لَا يَكُونُ مُدَبِّرًا لِلْعَالَمِ إِلَّا بِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ، فَكَانَ مِنْ تَنْزِيهِ الرَّبِّ وَإِجْلَالِهِ تَنْزِيْهُهُ عَنْ هَذَا التَّنْزِيهِ، وَإِجْلَالُهُ عَنْ هَذَا الْإِجْلَالِ. وَلِلنُّظَارِ فِي جَوَابِهِمْ عَنْ هَذَا طَرِيقَانِ: مِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُ الْمُقَدِّمَةَ الْأُولَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُ الثَّانِيَةَ؛ فَالْأَوَّلُ جَوَابٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشْعَرِيِّ وَأَصْحَابِهِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَنْفِي حُلُولَ الْحَوَادِثِ، فَادَّعَى هَؤُلَاءِ أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ الشَّيْءَ سَيَكُونُ هُوَ عَيْنُ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ قَدْ كَانَ، وَأَنَّ الْمُتَجَدِّدَ إِنَّمَا هُوَ نِسْبَتُهُ بَيْنَ الْمَعْلُومِ وَالْعِلْمِ، لَا أَمْرٌ ثُبُوتِيٌّ، وَالثَّانِي جَوَابُ هِشَامِ وَابْنِ كَرَامٍ وَأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ، وَطَوَائِفُ غَيْرِ هَؤُلَاءِ، قَالُوا: لَا مَخْذُورَ فِي هَذَا، وَإِنَّمَا الْمَخْذُورُ فِي الْأَلَا يَعْلَمُ الشَّيْءَ حَتَّى يَكُونَ، فَإِنَّ هَذَا يَسْتَلْزِمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا، وَأَنَّهُ أَحْدَثَ بَلَا عِلْمٍ، وَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ. وَعَامَّةُ مَنْ يَسْتَشْكِلُ الْآيَاتِ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَقَوْلِهِ {إِلَّا لِنَعْلَمَ} [البقرة: ١٤٣] {حَتَّى نَعْلَمَ} [مُحَمَّد: ٣١] يَنْوَهُمْ أَنَّ هَذَا يَنْفِي عِلْمَهُ السَّابِقَ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ، وَهَذَا جَهْلٌ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا سَيَكُونُ فِي غَيْرِ

مَوْضِعٍ، بَلْ أَبْلَغَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا، وَكَتَبَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهَا، فَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَخْلُقُهُ عِلْمًا مُفَصَّلًا، وَكَتَبَ ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَقَدْ أَخْبَرَ بِعِلْمِهِ الْمُتَقَدِّمِ عَلَى وُجُودِهِ، ثُمَّ لَمَّا خَلَقَهُ عِلْمَهُ كَائِنًا مَعَ عِلْمِهِ الَّذِي تَقَدَّمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ، فَهَذَا هُوَ الْكَمَالُ، وَبِذَلِكَ جَاءَ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، بَلْ وَبِإثْبَاتِ رُؤْيَةِ الرَّبِّ لَهُ بَعْدَ وُجُودِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ١٠٥] ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَرَى أَعْمَالَهُمْ. وَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَاتِّفَاقُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَدَلَالَةُ الْعَقْلِ عَلَى أَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْدُومِ، فَإِذَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ رَأَاهَا سُبْحَانَهُ، وَإِذَا دَعَاهُ عِبَادُهُ سَمِعَ دُعَاءَهُمْ...، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عِلْمَهُ بِمَا سَيَكُونُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ فِي بَضْعَةِ عَشَرَ مَوْضِعًا فِي الْقُرْآنِ مَعَ إِخْبَارِهِ فِي مَوَاضِعٍ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ...، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، كَقَوْلِهِ: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام: ٢٨] ...، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ} [البقرة: ١٤٣] ، زُيِّدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {إِلَّا لِنَعْلَمَ} {أَي: لَنَرَى، وَزُيِّدَ: لَنُمَيِّزَ، وَهَكَذَا قَالَ عَامَّةُ الْمُفَسِّرِينَ: إِلَّا لَنَرَى وَنُمَيِّزَ، وَكَذَلِكَ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: لِنَعْلَمَهُ مُوجُودًا وَاقِعًا بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ، وَلَفْظُ بَعْضِهِمْ: الْعِلْمُ عَلَى مَنزِلَتَيْنِ: عِلْمٌ بِالشَّيْءِ قَبْلَ وُجُودِهِ، وَعِلْمٌ بِهِ بَعْدَ وُجُودِهِ، وَالْحُكْمُ لِلْعِلْمِ بِهِ بَعْدَ وُجُودِهِ؛ لِأَنَّهُ يَوْجِبُ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ: لِنَعْلَمَ أَي: لِنَعْلَمَ الْعِلْمَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِهِ الْعَامِلُ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ كَانَ عَالِمًا سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ، لَكِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَعْلُومُ قَدْ وَجَدَ...، وَالْمَقْصُودُ أَنْ يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مِنَ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ مَا هُوَ فِي غَايَةِ الضَّلَالِ فِرَارًا مِنْ لَزِمٍ لَهُمْ قَطُّ دَلِيلٌ عَلَى نَفْيِهِ، وَلَوْ قُدِّرَ شُبْهَةٌ تُعَارِضُ ثُبُوتَ الْعِلْمِ فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟! وَأَيْنَ الْأَدِلَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى ثُبُوتِ عِلْمِهِ وَالْمَحْذُورِ فِي نَفْيِ عِلْمِهِ مِمَّا يُظُنُّ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ أَوْ نَفْيِ بَعْضِهَا دَلِيلًا وَمَحْذُورًا؟!)

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَيْضًا: (النَّاسُ الْمُتَنَسِّبُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي عِلْمِ اللَّهِ بِاعْتِبَارِ تَعَلُّقِهِ بِالْمُسْتَقْبَلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ يَعْلَمُ الْمُسْتَقْبَلَاتِ بِعِلْمٍ قَدِيمٍ لَزِمَ لِدَاتِهِ، وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ عِنْدَ وُجُودِ الْمَعْلُومَاتِ نَعْتُ وَلَا صِفَةٌ، وَإِنَّمَا يَتَجَدَّدُ مُجَرَّدُ التَّعَلُّقِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْلُومِ، وَهَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِيَّةِ مِنَ الْكَلَابِيَّةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ، وَهُوَ قَوْلُ طَوَائِفٍ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ نُفَاةِ الصِّفَاتِ..... وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْمُحْدَثَاتِ إِلَّا بَعْدَ حَدُوثِهَا، وَهَذَا أَصْلُ قَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَمْ يَعْلَمْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ إِلَّا بَعْدَ وُجُودِهَا، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَنْفُ، لَمْ يَسْبِقِ الْقَدَرُ بِشَقَاوَةٍ وَلَا سَعَادَةٍ، وَهُمْ غَلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ حَدَّثُوا فِي زَمَانِ ابْنِ عُثْمَرَ، وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَقَدْ نَصَّ الْأَئِمَّةُ كَمَالِكُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ عَلَى تَكْفِيرِ قَائِلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ)

^١ قال ابن تيمية في العقيدة الواسطية فيقول: ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}. فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكييفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفو له ولا ند له، ولا يقاس بخلقه - سبحانه وتعالى - فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه، ثم رسله صادقون مصدوقون؛ بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون، ولهذا قال سبحانه وتعالى: {سبحان ربك رب العزة عما يصفون} * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين { فسيح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون؛ فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. اهـ.

وقال ابن باز في فتاوية: "مذهب أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات إثباتها لله على الوجه اللائق بالله، على الوجه اللائق بجلاله تعالى، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، الصحابة رضي الله عنهم وأتباعهم بإحسان هم أهل السنة والجماعة، قاعدتهم: الإيمان بأسماء الله وصفاته، وإثباتها لله، وأنها حق، وأنها ثابتة على الوجه اللائق بالله، من غير تحريف لها لا بالزيادة، ولا بالنقص، ولا تعطيل لها كما تفعل الجهمية، ولا تمثيل كما تفعل المشبهة، بل يؤمنون بأنها حق، وأن الله - جل وعلا - مسمى بها، وموصوف بمعانيها، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ خلافاً للجهمية والمعتزلة، ومن شرع في ركا بهم.

الجهمية نفوا أسماء الله وصفاته، والمعتزلة نفوا الصفات، قالوا: سميع بلا سمع، عليم بلا علم، وهذا غاية في التعطيل نعوذ بالله، وهذا ضلال وكفر، فأهل السنة والجماعة يقولون: عليم بعلم، سميع بسمع، رحيم برحمة، يشبتون أسماء وصفاته - جل وعلا -، هذا قول أهل السنة والجماعة، يشبتون أسماء الله، ويشبتون الصفات التي دلت عليها الأسماء، وأنها تليق بالله لا يشابهه فيها خلقه، كما قال سبحانه: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٣-٤] لا أحد يكافئه؛ لأنه كامل في كل شيء.

I. شيء

وله المثل الأعلى، له الوصف الأعلى في كل شيء، وقال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١] لكماله في ذاته وصفاته لا يماثله شيء، كل المخلوقات ناقصة، وله الكمال المطلق تعالى، علم المخلوق ناقص، رحمته ناقصة، سمعه ناقص إلى غير ذلك، أما صفات الله فهي كاملة لا يعثر بها نقص، وثابتة لله لا يشابه فيها خلقه.

ومن صفات ربنا الكلام		كما يشاء القادر العَلام
وصفُ الكلام وصف ذاتٍ قد جمع		ووصف فعلٍ اذ يشأ ربي يقع
كلامه الكوني ليس ينتهي		لو البحار قد غدت لاجتله
جراً كذا الاشجار اقلاماً فما		تكفي لنسخ ما به تكلم
فهو الذي لعزه الكل خضع		يرفع من شاء ومن شاء وضع
اما الذي في الشرع ربي قد نطق		ان يتبعه المرء للخلد سبق
في الخلد نادى آدما يقينا		كذاك موسى اذ اتى لسينا ^(١)

سميع يسمع أقوال عباده، يسمع دعاءهم وإن كانوا في جوف البحر، وإن كانوا في الطبقات السفلى، يسمع دعاءهم، ويسمع حركاتهم، ويعلم أحوالهم، لا يخفى عليه خافية { إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [المجادلة: ٧] ويقول سبحانه: { لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا } [الطلاق: ١٢]، نعم."

^١ — من عقيدة أهل السنة والجماعة من أئمة السلف والخلف: أن الله عز وجل لم يزل متكلماً بما شاء إذا شاء، وأن كلامه بحرف وصوت لا كالمخلوقين، يسمعه مَنْ بَعُدَ كما يسمعه مَنْ قَرُبَ، وأن موسى لما كلمه الله في الدنيا سَمِعَ كلامه بصوتٍ لا كصوت المخلوقين، وحرفٍ يفهمه، وبهذا اختص عن غيره من الأنبياء، فسُمِّيَ كليم الله، كما في الصحيحين في حديث الشفاعة: فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله.

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا قَضَى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزَّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحقُّ وهو العلي الكبير.

وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث جابر بن عبد الله، عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنهم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يُحْشَرُ الناس يوم القيامة عراً غراً بُهْماً، قال: قلنا: وما بُهْماً؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوتٍ يسمعه مَنْ بَعُدَ كما يسمعه مَنْ قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديان.

قال الإمام البخاري مبوباً في صحيحه: باب قول الله تعالى: لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. ولم يقل: ماذا خلق ربكم، قال جل ذكره: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ. وقال مسروق عن ابن مسعود: إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئاً، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم وسكن الصوت، عرفوا أنه الحق ونادوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ. ويذكر عن جابر عن عبد الله بن أنيس قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ، فيناديهم بصوتٍ يسمعه مَنْ بَعْدَ كَمَا يسمعه مَنْ قَرَّبَ: أنا الملك، أنا الديان. انتهى كلام البخاري رحمه الله.

فبمقتضى هذه الأحاديث والآثار كان اعتقاد أهل السنة والجماعة في كلام الله، وقد بين ذلك الإمام أحمد رحمه الله إمام أهل السنة والجماعة، الذي نصر الله به الأمة في محنة الجهمية في كلام الله، قال عبد الله ابن الإمام أحمد في كتابه السنة: سئل. أي الإمام أحمد. عما جحدته الجهمية الضلال من كلام رب العالمين عز وجل، ثم قال: سألت أبي. رحمه الله. عن قوم يقولون: لَمَّا كَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى لَمْ يَتَكَلَّمْ بِصَوْتٍ! فقال أبي: بلى، إن ربك عز وجل تكلَّم بصوت، هذه الأحاديث نروها كما جاءت، وقال أبي رحمه الله: حديث ابن مسعود رضي الله عنه: إذا تكلم الله عز وجل سَمِعَ لَهُ صَوْتُ كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ، قال أبي: وهذا الجهمية تنكره، وقال أبي: هؤلاء كفار يريدون أن يموِّهوا على الناس، من زعم أن الله عز وجل لم يتكلم فهو كافر، ألا إنا نروي هذه الأحاديث كما جاءت. اهـ.

وهو الإمام المتَّبِعُ المتَّبِعُ في هذا الباب، الذي اختاره الله ليقف أمام جحافل الجهمية، ويبين للناس الاعتقاد الحقَّ لسلفه حتى نصره الله وأظهر الحق على يديه، قال الإمام ابن جرير الطبري. رحمه الله. في كتابه صريح السنة: لما تكلم عن كلام الله: وأما القول في ألفاظ العباد بالقرآن، فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى، ولا تابعي قضى، إلا عمن في قوله الغناء والشفاء رحمة الله عليه ورضوانه، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم قوله لدينا مقام قول الأئمة الأولى: أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه... ولا قول في ذلك عندنا يجوز أن نقوله، إذ لم يكن لنا فيه إمام نأتمُّ به سواه، وفيه الكفاية والمنع، وهو الإمام المتَّبِعُ رحمة الله عليه ورضوانه. اهـ.

وكذا قال الإمام البخاري. رحمه الله. في كتابه خلق أفعال العباد لما ذكر حديث عبد الله بن أنيس: وفي هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق، لأن صوت الله جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب، وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا نادى الملائكة لم يصعقوا، وقال عز وجل: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا} [البقرة: ٢٢] فليس لصفة الله نِدٌّ، ولا مِثْلٌ ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين. اهـ.

فهل بعد هذين الإمامين العظيمين إمامٌ أعلم منهما باعتقاد السلف وأقاويلهم فيَّتَّبِعَ في هذا دونهما؟! قال الله عز وجل: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١٠٠].

♦ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والصواب الذي عليه سلف الأمة . كالإمام أحمد والخاري صاحب الصحيح في . كتاب خلق أفعال العباد وغيره وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم: اتباع النصوص الثابتة وإجماع سلف الأمة، وهو أن القرآن جميعه كلام الله حروفه ومعانيه، ليس شيء من ذلك كلاماً لغيره، ولكن أنزله على رسوله، وليس القرآن اسماً لمجرد المعنى ولا لمجرد الحرف، بل لمجموعهما، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط، ولا المعاني فقط، كما أن الإنسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح ولا مجرد الجسد؛ بل مجموعهما، وأن الله تعالى يتكلم بصوت، كما جاءت به الأحاديث الصحاح، وليس ذلك كأصوات العباد لا صوت القارئ ولا غيره، وأن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته: فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق، ولا معانيه تشبه معانيه، ولا حروفه تشبه حروفه، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد، فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد ألحد في أسمائه وآياته . اهـ.

وذلك في تكليم الله موسى وغير موسى، كما مر في كلام الإمام أحمد، وقد قال الإمام أبو نصر السجزي في رسالته إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت ص: ٢٥٢ . وقال الله تعالى: { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى } . وقال تعالى: { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى } . وقال جل جلاله: { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } . والنداء عند العرب صوت لا غير، ولم يرد عن الله تعالى ولا عن رسوله عليه السلام أنه من الله غير صوت، ولا خلاف بيننا في أن موسى مكلم بلا واسطة . اهـ.

♦ وقال أيضاً في كتابه الإبانة في مسألة القرآن: وقد بين الله في كتابه ما لا إشكال بعده في هذا الفصل لما قال: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى} [الشعراء: ١٠] والعرب لا تعرف نداءً إلا صوتاً، وقد جاء عن موسى تحقيق ذلك، فإن أنكروا الظاهر كفروا، وإن قالوا: إن النداء غير صوت، خالفوا لغات العرب، وإن قالوا: نادى الأمير، إذا أمر غيره بالنداء، دفعوا فضيلة موسى عليه السلام المختصة به من تكليم الله إياه من غير واسطة ولا ترجمان، وليس في وجود الصوت من الله تعالى تشبيه بمن يوجد الصوت منه من الخلق، كما لم يكن في إثبات الكلام له تشبيه بمن له كلام من خلقه... فنقول: كلام الله حرف وصوت بحكم النص... وليس ذلك عن جارحة ولا آلة، وكلامنا حروف وأصوات، لا يوجد ذلك منا إلا بآلة، والله سبحانه وتعالى يتكلم بما شاء، لا يشغله شيء عن شيء، والمتكلم منا لا يتأتى منه أداء حرفين إلا بأن يفرغ من أحدهما ويتبدى في الآخر . اهـ. (نقله ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل: ٢. ٩٣).

♦ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ما أخبر الله به في كتابه من تكليم موسى وسمع موسى لكلام الله يدل على أنه كلمه بصوت، فإنه لا يسمع إلا الصوت، وذلك أن الله قال في كتابه عن موسى: فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى، وقال في كتابه: { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَالْأَسْبَاطُ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}. ففرَّق بين إباحته إلى سائر النبيين وبين تكليمه لموسى، كما فرَّق أيضاً بين النوعين في قوله: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ. ففرَّق بين الإيحاء والتكليم من وراء حجاب، فلو كان تكليمه لموسى إلهاماً ألهمه موسى من غير أن يسمع صوتاً.. لم يكن فرقاً بين الإيحاء إلى غيره والتكليم له، فلما فرق القرآن بين هذا وهذا وعلم بإجماع الأمة ما استفاضت به السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم من تخصيص موسى بتكليم الله إياه، دل ذلك على أن الذي حصل له ليس من جنس الإلهامات وما يُدرَك بالقلوب، إنما هو كلامٌ مسموعٌ بالأذان، ولا يُسمع بها إلا ما هو صوت. اهـ.

وقال أيضاً: فليس ما يُسمع من العباد من أصواتهم مشابهاً ولا مماثلاً لما سمعه موسى من صوته إلا كما يشبه ويمثل غير ذلك من صفاته لصفات المخلوقين، فهذا في نفس تكلمه سبحانه وتعالى بالقرآن، والقرآن عند الإمام أحمد وسائر أئمة السنة كلامه تكلم به، وتكلم بالقرآن العربي بصوت نفسه، وكلم موسى بصوت نفسه الذي لا يماثل شيئاً من أصوات العباد. اهـ.

تَفَرَّدَ الْأَشَاعِرَةُ بِإثباتِ الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ أَرْلِيَّ، وَكُلُّهُ وَاحِدٌ، فَلَا مُرَّ وَالنَّهْيُ وَالْخَبَرُ كُلُّهُ كَلَامٌ وَاحِدٌ، وَلَا يُشْتَبَوْنَ كَاهِلِ السُّنَّةِ أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، بَلْ كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ عِنْدَهُمْ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ لَا تَجَدُّدُ لَهَا، فِي حِينٍ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَقُولُونَ: كَلَامُ اللَّهِ قَدِيمُ النَّوْعِ، حَادِثُ الْآحَادِ، وَأَثَبَتِ الْأَشَاعِرَةُ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ صِفَةٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَرَدُّوا عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْأَشَاعِرَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ جَعَلَ خِلَافَهُمْ مَعَ الْمُعْتَزِلَةِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ خِلَافًا لَفْظِيًّا.

♦ قال أبو نصر السجزي: (اعلموا - أرشدنا الله وإياكم - أنه لم يكن خلاف بين الخلق على اختلاف نحلهم من أول الزمان إلى الوقت الذي ظهر فيه ابن كلاب والقلانسي والأشعري وأقرائهم في أن الكلام لا يكون إلا حرفاً وصوتاً ذا تأليفٍ واتساقٍ، وإن اختلفت به اللغات... فالإجماعُ مُنْعَقِدٌ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ عَلَى كَوْنِ الْكَلَامِ حَرْفًا وَصَوْتًا، فَلَمَّا نَبَغَ ابْنُ كَلَّابٍ وَأَصْرَابُهُ وَحَاوَلُوا الرَّدَّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ مِنْ طَرِيقِ مَجَرَّدِ الْعَقْلِ، وَهُمْ لَا يَخْبُرُونَ أَصُولَ السُّنَّةِ، وَلَا مَا كَانَ السَّلَفُ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْتَجُّونَ بِالْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ زَعَمًا مِنْهُمْ أَنَّهَا أَخْبَارُ آحَادٍ، وَهِيَ لَا تَوْجِبُ عِلْمًا، وَلَزِمَتْهُمْ الْمُعْتَزِلَةُ أَنَّ الْإِتِّفَاقَ حَاصِلٌ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ حَرْفٌ وَصَوْتٌ، وَيَدْخُلُهُ التَّعَاقُبُ وَالتَّأْلِيفُ، وَذَلِكَ لَا يَوْجَدُ فِي الشَّاهِدِ إِلَّا بِحَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَا أَجْزَاءٍ وَأَبْعَاضٍ، وَمَا كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ ذَاتَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَا تُوصَفُ بِالْإِجْتِمَاعِ وَالْإِفْتِرَاقِ، وَالْكُلِّ وَالْبَعْضِ، وَالْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ، وَحُكْمُ الصِّفَةِ الذَّاتِيَّةِ حُكْمُ الذَّاتِ، قَالُوا: فَغَلِمَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّ الْكَلَامَ الْمُضَافَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ خُلِقَ لَهُ، أَحَدُهُ وَأَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ! كَمَا تَقُولُ: عَبْدُ اللَّهِ، وَخُلِقَ اللَّهُ، وَفَعَلَ اللَّهُ؛ فَضَاقَ بَابِنِ كَلَّابٍ وَأَصْرَابِهِ النَّفْسُ عِنْدَ هَذَا الْإِلْزَامِ؛ لِقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِالسُّنَنِ، وَتَرْكِهِمْ قَبُولَهَا، وَتَسْلِيمِهِمُ الْعِنَانَ إِلَى مَجَرَّدِ الْعَقْلِ، فَالْتَزَمُوا مَا قَالَتْهُ الْمُعْتَزِلَةُ، وَرَكِبُوا مُكَابَرَةَ الْعِيَانِ، وَخَرَقُوا الْإِجْمَاعَ الْمُنْعَقِدَ بَيْنَ الْكَافَّةِ الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ، وَقَالُوا لِلْمُعْتَزِلَةِ: الَّذِي ذَكَرْتُمُوهُ لَيْسَ بِحَقِيقَةِ الْكَلَامِ،

وإنَّما يُسمَّى ذلك كلامًا على المجاز؛ لكونه حكايةً أو عبارةً عنه، وحقيقة الكلام: معنَى قائمٌ بذاتِ المُتكلِّم... ثمَّ خرجوا من هذا إلى أنَّ إثباتَ الحرفِ والصَّوتِ في كلامِ اللهِ سبحانه تجسيمٌ، وإثباتُ اللَّغَةِ فيه تشبيهٌ! .

♦ وقال ابنُ تيميَّةَ: (اعلم أنَّ أصلَ القولِ بالعبارة أنَّ أبا محمَّدٍ عبدَ اللهِ بنَ سعيدٍ بنِ كُلابٍ هو أوَّلُ من قال في الإسلام: إنَّ معنى القرآنِ كلامُ اللهِ، وحروفُه ليست كلامَ اللهِ، فأخذ بنصفِ قولِ المُعْتَزِّلَةِ ونصفِ قولِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وكان قد ذهب إلى إثباتِ الصِّفاتِ لله تعالى، وخالف المُعْتَزِّلَةَ في ذلك، وأثبتَ الغُلُوَّ لله على العرشِ ومباينته المخلوقاتِ، وقرَّرَ ذلك تقريرًا هو أكملُ من تقريرِ أتباعه بعده. وكان النَّاسُ قد تكلموا فيمن بلغَ كلامَ غيره هل يقالُ له: حكايةٌ عنه أم لا؟ وأكثرُ المُعْتَزِّلَةِ قالوا: هو حكايةٌ عنه، فقال ابنُ كُلابٍ: القرآنُ العربيُّ حكايةٌ عن كلامِ اللهِ؛ ليس بكلامِ اللهِ! فجاء بعده أبو الحسنِ الأشعريُّ فسلكَ مَسْلَكَه في إثباتِ أكثرِ الصِّفاتِ وفي مسألةِ القرآنِ أيضًا، واستدركَ عليه قوله: إنَّ هذا حكايةٌ، وقال: الحكايةُ إنَّما تكونُ مثلَ المحكيِّ، فهذا يناسبُ قولَ المُعْتَزِّلَةِ، وإنَّما يناسبُ قولنا أن نقولَ: هو عبارةٌ عن كلامِ اللهِ؛ لأنَّ الكلامَ ليس من جنسِ العبارةِ) .

♦ وقال ابنُ تيميَّةَ أيضًا: (سائرُ المسائلِ ليس لابنِ كُلابٍ والأشعريُّ بها اختصاصٌ، بل ما قالاه غيرهما، إمَّا من أهلِ السُّنَّةِ والحديثِ، وإمَّا من غيرِهِم، بخلافِ ما قاله ابنُ كُلابٍ في مسألةِ الكلامِ، واتَّبَعَهُ عليه الأشعريُّ؛ فإنَّه لم يسبقِ ابنُ كُلابٍ إلى ذلك أحدٌ، ولا وافقه عليه من رؤوسِ الطوائفِ، وأصلُه في ذلك مسألةُ الصِّفاتِ الاختياريَّةِ، ونحوها من الأمورِ المُتعلِّقةِ بمشيئته وقُدْرته تعالى: هل تقومُ بذاته أم لا؟ فكان السَّلَفُ والأئمَّةُ يُشَبِّهُونَ ما يقومُ بذاته من الصِّفاتِ والأفعالِ مُطلقًا، والجَهْمِيَّةُ من المُعْتَزِّلَةِ وغيرِهِم يُكْرَهُونَ ذلك مُطلقًا، فوافقَ ابنُ كُلابٍ السَّلَفَ والأئمَّةَ في إثباتِ الصِّفاتِ، ووافقَ الجَهْمِيَّةَ في نفيِ قيامِ الأفعالِ به تعالى وما يتعلَّقُ بمشيئته وقُدْرته؛ ولهذا وغيره تكلمَ النَّاسُ فيمن اتَّبَعَهُ كالفلانسيِّ والأشعريِّ ونحوهما بأنَّ في أقوالِهِم بقايا من الاعتزالِ، وهذه البقايا أصلُها هو الاستدلالُ على حدوثِ العالمِ بطريقةِ الحركاتِ، فإنَّ هذا الأصلَ هو الَّذي أوقعَ المُعْتَزِّلَةَ في نفيِ الصِّفاتِ والأفعالِ)

♦ وقال ابنُ تيميَّةَ أيضًا: (النَّاسُ لهم في الكلامِ ثلاثةُ أقوالٍ: هل هو اسمُ اللَّفْظِ والمعنى جميعًا؟ كما هو قولُ الأكثرينَ، أم لِلْفَظِ فقط بشرطِ دلالتِهِ على المعنى؟ كقولِ المُعْتَزِّلَةِ وكثيرٍ من غيرِهِم، أو لِلْمَعْنَى المدلولِ عليه بِالْفَظِ، كقولِ الكُلابيَّةِ؟ ومن مُتأخِّريهِم من جعله مُشترَكًا بينهما اشتراكًا لفظيًّا. وأمَّا المُتكلِّمُ فيه أيضًا ثلاثةُ أقوالٍ: أحدها: أنَّه من فَعَلَ الكلامَ ولو في غيره، كما يقولُه المُعْتَزِّلَةُ. والثاني: من قامَ به الكلامُ وإن لم يفعلْهُ، ولم يكنْ مقدورًا مُرادًا له، كما يقولُه الكُلابيَّةُ. والثالثُ: من جَمَعَ الوصفينَ، فقامَ به الكلامُ وكانَ قادرًا عليه، ولا ريبَ أنَّ جُمهورَ الأئمِّ يقولونَ: لا يكونُ مُتكلِّمًا إلَّا من قامَ به الكلامُ، كما لا يكونُ مُتحرِّكًا إلَّا من قامتْ به الحركةُ، ولا عالمًا إلَّا من قامَ به العلمُ، ونحو ذلك، لكنَّ الكُلابيَّةَ اعتقدوا أنَّه لا تقومُ به الحوادثُ، فامتنعَ لهذا عندهم أن يكونَ الكلامُ مقدورًا له مُرادًا، قالوا: لأنَّ المقدورَ المُرادَ حادثٌ لا يكونُ صِفَةً لازمةً له) .

وقال ابن تيمية: (مذهب السلف والفقهاء والجمهور أن الكلام اسم للفظ والمعنى بطريق الغموم، فإذا قيل: تكلم فلان، كان المفهوم منه عند الإطلاق اللفظ والمعنى جميعاً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به)) ...، فالكلام إذا أُطلق يتناول اللفظ والمعنى جميعاً، وإذا سمي المعنى وحده كلاماً أو اللفظ وحده كلاماً فإنما ذاك مع قيد يدل على ذلك).

♦ وقال ابن تيمية أيضاً: (مسألة كلام الله تعالى: الناس فيها مضطربون، وقد بلغوا فيها إلى تسعة أقوال؛ أحدها: أن كلام الله ما يفيض على النفوس من المعاني التي تفيض؛ إما من العقل الفعال عند بعضهم، وإما من غيره، وهذا قول الصائبة والمتفلسفة الموافقين لهم كابن سينا.

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه، وهذا قول الرافضة المتأخرين، والزيدية، والمعتزلة، والجهمية. وثالثها: أنه معنى واحد قديم قائم بذات الله، هو الأمر والنهي، والخبر والاستخبار، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه، كالأشعري وغيره. ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول السالمية ونحوهم. وخامسها: أنه حروف وأصوات لكن تكلم به بعد أن لم يكن متكلمًا، وكلامه حادث في ذاته كما أن فعله حادث في ذاته بعد أن لم يكن متكلمًا ولا فاعلاً، وهذا قول الكرامية وغيرهم. وسادسها: أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، بكلام يقوم به، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام أزلي قديم، وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديمًا، وهذا هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة. وسابعها: كلامه يرجع إلى ما يحدث من علمه وإرادته القائم بذاته، وأبو عبد الله الرازي يقول بهذا القول في كتابه "المطالب العالية".

وثامنها: كلامه يتضمن معنى قائمًا بذاته وهو ما خلقه في غيره، ثم من هؤلاء من يقول في ذلك المعنى بقول ابن كلاب، وهذا قول أبي منصور المائريدي، ومنهم من يقول بقول المتفلسفة، وهذا قول طائفة من الملاحدة الباطنية متشيعهم ومتصوفهم.

وتاسعها: كلام الله مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات، وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه من متأخري الأشعرية).

♦ وقال ابن تيمية أيضاً: (السلف وأئمة السنة والحديث يقولون: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وكلامه ليس بمخلوق، بل كلامه صفة له قائمة بذاته...، متفقون على أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء، وكيف شاء...، يقولون: إنه صفة ذات وفعل، هو يتكلم بمشيئته وقدرته كلامًا قائمًا بذاته، وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم، فكل حي وصف بالكلام؛ كالملائكة، والبشر، والجن، وغيرهم، فكلامهم لا بد أن يقوم بأنفسهم، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم. والكلام صفة كمال لا صفة نقص، ومن تكلم بمشيئته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته، فكيف ينصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق؟! ولكن الجهمية والمعتزلة بنوا على أصلهم أن الرب لا يقوم به

صِفَةً؛ لَأَنَّ ذَلِكَ بَزَعِمَهُمْ يَسْتَلْزِمُ التَّخْسِيمَ وَالتَّشْبِيهَ الْمُمنْتَعِ؛ إِذِ الصِّفَةُ عَرَضٌ، وَالْعَرَضُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِجِسْمٍ. وَالْكَالِبِيَّةُ يَقُولُونَ: هُوَ مُتَّصِفٌ بِالصِّفَاتِ الَّتِي لَيْسَ لَهُ عَلَيْهَا قُدْرَةٌ، وَلَا تَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ، فَأَمَّا مَا يَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ فَإِنَّهُ حَادِثٌ، وَالرَّبُّ تَعَالَى لَا تَقُومُ بِهِ الْحَوَادِثُ، وَيُتْرَجَمُونَ الصِّفَاتِ الْاِخْتِيَارِيَّةَ بِمَسْأَلَةِ حُلُولِ الْحَوَادِثِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَلَّمَ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَنَادَاهُ حِينَ أَتَاهُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ كَانَ ذَلِكَ النِّدَاءُ وَالْكَلَامُ حَادِثًا. قَالُوا: فَلَوْ اتَّصَفَ الرَّبُّ بِهِ لَقَامَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ، قَالُوا: وَلَوْ قَامَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ لَمْ يَخْلُ مِنْهَا، وَمَا لَمْ يَخْلُ مِنَ الْحَوَادِثِ فَهُوَ حَادِثٌ، قَالُوا: وَلَأَنَّ كَوْنَهُ قَابِلًا لِنُتْلِكَ الصِّفَةِ إِنْ كَانَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ كَانَ قَابِلًا لَهَا فِي الْأَزَلِّ، فَيَلْزِمُ جَوَازُ وَجُودِهَا فِي الْأَزَلِّ، وَالْحَوَادِثُ لَا تَكُونُ فِي الْأَزَلِّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي وَجُودَ حَوَادِثٍ لَا أَوَّلَ لَهَا).

♦ وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَيْضًا: (كَلَامُ اللَّهِ: هَلْ هُوَ حَرْفٌ وَصَوْتُ أَمْ لَا؟) إِطْلَاقُ الْجَوَابِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ نَفْيًا وَإِتْبَاتًا خَطَأً، وَهِيَ مِنَ الْبِدْعِ الْمُؤَلَّدَةِ الْحَادِثَةِ بَعْدَ الْمِئَةِ الثَّلَاثَةِ، لَمَّا قَالَ قَوْمٌ مِنْ مُتَكَلِّمَةِ الصِّفَاتِيَّةِ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى أَنْبِيَائِهِ؛ كَالْتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَالَّذِي لَمْ يُنْزَلْهُ، وَالْكَلِمَاتِ الَّتِي كَوَّنَ بِهَا الْكَائِنَاتِ، وَالْكَلِمَاتِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَخَبَرِهِ - لَيْسَتْ إِلَّا مُجَرَّدَ مَعْنَى وَاحِدٍ، هُوَ صِفَةٌ وَاحِدَةٌ قَامَتْ بِاللَّهِ، إِنْ عَبَّرَ عَنْهَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ كَانَتْ التَّوْرَةُ، وَإِنْ عَبَّرَ عَنْهَا بِالْعَرَبِيَّةِ كَانَتْ الْقُرْآنُ، وَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْخَبَرَ صِفَاتٌ لَهَا لَا أَقْسَامٌ لَهَا، وَإِنَّ حُرُوفَ الْقُرْآنِ مَخْلُوقَةٌ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهَا، وَلَيْسَتْ مِنْ كَلَامِهِ؛ إِذْ كَلَامُهُ لَا يَكُونُ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، عَارِضُهُمْ آخَرُونَ مِنَ الْمُشْتَبَةِ فَقَالُوا: بَلِ الْقُرْآنُ هُوَ الْحُرُوفُ وَالْأَصْوَاتُ، وَتَوَهَّم قَوْمٌ أَنَّهُمْ يَعْنُونَ بِالْحُرُوفِ الْمِدَادَ، وَبِالْأَصْوَاتِ أَصْوَاتِ الْعِبَادِ، وَهَذَا لَمْ يَقُلْهُ عَالِمٌ، وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ؛ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَابْنِ خَالٍ صَاحِبِ الصَّحِيحِ فِي كِتَابِ خَلْقِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، وَغَيْرِهِ، وَسَائِرِ الْأُئِمَّةِ قَبْلَهُمْ وَبَعْدَهُمْ: اتِّبَاعُ التَّصَوُّصِ الثَّابِتَةِ وَاجْتِمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَهُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ جَمِيعُهُ كَلَامُ اللَّهِ، حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ كَلَامًا لغيرِهِ، وَلَكِنْ أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَلَيْسَ الْقُرْآنُ اسْمًا لِمُجَرَّدِ الْمَعْنَى، وَلَا لِمُجَرَّدِ الْحَرْفِ، بَلْ لِمَجْمُوعِهِمَا، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْكَلَامِ لَيْسَ هُوَ الْحُرُوفُ فَقَطْ، وَلَا الْمَعَانِي فَقَطْ، كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُتَكَلِّمَ النَّاطِقَ لَيْسَ هُوَ مُجَرَّدُ الرُّوحِ، وَلَا مُجَرَّدُ الْجَسَدِ، بَلْ مَجْمُوعُهُمَا، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحَّاحُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَأَصْوَاتِ الْعِبَادِ، لَا صَوْتِ الْقَارِئِ وَلَا غَيْرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَعْمَالِهِ، فَكَمَا لَا يُشَبِّهُهُ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَحَيَاتُهُ عِلْمَ الْمَخْلُوقِ وَقُدْرَتَهُ وَحَيَاتَهُ، فَكَذَلِكَ لَا يُشَبِّهُهُ كَلَامُهُ الْمَخْلُوقِ، وَلَا مَعَانِيَهُ تُشَبِّهُهُ مَعَانِيَهُ، وَلَا حُرُوفُهُ تُشَبِّهُهُ حُرُوفَهُ، وَلَا صَوْتُ الرَّبِّ يُشَبِّهُهُ صَوْتُ الْعَبْدِ، فَمَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ أَلْحَدَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ أَلْحَدَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ).

♦ وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَيْضًا: (قَوْلُ السَّلَفِ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، فَصَدُّوا بِهِ إِنْطَالَ قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقُمْ بِذَاتِهِ كَلَامًا؛ وَلِهَذَا قَالَ الْأُئِمَّةُ: كَلَامُ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ لَيْسَ بِبَائِنٍ مِنْهُ...)، وَقَوْلُ السَّلَفِ: مِنْهُ بَدَأَ، لَمْ يُرِيدُوا أَنَّهُ فَارَقَ ذَاتَهُ وَحَلَّ فِي غَيْرِهِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُفَارِقَ ذَاتَ اللَّهِ كَلَامُهُ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ صِفَاتِهِ؟! بَلْ قَالُوا: مِنْهُ بَدَأَ أَيُّ هُوَ

الْمُتَكَلِّمُ بِهِ، رَدًّا عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ قَالُوا: بَدَأَ مِنَ الْمَخْلُوقِ الَّذِي خُلِقَ فِيهِ. وَقَوْلُهُمْ: إِلَيْهِ يَعُودُ، أَي: عِلْمُهُ، فَلَا يَبْقَى فِي الْمَصَاحِفِ مِنْهُ حَرْفٌ، وَلَا فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ .

♦ وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَيْضًا: (قَالَ وَكَيْعُ بْنُ الْجَرَّاحِ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ اللَّهِ مَخْلُوقٌ.

فَقِيلَ لَهُ: مِنْ أَيْنَ قُلْتَ هَذَا؟ قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي } [السجدة: ١٣] ، وَلَا يَكُونُ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ مَخْلُوقٌ. وَهَذَا الْقَوْلُ قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: كَلَامُ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ، لَيْسَ بِبَائِنٍ مِنْهُ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ السَّلَفِ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَأَ وَمِنْهُ خَرَجَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ...، وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِ السَّلَفِ وَالْأَيْمَّةِ: إِنَّهُ مِنْهُ خَرَجَ وَمِنْهُ بَدَأَ، أَنَّهُ فَارَقَ ذَاتَهُ وَحَلَّ بِغَيْرِهِ؛ فَإِنَّ كَلَامَ الْمَخْلُوقِ إِذَا تَكَلَّمَ بِهِ لَا يَفَارِقُ ذَاتَهُ وَيَحُلُّ بِغَيْرِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ كَلَامُ اللَّهِ؟! قَالَ تَعَالَى: { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا } [الكهف: ٥] ، فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْكَلِمَةَ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، وَمَعَ هَذَا فَلَمْ تُفَارِقْ ذَاتَهُمْ. وَأَيْضًا فَالْصَّفَةُ لَا تُفَارِقُ الْمَوْصُوفَ وَتَحُلُّ بِغَيْرِهِ، لَا صِفَةُ الْخَالِقِ وَلَا صِفَةُ الْمَخْلُوقِ، وَالنَّاسُ إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَلَّغُوهُ عَنْهُ كَانَ الْكَلَامُ الَّذِي بَلَّغُوهُ كَلَامَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ بَلَّغُوهُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَأَصْوَاتِهِمْ، فَالْقُرْآنُ أَوَّلَى بِذَلِكَ، فَالْكَلَامُ كَلَامُ الْبَارِي، وَالصَّوْتُ صَوْتُ الْقَارِي؛ قَالَ تَعَالَى: { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ } [التوبة: ٦] . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ)) . وَلَكِنْ مَقْصُودُ السَّلَفِ الرَّدُّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْجَهْمِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي غَيْرِهِ، فَيَكُونُ قَدْ ابْتَدَأَ وَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْمَحَلِّ الَّذِي خُلِقَ فِيهِ، لَا مِنَ اللَّهِ، كَمَا يَقُولُونَ: كَلَامُهُ لِمُوسَى خَرَجَ مِنَ الشَّجَرَةِ، فَبَيَّنَ السَّلَفُ وَالْأَيْمَّةُ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنَ اللَّهِ بَدَأَ وَخَرَجَ، وَذَكَرُوا قَوْلَهُ: { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي } [السجدة: ١٣] ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْقَوْلَ مِنْهُ لَا مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقاتِ، وَمِنْ: هِيَ لَابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، فَإِنْ كَانَ الْمَجْرُورُ بِهَا عَيْنًا يَقُومُ بِنَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ صِفَةً لِلَّهِ، كَقَوْلِهِ: { وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ } [البقرة: ١٣] ، وَقَوْلُهُ فِي الْمَسِيحِ: { رُوحٌ مِنْهُ } [النساء: ١٧١] ، وَكَذَلِكَ مَا يَقُومُ بِالْأَعْيَانِ كَقَوْلِهِ: { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } [النحل: ٥٣] ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمَجْرُورُ بِهَا صِفَةً، وَلَمْ يُذَكَّرْ لَهَا مَحَلٌّ، كَانَ صِفَةً لِلَّهِ، كَقَوْلِهِ: { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي } [السجدة: ١٣] ، وَلِذَلِكَ قَدْ أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَنَّهُ نَزَلَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ مِنْهُ، رَدًّا عَلَى هَذَا الْمُبْتَدِعِ الْمُفْتَرِي وَأَمْثَالِهِ مِمَّنْ يَقُولُ إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: { أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } [الأنعام: ١١٤] ، وَقَالَ تَعَالَى: { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } [النحل: ١٠٢] ، وَرُوحُ الْقُدُسِ هُوَ جِبْرِيلُ، فَبَيَّنَ أَنَّ جِبْرِيلَ نَزَّلَهُ مِنَ اللَّهِ، لَا مِنْ هَوَاهُ، وَلَا مِنْ لَوْحٍ، وَلَا مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [الزمر: ١] ...، فَقَدْ بَيَّنَّ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ، فَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ بَعْضِ الْمَخْلُوقاتِ كَاللَّوْحِ أَوْ الْهَوَاءِ فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ، مُكَذِّبٌ لِكِتَابِ اللَّهِ، مُتَّبِعٌ لَغَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنَ مَا نَزَّلَهُ مِنْهُ، وَمَا نَزَّلَهُ مِنْ بَعْضِ الْمَخْلُوقاتِ كَالْمَطَرِ بِأَنَّهُ قَالَ: { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } [الرعد: ١٧]

فذكر المطر في غير موضع، وأخبر أنه نزل من السماء، والقرآن أخبر أنه منزل منه... ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المخفوظ لكان اليهود أكرم على الله من أمة محمد؛ لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح أن الله كتب لموسى التوراة، وأنزلها مكتوبة، فيكون بنو إسرائيل قد قرؤوا الألواح التي كتبها الله، وأما المسلمون فأخذوه عن محمد، ومحمد أخذ عن جبريل عن اللوح، فيكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل، وتكون منزلة بني إسرائيل أرفع من منزلة محمد صلى الله عليه وسلم على قول هؤلاء الجهمية! والله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه أنزل عليهم كتاباً لا يغسله الماء، وأنه أنزل عليه تلاوة لا كتابة، وفرقه عليهم لأجل ذلك، فقال: {وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء: ١٠٦] ، وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان: ٣٢] . ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله، وإنما وجدته مكتوبة، كانت العبارة عبارة جبريل، وكان القرآن كلام جبريل، ترجم به عن الله، كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاماً ولم يقدر أن يتكلم به! وهذا خلاف دين المسلمين. وإن احتج محتج بقوله: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} [التكوير: ١٩-٢٠] قيل له: فقد قال في الآية الأخرى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [الحاقة: ٤٠ - ٤٢] ، فالرسول في هذه الآية جبريل، والرسول في الآية الأخرى محمد، فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران! فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداء؛ ولهذا قال: {لَقَوْلُ رَسُولٍ} ، ولم يقل: ملك ولا نبي...، وإن احتج بقوله: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ} [الأنبياء: ٢] ، قيل له: هذه الآية حجة عليك، فإنه لما قال: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ} [الأنبياء: ٢] علم أن الذكر منه محدث، ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن التكررة إذا وصفت ميّرتها بين الموصوف وغيره، كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته، وما أكل إلا طعاماً حلالاً، ونحو ذلك، ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكنه الذي أنزل جديداً، فإن الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخر، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب، كما قال: {كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} [يس: ٣٩] ،... وكذلك قوله: {جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [الزخرف: ٣] لم يقل: (جعلناه) فقط حتى يظن أنه بمعنى خلقناه، ولكن قال: جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا أي: صيّرناه عربياً؛ لأنه قد كان قادراً على أن ينزله عجمياً وينزله عربياً، فلما أنزله عربياً كان قد جعله عربياً دون عجمي، وهذه المسألة من أصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم).

♦ وقال ابن تيمية أيضاً: (مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين، كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب والسنة، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة: أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل، وغير ذلك من كلامه، ليس ذلك مخلوقاً منفصلاً عنه، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته، فكلامه قائم بذاته، ليس مخلوقاً بائناً عنه، وهو يتكلم

بِمَشِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ مَخْلُوقٌ بَائِنٌ عَنْهُ، وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ: إِنَّ الْقُرْآنَ أَوْ التَّوْرَةَ أَوْ الْإِنْجِيلَ لَزِمَةٌ لِدَاتِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَهُوَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِمَشِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَلَا قَالُوا: إِنَّ نَفْسَ نَدَائِهِ لِمُوسَى أَوْ نَفْسَ الْكَلِمَةِ الْمُعَيَّنَةِ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ، بَلْ قَالُوا: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ، فَكَلَامُهُ قَدِيمٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ، وَكَلِمَاتُ اللَّهِ لَا نِهَايَةَ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } [الكهف: ١٠٩] ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ، وَبِالتَّوْرَةِ الْعِبْرِيَّةِ، فَالْقُرْآنُ الْعَرَبِيُّ كَلَامُ اللَّهِ...، وَقَدْ فَرَّقَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ إِيحَائِهِ إِلَى غَيْرِ مُوسَى وَبَيْنَ تَكْلِيمِهِ لِمُوسَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } [النساء: ١٦٣ - ١٦٥] فَرَّقَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ تَكْلِيمِهِ لِمُوسَى وَبَيْنَ إِيحَائِهِ لغيره، وَوَكَّدَ تَكْلِيمَهُ لِمُوسَى بِالْمَصْدَرِ، وَقَالَ تَعَالَى: { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ } [الشورى: ٥١] ، فَقَدْ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا عَلَى أَحَدِ الْأَوْجُهِ الثَّلَاثَةِ: إمَّا وَحْيًا، وَإِمَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِمَّا أَنْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ؛ فَجَعَلَ الْوَحْيَ غَيْرَ التَّكْلِيمِ. وَالتَّكْلِيمُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ كَانَ لِمُوسَى، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ نَادَاهُ كَمَا قَالَ: { وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ } [مريم: ٥٢] ، وَالنَّدَاءُ بِاتِّفَاقٍ أَهْلُ اللُّغَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا صَوْتًا مَسْمُوعًا، فَهَذَا مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْمُسْلِمِينَ وَجُمْهُورُهُمْ. وَأَهْلُ الْكِتَابِ يَقُولُونَ: إِنَّ مُوسَى نَادَاهُ رَبُّهُ نِدَاءً سَمِعَهُ بِأُذُنِهِ، وَنَادَاهُ بِصَوْتٍ سَمِعَهُ مُوسَى، وَالصَّوْتُ لَا يَكُونُ إِلَّا كَلَامًا، وَالكَلَامُ لَا يَكُونُ إِلَّا حُرُوفًا مَنْظُومَةً، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [الزمر: ١] .

♦ وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَيْضًا: (فِي السُّنَنِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْزِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ بِالْمَوْسِمِ فَيَقُولُ: ((أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ لِأُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي؟ فَإِنْ فَرِيشًا مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي!)) ، وَكَمَا لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ، فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدِيمٌ، لَمْ يَقُلْ وَاحِدًا مِنَ الْقَوْلِينَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَلَا غَيْرِهِمْ؛ بَلِ الْآثَارُ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، وَلَمَّا ظَهَرَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ، قَالُوا رَدًّا لِكَلَامِهِ: إِنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ...، وَأَوَّلُ مَنْ عَرَفَ أَنَّهُ قَالَ: مَخْلُوقٌ، الْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ وَصَاحِبُهُ الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ، وَأَوَّلُ مَنْ عَرَفَ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ قَدِيمٌ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ كَلَّابٍ، ثُمَّ افْتَرَقَ الَّذِينَ شَارَكُوهُ فِي هَذَا الْقَوْلِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الْكَلَامُ مَعْنَى وَاحِدٍ قَائِمٌ بِذَاتِ الرَّبِّ، وَمَعْنَى الْقُرْآنِ كُلِّهِ وَالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَسَائِرِ كُتُبِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ هُوَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ الَّذِي لَا يَتَعَدَّدُ وَلَا يَتَبَعَّضُ، وَالْقُرْآنُ الْعَرَبِيُّ لَمْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ، بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، وَقَالَ جُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ: هَذَا الْقَوْلُ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالْاضْطِرَارِّ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ مَعْنَى آيَةِ الْكُرْسِيِّ لَيْسَ مَعْنَى آيَةِ الدِّينِ، وَلَا مَعْنَى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ }

[الإخلاص: ١] معنى { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } [المسد: ١] ، فكيف بمعاني كلام الله كله في الكتب المنزلة، وخطابه لملائكته، وحسابه لعباده يوم القيامة، وغير ذلك من كلامه؟! ومنهم من قال: هو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزليّة لازمة لذاته، لم يزل ولا يزال موصوفاً بها، وكلا الحزبين يقول: إن الله تعالى لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وإنه لم يزل ولا يزال يقول: يا نوح، يا إبراهيم، يا أيها المرمل، يا أيها المدثر! ولم يقل أحد من السلف بواحد من القولين، ولم يقل أحد من السلف: إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله، ولا حكاية له، ولا قال أحد منهم: إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق، فضلاً عن أن يقول: إن صوتي به قديم أو غير مخلوق، بل كانوا يقولون بما دلّ عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله، والناس يقرؤونه بأصواتهم، ويكتبونه بمدادهم، وما بين اللوحين كلام الله، وكلام الله غير مخلوق...، وقال تعالى: { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ } [البروج: ٢١-٢٢] ، والمداد الذي يكتب به القرآن مخلوق، والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد، والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة، فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباري، والصوت الذي يقرأ به العبد صوت القارئ...، وقال تعالى: { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } [الكهف: ١٠٩] ، ففرق سبحانه بين المداد الذي يكتب به كلماته وبين كلماته، فالبحر وغيره من المداد الذي يكتب به الكلمات مخلوق، وكلمات الله غير مخلوقة...، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال: إن الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف، ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف، كما لم يقل أحد منهم: إن الصوت الذي سمعه موسى قديم، ولا إن ذلك النداء قديم، ولا قال أحد منهم: إن هذه الأصوات المسموعة من القراء هي الصوت الذي تكلم الله به، بل الآثار مستفيضة عنهم بالفرق بين الصوت الذي يتكلم الله به، وبين أصوات العباد، وكان أئمة السنة يعدّون من أنكر تكلمه بصوت: من الجهميّة، كما قال الإمام أحمد لما سئل عن قال: إن الله لا يتكلم بصوت، فقال: هؤلاء جهميّة، إنما يدورون على التعطيل) .

♦ وقال ابن تيمية أيضاً: (لم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وتابعيهم، لا من أهل السنة ولا من أهل البدعة، بل أول من عرف في الإسلام أنه جعل مسمى الكلام المعنى فقط هو عبد الله بن سعيد بن كلاب، وهو متأخر في زمن محنة أحمد بن حنبل، وقد أنكر ذلك عليه علماء السنة وعلماء البدعة، فيمتنع أن يكون الكلام الذي هو أظهر صفات بني آدم لم يعرفه أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاء من قال فيه قولاً لم يسبقه إليه أحد من المسلمين ولا غيرهم! فإن قالوا: فقد قال الله تعالى: { وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ } [المجادلة: ٨] ، وقال: { وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً } [الأعراف: ٢٠٥] ونحو ذلك. قيل: إن كان المراد أنهم قالوه بأنسيتهم سرّاً فلا حجة فيه، وهذا هو الذي ذكره المفسرون، قالوا: كانوا يقولون: سام عليك، فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم، أي: يقول بعضهم لبعض: لو كان نبياً غدبنا بقولنا له ما نقول، وإن قدر أنه أريد بذلك أنهم قالوه في قلوبهم، فهذا قول مقيد بالنفس، مثل قوله: ((عما حدثت به أنفسها)) ؛ ولهذا قالوا: { لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ } [المجادلة: ٨] ، فأطلقوا لفظ القول هنا، والمراد به ما قالوه بأنسيتهم؛ لأنه النجوى

والتَّحِيَّةُ الَّتِي نُهَوُا عَنْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهَوُا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ } [المجادلة: ٨] مع أَنَّ الأوَّلَ هو الَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ، وَعَلَيْهِ تَدُلُّ نِظَائِرُهُ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٌ مِنْهُ)) ، لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِهِ بِلِسَانِهِ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ ذَكَرَ اللَّهَ بِلِسَانِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: { وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ } [الأعراف: ٢٠٥] هُوَ الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ، وَالَّذِي يُقَيَّدُ بِالنَّفْسِ لَفْظُ الْحَدِيثِ، يُقَالُ: حَدِيثُ النَّفْسِ، وَلَمْ يَوْجَدْ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: كَلَامُ النَّفْسِ، وَقَوْلُ النَّفْسِ، كَمَا قَالُوا: حَدِيثُ النَّفْسِ...، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: { وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الملك: ١٣] فَالْمُرَادُ بِهِ الْقَوْلُ الَّذِي تَارَةً يُسَرُّ بِهِ فَلَا يَسْمَعُهُ الْإِنْسَانُ، وَتَارَةً يَجْهَرُ بِهِ فَيَسْمَعُونَهُ، كَمَا يُقَالُ: أَسَرَ الْقِرَاءَةَ، وَجْهَرَ بِهَا، وَصَلَاةُ السَّرِّ، وَصَلَاةُ الْجَهْرِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: قُولُوهُ بِالْسِتِّكُمْ أَوْ بِقُلُوبِكُمْ، وَمَا فِي النَّفْسِ لَا يُتَصَوَّرُ الْجَهْرُ بِهِ، وَإِنَّمَا يُجْهَرُ بِمَا فِي اللِّسَانِ، وَقَوْلُهُ: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ، يَقُولُ: { إِنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ فَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ الْقَوْلُ؟! كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السَّرَّ وَأَخْفَى } [طه: ٧] ، فَتَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ...، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { آيَتِكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا } [آل عمران: ٤١] قَدْ ذَكَرَ هَذَا فِي قَوْلِهِ: { آيَتِكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا } [مريم: ١٠] ، وَهَنَّاكَ لَمْ يَسْتَشِنْ شَيْئًا، وَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ، وَالْمَعْنَى: آيَتِكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ، لَكِنْ تَرْمِزُ لَهُمْ رَمَزًا كَنِظَائِرِهِ فِي الْقُرْآنِ، وَقَوْلُهُ: { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ } [مريم: ١١] هُوَ الرَّمْزُ...، وَقَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: زَوَّرْتُ فِي نَفْسِي مَقَالَةً أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَهَا ، حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: التَّزْوِيرُ: إِصْلَاحُ الْكَلَامِ وَتَهْيِئَتُهُ، قَالَ: وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: الْمَزْوَرُّ مِنَ الْكَلَامِ وَالْمَزْوُوقُ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْمُصْلَحُ الْحَسَنُ، وَقَالَ غَيْرُهُ: زَوَّرْتُ فِي نَفْسِي مَقَالَةً، أَي: هَيَّأْتُهَا لِأَقُولَهَا، فَلَفْظُهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدَّرَ فِي نَفْسِهِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَهُ، وَلَمْ يَقُلْهُ، فَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ قَوْلًا إِلَّا إِذَا قِيلَ بِاللِّسَانِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ قَوْلًا، لَكِنْ كَانَ مُقَدَّرًا فِي النَّفْسِ يُرَادُ أَنْ يُقَالَ، كَمَا يُقَدَّرُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يَحُجُّ وَأَنَّهُ يُصَلِّي وَأَنَّهُ يُسَافِرُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَيَكُونُ لِمَا يُرِيدُهُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ صَوْرَةٌ ذَهْنِيَّةٌ مُقَدَّرَةٌ فِي النَّفْسِ، وَلَكِنْ لَا يُسَمَّى قَوْلًا وَعَمَلًا إِلَّا إِذَا وُجِدَ فِي الْخَارِجِ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَكُونُ حَاجًّا وَمُصَلِّيًّا إِلَّا إِذَا وُجِدَتْ هَذِهِ الْأَفْعَالُ فِي الْخَارِجِ...، وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي يُحْكِي عَنِ الْأَخْطَلِ أَنَّهُ قَالَ:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا

جُعِلَ اللَّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ شِعْرِهِ، وَقَالُوا: إِنَّهُمْ فَتَشَوْا دَوَابِنَهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، وَهَذَا يُرَوَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَشَّابِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَفْظُهُ: إِنَّ الْبَيَانَ لَفِي الْفُؤَادِ، وَلَوْ اخْتَجَّ مُحْتَجٌّ فِي مَسْأَلَةٍ بِحَدِيثٍ أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَالُوا: هَذَا خَبَرٌ وَاحِدٌ، وَيَكُونُ مِمَّا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَصْدِيقِهِ وَتَلَقُّيهِ بِالْقَبُولِ، وَهَذَا

الْبَيْتُ لَمْ يَثْبُتْ نَقْلُهُ عَنْ قَائِلِهِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، لَا وَاحِدٍ وَلَا أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ، وَلَا تَلَقَّاهُ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَبُولِ، فَكَيْفَ يَثْبُتُ بِهِ أَذْنَى شَيْءٍ مِنَ اللُّغَةِ فَضْلاً عَنْ مُسَمَّى الْكَلَامِ؟! ثُمَّ يُقَالُ: مُسَمَّى الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ وَنَحْوَهُمَا لَيْسَ هُوَ مِمَّا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى قَوْلٍ شَاعِرٍ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا تَكَلَّمَ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَعَرَفُوا مَعْنَاهُ فِي لُغَتِهِمْ، كَمَا عَرَفُوا مُسَمَّى الرَّأْسِ وَالْيَدِ وَالرَّجْلِ، وَأَيْضاً فَالنَّاطِقُونَ بِاللُّغَةِ يُحْتَاجُ بِاسْتِعْمَالِهِمْ لِلْأَلْفَاظِ فِي مَعَانِيهَا لَا بِمَا يَذْكُرُونَهُ مِنَ الْحُدُودِ؛ فَإِنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ النَّاطِقِينَ لَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْهُمْ: إِنَّ الرَّأْسَ كَذَا، وَالْيَدَ كَذَا، وَالْكَلامَ كَذَا، وَاللَّوْنَ كَذَا، بَلْ يَنْطِقُونَ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ دَالَّةً عَلَى مَعَانِيهَا، فَتُعَرَفُ لُغَتُهُمْ مِنْ اسْتِعْمَالِهِمْ؛ فَعَلِمَ أَنَّ الْأَخْطَلَ لَمْ يُرِدْ بِهَذَا أَنْ يَذْكُرَ مُسَمَّى الْكَلَامِ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ يَقْصِدُ ذَلِكَ الْبَتَّةَ، وَإِنَّمَا أَرَادَ -إِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ- مَا فَسَّرَهُ بِهِ الْمُفَسِّرُونَ لِلشُّعْرِ أَيْ: أَصْلُ الْكَلَامِ مِنَ الْفُؤَادِ، وَهُوَ الْمَعْنَى، فَإِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ فَلَا تَتَّقُ بِهِ، وَهَذَا كَالْأَقْوَالِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، ذَكَرَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ...، وَبِالْجُمْلَةِ، فَمَنْ احتَاجَ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ مُسَمَّى الْكَلَامِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَالْفَرَسِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ وَسَائِرِ أَجْنَاسِ بَنِي آدَمَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ فَإِنَّهُ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَةِ طُرُقِ الْعِلْمِ، ثُمَّ هُوَ مِنَ الْمُؤَلَّدِينَ، وَلَيْسَ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْقُدَمَاءِ، وَهُوَ نَصْرَانِيٌّ كَافِرٌ مُثَلَّثٌ، وَالنَّصَارَى قَدْ أَخْطَؤُوا فِي مُسَمَّى الْكَلَامِ، فَجَعَلُوا الْمَسِيحَ الْقَائِمَ بِنَفْسِهِ هُوَ نَفْسَ كَلِمَةِ اللَّهِ! .

♦ وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَيْضاً: (كَانَ مِنْ قَوْلِهِمُ الَّذِي أَنْكَرَهُ النَّاسُ: إِخْرَاجُ الْحُرُوفِ عَنْ مُسَمَّى الْكَلَامِ، وَجَعْلُ دَلَالَةِ لَفْظِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا مَجَازاً، فَأَحَبَّ أَبُو الْمَعَالِي وَمَنْ اتَّبَعَهُ كَالرَّازِيِّ أَنْ يَخْلُصُوا مِنْ هَذِهِ الشَّنَاعَةِ فَقَالُوا: اسْمُ الْكَلَامِ يُقَالُ بِالْإِشْتِرَاكِ عَلَى الْمَعْنَى الْقَائِمِ بِنَفْسِهِ، وَعَلَى الْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ، وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ أَفْسَدُوا بِهِ أَصْلَ دَلِيلِهِمْ عَلَى الْمُعْتَزَلَةِ، فَإِنَّهُ إِذَا صَحَّ أَنَّ مَا قَامَ بِغَيْرِ اللَّهِ يَكُونُ كَلَاماً لَهُ حَقِيقَةً بَطَلَتْ حُجَّتُهُمْ عَلَى الْمُعْتَزَلَةِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ الْكَلَامَ إِذَا قَامَ بِمَحَلٍّ عَادَ حُكْمُهُ عَلَيْهِ، وَجَارَ حِينَئِذٍ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْكَلَامَ مَخْلُوقٌ، خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، وَهُوَ كَلَامُهُ حَقِيقَةً، وَلَزِمَهُمْ مِنَ الشَّنَاعَةِ مَا لَزِمَ الْمُعْتَزَلَةَ، حَيْثُ أَلَزَمَهُمُ السَّلَفُ وَالْأَثَمَةُ أَنْ تَكُونَ الشَّجَرَةُ هِيَ الْقَائِلَةُ لِمُوسَى: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} [طه: ١٤] ...، وَقَدْ بَيَّنَّا تَنَاقُضَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِقَرِيبٍ مِنْ مِئَةِ وَجْهِ عَقْلِيٍّ، وَكَانَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ قَدْ قَالَ لِلْفَقِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ فِي مَسْأَلَةِ الْقُرْآنِ: كَيْفَ يُعْقَلُ شَيْءٌ وَاحِدٌ هُوَ أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَخَبَرٌ وَاسْتِخْبَارٌ؟! فَقَالَ لَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ: مَا هَذَا بِأَوَّلِ إِشْكَالٍ وَرَدَ عَلَى مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّ) .

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ: (قَوْلُهُمْ فِي الْكَلَامِ: إِنَّهُ وَاحِدٌ لَا يُشَبِّهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا هُوَ بِلُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ، وَلَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ عَرَبِيٌّ أَوْ فَارِسِيٌّ أَوْ عِبْرَانِيٌّ، لَكِنَّ الْعِبَارَاتِ عَنْهُ تَكْثُرُ وَتَخْتَلِفُ، فَإِذَا قُرِئَ كَلَامُ اللَّهِ بِلُغَةِ الْعَرَبِ سُمِّيَ قُرْآنًا، وَإِذَا قُرِئَ بِلُغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ أَوْ السُّرْيَانِيَّةِ سُمِّيَ تَوْرَةً وَإِنْجِيلًا! فَإِنَّ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ أَفْسَدِ مَا يُعْلَمُ بِبِدْيَةِ الْعَقْلِ فَسَادُهُ، وَهُوَ كُفْرٌ، إِذَا فَهَمَهُ الْإِنْسَانُ وَأَصْرَرَ عَلَيْهِ فَقَدْ أَصْرَرَ عَلَى الْكُفْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ يَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَقَدْ يُتَرْجَمُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ أَوْ الْفَارِسِيَّةِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنَ الْأَلْسِنِ، وَمَعَ هَذَا إِذَا تُرْجِمَ بِالْعِبْرِيَّةِ لَمْ يَكُنْ هُوَ التَّوْرَةَ، وَلَا مِثْلَ التَّوْرَةِ، وَلَا مَعَانِيهِ مِثْلَ مَعَانِي التَّوْرَةِ، وَكَذَلِكَ التَّوْرَةُ تُقْرَأُ بِالْعِبْرِيَّةِ وَتُتَرْجَمُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالسُّرْيَانِيَّةِ، وَمَعَ هَذَا فَلَيْسَتْ مِثْلَ الْقُرْآنِ، وَلَا مَعَانِيهَا مِثْلَ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ الْإِنْجِيلُ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ يَقْرَأُ بِعِدَّةِ أَلْسِنٍ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ مَعَانِيهِ

ليست معاني التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ، فهل يقول مَنْ له عقلٌ أو دينٌ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ مُطْلَقًا إِذَا فُرِيَ بِالْعَرَبِيَّةِ كَانَ هُوَ الْقُرْآنَ...؟! فكيف يُقالُ في التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ إِذَا فُرِيَ بِالْعَرَبِيَّةِ كَانَ قُرْآنًا؟! وكذلك الْقُرْآنُ إِذَا تُرْجِمَ بِالْعَرَبِيَّةِ أَوْ السُّرْيَانِيَّةِ هل يقول مَنْ له عقلٌ أو له دينٌ: إِنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ الْمُنَزَّلُ عَلَى مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؟ وهل يقول عاقلٌ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ الْمُنَزَّلَ بِاللُّسْنَةِ الْمُخْتَلِفَةِ مَعْنَاهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ كَالْكَلَامِ الَّذِي يُتْرَجَمُ بِاللُّسْنَةِ مُتَعَدِّدٌ؟! الْعِلْمُ بِفَسَادِ هَذَا مِنْ أَوْضَحِ الْعُلُومِ الْبَدِهيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَقَائِلُ هَذَا لَوْ تَدَبَّرَ مَا قَالَ لَعَلِمَ أَنَّ الْمَجَانِينَ لَا يَقُولُونَ هَذَا!).

♦ وقال ابنُ تَيْمِيَّةٍ أيضًا: (أئِمَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمْ يُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ يَجْعَلُ لَفْظَ الْعَبْدِ بِالْقُرْآنِ أَوْ صَوْتَهُ بِهِ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْعِبَادِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْقُرْآنِ - غَيْرَ مَخْلُوقَةٍ، وَيَأْمُرُونَ بِعُقُوبَتِهِ بِالْهَجْرِ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ جَمَعَ بَعْضُ كَلَامِهِمْ فِي ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الْخَلَّالُ فِي (كِتَابِ السُّنَّةِ)، وَمِنْ الْمَشْهُورِ فِي (كِتَابِ صَرِيحِ السُّنَّةِ) لِمُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبْرِيِّ وَهُوَ مُتَوَاتِرٌ عَنْهُ، لَمَّا ذَكَرَ الْكَلَامَ فِي أَبْوَابِ السُّنَّةِ قَالَ: وَأَمَّا الْقَوْلُ فِي أَلْفَاظِ الْعِبَادِ بِالْقُرْآنِ، فَلَا أَثَرَ فِيهِ نَعْلَمُهُ عَنْ صَحَابِيٍّ مَضَى، وَلَا عَنْ تَابِعِيٍّ قَفَا إِلَّا عَمَّنْ فِي قَوْلِهِ الشِّفَاءُ وَالْغِنَاءُ، وَفِي اتِّبَاعِهِ الرُّشْدُ وَالْهُدَى، وَمَنْ يَقُومُ لَدَيْنَا مَقَامَ الْأَئِمَّةِ الْأُولَى: أَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ حَنْبَلٍ، فَإِنَّ أَبَا إِسْمَاعِيلَ التِّرْمِذِيَّ حَدَّثَنِي قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنِ حَنْبَلٍ يَقُولُ: اللَّفْظِيَّةُ جَهْمِيَّةٌ، يَقُولُ اللَّهُ: {حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: ٦]، مِمَّنْ يَسْمَعُ؟! قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَسَمِعْتُ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِنَا - لَا أَحْفَظُ أَسْمَاءَهُمْ - يَحْكُونَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَنْ قَالَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ، وَمَنْ قَالَ: غَيْرُ مَخْلُوقٍ، فَهُوَ مُبْتَدَعٌ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَلَا قَوْلٌ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا يَجُوزُ أَنْ نَقُولَهُ غَيْرَ قَوْلِهِ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَنَا إِمَامٌ نَأْتُمُّ بِهِ سِوَاهُ، وَفِيهِ الْكِفَايَةُ وَالْمَقْنَعُ، وَهُوَ الْإِمَامُ الْمُتَّبَعُ).

وقال ابنُ تَيْمِيَّةٍ: (هذه الْمَسْأَلَةُ لَهَا أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ، وَقَدْ نَصَّ عَلَيْهَا الْأَئِمَّةُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ، وَسَائِرُ أئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْمُخَالِفِينَ لِلْقَدَرِيَّةِ، وَاتَّفَقَتْ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مُحَدَّثَةٌ.

وَالْأَصْلُ الثَّانِي: مَسْأَلَةُ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَقِرَاءَتِهِ، وَاللَّفْظُ بِهِ، هَلْ يُقَالُ: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ أَوْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؟ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ قَدْ نَصَّ عَلَى رَدِّ الْمَقَالَتَيْنِ هُوَ وَسَائِرُ أئِمَّةِ السُّنَّةِ مِنَ الْمُسْتَفْهِمِينَ وَالْمُسْتَأَخِرِينَ، لَكِنْ كَانَ رَدُّهُ عَلَى اللَّفْظِيَّةِ النَّافِيَةِ أَكْثَرَ وَأَشْهَرَ وَأَغْلَظَ لَوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ قَوْلَهُمْ يُفْضِي إِلَى زِيَادَةِ التَّعْطِيلِ وَالتَّنْفِي، وَجَانِبُ التَّنْفِي أَبَدًا شَرٌّ مِنْ جَانِبِ الْإِثْبَاتِ؛ فَإِنَّ الرُّسُلَ جَاءُوا بِالْإِثْبَاتِ الْمُفْصَّلِ فِي صِفَاتِ اللَّهِ، وَبِالتَّنْفِي الْمُجْمَلِ، فَوَصَفُوهُ بِالْعِلْمِ وَالرَّحْمَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْكَلَامِ وَالْعُلُومِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ، وَفِي التَّنْفِي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤]، وَأَمَّا الْخَارِجُونَ عَنْ حَقِيقَةِ الرِّسَالَةِ مِنَ الصَّابِئَةِ وَالْفَلَّاسِفَةِ وَالْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَمَنْ تَجَهَّمَهُ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ فَطَرِيقَتُهُمُ التَّنْفِي الْمُفْصَّلُ: لَيْسَ كَذَا، لَيْسَ كَذَا، وَفِي الْإِثْبَاتِ أَمْرٌ مُجْمَلٌ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: الْمُعْطَلُّ

أَعْمَى، وَالْمُشَبَّهُ أَعْشى، فَأَهْلُ التَّشْبِيهِ مَعَ صَلَالِهِمْ خَيْرٌ مِنْ أَهْلِ التَّعْطِيلِ. الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ أَحْمَدَ إِنَّمَا ابْتُلِيَ بِالْجَهْمِيَّةِ الْمُعْطَلَةِ فَهُمْ خُصُومُهُ، فَكَانَ هَمُّهُ مُنْصَرِفًا إِلَى رَدِّ مَقَالَتِهِمْ دُونَ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَالْمَكَانِ مَنْ هُوَ دَاعٍ إِلَى زِيَادَةِ فِي الْإِثْبَاتِ، كَمَا ظَهَرَ مَنْ كَانَ يَدْعُو إِلَى زِيَادَةِ فِي النَّفْيِ، وَالْإِنْكَارُ يَقَعُ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ، وَالْبُخَارِيُّ لَمَّا ابْتُلِيَ بِاللَّفْظِيَّةِ الْمُشْتَبَةِ ظَهَرَ إِنْكَارُهُ عَلَيْهِمْ كَمَا فِي تَرَاجِمِ آخِرِ كِتَابِ الصَّحِيحِ، وَكَمَا فِي كِتَابِ خَلْقِ الْأَفْعَالِ).

♦ وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَيْضًا: (الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَامُ غَيْرِهِ، وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ عِبَارَةٌ، بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدَأًا، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلَّغًا مُؤَدِّيًا، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ، لَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ حُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِي دُونَ الْحُرُوفِ).

♦ وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَيْضًا: (السَّلَفُ قَالُوا: كَلَامُ اللَّهِ مُنْزَلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَقَالُوا: لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ، فَيَبْنُوا أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ قَدِيمٌ، أَيْ: جَنْسُهُ قَدِيمٌ لَمْ يَزَلْ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ: إِنَّ نَفْسَ الْكَلَامِ الْمُعَيَّنِ قَدِيمٌ، وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ: الْقُرْآنُ قَدِيمٌ، بَلْ قَالُوا: إِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ مُنْزَلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ بِمَشِيئَتِهِ كَانَ الْقُرْآنُ كَلَامَهُ، وَكَانَ مُنْزَلًا مِنْهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَ ذَلِكَ أَزَلِيًّا قَدِيمًا بِقَدَمِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ، فَجَنْسُ كَلَامِهِ قَدِيمٌ، فَمَنْ فَهِمَ قَوْلَ السَّلَفِ وَفَرَّقَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ زَالَتْ عَنْهُ الشُّبُهَاتُ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْمُعْضِلَةِ الَّتِي اضْطَرَبَ فِيهَا أَهْلُ الْأَرْضِ).

♦ وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَيْضًا: (كَوْنُ الرَّبِّ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ كَمَا هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْحَدِيثِ مَبْنِيٌّ عَلَى مُقَدِّمَتَيْنِ: عَلَى أَنَّهُ تَقُومُ بِهِ الْأُمُورُ الْاِخْتِيَارِيَّةُ، وَأَنَّ كَلَامَهُ لَا نِهَايَةَ لَهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدَادًا } [الكهف: ١٠٩]، وَقَالَ: { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ } [لقمان: ٢٧]، وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ يُرَادُ بِهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَا يَنْقُضِي وَلَا يَنْفَدُ، بَلْ لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ بِكَلَامٍ يَقُومُ بِذَاتِهِ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا نِهَايَةَ لَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وَأَمَّا فِي الْمَاضِي فَلَهُمْ قَوْلَانِ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَهُ بَدَايَةٌ فِي الْمَاضِي، وَأَيْمَنُتْهُمْ يَقُولُونَ: لَا بَدَايَةَ لَهُ فِي الْمَاضِي كَمَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ أَزَلًا وَأَبَدًا مِنَ الْكَلِمَاتِ، وَالْكَلَامُ صِفَةُ كَمَالٍ، وَالْمُتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَكْمَلُ مَنْ لَا يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، بَلْ لَا يُعْقَلُ مُتَكَلِّمٌ إِلَّا كَذَلِكَ، وَلَا يَكُونُ الْكَلَامُ صِفَةً كَمَالٍ إِلَّا إِذَا قَامَ بِالْمُتَكَلَّمِ، وَأَمَّا الْأُمُورُ الْمُنْفَصِلَةُ عَنِ الذَّاتِ فَلَا يَتَصِفُ بِهَا الْبَتَّةُ، فَضَلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ صِفَةً كَمَالٍ أَوْ نَقْصٍ، قَالُوا: وَلَمْ نَعْرِفْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ لَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَلَا غَيْرِهِمْ مِنْ أَيْمَنَةِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ أَنْكَرَ هَذَا الْأَصْلَ، وَلَا قَالَ: إِنَّهُ يَمْتَنِعُ وُجُودُ كَلِمَاتٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا لَا فِي الْمَاضِي وَلَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَلَا قَالُوا: مَا يَسْتَلْزِمُ امْتِنَاعَ هَذَا، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ أَهْلُ الْكَلَامِ الْمُحَدِّثِ الْمُتَبَدِّعِ الْمَذْمُومِ عِنْدَ السَّلَفِ، الَّذِينَ أَخَذُوا فِي الْإِسْلَامِ نَفْيَ صِفَاتِ اللَّهِ وَعُلُوَّهُ عَلَى

خَلَقَهُ، وَرُؤْيَاهُ فِي الْآخِرَةِ، وَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ، ثُمَّ قَالُوا: إِنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مَخْلُوقٍ مُنْفَصِلٍ عَنِ اللَّهِ! قَالُوا: وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ؛ لِأَنَّا اسْتَدَلَّلْنَا عَلَى خُذُوثِ الْعَالَمِ بِخُذُوثِ الْأَجْسَامِ، وَإِنَّمَا اسْتَدَلَّلْنَا عَلَى خُذُوثِهَا بِقِيَامِ الْحَوَادِثِ بِهَا، وَأَنَّ مَا لَا يَنْفَكُ عَنِ الْحَوَادِثِ فَهُوَ حَادِثٌ، لَا مُتَنَاعَ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا، فَلَوْ قُلْنَا: إِنَّهُ تَقَوْمُ بِهِ الصِّفَاتُ وَالْكَلَامُ لَزِمَ قِيَامُ الْحَوَادِثِ بِهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ أَعْرَاضُ حَادِثَةٍ، فَقَالَ لَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ: أَخَذْتُمْ بِدَعَا تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَ بِهَا الْإِسْلَامَ، فَلَا لِلْإِسْلَامِ نَصْرَتُمْ، وَلَا لَعُدُوهُ كَسْرَتُمْ، بَلْ سَلَّطْتُمْ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ، فَالْعَالِمُونَ بِنُصُوصِ الْمُرْسَلِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ خَالَفْتُمُوهَا، وَأَنْتُمْ أَهْلُ بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ، وَالْعَالِمُونَ بِالْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ يَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ قُلْتُمْ مَا يُخَالِفُ الْمَعْقُولَ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ خَطَأٍ وَجَهَالَةٍ، وَالْفَلَاسِفَةُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ تَسَلَّطُوا عَلَيْكُمْ بِهَا، وَرَأَوْا أَنَّكُمْ خَالَفْتُمْ صَرِيحَ الْعَقْلِ، وَالْفَلَاسِفَةُ أَجْهَلُ مِنْكُمْ بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ فِي الْإِلَهِيَّاتِ، لَكِنْ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّ مَا جِئْتُمْ بِهِ هُوَ الشَّرْعُ، وَقَدْ رَأَوْهُ يُخَالِفُ الْعَقْلَ صَارُوا أَبْعَدَ عَنِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ مِنْكُمْ، لَكِنْ عَارِضُكُمْ بِأَدِلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ، بَلْ وَشَرْعِيَّةٍ ظَهَرَ بِهَا عَجْزُكُمْ فِي هَذَا الْبَابِ عَنِ بَيَانِ حَقِيقَةِ الصَّوَابِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا زَادَهُمْ ضَلَالًا فِي أَنْفُسِهِمْ، وَتَسَلَّطُوا عَلَيْكُمْ، وَلَوْ سَلَكْتُمْ مَعَهُمْ طَرِيقَ الْعَارِفِينَ بِحَقِيقَةِ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ، لَكَانَ ذَلِكَ أَنْصَرَ لَكُمْ، وَأَتَّبَعَ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ جَاهَدَ الْكُفَّارَ بَنُوْعٍ مِنَ الْكُذِبِ وَالْعُدْوَانِ، وَأَوْهَمَهُمْ أَنَّ هَذَا يَدْخُلُ فِي حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، فَصَارَ مَا عَرَفَهُ أَوْلَئِكَ مِنْ كُذِبِ هَؤُلَاءِ وَعُدْوَانِهِمْ مِمَّا يُوْجِبُ الْقَدْحَ فِيهِمَا أَدْعَاوَهُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ، وَلَمَّا رَأَى أَوْلَئِكَ فِي الْمُلْكِ وَالرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْمُخَادَعَةِ وَالْمُحَالِ سَلَكُوا طَرِيقًا أَبْلَغَ فِي الْمُخَادَعَةِ وَالْمُحَالِ مِنْ طَرِيقِ أَوْلَئِكَ الْمُتَبَدِّعِينَ الضَّالِّينَ، فَسَلَّطُوا عَلَيْهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى خُرُوجِهِمْ عَنِ الدِّينِ...، فَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ مَحْضٌ يَتَصَادَقُ عَلَيْهِ صَرِيحُ الْمَعْقُولِ وَصَحِيحُ الْمَنْقُولِ، وَالْأَقْوَالُ الْمُخَالَفَةُ لِذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهَا مُجْتَهِدِينَ، مَغْفُورٌ لَهُمْ خَطُؤُهُمْ، فَلَا يَمْلِكُونَ نَصْرَهَا بِالْأَدِلَّةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَلَا الْجَوَابَ عَمَّا يَقْدَحُ فِيهَا بِالْأَجُوبَةِ الْعِلْمِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الصَّحِيحَةَ لَا تَدُلُّ إِلَّا عَلَى الْقَوْلِ الْحَقِّ، وَالْأَجُوبَةُ الصَّحِيحَةُ الْمُفْسِدَةُ لِحُجَّةِ الْخَصْمِ لَا تَفْسِدُهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ بَاطِلَةً، فَإِنَّ مَا هُوَ بَاطِلٌ لَا يَقُومُ عَلَيْهِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ، وَمَا هُوَ حَقٌّ لَا يُمَكِّنُ دَفْعُهُ بِحُجَّةٍ صَحِيحَةٍ.

وما أحسن ما ذكره ابن تيمية في الرد على الأشاعرة في مسألة الكلام: (قيل لهم: عندكم هو معنى واحد، لا يتبعض ولا يتعدد؛ فموسى فهم المعنى كله أو بعضه؟ إن قلتم: كله، فقد علم الله كله، وإن قلتم: بعضه، فقد تبعض، وعندكم لا يتبعض).

♦ وقال ابن القيم: (هَبْ أَنْ ذَلِكَ يُمْكِنُ فِي مَوْضِعٍ وَاثْنَيْنِ وَثَلَاثَةٍ وَعَشْرَةٍ، أَفَيَسُوعُ حَمَلُ أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ وَأَرْبَعَةِ آلَافٍ مَوْضِعٍ كُلُّهَا عَلَى الْمَجَازِ، وَتَأْوِيلُ الْجَمِيعِ بِمَا يُخَالِفُ الظَّاهِرَ؟ وَلَا تَسْتَبْعِدُ قَوْلَنَا: أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ؛ فَكُلُّ آيَةٍ وَكُلُّ حَدِيثٍ إِلَهِيٍّ وَكُلُّ حَدِيثٍ فِيهِ الْإِخْبَارُ عَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ يَقُولُ، وَكُلُّ أَثَرٍ فِيهِ ذَلِكَ، إِذَا اسْتَقَرَّتْ زَادَتْ عَلَى هَذَا الْعَدَدِ، وَيَكْفِي أَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ وَأَحَادِيثُ الرُّؤْيَةِ وَأَحَادِيثُ الْحِسَابِ، وَأَحَادِيثُ تَكْلِيمِ اللَّهِ لِمَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَحَادِيثُ تَكْلِيمِ اللَّهِ لِمُوسَى، وَأَحَادِيثُ تَكْلِيمِهِ عِنْدَ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ،

وأحاديثُ تكَلِّمُه بالوحي، وأحاديثُ تكليمه للشُّهداء، وأحاديثُ تكليم كافة عبادِه يومَ القيامةِ بلا ترجمانٍ ولا واسطةٍ، وأحاديثُ تكليمه للشُّفعاءِ يومَ القيامةِ حينَ يَأْذُنُ لهم في الشُّفاعةِ، إلى غيرِ ذلك؛ إذ كُلُّ هذا وأمثاله وأضعافه مجازٌ لا حقيقةَ له! سُبْحانَكَ هذا بهتانٌ عظيمٌ! بل نُشهِدُكَ ونُشهِدُ ملائكتَكَ وحَمَلَةَ عَرْشِكَ وجميعَ خَلْقِكَ أنَّكَ أَحَقُّ بهذه الصِّفةِ وأولى من كُلِّ أَحَدٍ، وأنَّ البَحَرَ لو أَمَدَّهُ من بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ، وكانت أشجارُ الأرضِ أَقلامًا يُكْتَبُ بها ما تَتَكَلَّمُ به، لَنَفِدَتِ البِحارُ والأقلامُ، ولم تَنفَدْ كَلِماتُكَ .

أَقُولُ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي صِفَةِ الْكَلَامِ:

١- عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَالِحٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} [الزمر: ٢٨] ، قَالَ: (غَيْرَ مَخْلُوقٍ) .

٢- عن مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ الدُهْنِيِّ قَالَ: قُلْتُ لَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ: إِنَّهُمْ يَسْأَلُونَ عَنِ الْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ هُوَ؟ قَالَ: (لَيْسَ بِخَالِقٍ وَلَا مَخْلُوقٍ، وَلَكِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ) .

٣- قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ دِينَارٍ يَقُولُ: (أَدْرَكْتُ مَشَايخَنَا مِنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً يَقُولُونَ: (الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ) .

٤- عن أَبِي النَّضْرِ هَاشِمِ بْنِ الْقَاسِمِ قَالَ: دَعَانَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ شَكْلَةَ، وَأَحْضَرَ بَشْرًا الْمَرْيَسِيَّ؛ أَرَادَ ضَرْبَ عُنُقِهِ، فَقَالَ لَنَا: مَا تَقُولُونَ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: (الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ)، فَقَالَ: لِمَ لَمْ نَقُلْ: كَلَامُ اللَّهِ وَنَسَكْتُ؟ قَالَ: (قُلْتُ: لِأَنَّ هَذَا الْعَدُوُّ لِلَّهِ قَالَ: مَخْلُوقٌ، فَلَمْ نَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ نَقُولَ: غَيْرُ مَخْلُوقٍ) .

٥- قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: (قُلْنَا لِلْجَهْمِيَّةِ: مَنْ الْقَائِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ [المائدة: ١١٦] ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ هُوَ الْقَائِلُ؟ قَالُوا: فَيَكُونُ اللَّهُ شَيْئًا فَيُعْبَرُ عَنِ اللَّهِ، كَمَا كَوَّنَ شَيْئًا فَعَبَّرَ لِمُوسَى! قُلْنَا: فَمَنْ الْقَائِلُ: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ} [الأعراف: ٦-٧] ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ؟ قَالُوا: هَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا يُكُونُ شَيْئًا، فَيُعْبَرُ عَنِ اللَّهِ. قُلْنَا: قَدْ أَعْظَمْتُمْ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ حِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ! فَشَبَّهْتُمُوهُ بِالْأَصْنَامِ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْأَصْنَامَ لَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَزُولُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. فَلَمَّا ظَهَرَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ يَتَكَلَّمُ، وَلَكِنَّ كَلَامَهُ مَخْلُوقٌ.

قُلْنَا: وَكَذَلِكَ بَنُو آدَمَ كَلَامُهُمْ مَخْلُوقٌ، فَقَدْ شَبَّهْتُمْ اللَّهَ بِخَلْقِهِ حِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ كَلَامَهُ مَخْلُوقٌ، ففِي مَذْهَبِكُمْ قَدْ كَانَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ لَا يَتَكَلَّمُ حَتَّى يَخْلُقَ الْكَلَامَ، وَكَذَلِكَ بَنُو آدَمَ كَانُوا لَا يَتَكَلَّمُونَ حَتَّى يَخْلُقَ اللَّهُ لَهُمْ كَلَامًا، وَقَدْ جَمَعْتُمْ بَيْنَ كُفْرٍ وَتَشْبِيهِ! وَتَعَالَى اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ، وَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ وَلَا يَتَكَلَّمُ حَتَّى يَخْلُقَ الْكَلَامَ، وَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ كَانَ لَا يَعْلَمُ حَتَّى يَخْلُقَ عِلْمًا فَعَلِمَ، وَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ كَانَ وَلَا قُدْرَةَ لَهُ حَتَّى يَخْلُقَ لِنَفْسِهِ الْقُدْرَةَ، وَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ قَدْ كَانَ وَلَا نَوْرَ لَهُ حَتَّى يَخْلُقَ لِنَفْسِهِ نَوْرًا، وَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ كَانَ وَلَا عَظْمَةً لَهُ حَتَّى يَخْلُقَ لِنَفْسِهِ عَظْمَةً!) .

وعن أبي بكرٍ الأثرم قال: قال العباس بن عبد العظيم النخعي لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، قوم هاهنا حدّثوا، يقولون: لا نقول: مخلوق ولا غير مخلوق! قال: (هؤلاء أضُرُّ من الجهميّة على الناس، ويلكم! فإن لم تقولوا: ليس بمخلوق، فقولوا: مخلوق!)، فقال العباس: ما تقول يا أبا عبد الله؟ فقال: (الذي اعتقده وأذهب إليه، ولا أشك فيه، أن القرآن غير مخلوق. سبحان الله! ومن يشك في هذا؟! سبحان الله! في هذا شك؟! قال الله عز وجل: { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } [الأعراف: ٥٤] ، ففرّق بين الخلق والأمر. القرآن من علم الله، ألا تراه يقول: { عَلَّمَ الْقُرْآنَ } [الرحمن: ٢] ، والقرآن فيه أسماء الله عز وجل، أي شيء تقولون؟! ألا تقولون: إن أسماء الله عز وجل غير مخلوقة؟ من زعم أن أسماء الله عز وجل مخلوقة فقد كفر، لم يزل الله عز وجل قديراً، عليماً، عزيزاً، حكيمًا، سميعًا، بصيرًا، لسنا نشك أن أسماء الله ليست بمخلوقة، ولسنا نشك أن علم الله تبارك وتعالى ليس بمخلوق، وهو كلام الله عز وجل، ولم يزل الله عز وجل حكيمًا. وأي كُفر أبين من هذا؟! وأي كُفر أكفر من هذا؟! إذا زعموا أن القرآن مخلوق فقد زعموا أن أسماء الله مخلوقة، وأن علم الله مخلوق! ولكن الناس يتهاونون بهذا، ويقولون: إنما يقولون: القرآن مخلوق، فيتهاونون، ويظنون أنه هين، ولا يدرون ما فيه من الكُفر) .

٦- قال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: (سمعتُ عبيد الله بن سعيد يقول: سمعتُ يحيى بن سعيد يقول: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة. قال أبو عبد الله: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلّو المبيّن المثبت في المصحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب؛ فهو كلام الله ليس بخلق، قال الله تعالى: { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [العنكبوت: ٤٩] ، وقال إسحاق بن إبراهيم: فأما الأوعية فمن يشك في خلقها؟) .

٧- قال ابن جرير الطبري: (القرآن كلام الله وتنزيله؛ إذ كان من معاني توحيده، فالصواب من القول في ذلك عندنا أنه كلام الله غير مخلوق كيف كتبت وحيث تلي وفي أي موضع قرئ؛ في السماء وجد، وفي الأرض حيث حفظ، في اللوح المحفوظ كان مكتوبًا، وفي ألواح صبيان الكتاب مرسومًا، في حجر نقش، أو في ورق خط، أو في القلب حفظ، وبلسان لفظ، فمن قال غير ذلك أو ادّعى أن قرآنًا في الأرض أو في السماء سوى القرآن الذي نتلوه بالسنن ونكتبه في مصاحفنا، أو اعتقد غير ذلك بقلبه، أو أضمره في نفسه، أو قاله بلسانه دائمًا به؛ فهو بالله كافر، حلال الدم، بريء من الله، والله منه بريء، بقول الله عز وجل: { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ } [البروج: ٢١-٢٢] ، وقال -وقوله الحق- عز وجل: { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ } [التوبة: ٦] فأخبر جل ثناؤه أنه في اللوح المحفوظ مكتوب، وأنه من لسان محمد صلى الله عليه وسلم مسموع، وهو قرآن واحد من محمد صلى الله عليه وسلم مسموع، في اللوح المحفوظ مكتوب، وكذلك هو في الصدور محفوظة، وبالسُّنن الشيوخ والشباب متلّو) .

٨- عدد اللالكائي أسماء أكثر من خمسمئة عالم من علماء المسلمين في مختلف الأعصار ومن عدّة أمصار ممن يقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وقال في آخر كلامه: (فهؤلاء خمسمئة وخمسون نفسًا أو أكثر من

التَّابِعِينَ وَاتَّبَاعِ التَّابِعِينَ، وَالْأُئِمَّةَ الْمَرْضِيِّينَ، سِوَى الصَّحَابَةِ الْخَيْرِينَ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ، وَمُضِيِّ السِّنِينَ وَالْأَعْوَامِ، وَفِيهِمْ نَحْوُ مِنْ مِئَةِ إِمَامٍ مِمَّنْ أَخَذَ النَّاسُ بِقَوْلِهِمْ، وَتَدَيَّنُوا بِمَذَاهِبِهِمْ، وَلَوْ اشْتَغَلْتُ بِنَقْلِ قَوْلِ الْمُحَدِّثِينَ لَبَلَغْتُ أَسْمَاؤَهُمْ أُلُوفًا كَثِيرَةً، لَكِنِّي اخْتَصَرْتُ وَحَذَفْتُ الْأَسَانِيدَ لِلَاخْتِصَارِ، وَنَقَلْتُ عَنْ هَؤُلَاءِ عَصْرًا بَعْدَ عَصْرٍ، لَا يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ مُنْكَرٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ قَوْلَهُمْ اسْتَتَابَهُ أَوْ أَمَرُوا بِقَتْلِهِ أَوْ نَفَيْهِ أَوْ صَلَّيْهِ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْأُمَّةِ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، جَعَدُ بْنُ دِرْهَمٍ فِي سِنِي نَيْفٍ وَعِشْرِينَ وَمِئَةً، ثُمَّ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ .

وبهذا يَتَبَيَّنُ بوضوحٍ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مُتَّصِفٌ بِصِفَةِ الْكَلَامِ أَرْأَى وَأَبْدَأَ، لَا بِدَايَةٍ لِكَلَامِهِ وَلَا نِهَايَةَ لَهُ، وَصِفَةُ الْكَلَامِ صِفَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ذَاتِيَّةٌ فِعْلِيَّةٌ، فَهِيَ ذَاتِيَّةٌ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَا بِدَايَةَ لِلاتِّصَافِ بِهَا، وَفِعْلِيَّةٌ بِكَوْنِهَا تَعَلَّقُ بِالْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ، فَكَلَامُ اللَّهِ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ، يَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ، كَيْفَ شَاءَ، وَكَلَامُ اللَّهِ قَدِيمُ النَّوْعِ، حَادِثُ الْآحَادِ، فَقَدْ كَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي زَمَانِهِ، وَكَلَّمَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُكَلِّمُ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ، وَكَلَامُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَكَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ، وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ بِمَا شَاءَ، وَقَدْ تَكَلَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالْقُرْآنِ بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ، وَسَمِعَهُ مِنْهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَسَمِعَهُ جِبْرِيلُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَسَمِعَهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ، وَلَيْسَ لِجِبْرِيلَ وَلَا لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا التَّبْلِيغُ، فَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا كَلَامٌ غَيْرُهُ، وَهُوَ مُنْزَلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمَذْهَبُ الْأَشَاعِرَةِ فِي كَلَامِ اللَّهِ أَقْرَبُ إِلَى مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ، وَقَدْ تَأَثَّرُوا فِي مَذْهَبِهِمْ بِالْجَهْمِيَّةِ وَالْفَلَّاسِفَةِ، فَوَصَفُوا اللَّهَ بِالْكَلَامِ النَّفْسِيِّ الَّذِي ابْتَدَعُوا الْقَوْلَ بِهِ، وَأَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ بِمَا شَاءَ، وَقَالُوا: لَيْسَ فِي الْمُصْحَفِ كَلَامُ اللَّهِ، بَلْ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ، فَخَالَفُوا أُدْلَةَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ، الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، وَلَا يُطْلَقُونَ الْقَوْلَ بِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ قَدِيمٌ، وَلَا أَنَّ الْقُرْآنَ قَدِيمٌ، بَلْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ يَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ بِمَا شَاءَ، وَأَنَّ الْمَكْتُوبَ فِي الْمَصَاحِفِ وَالْمَحْفُوظَ فِي الصُّدُورِ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [القصص: ٣٠] .

وَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } [القصص: ٦٥] .

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة: ٣٠] .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَلَوْ أَنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٍ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ } [لقمان: ٢٧] .

وعن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى بِنَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْخُدَيْيَةِ ثُمَّ قَالَ: ((أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟))، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ((أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ؛ فَأَمَّا مَنْ

قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكُوكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنُورٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ)) .

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعِلْمِيُّ الْكَبِيرُ)) .

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلْسَّمَاءِ صَلَصلةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا، فَيُصْعَقُونَ، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: الْحَقُّ، فَيَقُولُونَ: الْحَقُّ، الْحَقُّ. وقال الشيخ عبد العزيز الراجحي في شرح الطحاوية: " من الشبه الشرعية التي استدلوها به على أن القرآن مخلوق: قول الله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة الرعد آية: ١٦]، ووجه الاستدلال: أنهم قالوا: إن «كل» من صيغ العموم فتعم كل شيء، ويدخل في هذا العموم: صفة الكلام؛ فيكون القرآن مخلوقاً .

وقد أجاب أهل السنة والجماعة عن هذه الشبهة بأجوبة؛ منها :

الجواب الأول: أن اسم الخالق يشمل الذات والصفات؛ فصفاته ليست خارجة عن مسمى ذاته، فالله [بذاته وصفاته؛ هو الخالق، وكلامه صفة من صفاته ليست خارجة عن مسمى اسمه، فالله هو الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق .

وعلى ما سبق فيقال للمعتزلة: كيف أدخلتم كلام الله الذي هو صفة من صفاته في هذا العموم، وأخرجتم أفعال العباد؛ فقلتم: إن الله لم يخلقها؟! هذا يدل على أنكم أهل هوى، قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة الرعد آية: ١٦]؛ فهو خالق الذوات والصفات والأفعال، وأفعال العباد داخلة في هذا العموم؛ فتكون مخلوقة، فكيف أخرجتموها عن عموم «كل» وأدخلتم في هذا العموم الكلام الذي هو صفة من صفاته؟! !!

الجواب الثاني: أن الكلام صفة من صفات الله، به تكون المخلوقات، فالله تعالى يخلق بالكلام؛ قال سبحانه: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [سورة يس آية: ٨٢]، وقد فَرَّقَ اللَّهُ تعالى بين الخلق والأمر فقال: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [سورة الاعراف آية ٥٤] ، فالخلق شيء، والأمر شيء آخر، فلو كان الكلام مخلوقاً، ولو كان الأمر مخلوقاً: للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بآخر إلى ما لا نهاية، فيلزم التسلسل؛ وهو باطل .

ويتبين بهذا: أن الكلام صفة من صفات الله؛ به تكون المخلوقات؛ لأن الله يخلق كل شيء .

والجواب الثالث: أن عموم «كل» في كل موضع بحسبه؛ يبين هذا قول الله تعالى في الريح التي أهلك بها عاداً: { تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا } [سورة الأحقاف آية: ٢٥]، فهي لم تدمر المساكن، ولم تدمر السماوات والأرض

كما قال تعالى: { فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ } [سورة الأحقاف آية: ٢٥]، فالمعنى -والله أعلم- { تُدْمَرُ كُلُّ شَيْءٍ } [سورة الأحقاف آية: ٢٥] يصلح للتدمير، أو يستحق التدمير عادة؛ فالعمو في كل موضع بحسبه . ومثل قول الله تعالى عن ملكة سبأ: { وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } [سورة النمل آية: ٢٣]، فهناك أشياء ما أُوتِيَتْهَا، والمعنى -والله أعلم-: وأوتيت من كل شيء يصلح للملوك؛ فكذلك عموم «كل» في هذه الآية الكريمة هو بحسبه؛ فالمراد من قوله تعالى: { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } أي: الله خالق كل شيء مخلوق، ولا يدخل في ذلك صفات الله، ولا يدخل في ذلك الكلام؛ لأنه صفة من صفاته؛ داخل في مسمى اسمه .

الجواب الرابع: على مذهب المعتزلة أنه يلزم أن تكون جميع الصفات: من العلم، والقدرة، والحياة، مخلوقة، وهذا صريح الكفر.

الشبهة الشرعية الثانية:

ومن شبههم الشرعية التي استدلو بها قول الله -تعالى-: { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [سورة الزخرف آية: ٣]، فقالوا: (جعل) بمعنى خلق، والمعنى: إنا خلقناه قرآنًا عربيًّا؛ وهذا يدل على أن القرآن مخلوق .

أجاب أهل السنة:

بأنه استدلال باطل؛ لأن (جعل) إنما تكون بمعنى خلق إذا تعدت إلى مفعول واحد لا إلى مفعولين؛ فإذا تعدت إلى مفعول واحد؛ كانت بمعنى (خلق) كقوله -تعالى-: { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } [سورة الأنبياء آية: ٣٠]، وكقوله -تعالى-: { وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ } [سورة الأنبياء آية: ٣١]، وكقوله -تعالى-: { وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } [سورة الأنبياء آية: ٣١]، وكقوله -تعالى-: { وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا } [سورة الأنبياء آية: ٣٢]، وكقوله -تعالى-: { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ } [سورة الأنعام آية: ١] .

أما إذا تعدت إلى مفعولين؛ فلا تكون بمعنى خلق، كما في هذه الآية التي احتجوا بها؛ وكما في قوله تعالى: وَقَدْ جَعَلْنَاهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا [سورة النحل آية: ٩١]، فلو فسرت (جعل) بمعنى خلق؛ لفسد المعنى، فهل يستطيع معتزلي أن يقول: المعنى: وقد خلقتكم الله كفيلاً؟! وكقوله -تعالى-: { الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } [سورة الحجر آية: ٩١]؛ هل يقول المعتزلي: الذين خلقوا القرآن عِضِينَ؟! وكقوله -تعالى-: { وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ } [سورة البقرة آية: ٢٢٤]، هل يمكن أن تُفسر (جعل) بمعنى خلق؛ وكذلك في هذه الآية التي احتجوا بها: { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا } [سورة الزخرف آية: ٣] لا تكون بمعنى (خلق)، وبهذا يبطل استدلال المعتزلة بهذه الآية .

الشبهة الشرعية الثالثة:

استدلو بقول الله تعالى: { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } [سورة الحاقة آية: ٤٠]؛ قالوا: وجه الدلالة: أن الله أخبر أن القرآن قول رسول؛ فدل على أن القرآن مخلوق، وليس كلام الله؛ لأن الله نسيبه إلى الرسول، والله خلق الرسول، وخلق كلامه؛ فيكون القرآن مخلوقاً .

أجاب أهل السنة عن هذه الشبهة بأجوبة منها :

الجواب الأول: أن الله تعالى قال: {لَقَوْلِ رَسُولٍ} [سورة الحاقة آية: ٤٠]، والرسول إنما يبلغ عن المرسل، فلم يقل: إنه قول نبي، بل قال: قول رسول؛ والرسول لا ينشئ الكلام، وإنما يبلغ كلام غيره، فدل على أن الكلام كلام الله .

الجواب الثاني: أن الرسول جاء في موضعين من كتاب الله تعالى: في سورة «التكوير» في قوله: {إِنَّهُ لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ} ذي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ [سورة التكوير آية: ١٩ - ٢٠]، والمراد به هنا: الرسول الملكي؛ وهو جبريل، وجاء في سورة «الحاقة» في قوله: {إِنَّهُ لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ [سورة الحاقة آية: ٤٠ - ٤٢]، والمراد به هنا: الرسول البشري؛ وهو محمد -عليه الصلاة والسلام-، فأَيُّ الرسولين -على زعمكم أيها المعتزلة- أَدَّيْتُمْ الْقُرْآنَ؟! إنَّ أَحَدَهُ مُحَمَّدٌ؛ اِمْتَنَعَ أَنْ يُحَدِّثَهُ جَبْرِيلُ، وَإِنْ أَحَدَهُ جَبْرِيلُ اِمْتَنَعَ أَنْ يُحَدِّثَهُ مُحَمَّدٌ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِ قَوْلِكُمْ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ: أَنَّ الرَّسُولَ مَبْلَغٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ، وَسَمِعَهُ جِبْرَائِيلُ وَبَلَّغَهُ مُحَمَّدًا، ثُمَّ قَرَأَهُ مُحَمَّدٌ -عليه الصلاة والسلام- وَبَلَّغَهُ الْأُمَّةَ .

رابعًا: أنه قال في وصفه: {مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ} [سورة التكوير آية: ٢١] كما في سورة «التكوير»؛ وَوَصَفُهُ بِالْأَمَانَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَبْلُغُ مَا أُرْسِلَ بِهِ، كَمَا أُنْزِلَ، لَا يَزِيدُ، وَلَا يَنْقُصُ، فَجَبْرِيلُ يَبْلُغُهُ كَمَا سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، عَلَى مَا أُرْسِلَ بِهِ؛ لَا يَزِيدُ فِيهِ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ .

خامسًا: أن قولكم: إنَّ مُحَمَّدًا أَحَدَثَ نَظْمَ الْقُرْآنِ؛ هَذَا الْقَوْلُ يَجْعَلُهُ دَاخِلًا فِي الْوَعِيدِ الَّذِي تَوَعَّدَ اللَّهُ بِهِ الْوَلِيدَ بَنَ الْمَغِيرَةِ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَنْهُ: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} ثُمَّ قَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} ثُمَّ نَظَرَ} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ} [سورة المدثر آية: ١٨ - ٢٦]، فالله توعَّد من قال: (إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) بِأَنْ يَصْلِيَهُ سَقَرٌ، فَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ قَوْلُ مُحَمَّدٍ، وَمُحَمَّدٌ بَشَرٌ -عليه الصلاة والسلام- فهو داخل في هذا الوعيد، فيكون المعتزلة داخلين في هذا الوعيد أيضًا.

أدلة أهل السنة على أنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ:

من أدلة أهل السنة والجماعة على أن القرآن كلام الله: أن الله أخبر بأنه منزل؛ قال تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [سورة غافر آية: ٢]، وقال تعالى: {تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [سورة فصلت آية: ٢]، وقال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} [سورة النحل آية: ١٠٢]. فهذه النصوص صريحة في أن القرآن منزل.

واعترض المعتزلة على هذه النصوص التي فيها أن القرآن منزل؛ قالوا: إن الإخبار عن القرآن أنه منزل لا يمنع أن يكون مخلوقًا؛ لأننا نجد أن بعض المخلوقات أخبر الله عنها بأنها منزلة وهي مخلوقة، وقد اتفقت معنا يا أهل السنة على أنها مخلوقة، فالله تعالى قال عن الحديد: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ} [سورة الحديد آية: ٢٥]، فالله أخبر عن

الحديد أنه منزل؛ ومع ذلك فهو مخلوق؛ وأنتم توافقونا على هذا، وقال تعالى: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الزمر آية: ٦]، فأخبر الله عن الأنعام بأنها منزلة؛ وهي مخلوقة، وأنتم توافقونا على هذا، وقال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [سورة المؤمنون آية: ١٨]، فأخبر الله أنه أنزل من السماء ماءً، والمطر مخلوق، وأنتم توافقونا على هذا؛ فكذلك القرآن مخلوق؛ ولو أخبر الله بأنه منزل، فلا يمنع أن يكون مخلوقاً .

أجاب أهل السنة على هذا الاعتراض :

أن هناك فرقاً بين إنزال القرآن وإنزال الحديد والأنعام والمطر؛ فإنزال القرآن صريح في الآيات أنه منزل من عند الله لا من غيره؛ قال تعالى: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وقال تعالى: {تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [سورة فصلت آية: ٢]، وقال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} [سورة النحل آية: ١٠٢]، فهو صريح بأنه منزل من عند الله.

أما الحديد فإن إنزاله مطلق فلم يخبر الله أن الحديد منزل من عنده، وذلك: أن الحديد إنما يؤخذ من الجبال، والجبال عالية على وجه الأرض؛ وكلما كان أخذ الحديد من أعلى الجبل؛ كان حديده أجود؛ فالمقصود الإنزال من الجبال.

والأنعام أخبر الله أنها منزلة: قال تعالى: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الزمر آية: ٦]، وذلك أن الأنعام إنما تخلق بالتوالد، والتوالد يستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات على وجه الأرض؛ فهذا إنزال .

وأما إنزال المطر؛ قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ} [سورة المؤمنون آية: ١٨] هو مقيد بأنه من السماء، والسماء من جهة العلو، وفي الآية الأخرى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا} [سورة النبأ آية: ١٤]، والمعصرات السحاب، والآية الأخرى: {أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ} [سورة الواقعة آية: ٦٩] والمزن هو السحاب، فبين بهذا؛ الفرق بين إنزال القرآن، وإنزال الحديد والأنعام والمطر.

هذه أمثلة لشبه المعتزلة، وهذه الشبه موجودة ومُدَوَّنة في الكتب وفي التفاسير؛ فإنك لو طالعت «الكشاف» للزمخشري أو غيره، تجد فيها هذه التأويلات، وقد ذكرناها ليكون طالب العلم على بصيرة من أمره، فإذا عرف بعض الأمثلة، قاس عليها بقية الأمثلة .

مناقشة أدلة الأشاعرة في كلام الله تعالى والقرآن :

نتقل بعد هذا إلى شبه الأشاعرة، والأدلة التي استدلو بها على تقرير مذهبهم في كلام الله، وهم طائفة كبيرة يسمون أنفسهم «أهل السنة»، وتأويلاتهم موجودة ومنتشرة في كتب الفقه وكتب الأصول والتفاسير التي يتداولها الناس، ويتدارسونها في كثير من المؤسسات العلمية وغيرها، وهم ينافسون أهل السنة في كثير من الأزمان؛ فلا بد لطالب العلم أن يكون على إمام بحقيقة مذهب الأشاعرة، وبيان بعض الشبه التي يركزون عليها.

حقيقة مذهب الأشاعرة:

يقولون: إن كلام الله معنى قائم بالنفس؛ ليس بحرف ولا صوت، والله تعالى لا يُسَمَّع منه الكلام، بل الكلام معنى قائم بنفسه؛ لا يُسَمَّعُ .

وأما الموجود في المصاحف فهذا عبارة عن كلام الله، عبَّرَ به جبريل، أو عبَّرَ به محمد ﷺ، ويُسمَّى ما في المصحف كلام الله مجازاً، ولهذا إذا قلتَ لبعض الأشاعرة -عند التسامح-: المصحف فيه كلام الله، يقولون: المصحف كلام الله، لكن عند المناظرة وبيان حقيقة المذهب يقولون: لا ليس في المصحف كلام الله، لكن نسميه كلام الله مجازاً؛ لأنه تأدَّى به كلام الله؛ ولأنه دليل على كلام الله؛ أما كلام الله فهو معنى قائم بنفسه - ولهذا -والعياذ بالله- فبعضهم قد يجعل المصحف تحت قدميه، ويقول: ليس فيه كلام الله، نسأل الله السلامة والعافية-. وأما النظم المسموعُ المقروءُ في المصاحف فهو دليل على أن القرآن مخلوق.

فعلى هذا: يكون القرآن من شيئين أو كلام الله من شيئين: شيء له نصفان: نصف غير مخلوق؛ وهو المعنى القائم بنفس الرب، ونصفه الآخر مخلوق: وهو الحروف والكلمات التي يقرؤها القارئ.

وأما كيف عرف جبريل ما في نفس الله؟ فلهم أقوال في ذلك، وبعضهم يقول: إن الله اضطر جبريل ففهم المعنى القائم بنفسه اضطراراً فعَبَّرَ عنه، فالقرآن عبارة عبَّرَ بها جبريل، مثال ذلك: أن يكون عندك أحرص؛ لا يتكلم، فيشير إليك بالإشارة، ثم تفهم إشارته وتكتبها، فهؤلاء -والعياذ بالله- جعلوا الله كالأحرص -نسأل الله العافية-، وبعضهم يقول: إن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ.

وحقيقة مذهب الأشاعرة يوافق نصف مذهب المعتزلة؛ فالمعتزلة يقولون: القرآن مخلوق لفظاً ومعنى، والأشاعرة يقولون: معناه غير مخلوق، ولفظه مخلوق.

كما أن الأشاعرة يشابهون النصارى في مسألة اعتقادهم في عيسى؛ فالنصارى يعتقدون أن عيسى مكون من شيئين: جزء من الإله، وجزء من الناس؛ اتحدا وامتزجا فصارا شيئاً واحداً يقال له: المسيح عيسى ابن مريم . والأشاعرة لهم شبهة وأدلة حول مذهبهم، إلا أنها أوهى من بيت العنكبوت مثلهم في ذلك كمثل إخوانهم من الفرق الأخرى؛ فإن الأشاعرة يقولون: إن كلام الله معنى قائم بنفسه، وأما الألفاظ والحروف والكلمات فدليل يُفهم بها المعنى القائم بنفس الرب؛ فإفهام المعنى القديم الذي هو في نفس الرب بواسطة الألفاظ والحروف والكلمات؛ يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى، كما أوضحناه.

من أدلة الأشاعرة على أن القرآن معنى قائم بالنفس لا يُسَمَّع؛ ليس بحرف، ولا صوت، ولا لفظ : استدلوا بقول الله تعالى : { وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُسَّ الْمَصِيرُ } [سورة المجادلة آية: ٨]، قالوا: وجه الدلالة أن الله قال : { وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ } [سورة المجادلة آية: ٨]، فدل على أن القول إنما يكون في النفس، وأما الألفاظ والحروف والأصوات فليست من القول؛ فدل على أن كلام الله معنى قائم بنفسه .

أجاب أهل السنة عن هذا بجوابين :

الجواب الأول :جواب بالمنع: وهو أن نقول: نمنع أن يكون المراد في الآية في قوله: { وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ } [سورة المجادلة آية: ٨] المعنى القائم بالنفس، وإنما المراد القول سرًّا؛ أي: يقولون سرًّا ويتكلمون بالسنتهم سرًّا، كما قاله أكثر المفسرين؛ وذلك أن اليهود كانوا يأتون النبي ﷺ ويقولون: «السام عليك»؛ والسام الموت، وهم يظهرون أنهم يلقون السلام، ثم إذا خرجوا من عند النبي ﷺ قال بعضهم لبعض سرًّا: لو كان نبيًّا لغدبنا بقولنا له الذي نقول، فأنزل الله: { وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ } [سورة المجادلة آية: ٨]، وهذا هو الذي عليه أكثر المفسرين، ويؤيده ما ثبت في «الصحاحين» في الحديث القدسي أن النبي ﷺ قال: ((إِنِّ دَكَّرَنِي فِي نَفْسِهِ دَكْرَتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنِّ دَكَّرَنِي فِي مَلَأٍ دَكْرَتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ))، معناه: ذكر الله سرًّا؛ بدليل قوله: وَمَنْ دَكَّرَنِي فِي مَلَأٍ....

الجواب الثاني :جواب بالتسليم؛ وهو أن نقول: سلمنا جدلاً أن قوله تعالى: { وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ } [سورة المجادلة آية: ٨] قول في النفس، وأنه ليس فيه حروف ولا كلمات؛ لكن الآية مقيدة بأنه قول في النفس، وإذا قيد القول بأنه في النفس تقييداً، ونظيره الحديث الصحيح: ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ أَوْ تَعْمَلْ تَتَكَلَّمْ))، فإذا قيد القول بأنه في النفس تقييداً، فهل قيد كلام الله أنه في النفس في قوله: { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } [سورة النساء آية: ١٦٤] هل قال الله: وكلم الله موسى في نفسه، فإذا لم يتقيد فلا يكون القول في النفس، وإنما يكون قولاً يتكلم به المتكلم؛ حروفاً وألفاظاً وكلمات . ومن أدلتهم:

الاستدلال ببيت من الشعر منسوب إلى الأخطل؛ وهو:
 إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

وجه الدلالة:

قالوا: إن هذا بيت عربي، والقرآن نزل بلغة العرب، وأثبت الشاعر العربي أن الكلام إنما يكون في الفؤاد، أي: في النفس، وأما ما يكون في اللسان فالحروف والكلمات واللفظ .
 أجاب أهل الحق عن هذا الاستدلال بأجوبة :

الجواب الأول :أنا لا نسلم أن هذا البيت للأخطل، فهذا البيت مصنوع مختلق لا يوجد في ديوان الأخطل، وكثير من النحويين ينكرون نسبته إليه؛ فكيف تستدلون ببيت مصنوع مختلق لا أساس له من الصحة؟! وبهذا يبطل استدلالكم، كيف تصنعون بيتاً ثم تستدلون به على كلام الله وكلام رسوله؟ !

الجواب الثاني :ولو سلمنا بصحة البيت جدلاً، وأن الأخطل قاله؛ لكنه قول واحد من أهل اللغة، فلا يقبل حتى يوافقه أهل اللغة، فإذا كان حديث رسول الله ﷺ لا يقبل حتى يصح سنده وتعدّل رواؤه، ولا يكون شاذاً ولا معللاً؛ فكيف بيت من الشعر لا يدري من صاحبه؛ قاله واحد ولم يوافقه أهل اللغة: فيكون شاذاً .

الجواب الثالث: سلمنا صحة البيت، وسلمنا نسبته إلى الأخطل، وسلمنا قبول أهل اللغة له، لكن ليس مقصود الشاعر بقوله: إن الكلام لفي الفؤاد: الكلام العاري عن الألفاظ والحروف والكلمات؛ بل مقصود الشاعر أن الكلام الحقيقي هو الذي يهيئه الإنسان في نفسه، ويزنه بعقله قبل أن ينطق به ويتروى فيه؛ أما الكلام الذي يجري على اللسان من دون تَرَوٍّ، ومن دون نظر؛ فهذا يشبه كلام النائم والهادي؛ الذي لا قيمة له، ولهذا روي البيت برواية أخرى، وهي أقرب إلى الصحة:

إِنَّ الْبَيَانَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللَّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

رابعًا: سلمنا صحة البيت، وأنه للأخطل، وسلمنا موافقة أهل اللغة له، وسلمنا أن المراد بالبيت الكلام النفسي العاري عن الحروف والألفاظ؛ لكنه قول نصراني؛ لأن الأخطل نصراني، ومعلوم أن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام؛ فإن النصارى زعموا أن المسيح هو كلمة الله؛ أي كلمة «كن».

وأهل السنة يقولون: ليس نفس الكلمة، إنما هو مخلوق بالكلمة، قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [سورة آل عمران آية: ٥٩]، فكيف تستدلون بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام، ويترك ما يُعرَّفُ بمعنى الكلام من النصوص واللغة؟!

خامسًا: سلمنا جدلاً الاستدلال بقول النصارى؛ لكن البيت يلزم عليه معنى فاسد؛ وهو أن يسمى الأخرس متكلمًا؛ لقيام الكلام بنفسه، وإن لم يتكلم به؛ والأخرس لا يسمى متكلمًا لا شرعًا، ولا عقلاً، ولا لغةً، ولا حسًا، وبهذا يبطل استدلال الأشاعرة بهذا البيت .

مناقشة أهل السنة للأشاعرة في أن كلام الله معنى واحد لا يتجزأ :

ومما ناقش به أهل الحق الأشاعرة القائلين: إن الكلام معنى واحد؛ لا يتعدد، ولا يتجزأ، ولا يتكثر، والتعدد والتجزؤ والتكثر إنما هو في الدلالات والعبارات .

ناقشوهم وأجابوهم عن قولهم هذا بأن الله تعالى أخبر أن موسى سمع كلام الله، فهل سمع موسى جميع المعنى أو بعض المعنى؟

إن قلتم: سمع جميع المعنى؛ فقد زعمتم أن موسى سمع جميع كلام الله؛ وهذا باطل. وإن قلتم: سمع بعض كلام الله فقد قلتم بالتبعض وأبطلتم مذهبكم بأنفسكم؛ فلا محيد لكم عن هذين الإلزامين .

ثانيًا: أن يقال: لو كان الكلام معنى قائمًا بالنفس، كما تزعمون أيها الأشاعرة، وأن الدلالات والعبارات هي التي تختلف؛ للزم على ذلك لوازم فاسدة منها:

أولًا: أن يلزم على قولكم: إن الكلام معنى قائم بالنفس وأنه لا يتعدد ولا يتبعض، أن يكون معنى قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [سورة البقرة آية: ٤٣] هو معنى قوله: {وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَا} [سورة الإسراء آية: ٣٢]، وأن يكون معنى آية الدين هو معنى آية الربا، وأن يكون معنى {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [سورة الإخلاص آية: ١]، هو معنى {تَبَّتْ يَدَا} [سورة المسد آية: ١]، وهذا باطل.

ثانياً: لو كان الكلام معنى قائماً بالنفس، وأن المصحف ليس فيه شيء من كلام الله؛ لجاز للمُحدث مس المصحف، وهذا خلاف ما أجمع عليه الأئمة الأربعة: أنه يجب على المحدث أن يتوضأ لمسّ المصحف، كما جاء في الحديث الذي كتبه النبي ﷺ لعمر بن حزم: {أَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ}. ولو كان القارئ لا يقرأ كلام الله؛ لجاز للجُنُب أن يقرأه وهو لم يغتسل، وكذلك الحائض عند كثير من الفقهاء على الخلاف في المسألة .

ويقال للأشاعرة: إن النصوص الكثيرة تبطل قولكم منها:

قول الله تعالى: { قُلْ لِّنَّاسٍ أَجْتَمَعَتْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [سورة الإسراء آية: ٨٨]؛ هل الإشارة تعود إلى ما في نفس الله، أو تعود إلى القرآن المتلو المسموع المكتوب في المصاحف؟! لا شك أن الإشارة تعود إلى القرآن المتلو بالألسن، المكتوب في المصاحف؛ لأن ما في نفس الله غير مشار إليه ولا متلو ولا مسموع.

وكذلك قوله: لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ هل الضمير يعود إلى ما في نفس الله، أو إلى ما في هذا القرآن المتلو المكتوب في المصاحف؟! لا شك أنه يعود إلى ما في المصحف؛ لأن ما في نفس الله لا حيلة إلى الوصول إليه؛ فهو غير متلو، وغير مسموع، كذلك أيضاً قول الله تعالى: { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ } [سورة التوبة آية: ٦]؛ صريح في أن الذي يسمعه المشرك كلام الله، ولم يقل: حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله كما تقولون.

ومن الأدلة أيضاً ما ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ قال: ((إِنْ اللَّهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنْ مِمَّا أَحَدَتْ أَلَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ))، وحديث: ((إِنْ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ)).

وقد أجمع العلماء على أن الإنسان المصلي لو تكلم في الصلاة عامداً في غير مصلحتها؛ بطلت صلاته، وقد أجمعوا أيضاً على أن حديث النفس الذي يكون في القلب من تصديق بأمور دنيوية، وطلب؛ لا يبطل الصلاة، فدل على أن الكلام إنما هو لفظ ومعنى، والكلام الذي يتكلم به الإنسان بلسانه هو اللفظ والمعنى، وهو حروف وأصوات، فكلام الله لفظ ومعنى، وهو بحرف وصوت يُسْمَعُ. فهذا هو حدُّ الكلام عند أهل اللغة .

ومن الأدلة أيضاً: ما ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: ((إِنْ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمِّي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ))؛ ففرق النبي ﷺ بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أن الله عفا عن حديث النفس، وأن ما تكلم به الإنسان بلسانه لا يعفى عنه؛ فدل على أن الكلام لفظ ومعنى، حروف وأصوات .

ومن الأدلة أيضاً: ما ثبت في «السنن» من حديث معاذ الطويل لما سئل النبي ﷺ عن عمل يدخله الجنة ويبعده عن النار قال: ((لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِّرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعَبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ ... ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ

الله. قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ. قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ: تَكَلَّمْتُكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ -أَوْ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا خَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)).

فأخبر النبي ﷺ أن الإنسان إنما يؤاخذ بما يتكلم به بلسانه، فدل على أن الكلام ألفاظ ومعان؛ حروف وأصوات، وكذلك كلام الله تعالى تكلم به، فكلام الله اسم للمعنى واللفظ جميعاً، والله تكلم به، وبهذا يتبين أن مسمى كلام الله: المعنى واللفظ جميعاً، وأن كلام الله بحرف وصوت يُسمع. والحق: أن التوراة والإنجيل والزيور والقرآن كلهم من كلام الله، وكلام الله لا يتناهى، ولو مُدَّ البحر بسبعة أبحر، وجُعِلَ ما في الأرض من الأشجار كله أقلام وجُعِلَتِ البحارُ مداداً يُكْتَبُ بها؛ لتكسرت الأقلام، ونفدت مياه البحر، وما نفدت كلمات الله: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [سورة الكهف آية: ١٠٩]، {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة لقمان آية: ٢٧].

فهذه المسألة -مسألة الكلام- مسألة عظيمة اشتد النزاع فيها بين أهل السنة وبين المخالفين لهم، والتبس الأمر على كثير من الناس، ولا سيما مذهب الأشاعرة، ثم مذهب المعتزلة فينبغي لطالب العلم أن يعتني بهذا الأمر، وأن يعتني بالنصوص، وأن يتأمل حينما يقرأ في الكتب حتى لا يلتبس عليه معتقد أهل السنة والجماعة المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة، بخلاف مذهب المعتزلة والأشاعرة المبني على الآراء والأهواء والشبهات .

قَالَ الطحاوي رحمه الله:

(وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَأَ بِلاَ كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا)

قوله: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَأَ بِلاَ كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا) الطحاوي -رحمه الله- يقرر مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله؛ أي: لفظه ومعناه، هذا هو الأصل، فالكلام لفظة تشمل اللفظ والمعنى، فالقرآن كلام الله، لفظاً ومعنى .

وقوله: (منه بدا) هذا فيه الرد على المعتزلة والأشاعرة؛ فإن المعتزلة لا يقولون: منه بدا؛ وإنما يقولون: بدا من شيء آخر؛ بدا من الشجرة، أو بدا من الهواء، أو بدا من اللوح المحفوظ يعني: خلقه الله في اللوح المحفوظ، فأضافه إليه إضافة تشريف وتكريم.

وكذلك الأشاعرة لا يقولون: منه بدا، بل يقولون: لم يبد منه شيء، لأنَّ الكلام معنى قائم بنفسه تعالى، فلم يبد منه ما من شأنه أن يُسْمَعَ؛ فما سمع جبريلُ منه كلاماً ولا لفظاً ولا حرفاً ولا صوتاً، وإنما جبريلُ هو الذي أحدث لفظ القرآن، أو أحدثه محمد؛ لأنه فهم المعنى القائم بنفس الرب، إمَّا لأنَّ الله اضطره لذلك؛ ففهم المعنى، أو أنَّ الله خلقه في الهواء، وأخذه من الهواء .

وأهل السنة يقولون: القرآن منزل غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود؛ فالقرآن كلام الله منزل، نَزَّلَهُ اللهُ كَمَا قَالَ سبحانه: { تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [سورة فصلت آية: ٢]، وغير مخلوق لا كما تقوله المعتزلة. ومعنى قوله:

(منه بدا)، أي: بدا من الله، وظهر منه، وأكد هذا المعنى بقوله: (قولاً)، فأتى بالمصدر المعرف للحقيقة، كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت لنا في للمجاز في قوله: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [سورة النساء آية: ١٦٤]، ومعنى قول أهل السنة: (وإليه يعود)، أي: في آخر الزمان.

فمن أشرط الساعة الكبرى التي تعقبها الساعة مباشرة ما يلي :

أولها: خروج المهدي في آخر الزمان فيبائع له، واسمه كاسم النبي ﷺ وكنيته: أبو عبدالله: محمد المهدي؛ يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت جوراً، يُبائع له في وقت ليس للناس فيه إمام. وفيه أحاديث كثيرة بعضها صحيح، وبعضها ضعيف، وبعضها موضوع، والاعتماد على ما ثبت من أخباره.

ثم يخرج الدجال في زمنه؛ يدعي الصلاح، ثم يدعي النبوة، ثم يدعي الربوبية.

ثم ينزل عيسى ابن مريم فيقتله.

ثم يخرج يأجوج ومأجوج.

ثم بعدها تتابع أشرط الساعة، فتهدم الكعبة -والعاذ بالله-، ثم يصلي الناس إلى جهتها، ثم ينسون الجهة، ويُنزغ القرآن من الصدور ومن السطور في آخر الزمان؛ فإذا ترك الناس العمل به؛ نُزع من صدورهم؛ أي: من صدور الرجال، ونُزع من المصاحف؛ فيصبح الناس لا يجدون في صدورهم آيةً، ولا في المصاحف آية -نعوذ بالله- إذا ترك الناس العمل به. هذه هي أبرز أشرط الساعة .

ومنها أيضاً: الدخان الذي يملأ الأرض.

ومنها: طلوع الشمس من مغربها.

ومنها: الدابة.

ثم يعقب ذلك نار تخرج من قعر عدن؛ تسوق الناس إلى المحشر. فهو شرط من أشرط الساعة.

وقوله: (وإليه يعود) يعني: يعود إلى الله في آخر الزمان؛ فالقرآن منزل غير مخلوق، بدا من الله، وإليه يعود في آخر الزمان؛ يعود إلى الله حينما يترك الناس العمل به، فيُنزع من صدور الناس، ومن المصاحف -نسأل الله السلامة والعافية.-

القرآن أنزل على الرسول وحياً

قَالَ الطحاوي رحمه الله: ((مِنْهُ بَدَأَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا))

قوله: (مِنْهُ بَدَأَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا)؛ أي: أن القرآن أنزله على رسوله وحياً؛ هذا ردُّ على قول المعتزلة والأشاعرة؛ فإن المعتزلة لا يقولون: أنزله بل يقولون: خلقه. وقوله: (وأنزله على رسوله وحياً)؛ معناه: أن الله تكلم به، وسمعه منه جبرائيل؛ سمع كلام الله، بحرف وصوت. ثم أوصله جبرائيل إلى محمد -عليه الصلاة والسلام- وفي قوله: (وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا) ردُّ أيضاً لقول المعتزلة، وردُّ لقول الأشاعرة؛ لأن الأشاعرة لا

يقولون: أنزله بل يقولون: إن القرآن معنى قائم بالنفس، أما ما في المصاحف فليس فيه شيء منزل؛ إنما الموجود في المصاحف هذا شيء أحدثه جبريل أو محمد؛ فهو عبارة عن كلام الله، عبارة عما في نفس الله .
((وَصَدَقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا))

قوله: ((وَصَدَقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا))؛ أي: المؤمنون صدّقوا واعترفوا، واعتقدوا أن هذا القرآن كلامُ الله حقًّا، لا مربة فيه ولا شك، فهكذا أهل السنة والجماعة، وهكذا أهل الحق؛ يصدقون ويؤمنون ويوقنون -من قلوبهم-: بأن القرآن كلام الله حقًّا، وأنه كلام الله؛ ألفاظه ومعانيه .
((وَأَيَقِنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ -تَعَالَى- بِالْحَقِيقَةِ))

قوله: ((وَأَيَقِنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ -تَعَالَى- بِالْحَقِيقَةِ))؛ وأيقنوا: أي: تيقنوا بذلك؛ ليس عندهم شك ولا ريب، أن القرآن المكتوب في المصاحف، المقروء بالألسن؛ أنه كلام الله بالحقيقة.

وهذا فيه رد أيضًا على المعتزلة والأشاعرة؛ فإنهم لا يقولون: هذا كلام الله بالحقيقة، بل المعتزلة يقولون: كلام الله مخلوق، والأشاعرة لا يقولون: إنه كلام الله بالحقيقة، بل يقولون: كلام الله بالحقيقة؛ معنى قائم بنفسه، أما هذا الموجود في المصاحف، فليس كلام الله بالحقيقة، وإنما يُسمَّى كلام الله مجازًا، فلماذا قالوا: يسمى ما في المصاحف كلام الله مجازًا؟ لأن كلام الله تأدَّى به؛ فهو مجاز عن كلام الله؛ لأنَّ كلام الله عندهم لا يُسمع؛ ليس بحرف ولا صوت، وإنما قائم بنفسه؛ فيُسمَّى كلام الله مجازًا -أي: من باب المجاز لا الحقيقة- لأنه دليل على كلام الله؛ ولأنه فهم به كلام الله الذي هو المعنى القائم بنفسه؛ وإلا فكلام الله قائم بنفسه؛ لا يُسمع، ولازم لذات الرب؛ كلزوم الحياة، والعلم، والسمع، والبصر .

((وَأَيَقِنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ))

هذا رد على المعتزلة فإنهم يقولون: كلام الله مخلوق؛ بل يقولون: هو معناه ككلام الناس، والأشاعرة يقولون: نصفه مخلوق، -وهو الألفاظ المقروءة، المتلوّة، المسموعة، المكتوبة في المصاحف- ونصفه غير مخلوق -وهو المعنى القائم بالنفس.-

((فَمَنْ سَمِعَهُ فَرَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ))

هذا تصريح بأن من قال: إن القرآن كلام بشر: فقد كفر؛ هذا إذا قاله من دون تأويل؛ فهذا كافر بالإجماع، لكن إذا قاله متأولًا؛ لشبهة حصلت له؛ كالأشعري؛ فهذا يُدْرَأُ عنه التكفير؛ لأن له شبهة؛ فهو لم يقل صراحة: إنه كلام البشر، بل يقول: أعترف أن القرآن كلام الله، لكن كلام الله معنى قائم بنفسه، أما ما في المصاحف والألفاظ فهذا يتأدَّى به كلام الله؛ فهذا قاله عن شبهة.

مثال ذلك أيضًا: قولُ الله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [سورة طه آية: ٥] من قال فيه: إن الله لم يستو على العرش حقيقة، بدون شبهة؛ فهو كافر بالإجماع، لأنه رد كلام الله، لكن إذا قال شخص: أنا أؤمن أن هذه آية في كتاب الله، لكن معنى استوى: استولى؛ وكان قوله هذا لشبهة حصلت له؛ فهذا لا يكفر؛ لأنه قول عن شبهة

وتأويل، فكذاك من قال: إن القرآن كلام البشر بدون شبهة أو تأويل؛ فهو كافر، كما قال الله عن الوليد بن المغيرة: {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [سورة المدثر آية: ٢٥]، ثم قال الله: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [سورة المدثر آية: ٢٦].

((وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ بِسَقَرٍ)) حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [سورة المدثر آية: ٢٦]

هذا ذم من الله لمن قال: إن القرآن كلام البشر، وتوعده الله بأنه سيصليه سقر؛ وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة كما قال الله: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَفَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۖ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۖ لَوَاحِئُهُ لِلْبَشَرِ} [سورة المدثر آية: ٢٦ - ٢٩]؛ فمن قال: إن القرآن كلام البشر، من دون تأويل؛ فهو كافر، وله هذا الوعيد؛ أما من قال عن تأويل؛ فهو على خطر عظيم، ولكن الشبهة التي حصلت له، والتأويل الذي حصل له يدرأ بها عن نفسه التكفير، فلا يكفر كما سبق إيضاحه .

((فَلَمَّا أَوَعَدَ اللَّهُ بِسَقَرٍ لِمَنْ قَالَ: {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [سورة المدثر آية: ٢٥]، عَلِمْنَا وَأَيَقْنَا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ، وَلَا يُشَبِّهُ قَوْلَ الْبَشَرِ))

لما تواعد الله الوليد بن المغيرة حينما قال: قَوْلُ الْبَشَرِ؛ عَلِمْنَا أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَيْسَ كَكَلَامِ الْبَشَرِ، بل الله -تعالى- ليس له مثل؛ كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [سورة الشورى آية: ١١]، ولا يشابه أحداً من خلقه، ولا يماثل أحداً من خلقه؛ لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه جل جلاله؛ لأن الله لما تواعد من قال: إن هذا إلا قول البشر أيقنا من قلوبنا -ولم نشك- أن كلام الله ليس ككلام البشر؛ لأن الله ليس له مثل، وقد نفى عن نفسه مماثلة شيء من خلقه كما قال -سبحانه-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [سورة الشورى آية: ١١]، وقال -سبحانه-: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [سورة مريم آية: ٦٥]، وقال -سبحانه-: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة آية: ٢٢]، وقال -سبحانه-: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة النحل آية: ٧٤]، وقال -سبحانه-: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [سورة الإخلاص آية: ٤].

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ((وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ))

أي: ومن وصف الله بمعاني البشر -كالصفات- وقال: إن الله مثل المخلوقات -كما تقول المشبهة؛ وهم من غلاة الشيعة فإنهم يقولون: علم الله كعلم المخلوقين، وصفاته كصفاتهم، وقد قالوا: إن الله مثل الإنسان - من قال ذلك؛ فهو كافر إن لم يكن ذلك عن تأويل؛ لأنه تنقّص الرب؛ ولأنه صادم النصوص؛ فالله -تعالى- يقول: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهو يقول: الله مثل الأشياء -تعالى سبحانه عن ذلك- والله تعالى يقول: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [سورة مريم آية: ٦٥]، وهو يقول: له شيء مماثل؛ وهي: المخلوقات، والله يقول: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا} [سورة البقرة آية: ٢٢]، وهو يجعل لله أنداداً، وأمثالاً، ونظراء؛ فهذا كافر بالاتفاق، ولكن من قال ذلك عن تأويل: تَدْرَأُ عَنْهُ الشَّبْهَةَ وَصَفَ الْكَفَرَ .

واثبت له عينين حقاً والبصر		منزهاً رب الورى عن العوز
من غير تمثيل (') ولا تكييف (')		وغير تعطيل (') ولا تحريف (')

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ((وَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ، وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ انْزَجَرَ))

أي: من أبصر هذا وقرأ النصوص وتدبرها: تبين له أن الله لا يماثل شيئاً من مخلوقاته، وأنه كامل في ذاته وصفاته وأفعاله، وأنه لا شبيه له، ولا مثل له ولا سمي له، ولا كفو له؛ فمن أبصر هذا ونظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات صفات الله على الوجه اللائق، ونفي المماثلة والتشبيه، وما توعده الله به المشبهة: اعتبر، واتضح له الحقيقة، وحينئذ ينزجر عن مثل قول الكفار؛ فإن الكفار هم الذين يمثلون الله بخلقه، ويتنقصونه؛ كاليهود وأشباههم، قال تعالى: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ } [سورة المائدة آية: ٦٤]، وقال تعالى: { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ } [سورة آل عمران آية: ١٨١]، وكذلك المشبهة الذين يقولون: إن الله مثل المخلوقات، وإن سمعه كسمعهم، وهكذا .

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ ((وَعَلِمَ أَنَّهُ بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ))

أي: علم أن الرب بصفاته ليس كالبشر؛ لأن الله يقول: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [سورة الشورى آية: ١١] .

فالله لا سمي له، ولا مثل له، ولا ند له، ولا كفو له جل في علاه ؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله .

١ — قال ابن عثيمين في شرح الواسطية: " ولا تمثيل "؛ يعنى: ومن غير تمثيل، فأهل السنة يتبرؤون من تمثيل

الله عز وجل بخلقه، لا في ذاته ولا في صفاته. والتمثيل: ذكر مماثل للشيء، وبينه وبين التكيف عموم وخصوص مطلق، لأن كل ممثل مكيف، وليس كل مكيف ممثلاً، لأن التكيف ذكر كيفية غير مقرونة بمماثل، مثل أن تقول: لي قلم كيفيته كذا وكذا. فإن قرنت بمماثل، صار تمثيلاً، مثل أن أقول: هذا القلم مثل هذا القلم، لأنني ذكرت شيئاً ممثلاً لشيء وعرفت هذا القلم بذكر مماثلة.

وأهل السنة والجماعة يشبّهون الله عز وجل الصفات بدون مماثلة، يقولون: إن الله عز وجل له حياة وليست مثل حياتنا، له علم وليس مثل علمنا، له بصر، ليس مثل بصرنا، له وجه وليس مثل وجوهنا له يد وليست مثل أيدينا.... وهكذا جميع الصفات، يقولون: إن الله عز وجل لا يماثل خلقه فيما وصف به نفسه أبداً، ولهم على ذلك أدلة سمعية وأدلة عقلية:

أ- الأدلة السمعية:

تنقسم إلى قسمين: خبر، وطلب.

– فمن الخبر قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، فالآية فيها نفي صريح للتمثيل وقوله: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: ٦٥]، فإن هذا وإن كان إنشاء، لكنه بمعنى الخبر، لأنه استفهام بمعنى النفي وقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤]، فهذه كلها تدل على نفي المماثلة، وهي كلها خبرية.

– وأما الطلب، فقال الله تعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا} [البقرة: ٢٢] أي: نظراء مماثلين. وقال: {فَلَا تَضُرُّوهُ} [النحل: ٧٤].

فمن مثل الله بخلقه، فقد كذب الخبر وعصى الأمر ولهذا أطلق بعض السلف القول بالتكفير لمن مثل الله بخلقه، فقال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري رحمه الله: "من شبه الله بخلقه، فقد كفر" (رواه اللالكائي في "شرح السنة" (٩٣٦). والذهبي في "العلو" ص ١١٦ وصححه الألباني، انظر: "سير الأعلام النبلاء" (١٠/٦١٠)، لأنه جمع بين التكذيب بالخبر وعصيان الطلب.

وأما الأدلة العقلية على انتفاء التماثل بين الخالق والمخلوق: فمن وجوه:

"أولاً: أن نقولك لا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق بأي حال من الأحوال لو لم يكن بينهما من التباين إلا أصل الوجود، لكان كافياً، وذلك أن وجود الخالق واجب، فهو أزلي أبدي، ووجود المخلوق ممكن مسبوق بعدم ويلحقه فناء، فما كانا كذلك لا يمكن أن يقال: إنهما متماثلان.

ثانياً: أنا نجد التباين العظيم بين الخالق والمخلوق في صفاته وفي أفعاله، في صفاته يسمع عز وجل كل صوت مهما خفي ومهما بعد، لو كان في قعر البحار، لسمعه عز وجل.

وأنزله الله قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١]، تقول عائشة: ((الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي الحجرة، وإنه

ليخفي على بعض حديثها)) (رواه البخاري معلقاً "الفتح" (٣٧٢/١٣١) في كتاب التوحيد/ باب {وَكَانَ اللَّهُ

سَمِيعاً بَصِيراً}. وقد وصله الإمام أحمد في "المسند" (٤٦/٦)، وابن كثير ٢٨٦/٤، وابن ماجة بهذا اللفظ، ورواه أيضاً بلفظ "تبارك" (٢٠٦٣)، والله تعالى سمعها من على عرشه وبينه وبينها ما لا يعلم مداه إلا الله عز وجل، ولا

يمكن أن يقول قائل: إن سمع الله مثل سمعنا. ثالثاً: نقول: نحن نعلم أن الله تعالى مبين للخلق بذاته: {وَسِعَ

كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [البقرة: ٢٥٥]، {وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ} [الزمر: ٦٧]، ولا يمكن لأحد من الخلق أن يكون هكذا، فإذا كان مبيناً للخلق في ذاته، فالصفات تابعة للذات، فيكون أيضاً مبيناً للخلق في صفاته عز وجل، ولا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق.

رابعاً: نقول: إننا نشاهد في المخلوقات أشياء تتفق في الأسماء وتختلف في المسميات، يختلف الناس في

صفاتهم: هذا قوي البصر وهذا ضعيف، وهذا قوي السمع وهذا ضعيف، هذا قوي البدن وهذا ضعيف وهذا ذكر

وهذا أنثى.... وهكذا التباين في المخلوقات التي من جنس واحد، فما بالك بالمخلوقات المختلفة الأجناس؟

فالتباين بينها أظهر ولهذا، لا يمكن لأحد أن يقول: إن لي يداً كيد الجمل، أولي يداً كيد الذرة، أول يداً كيد الهر، فعندنا الآن إنسان وجمل وذرة وهر، كل واحد له يد مختلفة عن الثاني، مع أنها متفقة في الاسم فنقول: إذا جاز التفاوت بين المسميات في المخلوقات مع اتفاق الاسم، فجوازه بين الخالق والمخلوق ليس جائزاً فقط، بل هو واجب، فعندنا أربعة وجوه عقلية كلها تدل على أن الخالق لا يمكن أن يماثل المخلوق بأي حال من الأحوال. ربما نقول أيضاً: هناك دليل فطري، وذلك لأن الإنسان بفطرته بدون أن يلحق يعرف الفرق بين الخالق والمخلوق ولولا هذه الفطرة، ما ذهب يدعو الخالق.

فتبين الآن أن التمثيل منتف سماعاً وعقلاً وفطرة.

فإن قال قائل: إن النبي صلى الله عليه وسلم حدثنا بأحاديث تشبه علينا، هل هي تمثيل أو غير تمثيل؟ ونحن نضعها بين أيديكم:

... - قال النبي صلى الله عليه وسلم "إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليل لبدراً، لا تضامون في رؤيته" (رواه البخاري ومسلم)، فقال: "كما" والكاف للتشبيه، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن من قاعدتنا أن نؤمن بما قال الرسول كما نؤمن بما قال الله، فأجيبوا عن هذا الحديث؟

نقول: نجيب عن هذا الحديث وعن غيره بجوابين: الجواب الأول مجمل والثاني مفصل.

فالأول المجمل: أنه لا يمكن أن يقع تعارض بين كلام الله وكلام رسوله الذي صح عنه أبداً، لأن الكل حق، والحق لا يتعارض، والكل من عند الله، وما عند الله تعالى لا يتناقض {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]، فإن وقع ما يوهم التعارض في فهمك، فأعلم أن هذا ليس بحسب النص، ولكن باعتبار ما عندك، فأنت إذا وقع التعارض عندك في نصوص الكتاب والسنة، فإما لقلة العلم، وإما لقصور الفهم، وإما للتقصير في البحث والتدبر، ولو بحثت وتدبرت، لوجدت أن التعارض الذي توهمته لا أصل له، وإما لسوء القصد والنية، بحيث تستعرض ما ظاهره التعارض لطلب التعارض، فتحرم التوفيق، كأهل الزيغ الذين يتبعون المتشابه.

ويتفرع على هذا الجواب المجمل أنه يجب عليك عند الاشتباه أن ترد المشتبه إلى المحكم، لأن هذه الطريق . الراسخين في العلم، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧]، ويحملون المتشابه على المحكم حتى يبقى النص كله محكماً.

وأما الجواب المفصل، فأن نجيب عن كل نص بعينه فنقول:

إن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته" ليس تشبيهاً للمرئي بالمرئي، ولكنه تشبيه للرؤية بالرؤية، "سترون... كما ترون"، فالكاف في: "كما ترون": داخله على

مصدر مؤول، لأن (ما) مصدرية، وتقدير الكلام: كرؤيتكم القمر ليلة البدر وحينئذ يكون التشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي، والمراد أنكم ترونه رؤية واضحة كما ترون القمر ليلة البدر ولهذا أعقبه بقوله: "لا تضامون في رؤيته" أو: "لا تضارون في رؤيته" فزال الإشكال الآن.

— قال النبي صلى الله عليه وسلم "((إن الله خلق آدم على صورته))، والصورة مماثلة للأخرى، ولا يعقل صورة إلا مماثلة للأخرى، ولهذا أكتب لك رسالة، ثم تدخلها الآلة الفوتوغرافية، وتخرج الرسالة، فيقال: هذه صورة هذه، ولا فرق بين الحروف والكلمات، فالصورة مطابقة للصورة، والقائل: "إن الله خلق آدم على صورته": الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم وأصدق وأنصح وأفصح الخلق.

والجواب المجمل أن نقول: لا يمكن أن يناقض هذا الحديث قوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، فإن يسر الله لك الجمع، فاجمع، وإن لم يتيسر، فقل: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧]، وعقيدتنا أن الله لا مثيل له، بهذا تسلم أما الله عز وجل.

هذا كلام الله، وهذا كلام رسوله، والكل حق، ولا يمكن أن يكذب بعضه بعضاً، لأنه كله خبر وليس حكماً كي ينسخ، فأقول: هذا نفي للماثلة، وهذا إثبات للصورة، فقل: إن الله ليس كمثله شيء، وإن الله خلق آدم على صورته، فهذا كلام الله، وهذا كلام رسوله والكل حق نؤمن به، ونقول: كل من عند ربنا، ونسكت وهذا هو غاية ما نستطيع.

وأما الجواب المفصل، فنقول: إن الذي قال: "((إن الله خلق آدم على صورته))" (رواه البخاري ومسلم) رسول الذي قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١] والرسول لا يمكن أن ينطلق بما يكذب المرسل والذي قال: "خلق آدم على صورته": هو الذي قال: "إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر" ١، فهل أنت تعتقد أن هؤلاء الذين يدخلون الجنة على صورة القمر من كل وجه أو تعتقد أنهم على صورة البشر لكن في الوضاعة والحسن والجمل واستدارة الوجه وما أشبه ذلك على صورة القمر، لا من كل وجه؟! فإن قلت بالأول، فمقتضاه أنهم دخلوا وليس لهم أعين وليس لهم أناف وليس لهم أفواه! وإن شئنا قلنا: دخلوا وهم أحجار! وإن قلت بالثاني؛ زال الإشكال، وتبين أنه لا يلزم من كون الشيء على صورة الشيء أن يكون مماثلاً له من كل وجه. فإن أبي فهمك، وتقاصر عن هذا، وقال: أنا لا أفهم إلا أنه مماثل.

قلنا: هناك جواب آخر، وهو أن الإضافة هنا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، فقوله: "على صورته"، مثل قوله عز وجل في آدم: {وَوَفَّقْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} [ص: ٧٢]، ولا يمكن أن الله عز وجل أعطى آدم جزءاً من روحه، بل المراد الروح التي خلقها الله عز وجل، لكن إضافتها إلى الله بخصوصها من باب التشريف، كما نقول: عباد الله، يشمل الكافر والمسلم والمؤمن والشهيد والصديق والنبي لكننا لو قلنا: محمد عبد الله، هذه إضافة خاصة ليست كالعبودية السابقة.

فقوله: "خلق آدم على صورته"، يعني: صورة من الصور التي خلقها الله وصورها، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} [الأعراف: ١١]، والمصور آدم إذاً، فآدم على صورة الله، يعني: أن الله هو الذي صوره

على هذه الصورة التي تعد أحسن صورة في المخلوقات، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤]، فإضافة الله الصورة إليه من باب التشريف، كأنه عز وجل اعتنى بهذه الصورة ومن أجل ذلك، لا تضرب الوجه، فتعيبه حساً، ولا تقبحه فتقول: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فتعيبه معنى، فمن أجل أنه الصورة التي صورها الله وأضافها إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، لا تقبحها بعيب حسي ولا بعيب معنوي.

ثم هل يعتبر هذا الجواب تحريفاً أم له نظير؟

نقول: له نظير، كما في: بيت الله، وناقة الله، وعبد الله، لأن هذه الصورة (أي: صورة آدم) منفصلة بئنة من الله وكل شيء أضافه الله إلى نفسه وهو منفصل بائن عنه، فهو من المخلوقات، فحينئذ يزول الإشكال.

ولكن إذا قال لقائل: أيما أسلم المعنى الأول أو الثاني؟ قلنا: المعنى الأول أسلم، ما دمنا نجد أن لظاهر اللفظ مساعاً في اللغة العربية وإمكاناً في العقل، فالواجب حمل الكلام عليه ونحن وجدنا أن الصورة لا يلزم منها مماثلة الصورة الأخرى، وحينئذ يكون الأسلم أن نحمله على ظاهره.

فإذا قلت: ما هي الصورة التي تكون لله ويكون آدم عليها؟

قلنا: إن الله عز وجل له وجه وله عين وله يد وله رجل عز وجل، لكن لا يلزم من أن تكون هذه الأشياء مماثلة للإنسان، فهناك شيء من الشبه لكنه ليس على سبيل المماثلة، كما أن الزمرة الأولى من أهل الجنة فيها شبه من القمر لكن بدون مماثلة، وبهذا يصدق ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، من أن جميع صفات الله سبحانه وتعالى ليست مماثلة لصفات المخلوقين، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكيف ولا تمثيل.

نسمع كثيراً من الكتب التي نقرأها يقولون: تشبيهه، يعبرون بالتشبيه وهم يقصدون التمثيل، فأیما أولى: أنعبر بالتشبيه، أو نعبر بالتمثيل؟

نقول: بالتمثيل أولى.

أولاً: لأن القرآن عبر به: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً} [البقرة: ٢٢].. وما أشبه ذلك، وكل ما عبر به القرآن، فهو أولى من غيره، لأننا لا نجد أفصل من القرآن ولا أدل على المعنى المراد من القرآن، والله أعلم بما يريد من كلامه، فتكون موافقة القرآن هي الصواب، فنعبر بنفي التمثيل. وهكذا في كل مكان، فإِ، موافقة النص في اللفظ أولى من ذكر لفظ مرادف أو مقارب.

ثانياً: أن التشبيه عند بعض الناس يعني إثبات الصفات ولهذا يسمون أهل السنة: مشبهة، فإن قلنا: من غير تشبيه. وهذا الرجل لا يفهم من التشبيه إلا إثبات الصفات، صار كأننا نقول له: من غير إثبات صفات! فصار معنى

التشبيه. وهذا الرجل لا يفهم من التشبيه إلا إثبات الصفات، صار كأننا نقول له: من غير إثبات صفات! فصار معنى التشبيه يوهم معنى فاسداً فلماذا كان العدول عنه أولى.

ثالثاً: أن نفي التشبيه على الإطلاق غير صحيح، لأن ما من شيئين من الأعيان أو من الصفات إلا وبينهما اشتراك من بعض الوجوه، والاشتراك نوع تشابه، فلو نفيت التشبيه مطلقاً، لكنت نفيت كل ما يشترك فيه الخالق والمخلوق في شيء ما.

مثلاً: الوجود، يشترك في أصله الخالق والمخلوق، هذا نوع اشتراك ونوع تشابه، لكن فرق بين الوجودين، وجود الخالق واجب ووجود المخلوق ممكن.

وكذلك السمع، فيه اشتراك، الإنسان له سمع، والخالق له سمع، لكن بينهما فرق، لكن أصل وجود السمع المشترك.

فإذا قلنا: من غير تشبيه. ونفينا مطلق التشبيه، صار في هذا إشكال.

وبهذا عرفنا أن التعبير بالتمثيل أولى من ثلاثة أوجه.

فإن قلت: ما الفرق بين التكييف والتمثيل؟

فالجواب: الفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن التمثيل ذكر الصفة مقيدة بمماثل، فتقول يد فلان مثل يد فلان، والتكييف ذلك الصفة غير مقيدة بمماثل، مثل أن تقول: كيفية يد فلا كذا وكذا.

وعلى هذا نقول: كل ممثل مكيف، ولا عكس.

الثاني: أن الكيفية لا تكون إلا في الصفة والهيئة، والتمثيل يكون في ذلك وفي العدد، كما في قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: ١٢]، أي: في العدد.

* قوله: "بل يؤمن بأن الله سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]".

الشرح:

قوله: "بل يؤمنون..."؛ أي: يقر أهل السنة والجماعة بذلك إقراراً وتصديقاً بأن الله ليس كمثله شيء، كما قال عن

نفسه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، فهنا نفى المماثلة، ثم أثبت السمع والبصر فنفي

العيب، ثم أثبت الكمال، لأن نفي العيب قبل إثبات الكمال أحسن، ولهذا يقال: التخلية قبل التحلية. فنفي

العيوب يبدأ به أولاً، ثم يذكر إثبات الكمال.

وكلمة {شَيْءٌ} نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء، ليس شيء مثله أبداً عز وجل أي مخلوق وإن عظم، فليس

مماثلاً لله عز وجل، لأن مماثلة الناقص نقص، بل إن طلب المفاضلة بين الناقص والكمال تجعله ناقصاً، كما قيل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فهنا لو قلنا: إن لله مثيلاً، لزم من ذلك تنقص الله عز وجل، فلهذا نقول: نفى الله عن نفسه مماثلة المخلوقين، لأن مماثلة المخلوقين نقص وعيب، لأن المخلوق ناقص، وتمثيل

الكامل بالناقص يجعله ناقصاً، بل ذكر المفاضلة بينهما يجعله ناقصاً، إلا إذا كان في مقام التحدي، كما في قوله تعالى: {أَلَلَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: ٥٩]، وقوله: {قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} [البقرة: ١٤٠].

وفي قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} رد صريح على الممثلة الذين يشبّتون أن الله سبحانه وتعالى له مثل.

وحجة هؤلاء يقولون: إن القرآن عربي، وإذا كان عربياً، فقد خاطبنا الله تعالى بما نفهم، ولا يمكن أن يخاطبنا بما لا نفهم، وقد خاطبنا الله تعالى، فقال: إن له وجهاً وإن له عيناً، وإن له يدين... وما أشبه ذلك ونحن لا نعقل

بمقتضى اللغة العربية من هذه الأشياء إلا مثل ما تشاهد، وعلى هذا، فيجب أن يكون مدلول هذه الكلمات مماثلاً لمدلولها بالنسبة للمخلوقات: يد ويد، وعين وعين، ووجه ووجه... وهكذا، فنحن إنما قلنا بذلك لأن لدينا دليلاً.

ولا شك أن هذه الحجة واهية يوهيها ما سبق ما بيان أن الله ليس له مثل ونقول: إن الله خاطبنا بما خاطبنا به من صفاته، لكننا نعلم علم اليقين أن الصفة بحسب الموصوف ودليل هذا في الشاهد، فإنه يقال للجمل يد وللذرة

يد، ولا أحد يفهم من اليد التي أضفناها إلى الجمل أنها مثل اليد التي أضفناها إلى الذرة! هذا وهو في

المخلوقات، فكيف إذا كان ذلك من أوصاف الخالق؟! فإن التباين يكون أظهر وأجلى.

وعلى هذا، فيكون قول هؤلاء الممثلة مردوداً بالعقل كما أنه مردود بالسمع.

قال الله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، فأثبت لنفسه سبحانه وتعالى السمع والبصر، لبيان كمال، ونقص الأصنام

التي تعبد من دونه، فالأصنام التي تعبد من دون الله تعالى لا يسمعون، ولو سمعوا، ما استجابوا، ولا يبصرون، كما

قال الله عز وجل: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النحل: ٢٠-٢١]، فهم ليس لهم سمع ولا عقل ولا بصر ولو فرض أن لهم ذلك، ما استجابوا: {وَمَنْ

أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} [الأحقاف: ٥].

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بانتفاء المماثلة عن الله، لأنها عيب ويشبّتون له السمع والبصر، لقوله تعالى: {لَيْسَ

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

وإيمان الإنسان بذلك يثمر للعبد أن يعظمه غاية التعظيم، لأنه ليس مثله أحد من المخلوقات، فتعظم هذا الرب

العظيم الذي لا يماثله أحد، وإلا، لم يكن هناك فائدة من إيمانك بأنه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

إذا آمنت بأنه سميع، فإنك سوف تحترز عن كل قول يغضب الله، لأنك تعلم أنه يسمعك، وتخشى عقابه؛ فكل

قول يكون فيه معصية الله عز وجل؛ فسوف تتحاشاه؛ لأنك تؤمن بأنه سميع،

... لو أن أحداً أشر بأصبعه أو شفته أو بعينه أو برأسه لأمر محرم، فالناس الذين حوله لا يعلمون عنه، لكن الله

تعالى يراه، فليحذر هذا من يؤمن به، ولو أننا نؤمن بما تقتضيه أسماء الله وصفاته، لوجدت الاستقامة كاملة فينا

فالله المستعان".

١ - قال ابن عثيمين في شرح الواسطية: "من غير تكييف": (التكييف): لم ترد في الكتاب والسنة، لكن ورد ما يدل على النهي عنها.

التكييف: هو أن تذكر كيفية الصفة، ولهذا تقول: كيف يكيف تكييفاً، أي ذكر كيفية الصفة.

التكييف يسأل عنه بـ(كيف)، فإذا قلت مثلاً: كيف جاء زيد؟ تقول: ركباً. إذاً: كيفت مجيئه. كيف لون السيارة؟ أبيض. فذكرت اللون.

أهل السنة والجماعة لا يكيّفون صفات الله، مستنديّن في ذلك إلى الدليل السمعي والدليل العقلي: أما الدليل السمعي، فمثل قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]، والشاهد في قوله {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

فإذا جاء رجل وقال: إن الله استوى على العرش، على هذه الكيفية ووصف كيفية معينة: نقول: هذا قد قال على الله ما لا يعلم! هل أخبرك الله بأنه استوى على هذه الكيفية؟! لا، أخبرنا الله بأنه استوى ولم يخبرنا كيف استوى. فنقول: هذا تكييف وقول على الله بغير علم.

ولهذا قال بعض السلف إذا قال لك الجهمي: إن الله ينزل إلى السماء، فكيف ينزل؟ فقل: إن الله أخبرنا أنه ينزل، ولم يخبرنا كيف ينزل. وهذه قاعدة مفيدة.

دليل آخر من السمع: قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦]: لا تتبع ما ليس لك به علم، {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦].

وأما الدليل العقلي، فكيفية الشيء لا تدرك إلا بواحد من أمور ثلاثة: مشاهدته، أو مشاهدة نظيره، أو خبر الصادق عنه أي: إما أن تكون شاهدته أنت وعرفت كيفيته. أو شاهدت نظيره، كما لو قال واحد: إن فلاناً اشترى سيارة داتسون موديل ثمان وثمانين رقم ألفين. فتعرف كيفيتها، لأن عندك مثلها أو خبر صادق عنه، أذاك رجل صادق وقال: إن سيارة فلا صفتها كذا وكذا.. ووصفها تماماً، فتدرك الكيفية الآن.

ولهذا أيضاً قال بعض العلماء جواباً لطيفاً: إن معنى قولنا: "بدون تكييف": ليس معناه ألا نعتقد لها كيفية، بل نعتقد لها كيفية لكن المنفى علمنا بالكيفية لأن استواء الله على العرش لا شك أن له كيفية، لكن لا تعلم، نزوله إلى السماء الدنيا له كيفية، لكن لا تعلم، لأن ما من موجود إلا وله كيفية، لكنها قد تكون معلومة، وقد تكون مجهولة.

سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]: كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه العرق، ثم رفع رأسه وقال: "الاستواء غير مجهول"، أي: من حيث المعنى معلوم، لأن اللغة العربية بين أيدينا، كل المواضع التي وردت فيها {اسْتَوَى} معداة بـ(على) معناها العلو فقال: "الاستواء غير

مجهول والكيف غير معقول" لأن العقل لا يدرك الكيف، فإذا انتفى الدليل السمعي والعقلي عن الكيفية، وجب الكف عنها، "والإيمان به واجب"، لأن الله أخبر به عنه نفسه، فوجب تصديقه، "والسؤال عن بدعة" ١: السؤال عن الكيفية

. بدعة، لأن من أهم أحرص منا على العلم ما سألوا عنها وهم الصحابة لما قال الله: {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤]، عرفوا عظمة الله عز وجل، ومعنى الاستواء على العرش، وأنه لا يمكن أن تسأل: كيف استوى؟ لأنك لن تدرك ذلك فحن إذا سئلنا، فنقول: هذا السؤال بدعة.

وكلام مالك رحمه الله ميزان لجميع الصفات، فإن قيل لك مثلاً: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا، كيف ينزل؟ فالنزل غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عن بدعة والذين يسألون: كيف يمكن النزول وثلاث الليل ينتقل؟! فنقول: السؤال هذا بدعة كيف تسأل عن شيء ما سأل عنه الصحابة وهم أحرص منك على الخير وعلى العلم بما يجب لله عز وجل، ولسنا بأعلم من الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو لم يعلمهم. فسؤالك هذا بدعة، ولولا أننا نحسن الظن بك، لقلنا ما يليق بك بأنك رجل مبتدع. والإمام مالك رحمه الله قال: "ما أراك إلا مبتدعاً" ثم أمر به فأخرج، لأن السلف يكرهون أهل البدع وكلامهم واعتراضاتهم وتقديراتهم ومجادلاتهم.

فأنت يا أخي عليك هذا الباب بالتسليم، فمن تمام الإسلام لله عز وجل ألا تبحث في هذه الأمور، ولهذا أحذركم دائماً من البحث فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته على سبيل التعنت والتنطع والشيء الذي ما سأل الصحابة عنه، لأننا إذا فتحنا على أنفسنا هذه الأبواب، انفتحت علينا الأبواب، وتهدمت الأسوار، وعجزنا عن ضبط أنفسنا، فلذلك قل: سمعنا وأطعنا وآمنا وصدقنا، آمنا وصدقنا بالخبر وأطعنا الطلب وسمعنا القول، حتى تسلم!

وأى إنسان يسأل فيما يتعلق بصفات الله عن شيء ما سأل عنه الصحابة، فقل كما قال الإمام مالك، فإن لك سلفاً: السؤال عن هذا بدعة. وإذا قلت ذلك، لن يلح عليك، وإذا ألح، فقل: يا مبتدع! السؤال عنه بدعة، اسأل عن الأحكام التي أنت مكلف بها، أما أن تسأل عن شيء يتعلق بالرب عز وجل وبأسمائه وصفاته، ولم يسأل عنه الصحابة، فهذا لا نقبله منك أبداً!

وهناك كلام للسلف يدل على أنهم يفهمون معاني ما أنزل الله على رسوله من الصفات، كما نقل عن الأوزاعي وغيره، نقل عنهم أنهم قالوا في آيات الصفات وأحاديثها: "أمروها كما جاءت بلا كيف" (أخرجه اللالكائي في "شرح السنة")، وهذا يدل على أنهم يشتون لها معنى من وجهين:

أولاً: أنهم قالوا: "أمروها كما جاءت" ومعلوم أنها ألفاظ جاءت لمعاني ولم تأت عبثاً، فإذا أمرناها كما جاءت، لزم من ذلك أن نثبت لها معنى.

ثانياً: قوله: "بلا كيف" لأن نفي الكيفية يدل على وجود أصل المعنى، لأن نفي الكيفية عن شيء لا يوجد لغو وعيب.

إذاً، فهذا الكلام المشهور عند السلف يدل على أنهم يشبّون لهذه النصوص معنى.

١ - الغلو في التنزيه المفضي الى التعطيل من مسالك الشيطان وبه ضل كثير من الناس

قال ابن عثيمين في شرح السفارينية: "والتعطيل: هو (تخليّة الله تعالى عما يجب له من الأسماء والصفات)، فيعطلون النصوص عن مدلولها ويخلون الله عز وجل عن ما يتصف به مما تقتضيه هذه النصوص هؤلاء أهل التعطيل،

أهل السنة والجماعة يتبرءون من ذلك، وإنما قال المؤلف: (بالتنزيه من غير تعطيل): لأن المعطلة الذين أنكروا صفات الله أو أنكروا بعضها أو أنكروا الأسماء والصفات أيضاً، يقولون: إنهم ينزهون الله عز وجل يدعون أنهم منزهون لله، كيف ذلك؟ يقولون: لأن إثبات هذه الصفات يقتضي التشبيه والله منزّه عن المشابهة، فإذاً يجب أن ننكر هذه الصفات،

والغالون: قالوا: يجب أن ننكر حتى الأسماء، لأن إثبات الأسماء على زعمهم ينافي تنزيه الله سبحانه وتعالى حيث إنه يقتضي التشبيه عندهم،

أما أهل السنة فينزهون الله عن النقص ولا يعطلون النصوص الواردة في إثبات الصفات". وقال ايضاً: "والتعطيل نوعان:

١ - تعطيل للنص،

٢ - وتعطيل للصفة،

فأما تعطيل النص: فتعطيله عن دلالة،

وأما تعطيل للصفة: فنفيها عن الله عز وجل،

مثلاً: اليد تعطيلها باعتبار تعطيل صفة، أن يقول: ليس لله يد حقيقية،

وتعطيل النص: أن يقول: قوله تعالى: {لما خلقتُ بيديَّ} [ص ٧٥] أي بقدرتي أو نعمتي،

فالتعطيل إذن إما تعطيل للنصوص بمنع دلالاتها على ما أُريدَ بها،

وإما تعطيل للصفات بنفيها عن الله سبحانه وتعالى مع ثبوتها له،

أهل السنة والجماعة يتبرءون من التعطيلين،

لأنهم يجرون النصوص على ظاهرها ولأنهم يشبّون الله ما أثبتّه الله لنفسه،

ثم اعلم أن التعطيل الذي ينفيه أهل السنة والجماعة ينقسم إلى أقسام:

١ - أولاً: تعطيل جزئي: يكون بإثبات الأسماء وإثبات سبع من الصفات وإنكار الباقي، وهذا مذهب الأشاعرة

الأشاعرة يشبتون الأسماء لله عز وجل ويشبتون سبعاً من الصفات وينكرون الباقي ،
 فإذا جاءت النصوص بدلالة على الباقي حرفوها ، فيكون هؤلاء عطّلوا النصوص وعطلوا الصفات فيما نفوه ،
 فمثلاً : يقولون : { رضي الله عنهم ورضوا عنه } [المائدة ١١٩] ، يقولون : معنى : { رضي الله عنهم } : أي
 أثابهم ،

يفسرون الرضا بالمفعول المنفصل عن الله وهو الثواب فهؤلاء عطّلوا ماذا ؟
 عطّلوا الصفة وهي الرضى ،

وعطّلوا النص فصرفوا وهو دلالة عن الرضى إلى الثواب فعطلوه عن مدلوله ،

٢ - فيه تعطيل فوق ذلك : بتعطيل الصفات كلها دون الأسماء ،

فينكرون الصفات عن الله ويشبتون الأسماء ،

ومنهم يقر بالعلم والحياة والقدرة لأنه لا بد للرب منها وما عدا ذلك يحرفونه ،

وهؤلاء هم المعتزلة هذا المشهور عنهم ،

أنهم يقرون الأسماء ولكن ينكرون الصفات أو يقرون بثلاث صفات وينكرون الباقي ،

٣ - الثالث : تعطيل فوق ذلك : وهو إنكار الأسماء والصفات ،

فيقولون : إن الله لا يسمى سميعاً ولا يثبت له سمع وكل ما سمي الله به نفسه يجعلونه اسماً للمخلوقات ، السميع

ليس الله هو السميع بل السميع خلقه وأضيف السمع إليه لأن الله هو الذي خلقه في هذا ، فيجعلون الأسماء

والصفات كلها للمخلوقات لا للخالق عز وجل ،

وهؤلاء غلاة الجهمية يقولون : لا نؤمن بأن الله له أسماء ولا بأن الله له صفات ،

٤ - الرابع : قوم فوق ذلك : لا يشبتون لله أي صفة ثبوتية ،

كل شيء ثبوتي لا يشبتونه لله ، وإنما يشبتون لله السلبيات فقط ،

فيقولون مثلاً : ليس بمعدوم ليس بجاهل ليس بأصم ليس بأعمى ،

وأما إثبات الصفة فهي ممنوعة لا الأسماء ولا الصفات ،

وهؤلاء أيضاً القرامطة وأشباههم ،

٥ - والخامس : فوق ذلك : وهم الذين يعطلون النفي والإثبات ،

فلا يصفون الله بصفة ثبوتية ولا بصفة سلبية ،

وهذا مذهب غلاة الغلاة (ذكرها الشيخ في المناقشة) ،

فيقولون : إنه لا يرضى فلا ثبت الرضى ، ولا نقول : لا ، لا يرضى ،

لا يشبتون الإثبات ولا النفي ،

يقولون : لا نقول : حي ولا ميت لا سميع ولا أصم لا بصير ولا أعمى ،

فينفون عنه النفي والإثبات ،
يقولون : لأنك لو أثبتت لشبهته بالمشبات ولو نفيت لشبهته بالمنفيات ،
فأنت واقع في التشبيه سواء أثبتت أم نفيت ،
فنقول لهم : هل تقولون : إنه موجود ؟ فسيقولون : لا ، هل تقولون : معدوم ؟ لا ،
إذن لا موجود ولا معدوم ،
وهل هذا ممكن أن يكون الشيء لا موجوداً ولا معدوماً أو أن يكون الشيء موجوداً معدوماً ؟
لا يمكن ،
إذن أنتم الآن فررتم من تشبيهه بالمنفيات أو بالمشبات وشبهتموه بالمتنوعات ،
والممتنع لا وجود له أصلاً ،
انظر كيف الشيطان يلعب ببني آدم إلى هذا الحد ،
يقول : إن قلت : حي فقد شبهت ، وإن قلت : ليس بحي فقد شبهت ،
إن قلت : السميع شبهت إن قلت : ليس بسميع شبهت ،
ماذا نصنع ؟
قل : لا سميع ولا غير سميع ،
إن قلت : موجود شبهت ، إن قلت : لا موجود شبهت ،
إذن ماذا أقول ؟
قل : لا موجود ولا لا موجود ،
وهذا غاية ما يكون من الامتناع ، وقال لهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال : يا جماعة - يعني بهذا المعنى
ما هو بهذا اللفظ - أنتم إن فررتم من تشبيهه بالمشبات والمنفيات مع أن المشبات والمنفيات أمر ممكن فقد
شبهتموه بالمتنوعات ،
لأن تقابل والنفي والإثبات بإجماع العقلاء من باب تقابل النقيضين ،
يعني لو سلمنا جدلاً بأن الحياة والموت من باب تقابل العدم والملكة ،
وأنه يصح أن نقول : لا حي ولا ميت فيما لا حي ولا ميت ، فيما لا يقبل الحياة ولا الموت كالجماد ،
مثلاً : الجدار هذا نقول : لا حي ولا ميت ، لأنه لا يقبل الحياة ولا الموت ،
يعني لو سلمنا جدلاً أن نوافقكم بأن تقابل الحياة والموت والسمع والصمم ، من باب تقابل العدم والملكة التي
يجوز أن تُنفى عن من لا يكون محلاً قابلاً لها ،
لكن لا يمكن أن تخرجوا عن الإثبات والنفي ،
لأن تقابل الإثبات والنفي من باب تقابل النقيضين يعني ليس هناك شيء إلا موجود أو معدوم إلا ثابت أو منفي ،

فإذا نفيتم الإثبات والنفي أو الوجود والعدم فقد أثبتتم بما أجمع العقلاء على امتناعه لماذا ؟
لأن تقابل الوجود والعدم والإثبات والنفي من باب تقابل النقيضين اللذين أجمع العقلاء على أنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان ،

فأنتم لا بد أن تصفوه إما بالوجود وإما بالعدم ،

إما أن تقولوا : ليس بموجود ،

أو تقولوا : ليس بمعدوم ،

أما أن تقولوا : لا موجود ولا معدوم ، فهذا شيء ممتنع ،

على كل حال صار التعطيل خمسة أنواع ،

الخامس : يقول شيخ الإسلام : إن هؤلاء غلاة القرامطة والباطنية يقولون هكذا لا يصفون الله بالصفات الثبوتية ولا بالسلبية وهو كما عرفتم ،

إذن خمسة أنواع التعطيل ،

أهل السنة والجماعة يتبرءون من جميع هذه الأنواع ويشتون لله كل ما أثبتته لنفسه ،

ويقولون لهؤلاء : إنكم ما فررتم من شيء إلا وقعتم في شر منه لا في مثله فحسب في شر منه ،

لأن هؤلاء إذا فروا من مما يعتقدونه تشبيهاً وأثبتوا صفةً أخرى ،

نقول لهم : هذه الصفة موجودة في المخلوق فقد وقعتم فيما فررتم منه من حيث التشبيه بالمخلوق وشر منه من حيث تحريف النص ،

ونضرب مثلاً : الذين يقولون : إن الله ليس له يدٌ حقيقية وإنما له قوة ،

لماذا لم يشبوا اليد الحقيقية ؟

قال : لأن هذا يقتضي التشبيه بالمخلوق الذي له يد وجارحة ،

نقول : والقوة هل للمخلوق قوة ؟

نعم ، لا يستطيع أن يقول : لا ،

والله يقول : { الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعفٍ قوةً ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبةً } [الروم

٥٤] ، أنتم الآن كان لكم ضعف ثم قوة ثم ضعف ،

فأنتم إذا قُلتُم : اليد القوة ، وقعتم في التشبيه على قاعدتكم ، لأن للمخلوق قوة فيلزم على قاعدتكم أن تكونوا مشبهين لله تعالى بخلقه ،

قلنا : وشر مما فروا منه وهو تحريف النص حيث حرفتم معنى النص إلى معنى خلاف الظاهر ،

وهكذا كل الذين يتكلمون في التعطيل نقول : هم فروا من شيء ووقعوا في شر منه ."

١ - قال الشيخ ابن عثيمين في شرح الواسطية: " في هذه الجملة بيان صفة إيمان أهل السنة بصفات الله تعالى، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بها إيماناً خالياً من هذه الأمور الأربعة: التحريف والتعطيل، والتكليف، والتمثيل. فالتحريف: التغيير وهو إما لفظي وإما معنوي.

والغالب أن التحريف اللفظي لا يقع، وإذا وقع، فإنما يقع من جاهل، فالتحريف اللفظي يعني تغيير الشكل، فمثلاً: فلا تجد أحداً يقول: "الحمد لله رب العالمين" بفتح الدال، إلا إذا كان جاهلاً.. هذا الغالب! لكن التحريف المعنوي هو الذي وقع فيه كثير من الناس.

فأهل السنة والجماعة إيمانهم بما وصف الله به نفسه خال من التحريف، يعني: تغيير اللفظ أو المعنى. وتغيير المعنى يسميه القائلون به تأويلاً ويسمون أنفسهم بأهل التأويل، لأجل أن يصبغوا هذا الكلام صبغة القبول، لأن التأويل لا تنفر منه النفوس ولا تكرهه، لكن ما ذهبوا إليه في الحقيقة تحريف، لأنه ليس عليه دليل صحيح، إلا أنهم لا يستطيعون أن يقولوا: تحريفاً! ولو قالوا: هذا تحريف، لأعلنوا على أنفسهم برفض كلامهم. ولهذا عبر المؤلف رحمه الله بالتحريف دون التأويل مع أن كثيراً ممن يتكلمون في هذا الباب يعبرون بنفي التأويل، يقولون: من غير تأويل، لكن ما عبر به المؤلف أولى لوجوه أربعة:

الوجه الأول: أنه اللفظ الذي جاء به القرآن، فإن الله تعالى قال: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [النساء: ٤٦]، والتعبير الذي عبر به القرآن أولى من غيره، لأنه أدل على المعنى.

الوجه الثاني: أنه أدل على الحال، وأقرب إلى العدل، فالمؤول بغير دليل ليس من العدل أن تسميه مؤولاً، بل العدل أن

نصفه بما يستحق وهو أن يكون محرّفاً.

الوجه الثالث: أن التأويل بغير دليل باطل، يجب البعد عنه والتنفير منه، واستعمال التحريف فيه أبلغ تنفيراً من التأويل، لأن التحريف لا يقبله أحد، لكن التأويل لين، تقبله النفس، وتستفصل عن معناه، أما التحريف، بمجرد ما نقول: هذا تحريف. ينفر الإنسان منه، إذا كان كذلك، فإن استعمال التحريف فيمن خالفوا طريق السلف أليق من استعمال التأويل.

الوجه الرابع: أن التأويل ليس مذموماً كله، قال النبي عليه الصلاة والسلام: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل"، وقال الله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [آل عمران: ٧]، فامتدحهم بأنهم يعلمون التأويل.

والتأويل ليس بمعنى العاقبة والمال، ويكون بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره.

(أ) يكون بمعنى التفسير، كثير من المفسرين عندما يفسرون الآية، يقولون: تأويل قوله تعالى كذا وكذا. ثم يذكرون المعنى والسمي التفسير تأويلاً، لأننا أولنا الكلام، أي: جعلناه يؤول إلى معناه وسمي التفسير تأويلاً، لأننا أولنا الكلام، أي: جعلناه يؤول إلى معناه المراد به.

" (ب) تأويل بمعنى: عاقبة الشيء، وهذا إن ورد في طلب، فتأويله فعله إن كان أمراً وتركه إن كان نهياً، وإن ورد في خبر، فتأويله وقوعه.

مثاله في الخبر قوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٥٣]، فالمعنى: ما ينتظر هؤلاء إلا عاقبة ومال ما أخبروا به، يوم يأتي ذلك المخبر به، يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسل ربنا بالحق.

ومنه قول يوسف لما خر له أبواه وإخوته سجداً قال: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} [يوسف: ١٠٠]: هذا وقوع رؤيائي، لأنه قال ذلك بعد أن سجدوا له.

ومثاله في الطلب قول عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده بعد أن أنزل عليه قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١]، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي))، يتأول القرآن. أي: يعمل به.

(ج) المعنى الثالث للتأويل: صرف اللفظ عن ظاهره وهذا النوع ينقسم إلى محمود ومذموم، فإن دل عليه دليل، فهو محمود النوع ويكون من القسم الأول، وهو التفسير، وإن لم يدل عليه دليل، فهو مذموم، ويكون من باب التحريف، وليس من باب التأويل.

وهذا الثاني هو الذي درج عليه أهل التحريف في صفات الله عز وجل.

مثاله قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]: ظاهر اللفظ أن الله تعالى استوى على العرش: استقر عليه، وعلا عليه، فإذا قال قائل: معنى {اسْتَوَى}: استولى على العرش، فنقول: هذا تأويل عندك لأنك صرفت اللفظ عن ظاهره، لكن هذا تحريف في الحقيقة، لأنه ما دل عليه دليل، بل الدليل على خلافه، كما سيأتي إن شاء الله.

فأما قوله تعالى {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١]، فمعنى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ}، أي سيأتي أمر الله، فهذا مخالف لظاهر اللفظ لكن عليه دليل وهو قوله: {فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}.

وكذلك قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردت أن تقرأ، وليس المعنى: إذا أكملت القراءة، قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لأننا علمنا من السنة أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا أرد أن يقرأ، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، لا إذا أكمل القراءة، فالتأويل صحيح.

وكذلك قول أنس بن مالك: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء، قال: ((أعوذ بالله من الخبث والخبائث))، فمعنى "إذا دخل": إذا أراد أن يدخل، لأن ذكر الله لا يليق داخل هذا المكان، فلهذا حملنا قوله "إذا دخل" على: إذا أراد أن يدخل: هذا التأويل الذي دل عليه صحيح، ولا يعدوا أن يكون تفسيراً.

ولذلك قلنا: إن التعبير بالتحريف عن التأويل الذي ليس عليه دليل صحيح أولى، لأنه الذي جاء به القرآن، ولأنه ألصق بطريق المحرف، ولأنه أشد تنفيراً عن هذه الطريقة المخالفة لطريق السلف، ولأن التحريف كله مذموم، بخلاف التأويل، فإن منه ما يكون مذموماً ومحموداً، فيكون التعبير بالتحريف أولى من التعبير بالتأويل من أربعة أوجه.

"ولا تعطيل": التعطيل بمعنى التخليّة والترك، كقوله تعالى: {وَبَنَرِ مُعْطَلَةً} [الحج: ٤٥]، أي: مخلاة متروكة. والمراد بالتعطيل: إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات، سواء كان كلياً أو جزئياً، وسواء كان ذلك بتحريف أو بجحود، هذا كله يسمى تعطيلاً.

فأهل السنة والجماعة لا يعطلون أي اسم من أسماء الله، أو أي صفة من صفات الله ولا يجحدونها، بل يقرون بها إقراراً كاملاً.

فإن قلت: ما الفرق بين التعطيل والتحريف؟

قلنا: التحريف في الدليل والتعطيل في المدلول، فمثلاً:

إذا قال قائل: معنى قوله تعالى {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]، أي بل قوته هذا محرف للدليل، ومعطّل للمراد الصحيح، لأن المراد اليد الحقيقية، فقد عطل المعنى المراد، وأثبت معنى غير المراد. وإذا قال: بل يده ميسوطتان، لا أدري! أفوض الأمر إلى الله، لا أثبت اليد الحقيقية، ولا اليد المحرف إليها اللفظ. نقول: هذا معطل، وليس بمحرف، لأنه لم يغير معنى اللفظ، ولم يفسره بغير مراده، لكن عطل معناه الذي يراد به، وهو إثبات اليد لله عز وجل.

أهل السنة والجماعة يتبرؤون من الطريقتين: الطريقة الأولى: التي هي تحريف اللفظ بتعطيل معناه الحقيقي المراد إلى معنى غير مراد. والطريقة الثانية: وهي طريقة أهل التفويض، فهم لا يفوضون المعنى كما يقول المفوضة بل يقولون: نحن نقول: {بَلْ يَدَاهُ}، أي: يدها الحقيقيتان {مَبْسُوطَتَانِ}، وهما غير القوة والنعمة. فعقيدة أهل السنة والجماعة بريئة من التحريف ومن التعطيل.

وبهذا تعرف ضلال أو كذب من قالوا: إن طريقة السلف هي التفويض، هؤلاء ضلوا إن قالوا ذلك عن جهل بطريقة السلف،

إن هؤلاء يقولون: إن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يدري عن معاني القرآن فيما يتعلق بالأسماء والصفات وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يدري، فغيره من باب أولى.

وأعجب من ذلك يقولون: الرسول صلى الله عليه وسلم يتكلم في صفات الله، ولا يدري ما معناه يقول: "ربنا الله الذي في السماء"، وإذا سئل عن هذا؟ قال: لا أدري وكذلك في قوله: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا" وإذا سئل ما معنى "ينزل ربنا"؟ قال: لا أدري.... وعلى هذا، ففس. وهل هناك قدح أعظم من هذا القدح بالرسول صلى الله

عليه وسلم بل هذا من أكبر القدح رسول من عند الله ليبين للناس وهو لا يدري ما معنى آيات الصفات وأحاديثها وهو يتكلم بالكلام ولا يدري معنى ذلك كله.

فهذان وجهان: تكذيب القرآن وتجهيل الرسول.

وفيه فتح الباب للزنادقة الذين تناولوا على أهل التفويض، وقال: أنتم لا تعرفون شيئاً، بل نحن الذين نعرف، وأخذوا يفسرون القرآن بغير ما أراد الله، وقالوا: كوننا نثبت معاني للنصوص خير من كوننا أميين لا نعرف شيئاً وذهبوا يتكلمون بما

يريدون من معنى كلام الله وصفاته!! ولا يستطيع أهل التفويض أن يردوا عليهم، لأنهم يقولون: نحن لا نعلم ماذا أراد الله، فجائز أن يكون الذي يريد الله هو ما قلتم! ففتحوا باب شرور عظيمة، ولهذا جاءت العبارة الكاذبة: "طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم".!

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "هذه قالها بعض الأغبياء" وهو صحيح، أن القائل غبي. هذه الكلمة من أكذب ما يكون نطقاً ومدلولاً، "طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم"، كيف تكون أعلم وأحكم وتلك أسلم؟! لا يوجد سلامة بدون علم وحكمة أبداً! فالذي لا يدري عن الطريق، لا يسلم، لأنه ليس معه علم، لو كان معه علم وحكمة، لسلم، فلا سلامة إلا بعلم وحكمة. إذا قلت: إن طريقة السلف أسلم، لزم أن تقول: هي أعلم وأحكم وإلا لكنت متناقصاً. إذاً، فالعبارة الصحيحة: "طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم"، وهذا معلوم. وطريقة الخلف ما قاله القائل:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم فلم أرد إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

(هذان البيتين ذكرهما عبد الكريم الشهرستاني في كتابه "نهاية الإقدام في علم علم الكلام". ولم يبين قائلهما. انظر: "الصواعق" لابن القيم (١/١٦٦))

هذه الطريقة التي يقول عنها: إنه ما وجد إلا واضعاً كف حائر ذقن. وهذا ليس عنده علم، أو آخر: قارعاً سن نادم لأنه لم يسلك طريق السلامة أبداً.

والرازي -وهو من كبرائهم- يقول:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لم يزل بخلقه خيرا		فلم يزل إلهنا بصيرا
وما يدور في العقول والحجا(١)		يرى ديب النمل في ليل الدجى

ثم يقول: "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي علياً ولا تروي غليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥] {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [الشورى: ١١]، {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: ١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي". أهؤلاء نقول: إن طريقتهم أعلم وأحكم؟!

الذي يقول: "إني أتمنى أن أموت على عقيدة عجائز (القائل هو أبو المعالي الجويني، انظر: "الصواعق" لابن القيم (١/١٦٧)).

نيسابور" والعجائز من عوام الناس، يتمنى أن يعود إلى الأميات! هل يقال: إنه أعلم وأحكم؟! أين العلم الذي عندهم؟!

فتبين أن طريقة التفويض طريق خاطئ، لأنه يتضمن ثلاث مفاصد: تكذيب القرآن، وتجهيل الرسول، واستطالة الفلاسفة! وأن الذين قالوا: إن طريقة السلف هي التفويض كذبوا على السلف! أو الذين قالوا: إن طريقة السلف هي التفويض كذبوا على السلف، بل هم يشبتون اللفظ والمعني ويقررونه، ويشرحونه بأوفى شرح. أهل السنة والجماعة لا يحرفون ولا يعطلون، ويقولون بمعنى النصوص كما أراد الله: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤]، بمعنى: علا عليه وليس معناه: استولى. {يَبْدَهُ}: يد حقيقية وليست القوة ولا نعمة، فلا تحريف عندهم ولا تعطيل.

١ - بما اننا لم نر الله تعالى ولا سبيل لمعرفة شيء من صفاته عز وجل إلا بإخباره لنا في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. فإذا وصف الله نفسه بشيء، أو وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم، وجب علينا الإيمان والتسليم. وقد وصف الله تعالى نفسه بالرؤية فقال: {أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) (رواه البخاري ومسلم).

ووصف الله تعالى نفسه بالبصر أيضاً، فقال {وَكَانَ رَبُّكَ بِصِيرًا} [الفرقان: ٢٠] وقال {بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا} [الانشقاق: ١٥] وقال على لسان نبيه موسى {إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} [طه: ٣٥] وقرن سبحانه بين البصر وغيره من الصفات المتعلقة بالعلم، فدل على المغايرة، ومن ذلك قوله سبحانه: {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء: ٩٦] وقرن كذلك بين السمع والبصر فقال: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨] وقال لموسى وهارون: {لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]. وقد عاب

الخليل إبراهيم . عليه السلام . على أبيه أنه يعبد ما لا يبصر فقال { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } [مريم: ٤٢] .

والمقصود أن الوصف بالبصر والرؤية مراد لذاته، لإثبات صفة حقيقية ذاتية لله تعالى، غير صفة العلم، ولذلك يأتي الوصفان في سياق واحد في آية واحدة، كقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [الحجرات: ١٨] وقوله { يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الحديد: ٤] وقوله { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ } [الكهف: ٢٦] .

وهذا لا يعني أن صفة الرؤية أو البصر الثابتة لله تعالى مماثلة لصفة المخلوقين، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وقد جمع الله تعالى بين الإثبات والتنزيه في قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى: ١١] . قال قَوَّامُ السُّنَّةِ الأصهباني في (الحجة) : " قال الله تعالى: { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا } وقال: { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } وقال: { وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } وقال: { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } فواجب على كل مؤمن أن يشهد من صفات الله عزَّ وجلَّ ما أثبتته الله لنفسه، وليس بمؤمن من ينفي عن الله ما أثبتته الله لنفسه في كتابه؛ فرؤية الخالق لا تكون كروية المخلوق، وسمع الخالق لا يكون كسمع المخلوق، قال الله تعالى: { فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ } وليس رؤية الله تعالى أعمال بني آدم كروية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وإن كان اسم الرؤية يقع على الجميع، وقال تعالى: { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ } ، جل وتعالى عن أن يشبهه صفة شيء من خلقه صفته، أو فعل أحد من خلقه فعله؛ فالله تعالى يرى ما تحت الثرى، وما تحت الأرض السابعة السفلى، وما في السماوات العلى، لا يغيب عن بصره شيء من ذلك ولا يخفى؛ يرى ما في جوف البحار ولججها كما يرى ما في السموات، وبنو آدم يرون ما قرب من أبصارهم، ولا تدرك أبصارهم ما يبعد منهم، لا يدرك بصر أحد من الآدميين ما يكون بينه وبينه حجاب، وقد تتفق الأسماء وتختلف المعاني . اهـ .

وخلاصة عقيدة أهل السنة والجماعة في باب الصفات أنهم يشهدون ما أثبتته الله تعالى لنفسه منها على الوجه اللائق به، من غير تشبيه له بخلق، ومن غير توهم كيفية لصفاته، ولا يتكلفون ما ليس لهم به علم، لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فإن كنا لا نعرف حقيقة ذاته، فإننا بالأحرى لا نعرف حقيقة صفاته، ولا نحيط بها علماً، إلا أنها بلغت الغاية في الكمال، ولا يشوبها نقص بوجه من الوجوه . ومع كوننا لا نعلم بكيفية صفاته سبحانه وتعالى، إلا أننا نفهم معانيها على وفق ما تدل عليه لغة العرب مع تنزيه صفات الله تعالى عن مماثلة صفات الخلق .

* والمعتزلة متفقون - أيضا - على نفي صفتي السمع والبصر عن الله تعالى؛ فلا الصفتان قديمتان - عندهم - ، ولا حادثتان .

ويقولون - معللين زعمهم استحالة كون الله سميعاً بصيراً: "وجه استحالته أنه إن كان سمعه وبصره حادثين كان محلاً للحوادث، وهو محال. وإن كانا قديمين فكيف يسمع صوتاً معدوماً، وكيف يرى العالم في الأزل، والعالم معدوم، والمعدوم لا يرى".

ويرى المعتزلة أن إثبات صفات حقيقية لله تعالى (كالسمع والبصر) يقتضي بزعمهم "التشبيه والتجسيم"، أو تعدد القدماء.

وذهبوا إلى أن معنى كونه تعالى "بصيراً" هو أنه "عالم" بالمبصرات فقط، فنفوا حقيقة البصر وأرجعوه إلى صفة العلم.

والرد على ردهم البصر إلى العلم هو أن السمع والبصر صفتان كماليتان مستقلتان بذاتهما. فلو كان البصر هو نفسه العلم، لكان إثباته في القرآن تكراراً لا فائدة منه، وهو منزّه عن ذلك. وقد اقترنت صفتا العلم والبصر في آيات كثيرة مما يدل على تباينهما، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]

كما أن نفي صفات السمع والبصر مخالفة صريحة للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية. قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ففي هذه الآية إثبات للصفة، ونفي للمماثلة في آن واحد. كما استدل العلماء بما حكاه القرآن عن إبراهيم عليه السلام في محاجة أبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢]. فلو كان السمع والبصر ليسا كمالين حقيقيين لما صح اتخاذهما دليلاً على نقص الأصنام وبطلان عبادتها.

قال الشهرستاني: (اتَّفَقَتِ الْمُعْتَزَلَةُ عَلَى أَنَّ الْإِرَادَةَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ لَيْسَتْ مَعَانِي قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ تَعَالَى، لَكِنْ اخْتَلَفُوا فِي وُجُوهٍ وَجُودِهَا، وَمَحَامِلٍ مَعَانِيهَا)

القول الأول: قول الجبائي وابنه ومن تابعهما من البصريين

ويتلخص رأيهم في أن الله سميعٌ بصيرٌ، بمعنى أنه حيٌّ لا آفة به تمنعه من إدراك المسموع والمرئي إذا وُجِدا؛ ذلك أنهم يرون أن الحي إذا سلّمَت نفسه عن الآفة سُمي سميعاً بصيراً.

القول الثاني: رأي النّظام والكعبي ومن تابعهما من البغداديين في معنى السميع والبصير

ويتلخص رأيهم في أن الله تعالى لا يسمع ولا يبصر شيئاً على الحقيقة، وتأولوا وصفه بالسميع والبصير على معنى العلم بالمسموعات والمرئيات.

قال الشهرستاني: (ذهب الكعبي ومن تابعه من البغداديين إلى أن معنى كونه تعالى سميعاً بصيراً أنه عالمٌ بالمسموعات والمبصرات...)

ومن خلال عرض رأي المعتزلة في صفتي السمع والبصر نستخلص أنهم قد اتفقوا على نفيهما قائمتين بذاته تعالى حقيقة؛ ولذا فإنهم أولوا ما ورد في الكتاب والسنة من إشارة إلى هاتين الصفتين بأن المقصود بهما حياته كما يراها البصريون، أو العلم كما يراها البغداديون.

الرَّدُّ على الْمُعْتَزِلَةِ في نَفْيِهِم صِفَتِي السَّمْعِ والبَصَرِ

إِنَّ النُّقْلَ والعَقْلَ قد دَلَّا على ثُبُوتِ صِفَتِي السَّمْعِ والبَصَرِ لله تعالى؛ فالقولُ بِنَفْيِهِمَا مُخَالَفَةٌ لِلنُّقْلِ الصَّرِيحِ مِنَ الْكِتَابِ والسُّنَّةِ، ومُخَالَفَةٌ للعَقْلِ الصَّحِيحِ، وما خَالَفَهُمَا فهو باطلٌ بالاتِّفَاقِ.

فَمِنَ النَّقْلِ: قولُ الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشوري: ١١].

ففي هذه الآية دَلَالَةٌ صريحةٌ على وَصْفِ الله تعالى بِالسَّمْعِ والبَصَرِ.

وقال تعالى حاكياً ما قاله إبراهيم عليه السَّلامُ لأبيه: {لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم: ٤٢].

قال ابنُ خُزَيْمَةَ: (أفليس مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَقُولَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ لأبيه: {لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم: ٤٢] فَيَعْبُدُهُ بِعِبَادَةٍ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، ثُمَّ يَدْعُوهُ إِلَى عِبَادَةٍ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ كَالْأَصْنَامِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْمَوْتَى لَا مِنَ الْحَيَوَانِ...؟!); فدلَّ ذلك على ثُبُوتِ صِفَتِي السَّمْعِ والبَصَرِ له تعالى على ما يليقُ بجلاله. وقال الله سبحانه: {أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٣٤-٤٤].

قال ابنُ خُزَيْمَةَ: (إِنَّ الله تعالى أَخْبَرَ بِهذه الآية أَنَّ مَنْ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَعْقِلُ كَالْأَنْعَامِ؛ فدلَّ على ثُبُوتِ صِفَتِي السَّمْعِ والبَصَرِ له سبحانه وتعالى؛ وإلَّا لَزِمَ اتِّصَافُهُ تعالى بِصِفَةِ النَّقْصِ الَّتِي أَثْبَتَهَا لِمَنْ لَا يَسْمَعُ!).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ: ((ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا...)).

ففي هذا الحديث دَلَالَةٌ على اتِّصَافِهِ تعالى بِصِفَتِي السَّمْعِ والبَصَرِ قَائِمَتَيْنِ بِذَاتِهِ تعالى حَقِيقَةً.

قال البيهقي: (السَّمِيعُ: مَنْ لَهُ سَمْعٌ يُدْرِكُ بِهِ الْمَسْمُوعَاتِ، وَالسَّمْعُ لَهُ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ، الْبَصِيرُ: مَنْ لَهُ بَصَرٌ يَرَى بِهِ الْمَرئِيَّاتِ، وَالْبَصَرُ لَهُ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ).

وَأَمَّا مِنَ الْعَقْلِ فَقَالَ الْبَاقِلَانِيُّ: (الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ تعالى سَمِيعٌ بَصِيرٌ... أَنَّهُ قد ثَبَتَ أَنَّهُ تعالى حَيٌّ، وَالْحَيُّ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا...، وَمَنْ عَرِيَ مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ مَعَ صَحَّةٍ وَصْفِهِ بِهَا فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَوْصُوفًا بِأُضْدَادِهَا... مِنَ الْعَمَى وَالصَّمَمِ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ آفَاتٌ قد اتَّفَقَ عَلَى أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى حُدُوثِ الْمَوْصُوفِ بِهَا، فَلَمْ يَجْزُ وَصْفُ الْقَدِيمِ بِشَيْءٍ مِنْهَا؛ فَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا...).

وَإِذَا ثَبَتَ بِالنُّقْلِ والعَقْلِ أَنَّهُ تعالى سَمِيعٌ بَصِيرٌ، بَطُلَ مَا يَزْعُمُهُ النُّفَاةُ مِنْ أَنَّهُ تعالى لَيْسَ بِسَمِيعٍ وَلَا بِبَصِيرٍ بِسَمْعٍ وَبَصَرٍ قَائِمَيْنِ فِي ذَاتِهِ تعالى، عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ.

إِضَافَةً إِلَى هَذَا فَإِنَّهُ سَبَقَ عَرْضُ شُبُهَاتِ الْمُعْتَزِلَةِ فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ فِي مَبَحَثِ مَوْقِفِ الْمُعْتَزِلَةِ مِنَ الصِّفَاتِ عَامَّةً، وَتَمَّ الرَّدُّ عَلَيْهَا، وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَطْلُ رَأْيُ الْمُعْتَزِلَةِ فِي نَفْيِ صِفَتِي السَّمْعِ والبَصَرِ بِطُلَانِ رَأْيِهِمْ فِي نَفْيِ سَائِرِ الصِّفَاتِ؛ لِأَنَّ شُبُهَاتِهِم الَّتِي نَفَوْا بِسَبَبِهَا الصِّفَاتِ عَامَّةً لِجَمِيعِ الصِّفَاتِ، وَلَيْسَتْ خَاصَّةً بِصِفَاتٍ بَعِيْنَهَا.

ثانيًا: الرَّدُّ على الجُبَّائِي وابْنِه وَمَنْ تَابَعَهُمَا مِنَ الْبَصَرِيِّينَ فِي تَأْوِيلِهِمُ السَّمِيعَ وَالْبَصِيرَ بِالْحَيِّ الَّذِي لَا آفَةَ بِهِ الْجُبَّائِي وابْنُه وَمَنْ تَابَعَهُمَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بِصِيرٍ بِمَعْنَى أَنَّهُ حَيٌّ لَا آفَةَ بِهِ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ مِمَّا يَظْهَرُ بَطْلَانُهُ. الرَّدُّ عَلَى أَصْحَابِ هَذَا الرَّأْيِ:

١- يُقَالُ لَهُمْ: أَطْلَقْتُمْ الْقَوْلَ بِنَفْيِ الْآفَةِ، وَهُوَ لَيْسَ بِشَرْطٍ بِالِاتِّفَاقِ؛ فَإِنَّ السَّمِيعَ وَالْبَصِيرَ قَدْ يَكُونُ ذَا آفَةٍ، وَذَا آفَاتٍ كَثِيرَةٍ .

فَإِنْ قِيلَ: لَيْسَ السَّمِيعُ هُوَ مَنْ سُلِبَتْ عَنْهُ الْآفَةُ مُطْلَقًا، بَلْ مَنْ سُلِبَتْ عَنْهُ الْآفَةُ فِي مَحَلِّ السَّمْعِ. قِيلَ لَهُمْ: هَذَا الْقَوْلُ بَاطِلٌ أَيْضًا؛ فَإِنَّ مَنْ قَالَ: السَّمْعُ: هُوَ نَفْيُ الْآفَةِ فِي مَحَلِّ السَّمْعِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: السَّمِيعُ: هُوَ مَنْ لَهُ السَّمْعُ فِي مَحَلِّ السَّمْعِ، وَلَوْ قَالَ: السَّمِيعُ هُوَ مَنْ لَهُ السَّمْعُ لَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًا عَنْ ذِكْرِ الْمَحَلِّ، وَإِذَا كَانَ كَافِيًا فَكَأَنَّهُ قَالَ: السَّمِيعُ: هُوَ الَّذِي لَا آفَةَ بِهِ، وَإِذَا ذَاكَ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ الْكَلَامُ الْأَوَّلُ بَعَيْنِهِ . وَإِذَا كَانَ لَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ الْآفَةِ وُجُودُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَلَا يَنْتَفِي بِوُجُودِهَا؛ فَإِنَّ تَفْسِيرَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ بِنَفْيِ الْآفَةِ بَاطِلٌ.

٢- إِنَّ الَّذِي يُحِسُّهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ مَعْنَى مَوْجُودٍ لَا نَفْيٍ مُحْضٍ، وَقَوْلُهُمْ: لَا آفَةَ بِهِ، نَفْيٌ مُحْضٌ، فَلَا يُتَصَوَّرُ الْإِحْسَاسُ بِهِ، وَيَسْتَحِيلُ أَنْ تَرْجِعَ التَّفَرُّقَةُ بَيْنَ حَالَتِي الْإِدْرَاكِ وَعَدَمِ الْإِدْرَاكِ إِلَى عَدَمٍ مُحْضٍ، فَحِينَئِذٍ تَعْدُمُ التَّفَرُّقَةُ؛ فَإِنَّ التَّفَرُّقَةَ بِالْعَدَمِ وَعَدَمَ التَّفَرُّقَةَ سَوَاءٌ .

٣- قَالَ الشَّهْرَسْتَانِي -وَهُوَ يَرُدُّ عَلَى الْجُبَّائِي وَمَنْ مَعَهُ-: (نَحْنُ نُدْرِكُ تَفَرُّقَةً ضَرْوِيَّةً بَيْنَ كَوْنِ الْإِنْسَانِ سَمِيعًا، وَبَيْنَ كَوْنِهِ بَصِيرًا، وَهُمَا مُتَّفَقَانِ فِي أَنَّ مَعْنَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَّهُ حَيٌّ لَا آفَةَ بِهِ، فَهَذِهِ التَّفَرُّقَةُ تَرْجِعُ إِلَى مَاذَا؟ فَلَا بُدَّ مِنْ أَمْرَيْنِ زَائِدَيْنِ عَلَى كَوْنِهِ حَيًّا لَا آفَةَ بِهِ حَتَّى يَكُونَ بِأَحَدِهِمَا سَمِيعًا وَبِالْآخَرِ بَصِيرًا، وَإِلَّا فَتَبْطُلُ التَّفَرُّقَةُ الضَّرُورِيَّةُ، فَالَّذِي انْفَصَلَ بِهِ السَّمْعُ عَنِ الْبَصَرِ وَرَاءَ كَوْنِهِ حَيًّا لَا آفَةَ بِهِ، فَكَذَلِكَ الَّذِي انْفَصَلَ بِهِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ عَنِ الْعِلْمِ وَسَائِرِ الصِّفَاتِ وَرَاءَ كَوْنِهِ حَيًّا لَا آفَةَ بِهِ.

ثُمَّ قَالَ الشَّهْرَسْتَانِي: (وَلَيْنَ أُلْزِمَ الْجُبَّائِي بِأَنْ يُقَالَ: مَعْنَى كَوْنِهِ عَالِمًا قَادِرًا أَنَّهُ حَيٌّ لَا آفَةَ بِهِ حَتَّى يَرُدَّ الصِّفَاتِ كُلُّهَا إِلَى كَوْنِهِ حَيًّا لَا آفَةَ بِهِ؛ لَمْ يَجِدْ عَنْ هَذَا الْإِلْزَامِ مَخْلَصًا .

٤- قَالَ الْأَمْدِيُّ فِي رَدِّهِ عَلَى الْجُبَّائِي وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْبَصَرِيِّينَ: (إِنَّ الْعَقْلَ السَّلِيمَ يَقْضِي بِفَسَادِ قَوْلِ مَنْ فَسَّرَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ بِنَفْيِ الْآفَةِ دُونَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الصِّفَاتِ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ سُئِلَ عَنِ الْفَرْقِ لَمْ يَجِدْ عَنْهُ مَخْلَصًا، بَلْ كُلُّ مَا تَخِيلَ مِنْ مَنَعَ تَفْسِيرِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ بِانْتِفَاءِ الْآفَةِ فَهُوَ بَعَيْنُهُ فِي الْإِدْرَاكِ حُجَّةٌ لَنَا) .

ثَالِثًا: الرَّدُّ عَلَى الْبَغْدَادِيِّينَ فِي تَأْوِيلِهِمْ صِفَتِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ بِالْعِلْمِ:

النِّظَامُ وَالْكَعْبِيُّ وَمَنْ تَابَعَهُمَا مِنَ الْبَغْدَادِيِّينَ يَرَوْنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِوَصْفِ اللَّهِ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ الْعِلْمُ؛ فَقَوْلُنَا: اللَّهُ سَمِيعٌ بِصِيرٍ، أَيُّ: عَلِيمٌ.

وَهَذَا الْقَوْلُ ظَاهِرُ الْبَطْلَانِ؛ لِمَا يَلِي:

١- في هذا التَّأْوِيلِ نَفْيُ لَصِفَتِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ قَائِمَتَيْنِ بِذَاتِهِ حَقِيقَةً، وتأْوِيلٌ لهما بِالْعِلْمِ، معَ أَنَّهُ قد روى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه هذه الآيةَ { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء: ٥٨] قال: ((رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَىٰ أُذُنِهِ، والتي تليها على عَيْنِهِ)).
♦ قال ابن القيم: (إنَّما فَعَلَ ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَفْعًا لِتَوْهُمٍ مُتَوَهَّمٍ أَنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ غَيْرُ الْعَيْنَيْنِ المَعْلُومَتَيْنِ).

... فإن قيل: وَجْهٌ اسْتِحَالَتُهُ أَنَّهُ إِنْ كَانَ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ حَادِثَيْنِ كَانَ مُحَالًّا لِلْحَوَادِثِ، وهو مُحَالٌّ، وَإِنْ كَانَ قَدِيمَيْنِ، فكيف يسمع صوتًا معدومًا؟ وكيف يرى العالم في الأزَل؟ والعالم معدومٌ، والمعدوم لا يرى؟!
فالجوابُ أن يُقال: أنتم -مَعَشَرَ الْمُعْتَزِلَةِ- تُسَلِّمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ الْحَادِثَاتِ، فهو يَعْلَمُ الْآنَ أَنَّ الْعَالَمَ كَانَ موجودًا قَبْلَ هذا الوقتِ، لكن كيف عِلِمَ في الأزَل أَنَّهُ كَانَ موجودًا وهو بَعْدُ لم يكن موجودًا؟ فإن جاز إثباتُ صِفَةِ في الأزَل تَكُونُ عِنْدَ وُجُودِ الْعَالَمِ عِلْمًا بِأَنَّهُ كَائِنٌ، وَقَبْلَهُ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ، وَبَعْدَهُ بِأَنَّهُ كَانَ، وهو لا يَتَغَيَّرُ؛ عَبْرَ عن هذه الصِّفَةِ بِالْعِلْمِ وَالْعَالِمِيَّةِ؛ جاز ذلك في السَّمْعِ وَالسَّمْعِيَّةِ، وَالْبَصَرِ وَالْبَصَرِيَّةِ .

٢- يلزَمُ من تأْوِيلِ صِفَتِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ بِالْعِلْمِ تَسْوِيَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْأَعْمَى الذي يَعْلَمُ أَنَّ السَّمَاءَ خَضِرَاءَ وَلَا يراها، وَالْأَصَمَّ الذي يَعْلَمُ أَنَّ في السَّمَاءِ أَصْوَاتًا وَلَا يَسْمَعُهَا، وَلَا شَيْءَ أَنَّ في تَسْوِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ تَنْقُصًا لَهُ تَعَالَى. وهو باطلٌ؛ فما يُؤَدِّي إليه مثله من تأْوِيلِ لِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ بِالْعِلْمِ.

٣- ردُّ الْأَشْعَرِيِّ على مَنْ أَوَّلَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ بِالْعِلْمِ، فقال: (زَعَمَتِ الْمُعْتَزِلَةُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ١٣٤] أَنَّ معناه عِلِمٌ، قيل لهم: فإذا قال تَعَالَى: {إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦] ، فمعنى ذلك عنْدَكُمْ: عِلْمٌ، فإن قالوا: نَعَمْ، قيل لهم: فقد وَجِبَ عَلَيْكُمْ أَنْ تقولوا: معنى قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦] أَعْلَمُ وَأَعْلَمٌ، إذا كان معنى ذلك الْعِلْمُ) ، وهذا باطلٌ؛ فما يُؤَدِّي إليه من تأْوِيلِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ بِالْعِلْمِ مثله.

وقال الْأَشْعَرِيُّ أيضًا: (يُقَالُ لِلْمُعْتَزِلَةِ: إذا زَعَمْتُمْ أَنَّ معنى "سميعٌ بصيرٌ" عَالِمٌ، فهاَلَا زَعَمْتُمْ أَنَّ معنى قَادِرٍ معنى عَالِمٍ؟ فإن قالوا: هذا يوجبُ أَنْ يكونَ كُلُّ معلومٍ مقدورًا، قيل لهم: ولو كان معنى سَمِيعًا بَصِيرًا معنى عَالِمٍ، لكانَ كُلُّ معلومٍ مسموعًا، وإذا لم يجز ذلك بطل قولكم) .

٤- قال البغداديُّ: (زَعَمَ النَّظَّامُ وَالْكَعْبِيُّ أَنَّ كَوْنَ الْإِلَهِ سَامِعًا إِنَّمَا يُفِيدُ كَوْنَهُ عَالِمًا بِالمسموعِ...، وهذا باطلٌ؛ لأنَّ الواحدَ مَنْ يَسْمَعُ الصَّوْتَ فيكونُ عَالِمًا به في حالِ السَّماعِ، ثُمَّ يكونُ عَالِمًا به في الحالِ الثَّانِيَةِ، وَلَا يكونُ سَامِعًا؛ فصَحَّ بهذا أَنَّ السَّمْعَ لِلشَّيْءِ غَيْرِ الْعِلْمِ به)

• مذهب الأشاعرة في صفتي السمع والبصر:

حاصل مذهب الأشاعرة إثباتُ هاتين الصفتين لله عز وجل على أنهما صفتان ذاتيان أزليتان لله سبحانه، فهو يسمع بسمعه جميع المسموعات من الأصوات والكلام، ويبصر ببصره جميع المرئيات.

وقد اختلفوا في الدليل الموجب لإثباتها، هل هو محض العقل أم النقل؟ فذهب الرازي والإيجي والجرجاني والسنوسي والبيجوري إلى أن المعتمد عليه في إثبات هاتين الصفتين لله سبحانه هو النقل، ولا تعويل على العقل في إثباتهما. وذهب الآمدي إلى أن السمعيّات لا مدخل لها في هذا؛ إذ هي من قبيل الظنيّات، وهذا لا مدخل فيه إلا للقواطع العقلية.

دليل الأشاعرة العقلي على صفي السمع والبصر:

والذين أثبتوا هذه الصفة بالأدلة العقلية استدّلوا بدليين:

الأول: دليل الضدية والتقابل، يقول الشهرستاني: "الحَيّ إذا قِيلَ معنى وله ضدٌّ ولا واسطة بين الضدين لم يخلُ عنه أو عن ضده، فلو لم يتَّصف بكونه سمياً بصيراً لا تَصِفُ بضدِّهما، وذلك نقصٌ" وقد اقتضت حياته أن يكون سمياً بصيراً؛ لأنه لا يمكن خلُّ الجوهر من المتضادات، فيخلو من الشيء وضده. وقد سلك هذا المسلك أبو الحسن الأشعري والباقلاني والجويني والشهرستاني.

الثاني: دليل الكمال، وتصويره أن السمع والبصر من صفات الكمال، ويجب وصف الله بجميع الكمالات.

تفسير الأشاعرة لصفتي السمع والبصر:

وقد اختلف الأشاعرة في تفسير صفتي السمع والبصر:

فبعضهم رأى أنهما مرادفتان للعلم، وهذا هو قول أبي الحسن الأشعري، ولم يستبعده الإيجي والجرجاني. وبعضهم فرّق بينهما تفريقاً لا يتّضح من جميع الوجوه، فأثبت أنهما صفتان زائدتان غير العلم، وهذا هو المشهور من مذهبهم، يقول التفتازاني: "المشهور من مذهب الأشاعرة أن كلاً من السمع والبصر صفة مغايرة للعلم، إلا أن ذلك ليس بلازم على قاعدة الشيخ أبي الحسن في الإحساس من أنه علمٌ بالمحسوس -على ما سبق ذكره-؛ لجواز أن يكون مرجعهما إلى صفة العلم، ويكون السمع علماً بالمسموعات، والبصر علماً بالمبصرات" كما اختلفوا في متعلّق الصفتين على قولين:

الأول: أن متعلّقهما الموجودات فقط؛ ولذا فإنه يبصر الموجودات، سواء كانت ذواتاً أو أصواتاً، وهذا القول منسوب لأبي الحسن الأشعري.

الثاني: أن متعلّق السمع الأصوات، ومتعلّق البصر الذوات والألوان وما هو قائم بنفسه، وهو مذهب القلانسي، وصحّحه عبد القاهر البغدادي.

كما نفوا أن تكون الصفتان اختياريّتين لله؛ فراراً من التشبيه ووجه ذلك: "أنه لو كان موصوفاً بهذا الإدراك لكانت هذه الصفة متغيّرة؛ لأنه يكون رائيّاً للشيء حال وجوده، وما كان رائيّاً له قبل وجوده، وكذلك يكون سامعاً للصوت حال حصوله، ولا يكون سامعاً له قبل حصوله؛ فيلزم وقوع التغيّر في صفة الله، وهو محال."

يقول الغزالي رحمه الله في معنى السميع: "هُوَ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْ إِدْرَاكِهِ مَسْمُوعٌ وَإِنْ خَفِيَ، فَيَسْمَعُ السَّرَّ والنجوى، بل مَا هُوَ أَدَقُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَخْفَى، وَيَذَرُكَ ذَيْبُ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ، يَسْمَعُ حَمْدَ الْحَامِدِينَ فِيجَازِيهِمْ، وَدُعَاءَ الدَّاعِينَ فَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ، وَيَسْمَعُ بِغَيْرِ أَصْمَخَةٍ وَآذَانٍ، كَمَا يَفْعَلُ بِغَيْرِ جَارِحَةٍ، وَيَتَكَلَّمُ بِغَيْرِ لِسَانٍ، وَسَمِعَهُ مَنْزَهُ عَنْ أَنْ يَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ الْخَدَثَانِ، وَمَهْمَا نَزَّهَتْ السَّمِيعُ عَنْ تَغْيِيرِ يَغْتَرِيهِ عِنْدَ خُدُوثِ الْمَسْمُوعَاتِ وَقُدَّسَتْ عَنْ أَنْ يَسْمَعَ بِأُذُنٍ أَوْ بِأَلَةٍ وَأَدَاةٍ عَلِمَتْ أَنَّ السَّمْعَ فِي حَقِّهِ عِبَارَةٌ عَنْ صِفَةٍ يَنْكَشِفُ بِهَا كَمَالُ صِفَاتِ الْمَسْمُوعَاتِ، وَمَنْ لَمْ يَدَقِّقْ نَظْرَهُ فِيهِ وَقَعَ بِالضَّرُورَةِ فِي مَحْضِ التَّشْبِيهِ، فَخَذَ مِنْهُ حَذْرُكَ، وَدَقَّقَ فِيهِ نَظْرُكَ".

مكامن الخلل في إثبات صفتي السمع والبصر عند الأشاعرة:

يمكن ملاحظة مكامن الخلل في إثبات الصفتين عند الأشاعرة بمراجعة النصوص ودلالاتها، فقد وقع بعضهم في الغلط حين جعلهما مرادفين للعلم أو راجعين إليه، يحصل بهما انكشاف للمعلومات أقوى من العلم، وهو تفريق ليس بذاك، فظواهر الكتاب والسنة تقضي بأنهما صفتان غير العلم.

ففي صحيح البخاري في باب: {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسَّعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتِ))

ومعلوم أن العلم بالألوان ليس مثل إبصارها، كما أن العلم بالأصوات ليس مثل سماعها، وكذا المطعومات، ومعلوم أنه بالإبصار والسمع يتبين صحة المعلومات أو خطؤها، والله سبحانه وتعالى قد بين في كتابه مفارقة الصفتين للعلم فقال: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧]، وقال تعالى: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٣٧]، وقال: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [المائدة: ٧٦]، وقال: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: ١٣]، وقال: {وَوَثَّقَ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: ١١٥]، في آيات كثيرة، ومعلوم أن العلم في كل هذه الآيات ليس توكيداً للسميع، فمعناه غير معناه.

كما أن مذهب الأشاعرة خلاف مقتضى اللغة التي نزل بها القرآن؛ إذ المفهوم من القرآن أن السمع هو للأصوات والبصر إدراك المبصرات؛ ولذا قالت عائشة: "سبحان من وسَّعَ سمعه الأصوات."

كما أنهم في نفهم لأن تكون الصفتان فعليتين لله سبحانه وتعالى قد خالفوا القرآن، فالذي دل عليه القرآن أن الموجودات يراها الله حين وجودها، كما أن الأصوات يسمعها حين التكلم بها، فهو يسمع دعاء الداعي وتلاوة التالي وصوت المتكلم، قال سبحانه: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَخَاوَرُكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١]، وقال: {وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية

الكامل المحمود في صفاته^(١)

لا تدرك الابصار كنه ذاته^(١)

رحمه الله: "وقد دلّ الكتابُ والسنةُ واتّفاق سلفِ الأئمةِ ودلائلُ العقل على أنه سميع بصير، والسمع والبصر لا يتعلّق بالمعدوم، فإذا خلق الأشياءَ رآها سبحانه، وإذا دعاه عبادهُ سمع دعاءهم وسمع نجواهم. وقال الله سبحانه: {أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠]. "فإن الله تعالى إذا خلق العبادَ فعلموا وقالوا، فلا بد من القول أنه تعالى يرى أعمالهم ويسمع أقوالهم، ونفي ذلك تعطيل لهاتين الصفتين، وتكذيبٌ لنصوص القرآن".

ويمكن ملاحظة أن قولَ الأشاعرة في صفتي السمع والبصر قد خالفوا القرآن فيه في تفسيرهما، وفي متعلّقهما، وفي نفي أن تكونا فعليّتين، والذي ينصره القرآن هو أن السمع والبصر صفتان لله، وأن إثباتهما يعني إثبات ما يسمع به ويُبصر من غير تكييف، كما هو منقول عن السلف، كما أن القرآن فرّق بين السمع والبصر، ولم يجعلهما واحداً، قال تعالى: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ} [طه: ٤٦]، وفرق بين متعلّقهما، فالسمع متعلّق بالكلام، والبصر متعلّق بالمكان، كما فرّق بين النظر والكلام فقال سبحانه: {وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: ٧٧]، وقال: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُ فِي السَّاجِدِينَ} [الشعراء: ٢١٩]، ولم يقل: يسمع تقلّبك، ويسمع الله عمَلَكُمْ، لم يذكر الرؤية فيما يُسمع، ولا السماع فيما يُرى.

فالواجب: الوقوفُ عند حدِّ الوحي وما نطق به، دون تدقيقٍ مخالفٍ لسنن العرب في كلامها، أو تكلفٍ في الفهم مخالفٍ لمنهج السلف في الاعتقاد. ومما سبق يتبيّن أن الأشاعرة وإن نطقوا بالحق في إثبات صفتي السمع والبصر، إلا أنهم خالفوا الوحي في تفسيرهما، وفي بيان متعلّقهما، وفي كونهما فعليّتين لله سبحانه، وهذه المخالفة أوقعتهم في لوازم لم يجيبوا عنها إلا بمخالفةٍ أشدَّ منها للنصوص، والله أعلم.

^١ - لا تدركه الابصار فذهب بعض اهل العلم ان المراد الرؤية البصرية وان الله تعالى لا يرى في الدنيا ولكنه يرى في الآخرة ومع ذلك فهذا الرؤية لا تحيط به سبحانه .

فقد روى اللالكائي عن نعيم بن حماد دخل عليه رجل في السجن من هؤلاء فقال لنعيم أليس الله قال لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار

فقال نعيم بلى ذاك في الدنيا

قال وما دليلك

فقال نعيم إن الله هو البقاء وخلق الخلق للبقاء فلا يستطيعون أن ينظروا بأبصار الفناء فإذا جدد لهم خلق البقاء فنظروا بأبصار البقاء إلى الله.

وروى عن أبي العالية في قوله سبحانه تبت إليك وأنا أول المؤمنين
قال وكان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول المؤمنين أنا أول من آمن بهذا أنه لا يراك أحد قبل يوم القيامة وهو
يقول لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير
يعني أنه لا تدركه الأبصار في الدنيا
وعن اسماعيل بن عليه وهشام بن عبيد الله الرازي ونعيم بن حماد
في قوله لا تدركه الأبصار
يعني في الدنيا".

وجاء في كتاب الابانة لابن بطة: " فالجهمي ينكر أن المؤمنين يرون ربهم في القيامة فإذا سئل عن حجته في ذلك
نزع بآيات من متشابه القرآن وهو في أصل مذهبه وتأسيس اعتقاده تكذيب القرآن وجحدته فيموه باحتجاجه
بمتشابه القرآن على جهال الناس ومن لا علم عنده فيقول حجتي في ذلك قول الله تعالى لا تدركه الأبصار وهو
يدرك الأبصار فظن من سمع كلامهم أنهم نزهوا وأجلوه ووحدوه بإنكارهم رؤيته واحتجاجهم بمتشابه القرآن
فيقال لهم أخبرونا النبي كان أعلم بكتاب الله ومعاني كلامه ومراده في وحيه وتنزيله أم جهم بن صفوان فإن الذي
أنزل عليه

القرآن وجاء بالهدى من ربه والبرهان يقول أنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليله البدر وكما ترون
الشمس في نحر الظهيرة وأن من أهل الجنة لمن ينظر إلى الله تعالى كل يوم مرتين أفيظن الجهمي الملحد أن
النبي ما قرأ هذه الآية التي احتج بها الجهمي أم يقول إنه قد قرأها أم يزعم أن النبي عارض القرآن وتلقاه بالخلاف
عليه والرد كما تفعل الجهمية والمعتزلة

فإن بعض المعتزلة إذا وضع عندهم صحة الروايات والآثار الصحيحة التي لا يجوز عليها التواطؤ والاستحالة
قالوا قد قال النبي ذلك ولكن النبي كان مشبها ومشبه عندهم كافر ملحد
فأعظم من قولهم في نبيهم كلامهم في ربهم وإلحادهم في أسمائه وجحدهم لصفاته وإبطالهم ربوبيته
ألا ترى أنك لو جالست المعتزلي عمره كله ما قطع مجلسه ولا أفنى ليلة ونهاره إلا بالخصومة والجدل في الله
وفي صفاته وقدره وفي جحد العلم وفي نفي الصفات قد ولته الخصومة وألهاه الجدل عن النظر في الحلال
والحرام الذين تعبدوا الله بعلمهما وفرض عليه العمل بهما والعمل بالذي فرضه الله من علم ذلك
فأما حجته وخصومته بقول الله تعالى لا تدركه الأبصار فإن معنى ذلك واضح لا يخيل على أهل العلم والمعرفة
ذلك أنك تنظر إلى الصغير من خلق الله فيما يدركه بصره ولا يحيط نظرك فالله تعالى أجل وأعظم من كل شيء
يدركه بصر

وإنما الإدراك أن يحيط البصر بالشيء حتى يراه كله فذلك الإدراك

ألا ترى أنك ترى القمر فلا ترى منه إلا ما ظهر من وجهه ويخفى عليك ما غاب من قفاه وكذلك الشمس وكذلك السماء وكذلك البحر وكذلك الجبل وإن الرجل ليكلمك وهو معك فما يدركه بصرك وإنما تنظر منه إلى ما أقبل عليك منه وإنما قول الله عز و جل لا تدركه الأبصار لا تحيط به لعظمته وجلاله ولكن الجهمي عدو الله إنما ينزع إلى المتشابه ليفتن الجاهل وقالت الجهمية إنما معنى قوله إلى ربها ناظرة إنما أراد بذلك الانتظار فخالفت في ذلك بهذا التأويل جميع لغات العرب وما يعرفه الفصحاء من كلامها لأن القرآن إنما نزل بلسان العرب قال الله تعالى وهذا لسان عربي مبين " وقال قرآنا عربيا غير ذي عوج فليس يجوز عند أحد ممن يعرف لغات العرب وكلامها أن يكون معنى قوله إلى ربها ناظرة الانتظار ألا ترى أنه لا يقول أحد إنني أنظر إليك يعني أنتظرك وإنما يقول أنتظرك فإذا دخل في الكلام إلى فليس يجوز أن يعني به غير النظر يقول أنظر إليك وكذلك قوله إلى ربها ناظرة ولو أراد الانتظار لقال لربها منتظرة ولربها ناظرة وذلك كله واضح بين عند أهل العلم ممن وهب الله له علما في كتابة وبصرا في دينه فاعلم أن كل شيء معناه الانتظار فإنه لا يكون بالتخفيف ولا يكون إلا بالثقل فأما ما عني به الانتظار فقوله هل ينظرون إلا الساعة معناه هل ينتظرون إلا الساعة ونظير ذلك وشبهه وشاهده فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم فتبين أن الثقل إنما هو في الانتظار كقوله ينتظرون ثم قال إلا فثقل وقال هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فهذا انتظار مثقل وقال هل ينظرون إلا تأويله يعني ينتظرون فثقل. وقال مما هو بمعنى النظر فخفف أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم فلما كان معناه النظر قال إلى فخفف وقال انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وقال أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وكذلك قوله تعالى إلى ربها ناظرة معناه النظر".

واختار بعض السلف ان معنى الآية الرؤية القلبية فلا تدرك العقول حقيقة الله تعالى ومن الاصول المبتدعة التي كانت سبب مفارقة كثير من الفرق لمنهج اهل السنة والجماعة قاعدة تقديم العقل على النقل

قال ابن عثيمين في شرح السفارينية: " قوله : (ولا نرد ذاك) : أي ما جاءت به النصوص من الآيات والأحاديث قوله : (لانرده بالعقول) : وإنما قال ذلك إشارة إلى قول من يقول : إن المرجع في إثبات الصفات أو نفيها هو العقل ،

فما اقتضى العقل ثبوته أثبتناه ،

وما اقتضى العقل نفيه نفيناه سواء كان موجوداً في القرآن والسنة أم غير موجود ،
وما لا يقتضي العقل إثباته ولا نفيه فإما أن نتوقف فيه وإما أن ننفيه ،
وأكثرهم نفي ذلك ،
فالأقسام عندهم ثلاثة :

الأول : ما اقتضته العقول فيثبتونه سواء كان ثابتاً في الكتاب والسنة أم لا ،
الثاني : ما اقتضى العقل نفيه فينفونه سواء كان ذلك موجوداً في الكتاب والسنة أم لا ،
الثالث : ما لا يقتضي العقل إثباته ولا نفيه ،
فانقسموا فيه إلى قسمين :

١ . قسم نفاه وهم الأكثر ،
٢ . وقسم توقف فيه وقال : لا ثبت ولا نفي ، لأن العقل لا يقتضي إثباته ولا نفيه ،
فالذين نفوه وهم الأكثر قالوا : لأن العقل لم يدل عليه ، وما لم يدل عليه الدليل ، فالواجب نفيه ،
والذين توقفوا فيه قالوا : إن العقل لم يدل على نفيه ولم يدل على إثباته فالواجب التوقف ،
لكن كل هذه القاعدة قاعدة مبنية على شفا جرف هار ،
لأنها قاعدة تقتضي تقديم المعقول على المنقول ، والعقل يقتضي تقديم المنقول على المعقول ،
وهذا من العجب أن يقولوا نحن نتبع العقل وهم يهدمون العقل بما يدعونه عقلاً ، العقل يقتضي أن هذه الأمور
الغيبية تقتصر فيها على الخبر المجرد ، لأن العقل لا يمكن أن يتحكم فيها أو يدركها فكان مقتضى العقل
الصريح أن يرجع فيها إلى النقل ،
خبّر محض ما تدركه بعقلك كيف ترجع إلى عقلك فيه ؟

الآن لو رجعت إلى عقلك بالنسبة إلى حال شخص من البشر ، هل يمكن أن تحكم بعقلك على أحواله ؟
لا يمكن لكن إنما تعتمد في أحواله على ما نقله عن نفسه أو ما نُقِلَ عنه بالخبر الصادق ، أما أن تتحكم عليه
بعقلك فليس بصحيح كلُّ له تصرف يختص به ، أنت في بيتك تقوم وتفطر وتذهب لعملك وهو لا يقوم ولا يفطر
يروح لعمله قبل أن يفطر أليس كذلك ؟ يختلف عنك ، هذا وهو بشر حاله قريبة من حالك فكيف بالله عز وجل ؟
كيف تحكم على الله بعقلك والعقل يقتضي أن تعتمد في ذلك على النقل ؟
لأن هذا لا يثبت إلا بالخبر المحض ،

ولهذا نقول : أنتم يا أصحاب العقول هدمتم العقول ، لأنكم تقولون : العقل يقتضي ألا يوصف الله بذلك وهو قد
وصف به نفسه

وهو خبر عن أمر لا يدرك بالعقل ، فالواجب فيه الاعتماد على النقل :
تقولون : هذا ثابت لله والله لم يشته لنفسه ،

هذا أيضاً إثبات للعقل بما ينافي العقل ،

لأن الذي يقتضيه العقل أن ما لم يبلغك خبره في أمر غائب عنك أن تتوقف فيه ، أما أن تثبته مع نفي الله له ، فهذا زيادة في العدوان ،

فالحاصل : أن قول المؤلف : (لا نرد ذاك بالعقول) : يشير به إلى رد قول من يقول : (إن المرجع في صفات الله إلى العقل) ،

نقول لهم : إن هذه القاعدة باطلة من أساسها وإن هذه القاعدة تبطل الاعتماد على العقل ،

لأن العقل يقتضي أن ما طريقه الخبر المجرد يعتمد فيه على النقل وعلى الخبر ،

ما دامت العقول لا تدرك هذا فالواجب عليها أن تعتمد على النقل وما أخبر الله به عن نفسه أو أخبرت عنه رسله .

ثالثاً : أن نقول : تحكيم العقل في هذا الباب تحكيم من لا يحيط بالحكم علماً ،

وذلك لأن ما يصف الله به نفسه لا يمكن للعقل أن يدركها ،

إذا كان الله يقول : { لا تدركه الأبصار } [الأنعام ١٠٣] .

والإدراك بالبصر إدراك بمحسوس فكيف تدركه العقول ؟

العقول لا تدرك كنه حقيقة صفات الله عز وجل أبداً ،

{ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير } [الشورى ١١] ،

ثم نقول لهم رابعاً : أن هذه العقول التي زعمتم أنها مرجع ومُحكّم في صفات الله عقولٌ متناقضة !

لأن هؤلاء العقلاء كما يدَّعون يتناقضون ،

فتجد بعضهم يقرر وجوب ذلك عقلاً والآخر يقرر وجوب ذلك عقلاً ،

وفرق واسع شاسع بين الواجب والممتنع ،

وكلٌّ منهم يدَّعي أنه من ذوي العقول ،

هذا يقول : هذا ممتنع على الله ولا يجوز وصفه به ،

وهذا يقول : واجب لله فيجب وصفه به ،

أين العقل ؟ بأي شيء يوزن ما يجب لله وما يمتنع ؟ بأي عقل يوزن ؟

إن قلنا : بعقل زيد ، قال عمرو : وراكم تتركون عقلي ،

إن قلنا : بعقل عمرو ، قال زيد : وراكم تتركون عقلي ،

فبأي عقل يوزن ؟

فأنتم متناقضون ،

بل إنه كما قال شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم : إن الواحد من هؤلاء الذين يحكمون العقل يكون متناقضاً ،

فيكتب في بعض مصنفاته : أن هذا واجب لله ،

ويكتب في المصنفات الأخرى : أنه ممتنع على الله ،
 إذن الرجوع إلى العقل باطل من هذه الوجوه الأربعة ،
 والواجب أن نرجع إلى النقل ،
 فإذا وجب الرجوع إلى النقل فهناك مرحلة أخرى واجبة :
 وهي أن نأخذ بظاهر هذا النقل ولا نحرفه ،
 لا نقول : المراد به كذا وكذا مما يخالف الظاهر ، بل الواجب أن نأخذ بظاهره ،
 فإذا قال قائل : إذا أخذت بظاهره فقد مثلت الله بخلقه ،
 ولنفرض أنك أخذت بظاهر اليد أن لله يدين ،
 يقول : إذا قلت : إن المراد باليدين هما ما يؤخذ بهما ويقبض فقد مثلت الله بخلقه ،
 وحينئذ وقعت فيما هو كفر ،
 فما جوابنا على ذلك ؟
 جوابنا على ذلك أن نقول : من يقول : إن ظاهر اليدين حقيقة يقتضي المماثلة ؟ من يقول هذا ؟
 بل لنا أن نقول : إن ظاهر المضافتين إلى الله حقيقة يقتضي امتناع المماثلة وذلك ، كيف ذلك ؟
 لأنها يداً أضيفت إلى متصفٍ بها ،
 ومن المعلوم أن ما أضيف إلى الشيء فإنه يكون لائقاً به ،
 فاليدان اللتان أضافهما الله إلى نفسه يدان لائقتان لله عز وجل لا يمكن أن تماثل أيدي المخلوقين ،
 ألم تكن تقول : يد إنسان ، وتقول : يد حمار ، وتقول : يد جمل ، وتقول : يد هرّ ، وتقول : يد أسد ، وتقول :
 يد ذرة ؟
 هل أحد من الناس يعتقد التماثل في هذه الأيدي ؟
 أبداً ،
 لأنها مضافة إلى متصفٍ بها فتكون هذه الأيدي لائقَةً بالموصوف به ،
 لكن إذا قلت : يد أسدٍ ويد أسدٍ آخر ، صارت مماثلة ،
 فإذا علم التباين بين المخلوقات بعضها مع بعضٍ فالتباين بين الخالق والمخلوق من باب أولى ،
 ومن اعتقد أن ظاهر نصوص الكتاب والسنة التمثيل ، فقد كفر ،
 لأن تمثيل الله بخلقه كفرٌ ،
 ومن زعم أن ظاهر الكتاب والسنة ما يقتضي الكفر ، فهو كافر ،
 لأن الكتاب والسنة يقرران الإيمان وينكران الكفر ،

ولهذا قال نعيم بن حماد الخزاعي رحمه الله شيخ البخاري : (من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً) ،

فالحاصل أن نقول : إننا إذا أخذنا بظاهر النصوص لم نكن ممثلين ، بل نحن أبعد الناس عن التمثيل ، والممثل حقيقة : هو الذي صرف عن ظاهرها هذا هو الذي جعل النصوص دالة على التمثيل ، لأنه لم يصرفها عن ظاهرها إلا حيث اعتقد أن ظاهرها يقتضي التمثيل فلما اعتقد هذه العقيدة الباطلة ذهب يصرفها عن ظاهرها ،

ولهذا نقول : كل معطل فهو ممثل لأنه لم يعطل إلا حيث اعتقد أن ظاهرها التمثيل فذهب يصرفها عن ظاهرها ويعطل مدلولها عما أراده الله ،

من القائلون بتحكيم العقل ؟

القائلون بتحكيم العقل الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية ،

وكل أهل التأويل يقولون بتحكيم العقل في هذا الباب ،

وسأتي إن شاء الله في كلام المؤلف : أن الأشاعرة لا يشتون من الصفات إلا سبعا ،

ادعوا أن العقل يقتضيها وأنكروا بقية الصفات بحجة أن العقل لا يقتضيها ،

ولكننا نقول إن شاء الله : بأن العقل يؤيد ما جاءت به النصوص من هذه الصفات الكمالية التي اتصف الله سبحانه وتعالى بها ،

قوله (ولا نرد ذاك بالعقول) : والذين رجعوا إلى العقول هل ردوها ؟

ردوها لأنهم أنكروا دلالتها على المراد بها ،

فقالوا مثلاً : في قوله تعالى : { وجاء ربك } [الفجر ٢٢] أي وجاء أمر ربك ، ردوها ،

إذا قالوا : نحن لم نردها ولم نكذب بمجيء الله لكن المراد بمجيئه مجيء أمره ؟

نقول : وهل هذا إلا ردٌّ ، ما معنى الرد إذا لم يكن هذا ردّاً ؟

ربنا تعالى يقول : { وجاء ربك } .

وأنتم تقولون : لم يجيء ربك الذي جاء أمره ،

سبحان الله ، هل الله يبين لعباده خشية أن يضلوا أو يعمي على عباده ليضلوا ؟

الجواب : الأول ، { يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم } [النساء ١٧٦] لو كان الله يريد بقوله : { وجاء ربك } : (وجاء أمر ربك) لكان هذا أبلغ ما يكون في التعمية ،

كيف يقول لنا : { وجاء ربك } ، وهو يريد (وجاء أمره) ؟

هل هذا إلا من عدم البيان بل من التلبيس على العباد ؟

كيف يقول عن نفسه وهو واجب على عباده أن يعرفوه بصفاته ؟

كيف يقول : { وجاء ربك } وهو يريد (وجاء أمر ربك) ؟

فإذا قال قائل : إن الله يقول : { أتى أمر الله فلا تستعجلوه } [النحل ١] ، فيجب أن نحمل { وجاء ربك } على هذا الآية ؟

نقول : هذه الآية التي استدللتم بها حجة عليكم وليست حجة لكم ، لأن اختلاف التعبير في موضعين يدل على أن أحدهما غير الآخر ، لو كان الله يريد بقوله : { وجاء ربك } يعني [جاء أمر ربك] لقاله كما قاله في الآية الثانية { أتى أمر الله } ثم إن الله قال هنا : { وجاء ربك والمَلَكُ صفّاً صفّاً } [الفجر ٢٢] ومعلوم أن الذي جاء هم الملائكة أنفسهم وليس أمرهم ، ففي الآية أيضاً قرينة لفظية تدل على امتناع تفسيرها بمجيء أمره ، ولا تعجبوا أن يكون كل دليل استدل به المبطل فإنه يكون دليلاً عليه ، لأن استدلاله به يدل على أن فيه إشارة إلى هذا المعنى لكنه إشارة على غير ما أراده ، وقد التزم شيخ الإسلام في كتابه : (درء تعارض العقل والنقل) التزم بأنه لا يأتي مبطل بحجة يحتج بها على باطله إلا جعلها دليلاً عليه ، لا له ، إذن نحن نقول لهؤلاء الذي يحكمون العقل : أنكم أنتم الذين خرجتم بآيات الصفات وأحاديثها عن ظاهرها ، أما نحن فإننا أخذنا بظاهرها ، لأن الله تعالى إنما أنزل الكتاب تبياناً لكل شيء وأراد من عباده أن يهتدوا بهذا القرآن لا أن يضلوا فيه ، وإذا كنتم أنتم تعملون بظاهر النصوص في العبادات والمعاملات ، وهي أيضاً - أعني العبادات والمعاملات - فيها ما يرجع فيه إلى العقل كالمسائل القياسية ، فكيف لا ترجعون فيها إلى مجرد النقل وتمنعون القياس كما منعه أهل الظاهر ؟ مع أن هؤلاء الذين يرجعون إلى العقل في باب الصفات يرجعون إليه أيضاً في باب الأحكام ، لكنهم يأخذون بظاهر النصوص فيها ، ولا يأخذون بظاهر النصوص في باب الصفات ، وهذا من التناقض في الاستدلال ، خامساً : أن في الاعتماد على العقل ارتكاب محظورين عظيمين : أحدهما : أن نقول على الله ما لا نعلم ، ثانياً : أن ننفي عن الله ما أثبتته لنفسه ، وهذا محذور عظيم ، لا يمكن لمؤمن أن يرتكبه بل ولا يمكن لعاقل أن يرتكبه فضلاً عن المؤمن ، وهؤلاء ارتكبوا ذلك بحجة أن العقل يمنع هذا على الله ، أو بحجة أن العقل يوجب على الله هذا الشيء ،

ولهذا قال المؤلف :
 ولا نرد ذاك بالعقول ،
 لقول مفتر به جهول ،
 قوله : (لقول مفتر) : اللام هنا للتعليل أي من أجل قول مفتر ، والمفتر هو الكاذب ،
 قوله : (به) : أي كاذب به ،
 قوله : (جهول) : ويجوز أن نجعل (به) متعلق بجهول ، أي جهول به ،
 وإنما قال المؤلف (مفتر وجهول) : لأن من خالف النص وقال المراد به كذا فهو :
 إما كاذب وإما جاهل ،
 إما كاذب إن تعمد مخالفة النص ،
 يعني يعلم أن النص يدل على كذا ، ولكن يقول : نرجع إلى كذا ،
 وإما جهول إن كان لا يدري أنه خالف النص ،
 فالذين خالفوا النصوص في هذا الباب لا يخرجون عن أحد هذين الوصفين :
 ١ . إما الكذب إن علموا أن النص يدل على خلاف قولهم ولكن ارتكبوا خلافه عن عمد ،
 ٢ . وإما الجهل أن ارتكبوا خلاف النص عن غير عمد ."

^١ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مطلع رسالته الأكملية : الكمال ثابت لله ، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية ، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تعالى ، يستحقه بنفسه المقدسة ، وثبت ذلك مستلزم نفي نقيضه . اهـ .

ودليل العقل على كمال الله تعالى يعتمد بداهة على قياس الأولى ، وهو يدل على ذلك من طريقين :
 الأول : طريق الترجيح والتفضيل ، وهو أن كل كمال ثبت للمخلوق المحدث المربوب الممكن ، فإنه يكون ثابتا للخالق من باب أولى .

والثاني : طريق دلالة الأثر على المؤثر ، ويراد بها أن واهب الكمال أحق بالاتصاف به من الموهوب .
 قال ابن بطال : (صفات الله تعالى لا نقص فيها) .

وقال ابن تيمية : (ما جاء به الرسول هو الحق الذي يدل عليه المعقول ، وإن أولى الناس بالحق أتبعهم له وأعظمهم له موافقة ، وهم سلف الأمة وأئمتها الذين أثبتوا ما دل عليه الكتاب والسنة من الصفات ، ونزهوه عن مماثلة المخلوقات ؛ فإن الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام : صفات كمال ممكنة بالضرورة ، ولا نقص فيها ، فإن ما اتصف بهذه فهو أكمل مما لا يتصف بها ، والنقص في انتفائها لا في ثبوتها ، والقابل للاتصاف بها - كالحیوان - أكمل ممن لا يقبل الاتصاف بها ، كالجماد) .

واثبت لرب الكون خالق الورى		مشيئةً ثابتةً بلا امترا
ان قال كن للشيء لا محالة		قد كان قهراً مثل ذا زواله
فهو الاله الملك المليك		ليس له في ملكه شريك
والمتصرف في البرايا مطلقا		فما اراد كونه تحققا

♦ وقال ابن القيم: (ذاته تعالى مُنَزَّهَةٌ عن كُلِّ شَرٍّ، وصفاته كذلك؛ إذ كُلُّها صِفَاتُ كَمَالٍ ونُعُوتُ جَلَالٍ، لا نَقْصَ فيها بَوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وأَسْمَاؤُهُ كُلُّها حُسْنَى ليس فيها اسمٌ ذَمٌّ ولا عَيْبٌ) .

♦ وقال علي القاري: (هو مولانا، نَعَمَ المولى، ونَعَمَ التَّصِيرُ، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١] ، وهو مَتَّصِفٌ بأوصافِ الكَمَالِ مِنَ نَعُوتِ الجَلَالِ، وصفاتِ الجَمَالِ الذَّاتِيَّةِ والأَفْعَالِيَّةِ، والثَّبُوتِيَّةِ والسَّلْبِيَّةِ، فهو كما أَنَّهُ موصوفٌ بأوصافِ الكَمَالِ، مُنَزَّهٌ عن صفاتِ النُّقْصَانِ والزَّوَالِ) .

♦ وقال الزُّرقاني: (أَسْمَاءُ اللَّهِ وصفاته وكَلَامُهُ لا نَقْصَ فيها) .

وقال سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ آلِ الشَّيْخِ: (لا يضافُ الشَّرُّ إلى ذَاتِهِ وصفاته، ولا أَسْمَاءُهُ ولا أفعاله؛ فَإِنَّ ذَاتَهُ مُنَزَّهَةٌ عن كُلِّ شَرٍّ، وصفاته كذلك؛ إذ كُلُّها صِفَاتُ كَمَالٍ، ونُعُوتُ جَلَالٍ، لا نَقْصَ فيها بَوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ) .

♦ وقال ابنُ باز: (كُلُّ أَسْمَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مُشْتَمِلَةٌ على صِفَاتٍ له سُبْحَانَهُ تَلِيْقُ به وتُنَاسِبُ كَمَالَهُ، ولا يُشَبِّهُهُ فيها شَيْءٌ؛ فأسْمَاؤُهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَامٌ عليه ونُعُوتٌ له عَزَّ وَجَلَّ، ومنها: الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الْعَزِيزُ، الْحَكِيمُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهِمِّنُ، إلى غيرِ ذلك من أَسْمَاءِهِ سُبْحَانَهُ الوارِدَةِ في كتابِهِ الْكَرِيمِ، وفي سُنَّةِ رَسُوْلِهِ الْأَمِينِ؛ فَالوَاجِبُ إثباتُها له سُبْحَانَهُ على الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِجَلَالِهِ مِنْ غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غيرِ تَكْيِيفٍ ولا تمثيلٍ) .

♦ وقال ابنُ عُثَيْمِينَ: (صِفَاتُ اللَّهِ تعالى كُلُّها صِفَاتُ كَمَالٍ لا نَقْصَ فيها بَوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ؛ كَالْحَيَاةِ، وَالْعِلْمِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالسَّمْعِ، وَالْبَصَرِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالْعِزَّةِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالْعُلُوَّ، وَالْعَظَمَةَ، وغيرِ ذلك. وقد ذَلَّ على هذا: السَّمْعُ والعقلُ والفِطْرَةُ) .

وقال ابنُ عُثَيْمِينَ أَيْضًا: (صِفَاتُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قِسْمَانِ: ثُبُوتِيَّةٌ وَسَّلْبِيَّةٌ، أو إِنَّ شَيْئًا قُلْتُ: مُثَبَّتَةٌ وَمَنْقِيَّةٌ، والمعنى وَاحِدٌ؛ فَالْمُثَبَّتَةُ: كُلُّ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، وَكُلُّها صِفَاتُ كَمَالٍ، ليس فيها نَقْصٌ بَوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، ومن كَمَالِها أَنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ما أَثْبَتَهُ دَالًّا على التَّمْثِيلِ؛ لِأَنَّ الْمُثَابِلَةَ لِلْمَخْلُوقِ نَقْصٌ)

لا خالق في ملكه سواه	ولا يدبر أمره الا هو
الخلق والامر له ومن ملك	يملكه سبحانه وما ملك
هذا واعطى العبد قدره على	فعل الفعال ربنا له العلا
فلا يشاء العبد الا بعد ان	يشاء ربي ذو الجلال والمنن ^(١)

^١ - الارادة والمشیئة صفتان ذاتيتان فعليتان ثابتان بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

١ - قوله تعالى: { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } الآية [الأنعام: ١٢٥] .

٢ - قوله: { إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ } [المائدة: ١] .

قال ابن جرير: (قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ } يعني بذلك جل ثناؤه: إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ مِنْ تحليل ما أراد تحليله، وتحريم ما أراد تحريمه، وإيجاب ما شاء إيجابه عليهم، وغير ذلك من أحكامه وقضايه) .

٣ - قوله: { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [الإنسان: ٣٠] .

قال السمعاني: (قوله: { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } ردّ مشيئتهم إلى مشيئته، والمعنى: لا يريدون إلا بإرادة الله، وهو موافق لعقائد أهل السنة، أنه لا يفعل أحد شيئاً ولا يختاره ولا يشاؤه إلا بمشيئة الله) .

٤ - قوله: { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ } [آل عمران: ٢٦] .

الدليل من السنة:

١ - حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((وَكَلَّ اللَّهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا... فإذا أراد الله أن يقضي خلقها، قال...)) .

٢ - حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إذا أراد الله بقوم عذاباً، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم)) .

٣ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: ((... إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءَ، وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي، أَعَذَّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءَ)) .

٤ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((... ذلك فضل الله يؤتيه من

يشاء)) .

♦ قال أبو الحسن الأشعري: (أجمعوا على إثبات حياة الله عز وجل، لم يزل بها حيًّا...) إلى أن قال: (وإرادة لم يزل بها مُريدًا...) .

♦ وقال ابن تيمية - بعد أن سرد بعض الآيات السابقة وغيرها -: (... وكذلك وصف نفسه بالمشيئة، ووصف عبده بالمشيئة... وكذلك وصف نفسه بالإرادة، ووصف عبده بالإرادة... ومعلوم أن مشيئة الله ليست مثل مشيئة العبد، ولا إرادته مثل إرادته...) .

ويجب إثبات صفة الإرادة بقسميها: الكوني والشرعي؛ فالإرادة الكونية بمعنى المشيئة، والشرعية بمعنى المحبة .

♦ قال أبو القاسم الأصبهاني: (الإرادة غير المحبة والرضا؛ فقد يريد ما لا يحب ولا يرضاه، بل يكرهه ويسخطه ويغضه. قال بعض السلف: إن الله يُقدِّر ما لا يرضاه بدليل قوله: { وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } [الزمر: ٧] ، وقال قوم من المتكلمين: من أراد شيئاً فقد أحبه ورضيه، وإن الله تعالى رضي المعصية والكفر. ودليلنا: أنه قد ثبت إرادته للکفر ونفي رضاه به، فقال تعالى: { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ } [الأنعام: ١٢٥] ، وقال: { وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } [الزمر: ٧] ؛ فثبت الإرادة ونفي الرضا) .

♦ وقال ابن تيمية: (الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة شرعية دينية تتضمن محبته ورضاه، وإرادة كونية قدرية تتضمن خلقه وتقديره) .

وقال أيضاً: (أئمة أصحاب مالك والشافعي وأحمد وعامة أصحاب أبي حنيفة يقولون بما اتفق عليه السلف من أنه سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ويثبتون الفرق بين مشيئته وبين محبته ورضاه، فيقولون: إن الكفر والفسوق والعصيان، وإن وقع بمشيئته؛ فهو لا يحب ولا يرضاه، بل يسخطه ويغضه، ويقولون: إرادة الله في كتابه نوعان: نوع بمعنى المشيئة لما خلق، كقوله: { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ } [الأنعام: ١٢٥] ، ونوع بمعنى محبته ورضاه لما أمر به وإن لم يخلقه، كقوله: { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة: ١٨٥] ، { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [المائدة: ٦] ، { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [النساء: ٢٦] ، { وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } [النساء: ٢٧ - ٢٨] .

♦ وقال ابن أبي العز: (أما أهل السنة فيقولون: إن الله وإن كان يريد المعاصي قدرًا فهو لا يحبها ولا يرضاه ولا يأمر بها، بل يغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها. وهذا قول السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لم يحنث إذا لم يفعله، وإن كان واجبًا أو مستحبًا. ولو قال: إن أحبَّ الله، حنث إذا كان واجبًا أو مستحبًا.)

والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة قدرية كونية خلقية، وإرادة دينية أمرية شرعية؛ فالإرادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضا، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث. وهذا كقوله تعالى: { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ } [الأنعام: ١٢٥] ، وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: { وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ } [هود: ٣٤] ، وقوله تعالى: { وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } [البقرة: ٢٥٣] .

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية فكقوله تعالى: { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة: ١٨٥] ، وقوله تعالى: { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } [الأحزاب: ٣٣] .

فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريد الله، أي: لا يحبّه ولا يرضاه ولا يأمر به، وأما الإرادة الكونية فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

♦ وقال محمد بن إبراهيم آل الشيخ: (المشيئة لم ترد مستعملة في الدينية، إنما جاءت مستعملة في الكونية، فلا تنقسم، ولا أعلم أنها تنقسم، بخلاف الإرادة).

♦ وقال ابن باز: (من مراتب الإيمان بالقدر: أنه سبحانه وتعالى لا يوجد في ملكه ما لا يريد، ولا يقع شيء في السماء والأرض إلا بمشيئته، كما قال تعالى: { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [التكوير: ٢٨، ٢٩] ، وقال تعالى: { فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } [المدثر: ٥٥، ٥٦] ، وقال تعالى: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } [الأنعام: ١١٢] ، وقال تعالى: { مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الأنعام: ٣٩] ، وقال عز وجل: { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام: ١٢٥] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا معلومة من كتاب الله، والإرادة في هذه الآية بمعنى المشيئة، وهي إرادة كونية قدرية، بخلاف الإرادة في قوله تعالى: { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } ، والمعنى أن الله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً } [النساء: ٢٦-٢٨] ؛ فالإرادة في هذه الآيات الثلاث إرادة شرعية أو دينية، بمعنى المحبة، والفرق بين الإرادتين: الأولى: لا يتخلف مرادها أبداً، بل ما أراد الله كوناً فلا بد من وقوعه، كما قال تعالى: { إِنَّمَا أَمْرُهُ

إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ { [يس: ٨٢] ، أَمَّا الْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ فَقَدْ يُوجَدُ مَرَادُهَا مِنْ بَعْضِ النَّاسِ ، وَقَدْ يَتَخَلَّفُ) .

♦ وقال ابن عُثَيْمِينَ: (الْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ لَا يَلْزَمُ مِنْهَا وَقُوعُ الْمَرَادِ ، وَهِيَ الَّتِي بِمَعْنَى الْمَحَبَّةِ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} [النساء: ٢٧] بِمَعْنَى: يَحِبُّ ، وَلَوْ كَانَتْ بِمَعْنَى: يَشَاءُ ، لَتَابَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ . وَالْإِرَادَةُ الْكُونِيَّةُ يَلْزَمُ مِنْهَا وَقُوعُ الْمَرَادِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } [البقرة: ٢٥٣] .

ومنهج أهل السنة والجماعة وسط بين المذاهب ، فإنهم يثبتون للعباد مشيئة ، إلا أن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله تعالى ، فلا يشاءون إلا ما شاءه الله .

♦ قال شيخ الإسلام ابن تيمية : فإن العبد له مشيئة وهي تابعة لمشيئة الله كما ذكر الله ذلك في عدة مواضع من كتابه { فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } ، { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } ، { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } ، فإذا كان الله قد جعل العبد مريدًا مختارًا شائئًا امتنع أن يقال هو مجبور مقهور مع كونه قد جعل مريدًا ، وامتنع أن يكون هو الذي ابتدع لنفسه المشيئة . مجموع الفتاوى .

ولا ريب في أن الله أحكم الحاكمين وأن ربنا لا يظلم أحداً ، ولذلك فهو لا يجبر الإنسان على الإيمان أو الكفر . وأما الآيات المشار إليها من كونه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فهذا حق فإن الله تعالى يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله وهذا كله بحكمته سبحانه ، فهذه الآيات دليل على أن مشيئة الله فوق مشيئة عباده ، ولكنها لا تنفي وجود مشيئة للعباد ؛ بدليل الآيات السابق ذكرها ، وإن طلبت دليلاً محسوساً على ذلك فبقارن بين تحريك الإنسان ليد ، وبين ارتعاشها وحركتها لا إرادياً ، فإنك ستجد فرقاً ولا بد ، وهذا الفرق هو دليل عدم الجبر ، وأن الإنسان له مشيئة ، إذا شاء حرك يده وإذا شاء لم يحركها ، إلا أن هذا وذاك لا يكونان إلا بإذن الله ، فلولا أن الله أذن له بذلك لم يستطع فعله ، ولكن هذا لا يعني أنه مسلوب الإرادة والمشيئة ، كهذا الذي ترتعش يده دون إرادة منه ، والفرق واضح بين الحالين .

فإذا تقرر أن للعبد مشيئة ، وأنه ليس مسلوب الإرادة والاختيار ، فلا عجب من كونه يجازى على ما يختاره ويفعله . ونحن لسنا مخيرين بإطلاق ، كما أننا لسنا مسيرين بإطلاق .

وانحراف القدرية في باب المشيئة يتمثل في قولهم بنفي عموم مشيئة الله تعالى لأفعال العباد ، حيث زعموا أن العبد مستقل بخلق أفعاله وإرادته ، وأن المعاصي والشُرور تقع في الكون دون مشيئة الله أو تقديره ، فراراً من توهم أن ذلك يعني رضا الله بالظلم .

وظنت القدرية أن كل ما شاءه الله وأرادته كَوْنًا فهو يحبه ويرضاه. وبناءً على ذلك، اعتقدوا أنه لو كان الكفر والفسق بمشيئة الله، لكان الله محباً وراضياً بهما، وهو ما يتنافى مع تنزيه الله عن الشر، فدفعوا هذا الباطل بنفي المشيئة.

والرد عليهم هو في الفريق بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية فالكفر إرادة الله تعالى قدراً لحكمة عنده ولم يره شرعاً وليس لاحد ان يحتج بالقدر على المعصية وانما المأمور بذل اسباب الهداية والمجاهدة في تحصيلها . وزعموا أن قدرة العبد على الفعل مستقلة تماماً، وأن الإنسان هو خالق أفعال نفسه، جاعلين العبد -فيما يتعلق باختياره- مستقلاً عن مشيئة الخالق، وهو ما اعتبره علماء الأمة مضاهاةً لعقيدة المجوس في إثبات خالقين للكون (إله للخير وإله للشر).

بين الله سبحانه وتعالى في القرآن أن العبد له مشيئة واختيار، إلا أنها تابعة لمشيئة الله تعالى وليست مستقلة عنها، قال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٩].

وقد استخدم المشركون المشيئة لتبرير ضلالهم قائلين: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا} [الأنعام: ١٤٨]، وقد أبطل الله حجته هذه لأن الإنسان يملك الاستطاعة والقدرة التي ميزه الله بها ومكّنه من اختيار طريق الهدى من الضلال، دون جبر من الله على المعصية.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية: "ومنشأ الضلال من التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا، فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا، فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوباً مرضياً. وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدرة ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه. وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة. أما نصوص

المشيئة والإرادة من الكتاب .. وأما نصوص المحبة والرضا، فقال تعالى: {والله لا يحب الفساد} [البقرة: ٢٠٥] {ولا يرضى لعباده الكفر} [الزمر: ٧]. وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر: {كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً} [الإسراء: ٣٨]. وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ((إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)). وفي المسند ((إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته)).

..... وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: ((اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك)). فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة. فالأول للصفة، والثاني: لأثرها المرتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فإعاذتي مما أكره ومنعه أن يحل بي، هي بمشيئتك أيضاً، فالمحسوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك، فإعاذتي بك منك، وإعاذتي بحولك وقوتك

فَهُوَ الْقَوِيُّ رَبُّنَا لَا يَتَعَبُ		الْقَاهِرُ الْخَلْقِ الَّذِي لَا يُغْلَبُ ^(١)
لَا يَعْتَرِيهِ السُّهُو وَالنِّسْيَانُ		وَاللَّهُ لَا يَبْلَى لَهُ سُلْطَانُ
وَلَا يَبْدُلُ عِلْمُهُ بَتَاتَا		وَلَيْسَ عَنْهُ غَائِبٌ قَدْ فَاتَا ^(٢)

ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك ، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك ، بل هو منك . فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية ، إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته ."

^١ - قوة الله تعالى مطلقة ولا يعترىها نقص، فهو القادر على كل شيء، المتصرف في ملكه بلا منازع. تشمل هذه القوة خلق الكون وإدارته، وقهر الجبابرة، وتدبير شؤون الخلائق بدقة متناهية. الإيمان بهذه القوة يزرع في القلب اليقين، ويزيل الخوف من المخلوقين، ويورث التواضع والخشوع.

^٢ - "علم الله لا يتبدل" يعني أن علم الله تعالى أزلي، محيط بكل شيء، وكامل. فهو يعلم ما كان وما سيكون، وما يقع في الكون مكتوب في اللوح المحفوظ دون أن يطرأ عليه تغيير، أو زيادة، أو نقص، أو تبديل أو نسيان. فلا يقع في هذا الكون شيء يخالف علمه سبحانه. فالله يعلم ما الخلق عاملون قبل فعلهم ويعلم ما يفعلون أثناء فعلهم ويعلم ذلك بعد فعلهم كل ذلك في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى .

قال الامام الاسماعيلي رحمه الله: [ويقولون: لا سبيل لأحد أن يخرج عن علم الله، ولا أن يغلب فعله وإرادته مشيئة الله، ولا أن يبدل علم الله، فإنه العالم لا يجهل ولا يسهو، والقادر لا يغلب].

قال ابن جبرين رحمه الله: " لا سبيل لأحد أن يخرج عن علمه ، فالله تعالى عالم بنا وبأحوالنا، قال تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَّمَ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [ق: ١٦] ، فإذا كان يعلم وساوس النفس وخطرات القلب فإنه لا تخفى عليه أعمال العباد كلهم، يعلم السر وأخفى، ويعلم الجهر وما يخفى، ويعلم ما كان وما لم يكن وما سوف يكون، فلا يخرج عن علم الله تعالى شيء.

وكذلك أيضاً أفعال العباد وقدرتهم لا تخرج عن مشيئة الله، ولا قدرة لهم على أن يخالفوا مشيئة الله تعالى، فمشيئة الله غالبة، ولهذا قال: { وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [المدثر: ٥٦] { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [الإنسان: ٣٠] في موضعين، وكثيراً ما يذكر أن مشيئة الله تعالى غالبة على كل شيء، ولكن المشيئة والقدرة التي منحها العباد تناسبهم، إذا ليس لأحد أن يبدل علم الله تعالى.

في ذا سواء الجهر والخفايا(١)

احاط علماً ربنا البرايا

فالله تعالى هو العالم، فمتى علم في هذا الإنسان شيئاً فلا بد أن يحصل ما علمه الله فيه، سواءً أكان قريباً أم بعيداً، فإذا علم الله تعالى في هذا الإنسان أنه يموت سعيداً فلو حاول الناس كلهم أن يردوه عن السعادة لم يستطيعوا، ولو شقي وعصى في وقت من الأوقات لرد الله له رشده إلى أن يموت وهو على السعادة، وكذلك العكس، فإذا علم الله شقاوة عبد وحاول الناس كلهم أن يهدوه لم يستطيعوا، ولو اهتدى في زمان من الأزمنة فإن الله تعالى إذا قدر أنه يموت على الشقاوة لا بد وأن يموت عليها مهما كانت الحال .

^١ - هذه حقيقة إيمانية عظيمة؛ ففي علم الله يستوي السر والعلن؛ إذ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ويعلم ما توسوس به النفوس وما هو أخفى من السر.

فعلم الله تعالى محيط بكل شيء، ويشمل ذلك نوايا الخلق وخبايا نفوسهم وما تخفي صدورهم، قال سبحانه : { يَعْلمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ } [غافر: ١٩] وقال تعالى : { وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } [طه: ٧]. وقال عز وجل : { سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ } [الرعد: ١٠]. وقال سبحانه : { أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [هود: ٥].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، ومع ذلك فهو سبحانه مستو على عرشه بائن من خلقه، وهو مع علوه على خلقه لا يحجبه عنهم شيء، بل هو بعلمه وإحاطته وقدرته أقرب إليهم من بواطن نفوسهم، قال ابن القيم . رحمه الله : وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء . بحيث يكون أقرب إليه من نفسه... فأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، فالظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه... فعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا توارى منه سماء سماء ولا أرض أرضاً، ولا يحجب عنه ظاهر باطن، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية... فهو الظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره . انتهى بتصرف.

فإذا أيقن العبد بذلك أثمر له مراقبة الله عز وجل، يقول ابن القيم رحمه الله : المراقبة دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه فاستدامته لهذا العلم واليقين : هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين.

ومن كلام ربنا القرآن		حتم به يا ذا الحجا الإيمان
قد اعجز العُرب عن الإتيان		بمثله في الحق والتبيان
والقول بالخلق له ومن زعم		عبارة عن قوله فذا يذم
قراءة القرآن غير ما قرء		ومن يُفرّق بينها فقد برء
فإن قراه قارئ لم ينتفي		نسبته لذي العلا يا مقتفي
فهو الذي قد قاله ابتداء		كيما يزيد خلقه اهتداء
لكن صدور الصوت من رب الفلق		ليس كمثل الصوت ممن قد خلق ^(١)

^١ - مذهب السلف قاطبة إذ ثبت ذلك في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم - هو كلام الله غير مخلوق، لأنه صفة من صفات الرب جل وعلا، وصفاته تعالى غير مخلوقة، تكلم الله به حقيقة بصوت وحرف، وأسمعه جبريل، ونزله على محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى: {قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله} [البقرة : ٩٧].

ومما استدل به الأئمة رحمهم الله على ذلك ما ثبت في الصحيح وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: "أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق" فقد قال: "إن الاستعاذة لا تكون بمخلوق ، ولكن تكون إلا بالله جل وعلا، أو بصفة من صفات الرب سبحانه وتعالى".

قال أحمد رحمه الله: نقول: القرآن الكريم كلام الله حيث تصرف : أي حيث تلي وكتب وقرئ مما هو في نفس الأمر كلام الله فهو كلامه، وكلامه غير مخلوق. وما كان من صفات العباد وأفعالهم التي يقرؤون ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومدادهم فهو مخلوق ، ولهذا من لم يهتد إلى هذا الفرق يحار فإنه من المعلوم أن القرآن واحد ويقرؤه خلق كثير، والقرآن لا يكسر في نفسه بكثرة قراءة القراء، وإنما يكسر ما يقرؤون به القرآن فيما يكسر ويحدث في العباد فهو مخلوق ، والقرآن نفسه لفظه ومعناه الذي تكلم الله به، وسمعه جبريل من الله، وسمعه محمد من جبريل، وبلغه محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس، وأنذر به الأمم لقوله تعالى: {لأنذرکم به ومن بلغ} [الأنعام : ١٩]. قرآن واحد وهو كلام الله غير مخلوق.

ونضرب مثلاً يقرب هذا إلى الفهم - والله المثل الأعلى - وهو أنه لو تكلم شخص بكلام فنقلت كلامه بنصه إلى

الناس فقالوا لك هل هذا كلامك؟ فإنك تقول لهم لا! بل هذا كلام فلان، وأنت الذي تكلمت به بصوتك، وقد تكتبه ويقرؤه غيرك، فننسب ذلك الذي تكلمت به إلى من قاله حقيقة. ونحن لا نعبد القرآن بل نعبد الله تعالى - الذي خلقنا - ونتعبده سبحانه وتعالى بصفاته ومن صفاته القرآن الكريم.

فهاهنا أمران ينبغي التمييز بينهما

الأول : كلام الله جل وعلا ، الذي تكلم به ابتداء ، وسمعه منه جبريل عليه السلام ، ونقله إلينا النبي صلى الله عليه وسلم : فهذا صفة الله ، غير مخلوقة ، بحروفه ، وكلماته ، وكذا صوته الذي تكلم الله به ابتداء ، وسمعه منه جبريل عليه السلام.

فهذا كله : كلام الله غير مخلوق منه شيء ، كيف اكتب ، أو تلي ، أو سمع.

والثاني : عمل العبد ، الذي هو وعاء الذي يحمل به كلام الله ، فيكتبه في كتاب ، ويقرؤه ، ويسمعه ، وكل ما كان من العبد وعمله : فهو مخلوق.

فيد البعد مخلوقة ، والمداد الذي يكتب به : مخلوق ، والأوراق التي يكتب فيها : مخلوقة ، ولسان العبد :

مخلوق ، وصوته الخاص به : مخلوق ؛ وكل هذه أوعية ، يحمل بها العباد كلام الله ، وينقلونه ، ويبلغونه.

وقد حرر غير واحد من الأئمة المقام ، وميزوا بين الأمرين ، وعلى رأسهم إمام المحدثين : محمد بن إسماعيل البخاري رحمه ، فقد صنف في ذلك كتابا خاصا أسماه "خلق أفعال العباد"، ومما جاء فيه (٧٠/٢).

"قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ : سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعِيدٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ يَقُولُ : مَا زِلْتُ أَسْمَعُ أَصْحَابَنَا يَقُولُونَ : إِنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : حَرَكَاتُهُمْ وَأَصْوَاتُهُمْ وَكِتَابَتُهُمْ مَخْلُوقَةٌ ، فَأَمَّا الْقُرْآنُ الْمُنْلَوُ الْمُبَيَّنُ الْمُثَبَّتُ فِي الْمُسْطَوِّ الْمَسْطُورِ الْمَكْتُوبِ الْمُوعَى فِي الْقُلُوبِ فَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ لَيْسَ بِخَلْقٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ : فَأَمَّا الْأَوْعِيَةُ فَمَنْ يَشْكُ فِي خَلْقِهَا ؟ . انتهى.

♦ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"إِذَا قَرَأْنَا الْقُرْآنَ فَإِنَّمَا نَقْرُؤُهُ بِأَصْوَاتِنَا الْمَخْلُوقَةِ الَّتِي لَا تُمَاتِلُ صَوْتَ الرَّبِّ، فَالْقُرْآنُ الَّذِي نَقْرُؤُهُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ ، مُبَلَّغًا عَنْهُ لَا مَسْمُوعًا مِنْهُ، وَإِنَّمَا نَقْرُؤُهُ بِحَرَكَاتِنَا وَأَصْوَاتِنَا، الْكَلَامُ الْبَارِي ، وَالصَّوْتُ صَوْتُ الْفَارِي، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مَعَ الْعَقْلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ} وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ((زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ)) " انتهى من "مجموع الفتاوى" (٩٨ / ١٢) ، وينظر: "مجموع الفتاوى" (٥٣ / ١٢).

♦ وقال علماء اللجنة الدائمة للإفتاء:

"الاعتقاد الواجب نحو القرآن وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة ودل عليه الكتاب والسنة - أن القرآن كلام

الله حقيقة ، حروفه ومعانيه ، منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، وهو كلام الله تعالى ، حيث تلي وحيث كتب ، قال الله تعالى : { فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ } [عبس/ ١٣ ، ١٤] ، وقال سبحانه : { رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ } [البينة/ ٢ ، ٣].

فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله تعالى ، وإنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا ، فالكلام كلام الباري والصوت صوت القاري " انتهى من "فتاوى اللجنة الدائمة. (3/21) "

ويمكن الرد على الفرق المبتدعة التي تقول بأن القرآن مخلوق بعدة ادلة:-
الدليل الأول:

قال الله تعالى : { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف/ ٥٤].

والاحتجاج بهذه الآية من وجهين:

الأول : أنه تعالى فرّق بين الخلق والأمر ، وهما صفتان من صفاته ، أضافهما إلى نفسه ، أما الخلق ففعله ، وأما الأمر فقوله ، والأصل في المتعاطفين التغاير إلا إذا قامت القرينة على عدم إرادة ذلك ، وهنا قد قامت القرائن على توكيد الفرق بينهما ، ومنها الوجه الآتي.

والثاني : أن الخلق إنما يكون بالأمر ، كما قال تعالى : { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس/ ٨٢].

فقوله تعالى : (كن) هو أمره ، فلو كان مخلوقا لاحتاج خلقه إلى أمر ، والأمر إلى أمر ، إلى ما لا نهاية ، وهذا باطل.

وقد احتج الإمام أحمد رحمه الله على الجهمية المعترلة بهذه الآية.

قال رحمه الله:

"قلت : قال الله : { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } ففرق بين الخلق والأمر " رواه حنبل في " المحنة " (ص ٥٣).
وقال لهم:

"قال الله : { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ .. } [النحل: ١] فأمره كلامه واستطاعته ليس بمخلوق ، فلا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض " رواه حنبل في " المحنة " (ص/٥٤).

وقال فيما كتبه للمتوكل حين سألته عن مسألة القرآن:

"وقد قال الله تعالى : { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ } [التوبة/ ٦] ، وقال : { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } ، فأخبر بالخلق ، ثم قال : (والأمر) ، فأخبر أن الأمر غير مخلوق " انتهى. رواه صالح ابنه في " المحنة " (روايته ص: ١٢٠ - ١٢١).

وقد سبق الإمام أحمد إلى هذا الاحتجاج شيخه الإمام سفيان بن عيينة الهاللي الحافظ الثقة الحجة ، فقال رحمه الله:

"قال الله عز وجل : { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } فالخلق خلق الله تبارك وتعالى ، والأمر القرآن " رواه الآجري في " الشريعة " (ص: ٨٠) بسند جيد عنه.

الدليل الثاني:

قال تعالى : { الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ } [الرحمن/ ١ - ٣].

ففرّق تعالى بين علمه وخلقه ، فالقرآن علمه ، والإنسان خلقه ، وعلمه تعالى غير مخلوق.

قال تعالى : { قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [البقرة/ ١٢٠].

فسمى الله تعالى القرآن علماً ، إذ هو الذي جاءه من ربه ؟ وهو الذي علمه الله تعالى إياه صلى الله عليه وسلم ، وعلمه تعالى غير مخلوق ، إذ لو كان مخلوقاً لاتصف تعالى بضده قبل الخلق ، تعالى الله عن ذلك وتنزه وتقدس. وبهذا احتج الإمام أحمد رحمه الله ، حيث قال في حكاية مناظرته للجهمية في مجلس المعتصم:

"قال لي عبد الرحمن القزاز : كان الله ولا قرآن . قلت له : فكان الله ولا علم ! فأمسك ، ولو زعم أن الله كان ولا علم لكفر بالله " . رواه حنبل في " المحنة " (ص: ٤٥).

وقيل له رحمه الله:

قوم يقولون : إذا قال الرجل : كلام الله ليس بمخلوق ، يقولون : من إمامك في هذا ؟ ومن أين قلت : ليس بمخلوق ؟

قال : " الحجة قول الله تبارك وتعالى : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم) ، فما جاءه غير القرآن. " وقال رحمه الله:

"القرآن علم من علم الله ، فمن زعم أن علم الله مخلوق فهو كافر" رواه ابن هانئ في " المسائل " (٢/ ١٥٣ ، ١٥٤).

الدليل الثالث:

قال تعالى : { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } [الكهف/ ١٠٩].

وقال تعالى : { وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [لقمان/ ٢٧].

فأخبر تعالى - وقوله الحق - أن كلماته غير متناهية ، فلو أن البحار التي خلق الله كانت مداداً تكتب به ، والشجر الذي خلق الله أقلاماً تخط به ، لنفد مداد البحور ، ولنفيت الأقلام ، ولم تنف كلمات الله.

وإنما في هذه الإبانة عن عظمة كلامه تعالى ، وأنه وصفه وعلمه ، وهذا لا يقاس بالكلام المخلوق الفاني ، إذ لو كان مخلوقاً لفني من قبل أن يفنى بحر من البحور ، ولكن الله تعالى إنما كتب الفناء على المخلوق لا على نفسه وصفته.

الدليل الرابع:

أسماء الله تعالى في القرآن ، ك (الله ، الرحمن ، الرحيم ، السميع ، العليم ، الغفور ، الكريم ...) وغيرها من أسمائه الحسنی ، وهي من كلامه ، إذ هو الذي سمي بها نفسه ، بألفاظها ومعانيها .
وقد ساوى الله تعالى بين تسبيح نفسه وتسبيح أسمائه ، فقال تعالى : { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } [الأعلى / ١] ، وساوى تعالى بين دعائه بنفسه ودعائه بأسمائه ، فقال : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } [الأعراف / ١٨٠] ، وكذلك ساوى تعالى بين ذكره بنفسه وذكره بأسمائه ، فقال : { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } [الإنسان / ٢٥] .
وهذا التسبيح والدعاء والذكر إن كان يقع لمخلوق كان كفراً بالله .
فإن قيل : إن كلامه تعالى مخلوق .

كانت أسماؤه داخلة في ذلك ، ومن زعم ذلك فقد كفر لما ذكرنا ؛ ولأن معنى ذلك أن الله تعالى لم تكن له الأسماء الحسنی قبل خلق كلامه ، ولكان الحالف باسم من أسمائه مشركاً لأنه حلف بمخلوق ، والمخلوق غير الخالق .

وبهذه الحجة احتج جماعة من السلف والأئمة على كون القرآن غير مخلوق ، منهم :
الإمام الحجة سفيان بن سعيد الثوري . قال : " من قال : إن { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ } مخلوق ، فهو كافر " أخرجه عبد الله في " السنة " رقم : (١٣) وسنده جيد .
ويقول الإمام الشافعي :

" من حلف باسم من أسماء الله فحنت فعلية الكفارة ؛ لأن اسم الله غير مخلوق ، ومن حلف بالكعبة ، أو بالصفاء والمروة ، فليس عليه الكفارة ؛ لأنه مخلوق ، وذاك غير مخلوق " أخرجه ابن أبي حاتم في " آداب الشافعي " (ص : ١٩٣) بإسناد صحيح .

ويقول أحمد بن حنبل :

" أسماء الله في القرآن ، والقرآن من علم الله ، فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن زعم أن أسماء الله مخلوقة فقد كفر " رواه ابنه صالح في " المحنة " (ص : ٥٢ ، ٦٦ - ٦٧) .

الدليل الخامس:

أخبر تعالى عن تنزيله منه وإضافته إليه ، كما قال : { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [السجدة / ٢] ، وقال : { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } [الأنعام / ١١٤] ، وقال : { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } [النحل / ١٠٢] ، ولم يصف شيئاً مما أنزله إلى نفسه غير كلامه ، مما دل على

الاختصاص بمعنى ، فليس هو كإنزال المطر والحديد وغير ذلك ، فإن هذه الأشياء أخبر عن إنزالها ، لكنه لم يضيفها إلى نفسه ، بخلاف كلامه تعالى ، والكلام صفة ، والصفة إنما تضاف إلى من اتصف بها لا إلى غيره ، فلو كانت مخلوقة لفارقت الخالق ، ولم تصلح وصفا له ؛ لأنه تعالى غني عن خلقه ، لا يتصف بشيء منه.

الدليل السادس:

عن خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمِ السُّلَمِيَّةِ قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)) رواه مسلم .

ولو كانت كلماته مخلوقة لكانت الاستعاذة بها شركا ؛ لأنها استعاذة بمخلوق ، ومن المعلوم أن الاستعاذة بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته شرك ، فكيف يصح أن يعلم النبي صلى الله عليه وسلم أمته ما هو شرك ظاهر ، وهو الذي جاءهم بالتوحيد الخالص!

فدل هذا على أن كلمات الله تعالى غير مخلوقة.

قال نعيم بن حماد : " لا يستعاذ بالمخلوق ، ولا بكلام العباد والجن والإنس والملائكة." وقال البخاري عقبه : " وفي هذا دليل أن كلام الله غير مخلوق ، وأن سواه خلق " ينظر " خلق أفعال العباد " (ص: ١٤٣).

الدليل السابع:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه) حديث حسن ، أخرجه عثمان الدارمي في " الرد على الجهمية " رقم : (٢٨٧ ، ٣٤٠) ، واللالكائي رقم : (٥٥٧).

تضمن هذا الحديث إثبات عقيدة السلف (القرآن كلام الله غير مخلوق) وذلك من وجهين:

الأول : التفريق بين كلام الله وما سواه من الكلام ، والكلام إما كلام الله الذي هو صفته ، أو الكلام المخلوق الذي هو من خلق الله ، فأضاف ما كان صفة لله إلى الله ، وعمم ما سواه ، ليشمل كل كلام سوى ما أضافه إلى الله ، ولو كان الجميع مخلوقا لما كانت هناك حاجة إلى التفريق.

والثاني : جعل الفرق بين كلام الله وكلام غيره ، كالفرق بين ذات الله وذات غيره ، فجعل شأن كلامه وصفته ، من شأن ذاته وصفته ، كما أن كلام المخلوق وصفته ، هو مناسب وملئم لذات المخلوق وصفته.

وقد احتج بهذا الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في " الرد على الجهمية " (ص: ١٦٢ - ١٦٣) ، فقال بعدما ذكر الأحاديث في هذا المعنى:

"ففي هذه الأحاديث بيان أن القرآن غير مخلوق ؛ لأنه ليس شيء من المخلوقين من التفاوت في فضل ما بينهما ، كما بين الله وبين خلقه في الفضل ؛ لأن فضل ما بين المخلوقين يستدرك ، ولا يستدرك فضل الله على خلقه ، ولا يحصيه أحد ، وكذلك فضل كلامه على كلام المخلوقين ، ولو كان مخلوقا لم يكن فضل ما بينه وبين سائر

الكلام ، كفضل الله على خلقه ، ولا كعشر عشر جزء من ألف ألف جزء ، ولا قريبا فافهموه ، فإنه ليس كمثله شيء ، فليس ككلامه كلام ، ولن يؤتى بمثله أبدا " انتهى.

الدليل الثامن:

من المعقول الصريح : أن كلام الله إن كان مخلوقا ، فلا يخلو من أحد حالين:

الأولى : أن يكون مخلوقا قائما بذات الله.

والثانية : أن يكون منفصلا عن الله بئنا عنه.

وكلا الحالين باطل ، بل كفر شنيع.

أما الأولى فيلزم منها أن يقوم المخلوق بالخالق ، وهو باطل في قول أهل السنة ، وعامة أهل البدع ، فإن الله تعالى مستغن عن خلقه من جميع الوجوه.

وأما الثانية فيلزم تعطيل صفة الكلام للباري تعالى ، إذ أن الصفة إنما تقوم بالموصوف - كما سبق تقريره - لا تقوم بسواه ، فإن قامت بغير الموصوف كانت وصفا لمن قامت به ، وهذا معناه أن الرب تعالى غير متكلم ، وهو كفر بين ، كما بينا الدلالة عليه.

الدليل التاسع:

علمت أن الصفة لا تقوم بنفسها ، فإن كانت صفة للخالق قامت به ، وإن كانت صفة للمخلوق قامت به ولا بد ، فالحركة ، والسكون ، والقيام ، والقعود ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، وغيرها من الصفات ، إن أضيفت لشيء كانت وصفا له ، وهي تابعة لمن قامت به ، فهذه صفات تضاف للمخلوق ، فهي صفات له حيث أضيفت له ، ومنها ما يضاف إلى الخالق ، كالقدرة والإرادة والعلم والحياة وغير ذلك ، فهي صفات له حيث أضيفت له ، وحيث أضيفت للمخلوق فهي مخلوقة ، وحيث أضيفت للخالق فهي غير مخلوقة.

فصفة الكلام كغيرها من الصفات ، لا بد أن تقوم بمحل ، فإذا قامت بمحل كانت صفة لذلك المحل ، لا صفة لغيره ، فإن هي أضيفت إلى الخالق تعالى فهي صفته ، وإن أضيفت إلى غيره فهي صفة لذلك الغير ، وصفة الخالق غير مخلوقة كنفسه ، وصفة المخلوق مخلوقة كنفسه.

فلما أضاف الله لنفسه كلاما ، ووصف نفسه به ، كان كلامه غير مخلوق ؛ لأنه تابع لنفسه ، ونفسه تعالى غير مخلوقة ، والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات.

فإن قيل : هو مخلوق.

قلنا : إذا يتنزه الله عن الاتصاف بمخلوق ، وأنتم تنزهونه تعالى بزعمكم عن قيام الحوادث به ، فحيث نزهتم ربكم تعالى عن ذلك ، فإنه يلزمكم أن لا تضيفوا إليه كلاما ، وبهذا تكذبون السمع والعقل الشاهدين على أن الله تعالى صفة الكلام.

لكنهم أبوا الإقرار بأن كلام الله تعالى غير مخلوق بأدهى مما سبق من الباطل ، فقالوا : ثبت أن الله متكلم بكلام

قائم في غيره ، فكلم الله تعالى موسى بكلام مخلوق قائم بالشجرة ، لا به تعالى ، فنحن نزهناه عن قيام الحوادث به.

قلنا : جعلتم الكلام إذا صفة للمحل الذي قام به ، ويلزم ، على قولكم ، أن يكون كلام الشجرة ، فكانت الشجرة بهذا هي القائلة لموسى : { يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } ، فانتفى حينئذ الفرق بين قول الشجرة ، وقول فرعون اللعين : { أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى } ؛ لأن كلام الشجرة صفتها لا صفة الله ، وكلام فرعون صفته ، وكل ادعى الربوبية ، فلم يكن موسى إذا محققا في إنكاره قول فرعون ، وقبوله قول الشجرة!! فتأمل رحمك الله لهذا الكفر الصراح ، الذي أوقع أهله فيه الابتداع المشين ، وعدم الرضا والتسليم لحقائق التنزيل ، واستبدال الوحي الشريف بزيالات الأذهان التي تصرفها الأهواء كيف شاءت. ولقد كانت هذه الحجة العقلية مما احتج به الإمام أحمد رحمه الله على الجهمية المعتزلة حين ناظرهم بحضرة المعتصم ، قال رحمه الله:

"وهذه قصة موسى ، قال الله في كتابه حكاه عن نفسه : { وكلم الله موسى } فأثبت الله الكلام لموسى كرامة منه لموسى ، ثم قال بعد كلامه له { تكليما } ؛ تأكيداً للكلام ، قال الله تعالى : يا موسى { إنني أنا الله لا إله إلا أنا } ، وتنكرون هذا ، فتكون هذه الياء ترد على غير الله ، ويكون مخلوق يدعي الربوبية ؟! ألا هو الله عز وجل " رواه حنبل في " المحنة " (ص: ٥٢).

الدليل العاشر:

من كلام أئمة السلف في إثبات هذه العقيدة:

يقول عمرو بن في دينار - من خيار أئمة التابعين:-

"أدركت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فمن دونهم منذ سبعين سنة ، يقولون : الله الخالق ، وما سواه مخلوق ، والقرآن كلام الله ، منه خرج ، وإليه يعود."

وقال عبد الله بن نافع : كان مالك يقول : " القرآن كلام الله " ويستفزع قول من يقول : القرآن مخلوق " رواه صالح بن أحمد في " المحنة " (ص: ٦٦) بسند صحيح عنه.

وقال الربيع بن سليمان صاحب الشافعي وتلميذه ، حاكياً المناظرة التي جرت بينه وبين حفص الفرد في القرآن: فسأل الشافعي ، فاحتج عليه الشافعي ، وطالت فيه المناظرة ، فأقام الشافعي الحجة عليه بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وكفّر حفصا الفرد . قال الربيع : فلقيت حفصا الفرد في المجلس بعد ، فقال : أراد الشافعي قتلي . رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في " آداب الشافعي " (ص: ١٩٤ - ١٩٥) وسنده صحيح.

وقال ابن أبي حاتم: " سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين ، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار ، وما يعتقدان من ذلك ؟

فقالا: " أدركنا العلماء في جميع الأمصار : حجازا ، وعراقا ، وشاما ، وبمنا ، فكان من مذهبهم : الإيمان قول

وليس رغماً عبده عصاه		وليس ثم خالق الا هو
ليس له في كونه مضاهي		مخلوقة افعالنا لله
وقدرة لنيله مرادة		والرب اعطى عبده ارادة
ومن عذاب ناره انجاناً ^(١)		ولو يشاء ربنا هدانا

وعمل يزيد وينقص ، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته. " أخرج ابن الطبري في " السنة " (١ / ١٧٦) بسند صحيح.

وقد ساق الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي في كتابه العظيم " شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة " : القول بذلك عن خمس مئة وخمسين نفساً من علماء الأمة وسلفها ، كلهم يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال : مخلوق ، فهو كافر.

قال رحمه الله: " فهؤلاء خمس مئة وخمسون نفساً أو أكثر ، من التابعين ، وأتباع التابعين ، والأئمة المرضيين ، سوى الصحابة الخيرين ، على اختلاف الأعصار ، ومضي السنين والأعوام ، وفيهم نحو من مئة إمام ، ممن أخذ الناس بقولهم ، وتدينوا بمذاهبهم ، ولو اشتغلت بنقل قول المحدثين لبلغت أسماؤهم ألوفا كثيرة " انتهى من " السنة " (٤٩٣).

باختصار ، وتصرف يسير ، من كتاب " العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية " (ص : ١٢١ - ١٤٧).

وينظر للتوسع في ذلك أيضاً : المجلد الثاني عشر من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : " القرآن كلام الله " ، و " مختصر الصواعق المرسلة " لابن القيم .

^١ — يعتقد أهل السنة والجماعة أن الله تعالى هو خالق العباد وأفعالهم ، لقوله تعالى : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات: ٩٦] . فالعبد يختار ويفعل بإرادته ومشيتته ، لكن الله هو الذي خلق العبد وخلق قدرته على الفعل والإرادة.

فإن الله تعالى هو الخالق للأشياء كلها ، كما قال تعالى : { ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } [غافر: ٦٢] وقال تعالى : { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا } [الفرقان: ٢] .

وقال الله تعالى : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر: ٤٩] .

ويدخل في ذلك كونه خالق الناس وأعمالهم، كما قال الله تعالى : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصفات: ٩٦]. وفي الحديث : إن الله خالق كل صانع وصنعه . رواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي والألباني.
قال البخاري: (فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة) .

وأما قول الله تعالى : ... { وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } [النساء: ٧٨-٧٩] ، فقال ابن أبي العز: (إن قيل: فكيف الجمع بين قوله: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وبين قوله: فَمِنَ نَفْسِكَ، قيل: قوله: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ: الخِصْبُ والجَدْبُ، والنَّصْرُ والهزيمة، كُلُّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وقوله: فَمِنَ نَفْسِكَ: أي: ما أصابك من سيئة من الله فبَذَنِبَ نَفْسِكَ عقوبةً لك، كما قال تعالى: { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [الشورى: ٣٠] . يدلُّ على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قرأ: وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وأنا كتبْتُها عليك.

والمراد بالحسنة هنا النعمة، وبالسَّيِّئَةِ البليَّة، في أصحِّ الأقوال. وقد قيل: الحسنة الطاعة، والسيئة المعصية. وقيل: الحسنة ما أصابه يوم بدر، والسيئة ما أصابه يوم أحد. والقول الأول شاملٌ لمعنى القول الثالث. والمعنى الثاني ليس مراداً دون الأول قطعاً، ولكن لا منافاة بين أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه، مع أن الجميع مُقَدَّرٌ، فإنَّ المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى، فتكون من سيئات الجزاء، مع أنها من سيئات العمل، والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسُّنة. وليس للقدريَّة أن يحتجَّوا بقوله تعالى: فَمِنَ نَفْسِكَ، فإنهم يقولون: إنَّ فعلَ العبد -حسنةً كان أو سيئةً- فهو منه لا من الله! والقرآن قد فَرَّقَ بينهما، وهم لا يُفَرِّقون، ولأنَّه قال تعالى: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فجعل الحسنات من عند الله، كما جعل السيئات من عند الله، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال، بل في الجزاء. وقوله بعد هذا: مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ، وَمِنْ سَيِّئَةٍ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ.

وفَرَّقَ سبحانه وتعالى بين الحسنات التي هي النعم، وبين السيئات التي هي المصائب، فجعل هذه من الله، وهذه من نفس الإنسان؛ لأنَّ الحسنة مُضافةٌ إلى الله؛ إذ هو أحسنَ بها من كُلِّ وجه، فما من وجهٍ من أوجهها إلَّا وهو يقتضي الإضافة إليه، وأما السَّيِّئَةُ فهو إنما يخلُقُها لحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإنَّ الرَّبَّ لَا يَفْعَلُ سَيِّئَةً قَطُّ، بل فِعْلُهُ كُلُّهُ حَسَنٌ وخَيْرٌ .

ومن أقوال أهل العلم في مرتبة الخلق:

١- قال أبو حنيفة: (نُقِرُّ بأنَّ العبدَ مع أعماله وإقراره ومعرفته مخلوق، فلمَّا كان الفاعلُ مخلوقاً، فأفعاله أولى أن تكون مخلوقة).

٢- قال الشافعي: (النَّاسُ لم يخلُقوا أعمالهم، بل هي خلقٌ من الله تعالى، فِعْلٌ لِلْعِبَادِ) .

٣- قال حنبل: (سألت أبا عبد الله يعني: أحمد بن حنبل، قلت: أفاعيل العباد مخلوقة؟ قال: نعم، مُقدَّرة عليهم بالشقاء والسَّعادة، قلتُ له: الشقاء والسَّعادة مكتوبان على العبد؟ قال: نعم، سابق في علم الله، وهما في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقه، والشقاء والسَّعادة من الله عزَّ وجلَّ) .

٤- قال البخاري: (سمعتُ عُبيدَ الله بنَ سعيدٍ يقول: سمعتُ يحيى بنَ سعيدٍ يقول: ما زلتُ أسمعُ أصحابنا يقولون: إنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ. قال أبو عبد الله يعني: البخاري: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقةٌ) .

٥- قال الطحاوي: (أفعال العباد خلق الله وكسب من العباد) .

٦- قال أبو الحسن الأشعري: (أجمعوا على أنه تعالى قد قدر جميع أفعال الخلق وآجالهم وأرزاقهم قبل خلقه لهم) .

٧- قال أبو بكر الإسماعيلي في اعتقاد أهل السنة: (يقولون: إنه لا خالق على الحقيقة إلا الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ أكساب العباد كُلِّها مخلوقةٌ لله، وأنَّ الله يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء، لا حُجَّةَ لِمَن أضلَّهُ الله عزَّ وجلَّ، ولا عُذْر، كما قاله الله عزَّ وجلَّ: { قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } [الأنعام: ١٤٩]) .

٨- قال ابنُ أبي زَمَنِين: (المقاديرُ كُلُّها: خيرُها وشرُّها، خلُوها ومُرُّها من الله عزَّ وجلَّ؛ فإنَّه خلق الخلق، وقد علم ما يعملون، وما إليه يصيرون، فلا مانعَ لِمَا أعطى، ولا معطيَ لِمَا منع) .

٩- قال ابنُ حزم: (اتَّفَقُوا أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرُهُ... خلق الأشياءَ كُلِّها كما شاء) .

١٠- قال البيهقي: (الإيمانُ بالقَدَرِ هو الإيمانُ بتقدُّمِ عِلْمِ الله سُبحانَه بما يكونُ من أكسابِ الخلقِ وغيرِها من المخلوقاتِ، وصدورِ جميعِها عن تقديرٍ منه، وخلقِ لها خيرِها وشرِّها) .

١١- قال البغوي: (الإيمانُ بالقَدَرِ فرضٌ لازمٌ، وهو أن يعتقدَ أنَّ اللهَ تعالى خالقُ أعمالِ العبادِ، خيرِها وشرِّها، كتبها عليهم في اللوحِ المحفوظِ قبل أن يخلِّقَهم، قال الله سُبحانَه وتعالى: { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات: ٩٦] ، وقال الله عزَّ وجلَّ: { قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } [الرعد: ١٦] ، وقال عزَّ وجلَّ: { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر: ٤٩] .

١٢- قال يحيى بنُ أبي الخيرِ العُمَرَانِيُّ في بيانِ عقيدةِ أصحابِ الحديثِ: (وأنَّ اللهَ خلقَ أفعالَ العبادِ وأقوالَهم، ونياتَهم وخطراتَهم في الطَّاعةِ والمعصيةِ، وأنَّه أمرهم بالطَّاعةِ، ونهاهم عن المعصيةِ) .

١٣- قال ابنُ تيمية: (أفعالُ العبادِ مخلوقةٌ باتِّفاقِ سَلَفِ الأُمَّةِ وأئمَّتها، كما نصَّ على ذلك سائرُ أئمَّةِ الإسلامِ: الإمامُ أحمدُ ومَن قبلَه وبعده حتى قال بعضهم: من قال: إنَّ أفعالَ العبادِ غيرُ مخلوقةٍ، فهو بمنزلةٍ من قال: إنَّ السماءَ والأرضَ غيرُ مخلوقةٍ) .

- ١٤- قال ابنُ أبي العزِّ: (قال أهلُ الحقِّ: أفعالُ العبادِ بها صاروا مطيعين وعصاةً، وهي مخلوقةٌ لله تعالى، والحقُّ سبحانه وتعالى منفردٌ بخَلْقِ المخلوقاتِ، لا خالقٌ لها سواه) .
- ١٥- قال صُنْعُ اللَّهِ الحليُّ: (الإيمانُ بالقَدَرِ خيرٌ وشَرٌّ: بأنَّ كلاًَّ منهما بخَلْقِهِ تعالى وإرادته، فما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكن، فالكُفْرُ والمعاصي بخَلْقِهِ تعالى وإرادته، وكذا الطاعاتُ وفِعْلُ الخيراتِ؛ إذ لا خالقَ غيره، قال جَلَّ ذِكْرُهُ: { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } [الزمر: ٦٢] ، { وَهَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ } [فاطر: ٣]) .
- ١٦- قال حُسَيْنُ بْنُ غَنَامٍ الأحسائيُّ: (إنَّ اللهَ خلقَ أفعالَ عبادِهِ كُلَّهَا من الكُفْرِ والإيمانِ والطاعةِ والعصيانِ) .
- ١٧- قال الشنقيطيُّ في تفسيرِ قولِ الله تعالى: { وَلَئِكَ خَلَقَهُمْ } [هود: ١١٩] : (أي: خلقهم لأنَّ يَخْتَلِفُوا إلى مؤمنٍ وكافرٍ، وبرٍّ وفاجرٍ، وشقيٍّ وسعيدٍ؛ لِيَصْرِفَ كلاًَّ إلى ما كُتِبَ له في الأزل، ولتَظْهَرَ فيهم آثارُ صِفَاتِ اللَّهِ تعالى وأسمائِهِ؛ من رحمةٍ وِرْضًا، وثوابٍ للمُطيعين، وقَهَرٍ وجَبَرُوتٍ وشِدَّةٍ عذابٍ للعاصين) .
- ١٨- قال ابنُ عثيمين: (إنَّ اللهَ تعالى خالقُ كُلِّ شيءٍ، وأنَّ لا خالقَ إلَّا اللهُ؛ فيَجِبُ الإيمانُ بعمومِ خَلْقِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه خالقُ كُلِّ شيءٍ، حتى أعمالُ العبادِ؛ لقوله تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ [الرعد: ١٦] ، وعَمَلُ الإنسانِ مِنَ الشَّيْءِ، وقال تعالى: { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا } [الفرقان: ٢] ... والآياتُ في هذا كثيرةٌ) . وللعبادِ قُدْرَةٌ وإرادةٌ ومشِيئَةٌ واختيارٌ.
- فمع اعتقادِ أهلِ السُنَّةِ والجماعةِ أنَّ اللهَ خالقُ كُلِّ شيءٍ وخالقُ العبادِ وأفعالِهِم؛ فإنَّهم يَعتقدون أنَّ للعبادِ قُدْرَةً ومشِيئَةً على أَعْمَالِهِم، ويُفَرِّقون بين ما يفعله العبدُ اضطرارًا وما يفعله اختيارًا.
- فللعبدِ قُدْرَةٌ ومشِيئَةٌ على فِعْلِهِ، واللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي خلقَ في العبدِ قُدْرَتَهُ ومشِيئَتَهُ.
- ومن الأدلَّةِ على ذلك:
- قولُ الله تعالى: { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ } [المدثر: ٣٧] .
- وقولُ الله سبحانه: { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنََّّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا } [الكهف: ٢٩] .
- وقولُ الله عزَّ وجلَّ: { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } [المزمل: ١٩] .
- وقولُ الله تعالى: { ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا } [النبا: ٣٩] .
- وقولُ الله سبحانه: { كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ } [عبس: ١١، ١٢] .
- وقولُ الله عزَّ وجلَّ: { إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [التكوير: ٢٧ - ٢٩] .

♦ قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (عدُلُ القَوْلِ في القَدَرِ أنْ تَعلَمَ أنَّ اللهَ عدلٌ لا يَجورُ، كيفَ خلقَ، وكيفَ قدَّرَ، وكيفَ أعطى، وكيفَ منعَ، وأنَّه لا يَخرجُ من قُدْرَتِهِ شيءٌ، ولا يَكونُ في مَلَكُوتِهِ من السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إلَّا ما أَرادَ، وأنَّه لا دَينَ

لأَحَدٍ عَلَيْهِ، وَلَا حَقٌّ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ، فَإِنْ أُعْطِيَ فَبِفَضْلٍ، وَإِنْ مَنَعَ فَبِعَدْلِ، وَأَنَّ الْعِبَادَ يَسْتَطِيعُونَ وَيَعْمَلُونَ، وَيُجْزَوْنَ بِمَا يَكْسِبُونَ).

♦ وقال الخطابي: (الله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر جميعاً، لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته، فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقاً وإيجاداً، وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً).
وقال نجم الدين النسفي: (للعباد أفعال اختيارية يُثابون بها ويُعاقبون عليها).

♦ وقال يحيى بن أبي الخير العمراني: (على هذا القصد والاختيار وقع المدح والذم والثواب والعقاب، إلا أن الله هو الخالق لقصدنا ومشيتنا؛ لأنه شيء، وقد قال الله تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَشِيتُنَا وَقَعَتْ بِمَشِئَةِ اللَّهِ. قال الله تعالى: وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ).

♦ وقال القرطبي: (إن المهتدين من المؤمنين إنما هداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار، حتى يصح التكليف، فمن شاء آمن وأطاع اختياراً لا جبراً، قال الله تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} [التكوير: ٢٨]، وقال: {فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا} [الإنسان: ٢٩]، ثم عقب هاتين الآيتين بقوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [التكوير: ٢٩] فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم، ونفى أن يشاؤوا إلا أن يشاء الله؛ ولهذا فرطت المجبرة لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان... بمشيئة الله تعالى، فقالوا: الخلق مجبورون في طاعتهم كلها، التفاتاً إلى قوله: وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وفرطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان... بمشيئة العباد، فقالوا: الخلق خالقون لأفعالهم، التفاتاً منهم إلى قوله تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} [التكوير: ٢٨]، ومذهبنا هو الاقتصاد في الاعتقاد، وهو مذهب بين مذهبي المجبرة والقدرية، وخير الأمور أوساطها، وذلك أن أهل الحق قالوا: نحن نُفَرِّقُ بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه، وهو أننا ندرك تفرقة بين حركة الارتعاش الواقعة في يد الإنسان بغير محاولته وإرادته، ولا مقرونة بقدرته، وبين حركة الاختيار إذا حرك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش، ومن لا يُفَرِّقُ بين الحركتين: حركة الارتعاش وحركة الاختيار، وهما موجودتان في ذاته، ومحسوستان في يده بمشاهدته وإدراك حاسته، فهو معتوه في عقله، ومختل في حسه، وخارج من حزب العقلاء، وهذا هو الحق المبين، وهو طريق بين طريقَي الإفراط والتفريط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم).

وقال ابن حمدان الحنبلي: (فعل العبد مختارٌ مُيسَّرٌ في كسب الطاعة واكتساب المعصية، غير مُكره ولا مجبر ولا مضطر، والله الخالق ما كسبه العبد واكتسبه وفعله).

♦ وقال ابن تيمية: (ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء: أن العباد لهم مشيئة وقدره يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله. كما قال الله تعالى: {كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [المدثر: ٥٤ - ٥٦] الآية. وقال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: ٥٤ - ٥٦] الآية).

٢٩، ٣٠]، وقال: { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ

الْعَالَمِينَ } [التكوير: ٢٧ - ٢٩]، والقرآن قد أخبر بأن العباد يؤمنون ويكفرون ويفعلون ويعملون ويكسبون ويطيعون ويعصون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحججون ويعتمررون ويقتلون وي زنون ويسرقون ويصدقون ويكذبون ويأكلون ويشربون ويقاتلون ويحاربون، فلم يكن من السلف والأئمة من يقول: إن العبد ليس بفاعل ولا مختار ولا مُريد ولا قادر، ولا قال أحد منهم: إنه فاعل مجازاً، بل من تكلم منهم بلفظ الحقيقة والمجاز مُتفقون على أن العبد فاعل حقيقة، والله تعالى خالق ذاته وصفاته وأفعاله. وأول من ظهر عنه إنكار ذلك هو الجهم بن صفوان وأتباعه، فحكى عنهم أنهم قالوا: إن العبد مجبور وإنه لا فعل له أصلاً وليس بقادر أصلاً.

وقال أيضاً: (إن أهل السنة يقولون: إن العبد له مشيئة وقدر وإرادة، وهو فاعل لفعله حقيقة، وينهون عن إطلاق "الجبر"؛ فإن لفظ "الجبر" يشعر أن الله أجبر العبد على خلاف مراد العبد كما تجبر المرأة على النكاح، وليس كذلك، بل العبد مختار يفعل باختياره ومشيئته ورضاه ومحبه، ليس مجبوراً عديم الإرادة، والله خالق هذا كله). وقال أيضاً: (إن المشهور إطلاق لفظ الجبر والإجبار على ما يفعل بدون إرادة المجرور، بل مع كراهته، كما يجبر الأب ابنته على النكاح، وهذا المعنى منتف في حق الله تعالى؛ فإنه سبحانه لا يخلق فعل العبد الاختياري بدون اختياره، بل هو الذي جعله مُريداً مختاراً، وهذا لا يقدر عليه أحد إلا الله.

ولهذا قال من قال من السلف: الله أعظم وأجل من أن يجبر، إنما يجبر غيره من لا يقدر على جعله مختاراً، والله تعالى يجعل العبد مختاراً، فلا يحتاج إلى إجباره).

♦ وقال ابن القيم في تفسير قول الله تعالى: { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [التكوير: ٢٦]:

(الذي دلّت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد، وأدلة العقل الصريح: أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى، فما لم يشأ لم يكن البتة، كما أن ما شاء كان ولا بد).

ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أن مشيئة الله سبحانه تارة تتعلق بفعله، وتارة تتعلق بفعل العبد.

فتعلقها بفعله سبحانه هو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوقيه وتهيته للفعل، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده، دون أن يشاء فعله، فإنه سبحانه قد يشاء من عبده المشيئة وحدها، فيشاء العبد الفعل ويريد ولا يفعله؛ لأنه لم يشأ من نفسه سبحانه إعانته عليه، وتوقيه له.

وقد دل على هذا وهذا قوله تعالى: { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [التكوير: ٢٩]، وقوله تعالى: { وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [المدثر: ٥٦].

وهاتان الآيتان متضمنتان: إثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب. ولكل منهما عبودية تختص بها:

فعبودية الآية الأولى: الاجتهاد، واستفراغ الوسع، والاختيار والسعي. وعبودية الثانية: الاستعانة بالله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، واستنزال التوفيق والعون منه، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: رَبُّ الْعَالَمِينَ يَنْتَظِمُ ذَلِكَ كُلُّهُ وَيَتَضَمَّنُهُ، فمن عطلَّ أحدَ الأمرين فقد جحد كمالَ الربوبية وعطلَّها. وبالله التوفيق).

♦ وقال الكرمانِيُّ في شرح ترجمة البخاريّ (باب قول الله تعالى: { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا } [البقرة: ٢٢]) :
(الترجمة مُشعرةٌ بأنَّ المقصودَ من البابِ إثباتُ نفيِ الشريكِ عن الله تعالى، فكان المناسبُ ذكْرُه في أوائلِ كتابِ التوحيد. قلتُ: ليس المقصودُ ذلك، بل هو بيانُ أفعالِ العبادِ بخلقِ الله تعالى؛ إذ لو كانت أفعالهم بخلقهم لكانوا شُرَكَاءَ لله تعالى وأندادًا له في الخلقِ؛ ولهذا عُطِفَ وما ذُكِرَ عليه، وفيه الرَّدُّ على الجهميّة؛ حيث قالوا: لا قُدرةَ للعبدِ أصلًا، وعلى المعتزلة؛ حيث قالوا: لا دَخَلَ لِقُدرةِ الله تعالى فيها؛ إذ المذهبُ الحقُّ أن لا جَبَرَ ولا قَدَرَ، ولكن أمرَ بين الأمرين، أي: بخلقِ الله، وكَسْبِ العبدِ).

♦ وقال ابنُ أبي العزِّ: (اختلف النَّاسُ في أفعالِ العبادِ الاختيارية... وقال أهلُ الحقِّ: أفعالُ العبادِ بها صاروا مطيعين وعصاةً، وهي مخلوقةٌ لله تعالى، والحقُّ سبحانه وتعالى منفردٌ بخلقِ المخلوقاتِ، لا خالقَ لها سواه). وقال جمال الدين القاسمي: (معنا قضيتانِ قطعيّتا الثبوتِ:

إحدهما: كونُ الإنسانِ يَعمَلُ بِقُدرةٍ وإرادةٍ يَبعَثُها عِلْمُهُ على الفِعلِ أو التركِ والكفِّ، وهي بديهيّة.

والثانية: هي أنَّ الله هو الخالقُ الذي بيده ملكوتُ كُلِّ شيءٍ، وهي نظريّة.

.... القضاةُ عبارةٌ عن تعلقِ عِلْمِ الله تعالى أو إرادته في الأزلِ بأنَّ الشيءَ يكونُ على الوجهِ المخصوصِ مِنَ الوجوهِ المُمكنةِ، والقَدَرُ وقوعُ الأشياءِ فيما لا يزالُ على وَفْقِ ما سبق في الأزلِ.

ومن الأشياءِ التي يتعلّقُ بها القضاةُ والقَدَرُ أفعالُ العبادِ الاختيارية، فإذا كان قد سبق القضاةُ المبرمُ بأنَّ زيدًا يعيشُ كافرًا ويموتُ كافرًا، فما معنى مطالبته بالإيمانِ وهو ليس في طاقته، ولا يمكنُ في الواقعِ ونفسِ الأمرِ أن يصدُرَ منه؛ لأنَّه في الحقيقةِ مجبورٌ على الكُفْرِ في صورةٍ مُختارٍ له، كما قال بعضهم!؟

والجوابُ عن هذا: أنَّ تعلقَ العِلْمِ والإرادةِ بأنَّ فلانًا يفعلُ كذا لا ينافي أن يفعلَه باختيارٍ، إلّا إذا تعلقَ العِلْمُ بأنَّ يفعلَه مُضطرًّا كحركةِ المُرتعشِ مثلاً، ولكنَّ أفعالَ العبادِ الاختيارية قد سبق في القضاةِ بأنها تقعُ اختياريةً، أي: بإرادةِ فاعليها لا رَغْمًا عنهم، وبهذا صَحَّ التكليفُ، ولم يكنِ التشريعُ عبثًا ولا لَعْوًا).

♦ وقال السَّعديُّ: (من أصولِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة:... أنَّ أعمالَ العبادِ كُلَّها خَيْرُها وَشَرُّها داخلةٌ في قضائه وقُدْرته تعالى، مع وقوعها طَبَقَ إرادتهم وقدرتهم، ولم يجبرهم عليها؛ فإنَّه خلقَ لهم جميعَ القوى الظَّاهرة والباطنة، ومنها القُدرةُ والإرادةُ التي بها يختارونَ وبها يفعلونَ).

وقال أيضًا: (ومن جملةِ الأشياءِ: أفعالُ العبادِ طاعتهم ومعاصيهم، فهو تعالى يَعْلَمُها إجمالًا وتفصيلًا قبل أن يَعْمَلُوها).

وأعمالهم وأفعالهم داخله تحت مشيئة الله وإرادته؛ فقد شاءها منهم وأرادها، ولم يجبرهم لا على الطاعات، ولا على المعاصي، بل هم الذين فعلوها باختيارهم، كما قال تعالى: { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [التكوير: ٢٨، ٢٩].

فهذه الآية فيها: ردُّ على القدرية الثفاة، وعلى القدرية المجبرة، وإثبات للحق الذي عليه أهل السنة والجماعة، فقوله: لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ أثبت أنه لهم مشيئة حقيقية وفعلًا حقيقيًا، وهو الاستقامة باختيارهم. فهذا ردُّ على الجبرية.

وقوله: وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ أخبر أن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله، وأنها لا توجد بدونها. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ففيها ردُّ على القدرية القائلين: إن مشيئة العباد مستقلة، وليست تابعة لمشيئة الله. بل عندهم: يشاء العباد ويفعلون ما لا يشاؤه الله ولا يقدره!

ودلت الآية على الحق الواضح، وهو: أن العباد هم الذين يعملون الطاعات والمعاصي حقيقة، وليسوا مجبورين عليها، وأنها مع ذلك تابعة لمشيئة الله، كما تقدم كيفية وجه ذلك، والآيات الدالات على هذا كثيرة جدًا. وقال أيضًا في حديث: ((اعملوا فكلُّ ميسر لما خلق له)) (توضيح ذلك: أن العبد إذا صلى وصام وعمل الخير، أو عمل شيئًا من المعاصي، كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح وذلك العمل السيئ، وفعله المذكور بلا ريب واقع باختياره، وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك، وأنه لو شاء لم يفعل، وكما أن هذا هو الواقع، فهو الذي نص الله عليه في كتابه ونص عليه رسوله صلى الله عليه وسلم؛ حيث أضاف الأعمال الصالحة وسيئها إلى العباد، وأخبر أنهم الفاعلون لها، وأنهم محمودون عليها إن كانت صالحة ومثابون عليها ومذمومون إن كانت سيئة ومعاقبون عليها. فقد تبين بهذا واتضح أنها واقعة منهم وباختيارهم، وأنهم إن شاؤوا فعلوا، وإن شاؤوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلاً وحسًا وشرعًا ومشاهدةً.

... الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم، وهو الذي خلق ما به تقع الأفعال، كما أنه الخالق للأفعال، وهذا هو الذي يحل الإشكال، ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار.

ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب وألطف وإعانات متنوعة، وصرف عنهم الموانع، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة))، وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفسهم ولم يعنهم؛ لأنهم لم يؤمنوا به، ولم يتوكلوا عليه، فولاهم ما تولوه لأنفسهم).

وقال حافظ الحكمي: (للعباد قدرة على أعمالهم، ولهم مشيئة وإرادة، وأفعالهم تضاف إليهم حقيقة وبحسبها كلفوا، وعليها يثابون ويعاقبون، ولم يكلفهم الله إلا وسعهم، وقد أثبت لهم ذلك في الكتاب والسنة، ووصفهم به، ولكنهم لا يقدرُونَ إلا على ما أقدرهم الله عليه، ولا يشاؤون إلا أن يشاء الله، ولا يفعلون إلا بجعله إياهم فاعلين، كما تقدم في نصوص المشيئة والإرادة والخلق، فكما لم يوجدوا أنفسهم لم يوجدوا أفعالهم، فقدرتهم ومشيتهم وإرادتهم وأفعالهم تابعة لقدرته ومشيتته وإرادته وفعله؛ إذ هو خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم ومشيتهم وأفعالهم،

وليس مشيئتهم وإرادتهم وقدرتهم وأفعالهم هي عين مشيئة الله وإرادته وقدرته وأفعاله، كما ليس هم إياه، تعالى الله عن ذلك، بل أفعالهم المخلوقة لله قائمة بهم لائقة بهم مضافة إليهم حقيقة، وهي من آثار أفعال الله القائمة به اللائقة المضافة إليه حقيقة؛ فالله فاعل حقيقة، والعبد مُنفعل حقيقة، والله هادٍ حقيقة، والعبد مُهتدٍ حقيقة؛ ولهذا أضاف كلاً من الفعلين إلى من قام به، فقال تعالى: { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ } [الأعراف: ١٧٨] فإضافة الهداية إلى الله حقيقة، وإضافة الاهتداء إلى العبد حقيقة، فكما ليس الهادي هو عين المُهتدي، فكذلك ليس الهداية هي عين الاهتداء، وكذلك يُضِلُّ الله من يشاء حقيقة، وذلك العبد يكون ضالاً حقيقة، وهكذا جميع تصرف الله في عباده، فمن أضاف الفعل والانفعال إلى العبد كَفَر، ومن أضافه إلى الله كَفَر، ومن أضاف الفعل إلى الخالق والانفعال إلى المخلوق كلاهما حقيقة، فهو المؤمن حقيقة.

♦ وقال الشنقيطي: (حاصل هذا أن الله تبارك وتعالى قدّر مقادير الخلق قبل أن يخلق الخلق، وعلم أن قوماً صائرون إلى الشقاء وقوماً صائرون إلى السعادة، فريق في الجنة وفريق في السعير. وأقام الحجة على الجميع ببعث الرسل وتأييدهم بالمعجزات التي لا تترك في الحق لبساً، فقامت عليهم حجة الله في أرضه بذلك. ثم إنه تعالى وفق من شاء توفيقه، ولم يوفق من سبق لهم في علمه الشقاء الأزلي، وخلق لكل واحد منهم قدرة وإرادة يقدر بها على تحصيل الخير والشر، وصرف قدرتهم وإراداتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق لهم في علمه من أعمال الخير المستوجبة للسعادة، وأعمال الشر المستوجبة للشقاء؛ فأتوا كل ما أتوا، وفعلوا كل ما فعلوا، طائعين مختارين غير مجبورين ولا مقهورين وما تشاءون إلا أن يشاء الله، قل فليدفع الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين، وادعاء أن العبد مجبور لا إرادة له ضروري السقوط عند عامة العقلاء، ومن أعظم الضرورات الدالة عليه: أن كل عاقل يعلم أن بين الحركة الاختيارية والحركة الاضطرارية كحركة المرتعش فرقا ضرورياً، لا ينكره عاقل... ومن أعظم الأدلة القطعية الدالة على بطلان مذهب القدرية، وأن العبد لا يستقل بأفعاله دون قدرة الله ومشئته: أنه لا يمكن أحداً أن ينكر علم الله بكل شيء قبل وقوعه، والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا ينكرها إلا مكابر، وسبق علم الله بما يقع من العبد قبل وقوعه برهان قاطع على بطلان تلك الدعوى...

ولا إشكال البتة في أن الله يخلق للعبد قدرة وإرادة يقدر بها على الفعل والترك، ثم يصرف الله بقدرته وإرادته قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به علمه، فيأتيه العبد طائعاً مختاراً غير مقهور ولا مجبور، وغير مُستقل به دون قدرة الله وإرادته، كما قال تعالى: { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [التكوير: ٢٩] .

♦ وقال ابن عثيمين: (قال المؤلف يعني: ابن تيمية: «وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية».)
* في باب القدر انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: ... والقسم الثالث: أهل السنة والجماعة، قالوا: نحن نأخذ بالحق الذي مع الجانبين، فنقول: إن فعل العبد واقع بمشيئة الله وخلق الله، ولا يمكن أن يكون في ملك الله ما لا يشاؤه أبداً، والإنسان له اختيار وإرادة، ويُفَرَّق بين الفعل الذي يُضطرُّ إليه والفعل الذي يختاره؛ فأفعال العباد باختيارهم وإرادتهم، ومع ذلك فهي واقعة بمشيئة الله وخلق الله.

يهدي الإله من يشاء أو يضل^(١)

لكنه لحكمة من الازل

لكن سيبقى عندنا إشكال: كيف تكون خلقاً لله وهي فعل الإنسان؟!
والجواب: أن أفعال العبد صدرت بإرادة وقدره، والذي خلق فيه الإرادة والقُدرة هو الله عزَّ وجلَّ. لو شاء الله تعالى لسلبك القُدرة؛ فلم تستطع، ولو أن أحداً قادراً لم يُردْ فعلاً لم يقع الفعل منه، كُلُّ إنسانٍ قادرٌ يفعلُ الفعل؛ فإنه بإرادته، اللهمَّ إلا من أكره. فنحن نفعلُ باختيارنا وقُدرتنا، والذي خلق فينا الاختيار والقُدرة هو الله .

^١ - الهداية والإضلال بيد الله وحده؛ يوفق من يشاء لهداية بفضلِهِ ورحمته، ويخذل من يشاء فيضل عن الحق بعدله وحكمته البالغة، إذ يضع الأشياء في مواضعها ولا يظلم أحداً .
♦ جاء في شرح الطحاوية للراجحي :: " يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً

هذا فعله - سبحانه وتعالى - يهدي من يشاء ويعصم، ويعافي فضلاً منه وإحساناً، ويضل ويبتلي عدلاً منه وحكمة، هو يهدي ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل ويبتلي حكمة منه وعدلاً سبحانه وتعالى، وهذه المسألة؛ وهي مسألة الهدى والضلال مسألة عظيمة من أهم مسائل القدر حتى إن العلامة ابن القيم -رحمه الله - قال: إنه قلب أبواب القدر؛ مسألة الهدى والضلال، هذه تسمى مسألة الهدى والضلال قلب أبواب القدر ومسائله.
وأراد المؤلف -رحمه الله- الطحاوي الرد على القدرية والمعتزلة الذين يقولون: إنه يجب على الله فعل الأصلح للعبد، يقولون: يجب على الله فعل الأصلح للعبد، وهي مسألة الهدى والضلال. والقدرية أنكروا أن يهدي الله أحداً أو أن يضل أحداً فقالوا: إن العبد هو الذي يهدي نفسه، وهو الذي يضل نفسه، أما الله فلا يهدي أحداً، ولا يضل أحداً، وأجابوا على النصوص قالوا معنى يهدي: يعنى يبين له الطريق الصواب ويسميه مهتدياً، ومعنى يضل، أي يسميه ضالاً، أو يحكم عليه بالإضلال بعد خلقه الإضلال من نفسه.
فهذه المسألة وهي مسألة الهدى والضلال مسألة عظيمة من مسائل القدر، ولا بد من بيان مراتب الهداية وأقسامها حتى يتبين هذا الباب.

مراتب الهداية أربعة:

المرتبة الأولى: الهداية العامة لكل مخلوق إلى ما يصلحه هداية الله العامة لكل مخلوق إلى مصالح معاشه، وما يقيمه هذه الهداية العامة عامة لكل مخلوق للآدميين والطيور والوحوش والصغار والكبار والأطفال، هداية الله العامة لكل مخلوق إلى ما يصلحه في معاشه وإلى ما يقيمه، ويدخل في ذلك: هداية الطيور إلى أوكارها، وهداية الأنعام إلى مراتعها، وهداية الطفل إلى ثدي أمه، وهداية الإنسان إلى ما يصلحه في معاشه وما يقيم به أمور حياته، هداية الله كيف يأكل، كيف يشرب، كيف ينكح.

الحيوانات هداها الله تعرف كيف تأكل وكيف تشرب وكيف تنكح أنثاها.

هي عامة شاملة للآدميين وللحيوانات وللوحوش وللطيور، قال الله - سبحانه وتعالى -: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)} هذه دليل الهداية العامة، وقال - سبحانه - في جواب موسى لفرعون: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)} كل المخلوقات هداها الله إلى ما يصلحها في معاشها؛ فالإبل والبقر والغنم هداها الله كيف تأكل وكيف تذهب إلى الماء وتشرب كيف تذهب إلى المراعي. الطفل من حين سقوطه من بطن أمه هداها الله إلى أن يلتقم ثدي أمه هذه هي الهداية العامة، الطيور هداها الله إلى أوكارها جلب غذائها لصغارها {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)} هذه عامة للآدميين ولغيرهم وهذه ما أنكرها أحد.

النوع الثاني من الهداية: هداية البيان والدلالة والإرشاد والتعليم والدعوة والإبلاغ، التعليم والدعوة إلى ما يصلح الإنسان في معاده، وهذه خاصة بالآدميين خاصة بالمكلفين من الجن والأنس، هداية تسمى هداية البيان والدلالة والإرشاد والتعليم والدعوة إلى ما يصلح الإنسان في معاده يوم القيامة إلى ما يكون سببا في نجاته من النار وإيداعه بما أوجب الله عليه، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه لا يعذب الله أحدا حتى تقوم عليه الحجة، وحتى يهدي هذه الهداية وهي التي أرسل من أجلها الرسل وأنزل من أجلها الكتب قال سبحانه: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} وقال سبحانه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ} يعني ما كان الله ليضلهم بعد أن هداهم وبين لهم طريق الخير فلما بين لهم طريق الخير وتركوه أضلهم عقوبة لهم، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ} هذه هي هداية الدلالة والإرشاد.

وقال - سبحانه -: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} هديناهم يعني دللناهم طريق الخير وطريق الشر، {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} فلما بين الله لهم طريق الخير وطريق الشر واستحبوا العمى على الهدى جاءتهم العقوبة {فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)} . وهذه هي هداية ثابتة للرسل والأنبياء والمصلحين والدعاة كلهم يقدرون عليها قال الله - تعالى - للنبي صلى الله عليه وسلم {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)} أي ترشد وتدل وتبلغ وتدعو، هذه هداية يقدر عليها الرسول - عليه الصلاة والسلام - ويقدر عليها الدعاة والمصلحون يهدون الناس هداية الدلالة والإرشاد والبيان والتبليغ والدعوة هذه خاصة بالمكلفين من الإنس والجن وليست للحيوانات ولا الطيور، هذه هداية يعني بيان وإرشاد الناس إلى الأمر الذي خلقوا له بيان ما أوجب الله عليهم من توحيده وطاعته وترك معصيته.

الله - تعالى - لا يعذب أحدا حتى تقوم عليه الحجة حتى تقوم الحجة عليه وحتى يتبين له ما أوجب الله عليه، كما قال - تعالى -: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} وقال - سبحانه -: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)} {إذا بعث الرسول وأرشد الناس ودلهم على ما أوجب الله عليهم من التوحيد

والطاعة واجتناب المعصية قامت الحجة عليهم. إذا قامت الحجة بعد ذلك استحقوا العذاب، إذا لم يعملوا، هذه هداية والبيان والدلالة والإرشاد، وهذه المرتبة ما أنكرها المعتزلة.

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام والتسديد وجعل الإنسان يقبل الحق ويرضاه ويختاره وخلق هداية القلب هذه خاصة بالله، لا يقدر عليها إلا الله، لا يقدر عليها أحد من الخلق لا الأنبياء ولا غيرهم وهذه هي المنفية عن النبي صلى الله عليه وسلم نفاها الله بقوله: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} فهو لا يهدي يعني لا يخلق الهداية في القلب ولا يوفق ولا يلهم ولا يجعله يقبل الحق ويختاره ويرضاه إلا الله، ولو كانت هداية الدلالة والإرشاد لكان النبي صلى الله عليه وسلم أرشد من أحب ومن أبغض.

وقال سبحانه: {مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)} فالله -تعالى- يهدي ويضل، فالهداية والإضلال، بيد الله عز وجل والعبد هو الضال والمهتدي ولا بد في وقوع هذه الهداية من أمرين: الأمر الأول: الهداية من الله، يعني يهديه الله.

والثاني: الاهتداء من العبد فإذا هداه الله واهتدى حصلت له الهداية بالتوفيق وكذلك الإضلال من الله، والعبد هو الضال إذا أضله الله فضل صار ضالا.

فالهداية والإضلال بيد الله عز وجل وقد اتفقت رسل الله وكتبه المنزلة على أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له.

وهذه المسألة مسألة الهداية والإضلال مسألة عظيمة؛ لأن أفضل ما يقدره الله على العبد وأجل ما يقسمه له هو الهداية وأعظم ما يبتلي الله به العبد وأعظم مصيبة تصيبه هو أن يقدر الله عليه الإضلال، وكل نعمة فهي دون نعمة الهداية، وكل مصيبة هي دون مصيبة الإضلال، فلذلك كانت الهداية والإضلال بيد الله عز وجل.

هذه المرتبة أنكرها المعتزلة والقدرية أنكروها فأنكر عليهم أهل السنة وبدعواهم وضللوهم، وهذا هو معنى قول المؤلف - رحمه الله -: "يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلا ويضل من يشاء ويبتلي حكمة وعدلا".

المعتزلة والقدرية قالوا: الهداية والإضلال بيد العبد وليس بيد الله الهداية والإضلال أنكروا هذه المرتبة. أنكر عليهم أهل السنة وقالوا: النصوص واضحة لأن الله - سبحانه وتعالى - بيده الهداية والإضلال قال: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي} لو كانت الهداية بيد العبد لما قيدها بالمشيئة {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} ولكن الله - سبحانه وتعالى - خص المؤمن بنعمة دينية دون الكافر، كما قال - سبحانه - : {وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ (٥٧)} وقال - سبحانه -: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)} فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً .

هذه النعمة اختص الله بها المؤمنين اختصهم بنعمة دينية جعلهم يقبلون الحق ويرضون به ويختارونه وألهمهم إياه وخلق الهداية في قلوبهم فصاروا مهتدين. وله الفضل والإحسان. والكافر أضله الله خذله وأضله الله وابتلاه - كل ذلك - عدلا منه حكمة بالغة - سبحانه وتعالى -.

فالهداية والإضلال بيد الله عز وجل. فالمؤمن اختصه الله بهذه النعمة الدينية دون الكافر والكافر خذله الله. والمعتزلة والقدرية أنكروا هذه المرتبة، وقالوا: الهداية والإضلال بيد العبد، وتأولوا النصوص بقوله: {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} قالوا معناه: يهدي أي يسميه مهتديا ويبين لهم طريق الصواب فسروها بهداية الدلالة والإرشاد. ويضل من يشاء قالوا: يسميه ضالا أو يحكم عليه بالإضلال بعد أن يخلق الضلال من نفسه، وهذا من أبطل الباطل.

القدرية يضربون مثلا في هذا، والله - تعالى - قال: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} لكنهم يضربون مثلا يقولون: إن الله - تعالى - لم يهد أحدا ولم يضل أحدا، ولكن العبد هو الذي اختار الهداية بنفسه وخلق الهداية لنفسه، والكافر اختار الإضلال وخلق الإضلال لنفسه، واختار الإضلال لنفسه، والله - تعالى - لم يخص المؤمن بنعمة دينية ولم يخذل الكافر، وهذا مبني على شهتهم السابقة.

وهو أن لو هدى هؤلاء وأضل هؤلاء لكان هذا جورا، والله عادل لا يجور، وسبق الجواب على هذه الشبهة، وأن الله له الحكمة البالغة فيما يقدره، وأن الله عاقبهم لما لم يستجيبوا للحق بعد ظهوره ووضوحه عاقبهم كما سبق في الآية {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} فلما بين لهم ما يتقون واتضح لهم الأمر فلم يقبلوه أضلهم الله عقوبة لهم، وقال - سبحانه - {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} وقال - سبحانه -: {وَنُقَلِّبُ أَفْقِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} (١١٠) .

فقالوا: مثل الله في ذلك مثل رجل له ابنان أعطى كل واحد منهما سيفا، وقال لهما جاهدا به في سبيل الله فالأول أطاع والده وجاهد به في سبيل الله والثاني عصى والده وجعل يستعرض رقاب المسلمين ويقتل المسلمين. هذا اختار طريق الحق، وهذا اختار طريق الضلال من نفسه، هذا من نفسه وهذا من نفسه، والله - تعالى - ما خص الأول بهداية ولا خص الثاني بالإضلال. وهذا من أبطل الباطل فمرتبة الهداية هداية التوفيق والتسليم هذه خاصة بالله عز وجل وهذه أنكروا المعتزلة والقدرية وهي خاصة بالله.

وأما الهداية الثانية - التي هي الدلالة والإرشاد - فهي حجة الله على خلقه، لا يعذب أحدا حتى يهديه هداية الدلالة والإرشاد كما سبق: {وَأَمَّا تَمْوُدُ فَهَدَيْنَاهُمْ} {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} .

والآيات والنصوص في بيانها كثيرة كقوله سبحانه وتعالى: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ} (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) .

والمرتبة الرابعة: الهداية إلى طريق الجنة والنار يوم القيامة، فالكفار يهديهم الله إلى النار، والمؤمنون يهديهم الله إلى الجنة، قال سبحانه وتعالى في الكفار: {* أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) { الآية من سورة الصافات.

وقال سبحانه في المؤمنين: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦)} فهذه هداية بعد قتلهم يهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح بالهم في إلغاء خصومهم وقبول أعمالهم، فهذه مراتب الهداية.

المرتبة الأولى الهداية العامة والمرتبة الرابعة ليس فيهما إشكال، إنما البحث في المرتبة الثانية، مرتبة الهداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق والتسديد، هذا محل النزاع والخلاف بينهم وبين أهل السنة.

أهل السنة يقسمون الهداية إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد، وهداية توفيق وإلهام.

والقدرة والمعتزلة ليس عندهم إلا هداية واحدة: هداية الدلالة والإرشاد. وهداية التوفيق يردونها إلى هداية البيان والإرشاد، وهذا من أبطل الباطل، وهذا مبني على أصلهم الفاسد وهو قولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله قالوا: يجب على الله فعل الأصلح للعبد. وما دام يجب على الله فعل الأصلح للعبد قالوا: فلا يمكن أن يهدي الله أحدا ولا أن يضل أحدا.

وهذا أيضا مبني على أصلهم الآخر، وهو القول بأن أفعال العباد مخلوقة لهم، فالعباد هم الذين خلقوا الهداية والضلال، هم الذين يخلقون الطاعات والمعاصي، ولو خص الله أحدا بالهداية وخذل أحدا لكان ظالما، والله عدل لا يجور.

وكما سبق أن الله له حكمة بالغة - كما سبق - في بيان حكمة الله في تقدير الكفر والمعاصي وغيرها، وأن الذي ينسب إلى الله إنما هو الخلق، وهو مبني على الحكمة، والذي ينسب إلى العبد هو المباشرة والكسب.

ولهذا فإن الهداية والإضلال بيد الله، فالله تعالى يهدي ويضل، والعبد يباشر فيكون هو المهتدي وهو الضال، العبد هو المهتدي وهو الضال، والله يهدي ويضل {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} {مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)} ولا بد فيها من أمرين: الهداية والإضلال، هذا من الله، والعبد من هواه، الاهتداء والضلال، المباشرة والكسب. نعم.

وكلهم يتقبلون في مشيئته بين فضله وعدله

نعم كل العباد يتقبلون بين مشيئته وفضله كما قال سبحانه: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢)} هو - سبحانه وتعالى - يهدي من يشاء فضلا منه وإحسانا، ويضل من يشاء مشيئة وحكمة وعدلا {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)} .

الله - سبحانه وتعالى - عليم بالمحال التي تصلح للهداية، عليم بالمحل الذي يصلح لغرس الكرامة فيهديه، وعليم بالمحل الذي لا يصلح لغرس الكرامة فلا يهديه.

وهو - سبحانه وتعالى - يتصرف في عباده، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والله تعالى وضع الأشياء في مواضعها، ولا يكون الإنسان ظالما، ولا يكون أحد ظالما، ولا يكون الشخص ظالما إلا إذا منع الشخص مما يستحقه.

فَالرَّبُّ رَبُّ كَيْفٍ رَبُّ يُسْأَلُ^(١)

وَاللَّهُ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ

والله تعالى ما منع الكافر شيئاً يستحقه، فالهداية والإضلال ملكه ويده - سبحانه وتعالى - فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء، يهدي من يشاء فضلاً وإحساناً، ويضل من يشاء مشيئةً وحكمة وعدلاً. والعباد والناس كلهم خلق الله وعبده يتصرف فيهم، ولم يمنع أحداً شيئاً له حتى يكون ظالماً، فالظلم هو أن تمنع أحداً من حقه، أو تحمله أوزار غيره؛ ولهذا قال: {لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ} {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ} {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)} .

^١ - قال الله تعالى: { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } تعني الآية أن الله سبحانه وتعالى لكمال قدرته، وعظمته، وعدله، وحكمته المطلقة، لا يُسأل عن أفعاله وتصرفه في ملكه، بينما جميع خلقه مسؤولون ومحاسبون على أعمالهم.

♦ قال ابن جرير: "يقول تعالى ذكره: لا سائل يسأل رب العرش عن الذي يفعل بخلقهم من تصرفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال، وغير ذلك من حكمه فيهم؛ لأنهم خلقه وعبده، وجميعهم في ملكه وسلطانه، والحكم حكمه، والقضاء قضاؤه، لا شيء فوقه يسأله عما يفعل فيقول له: لم فعلت؟ ولم لم تفعل؟ {وَهُمْ يُسْأَلُونَ} يقول جل ثناؤه: وجميع من في السماوات والأرض من عباده مسؤولون عن أفعالهم، ومحاسبون على أعمالهم، وهو الذي يسألهم عن ذلك ويحاسبهم عليه، لأنه فوقهم ومالكهم، وهم في سلطانه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

* ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } يقول: لا يسأل عما يفعل بعباده، وهم يسألون عن أعمالهم.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، قال: قوله { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } قال: لا يسأل الخالق عن قضائه في خلقه، وهو يسأل الخلق عن عملهم.

حدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول في قوله { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } قال: لا يسأل الخالق عما يقضي في خلقه، والخلق مسئولون عن أعمالهم.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: " (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يُمانعه أو يُعارضه، لا بقول، ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن كل شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال؛ لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

والشرُّ والخير من الخلال		وسائر الامور والاحوال
وكل ما في الكون من شيء جرى		قضاه ربي قبل ذا وقدرًا
لا يملك الانسان نفعاً او ضرر		الا بما شاء الملك المقتدر ^(١)

(وَهُمْ) أي: المخلوقون كلهم (يُسْأَلُونَ) عن أفعالهم وأقوالهم، لعجزهم وفقيرهم، ولكونهم عبيدًا، قد استحققت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مثقال ذرة" (تفسير السعدي).
 ♦ قال الشوكاني -رحمه الله-: "وقيل: إن المعنى أنه -سبحانه- لا يُؤاخذ على أفعاله، وهم يُؤاخذون.
 قيل: والمراد بذلك أنه -سبحانه- بين لعباده أن مَنْ يُسأل عن أعماله: كالمسيح، والملائكة لا يصلح لأن يكون إلهًا" (فتح القدير).

♦ وقال البيضاوي: "والضمير: (وَهُمْ) للآلهة أو للعباد" (تفسير البيضاوي).
 ♦ قال ابن تيمية -رحمه الله: " { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } لَا لِمُجَرَّدِ قُدْرَتِهِ وَقَهْرِهِ، بَلْ لِكَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ" (مجموع الفتاوى).

فأما كمال علمه؛ فلا أنه -سبحانه- { قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا } [الطلاق: ١٢].
 وأما قدرته الشاملة، ومشيئته النافذة -سبحانه- فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فالسبب في عدم وجود الشيء هو عدم مشيئة الله سبحانه و-تعالى- إيجاده، لا أنه عجز عنه: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا } [فاطر: ٤٤].
 وقال -تعالى-: { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس: ٨٢]، وأما كمال حكمته ورحمته فهو سبحانه حكيم، لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا بغير معنى ومصلحة، { وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } [الأنعام: ١٨].
 وأما كمال رحمته، فقد وسعت كل شيء: { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف: ١٥٦]، فسبحانه حلیم لا يعجل، يُمهّل عباده، ولا يعاجلهم بعقابه، مع قدرته عليهم، سبقت رحمته غضبه، وفي الحديث المتفق عليه ((لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي))؛ ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويفرح بتوبة مَنْ تاب إليه وأناب.

^١ - الإيمان بأن الله مقدر لكل شيء (الخير والشر) هو ركن أساسي من أركان الإيمان. فالله خلق كل المخلوقات وعلم مقاديرها وأعمالها قبل خلقها وكتبها في اللوح المحفوظ، وله الحكمة البالغة في كل ما يقع في كونه من أحداث ومصائب.

وسبق ان ذكرنا ان الإرادة إذا نسبت لله تعالى فهي نوعان: إرادة كونية قدرية، وإرادة شرعية دينية. والفرق بينهما أن الإرادة الكونية القدرية لا بد أن تقع، وقد تكون مما يحبه الله كالطاعات، وقد تكون مما يبغضه الله كالمعاصي. وأما الإرادة الدينية الشرعية فلا تكون إلا مما يحبه الله، وقد تقع وقد لا تقع، لأن الله تعالى أعطى العباد اختياراً في الطاعة والمعصية،

فإذا تبين هذا، فالشر يقع بإرادة الله الكونية، لا بإرادته الشرعية.

ثم يجب التنبيه إلى أن أفعال الله تعالى كلها منطوية على الحكمة التامة، وقد يدرك العباد أو بعضهم شيئاً من هذه الحكمة، وقد تعجز عقولهم القاصرة عن إدراكها، ولذلك كان مبنى الدين على الإيمان بالغيب، وإثبات كل أنواع الكمال المطلق لله تعالى، ونفي كل أنواع النقص عنه سبحانه.

وعليه... فما من شيء خلقه الله تعالى وإن كان في وجوده شر نسبي إلا ومصلحة وجوده أعظم من مفسدتها، وهذا الجزء من الشر لا ينسب لله تعالى ولكن ينسب إلى مخلوقاته، وإنما ينسب له تعالى الحكمة من خلقه. فكل الأمور السيئة كما يقول ابن القيم: قدرها الله سبحانه وقضاها لحكمته، وهي باعتبار تلك الحكمة نوع من إحسانه، فإن الرب سبحانه لا يفعل سوءاً قط، بل فعله كله حسن وخير وحكمة، كما قال تعالى: {بِيَدِكَ الْخَيْرُ} [آل عمران: ٢٦]. وقال أعرف الخلق به صلى الله عليه وسلم: والشر ليس إليك. فهو لا يخلق شراً محضاً من كل وجه، بل كل ما خلقه ففي خلقه مصلحة وحكمة، وإن كان في بعضه شر جزئي إضافي، وأما الشر الكلي المطلق من كل وجه فهو تعالى منزّه عنه وليس إليه. شفاء العليل.

وقال الشيخ ابن عثيمين: الله خلق كل شيء الخير والشر، ولكن الشر لا ينسب إليه، لأنه خلق الشر لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيراً، فالشر ليس في فعل الله، بل في مفعولاته، أي مخلوقاته. ومخلوقات الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي:

- ١ - شر محض كالنار وإبليس باعتبار ذاتيهما، أما باعتبار الحكمة التي خلقهما الله من أجلها، فهي خير.
 - ٢ - خير محض، كالجنة والرسول والملائكة.
 - ٣ - فيه شر وخير، كالإنس والجن والحيوان. فتاوى ابن عثيمين .
- فإن جميع الأحداث الحاصلة في الكون حصلت بقضاء الله وقدره، قال الله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [التغابن: من الآية ١١]، وفي الحديث: ((وتؤمن بالقدر خيره وشره)). رواه مسلم. وفي الحديث: ((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس)). رواه مسلم.
- ♦ قال الشيخ ابن العثيمين في شرح الواسطية: أن أفعال الله تعالى كلها خير، كما يدل الحديث: ((والخير كله بيدك، والشر ليس إليك)). رواه مسلم.

ولكن المقدور قد يكون شراً بالنسبة للعبد في حال ما لأنه غير ملائم له كالمرض، وقلة ذات اليد، وإقامة الحدود، ولكن قد يكون فيه خير للعبد يخفى عليه فقد يكون فيه تكفير سيئاته، ورفع درجاته كما في الحديث:

((ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها)) .رواه البخاري.

وفي الحديث الآخر : ((عجباً للمؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)) .رواه مسلم.

وقد يحصل بالبلاء تذكير للعباد حتى يتوبوا إلى الله كما قال تعالى : { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الروم: ٤١] ، ويحصل بإقامة الحدود على العباد تكفير ذنوبهم، كما في الحديث : فمن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له.

♦ وقال الشيخ عبدالرحمن البراك في شرحه لعقيدة السلف اصحاب الحديث للامام الصابوني : "ويشهد أهل السنة ويعتقدون أنَّ الخيرَ والشرَّ والتَّفعُّ والتَّضرُّ بقضاء الله وقدره، لا مردَّ لها، ولا محيصَ ولا محيدَ عنها، ولا يُصيب المرءَ إلا ما كتبَ له ربُّه، ولو جهدَ الخلقُ أن ينفَعُوا المرءَ بما لم يكتبْه الله لم يقدرُوا عليه، ولو جهدوا أن يضرُّوه بما لم يقضِهِ الله لم يقدرُوا عليه. على ما وردَ به الخبرُ عن عبد الله بن عباس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: قال الله -عز وجل -: { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ } [الأنعام: ١٨].

ومن مذهب أهل السنة وطريقتهم مع قولهم بأنَّ الخيرَ والشرَّ من الله، وبقضائه، أنه لا يُضاف إلى الله تعالى ما يُتوهم منه نقصٌ على الانفراد، فلا يُقال: "يا خالقَ القردة والخنازير والخنافس والجُعلان" وإن كان لا مخلوقٌ إلا والربُّ خالقُه، وفي ذلك وردَ قولُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في دعاء الاستفتاح: " تباركت وتعاليت، والشرُّ ليس إليك" ومعناه والله أعلم: والشرُّ ليس مما يضافُ إليك إفراداً وقصداً، حتى يُقال لك في المناداة: يا خالقَ الشرِّ ويا مُقدِّرَ الشرِّ، وإن كان هو الخالقُ والمُقدِّرُ لهما جميعاً"

-الشيخ: هذا تخريجُ المؤلف، وتأويلُه للحديث ..ولكن القول الآخر هو الأظهر: أنَّ الشرَّ لا يُضاف إلى الله اسماً ولا صفةً ولا فعلاً، فكلُّ أسمائه حسنى وكلُّ صفاته صفاتُ كمال، كلُّ أفعاله جاريةٌ وفق الحكمة، والعدل، والرحمة، وأمَّا الشرُّ فلا يكون إلا في المخلوقات، وخلقُه لكل شيء هو مُوجِبُ الحكمة، فله الحكمة البالغة في خلقه وأمره وشرعه وقدره -سبحانه وتعالى-

وما ذكره المؤلف صحيحٌ أنه يعني هذا أسلوب تنقُّص، ليس أسلوب مدح، المدح في أن يُقال إنه خالقُ كلِّ شيء، أما التخصيص، حتى هذا في عرف العقلاء، يعني ليس كل ما هو ثابتٌ للممدوح يُضاف إليه. هل يُمدح إنسان يُقال له: يا مَنْ خرجت من السَّيلين؟ مدح. صحيح ولا مو صحيح؟ هو خارج من السَّيلين، من أمه وأبيه، من فرجين، هذا قبيحٌ في عُرْفِ العقلاء، فمن القبيح أن يُقال ياربُّ كذا وكذا كما ذكر المؤلف، من عبارات الجهلة، يقولون: "أمرُ الله شقُّ القُرْبَةِ" إيش هالكلام؟! نعم كلُّ شيءٍ بأمره، ولا يكونُ شيء في هذا الوجود إلا بأمره ومشيئته، لكن لا تذكر الأشياء الحقيرة وتنسبها لله، هو خالقُ السموات والأرض تقول: ((اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ

السَّعْبُ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى)) كما جاء في الحديث هذا في التبجيل والتعظيم، أما أن تصنيف ربوبيته لما هو حقير من هذه المخلوقات فهذا تنقُصُ فضلاً عن أن يكون مدحاً، وإن كان هو في حقيقته صحيح، هو رب كل شيء .

-) لذلك أضاف الخضر -عليه السلام- إرادة العيب إلى نفسه، فقال فيما أخبر الله عنه في قوله: { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } [الكهف: ٧٩] ولما ذكر الخير والبر والرحمة أضاف إرادتها إلى الله -عز وجل- فقال: { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ } [الكهف: ٨٢] ولذلك قال مُخْبِرًا عن إبراهيم -عليه السلام- أنه قال: { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء: ٨٠] فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه. ومن مذهب أهل السنة والجماعة أن الله -عز وجل- مُريد لجميع أعمال العباد).

-الشيخ: يقول أهل العلم يعني حسب ما جاء في النصوص أن الشر لا يُضاف إلى الله إلا بصيغة العموم، أو بالفعل المبني للمفعول، يستشهدون لمثل هذا بقول الجن: { وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا } [الجن: ١٠] ففي الشر بنوا فعل الإرادة للمفعول: { لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا } [الجن: ١٠] وفي صيغة العموم: { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } [الرعد: ١٦] يدخل فيها الخير والشر: { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } [الرعد: ١] أو بإضافة الشر إلى ما خلق { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ } [الفلق: ١-٢].

-) ومن مذهب "أهل السنة والجماعة" أن الله -عز وجل- مُريد لجميع أعمال العباد خيره وشره، ولم يؤمن أحدٌ إلا بمشيئته، ولو شاء لجعل الناس أمةً واحدةً، ولو شاء أن لا يعصى ما خلق إبليس. فكفر الكافرين وإيمان المؤمنين بقضائه -سبحانه وتعالى- وقدره، وإرادته ومشيئته، أراد كل ذلك وشاءه وقضاه، ويرضى الإيمان والطاعة، ويسخط الكفر والمعصية، قال الله -عز وجل-: { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ } [الزمر: ٧].

يعني بيان مذهب أهل السنة، ومن مذهبهم الإيمان بالقدر خيره وشره، يدخل في ذلك الإيمان بأن أفعال العباد مخلوقة لله، وأن كل ما يكون من أفعال العباد واقع بمشيئته -سبحانه وتعالى- إيمان وطاعة المؤمنين، وكفر ومعاصي الكافرين، كلها بقدره ومشيئته، فيجب الإيمان بالشرع والقدر جميعاً، الإيمان بالقدر بما يتضمنه من الأصول من إثبات علمه وكتابته وعموم مشيئته وعموم خلقه، والإيمان بالشرع وأن الله أمر عباده بطاعته، ونهاهم عن معصيته، لا بد من الإيمان بهذا وهذا، ولا يُعارض أحدهما بالآخر، لا يُعارض الشرع بالقدر، ولا بد مع ذلك من الإيمان بحكمته، فله الحكمة البالغة في شرعه وقدره، وبهذا يُعصم العبد مما زلَّ به الضالون، ففرق الضلال منهم من أنكر الشرع، ومنهم من أنكر القدر، ومنهم من طعن في حكمته -سبحانه وتعالى- .

وهو الغني مطلقاً عن الوري		ومن اليه من سواه فُقرا ^(١)
في ثلث الليل الاخير ينزل		الى السماء ربنا ويقبل
هل ثم فيكم مذنب يستغفر		او سائل لفضلنا يستمطر
هذا النزول كيفه لا يعلم		والترك للخوض بهذا الاسلام ^(٢)

^١ - يقول الشيخ ابن عثيمين: فالله عز وجل ليس محتاجاً إلى الخلق، بمعنى أنه لو لم يوجد هذا الخلق لفات كماله، وليس هناك ضرورة إلى وجودهم من باب أولى، فأفعال الله التي يفعلها لا يفعلها لحاجته إليها، ولا لضرورته إليها، ونحن نفعل الأفعال لحاجتنا إليها، فنتكسب لنزداد من المال، وهذه حاجة، ونتكسب لننقذ أنفسنا من الهلاك، وهذه ضرورة، لكن الله عز وجل يفعل بلا حاجة ولا اضطرار؛ لأن الله عز وجل يقول " (وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر: الآية ١٥) ، فهو غني عن كل أحد، حميد على كل فعل وعلى كل صفة، فلا يفعل حاجة ولا يفعل ضرورة ... والآيات في أنه سبحانه لم يخلق الخلق إلا لحكمة كثيرة، لكن هذه الحكمة ليس لأنه محتاج لها هو أو مضطر إليها بل يحتاج إليها الخلق، فالله سبحانه وتعالى يفعل الفعل لحاجة الخلق إليه، لا لحاجته هو إلى الفعل، فهو كامل على كل حال، لكن الخلق هم الذين يحتاجون إلى ما يكون به كمالهم ودفع ضرورتهم؛ ولذلك لا ينتفع بأفعال الله إلا الخلق، فهم يستدلون بها على آياته، وعلى فضله، وعلى عدله، وعلى عقابه وانتقامه، وغير ذلك، فالحاجة إذن للخلق وليست للخالق، أما الخالق عز وجل فإنه يفعل بلا حاجة ولا اضطرار، أما الدليل النظري على أن الله يخلق لغير حاجة ولا اضطرار: أن العقل يدل على كمال الخالق، والكمال لا يحتاج إلى مكمل.

^٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يُنْزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» (متفق عليه).

قال الشيخ الحافظ أبو بكر الإسماعيلي رحمه الله تعالى في بيان اعتقاد أهل السنة: [وإنه عز وجل ينزل إلى السماء على ما صح به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا اعتقاد كيف فيه.

وجاء في شرح الاقتصاد في الاعتقاد للراجحي: " من صفات الله عز وجل التي أثبتتها لنفسه وأثبتها له رسوله وسائر أهل السنة والجماعة صفة النزول، فإن الله تعالى ينزل نزولاً يليق بجلاله سبحانه، وهو ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، ولا يسأل عن كيفية نزوله تعالى، ومن سأل عن ذلك فهو مبتدع. قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وتواترت الأخبار وصحت الآثار بأن الله عز وجل ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، فيجب الإيمان به، والتسليم له، وترك الاعتراض عليه، وإمراره من غير تكيف ولا تمثيل ولا تأويل ولا تنزيه ينفي حقيقة النزول]. "

فإذا قال قائل: كيف يكون النزول؟ فنقول كما قال الإمام مالك رحمه الله: النزول معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فالنزول معناه معلوم في اللغة العربية، وأما كيفية النزول فلا ندري عنه، فلا نقول: يكون على كيفية كذا.

يقول المؤلف رحمه الله: (ولا يصح حمله على نزول القدرة ولا الرحمة ولا نزول ملك).

هذا تأويل المتأولين، قال بعض المتأولين: ينزل الله أي قدرته، وبعضهم قال: تنزل الرحمة، وبعضهم يقول: ينزل ملك، وهذا من أبطل الباطل، فالرحمة نزولها في كل وقت، وليس نزولها مخصصاً في ثلث الليل، وكذلك الملك لا يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟! هل يمكن لمخلوق أن يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فأغفر له؟ من يسألني فأعطيه؟ لا يقول هذا إلا الله سبحانه وتعالى، ومن هنا يعلم بطلان تأويل المبتدعة بأن نزول الله معناه نزول أمره أو نزول رحمته أو نزول ملك، هذا من أبطل الباطل.

ولهذا اتفق السلف على إثبات صفة النزول لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، ونزوله سبحانه لا يشبه نزول المخلوق، فالله مستوٍ على عرشه كما أخبر عن نفسه وهو فوق المخلوقات وهو ينزل كل ليلة إلى الدنيا كما يليق بجلاله وعظمته من غير تكيف، وأئمة السنة كلهم أجمعوا على هذا، واستدلوا بالنصوص على أن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، وينزل عشية عرفة، وينزل يوم القيامة للفصل والقضاء، ولا منافاة بين نزوله واستوائه على عرشه؛ لأنه سبحانه ينزل نزولاً لا يشابه نزول المخلوقين، بل كما يليق بجلاله وعظمته ولا نعلم كيفيته، ولهذا قال الإمام محمد بن الحسين الآجري: الإيمان بهذا واجب، ولا يسع المسلم العاقل أن يقول: كيف ينزل؟ ولا يرد هذا إلا المعتزلة، وأما أهل الحق فيقولون: الإيمان به واجب بلا كيف؛ لأن الأخبار قد صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، والذين نقلوا إلينا هذه الأخبار هم الذين نقلوا إلينا الأحكام من الحلال والحرام، فكيف تقبل الأخبار التي رووها في الحلال والحرام ولا تقبل الأحكام التي رووها في الصفات؟! وكما قبل العلماء منهم ذلك، قبلوا منهم هذه السنن، قال الآجري: إن من ردها فهو ضال خبيث، يحذرونه ويحذرون منه.

ومن الأئمة أبو بكر بن خزيمة رحمه الله له كتاب التوحيد، وهو كتاب عظيم، ينقل عنه أهل الحق أهل السنة والجماعة، قال بعد أن ذكر هذه الأخطاء: نشهد شهادة مقرر بلسانه، مصدق بقلبه، مستيقن بما في هذه الأخبار بنزول الرب بغير أن نصف الكيفية؛ لأن نبينا المصطفى لم يخبرنا كيفية نزول خالقنا إلى السماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل، والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه عليه الصلاة والسلام بيان ما في المسلمين إليه حاجة من أمر ديننا، فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول، غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية، إذ النبي صلى الله عليه وسلم لم يصف لنا كيفية النزول، وفي هذه الأخبار ما بان وثبت وصح أن الله جل وعلا فوق السماء الدنيا.

الذي أخبرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم: أنه ينزل إلينا، إذ محال في لغة العرب أن يقول: ينزل من أسفل إلى أعلى، ومفهوم الخطاب أن النزول من أعلى إلى أسفل. وبهذا يتبين أن صفة النزول أجمع عليها أهل السنة والجماعة، وتواترت بها الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد ذكر اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة: أن حديث النزول رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم عشرون نفساً، فهي لكثرتها بلغت حد التواتر، وهذه الروايات تجعل هذا الأمر من الأمور المسلمة المعلومة من الدين بالضرورة والتي لا يسع أحداً أن ينكرها ولا أن يكابر فيها إلا من غلب عليه الهوى، ومن كان إلهه هواه فلا حياة فيه.

وجاء في شرح حديث النزول لشيخ الإسلام ابن تيمية: "سئل شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: قدس الله روحه: ما يقول سيدنا وشيخنا: شيخ الإسلام وقدوة الأنام. أيده الله ورضي عنه. في رجلين تنازعا في [حديث النزول]: أحدهما مثبت، والآخر ناف.

فقال المثبت: ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فقال النافي: كيف ينزل؟ فقال المثبت: ينزل بلا كيف، فقال النافي: يخلو منه العرش أم لا يخلو؟ فقال المثبت: هذا قول مبتدع ورأى مخترع، فقال النافي: ليس هذا جوابي، بل هو حيدة [الحيدة: البعد والتحي] . عن الجواب، فقال له المثبت: هذا جوابك، فقال النافي: إنما ينزل أمره ورحمته، فقال المثبت: أمره ورحمته ينزلان كل ساعة، والنزول قد وقت له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلث الليل الآخر، فقال النافي: الليل لا يستوى وقته في البلاد، فقد يكون الليل في بعض البلاد خمس عشرة ساعة ونهارها تسع ساعات، ويكون في بعض البلاد ست عشرة ساعة والنهار ثمان ساعات، وبالعكس، فوقع الاختلاف في طول الليل وقصره بحسب الأقاليم والبلاد، وقد يستوى الليل والنهار في بعض البلاد، وقد يطول الليل في بعض البلاد حتى يستوعب أكثر الأربع والعشرين ساعة، ويبقى النهار عندهم وقت يسير؛ فيلزم على هذا أن يكون ثلث الليل دائماً، ويكون الرب دائماً نازلاً إلى السماء، والمسؤول إزالة الشبه والإشكال، وقمع أهل الضلال.

فأجاب . رضي الله عنه :

الحمد لله رب العالمين ، أما القائل الأول الذي ذكر نص النبي صلى الله عليه وسلم فقد أصاب فيما قال ، فإن هذا القول الذي قاله قد استفاضت به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، واتفق سلف الأمة وأئمتها وأهل العلم بالسنة والحديث على تصديق ذلك وتلقيه بالقبول ، ومن قال ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم فقولته حق وصدق ، وإن كان لا يعرف حقيقة ما اشتمل عليه من المعاني؛ كمن قرأ القرآن ولم يفهم ما فيه من المعاني؛ فإن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال هذا الكلام وأمثاله علانية ، وبلغه الأمة تبليغاً عاماً لم يخص به أحداً دون أحد ، ولا كتبه عن أحد ، وكانت الصحابة والتابعون تذكره وتؤثره وتبلغه وترويه في المجالس الخاصة والعامة ، واشتملت عليه كتب الإسلام التي تقرأ في المجالس الخاصة والعامة ، كصحيح البخاري ومسلم ، و [موطأ مالك] ، و [مسند الإمام أحمد] ، و [سنن أبي داود] ، و [الترمذي] ، و [النسائي] ، وأمثال ذلك من كتب المسلمين .

لكن من فهم من هذا الحديث وأمثاله ما يجب تنزيه الله عنه ، كتمثيله بصفات المخلوقين ، ووصفه بالنقص المنافي لكماله الذي يستحقه ، فقد أخطأ في ذلك ، وإن أظهر ذلك منع منه ، وإن زعم أن الحديث يدل على ذلك ويقتضيه فقد أخطأ أيضاً . في ذلك .

فإن وصفه . سبحانه وتعالى . في هذا الحديث بالنزول هو كوصفه بسائر الصفات؛ كوصفه بالاستواء إلى السماء وهي دخان ، ووصفه بأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، ووصفه بالإتيان والمجيء في مثل قوله تعالى : { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ } [البقرة : ٢١٠] ، وقوله : { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ } [الأنعام : ١٥٨] ، وقوله : { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [الفجر : ٢٢] ، وكذلك قوله تعالى : { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الفرقان : ٥٩] ، وقوله : { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } [الذاريات : ٤٧] ، وقوله : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ } [الروم : ٤٠] ، وقوله : { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ } [السجدة : ٥] ، وأمثال ذلك من الأفعال التي وصف الله . تعالى . بها نفسه التي تسميها النحاة أفعالاً متعدية ، وهي غالب ما ذكر في القرآن ، أو يسمونها لازمة لكونها لا تنصب المفعول به ، بل لا تتعدى إليه إلا بحرف الجر ، كالاستواء إلى السماء وعلى العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا ، ونحو ذلك ومذهب سلف الأمة وأئمتها : أنهم يصفونه بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في النفي والإثبات .

والله . سبحانه وتعالى . قد نفي عن نفسه مماثلة المخلوقين ، فقال الله تعالى : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [سورة الإخلاص] ، فبين أنه لم يكن أحد كفواً له ، وقال تعالى : { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم : ٦٥] ، فأنكر أن يكون له سمي .

وقال تعالى : { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا } [البقرة : ٢٢] ، وقال تعالى : { فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } [النحل : ٧٤] ، وقال تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : ١١] .

ففيما أخبر به عن نفسه، من تنزيهه عن الكفاء، والسَّميِّ، والمثل، والنَّد، وضرب الأمثال له؛ بيان أن لا مثل له في صفاته، ولا أفعاله، فإن التماثل في الصفات والأفعال يتضمن التماثل في الذات . فإن الذاتين المختلفتين يمتنع تماثل صفاتهما وأفعالهما؛ إذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذوات، فإن الصفة تابعة للموصوف بها، والفعل . أيضاً . تابع للفاعل، بل هو مما يوصف به الفاعل . فإذا كانت الصفتان متماثلتين كان الموصوفان متماثلين، حتى إنه يكون بين الصفات من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الموصوفين، كالإنسانين كما كانا من نوع واحد، فتختلف مقاديرهما وصفاتهما بحسب اختلاف ذاتيهما، ويتشابه ذلك بحسب تشابه ذلك .

كذلك إذا قيل : بين الإنسان والفرس تشابه، من جهة أن هذا حيوان وهذا حيوان، واختلاف من جهة أن هذا ناطق وهذا صاهل، وغير ذلك من الأمور، كان بين الصفتين من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الذاتين؛ وذلك أن الذات المجردة عن الصفة لا توجد إلا في الذهن، فالذهن يقدر ذاتاً مجردة عن الصفة، ويقدر وجوداً مطلقاً لا يتعين، وأما الموجودات في أنفسها فلا يمكن فيها وجود ذات مجردة عن كل صفة، ولا وجود مطلق لا يتعين ولا يتخصص ، وإذا قال من قال من أهل الإثبات للصفات : [أنا أثبت صفات الله زائدة على ذاته] : فحقيقة ذلك أنا نشبتها زائدة على ما أثبتها النفاة من الذات . فإن النفاة اعتقدوا ثبوت ذات مجردة عن الصفات، فقال أهل الإثبات : نحن نقول بإثبات صفات زائدة على ما أثبته هؤلاء .

وأما الذات نفسها الموجودة فتلك لا يتصور أن تتحقق بلا صفة أصلاً، بل هذا بمنزلة من قال : أثبت إنساناً، لا حيواناً، ولا ناطقاً، ولا قائماً بنفسه، ولا بغيره، ولا له قدرة، ولا حياة، ولا حركة، ولا سكون، أو نحو ذلك، أو قال : أثبت نخلة ليس لها ساق، ولا جذع، ولا ليف، ولا غير ذلك؛ فإن هذا يثبت ما لا حقيقة له في الخارج، ولا يعقل؛ ولهذا كان السلف والأئمة يسمون نفاة الصفات [مُعْطَلَةً] ؛ لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الله . تعالى . وإن كانوا هم قد لا يعلمون أن قولهم مستلزم للتعطيل، بل يصفونه بالوصفين المتناقضين فيقولون : هو موجود قديم واجب، ثم ينفون لوازم وجوده، فيكون حقيقة قولهم : موجود ليس بموجود، حق ليس بحق، خالق ليس بخالق، فينفون عنه النقيضين، إما تصريحاً بنفيهما، وإما إمساكاً عن الإخبار بواحد منهما .

ولهذا كان محققوهم . وهم القرامطة . ينفون عنه النقيضين، فلا يقولون : موجود ولا لا موجود، ولا حي ولا لا حي، ولا عالم ولا لا عالم ، قالوا : لأن وصفه بالإثبات تشبيه له بالموجودات، ووصفه بالنفي فيه تشبيه له بالمعدومات . قال بهم إغراقهم في نفي التشبيه إلى أن وصفوه بغاية التعطيل . ثم إنهم لم يخلصوا مما فروا منه، بل يلزمهم على قياس قولهم أن يكونوا قد شبهوه بالممتنع الذي هو أحسن من الموجود والمعدوم الممكن . ففروا في زعمهم من تشبيهه بالموجودات والمعدومات، ووصفوه بصفات الممتنع التي لا تقبل الوجود، بخلاف المعدومات الممكنات، وتشبيهه بالممتنع شر من تشبيهه بالموجودات والمعدومات الممكنات .

وما فر منه هؤلاء الملاحدة ليس بمحذور ، فإنه إذا سمي حقًا موجودًا قائمًا بنفسه حيًا عليماً رءوفًا رحيماً ، وسمى المخلوق بذلك ، لم يلزم من ذلك أن يكون مماثلاً للمخلوق أصلاً ، ولو كان هذا حقًا ، لكان كل موجود مماثلاً لكل موجود ، ولكان كل معدوم مماثلاً لكل معدوم ، ولكان كل ما ينفي عنه شيء من الصفات مماثلاً لكل ما ينفي عنه ذلك الوصف ،

فإذا قيل : السواد موجود ، كان على قول هؤلاء قد جعلنا كل موجود مماثلاً للسواد . وإذا قلنا : البياض معدوم ، كنا قد جعلنا كل معدوم مماثلاً للبياض ، ومعلوم أن هذا في غاية الفساد ، ويكفي هذا خزيًا لحزب الإلحاد . وإذا لم يلزم مثل ذلك في السواد الذي له أمثال بلا ريب ، فإذا قيل في خالق العالم : إنه موجود لا معدوم ، حي لا يموت ، قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، فمن أين يلزم أن يكون مماثلاً لكل موجود ومعدوم وحي وقائم ، ولكل ما ينفي عنه العدم وما ينفي عنه صفة العدم ، وما ينفي عنه الموت والنوم ، كأهل الجنة الذين لا ينامون ولا يموتون ؟ ! وذلك أن هذه الأسماء العامة المتواطئة التي تسميها النحاة أسماء الأجناس ، سواء اتفقت معانيها في محالها أو تفاضلت كالسواد ونحوه ؛ وسواء سميت مشككة . وقيل : إن المشككة نوع من المتواطئة . إما أن تستعمل مطلقة وعامة ، كما إذا قيل : الموجود ينقسم إلى واجب وممكن ، وقديم ومحدث ، وخالق ومخلوق ، والعلم ينقسم إلى قديم ومحدث وإما أن تستعمل [خاصة معينة] كما إذا قيل : وجود زيد وعمرو ، وعلم زيد وعمرو ، وذات زيد وعمرو . فإذا استعملت خاصة معينة دلت على ما يختص به المسمى ، لم تدل على ما يشركه فيه غيره في الخارج ؛ فإن ما يختص به

المسمى لا شركة فيه بينه وبين غيره .

فإذا قيل : علم زيد ، ونزول زيد ، واستواء زيد ، ونحو ذلك ، لم يدل هذا إلا على ما يختص به زيد من علم ونزول واستواء ونحو ذلك ، لم يدل على ما يشركه فيه غيره . لكن لما علمنا أن زيدًا نظير عمرو ، وعلمنا أن علمه نظير علمه ، ونزوله نظير نزوله ، واستواءه نظير استوائه ، فهذا علمناه من جهة القياس والمعقول والاعتبار ، لا من جهة دلالة اللفظ ، فإذا كان هذا في صفات المخلوق ؛ فذلك في الخالق أولى .

فإذا قيل : علم الله وكلام الله ونزوله واستوائه ووجوده وحياته ونحو ذلك ، لم يدل ذلك على ما يشركه فيه أحد من المخلوقين بطريق الأولى ، ولم يدل ذلك على مماثلة الغير له في ذلك كما دل في زيد وعمرو ؛ لأننا هناك علمنا التماثل من جهة الاعتبار والقياس لكون زيد مثل عمرو ، وهنا نعلم أن الله لا مثل له ولا كفو ولا ند ، فلا يجوز أن نفهم من ذلك أن علمه مثل علم غيره ، ولا كلامه مثل كلام غيره ، ولا استوائه مثل استواء غيره ، ولا نزوله مثل نزول غيره ، ولا حياته مثل حياة غيره .

ولهذا كان مذهب السلف والأئمة إثبات الصفات ، ونفي مماثلتها لصفات المخلوقات . فالله . تعالى . موصوف بصفات الكمال الذي لا نقص فيه ، منزّه عن صفات النقص مطلقاً ، ومنزه عن أن يمثاله غيره في صفات كماله ،

فهذان المعنيان جمعا التنزيه ، وقد دل عليهما قوله تعالى : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ } [الإخلاص : ١ ، ٢]

. فالاسم [الصمد] يتضمن صفات الكمال، والاسم [الأحد] يتضمن نفي المثل كما قد بسط الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة .

فالقول في صفاته كالقول في ذاته، واللّه . تعالى . ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، لكن يفهم من ذلك أن نسبة هذه الصفة إلى موصوفها كنسبة هذه الصفة إلى موصوفها . فعلم الله وكلامه ونزوله واستواؤه، هو كما يناسب ذاته ويليق بها، كما أن صفة العبد هي كما تناسب ذاته وتليق بها، ونسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفات العبد إلى ذاته؛ ولهذا قال بعضهم : إذا قال لك السائل : كيف ينزل، أو كيف استوى، أو كيف يعلم، أو كيف يتكلم ويقدر ويخلق ؟ فقل له : كيف هو في نفسه ؟ فإذا قال : أنا لا أعلم كيفية ذاته؛ فقل له : وأنا لا أعلم كيفية صفاته، فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف . "

وقال ايضا : " أن الله يوصف بصفات الكمال : موصوف بالحياة، والعلم، والقدرة، وهذه صفات كمال . والخالق أحق بها من المخلوق، فيمتنع أن يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق .

ولولا أن هذه الأسماء والصفات تدل على معنى مشترك كلي، يقتضى من المواطأة والموافقة والمشابهة ما به تفهم وتثبت هذه المعاني لله، لم نكن قد عرفنا عن الله شيئاً، ولا صار في قلوبنا إيمان به، ولا علم، ولا معرفة، ولا محبة، ولا إرادة لعبادته ودعائه وسؤاله ومحبهه وتعظيمه، فإن جميع هذه الأمور لا تكون إلا مع العلم، ولا يمكن العلم إلا بإثبات تلك المعاني، التي فيها من الموافقة والمواطأة ما به حصل لنا ما حصل من العلم لما غاب عن شهودنا .

ومن فهم هذه الحقائق الشريفة والقواعد الجليلة النافعة، حصل له من العلم والمعرفة والتحقيق والتوحيد والإيمان، وانجاب عنه من الشبه والضلال و الحيرة ما يصير به في هذا الباب من أفضل الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ومن سادة أهل العلم والإيمان، وتبين له أن القول في بعض [صفات الله] كالقول في سائرهما، وأن القول في صفاته كالقول في ذاته، وأن من أثبت صفة دون صفة مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مع مشاركة أحدهما الأخرى فيما به نفاه، كان متناقضاً .

فمن نفي النزول والاستواء، أو الرضى والغضب، أو العلم والقدرة، أو اسم العلم أو القدير، أو اسم الموجود، فراراً بزعمه من تشبيه وتركيب وتجسيم، فإنه يلزمه فيما أثبتته نظيره ما ألزمه لغيره فيما نفاه هو وأثبت المثبت . فكل ما يستدل به على نفي النزول والاستواء والرضى والغضب، يمكن منازعه أن يستدل بنظيره على نفي الإرادة، والسمع والبصر، والقدرة والعلم . وكل ما يستدل به على نفي القدرة والعلم والسمع والبصر، يمكن منازعه أن يستدل بنظيره على نفي العلم والقدير، والسميع والبصير . وكل ما يستدل به على نفي هذه الأسماء، يمكن منازعه أن يستدل به على نفي الموجود والواجب .

ومن المعلوم بالضرورة أنه لا بد من موجود قديم واجب بنفسه، يمتنع عليه العدم؛ فإن الموجود : إما ممكن ومحدث، وإما واجب وقديم . والممكن المحدث لا يوجد إلا بواجب قديم، فإذا كان ما يستدل به على نفي

الصفات الثابتة يستلزم نفي الموجود الواجب القديم، ونفي ذلك يستلزم نفي الموجود مطلقاً، علم أن من عطل شيئاً من الصفات الثابتة بمثل هذا الدليل كان قوله مستلزماً تعطيل الموجود المشهود .

ومثال ذلك : أنه إذا قال : النزول والاستواء ونحو ذلك من صفات الأجسام، فإنه لا يعقل النزول والاستواء إلا لجسم مركب، والله . سبحانه . منزّه عن هذه اللوازم، فيلزم تنزيهه عن الملزوم . أو قال : هذه حادثة، والحوادث لا تقوم إلا بجسم مركب، وكذلك إذا قال : الرضا والغضب والفرح والمحبة ونحو ذلك هو من صفات الأجسام . فإنه يقال له : وكذلك الإرادة، والسمع، والبصر، والعلم، والقدرة من صفات الأجسام، فإنما كما لا نعقل ما ينزل، ويستوى ويغضب ويرضى إلا جسم، لم نعقل ما يسمع ويبصر ويريد، ويعلم ويقدر إلا جسمًا .

فإذا قيل : سمعه ليس كسمعنا، وبصره ليس كبصرنا، وإرادته ليست كإرادتنا، وكذلك علمه وقدرته .

قيل له : وكذلك رضاه ليس كرضانا، وغضبه ليس كغضبنا، وفرحه ليس كفرحنا، ونزوله واستواؤه ليس كنزولنا واستوائنا .

فإذا قال : لا يعقل في الشاهد غضب إلا غليان دم القلب لطلب الانتقام، ولا يعقل نزول إلا الانتقال، والانتقال يقتضى تفرغ حيز وشغل آخر، فلو كان ينزل، لم يبق فوق العرش رب .

قيل : ولا يعقل في الشاهد إرادة إلا ميل القلب إلى جلب ما يحتاج إليه وينفعه، ويفتقر فيه إلى ما سواه ودفع ما يضره، والله . سبحانه وتعالى . كما أخبر عن نفسه المقدسة في حديثه الإلهي : "يا عبادي، إنكم لن تبلغوا نقعي فتنفعونني، ولن تبلغوا ضري فتضروني" ؛ فهو منزّه عن الإرادة التي لا يعقل في الشاهد إلا هي .

وكذلك السمع لا يعقل في

الشاهد إلا بدخول صوت في الصّماخ [الصّماخ : خرق الأذن، ويطلق على الأذن نفسها] ، وذلك لا يكون إلا في أجوف؛ والله . سبحانه . أحد صمد منزّه عن مثل ذلك، بل وكذلك البصر والكلام لا يعقل في الشاهد إلا في محل أجوف، والله . سبحانه . أحد صمد منزّه عن ذلك . . .

وقال أيضا : " إذا تبين هذا فقول السائل : كيف ينزل ؟ بمنزلة قوله : كيف استوى ؟ وقوله : كيف يسمع ؟ وكيف يبصر ؟ وكيف يعلم ويقدر ؟ وكيف يخلق ويرزق ؟ وقد تقدم الجواب عن مثل هذا السؤال من أئمة الإسلام مثل : مالك بن أنس، وشيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن؛ فإنه قد روى من غير وجه أن سائلاً سأل مالكا عن قوله :

{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه : ٥] : كيف استوى ؟ فأطرق مالك حتى علاه الرُّخْصَاء [أي : العرق] ثم قال : الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا رجل سوء؛ ثم أمر به فأخرج .

ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك، وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة . رضي الله عنها . موقوفاً ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه، وهكذا سائر الأئمة، قولهم يوافق قول مالك : في أنا لا نعلم كيفية استوائه كما لا نعلم كيفية ذاته، ولكن نعلم المعنى الذي دل عليه الخطاب، فنعلم معنى الاستواء، ولا نعلم كيفيته،

وكذلك نعلم معنى النزول، ولا نعلم كيفيته، ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدرة، ولا نعلم كيفية ذلك، ونعلم معنى الرحمة والغضب والرضا والفرح والضحك، ولا نعلم كيفية ذلك .

(وأما سؤال السائل : هل يخلو منه العرش أم لا فقد اطل رحمة الله النفس في الاجابة عن ذلك الى ان قال :) " وقد سئل بعض أئمة نفاة العلو عن النزول، فقال : ينزل أمره . فقال له السائل : فممن ينزل ؟ ما عندك فوق العالم شيء فممن ينزل الأمر ؟ من العدم المحض ! ! فبهت .

وإن كان المعترض من المثبتة للعلو، ويقول : إن الله فوق العرش، لكن لا يقر بنزوله، بل يقول بنزول ملك أو يقول بنزول أمره الذي هو مأمور به، وهو مخلوق من مخلوقاته؛ فيجعل النزول مفعولاً محدثاً يحدثه الله في السماء، كما يقال مثل ذلك في استوائه على العرش، فيقال له : هذا التقسيم يلزمك فإنك إن قلت : إذا نزل يخلو منه العرش، لزم المحذور الأول، وإن قلت : لا يخلو منه العرش، أثبت نزولاً مع عدم خلو العرش منه، وهذا لا يعقل على أصلك .

وإن قال : إنما أثبت ذلك في بعض مخلوقاته، قيل له : أي شيء أثبتته مع عدم فعل اختياري يقوم بنفسه كان غير معقول من هذا الخطاب؛ لا يمكن أن يراد به أصلاً ، مع تحريف الكلم عن مواضعه، فجمعت بين شيئين : بين أن ما أثبتته لا يمكن أن يعقل من خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين أنك حرقت كلام الرسول صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : الذي ينزل ملك . قيل : هذا باطل من وجوه :

منها : أن الملائكة لا تزال تنزل بالليل والنهار إلى الأرض، كما قال تعالى : { يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } [النحل : ٢] ، وقال تعالى : { وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ } [مريم : ٦٤] .

وفي الصحيحين : عن أبي هريرة وأبي سعيد . رضي الله عنهما . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج إليهم الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون: أتيناهم وهم يُصلُّون، وتركناهم وهم يصلون " . وكذلك ثبت في الصحيح : عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن لله ملائكة سياحين فُضِّلَ، يَتَّبِعُونَ مجالس الذكر . فإذا مرُّوا على قوم يذكرون الله . تعالى . ينادون : هَلُمُّوا إِلَى حاجتكم فَيُحَقِّقُونَهُمْ بأجنتهم إلى السماء الدنيا " . قال : " فيسألهم ربهم . وهو أعلم بهم . : ما يقول عبادي ؟ " قال : " فيقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك " .

وفي رواية لمسلم : " إن لله ملائكة سيارة، فضلاً عن كتاب الناس، يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر، قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضاً حتى يملأوا ما بينهم وبين سماء الدنيا، فإذا تفرقوا، عرجوا أو صعدوا إلى السماء " . قال : " فيسألهم الله عز وجل . وهو أعلم بهم . : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عبادك في الأرض، يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك، ويسألونك " . الحديث بطوله .

الوجه الثاني أنه قال فيه : "من يسألني فأعطيه ؟ من يدعوني فأستجيب له ؟ من يستغفري فأغفر له ؟ " . وهذه العبارة لا يجوز أن يقولها ملك عن الله ، بل الذي يقول الملك : ما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا أحب الله العبد نادى جبريل أني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء أن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض " ، وذكر في البغض مثل ذلك . فالملك إذا نادى عن الله لا يتكلم بصيغة المخاطب ، بل يقول : إن الله أمر بكذا أو قال كذا . وهكذا إذا أمر السلطان منادياً ينادي فإنه يقول : يامعشر الناس ، أمر السلطان بكذا ، ونهى عن كذا ، ورسم بكذا ، لا يقول : أمرت بكذا ، ونهيت عن كذا ، بل لو قال ذلك بودر إلى عقوبته .

وهذا تأويل من التأويلات القديمة للجهمية ، فإنهم تأولوا تكليم الله لموسى . عليه السلام . بأنه أمر ملكاً فكلمه ، فقال لهم أهل السنة : لو كلمه ملك لم يقل : { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } [طه : ١٤] ، بل كان يقول كما قال المسيح . عليه السلام : { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } [المائدة : ١١٧] .

فالملائكة رسل الله إلى الأنبياء تقول كما كان جبريل . عليه السلام . يقول للمحمد صلى الله عليه وسلم : { وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ } [مريم : ٦٤] ويقول : إن الله يأمر بكذا ويقول كذا ، لا يمكن أن يقول ملك من الملائكة : { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي } [طه : ١٤] ، ولا يقول : " من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفري فأغفر له ؟ " ، ولا يقول : لا يسأل عن عبادي غيري ، كما رواه النسائي وابن ماجة وغيرهما ، وسندهما صحيح أنه يقول : " لا أسأل عن عبادي غيري " . وهذا . أيضاً . مما يبطل حجة بعض الناس ، فإنه احتج بما رواه النسائي في بعض طرق الحديث أنه يأمر منادياً فينادي ، فإن هذا إن كان ثابتاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن الرب يقول ذلك ، ويأمر منادياً بذلك ، لا أن المنادي يقول : " من يدعوني فأستجيب له ؟ " ، ومن روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المنادي يقول ذلك ، فقد علمنا أنه يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإنه . مع أنه خلاف اللفظ المستفيض المتواتر الذي نقلته الأمة خلقاً عن سلف . فاسد في المعقول ، فعلم أنه من كذب بعض المبتدعين ، كما روى بعضهم [ينزل] بالضم ، وكما قرأ بعضهم : { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } [النساء : ١٦٤] ، ونحو ذلك من تحريفهم اللفظ والمعنى .

وإن تأول ذلك بنزول رحمته أو غير ذلك ، قيل : الرحمة التي تثبتها إما أن تكون عيناً قائمة بنفسها ، وإما أن تكون صفة قائمة في غيرها .

فإن كانت عيناً وقد نزلت إلى السماء الدنيا ، لا يمكن أن تقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ كما لا يمكن الملك أن يقول ذلك .

وإن كانت صفة من الصفات، فهي لا تقوم بنفسها، بل لا بد لها من محل . ثم لا يمكن الصفة أن تقول هذا الكلام ولا محلها . ثم إذا نزلت الرحمة إلى السماء الدنيا ولم تنزل إلينا، فأى منفعة لنا في ذلك ؟

وإن قال : بل الرحمة ما ينزله على قلوب قوام الليل في تلك الساعة، من حلاوة المناجاة والعبادة، وطيب الدعاء والمعرفة، وما يحصل في القلوب من مزيد المعرفة بالله والإيمان به وذكره وتجليه لقلوب أوليائه، فإن هذا أمر معروف يعرفه قوام الليل، قيل له : حصول هذا في القلوب حق، لكن هذا ينزل إلى الأرض إلى قلوب عباده لا ينزل إلى السماء الدنيا، ولا يصعد بعد نزوله، وهذا الذي يوجد في القلوب يبقى بعد طلوع الفجر، لكن هذا النور والبركة والرحمة التي في القلوب، هي من آثار ما وصف به نفسه من نزوله بذاته . سبحانه وتعالى .

كما وصف نفسه بالنزول عَشِيَّةَ عَرَفَةَ في عدة أحاديث صحيحة، وبعضها في صحيح مسلم عن عائشة . رضي الله عنها . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وأنه . عز وجل . ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء ؟ " ، وعن جابر بن عبد الله . رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم عرفة أن الله ينزل إلى سماء الدنيا يباهي بأهل عرفة الملائكة فيقول : انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً ضاحين من كل فج عميق " [والشعث : هو اغبرار الرأس ، والغبر : هو التراب، والغبرة : لونه] . وعن أم سلمة . رضي الله عنها .

قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ينزل إلى السماء الدنيا يباهي بأهل عرفة الملائكة ويقول : انظروا إلى عبادي، أتوني شعثاً غبراً " فوصف أنه يدنو عشية عرفة إلى السماء الدنيا، ويباهي الملائكة بالحجيج فيقول : " انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً ما أراد هؤلاء ؟ " فإنه من المعلوم أن الحجيج عشية عرفة ينزل على قلوبهم من الإيمان والرحمة والنور والبركة ما لا يمكن التعبير عنه، لكن ليس هذا الذي في قلوبهم هو الذي يدنو إلى السماء الدنيا، ويباهي الملائكة بالحجيج .

والجهمية ونحوهم من المعطلة، إنما يشبتون مخلوقاً بلا خالق، وأثراً بلا مؤثر، ومفعولاً بلا فاعل، وهذا معروف من أصولهم، وهذا من فروع أقوال الجهمية .

وأيضاً، فيقال له : وصف نفسه بالنزول كوصفه في القرآن بأنه { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الحديد : ٤] وبأنه استوى إلى السماء وهي دخان، وبأنه نادى موسى وناجاه في البقعة المباركة من الشجرة ، وبالمجيء والإتيان في قوله : { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [الفجر : ٢٢] ، وقال : { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ } [الأنعام : ١٥٨] .

والأحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم في إتيان الرب يوم القيامة كثيرة ، وكذلك إتيانه لأهل الجنة يوم الجمعة، وهذا مما احتج به السلف على من ينكر الحديث، فبينوا له أن القرآن يصدق معنى هذا الحديث ، كما احتج به إسحاق بن راهويه على بعض الجهمية بحضرة الأمير عبد الله بن طاهر . أمير خراسان .

قال أبو عبد الله الرباطي : حضرت يوماً مجلس الأمير عبد الله بن طاهر ذات يوم ، وحضر إسحاق بن راهويه ، فسئل عن حديث النزول : أصحيح هو ؟ فقال : نعم ، فقال له بعض قواد عبد الله : يا أبا يعقوب ، أترعم أن الله ينزل كل ليلة ؟ قال : نعم ، قال : كيف ينزل ؟ قال : أثبته فوق ، حتى أصف لك النزول ، فقال له الرجل : أثبته فوق ، فقال له إسحاق : قال الله تعالى : { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [الفجر : ٢٢] فقال الأمير عبد الله بن طاهر : يا أبا يعقوب ، هذا يوم القيامة ! فقال إسحاق : أعز الله الأمير ، ومن يجيء يوم القيامة ، من يمنعه اليوم ؟ ! .

ثم بعد هذا ، إذا نزل : هل يخلو منه العرش أو لا يخلو ؟ هذه مسألة أخرى تكلم فيها أهل الإثبات . فمنهم من قال : لا يخلو منه العرش ، ونقل ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل في رسالته إلى مُسَدَّد ، وعن إسحاق بن راهويه ، وحماد بن زيد ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، وغيرهم . ومنهم من أنكر ذلك ، وطعن في هذه الرسالة ، وقال : راويها عن أحمد بن حنبل مجهول لا يعرف . والقول الأول معروف عند الأئمة ، كحماد بن زيد ، وإسحاق بن راهويه وغيرهما ، قال الخلال في [كتاب السنة] : حدثنا جعفر بن محمد الفريابي ، ثنا أحمد بن محمد المقدمي ، ثنا سليمان بن حرب ، قال : سأل بشر بن السري حماد بن زيد فقال : يا أبا إسماعيل ، الحديث الذي جاء : " ينزل ربنا إلى سماء الدنيا " يتحول من مكان إلى مكان ؟ فسكت حماد بن زيد ، ثم قال : هو في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء . ورواه ابن بطة في كتاب [الإبانة] فقال : حدثني أبو القاسم حفص بن عمر الأرديلي ، حدثنا أبو حاتم الرازي ، حدثنا سليمان بن حرب ، قال : سأل بشر بن السري حماد بن زيد فقال : يا أبا إسماعيل ، الحديث الذي جاء " ينزل الله إلى سماء الدنيا " أيتحول من مكان إلى مكان ؟ فسكت حماد بن زيد ، ثم قال : هو في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء ، وقال ابن بطة : وحدثنا أبو بكر النجاد ، ثنا أحمد بن علي الأبار [هو أبو العباس أحمد بن علي بن مسلم الأبار ، الحافظ المتقن ، من علماء الأثر ببغداد ، وكان من أزهد الناس ، وتوفي سنة ١٩٢ هـ] ، ثنا علي بن خشرم [هو أبو بكر أحمد بن محمد بن هانئ الإسكافي الأثرم ، أحد الأعلام ومصنف السنن ، له مصنفات في علل الحديث ، وثقة ابن حبان ، وتكلم فيه غيره ، مات سنة ٢٧٣ هـ وقيل غير ذلك] . قال : قال إسحاق بن راهويه : دخلت على عبد الله بن طاهر ، فقال : ما هذه الأحاديث التي تروونها ؟ قلت : أي شيء ، أصلح الله الأمير ؟ قال : تروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا ؟ ! قلت : نعم ، رواها الثقات الذين يروون الأحكام . قال : أينزل ويدع عرشه ؟ قال : فقلت : يقدر أن ينزل من غير أن يخلو العرش منه . قال : نعم . قلت : ولم تتكلم في هذا ؟ ! وقد رواها اللالكائي . أيضاً . بإسناد منقطع ، واللفظ مخالف لهذا . وهذا الإسناد أصح ، وهذه والتي قبلها حكايان صحيحتان رواتهما أئمة ثقات . فحماد بن زيد يقول : هو في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء ، فأثبت قربه إلى خلقه مع كونه فوق عرشه ، وعبد الله بن طاهر . وهو من خيار من ولي الأمر بخراسان . كان يعرف أن الله فوق العرش ، وأشكل عليه أنه ينزل ، لتوهمه أن ذلك يقتضي أن يخلو منه العرش ، فأقره الإمام إسحاق على أنه

فوق العرش، وقال له : يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش ؟ فقال له الأمير : نعم ، فقال له إسحاق : لم تتكلم في هذا ؟ يقول : فإذا كان قادرًا على ذلك لم يلزم من نزوله خلو العرش منه، فلا يجوز أن يعترض على النزول بأنه يلزم منه خلو العرش، وكان هذا أهون من اعتراض من يقول : ليس فوق العرش شيء، فينكر هذا وهذا . ونظيره ما رواه أبو بكر الأثرم في [السنة] قال : حدثنا إبراهيم بن الحارث يعني العبادي . قال : حدثني الليث بن يحيى ، قال : سمعت إبراهيم بن الأشعث يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : إذا قال الجهمي : أنا أكفر برب يزول عن مكانه، فقل : أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء . أراد الفضيل بن عياض . رحمه الله . مخالفة الجهمي الذي يقول : إنه لا تقوم به الأفعال الاختيارية فلا يتصور منه إتيان، ولا مجيء، ولا نزول، ولا استواء، ولا غير ذلك من الأفعال الاختيارية القائمة به . فقال الفضيل : إذا قال لك الجهمي : أنا أكفر برب يزول عن مكانه، فقل : أنا أؤمن برب يفعل ما شاء . فأمره أن يؤمن بالرب الذي يفعل ما يشاء من الأفعال القائمة بذاته التي يشاؤها ، لم يرد من المفعولات المنفصلة عنه .

ومثل ذلك ما يروى عن الأوزاعي وغيره من السلف، أنهم قالوا في حديث النزول : يفعل الله ما يشاء . قال اللالكائي : حدثنا المسير بن عثمان ، حدثنا أحمد بن الحسين، ثنا أحمد بن علي الأبار، قال : سمعت يحيى بن معين يقول : إذا سمعت الجهمي يقول : أنا أكفر برب ينزل ، فقل : أنا أؤمن برب يفعل ما يريد، فإن بعض من يعظمهم وينفي قيام الأفعال الاختيارية به . كالقاضي أبي بكر ، ومن اتبعه، وابن عقيل ، والقاضي عياض ، وغيرهم . يحمل كلامهم على أن مرادهم بقولهم : [يفعل ما يشاء] أن يحدث شيئًا منفصلًا عنه من دون أن يقوم به هو فعل أصلًا . وهذا أوجه أصلان لهم :

أحدهما : أن الفعل عندهم هو المفعول ، والخلق هو المخلوق ، فهم يفسرون أفعاله المتعدية، مثل قوله تعالى : { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [الأعراف : ٥٤] وأمثاله : أن ذلك وجد بقدرته من غير أن يكون منه فعل قام بذاته، بل حاله قبل أن يخلق وبعد ما خلق سواء، لم يتجدد عندهم إلا إضافة ونسبة وهي أمر عديمي ، لا وجودي ، كما يقولون مثل ذلك في كونه يسمع أصوات العباد، ويرى أعمالهم وفي كونه كلم موسى وغيره، وكونه أنزل القرآن، أو نسخ منه ما نسخ، وغير ذلك؛ فإنه لم يتجدد عندهم إلا مجرد نسبة وإضافة بين الخالق والمخلوق ، وهي أمر عديمي ، لا وجودي .

وهكذا يقولون في استوائه على العرش إذا قالوا : إنه فوق العرش، وهذا قول ابن عقيل وغيره، وهو أول قولي القاضي أبي يعلى . ويسمى ابن عقيل هذه النسبة : الأحوال، ولعله يشبهها بالأحوال التي يشتها من يشتهها من النظر، ويقولون : هي لا موجودة ولا معدومة، كما يقول ذلك أبو هاشم ، والقاضيان : أبو بكر، وأبو يعلى ، وأبو المعالي الجويني في أول قوله .

وأكثر الناس خالفوهم في هذا الأصل ، وأثبتوا له . تعالى . فعلاً قائماً بذاته، وخلقاً غير المخلوق . ويسمى التكوين . وهو الذي يقول به قدماء الكلابية ، كما ذكره الثقفى والضبيعي وغيرهما من أصحاب أبي بكر محمد بن خزيمة في

العقيدة؛ التي كتبوها وقرؤوها على أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة؛ لما وقع بينهم النزاع في [مسألة القرآن] . وهو آخر قول القاضي أبي يعلى وجمهور الحنفية والحنبلية وأئمة المالكية والشافعية، وهو الذي ذكره البغوي في [شرح السنة] عن أهل السنة، وذكره البخاري إجماع العلماء، كما بسط ذلك في مواضع أخر .
والأصل الثاني : نفيهم أن تقوم به أمور تتعلق بقدرته ومشيئته، ويسمون ذلك : [حلول الحوادث] فلما كانوا نفاة لهذا ، امتنع عندهم أن يقوم به فعل اختياري ، يحصل بقدرته ومشيئته ، لا لازم ولا متعد ، لا نزول ولا مجيء ، ولا استواء ولا إتيان ، ولا خلق ، ولا إحياء ، ولا إماتة ، ولا غير ذلك . فلهذا فسروا قول السلف بالنزول بأنه يفعل ما يشاء ، على أن مرادهم حصول مخلوق منفصل ، لكن كلام السلف صريح في أنهم لم يريدوا ذلك ، وإنما أرادوا الفعل الاختياري الذي يقوم به .

والفضيل بن عياض . رحمه الله . لم يرد أنه يخلو منه العرش ، بل أراد مخالفة الجهمية؛ فإن قوله : [يفعل ما يشاء] لا يتضمن أنه لا بد أن يكون تحت العرش بل كلامه من جنس كلام أمثاله من السلف ، كالأوزاعي ، وحماد بن زيد ، وغيرهما . ومنهم من أنكر ما روى عن أحمد في رسالته إلى مُسَدَّد ، وقال : راويها عن أحمد مجهول ، لا يعرف في أصحاب أحمد من اسمه أحمد بن محمد البردعي .

وأهل الحديث في هذا على ثلاثة أقوال :

منهم من ينكر أن يقال : يخلو أو لا يخلو ، كما يقول ذلك الحافظ عبد الغني المقدسي وغيره .
ومنهم من يقول : بل يخلو منه العرش ، وقد صنف أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي عبد الله بن محمد بن منده مصنفًا في الإنكار على من قال : لا يخلو منه العرش ، وسماه : [الرد على من زعم أن الله في كل مكان ، وعلى من زعم أن الله ليس له مكان ، وعلى من تأول النزول على غير النزول] .

وذكر أنه سئل عن حديث أخرجه أبو سعيد النقاش في [أقوال أهل السنة] ؛ عن أبي الحسن محمد بن علي المروزي ، عن محمد بن إبراهيم الدينوري ، عن علي بن أحمد بن محمد بن موسى ، عن أحمد بن محمد البردعي التميمي ، قال : لما أشكل على مُسَدَّد بن مسرهد أمر السنة ، وما وقع فيه الناس من [القدر] و [الرفض] و [الاعتزال] و [الإرجاء] ، و [خلق القرآن] كتب إلى أحمد بن حنبل : أن أكتب إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، ثم ذكر فيها : وينزل الله إلى السماء الدنيا ولا يخلو منه العرش . وعن حديث روي عن إسحاق بن راهويه في هذا المعنى .

وزعم عبد الرحمن أن هذا اللفظ لفظ منكر في الحديث عنهما وعن غيرهما ، وحكمه عند أهل الأثر حكم حديث منكر ، وقال : أحمد بن محمد البردعي مجهول ، لا يعرف في أصحاب أحمد من اسمه [أحمد بن محمد] ، فيمن روى عن أحمد بن محمد بن حنبل كأحمد بن محمد بن هاني ، وأبي بكر الأثرم ، وأحمد بن محمد بن

الحجاج [هو أحمد بن محمد بن الحجاج، عالم بالفقه والحديث، وكان أجل أصحاب الإمام أحمد، وروى عنه مسائل كثيرة، ووصف بأنه كثير التصانيف، توفي سنة ٢٧٥هـ]، وأبي بكر المروزي [هو إمام محدث، ورَّحَّال صادق، من الثقات ببلخ، طوف وسمع الكثير، وخرج لنفسه معجمًا، توفي سنة ٣٧٦هـ]، وأحمد بن محمد بن عيسى البراني القاضي، وأحمد بن محمد الصائغ، وأحمد بن محمد بن غالب القاص غلام خليل، وأحمد بن محمد بن مزيد الوراق .

وزاد ابن الجوزي : أحمد بن محمد بن خالد أبا بكر القاضي، وأحمد بن خالد أبا العباس البراني، وأحمد بن محمد بن عبد الله بن صدقة وأحمد بن محمد بن عبد الله ابن صالح الأسدي، وأحمد بن محمد بن عبد الحميد الكوفي، وأحمد بن محمد بن يحيى الكحال، وأحمد بن محمد بن البخاري، وأحمد بن محمد بن بطة، وذكر أحمد ابن الحسن أبا الحسن الترمذي، وأحمد بن سعيد وقيل : أبو الأشعبة الترمذي .

وذكر في المحمدين : محمد بن إسماعيل الترمذي، قال : ولم يعد هذا فيمن روى عن مُسَدَّدٍ أيضًا . قال : وهذا الحديث رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة على لفظ واحد منهم : أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعثمان بن أبي العاص، ومعاذ بن جبل، وأبو أمامة، وعُقْبَةُ بن عامر، وأبو ثعلبة الخُشَنِي، ورفاعة بن عَرَابَةَ الجَهَنِّي، وعبادة بن الصامت، وعمر بن عَبْسَةَ، و أبو هريرة، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري، وجابر بن عبد الله، وَجُبَيْر بن مُطْعَم، وأنس بن مالك، وعائشة، وأم سلمة، وغيرهم . رضي الله عنهم أجمعين . ولم يقل أحد منهم هذا اللفظ ، ولا من رواه من الصحابة والتابعين والأئمة بعدهم .

ثم ساق الأحاديث بألفاظها، وذكر أن أحدًا منهم لم يقل هذا اللفظ . قال : وهو لفظ موافق لرأى من زعم أنه لا يخلو منه مكان، ورأى من زعم أنه ليس له مكان . قال : وتأويل من تأول النزول على غير النزول مخالف لقول من قال : ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة ، ولقوله : فلا يزال كذلك إلى الفجر .

قلت : القائلون بذلك لم يقولوا : إن هذا اللفظ في الحديث ، وليس في الحديث أيضًا أنه لا يخلو منه العرش أو يخلو منه العرش، كما يدعيه المدعون لذلك، فليس في الحديث لا لفظ المشتين لذلك، ولا لفظ النفاة له . وهؤلاء يقولون : إنهم يتأولون النزول على غير النزول ، بل قد يكون من هؤلاء من ينفي نزولًا يقوم به ، ويجعل النزول مخلوقًا منفصلاً عنه، وعامة رد ابن منده المستقيم إنما يتناول هؤلاء ، لكنه زاد زيادات نسب لأجلها إلى البدعة؛ ولهذا كانوا يفضلون أباه أبا عبد الله عليه، وكان إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي وغيره يتكلمون فيه في ذلك، كما هو معروف عنهم .

قال عبد الرحمن : قال أبي في الرد على من تأول النزول على غير النزول، واحتج في إبطال الأخبار الصحاح بأحاديث موضوعة : وادعى المدبر أنه يقول بحديث النزول فحرفه على من حضر مجلسه، وأنكر في خطبته ما أنزل الله في كتابه من حجته، وما بين الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه ينزل بذاته، وتأول النزول على معنى الأمر والنهي، لا حقيقة النزول، وزعم أن أئمتهم العارفين بالأصول ينزهون الله عن التنقلات، فأبطل جميع ما أخرج في هذا الباب إذ كان مذهبه غير ظاهر الحديث، واعتماده على التأويل الباطل والمعقول الفاسد .

وقوله تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : ١١] ، نفي التشبيه من جميع الجهات وكل المعاني ، ولكن البائس المسكين لم يجد الطريق إلى ثلب الأئمة إلا بهذا الطريق الذي هو به أولى ، ثم قصد تعليل حديث النزول بما لا يعد علة ولا خلافاً من قول الراوي [ينزل] و [يقول إذا مضى نصف الليل] وقال بعضهم : [ثلث الليل، ونصف الليل] قال ابن منده : وليس هذا اختلافاً ولكنه جهل، واحتج معها بحديث محمد بن يزيد بن سنان، عن أبيه ، عن زيد بن أبي أنيسة، عن طارق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنه يأمر منادياً ينادي كل ليلة " .

وهذا حديث موضوع موافق لمذهبه . زعم أن يحيى بن سعيد القطان، وابن مهدي والبخاري ومسلماً، أخرجوا في كتبهم مثل هؤلاء الضعفاء المتروكين ترددًا منه وجهلاً، وأعاد حديث أبي هشام الرفاعي عن حفص . رواه محاضر وغير واحد ، قال : [إن الله ينزل كل ليلة] .

وكذلك حديث طارق رواه عن عبيد الله بن عمر، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن طارق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قوله : " إن الله ينزل كل ليلة " .

وأما حديث الحسن، عن عثمان بن أبي العاص، فقد تقدم الكلام عليه فيما ذكرنا، وليس في هذه الأحاديث ولا روايتها ما يصح ، قال : ولو سكت عن معرفة الحديث كان أجمل به وأحسن؛ إذ قد سلب الله معرفته وأرسخ في قلبه تبطيل الأخبار الصحاح، واعتماد معقوله الفاسد .

قلت : فهذا نقل عبد الرحمن لكلام أبيه، وأبوه أعلم منه وأفقه وأسد قولاً . ثم قال أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي عبد الله بن منده هذا ، قال : حدثنا محمد بن محمد بن الحسن، ثنا عبد الله بن محمد الوراق ، ثنا زكريا بن يحيى الساجي، ثم قال عبد الرحمن : حدثني أحمد بن نصر قال : كنت عند سليمان بن حرب فجاء إليه رجل كلامي من أصحاب الكلام فقال له : تقولون : إن الله على عرشه لا يزول، ثم تروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا ؟ فقال : عن حماد بن زيد : إن الله على عرشه، ولكن يقرب من خلقه كيف شاء .

قال عبد الرحمن : ومن زعم أن حماد بن زيد وسليمان بن حرب، أرادا بقولهما : يقرب من خلقه كيف شاء؛ أرادا ألا يزول عن مكانه؛ فقد نسبهما إلى خلاف ما ورد في الكتاب والسنة .

قال : وحدثننا عبد الصمد بن محمد المعاصمي ببلخ، أنبأنا إبراهيم بن أحمد المستملي، قال : أنبأنا عبد الله بن أحمد بن حراش، قال : حدثنا أحمد بن الحسن بن زياد، حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : إذا قال لك الجهمي : أنا لا أومن برب يزول عن مكانه، فقل له : أنا أومن برب يفعل ما يشاء . قال : رواه جماعة عن فضيل بن عياض، قال : ولم يرد به أحد أن الله يفعل ما ذهب إليه الزنادقة، فلا يبقى خلاف بين من يقول : أنا أكفر برب ينزل ويصعد وبين من يقول : أنا أومن برب لا يخلو منه العرش في إبطال ما نطق به الكتاب والسنة . ثم روى بإسناده عن الفضيل بن عياض : إذا قال الجهمي : أنا أكفر برب ينزل ويصعد، فقل : آمنت برب يفعل ما يشاء .

قلت : زكريا بن يحيى الساجي أخذ عنه أبو الحسن الأشعري ما أخذه من أصول أهل السنة والحديث، وكثير مما نقل في كتاب [مقالات الإسلاميين] من مذهب أهل السنة والحديث، وذكر عنهم ما ذكره حماد بن زيد من أنه فوق العرش، وأنه يقرب من خلقه كيف شاء .

ومعنى ذلك عنده وعند من ينفي قيام الأفعال الاختيارية بذاته، أنه يخلق أعراضاً في بعض المخلوقات يسميها نزولاً، كما قال : إنه يخلق في العرش معنى يسميه استواء . وهو عند الأشعري تقريب العرش إلى ذاته من غير أن يقوم

به فعل ، بل يجعل أفعاله اللازمة كالنزول والاستواء كأفعاله المتعدية كالخلق والإحسان ، وكل ذلك عنده هو المفعول المنفصل عنه

والأشعري وأئمة أصحابه كالقاضي أبي بكر وغيره يقولون : إن الله فوق العرش بذاته، ولكن يقولون في النزول ونحوه من الأفعال هذا القول بناء على أصلهم في نفي قيام الحوادث به ، والسلف الذين قالوا : يفعل ما يشاء، وينزل كيف شاء وكما شاء ، والفضيل بن عياض الذي قال : إذا قال لك الجهمي : أنا أكفر برب يزول عن مكانه، فقل : أنا أومن برب يفعل ما يشاء . مرادهم نقيض هذا القول . ورد أبي عبد الله بن منده متناول لهؤلاء ، وعلى هذا فلا يبقى خلاف بين من يقول : ينزل ويصعد ، وبين من ينفي ذلك ، وذلك لأن الأفعال المنفصلة لم ينازع فيها أحد من المسلمين، فعلم أن مراد هؤلاء إثبات الفعل الاختياري القائم به؛ ولكنهم مع هذا ليس في كلامهم أنهم كانوا يعتقدون خلو العرش منه، وأنه لا يبقى فوق العرش؛ كما ذكره عبد الرحمن وزعم أنه معنى الحديث .

وروى بإسناده من [كتاب السنة] لعبد الله بن أحمد بن حنبل قال : أخبرنا محمد بن محمد بن الحسن، حدثني أبي، ثنا أحمد بن محمد بن عمر اللبباني، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ثنا أبي ، ثنا موسى بن داود أبو معمر، ثنا عباد بن العوام، قال : قدم علينا شريك فسأله عن الحديث [إن الله ينزل ليلة النصف من شعبان] . قلنا : إن قومًا ينكرون هذه الأحاديث ! ! قال : فما يقولون ؟ قلنا : يطعنون فيها ، فقال : إن الذين جاءوا بهذه الأحاديث هم الذين جاءوا بالقرآن وبالصلاة وبالحج وبالصوم، فما يعرف الله إلا بهذه الأحاديث .

قال : وأما حديث إسحاق بن راهويه ، فرواه إسماعيل الترمذي وذكر عن ابن أبي حاتم أنهم تكلموا فيه . قال :
والحديث حدث به أحمد بن موسى بن بُرَيْدَة ، عن أحمد ابن عبد الله بن محمد بن بشير ، عن الترمذي : سمعت
إسحاق بن راهويه يقول : اجتمعت الجهمية إلى عبد الله بن طاهر يوماً فقالوا له : أيها الأمير ، إنك تقدم إسحاق
وتكرمه وتعظمه ، وهو كافر يزعم أن الله . عز وجل . ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة ويخلو منه العرش . قال :

فغضب عبد الله وبعث إلى ، فدخلت عليه وسلمت ، فلم يرد على السلام غضباً ولم يستجلسني ، ثم رفع
رأسه وقال لي : ويلك يا إسحاق ، ما يقول هؤلاء ؟ قال : قلت : لا أدري ، قال : تزعم أن الله . سبحانه وتعالى .
ينزل إلى السماء الدنيا في كل ليلة ويخلو منه العرش ؟ فقلت : أيها الأمير ، لست أنا قلته ، قاله النبي صلى الله
عليه وسلم : ثنا أبو بكر بن عياش ، عن إسحاق ، عن الأغر بن مسلم أنه قال : أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد
أنهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ينزل الله إلى سماء الدنيا في كل ليلة فيقول : من
يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له " ولكن مرهم يناظروني . قال فلما ذكرت له
النبي صلى الله عليه وسلم ، سكن غضبه ، وقال لي اجلس ، فجلست . فقلت : مرهم أيها الأمير يناظروني . قال :
ناظروه ، قال : فقلت لهم : يستطيع أن ينزل ولا يخلو منه العرش أم لا يستطيع ؟ قال : فسكتوا وأطرقوا رؤوسهم
فقلت : أيها الأمير ، مرهم يجيبوا ، فسكتوا . فقال : ويحك يا إسحاق ، ماذا سألتهم ؟ قال : قلت : أيها الأمير
! قل لهم يستطيع أن ينزل ولا يخلو منه العرش أم لا ؟ قال : فأبش هذا ؟ قلت : إن زعموا أنه لا يستطيع أن ينزل
إلا أن يخلو منه العرش ، فقد زعموا أن الله عاجز مثلي ومثلهم ، وقد كفروا . وإن زعموا أنه يستطيع أن ينزل ولا
يخلو منه العرش ، فهو ينزل إلى السماء الدنيا كيف يشاء ، ولا يخلو منه المكان .

قال عبد الرحمن : والصحيح مما جرى بين إسحاق وعبد الله بن طاهر ما أخبرنا أبي : ثنا أبو عثمان عمرو بن
عبد الله البصري ، ثنا محمد بن حاتم ، سمعت إسحاق بن إبراهيم بن مَخْلَد يقول : قال لي عبد الله بن طاهر : يا
أبا يعقوب ، هذه الأحاديث التي تروونها في النزول . يعني وغير ذلك . ما هي ؟ قلت : أيها الأمير ، هذه أحاديث
جاءت مجيء الأحكام والحلال والحرام ، ونقلها العلماء ، فلا يجوز أن ترد ، هي كما جاءت بلا كيف ، فقال عبد
الله : صدقت ، ما كنت أعرف وجوها إلى الآن .

قال الشيخ أبو عثمان النيسابوري الصابوني ، الملقب بشيخ الإسلام ، في رسالته في السنة قال : ويعتقد أهل
الحديث ويشهدون أن الله . سبحانه وتعالى . فوق سبع سمواته على عرشه ، كما نطق به كتابه في قوله : { إِنَّ رَبَّكُمُ
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الأعراف : ٥٤] وذكر عدة آيات من
ذلك ؛ فإن هذا ذكره الله في سبعة مواضع من القرآن ، قال : وأهل الحديث يثبتون في ذلك ما أثبتته الله . تعالى ،
ويؤمنون به ويصدقون الرب . جل جلاله . في خبره ، ويطلقون ما أطلقه الله . سبحانه من استوائه على عرشه ويمرون
ذلك على ظاهره ، ويكلمون علمه إلى الله . تعالى . و { يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ }
[آل عمران : ٧] .

وروى بإسناده من طريقين أن مالك بن أنس سئل عن قوله : { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [طه : ٥] كيف استوى ؟ فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا ضالاً ، وأمر أن يخرج من المجلس . وروى بإسناده الثابت عن عبد الله بن المبارك أنه قال : نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته بائن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية : بأنه هاهنا ، وأشار بيده إلى الأرض .

وقال : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ . يعني الحاكم . في كتاب [التاريخ] الذي جمعه لأهل نيسابور ، وفي كتاب [معرفة أصول الحديث] اللذين جمعتهما ولم يسبق إلى مثلهما ، قال : سمعت أبا جعفر محمد بن صالح بن هاني ، سمعت الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول : من لم يقر بأن الله على عرشه قد استوى فوق سبع سمواته ، فهو كافر به ، حلال الدم يستتاب ، فإن تاب ، وإلا ضربت عنقه ، وألقى على بعض المزابل .

قال الشيخ أبو عثمان : ويثبت

أصحاب الحديث نزول الرب كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف ، بل يشبتون ما أثبتته رسول صلى الله عليه وسلم ، ويتشبهون فيه إليه ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ، ويكلون علمه إلى الله . سبحانه وتعالى . وكذلك يشبتون ما أنزل الله في كتابه من ذكر المجيء والإتيان المذكورين في قوله تعالى : { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ } [البقرة : ٢١٠] ، وقوله عز وجل : { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [الفجر : ٢٢] .

وقال : أخبرنا أبو بكر بن زكريا ، سمعت أبا حامد الشرقي ، سمعت حمدان السلمى وأبا داود الخفاف ، قالا : سمعنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ، يقول : قال لي الأمير عبد الله بن طاهر : يا أبا يعقوب ، هذا الحديث الذي ترويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا " كيف ينزل ؟ قال : قلت : أعز الله الأمير ، لا يقال لأمر الرب : كيف ! إنما ينزل بلا كيف .

قال : وسمعت أبا عبد الله الحافظ يقول : سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد العنبري ، سمعت إبراهيم بن أبي طالب ، سمعت أحمد بن سعيد بن إبراهيم أبا عبد الله الرباطي يقول : حضرت مجلس الأمير عبد الله بن طاهر ذات يوم ، وحضر إسحاق بن إبراهيم . رحمه الله . فسئل عن حديث النزول أصحح هو ؟ قال : نعم ، فقال له بعض قواد عبد الله : يا أبا يعقوب ، أتزعم أن الله ينزل كل ليلة ؟ ! قال : نعم ، قال : كيف ينزل ؟ فقال إسحاق : أثبتته فوق . فقال : أثبتته فوق . فقال إسحاق : قال الله عز وجل : { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [الفجر : ٢٢] ، فقال الأمير عبد الله : هذا يوم القيامة ، فقال إسحاق : أعز الله الأمير ، من يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم ؟ ! .

وقال أبو عثمان : قرأت في رسالة أبي بكر الإسماعيلي إلى أهل جيلان أن الله ينزل إلى السماء الدنيا ، على ما صح به الخبر عن النبي صلى الله

عليه وسلم، وقد قال الله عز وجل : { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ } [البقرة : ٢١٠] وقال : { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [الفجر : ٢٢] ، نؤمن بذلك كله على ما جاء بلا كيف، فلو شاء . سبحانه . أن يبين كيف ذلك فعل؛ فانتبهينا إلى ما أحكمه ، وكففتنا عن الذي يتشابه ، إذ كنا قد أمرنا به في قوله : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [آل عمران : ٧] . وروى عبد الرحمن بن منده بإسناده عن حرب بن إسماعيل ، قال : سألت إسحاق ابن إبراهيم ، قلت : حديث النبي صلى الله عليه وسلم (ينزل الله إلى السماء الدنيا) قال : نعم ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا كما شاء وكيف شاء، وقال : عن حرب : لا يجوز الخوض في أمر الله . تعالى . كما يجوز الخوض في فعل المخلوقين؛ لقول الله تعالى : { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء : ٢٣] . وروى . أيضاً . عن حرب قال : هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الحديث والأثر وأهل السنة المعروفين بها، وهو مذهب أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، والحميدي وغيرهم . كان قولهم : إن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء وكما شاء ، { فَاطْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى : ١١] . وروي . أيضاً . عن حرب : قال : قال إسحاق بن إبراهيم : لا يجوز لأحد أن يتوهم على الخالق بصفاته وأفعاله توهم ما يجوز التفكير والنظر في أمر المخلوقين؛ وذلك أنه يمكن أن يكون موصوفاً بالنزول كل ليلة إذا مضى ثلثاها إلى السماء الدنيا كما شاء، ولا يسأل كيف نزوله؛ لأنه الخالق يصنع كيف شاء .

وروى عن ابن المبارك قال : من قال لك : يا مشبه ، فاعلم أنه جهمي . وقال عبد الرحمن بن منده : إياك أن تكون فيمن يقول : أنا أومن برب يفعل ما يشاء، ثم تنفي ما في الكتاب والسنة مما شاء الله وأوجب على خلقه الإيمان به : أفاعيله كل ليلة أن ينزل بذاته من العرش إلى السماء الدنيا، والزنادقة ينكرونه بزعمهم أن الله لا يخلو منه مكان .

.. وفي الجملة، فالقائلون بأنه يخلو منه العرش طائفة قليلة من أهل الحديث . وجمهورهم على أنه لا يخلو منه العرش، وهو المأثور عن الأئمة المعروفين بالسنة، ولم ينقل عن أحد منهم بإسناد صحيح ولا ضعيف أن العرش يخلو منه...

وأيضاً، وقع النزاع بين أصحابه : هل اختلف اجتهاده في تأويل المجيء والإتيان، والنزول ونحو ذلك ؟ لأن حنبلاً نقل عنه في [المحنة] أنهم لما احتجوا عليه بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " تجيء البقرة، وآل عمران، كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف "

ونحو ذلك من الحديث الذي فيه إتيان القرآن ومجيئه . وقالوا له : لا يوصف بالإنسان والمحيي إلا مخلوق؛ فعارضهم أحمد بقوله : وأحمد وغيره من أئمة السنة . فسروا هذا الحديث بأن المراد به مجيء ثواب البقرة وآل عمران، كما ذكر مثل ذلك من مجيء الأعمال في القبر وفي القيامة ، والمراد منه ثواب الأعمال .

والنبي صلى الله عليه وسلم قال : " اقرءوا البقرة وآل عمران ، فإنهما يجيئان يوم القيامة كأنهما غَيَّائَتَانِ ، أو غَمَامَتَانِ ، أو فِرْقَانِ من طير صَوَافٍ ، يحاجان عن أصحابهما " وهذا الحديث في الصحيح : فلما أمر بقراءتهما وذكر مجيئهما يحاجان عن القارئ، علم أنه أراد بذلك قراءة القارئ لهما وهو عمله، وأخبر بمجيء عمله الذي هو التلاوة لهما في الصورة التي ذكرها، كما أخبر بمجيء غير ذلك من الأعمال .

وهذا فيه كلام مبسوط في غير هذا الموضع : هل يقلب الله العمل جوهراً قائماً بنفسه أم الأعراض لا تنقلب جواهر ؟ وكذلك قوله : "يؤتى بالموت في صورة كبشٍ أَمْلَحٍ " [أي بياضه أكثر من سواده] . والمقصود هنا : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبر بمجيء القرآن في هذه الصورة أراد به الإخبار عن قراءة القارئ التي هي عمله ، وذلك هو ثواب قارئ القرآن ، ليس المراد به أن نفس كلامه الذي تكلم به ، وهو قائم بنفسه يتصور صورة غمامتين . فلم يكن في هذا حجة للجهمية على ما ادعوه .

وأما لفظ الحركة وهل يوصف الله تعالى به فقال : " والمقصود هنا أن الناس متنازعون في جنس [الحركة العامة] التي تتناول ما يقوم بذات الموصوف من الأمور الاختيارية كالغضب والرضا والفرح، وكذلك القرب والاستواء والنزول، بل والأفعال المتعدية كالخلق والإحسان وغير ذلك على ثلاثة أقوال : أحدها : قول من ينفي ذلك مطلقاً وبكل معنى، فلا يجوز أن يقوم بالرب شيء من الأمور الاختيارية . فلا يرضى على أحد بعد أن لم يكن راضياً عنه، ولا يغضب عليه بعد أن لم يكن غضبان، ولا يفرح بالتوبة بعد التوبة، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته إذا قيل : إن ذلك قائم بذاته .

وهذا القول أول من عرف به هم [الجهمية] و [المعتزلة] وانتقل عنهم إلى الكلابية والأشعرية والسالمية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة، كأبي الحسن التميمي، وابنه أبي الفضل، وابن ابنه رزق الله، والقاضي أبي يعلى، وابن عقيل وأبي الحسن بن الزاغوني، وأبي الفرج بن الجوزي؛ وغير هؤلاء من أصحاب أحمد . وإن كان الواحد من هؤلاء قد يتناقض كلامه . وكأبي المعالي الجويني وأمثاله من أصحاب الشافعي، وكأبي الوليد الباجي وطائفة من أصحاب مالك، وكأبي الحسن الكرخي وطائفة من أصحاب أبي حنيفة .

والقول الثاني : إثبات ذلك، وهو قول الهشامية والكرامية وغيرهم من طوائف أهل الكلام، الذين صرحوا بلفظ الحركة .

وأما الذين أثبتوها بالمعنى العام حتى يدخل في ذلك قيام الأمور والأفعال الاختيارية بذاته، فهذا قول طوائف غير هؤلاء، كأبي الحسين البصري، وهو اختيار أبي عبد الله بن الخطيب الرازي، وغيره من النظار، وذكر طائفة : أن هذا القول لازم لجميع الطوائف .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي إثبات لفظ الحركة في كتاب نقضه على بشر المريسي، ونصره على أنه قول أهل السنة والحديث، وذكره حرب بن إسماعيل الكرماني، لما ذكر مذهب أهل السنة والأثر عن أهل السنة والحديث قاطبة، وذكر ممن لقي منهم على ذلك : أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور . وهو قول أبي عبد الله بن حامد وغيره .

وكثير من أهل الحديث والسنة يقول : المعنى صحيح، لكن لا يطلق هذا اللفظ لعدم مجيء الأثر به، كما ذكر ذلك أبو عمر بن عبد البر وغيره في كلامهم على حديث النزول . والقول المشهور عن السلف عند أهل السنة والحديث : هو الإقرار بما ورد به الكتاب والسنة من أنه يأتي وينزل، وغير ذلك من الأفعال اللازمة .

قال أبو عمرو الطلمنكي : أجمعوا . يعني أهل السنة والجماعة . على أن الله يأتي يوم القيامة والملائكة صفًا صفًا لحساب الأمم وعرضها كما يشاء وكيف يشاء، قال تعالى : { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ } [البقرة : ٢١٠] . وقال تعالى : { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [الفجر : ٢٢] . قال : وأجمعوا على أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا على ما أتت به الآثار كيف شاء، لا يحدون في ذلك شيئًا، ثم روى بإسناده عن محمد بن وضاح قال : وسألت يحيى بن معين عن النزول فقال : نعم، أقر به، ولا أحد فيه حدًا .

والقول الثالث : الإمساك عن النفي والإثبات، وهو اختيار كثير من أهل الحديث والفقهاء والصوفية، كابن بطه وغيره . وهؤلاء فيهم من يعرض بقلبه عن تقدير أحد الأمرين، ومنهم من يميل بقلبه إلى أحدهما، ولكن لا يتكلم لا بنفي ولا بإثبات . والذي يجب القطع به أن الله ليس كمثله شيء في جميع ما يصف به نفسه . فمن وصفه بمثل صفات المخلوقين في شيء من الأشياء فهو مخطئ قطعًا، كمن قال : إنه ينزل فيتحرك وينتقل، كما ينزل الإنسان من السطح إلى أسفل الدار، كقول من يقول : إنه يخلو منه العرش، فيكون نزوله تفريغًا لمكان وشغلا لآخر، فهذا باطل يجب تنزيه الرب، عنه كما تقدم .

وهذا هو الذي تقوم على نفيه وتنزيه الرب عنه الأدلة الشرعية والعقلية؛ فإن الله . سبحانه وتعالى . أخبر أنه الأعلى، وقال : { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } [الأعلى : ١] . فإن كان لفظ العلو لا يقتضي علو ذاته فوق العرش، لم يلزم أن يكون على العرش .

وحينئذ، فلفظ النزول . ونحوه . يتأول قطعًا، إذ ليس هناك شيء يتصور منه النزول . وإن كان لفظ العلو يقتضي علو ذاته فوق العرش، فهو . سبحانه . الأعلى من كل شيء، كما أنه أكبر من كل شيء . فلو صار تحت شيء من العالم لكان بعض مخلوقاته أعلى منه، ولم يكن هو الأعلى، وهذا خلاف ما وصف به نفسه .

وأيضاً، فقد أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، فإن لم يكن استواؤه على العرش يتضمن أنه فوق العرش، لم يكن الاستواء معلوماً، وجاز حينئذ ألا يكون فوق العرش شيء؛ فيلزم تأويل النزول وغيره .

وإن كان يتضمن أنه فوق العرش فيلزم استواؤه على العرش، وقد أخبر أنه استوى عليه لما خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأخبر بذلك عند إنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بألوف من السنين، ودل كلامه على أنه عند نزول القرآن مستو على عرشه، فإنه قال : { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الحديد : ٤] .

وفي حديث الأوعال [جمع الوغل، وهو تيس الجبل] . الذي رواه أهل السنن كأبي داود والترمذي وغيرهما . : لما مرت سحابة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أتدرون ما هذا ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : " السحاب " ، قالوا : السحاب، قال : " والمزن " ، قالوا : وذكر السموات وعددها، وكم بين كل سمانين، ثم قال : " والله فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه " .

وكذلك في حديث جُبَيْر بن مُطْعَم . الذي رواه أبو داود وغيره عن جبير بن مطعم . قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي، فقال : يا رسول الله، جهدت الأنفس، وجاع العيال، وهلك الأموال، وهلك الأنعام، فاستسق الله لنا، فإننا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ويحك ! تدري ما تقول ؟ ! " وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال : " ويحك ! أتدري ما الله ؟ إن الله على عرشه، وعرشه على سمواته مثل القبة " وأشار بيده . وهذا إخبار عن أنه . سبحانه . فوق العرش في تلك الحال، كما دل عليه القرآن، كما أخبر أنه استوى على العرش، وأنه معنا أينما كنا، وكونه معنا أمر خاص؛ فكذا كونه مستوياً على العرش .

وكذلك سائر النصوص تبين وصفه بالعلو على عرشه في هذا الزمان، فعلم أن الرب . سبحانه . لم يزل عالياً على عرشه . فلو كان في نصف الزمان أو كله تحت العرش أو تحت بعض المخلوقات، لكان هذا مناقضاً لذلك . وأيضاً، فقد ثبت في الحديث الصحيح . الذي رواه مسلم وغيره . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء " ، وهذا نص في أن الله ليس فوقه شيء، وكونه الظاهر صفة لازمة له مثل كونه الأول والآخر، وكذلك الباطن، فلا يزال ظاهراً ليس فوقه شيء، ولا يزال باطناً ليس دونه شيء .

وأيضاً، فحديث أبي ذر وأبي هريرة وقتادة، المذكور في تفسير هذه [الأسماء الأربعة] الذي فيه ذكر الأدلاء، قد ذكرناه في [مسألة الإحاطة] ، وهو مما يبين أن الله لا يزال عالياً على المخلوقات مع ظهوره وبطونه وفي حال نزوله إلى السماء الدنيا .

لأنه سبحانه ليس يُرى		وليس شئٌ مثله من الورى
لكن غداً في بعثنا يراه		المثّقون جلّ في علاه
رؤيته حقّ لا نظام فيها		طوبى لعينٍ اذ ترى باريها ^(١)

وأيضاً، فقد قال تعالى : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الزمر : ٦٧] . فمن هذه عظمتها يمتنع أن يحصره شيء من مخلوقاته، وعن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية أحاديث صحيحة اتفق أهل العلم بالحديث على صحتها، وتلقاها بالقبول والتصديق ."

^١ - دل الكتاب والسنة على أن المؤمنين يرون ربهم سبحانه وتعالى في الجنة، وعلى ذلك أجمع الصحابة والتابعون ومن بعدهم من أهل الهدى.

قال الله تعالى: { وجوه يومئذ ناضرة* إلى ربها ناظرة } [القيامة ٢٢-٢٣] وقال سبحانه: { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون } [المطففين: ١٥] .

قال الشافعي: لما حجب هؤلاء في السخط دل على أن أوليائه يرونه في الرضى.

وقال عز وجل: { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة } فالحسنى: هي الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ وتنجنا من النار؟. قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل" ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة }.

وفي الصحيحين من حديث جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوساً مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال " إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته"

وفي الصحيحين أيضاً من حديث أبي هريرة أن ناساً قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل تضامون في رؤية القمر ليلة البدر" ؟ قالوا: لا يا رسول الله قال "هل تضامون في رؤية الشمس ليس دونها سحب؟" قالوا: لا يا رسول الله. قال: "فإنكم ترونه كذلك" الحديث أي ترونه رؤية صحيحة لا مضارة فيها.

عَنْ صُهِيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ : ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ قَالَ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ وَهِيَ الزِّيَادَةُ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ رواه مسلم.

وفي الصحيحين عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((جَنَّتَانِ مِنْ فَضَّةٍ آتِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ.

وفي حديث الشفاعة : ((فيأتوني، فأستأذن على ربي، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يُقال لي: ارفع رأسك: سَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشْفَعْ)) رواه البخاري واللفظ له، ومسلم ولقوله صلى الله عليه وسلم في معرض التحذير من الدجال : ((تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ)) رواه مسلم ، وبمفهوم المخالفة إذا الرؤية ممكنة بعد الموت؛ أي: يوم القيامة.

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة التي رواها بضعة وعشرون صحابياً وهي أحاديث متواترة كما بين ذلك أهل العلم.

وأما رؤية الله تعالى في الدنيا فإنها جائزة عقلاً، لكنها غير واقعة شرعاً، لقول النبي صلى الله عليه وسلم محذراً من الدجال: " تعلمون أنه لن يرى أحدكم ربه حتى يموت، وإنه مكتوب بين عينه ك ف ر يقرؤه من كره عمله" رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وعَنْ عائشة رضي الله عنها النكير على مَنْ قَالَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعِينَهُ حَتَّى قَالَتْ : ((مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ)) متفق عليه.

وليس في هذا خلاف بين أهل السنة إلا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة المعراج، والصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى نوراً وهو الحجاب. كما روى مسلم في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قد سألته - أي عن رؤيته لربه - فقال: " رأيت نوراً."

وفي مسلم أيضاً من حديث أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال: " نور أنى أراه " أي كيف أراه!

وقد دل على أن النور هو الحجاب قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم: " عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ : ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي

لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِنَاطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، (وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ)، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)).
وسبحات وجهه، أي: نوره وجلاله وبهاؤه.

وما ورد عن عائشة رضي الله عنها لَمَّا سَأَلَهَا مَسْرُوقٌ، فَقَالَ: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ؟ قَالَتْ: ((سُبْحَانَ اللَّهِ لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي لَمَّا قُلْتُ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكُنَّ، فَقَدْ كَذَبَ، مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ)) متفق عليه.

♦ قال النووي رحمه الله في شرحه على مسلم: اعلم أن مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا أيضاً على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين، وزعمت طائفة من أهل البدع المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً، وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ومن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين، ورواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآيات القرآن فيها مشهورة، واعتراضات المبتدعة عليها لها أجوبة مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة... وأما رؤية الله تعالى في الدنيا فقد قدمنا أنها ممكنة، ولكن الجمهور من السلف والخلف من المتكلمين وغيرهم أنها لا تقع في الدنيا...) انتهى كلام النووي رحمه الله تعالى.

ورؤية الله تعالى تنازع فيها ثلاث طوائف

الطائفة الأولى: من نفى الرؤية بإطلاق، فلم يُثبتها في الدنيا، ولا في الآخرة على حد سواء.

♦ قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: " وإنما يكذب بها أو يُحرفها - أي: أحاديث الرؤية في الآخرة - الجهمية، ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم، من الذين يكذبون بصفات الله تعالى وبرؤيته، وغير ذلك، وهم المعطلة".

الطائفة الثانية: من يثبت الرؤية بإطلاق، فيزعم أن الله يرى في الدنيا عياناً، كما يرى في الآخرة عياناً، وهذا يقول به بعض المتصوفة من الاتحادية والحلولية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى: " من قال من الناس: إن الأولياء أو غيرهم يرون الله بعينه في الدنيا فهو مبتدع ضال، مخالف للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة، لا سيما إذا ادَّعوا أنهم أفضل من موسى، فإن هؤلاء يستتابون، فإن تابوا وإلا قُتلوا

الطائفة الثالثة: من نفى الرؤية العيانية في الدنيا، وأثبتها في الآخرة وذلك في عرصات يوم القيامة، وفي الجنة، وهذا قول أهل السنة والجماعة.

ونقل الإجماع على ذلك:

♦ قال الإمام عبدالغني المقدسي رحمه الله: (وأجمع أهل الحق واتفق أهل التوحيد والصدق - أن الله تعالى يرى في الآخرة كما جاء في كتابه وصح عن رسوله. (عقيدة الحافظ عبدالغني المقدسي).

♦ وقال الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في شرح الطحاوية: (وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة".

♦ وقال الإمام النووي رحمه الله في شرحه على مسلم: "قد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، فمن بعدهم من سلف الأمة - على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين".

وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] - ينفي الإدراك والإحاطة وليس الرؤية:

♦ قال أبو بكر الآجري رحمه الله في كتاب الشريعة: "إن قال قائل: فما تأويل قوله عز وجل: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ

قيل له: معناها عند أهل العلم: أي: لا تحيط به الأبصار، ولا تحويه عز وجل، وهم يرونه من غير إدراك ولا

يشككون في رؤيته؛ كما يقول الرجل: "رأيت السماء"، وهو صادق، ولم يحط بصره بكل السماء، ولم يدركها".

♦ وقال ابن حبان رحمه الله في صحيحه: (يُرى في القيامة ولا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ إذا رآته؛ لأن الإدراك هو الإحاطة والرؤية هي النظر، والله يُرى ولا يُدْرِكُ كُنْهه".

♦ وقال أبو محمد البغوي رحمه الله في معالم التنزيل: "اعلم أن الإدراك غير الرؤية؛ لأن الإدراك هو الوقوف

على كُنْه الشيء والإحاطة به، والرؤية: المعاينة، وقد تكون الرؤية بلا إدراك؛ قال الله تعالى في قصة موسى:

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١،

٦٢]، وقال: ﴿لَا تَخَافْ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، فنفي الإدراك مع إثبات الرؤية، فالله عز وجل يجوز أن يُرى من غير إدراك وإحاطة كما يُعرف في الدنيا ولا يحاط به".

ورؤية الله جل وعلا هي أعظم نعيم لأهل الجنة:

♦ يقول ابن القيم رحمه الله في الداء والدواء: "فأعظم نعيم الآخرة ولداتها، هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلامه منه، والقرب منه؛ كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية".

وقد روى مسلم عن صهيب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم، فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾. وقال أيضاً رحمه الله (الداء والدواء): "فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألذ ما في الآخرة رؤيته ومشاهدته".

وعن حكمة تأخير رؤية الله إلى الآخرة يقول الشيخ عبدالمحسن العباد حفظه الله في شرحه لسنن أبي داود:

"الرؤية هي النعمة العظيمة، والفائدة الكبيرة، ولم يجعلها الله لأحد في الدنيا حتى تبقى غيباً، وحتى يستعد كل

مسلم للظفر بها والحصول عليها، كما أن أمور الآخرة قد أخفاها الله عز وجل عن الناس، ولم يُطلعهم عليها، ولا

على ما في الجنة من النعيم، ولما صلى النبي صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الكسوف، عُرِضَتْ عليه الجنة وهو يصلي بالناس، ورأى عناقيد العنب متدلّية، فمدّ يده ليتناول قطعاً منها، وكان الصحابة وراءه يصلّون، فرأوا يده الكريمة تمتد، ولم يروا الذي مُدَّت إليه، ثم إنه عُرِضَتْ عليه النار، فرجع القَهْقَرى ولم يَعْرِفُوا لماذا فعل ذلك؟! ولما فَرَّغَ سألوه عن ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: ((مَدَدْتُ يدي لآخذ عنقوداً من العنب، ثم تركته، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا))، فقد شاء الله عز وجل أن تكون أمور الآخرة غيباً، وألا تكون علانية؛ لأنها لو كانت علانية لم يتميز مَنْ يؤمن بالغيب مَنَّ لا يؤمن بالغيب".

رؤية الله جل وعلا في الدنيا وإن كانت جائزة عقلاً لكنها غير واقعة شرعاً:

♦ قال ابو العز الحنفي في شرح الطحاوية: "وهذا القول الذي قاله القاضي عياض رحمه الله هو الحق، فإن الرؤية في الدنيا ممكنة؛ إذ لو لم تكن ممكنة لما سألها موسى عليه السلام".

♦ وقال النووي رحمه الله في شرحه لمسلم مبيّناً هذا المعنى: "أما رؤية الله في الدنيا، فقد قدمنا أنها ممكنة، ولكن الجمهور من السلف والخلف من المتكلمين وغيرهم أنها لا تقع في الدنيا".

♦ وقال شيخ الإسلام في منهاج السنة: "وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤيا، فهذه الشمس إذا حُذِقَ الرائي البصر في شعاعها، ضُغِفَ عن رؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي، بل لعجز الرائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقهم رؤيته، ولهذا لما تجلّى الله للجبل خرّ موسى صعقاً؛ قال: سبحانك تبتُّ إليك، وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته إلا من أیده الله كما أيّد نبينا صلى الله عليه وسلم".

وقد اختلف في إثبات رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه جل وعلا على ثلاثة أقوال
القول الأول: من أثبت الرؤية مطلقاً:

واستدلوا بقول ابن عباس رضي الله عنهما: "أتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم والكلام لموسى، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم". أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٩٢)، وقال الألباني: إسناده صحيح على شرط البخاري.

وعنه أيضاً في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى *عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ١٣، ١٤]، قال: (رأى ربه فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى" أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (٥٤) (٥/ ٣٩٥)، ح (٣٢٨٠)، وقال: حديث حسن، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٩١) وقال الألباني: "إسناده حسن موقوف".

القول الثاني: من قيدها بالرؤية القلبية:

واستدلوا بقول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، قال: "إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه" رواه مسلم.

وعنه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم "رأى ربه بفؤاده مرتين" رواه مسلم.

القول الثالث: من نفى الرؤية مطلقاً:

واستدلوا بقول عائشة رضي الله عنها عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة رضي الله عنها، فقالت: (ثلاث من تكلم بواحدة منهن، فقد أعظم على الله الفرية، من زعم أن محمداً رأى ربه، فقد أعظم الفرية على الله، قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين، أنظريني ولا تعجليني: ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، فقالت: (أنا أول هذه الأمة، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المراتين، رأيته منهبطاً من السماء، ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض، فقالت: ألم تسمع أن الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]. رواه مسلم.

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه عن زر بن عبد الله بن حبیش، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، قال: (رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته، له ستمائة جناح " رواه البخاري ومسلم.

وعلق شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا بقوله: "ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه".

وقال أيضاً رحمه الله: (وأما الرؤية، فالذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: "رأى محمد ربه بفؤاده مرتين"، وعائشة أنكرت الرؤية، فمن الناس من جمع بينهما، فقال: عائشة أنكرت رؤية العين، وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد، والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة، أو مقيدة بالفؤاد، تارة يقول: "رأى محمد ربه"، وتارة يقول: "رآه محمد"، ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح أنه رآه بعينه... وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل؛ كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال: "نور أنى آراه" (اجتماع الجيوش الإسلامية).

♦ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: "وفي رواية عنه - يعني ابن عباس - أطلق الرؤية، وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم". وقال ابن القيم رحمه الله في اجتماع الجيوش الإسلامية: "وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له: إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك، وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل: رآه بعيني رأسه، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين؛ حيث قال: إنه صلى الله عليه وسلم رآه عز وجل، ولم يقل: بعيني رأسه، ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضي الله عنهما،

ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: "حجابه النور"، فهذا النور هو والله أعلم النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه: "رأيت نوراً". وقال ابن القيم في زاد المعاد منكراً على من زعم أن أحمد يقول: إن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى ربّه بعيني رأسه؛ حيث قال رحمه الله: ((ولكن لم يقل أحمد رحمه الله: إنه رآه بعيني رأسه يقظاً، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال مرة: رآه، ومرة قال: رآه بفؤاده، فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرّف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه، وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك".

واختلفوا في إثبات رؤية الله جل وعلا في المنام على ثلاثة أقوال القول الأول: جواز رؤية الله تعالى في المنام، وهو الذي عليه جماهير أهل السنة، بل نقل غير واحد الاتفاق والإجماع، ونفى في ذلك الخلاف بين العلماء.

♦ ونقل النووي في شرح مسلم عن القاضي عياض رحمه الله قوله: (واتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى في المنام وصحتها، وإن رآه الإنسان على صفة لا تليق بحاله من صفات الأجسام؛ لأن ذلك المرئي غير ذات الله تعالى؛ إذ لا يجوز عليه سبحانه وتعالى التجسم، ولا اختلاف الأحوال بخلاف رؤية النبي صلى الله عليه وسلم". ونقل القاضي أبو يعلى رحمه الله إجماع أهل العلم على إمكانية رؤية الله تعالى في المنام "تمام المنة ببعض ما اتفق عليه أهل السنة لوليد السعيدان).

♦ ونقل الشيخ احسان محمد دحلان الكديري في (سراج الطالبين على منهاج العابدين (للغزالي)) اتفاق الصحابة والتابعين على إمكانية ذلك "تمام المنة ببعض ما اتفق عليه أهل السنة لوليد السعيدان).

وقد تكلم بجواز ذلك الكثيرون كالباقلاني والقرافي، وابن حجر والنووي، وابن تيمية وغيرهم.

♦ وقال ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى: قد يرى المؤمن ربّه في المنام في صور متنوعة على قدر إيمانه ويقينه؛ فإذا كان إيمانه صحيحاً لم يره إلا في صورة حسنة، وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يشبه إيمانه، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة، ولها تعبير وتأويل لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق".

♦ وسئل الإمام ابن باز رحمه الله: ما حكم من يدعي أنه قد رأى ربّ العزة في المنام؟

فأجاب رحمه الله: "ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وآخرون أنه يمكن أنه يرى الإنسان ربّه في المنام، ولكن يكون ما رآه ليس هو الحقيقة؛ لأن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى؛ قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فليس يشبهه شيء من مخلوقاته، لكن قد يرى في النوم أنه يكلمه ربه، ومهما رأى من الصور، فليست هي الله جل وعلا؛ لأن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى، فلا شبه له ولا كفو له.

القول الثاني: قول من أنكر رؤيته تعالى في المنام، وهو المشهور عن الماتريدية، وهو الذي عليه أكثر الحنفية، والمحكي عن شيوخهم السمرقنديين: جاء في (البحر الرائق شرح كنز الدقائق) لابن نجيم: "رؤية الله تعالى في

ثمَّ اصول الدين والايمان	هو اعتقاد المرء بالجنان
وزد لذا الاقرار باللسان	من ثمَّ فعل جاء بالاركان ^(١)

الآخرة حق يراه أهل الجنة في الآخرة بلا كيفية ولا تشبيه ولا محازاة، أما رؤية الله تعالى في المنام، فأكثرهم قالوا: لا تجوز، والسكوت في هذا الباب أحوط".

وقد وافقهم الإمام السيوطي رحمه الله في أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب، فقال: "من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه يجوز له رؤية الله تعالى في المنام، ولا يجوز ذلك لغيره في أحد القولين، وهو اختياري وعليه أبو منصور الماتريدي".

القول الثالث: قول من توقف، ومنهم الشيخ ابن عثيمين رحمه الله، فقد توقف فيها، فقال: (أنا أتوقف في أن الإنسان يرى ربه في المنام رؤية حقيقة، أما إذا كان الله تعالى يضرب له مثلاً يبين له تمسكه بدينه، فهذا شيء ليس بغريب) لقاء الباب المفتوح).

وإن كان بهذه الجملة الأخيرة قد وافق الجمهور؛ إذ الجمهور يرون أن رؤياه المنامية تكون مثلاً لا مثلاً. وأما من أنكر رؤية الله في الآخرة:

♦ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى: (والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة، فهو كافر، فإن كان ممن لم يبلغه العلم ذلك، عرف ذلك كما يعرف من لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصرَّ على الجحود بعد بلوغ العلم له، فهو كافر".

♦ وقال العلامة ابن باز رحمه الله في مجموع فتاواه (رؤية الله في الآخرة ثابتة عند أهل السنة والجماعة من أنكرها كفر، يراه المؤمنون يوم القيامة ويرونه في الجنة كما يشاء بإجماع أهل السنة".

^١ — قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"فإن الإيمان مشتق من الأمن، فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر؛ كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر؛ ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في هذا النوع، والاثنان إذا اشتركا في معرفة الشيء يقال: صدق أحدهما صاحبه، ولا يقال: آمن له؛ لأنه لم يكن غائباً عنه ائتمنه عليه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿أَنْوَمُنْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿أَمَنْتُمْ لَهُ﴾ [طه: ٧١]، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، فيصدقهم فيما أخبروا به مما غاب عنه، وهو مأمون عنده على ذلك، فاللفظ متضمن معنى التصديق، ومعنى الائتمان والأمانة؛ كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا

أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴿ [يوسف: ١٧] ؛ أي: لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم.

وقال أيضاً: إن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالكذب؛ كلفظ التصديق، فإنه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له: صدقت أو كذبت، ويقال: صدقناه أو كذبناه، ولا يقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه، ولا يقال: أنت مؤمن له، أو مكذب له، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر، يقال: هو مؤمن أو كافر، والكفر لا يختص بالكذب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك، وأخالفك ولا أوافقك، لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، عُلِمَ أن الإيمان ليس هو التصديق فقط، بل إذا كان الكفر يكون تكديباً ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعاً بلا تكذيب، فلا بد أن يكون الإيمان تصديقاً مع موافقة وموالاتة وانقياد، لا يكفي مجرد التصديق، فيكون الإسلام جزءاً مُسمًى الإيمان، كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزءاً مُسمًى الكفر، فيجب أن يكون كل مؤمن مسلماً منقاداً للأمر، وهذا هو العمل."

وقد أجمع أهل السنة على أن الإيمان قول وعمل، أو قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان. قال الشافعي رحمه الله: "وكان الإجماع من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، ومن أدركناهم؛ يقولون: الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر." انتهى من "أصول اعتقاد أهل السنة لللالكائي" (٩٥٦/٥) رقم ١٥٩٣، "مجموع الفتاوى" لابن تيمية (٢٠٩/٧).

وقال البخاري رحمه الله: "كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلا عمن قال: الإيمان قول وعمل، ولم أكتب عمن قال: الإيمان قول." انتهى من "أصول اعتقاد أهل السنة لللالكائي" (٩٥٩/٥) رقم (١٥٩٧). وقال أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله: "هذه تسمية من كان يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص - وسمى ثلاثة وثلاثين ومائة عالم - ثم قال: هؤلاء كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وهو قول أهل السنة، والمعمول به عندنا. وبالله التوفيق." نقله ابن بطة في "الإبانة" (٨١٤/٢ - ٨٢٦) رقم (١١١٧)، وشيخ الإسلام كما في "مجموع الفتاوى" (٣٠٩/٧).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وقد حكى غير واحد إجماع أهل السنة والحديث على أن الإيمان قول وعمل." انتهى من "مجموع الفتاوى" (٣٣٠/٧).

الأدلة على أن الإيمان قول وعمل

ومستند الإجماع نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تدل على أن هذه الأجزاء (القول والعمل) من الإيمان، وهي على التفصيل أربعة:

١. قول اللسان، وهو طاعته كلها من الإيمان، وأما التكلم بكلمة الإسلام: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فهو ركن في الإيمان، لا يصح إلا به.

ومن الأدلة على أن قول اللسان من الإيمان: قوله تعالى: { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة/ ١٣٦]، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ)) رواه البخاري، ومسلم من حديث أبي هريرة.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

٢. قول القلب: وهو التصديق واليقين، والدليل على أن قول القلب من الإيمان: قوله تعالى: (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ) المجادلة/ ٢٢، وقوله: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [الحجرات/ ١٥]، وقوله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان: ((أَنْ تُوْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) رواه مسلم واللفظ له من حديث عمر، ورواه البخاري من حديث أبي هريرة.

وقوله في حديث الشفاعة...: ((فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَانْطَلِقْ)) رواه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه.

٣. عمل القلب: وهو الإخلاص والانقياد والخوف والرجاء والمحبة.

والدليل على دخول ذلك في الإيمان: قوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال/ ٢ - ٤] ، والوجل عمل القلب.

وقوله صلى الله عليه وسلم: ((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)) رواه البخاري، ومسلم واللفظ له، من حديث أبي هريرة.

فالحياء من عمل القلب، ودلَّ الحديث أيضاً على أن قول اللسان، وعمل الجوارح من الإيمان. وقد سبق.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُفْذَفَ فِي النَّارِ)) رواه البخاري، ومسلم.

ومعلوم أن المحبة والكراهة: هي من أعمال القلب، وقد عدّها الحديث من الإيمان، بل مما يذوق به العبد حلاوة الإيمان .

قال شيخ الإسلام رحمه الله في كتاب الإيمان أيضاً:

وأصل الإيمان في القلب، وهو قول القلب وعمله، وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد، وما كان في القلب فلا بد أن يظهر مُوجِبُه ومقتضاه على الجوارح، وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دلّ على عدمه أو ضعفه؛ ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه، وهي تصديق لما في القلب، ودليل عليه وشاهد له، وهي شعبة من الإيمان المطلق وبعض له.

٤. عمل الجوارح: من الطهارة والصلاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك .

والدليل على أن أعمال الجوارح من الإيمان: قوله تعالى : { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ الْبَيِّنَةُ ٥ }، وقوله : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ { [الحجرات / ١٥] . والجهاد من عمل الجوارح.

ومثله قوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ { [الأنفال / ٢ - ٤] .

وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة: من أعمال الجوارح، وقد عدّها هنا إيماناً .

ومنه قول الله تعالى : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ { [البقرة/ ١٤٣] } يَعْنِي صَلَاتَكُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ .

وترجم الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه على هذه الآية: "بَابُ: الصَّلَاةُ مِنَ الْإِيْمَانِ."

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لو فد عبد القيس : ((آمُرُكُمْ بِالْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَتُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمْسَ)) رواه البخاري ، ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

♦ قال ابن القيم في كتاب الصلاة : " والعمل قسمان: عمل القلب، وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح، فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكامله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق، فهذا موضع المعركة بين المُرْجئة وأهل السنة؛ فأهل السنة مُجمِعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب، وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويُقِرُّون به سرًّا وجهراً، ويقولون: ليس بكاذب، ولكن لا نَتَّبِعْهُ ولا نُؤْمِنُ بِهِ.

فإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح، ولا سيما إذا كان ملزومًا لعدم محبة القلب وانقياده، والذي هو ملزم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح؛ إذ لو أطاع وانقاد أطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق كما تقدم، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد، وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبيينه، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه، وإن سُمِّي الأول هدى، فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتمام، كما أن اعتقاد التصديق وإن سُمِّي تصديقًا، فليس هو التصديق المستلزم للإيمان؛ فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته.

وهذا يدل على أن التصديق والأعمال والأقوال داخلة في مسمى الإيمان وتُمثِّل معناه، فعلى هذا يكون الإيمان قابلاً للزيادة والنقصان؛ فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ كما أشارت إلى ذلك الأدلة الصريحة من الكتاب والسنة، وكما هو معروف ومُشاهد من ظواهر المسلمين في تفاوتهم بدرجات الإيمان قولاً وعملاً.

ومن الأدلة على زيادة الإيمان ونقصه أن الله قسم المؤمنين ثلاث طبقات، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

فالسابقون بالخيرات هم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وهؤلاء هم المقرَّبون، والمقتصدون هم الذين اقتصروا على أداء الواجبات وترك المحرمات، والظالمون لأنفسهم هم الذين اجتروا على بعض المحرمات، وقصَّروا ببعض الواجبات، مع بقاء أصل الإيمان معهم.

فالإيمان له شعب كثيرة منها ما هو من عمل القلب ومنها ما هو من عمل الجوارح

وأما من ذهب إلى أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب، وأنه غير قابل للزيادة أو النقص، فهو محجوج بما ذكرنا من الأدلة، قال الرسول عليه الصلاة والسلام: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق)).

♦ قال الآجري: باب القول بأن الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، لا يكون مؤمناً إلا أن

تجتمع فيه هذه الخصال الثلاث، قال محمد بن الحسين: اعلموا - رحمنا الله وإياكم - أن الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، ثم اعلموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقاً، ولا تجزئ معرفة بالقلب، ونطق باللسان، حتى يكون عملاً بالجوارح، فإذا كُمِّلت فيه هذه الثلاث الخصال كان مؤمناً، دل على ذلك القرآن والسنة وقول علماء المسلمين؛ انتهى كلام الآجري.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] وقال جل ذكره: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١] وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال عز وجل: ﴿لِيُزَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]؛ أي: يرفع العمل الصالح الكلام الطيب وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٩].

♦ قال البغوي في تفسيره: عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الْقَارِيِّ قَالَ: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي يُسْمَعُ عند وجهه دَوِيٌّ كَدَوِيٍّ النحل، فمكثنا ساعة، وفي رواية: فنزل علينا يوماً فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة، ورفع يديه وقال: ((اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا))، ثم قال: ((لقد أنزل عليّ عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة))، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى عشر آيات.

ورواه أحمد بن حنبل، وعلي بن المدني، وجماعة عن عبد الرزاق، وقالوا: ((وأعطنا، ولا تحرمنا، وأرضنا وارض عنا))؛ أخرجه الترمذي والإمام أحمد.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الإيمان بضْعٌ وسبعون شعبة، وأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان))، هذا حديث صحيح؛ أخرجه مسلم عن زهير بن حرب عن جرير، وأراد بإمطة الأذى عن الطريق: ما يتأذى به المارة من شوك أو حجر أو نحوه.

عن أبي جعفر الخطمي عن أبيه عن جده عمير بن حبيب قال: "الإيمان يزيد وينقص، قيل: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه وسبَّحناه، فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه؛ تهذيب سنن أبي داود.

عن عبدالله بن عكيم قال: سمعت عبدالله بن مسعود يقول في دعائه: "اللهم زدني إيماناً و يقيناً وفقهاً، أو قال: فهماً"؛ تهذيب سنن أبي داود.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، قال: "إن الله بعث محمداً بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الحج، فلما صدقوا به زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينهم فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ولما كانت الأعمال والأقوال داخلة في مسمى الإيمان، كان الإيمان قابلاً للزيادة والنقص، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة، وكما هو ظاهرٌ مُشاهدٌ من تفاوت المؤمنين في عقائدهم وأعمال قلوبهم وأعمال جوارحهم.

♦ قال شيخ الإسلام رحمه الله في كتاب الإيمان أيضاً: "وأصل الإيمان في القلب، وهو قول القلب وعمله، وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد، وما كان في القلب فلا بد أن يظهر مُوجِبُه ومقتضاه على الجوارح، وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دلَّ على عدمه أو ضعفه؛ ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه، وهي تصديقٌ لِمَا في القلب، ودليل عليه وشاهد له، وهي شعبة من الإيمان المطلق وبعضُ له".

♦ قال ابن القيم رحمه الله في كتاب الصلاة: "الكفر والإيمان متقابلان، إذا زال أحدهما خَلَفَهُ الآخر، ولما كان الإيمان أصلاً، له شُعَبٌ متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيماناً؛ فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة؛ كالحياء، والتوكل، والخشية من الله، والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشُعَب إلى إمطة الأذى عن الطريق، فإنه شعبة من شعب الإيمان، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها؛ كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها؛ كترك إمطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً؛ منها: ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إمطة الأذى ويكون إليها أقرب، وكذلك الكفر ذو أصل وشُعَب، فكما أن شُعَب الإيمان إيمان، فشُعَب الكفر كفر، والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شُعَب الكفر، والصدق شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شُعَب الكفر، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان، وتَرْكها من شُعَب الكفر، والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله من شُعَب الكفر، والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان.

وشُعَب الإيمان قسمان: قولية وفعلية، وكذلك شُعَب الكفر نوعان: قولية وفعلية، ومن شُعَب الإيمان القولية شُعَب يُوجِبُ زوالها زوال الإيمان، فكذلك مِنْ شُعَبِهِ الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان، وكذلك شُعَب الكفر القولية والفعلية، فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختياراً، وهي شعبة من شعب الكفر، فكذلك يَكْفُرُ بفعل شعبة من شُعَبِهِ؛ كالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، فهذا أصل، وها هنا أصل آخر: وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب: وهو الاعتقاد، وقول اللسان: وهو التكلم بكلمة الإسلام.

^١ - كان عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: (هَلُمُّوا نَزْدَادُ إِيْمَانًا) ، وفي لفظ: (تعالوا نَزْدَاد

إِيْمَانًا) . (أخرجه الخلال في ((السنة)) ، والآجري في ((الشریعة)) .

• وقال عبدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اجلسوا بنا نَزْدَادُ إِيْمَانًا) . وكان يقولُ في دعائه: (اللَّهُمَّ زِدْنِي إِيْمَانًا وَيَقِينًا وَفَقْهًا) . (رواه البيهقي في الشعب).

- وعن جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِتْيَانُ حِزَاوَرَةَ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ؛ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيْمَانًا). (رواه البيهقي في الشعب)).
- وعن عُمَيْرِ بْنِ حَبِيبٍ الْخَطَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، فَقِيلَ: وَمَا زِيَادَتُهُ وَنُقْصَانُهُ؟ قَالَ: إِذَا ذَكَرْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحَمَدْنَاهُ وَسَبَّحْنَاهُ، فَذَلِكَ زِيَادَتُهُ، وَإِذَا غَفَلْنَا وَضَيَّعْنَا وَنَسِينَا، فَذَلِكَ نُقْصَانُهُ). (أخرجه الطبراني والآجري في ((الشریعة)) واللفظُ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)).
- صحح إسناده ابن حجر في ((فتح الباري))، وجَوَّدَهُ الهيثمي في ((مجمع الزوائد)).
- وعن عَلْقَمَةَ بْنِ قَيْسٍ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: (امشُوا بِنَا نَزِدَادُ إِيْمَانًا. (أخرجه ابن ماجه واللفظ له، والطبراني، والبيهقي صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)).
- وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ: (إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَخُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الْإِيمَانَ).
- وقال ابن حجر مُبَيِّنًا سَبَبَ ذِكْرِ الْبَخَارِيِّ لَهُ: (الْغَرَضُ مِنْ هَذَا الْأَثَرِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ مِمَّنْ يَقُولُ بَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؛ حَيْثُ قَالَ: اسْتَكْمَلَ وَلَمْ يَسْتَكْمِلْ).
- وقال الأوزاعي: (الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، فَاحْذَرُوهُ؛ فَإِنَّهُ مُبْتَدِعٌ).
- وَسُئِلَ عَنِ الْإِيمَانِ: أَيْزِيدُ؟ قَالَ: نَعَمْ، حَتَّى يَكُونَ كَالْجِبَالِ. قِيلَ: فَيَنْقُصُ؟ قَالَ: نَعَمْ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ. (أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء))، والبيهقي في ((شعب الإيمان))).
- وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: (الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ).
- عن الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو يُعْنِي الْأَوْزَاعِيَّ وَمَالِكًا وَسَعِيدَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُونَ: (لَيْسَ لِلْإِيمَانِ مُنْتَهَى، هُوَ فِي زِيَادَةِ أَبَدًا. (أخرجه البخاري مُعَلِّقًا بِصِغَةِ الْجَزْمِ، وَأَخْرَجَهُ مُوَصِّلًا ابْنَ أَبِي شَيْبَةَ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي ((شعب الإيمان)).
- وقال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: (الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَالْإِيمَانُ يَتَفَاعَضِلُ. (أخرجه الآجري في ((الشریعة)) واللالكائي في ((شرح أصول الاعتقاد)).
- قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: "بَعْضُهُمْ أَيْ: السَّلَفِ عَدَلَ عَنْ لَفْظِ الزِّيَادَةِ وَالتَّنْقِصَانِ إِلَى لَفْظِ التَّفَاعُضُلِ. فَقَالَ: أَقُولُ: الْإِيمَانُ يَتَفَاعَضِلُ وَيَتَفَاوَتْ، وَيُرْوَى هَذَا عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ، وَكَانَ مَقْصُودُهُ الْإِعْرَاضَ عَنْ لَفْظِ وَقَعَ فِيهِ النِّزَاعُ إِلَى مَعْنَى لَا رَبَّ فِي ثُبُوتِهِ).
- وقال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ: (أَنَا أَقُولُ: الْإِيمَانُ يَتَفَاعَضِلُ، وَكَانَ الْأَوْزَاعِيُّ يَقُولُ: لَيْسَ هَذَا زَمَانًا تَعْلَمُ، هَذَا زَمَانٌ تَمَسَّكُ. (وما من شيءٍ يَتَفَاعَضِلُ إِلَّا وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ؛ قَالَ ابْنُ هَانِيٍّ فِي مَسَائِلِهِ: (سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ سَأَلَ ابْنَ أَبِي رَزْمَةَ: مَا كَانَ أَبُوكَ يَقُولُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ فِي الْإِيمَانِ؟ قَالَ: كَانَ يَقُولُ: الْإِيمَانُ

يتفاضل.

• قال أبو عبد الله: يا عجباه! إن قال لكم: يزيد وينقص، رجمتموه، وإن قال: يتفاضل، تركتموه، وهل شيء يتفاضل إلا وفيه الزيادة والنقصان؟ ولا ريب في ثبوت لفظ الزيادة والنقصان عند السلف؛ فالزيادة مصرح بها في القرآن، والنقصان مصرح به في السنة.

...وقد روى النجاشي عن علي بن الحسن بن شقيق قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص).

• وقال وكيع بن الجراح: (الإيمان يزيد وينقص) (أخرجه اللالكائي في ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة))).

• وقال سفيان بن عيينة: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا أبا محمد، لا تقولن: يزيد وينقص! فغضب وقال: اسكت يا صبي! بل ينقص حتى لا يبقى منه شيء.)) (أخرجه عبد الله بن أحمد في ((السنة))، وابن بطة في ((الإبانة الكبرى))).

وقيل له: هل الإيمان يزيد وينقص؟ قال: فأني شيء إذا؟

وسئل أيضاً عن الإيمان فقال: (قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد ما شاء الله، وينقص حتى ما يبقى منه، يعني: مثل هذه، وأشار بيده).

• وقال الشافعي: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص) (أخرجه عبد الله بن أحمد في ((السنة))، وابن بطة في ((الإبانة الكبرى))).

• وقال عبد الرزاق الصنعاني: (كان معمر وابن جريج والثوري ومالك وابن عيينة يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص). وفي رواية أن عبد الرزاق قال: (وأنا أقول ذلك، الإيمان قول وعمل، والإيمان يزيد وينقص، فإن خالفهم فقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين.)) (أخرجه عبد الله بن أحمد في ((السنة))، وابن بطة في ((الإبانة الكبرى))، واللالكائي في ((شرح أصول الاعتقاد))).

• وقال عبد الله بن الزبير الحميدي: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص) (يُنظر: ((مجموع الفتاوى)).

• وقال إسحاق بن راهويه: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص حتى لا يبقى منه شيء) (أخرجه عبد الله بن أحمد في ((السنة))، وابن بطة في ((الإبانة الكبرى))).

• قال أحمد بن حنبل: (الإيمان بعضه أفضل من بعض، يزيد وينقص، وزيادته في العمل، ونقصانه في ترك العمل؛ لأن القول هو مقرر به).

وقال أيضاً: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، إذا عملت الخير زاد، وإذا ضيعت نقص) مسائل الإمام أحمد برواية ابن هانئ.

وُسئِلَ عن زيادةِ الإيمانِ ونقصانه فقال: (يَزِيدُ حتى يُلْغى أَعْلَى السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَيَنْقُصُ حتى يَصِيرَ إلى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ السَّبْعِ).

• قال المزني: (المؤمنون في الإيمان يتفاضلون، وبصالح الأعمال هم مُتزايدون) يُنظر: ((الرد على من يقول القرآن مخلوق)) للنجاد).

• قال أبو زُرعة الرَّازي: (الإيمانُ عندنا قَوْلٌ وَعَمَلٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، ومن قال غير ذلك فهو مُبتدعٌ مُرَجِيٌّ) أخرجه أبو داود في ((مسائل الإمام أحمد)) وعبد الله بن أحمد في ((السنة))، وابن بطة في ((الإبانة الكبرى)).

• قال أبو حاتم الرَّازي: (مذهبنا واختيارنا وما نعتقده وندين الله به ونسأله السلامة في الدين والدنيا: أنَّ الإيمانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ... يَزِيدُ وَيَنْقُصُ) أخرجه العدني في ((الإيمان)) والآجري في ((الشرعة)) واللفظ له، واللالكائي في ((شرح أصول الاعتقاد)).

• قال ابن تيمية: (الآثار في هذا كثيرة، رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين في كُتُب كثيرة معروفة).

• وقال ابن أبي العز: (الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً). وهنا مسألة تتعلق بتحرير توقف مالك في القول بنقصان الإيمان

رُوي عن مالك أنه كان متوقفاً في القول بنقص الإيمان - وليس نفيه كما فهم البعض خطأ من كلام مالك - لعدم بلوغ النص إليه، ثم لما بلغه ذلك جزم بنقص الإيمان، كما هو ثابت عنه من طرق أخرى متعددة. وقد قيل: إنه توقف في ذلك؛ لأنه وجد ذكر الزيادة في القرآن، ولم يجد ذكر النقص.

• قال ابن تيمية: (كان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه؛ لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القرآن، ولم يجدوا ذكر النقص، وهذه إحدى الروايتين عن مالك).

ولكنه ترك التوقف في القول بالنقص، وثبت عنه القول بزيادة الإيمان ونقصانه، وهذا هو المعروف عنه عند أهل العلم، كما قال أحمد بن القاسم: تذاكرنا من قال: الإيمان يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، فعَدَّ الإمام أحمد غير واحد، ثم قال: ومالك بن أنس يقول: يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، فقلت له: إنَّ مالكا يحكون عنه أنه قال: يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ. فقال: بلى قد روي عنه: يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، كان ابن نافع يحكيه عن مالك، فقلت له: ابن نافع يحكيه عن مالك؟ قال: نعم.

والروايات الواردة عنه في ذلك كثيرة؛ منها:

• قال عبد الرزاق: سَمِعْتُ مَعْمَرًا وَسَفْيَانَ الثَّوْرِيَّ وَمَالِكَ بْنَ أَنَسٍ، وَابْنَ جُرَيْجٍ وَسَفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ يَقُولُونَ: الإيمانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ.

• وقال إسحاق بن محمد الفروي: (كنتُ عند مالك بن أنس، فسمعتُ حماد بن أبي حنيفة يقول لمالك:

يا أبا عبد الله، إِنَّ لَنَا رَأْيًا نَعْرِضُهُ عَلَيْكَ، فَإِنْ رَأَيْتَهُ حَسَنًا مَضَيْنَا عَلَيْهِ، وَإِنْ رَأَيْتَهُ غَيْرَ ذَلِكَ كَفَفْنَا عَنْهُ، قَالَ: وما هو؟ قَالَ: يا أبا عبد الله، لَا نَكْفُرُ أَحَدًا بِذَنْبٍ، النَّاسُ كُلُّهُمْ مُسْلِمُونَ عِنْدَنَا. قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا! مَا بِهِذَا بَأْسٌ. فَقَامَ إِلَيْهِ دَاوُدُ بْنُ أَبِي زَنْبِرٍ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ حَبِيبٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا أبا عبد الله، إِنَّ هَذَا يَقُولُ بِالْإِرْجَاءِ، قَالَ: دِينِي مِثْلُ دِينِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَالْمَلَائِكَةِ الْمَقَرَّبِينَ! قَالَ: لَا وَاللَّهِ: الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [الفتح: ٤] ، وقال إبراهيم: { أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَال بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي } [البقرة: ٢٦٠] ، فطمأنينته قلبه زيادة في إيمانه. (أخرجه اللالكائي في ((شرح أصول الاعتقاد)).

• وقال ابن نافع: كان مالك بن أنس يقول: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص). (أخرجه عبد الله بن أحمد في ((السنة)).

• قال ابن عبد البر: (وروى عنه عبد الرزاق، ومعن بن عيسى، وابن نافع، وابن وهب: أنه يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وعلى هذا مذهب الجماعة من أهل الحديث. والحمد لله. (التمهيد).
• وقال عياض: (قال غير واحد: سمعت مالكا يقول: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض). (ترتيب المدارك).

• وقال ابن رشد: (وقد روي عن مالك رحمه الله أنه كان يطلق القول بزيادة الإيمان، ويكف عن إطلاق نقصانه؛ إذ لم ينص الله تعالى إلا على زيادته، فروي عنه أنه قال عند موته لابن نافع، وقد سأله عن ذلك: قد أبرمتموني، إنني تدبرت هذا الأمر، فما من شيء يزيد إلا وينقص، وهو الصحيح. والله سبحانه وتعالى أعلم (مقدمات).

وقال ابن تيمية: " الرواية الأخرى عنه، وهو المشهور عند أصحابه، كقول سائرهم: إنه يزيد وينقص " (الفتاوى).

^١ - قال البيهقي: " باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه، وتفاضل أهل الإيمان في إيمانهم، وهذا يتفرع على قولنا في الطاعات: إنها إيمان، وهو أنها إذا كانت إيمانا كان تكاملها تكامل الإيمان، وتناقضها تناقض الإيمان، وكان المؤمنون متفاضلين في إيمانهم كما هم يتفاضلون في أعمالهم، وحزم أن يقول القائل: إيماني وإيمان الملائكة والنبيين - صلوات الله عليهم أجمعين - واحد؛ قال الله عز وجل: { لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ } [الفتح: ٤] ... فثبت بهذه الآيات أن الإيمان قابل للزيادة، وإذا كان قابلاً للزيادة فغدمت الزيادة كان عدمها

نُقْصَانًا، عَلَى مَا مَضَى بَيَانُهُ، وَدَلَّتِ السُّنَّةُ عَلَى مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ".

• وقال ابنُ تيميةَ في كتاب الاستقامة: "مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُتَّبِعُونَ لِلسَّلَفِ الصَّالِحِ أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ".

وكما يزيد العلم بالعمل فهو يزيد بزيادة العلم فبالعلم واليقين تُنال الإمامة في الدين.

وقال في الجواب الصحيح: "الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَالْحَسَنَاتِ وَكُلَّمَا زَادَ الْعَبْدُ عَمَلًا لِلْخَيْرِ . زَادَ إِيْمَانُهُ .".

وقال في كتاب الايمان: " فكلما علم القلب ما أخبر به الرسول فصدقه، وما أمر به فالتزمه؛ كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك؛ وإن كان معه التزام عام وإقرار عام

وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها فآمن بها؛ كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء، بل آمن بها إيماناً مجملاً أو عرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته كان إيمانه به أكمل".

وقال في الايمان الأوسط: " فَالْعِلْمُ يُقَوِّي الْعَمَلَ وَالْعَمَلُ يُقَوِّي الْعِلْمَ فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَقَلْبُهُ سَلِيمٌ أَحَبَّهُ ؛ وَكُلَّمَا زَادَ لَهُ مَعْرِفَةٌ زَادَ حُبُّهُ لَهُ ؛ وَكُلَّمَا زَادَ حُبُّهُ لَهُ زَادَ ذِكْرُهُ لَهُ وَمَعْرِفَتُهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ؛ فَإِنَّ قُوَّةَ الْحُبِّ تُوجِبُ كَثْرَةَ ذِكْرِ الْمَحْبُوبِ ؛ كَمَا أَنَّ الْبُغْضَ يُوجِبُ الْإِعْرَاضَ عَنْ ذِكْرِ الْمُبْغِضِ فَمَنْ عَادَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَحَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَانَ ذَلِكَ مُقْتَضِيًا لِإِعْرَاضِهِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِالْخَيْرِ ؛ وَعَنْ ذِكْرِ مَا يُوجِبُ الْمَحَبَّةَ فَيَضَعُفُ عِلْمُهُ بِهِ حَتَّى قَدْ يَنْسَاهُ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَا تَطْعَمَنْ أَعْفُلًا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا } وَقَدْ يَحْصُلُ مَعَ ذَلِكَ تَصَدِيقٌ وَعِلْمٌ مَعَ بُغْضٍ وَمُعَادَاةٍ لَكِنْ تَصَدِيقٌ ضَعِيفٌ وَعِلْمٌ

ضَعِيفٌ ؛ وَلَكِنْ لَوْلَا الْبُغْضُ وَالْمُعَادَاةُ لَأَوْجَبَ ذَلِكَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يَصِيرُ بِهِ مُؤْمِنًا . فَمَنْ شَرَطَ الْإِيمَانَ وَجُودَ الْعِلْمِ التَّامِّ وَلِهَذَا كَانَ الصَّوَابُ أَنَّ الْجَهْلَ بِبَعْضِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ لَا يَكُونُ صَاحِبُهُ كَافِرًا إِذَا كَانَ مُقَرًّا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَبْلُغْهُ مَا يُوجِبُ الْعِلْمَ بِمَا جَهِلَهُ عَلَى وَجْهِ يَقْتَضِي كُفْرَهُ إِذَا لَمْ يَعْلَمْهُ كَحَدِيثِ الَّذِي أَمَرَ أَهْلَهُ بِتَحْرِيقِهِ ثُمَّ تَذَرِيَّتِهِ .

ومما لا شك فيه أن طلب العلم وحضور مجالسه مما يزيد القلب رقة وإيماناً، كيف لا وبالعلم تعرف صفات الرب -جلَّ وعلا-، وبالعلم يُعرف الحلال من الحرام، وبه تعلق الدرجات؟! { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } [المجادلة: ١١].

بالعلم يزداد الإيمان فتقع خشية الله -عز وجل- في القلوب؛ كما أخبر الله في كتابه الكريم: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر: ٢٨].

وكما قال -سبحانه-: { وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الحج: ٥٤].

وكيف لا يزداد الإيمان بطلب العلم ومجالس العلم هي مجالس ذكر تثنى فيها آيات الله ويُتَعَلَّم فيها كيف يعظم الرب ويمجد وكيف يعبد، وتدرس فيها أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-؟!

ومثل هذه المجالس تحضرها الملائكة كما بين ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين قال: ((إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ فَضْلاً عَنْ كُتَابِ النَّاسِ فَإِذَا وَجَدُوا أَقْوَامًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى بُغْيَتِكُمْ فَيَحِثُّونَ فَيَحْثُونُ بِهِمْ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ اللَّهُ عَلَى أَيْ شَيْءٍ تَرَكْتُمْ عِبَادِي يَصْنَعُونَ؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ يَحْمَدُونَكَ وَيُجَدِّدُونَكَ وَيَذْكُرُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: فَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَا. قَالَ: فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا أَشَدَّ تَحْمِيدًا وَأَشَدَّ تَمْجِيدًا وَأَشَدَّ لَكَ ذِكْرًا. قَالَ: فَيَقُولُ: وَأَيْ شَيْءٍ يَطْلُبُونَ؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَطْلُبُونَ الْجَنَّةَ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا. قَالَ: فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا لَهَا أَشَدَّ طَلَبًا وَأَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا. قَالَ: فَيَقُولُ: مِنْ أَيْ شَيْءٍ يَتَعَوَّدُونَ؟ قَالُوا: يَتَعَوَّدُونَ مِنَ النَّارِ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا مِنْهَا أَشَدَّ هَرَبًا وَأَشَدَّ مِنْهَا خَوْفًا وَأَشَدَّ مِنْهَا تَعَوُّدًا. قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. فَيَقُولُونَ: إِنَّ فِيهِمْ فُلَانًا الْخَطَاءَ لَمْ يُدْهِمُ إِنَّمَا جَاءَهُمْ لِحَاجَةٍ. فَيَقُولُ: هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى لَهُمْ جَلِيسٌ)) (رواه البخاري، ومسلم، والترمذي واللفظ له).

كيف لا يزداد إيمان العلماء وطلاب العلم وهم حين اجتمعوا لمدارسة العلم قد نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده؟!

وكيف لا يزداد إيمان من هو في كل مرة يزداد فيها علماً إنما يزداد نوراً وبصيرة؟!

وقد جعل الله العمى الحقيقي الجهل الذي هو في مقابلة العلم؛ فالعلم نورٌ للبصائر والجهل ظلمة وعمى؛ {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الرعد: ١٩]، وقال الله -تعالى- مُبِينًا سَبِيلَ نَبِيِّهِ -صلى الله عليه وسلم- وأتباعه: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨].

وكيف لا يزداد إيمان من أراد الله -تعالى- به خيراً بسلوكه سبيل العلم والفقه في الدين، وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)) (متفق عليه)؟!

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة: "وهذا يدل على أن من لم يفقهه في دينه لم يرد به خيراً، كما أن من أراد به خيراً فقهه في دينه، ومن فقهه في دينه فقد أراد به خيراً، إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل، وأما إن أريد به مجرد العلم فلا يدل على أن من فقه في الدين فقد أريد به خيراً، فإن الفقه حينئذ يكون شرطاً لإرادة الخير وعلى الأول يكون موجباً والله أعلم".

♦ وقال ابن حجر في الفتح "ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين، أي: لم يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع فقد حرم الخير.. لأن من لم يعرف أمور دينه لا يكون فقيهاً ولا طالب فقه فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به الخير، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم". وكيف لا يزداد إيمان من علّم الناس الخير حتى ((إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الثَّمَلَةِ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْخُوتِ لِيَصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ)) (رواه الترمذي، وصححه الألباني)؟! وكيف لا يزداد إيمان من دعا لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- حين قال: (نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ قُرْبَ حَامِلٍ فَقِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلٍ فَقِهِ لَيْسَ بِفَقِيهِ) (رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني)؟!

ومن أجل كل هذه الفضائل وغيرها ولأن العلم من أعظم أسباب زيادة الإيمان فقد أمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يسأل ربه -تعالى- منه المزيد: { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } [طه: ١١٤]. فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يسأل ربه أن يعلمه العلم النافع: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا)) (رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني).

• قال ابن القيم -رحمه الله: "قراءة آية بتفكير وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى في حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن".

وقال أيضاً: "فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاذه، وأقرب إلى نجاته - من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذاقها... وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه" (انظر: "مدارج السالكين" (١/ ٤٨٥)).

فإذا تدبر العبد آيات الله - تعالى - وما فيها من وعد ووعد وجنة ونار، والأعمال التي تسوق إليهما - زاد إيمانه وبقينه بوعده ربه ووعدده.

وإنما نال العلم هذه المكانة العظيمة، لأنه وسيلة لأعظم الغايات وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له والقيام بتوحيده على الوجه المطلوب.

فالعلم ليس مقصوداً لذاته وإنما هو مقصود لغيره وهو العمل، فكل علم شرعي فطلب الشرع له إنما يكون حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى، لا من جهة أخرى، ويدل على ذلك أمور:

أحدها: أن الشرع إنما جاء بالتعبد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام، كقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ } [البقرة ٢١] وقوله: { الرِّكَابُ أَكْثَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } [سورة هود، الآية: ١-٢] وقوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء، الآية: ٢٥] وقوله: { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ } [الزمر، ٢-٣].

وبالذنوب ليس يكفر الفتى	ان لم يكن بالشرك من ذاك اتى
فمن اتى لرَّبِّهِ مَوْحِداً	يُرجى له النجاة في الاخرى غدا
اذ الذنوب اذ يشاء الباري	يغفرها برحمة الغفار ^(١)

وما أشبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى إلا بكلفة كلها دالة على أن المقصود من العلم هو التبعّد لله عز وجل، وصرف جميع أنواع العبادات والطاعات له.

الثاني: ما جاء من الأدلة الدالة على أن روح العلم هو العمل، وإلا فالعلم عارية وغير منتفع به.

فقد قال الله تعالى: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر ٢٨]

وقال تعالى: { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [الزمر ٩].

فهذه الأدلة وغيرها تدل على أن العلم وسيلة من الوسائل، ليس مقصوداً لنفسه من حيث النظر الشرعي، وإنما هو وسيلة إلى العمل، وكل ما ورد في فضل العلم إنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف بالعمل به.

^١ - قال ابن تيمية في الواسطية: "وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ: قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ

وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكْفَرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلِ الْإِخْوَةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَةِ الْقِصَاصِ: { فَمَنْ غَفِيَ لَهُ مِنْ أَحِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ } وَقَالَ: { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } . وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَا يُخْلِدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى { فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ } . وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا } وَقَوْلُهُ: " { لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يُسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يُسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ } . وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكِبِيرَتِهِ؛ فَلَا يُعْطَى الْاسْمُ الْمُطْلَقُ وَلَا يُسَلَبُ مُطْلَقُ الْاسْمِ " .

يسمون أهل القبلة، أي: أنهم في صلاتهم وذبائحهم يستقبلون القبلة، وأنهم يحنون إلى القبلة ويذهبون إليها حجاجاً وعماراً، فلذلك يسمون أهل القبلة، فهم يؤمنون بالله تعالى إلهاً ورباً وخالقاً، ويعبدونه ولا يعبدون غيره، ولا يصرفون شيئاً من عبادته ولا من حقه لمخلوق سواه، فهم أهل التوحيد، يقولون: (لا إله إلا الله) ويعملون بها. فمرتكب الكبيرة يُسمى في الشرع فاسقاً، والله سبحانه وتعالى قد سمّاه بذلك، فقال عز وجل عن الكاذبين: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} [الحجرات: ١٦] فالله تعالى لم يُخرج الكاذب من الإيمان، ولم يكفره، فنقول عن مرتكب الكبيرة من المسلمين إنه فاسق، والفاسق لا ينفي عنه مطلق الإيمان بفسوقه، ولا يوصف بالإيمان التام، لأن إيمانه ينقص بقدر ما يرتكب من الآثام.

وما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في وصف معاصي المؤمنين بالكفر، يُحمل على الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة، كقوله صلى الله عليه وسلم: ((سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)) رواه البخاري ومسلم. وذلك لأن الكفر منه أصغر ومنه أكبر، والنفاق والشرك والظلم كذلك، فقد بين الله تعالى أن الشرك نوع من الظلم، وهو الظلم الأكبر، فقال تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان: ١٣] ولا منافاة بين تسمية العمل فسقاً أو عامله فاسقاً، وبين تسميته مسلماً، وجريان أحكام المسلمين عليه، لأنه ليس كل فسق يكون كفراً، ولا كل ما سمي كفراً وظلماً يكون مخرجاً من الملة حتى يُنظر إلى لوازمه وملزوماته.

ونخلص مما سبق إلى أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر، ولكنه فاسق مستحق للوعيد، وإن شاء الله غفر له، ويشهد لهذا قوله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} [النساء: ٤٨].

فعند السلف أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ولا يخرج العبد بارتكابه لشيء من الكبائر من الإسلام، واختلفوا في مسمى مرتكب الكبيرة إلى قولين:

القول الأول: إن مرتكب الكبيرة لا يستحق اسم مؤمن بإطلاق؛ لأن الإيمان وصف مدح وعد الله عليه الجنة في مثل قوله تعالى {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التوبة: ٧٢].

ومرتكب الكبيرة ليس من أهل هذا الوعد المطلق، وقد نفى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمان في أحاديث عديدة كقوله صلى الله عليه وسلم ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)).

فهذه الطائفة من السلف يسمونه مؤمناً ناقص الإيمان أو مسلماً .

وحكى المروزي عن الإمام أحمد أنه سئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)) فقال: "من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن، فهو مسلم ولا أسميه مؤمناً" (تعظيم قدر الصلاة).

وعند هذه الطائفة من السلف أن بين الإسلام والإيمان في إطلاق الشارع فرقاً، فالإسلام مرتبة دون مرتبة الإيمان، فالمسلم مرتبته دون مرتبة المؤمن، وأن المسلم يستحق وصف الإسلام بمجرد نطقه بالشهادتين، أما وصف مؤمن فهو يستحقه بالإتيان بالطاعات وترك المعاصي.

وممن ورد عنه التفريق بين الإسلام والإيمان الزهري رحمه الله حيث قال: "الإسلام الكلمة والإيمان العمل". أخرجه. الدارقطني. في سننه ، وعبد الله في السنة ، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة . والذي يظهر أن مراد الزهري رحمه الله أن الإسلام الكلمة، بمعنى أنه يستحق الدخول في الإسلام ويسمى مسلماً من أتى بالشهادتين، أما الإيمان فلا يستحق الوصف به إلا بالإتيان بالعمل .

وورد عن حماد بن زيد أنه قال: "الإسلام عام، والإيمان خاص" أخرجه ابن منده في الإيمان (٣١١/١) ، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٥١٢/٢) ، وفسره ابن منده بأن قوله: الإسلام عام أي من ناحية معرفته، فإن الخلق يطلعون عليه، أما الإيمان فهو خاص من ناحية أن معرفته خاصة بالله دون خلقه.

وورد عن الإمام أحمد التفريق بينهما، فقد ذكر عنه القاضي أبو يعلى روايات في ذلك منها: أنه قال في رواية حنبل: "الإيمان غير الإسلام" (السنة للخلال).

وقال في رواية صالح: "قال ابن أبي ذئب الإسلام القول، والإيمان العمل، قيل: فما تقول أنت؟ قال: الإسلام غير الإيمان" (السنة للخلال (٦٠٤/٣) وانظر مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى (ص: ٤٢١).

هذا ما ورد عن السلف ممن يرى الفرق بين مسمى الإسلام والإيمان، ومن العلماء من ذكر وجهاً آخر للتفريق بينهما، وهو أن الإسلام والإيمان بينهما تلازم فهما يجتمعان ويفترقان فحيث قرن بين الإسلام والإيمان في كلام الشارع فيفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالأعمال الباطنة كما في حديث جبريل عليه السلام، وإذا افترقا دخل كل واحد منهما في الآخر، وذلك كما ورد في حديث وفد عبد القيس، فقد فسر الإيمان بالأعمال الظاهرة، وكما في قوله تعالى {إن الدين عند الله الإسلام} [آل عمران ١٩]. وقد قال بهذا التفريق جمع من العلماء مثل الخطابي في معالم السنن والنووي في شرحه على مسلم ، والبغوي في شرح السنة ، وشيخ الإسلام في الفتاوى (٣٥٧/٧) ، وابن رجب في جامع العلوم والحكم.

وممن قال بهذا القول وهو التفريق بين الإسلام والإيمان ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، والزهري، وعبد الرحمن بن مهدي، وابن أبي ذئب، ومالك، وشريك، وحماد بن زيد، والإمام أحمد، وابن جرير، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن كثير، وغيرهم .

فهؤلاء يتوجه على قولهم أن الفاسق لا يصح وصفه وتسميته بالإيمان المطلق؛ لأنه أخل بواجباته، واعتبر هؤلاء العلماء وصف الإيمان المطلق وصف مدح لا يستحقه من فسق بارتكابه للمحرمات؛ لهذا كانوا يتحاشون من هذا الوصف عموماً ويرون الاستثناء فيه، فقد قال رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه: أنا مؤمن، فقال ابن مسعود: أفأنت من أهل الجنة؟ فقال: أرجو، فقال ابن مسعود: "أفلا وكلت الأولى كما وكلت الأخرى؟" (أخرجه أبو عبيد في الإيمان (ص: ٦٧) وهو منقطع بين الحسن وابن مسعود، كما ذكر ذلك الألباني في التعليق).

وفي رواية عنه أن رجلاً قال عنده: أنا مؤمن، فقال عبد الله: فقل: "إني في الجنة، ولكن آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسوله"... (أخرجه أبو عبيد في الإيمان (ص: ٦٧) وهو على شرط الشيخين كما قال الألباني في التعليق).

ونحو هذا ورد عن إبراهيم النخعي ومحمد بن سيرين وطاووس وغيرهم .

• قال شيخ الاسلام "إن الله أخبر بزيادة الكفر كما أخبر بزيادة الإيمان، بقوله : { إِنَّمَا التَّسْيُّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } [التوبة : ٣٧] وتارك الصلاة وغيرها من الأركان، أو مرتكبي الكبائر، كما أخبر بزيادة عذاب بعض الكفار على بعض في الآخرة بقوله : { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ } [النحل : ٨٨] .
فهذا أصل ينبغي معرفته، فإنه مهم في هذا الباب . فإن كثيراً ممن تكلم في مسائل الإيمان والكفر . لتكفير أهل الأهواء . لم يلحظوا هذا الباب، ولم يميزوا بين الحكم الظاهر والباطن، مع أن الفرق بين هذا وهذا ثابت بالنصوص المتواترة، والإجماع المعلوم، بل هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، ومن تدبر هذا، علم أن كثيراً من أهل الأهواء والبدع قد يكون مؤمناً مخطئاً جاهلاً ضالاً عن بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد يكون منافقاً زنديقاً يظهر خلاف ما يظن .

وهنا أصل آخر، وهو أنه قد جاء في الكتاب والسنة وصف أقوام بالإسلام دون الإيمان، فقال تعالى : { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الحجرات : ١٤] ، وقال تعالى في قصة قوم لوط : { فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ } [الذاريات : ٣٥ ، ٣٦] وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الآية تقتضي أن مسمى الإيمان والإسلام واحد، وعارضوا بين الآيتين، وليس كذلك، بل هذه الآية توافق الآية الأولى؛ لأن الله أخبر أنه أخرج من كان فيها مؤمناً، وأنه لم يجد إلا أهل بيت من المسلمين .
وذلك لأن امرأة لوط كانت في أهل البيت الموجودين، ولم تكن من المخرجين الذين نجوا؛ بل كانت من الغابرين، الباقين في العذاب، وكانت في الظاهر مع زوجها على دينه، وفي الباطن مع قومها على دينهم، خائنة لزوجها تدل قومها على أضيافه، كما قال الله تعالى فيها : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُّوحٍ وَامْرَأَةٌ لُّوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا } [التحريم : ١٠] . وكانت خيانتهم لهما في الدين لا في الفراش فإنه ما بغت امرأة نبي قط؛ إذ نكاح الكافرة قد يجوز في بعض الشرائع، ويجوز في شريعتنا نكاح بعض الأنواع وهن الكتابيات، وأما نكاح البغي فهو دِيَاثَةٌ، وقد صان الله النبي عن أن يكون دِيُوثًا؛ ولهذا كان الصواب قول من قال من الفقهاء بتحريم نكاح البغي حتى تتوب .

والمقصود أن امرأة لوط لم تكن مؤمنة، ولم تكن من الناجين المخرجين، فلم تدخل في قوله : { فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الذاريات : ٣٥] ، وكانت من أهل البيت المسلمين وممن وجد فيه؛ ولهذا قال تعالى : { فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ } [الذاريات : ٣٦] ، وبهذا تظهر حكمة القرآن؛ حيث ذكر الإيمان لما أخبر بالإخراج، وذكر الإسلام لما أخبر بالوجود . وأيضاً فقد قال تعالى : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [الأحزاب : ٣٥] . ففرق بين هذا وهذا . فهذه ثلاثة مواضع في القرآن .

وأيضاً، فقد ثبت في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً، ولم يعط رجلاً . فقلت : يا رسول الله أعطيت فلاناً وتركت فلاناً، وهو مؤمن فقال : (أو مسلم ؟) قال : ثم غلبي ما أجد، فقلت : يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً، وتركت فلاناً وهو مؤمن . فقال (أو مسلم ؟) مرتين أو ثلاثاً، وذكر في تمام الحديث أنه يعطي رجلاً، ويدع من هو أحب إليه منهم؛ خشية أن يكبهم الله في النار على مناخرهم .

• قال الزهري : فكانوا يرون أن الإسلام الكلمة، والإيمان العمل، فأجاب سعداً بجوابين، أحدهما : أن هذا الذي شهدت له بالإيمان قد يكون مسلماً لا مؤمناً . الثاني : إن كان مؤمناً، وهو أفضل من أولئك فأنا قد أعطى من هو أضعف إيماناً؛ لئلا يحمله الحرمان على الردة، فيكبه الله في النار على وجهه . وهذا من إعطاء المؤلف قلوبهم .

وحينئذ، فهؤلاء الذين أثبت لهم القرآن والسنة الإسلام دون الإيمان هل هم المنافقون الكفار في الباطن ؟ أم يدخل فيهم قوم فيهم بعض الإيمان ؟ هذا مما تنازع فيه أهل العلم على اختلاف أصنافهم . فقالت طائفة من أهل الحديث والكلام وغيرهم : بل هم المنافقون الذين استسلموا، وانقادوا في الظاهر ولم يدخل إلى قلوبهم شيء من الإيمان .

وأصحاب هذا القول قد يقولون : الإسلام المقبول هو الإيمان، ولكن هؤلاء أسلموا ظاهراً لا باطناً فلم يكونوا مسلمين في الباطن ولم يكونوا مؤمنين . وقالوا : إن الله . سبحانه . يقول : { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ } [آل عمران : ٨٥] .

(ثم قال) وأما الكافر المنافق في الباطن، فإنه خارج عن المؤمنين المستحقين للثواب باتفاق المسلمين . ولا يسمون بمؤمنين عند أحد من سلف الأمة وأئمتها، ولا عند أحد من طوائف المسلمين، إلا عند طائفة من المرجئة، وهم الكرامية الذين قالوا : إن الإيمان هو مجرد التصديق في الظاهر، فإذا فعل ذلك كان مؤمناً وإن كان مكذباً في الباطن، وسلموا أنه معذب مخلد في الآخرة، فنازعوا في اسمه لا في حكمه، ومن الناس من يحكي عنهم أنهم جعلوهم من أهل الجنة، وهو غلط عليهم . ومع هذا فتسميتهم له مؤمناً بدعة ابتدعوها، مخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وهذه البدعة الشنعاء هي التي انفرد بها الكرامية، دون سائر مقالاتهم .

قال الجمهور من السلف والخلف : بل هؤلاء الذين وصفوا بالإسلام دون الإيمان، قد لا يكونون كفاراً في الباطن، بل معهم بعض الإسلام المقبول . وهؤلاء يقولون : الإسلام أوسع من الإيمان؛ فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً . ويقولون : في قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) ؛ أنه يخرج من الإيمان إلى الإسلام . ودوروا للإسلام دارة، ودوروا للإيمان دارة أصغر منها في جوفها، وقالوا : إذا زنى خرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرج من الإسلام إلى الكفر .

ودليل ذلك أن الله تبارك وتعالى قال : { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ قُل أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [الحجرات : ١٤ : ١٧] .

فقد قال تعالى : { لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } وهذا الحرف . أي [لما] ، ينفي به ما قرب وجوده، وانتظر وجوده، ولم يوجد بعد . فيقول لمن ينتظر غائباً أي : [لما] ، ويقول : قد جاء لما يجيء بعد . فلما قالوا : { آمنا } قيل : { لَّمْ تُؤْمِنُوا } بعد، بل الإيمان مرجو منتظر منهم .

القول الثاني : إن مرتكب الكبيرة يسمى مسلماً، ويسمى مؤمناً، وإن كان ذلك ليس على الكمال، لأنه لا يخرج من هذا المسمى بسبب ارتكابه لشيء من الكبائر؛ لأن أصل الإيمان معه فهو بالتالي لا يخرج منه إلا بارتكابه لما يناقض أصل الإيمان، فمن دخل في الإيمان والإسلام استحق هذا المسمى وإن لم يستكمله.

قال محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة : "فمن صدق بالله فقد آمن به، ومن آمن بالله فقد خضع لله وقد أسلم لله، ومن صام، وصلى، وقام بفرائض الله، وانتهى عما نهى الله عنه، فقد استكمل الإيمان والإسلام المفترض عليه، ومن ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الإيمان ولا الإسلام إلا أنه أنقص من غيره في الإسلام والإيمان من غير نقصان من الإقرار بأن الله وما قال حق لا باطل، وصدق لا كذب، ولكن ينقص من الإيمان الذي هو تعظيم للقدر، خضوع للهبة والجلال، والطاعة للمصدق به وهو الله عز وجل، فمن ذلك يكون النقصان، لا من إقرارهم بأن الله حق وما قاله صدق" .

وقال في موضع آخر : "إن شاربة الخمر والسارقة مؤمنة في الحكم والاسم، لا مؤمنة مستكملة الإيمان، ومستحقة ثواب المؤمنين" .

وقد عزا المروزي هذا القول إلى جمهور أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث ٤ . وهذا القول الذي ذكره المروزي رحمه الله ونصره من جواز تسمية مرتكب الكبيرة مؤمناً يلزم كل من لم ير فرقاً بين مسمى الإسلام والإيمان في الشرع، وإنما يرى أن الإسلام والإيمان شيء واحد.

وعلى هذا القول البخاري صاحب الصحيح وعزاه في الفتح إلى المزني صاحب الشافعي، وإليه ذهب ابن عبد البر، وعزاه إلى جمهور أهل السنة والحديث

فهذان القولان مأثوران عن أهل السنة في تسمية مرتكب الكبيرة، وأن منهم من لا يجيز تسميته مؤمناً وإنما يسميه مسلماً.

ومنهم من يرى أنه لا يجوز أن ننفي عنه اسم الإيمان؛ لأن الإسلام والإيمان سواء، بل يسمى مؤمناً ومسلماً.

والقولان متقاربان جداً؛ لأن من لا يرى جواز إطلاق اسم الإيمان على الفاسق لا يخرج من الدين، بل يرى أن معه إيمان به تصح أعماله، وبه تصح نسبته إلى هذا الدين، إلا أن إيمانه نقص نقصاً لا يستحق معه إطلاق هذا المسمى عليه، ويجوز عنده أن يقال عنه إنه مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته. ومن يرى أنه يجوز إطلاق اسم الإيمان على مرتكب الكبيرة لا يعتقد أنه على إيمان كامل، بل يرى أنه ناقص الإيمان غير مستكمل له، لكن لا يجوز أن نقول إنه غير مؤمن بإطلاق، وإنما يجوز أن نقول هو غير كامل الإيمان.

فمن هنا يتبين أن الخلاف بين القولين في المسمى؛ لأن كلا منهما اعتبر أوجهاً شرعية رأى فيها ما يرى أنه الحق. فأصحاب القول الأول الذين يرون عدم جواز إطلاق اسم الإيمان على مرتكب الكبيرة لاحظوا أن الشرع اعتبر اسم الإيمان اسم ترقية ومدح وثناء، ومرتكب الكبيرة ليس من أهلها. أما أصحاب القول الثاني فلاحظوا أن الشارع أثبت هذا المسمى لمن وقع في بعض الكبائر كما في قوله تعالى {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا} . فسماهم مؤمنين مع وقوع الاقتتال بينهم . وقد أجاب عن ذلك أصحاب القول الأول: بأن هذا الإطلاق إنما هو على اعتبار أنهم مؤمنون في الأحكام والموارث وليس في الإطلاق العام، وهم يقولون إن مرتكب الكبيرة يسمى مؤمناً على هذا الاعتبار. روى الآجري بسنده عن سفيان الثوري أنه قال: "الناس عندنا مؤمنون في الأحكام والموارث، ولا ندرى كيف هم عند الله عز وجل ونرجو أن نكون كذلك" .

وذكر شيخ الإسلام أن الشالنجي قال: سألت الإمام أحمد عن قال: أنا مؤمن عند نفسي من طريق الأحكام والموارث، ولا أعلم ما أنا عند الله، قال: ليس بمرجئ.

قال شيخ الإسلام: وبه قال أبو خيثمة وابن أبي شيبه قال أبو عبيد معللاً وجه الاستثناء في الإيمان عند السلف: مخافة ما أعلمتكم في الباب الأول من التزكية والاستكمال عند الله، وأما على أحكام الدنيا فإنهم يسمون أهل الملة جميعاً مؤمنين؛ لأن ولايتهم وذبائهم وشهادتهم ومناكحتهم وجميع سننهم إنما هي على الإيمان .

ومما يجمع عليه السلف أن مرتكب الكبيرة لا يكفر بسبب ارتكابه لشيء من الكبائر.

وأما ما جاء من النصوص في نفي الإيمان عن مرتكب بعض الكبائر فقد اختلف العلماء في معنى هذه الأحاديث إلى أقوال عدة، وذلك بعد أن أجمعوا على أن المعاصي لا يخرج صاحبها من الدين ولا يكون بها كافراً خلافاً للخوارج والمعتزلة .

القول الأول: أن المراد بذلك أن الإيمان يرتفع عنه حال المعصية، ثم إذا أفلح وتاب رجع إليه إيمانه، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق.

وممن قال بهذا ابن عباس .فقد روي عنه أنه كان يقول لغلمانه ” :من أراد منكم الباءة زوجناه لا يزني منكم زان إلا نزع منه نور الإيمان فإن شاء أن يردده عليه رده عليه، وإن شاء أن يمنعه منعه” (أخرجه الآجري في الشريعة وابن أبي شيبة في الإيمان ، وابن بطة في الكبير ، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة).
وبه قال أبو هريرة أيضاً فقد روي عنه أنه قال ” :الإيمان نزه فمن زنا فارقه الإيمان فإن لام نفسه وراجع رجع إليه الإيمان” (الآجري في الشريعة ، السنة لعبد الله).

وبه قال الإمام أحمد، فقد روي الخلال أن حنبل قال ” :قلت لأبي عبد الله: إذا أصاب الرجل ذنباً من زنا أو سرق يزايله إيمانه؟ قال :هو ناقص الإيمان فخلع منه الإيمان كما يخلع الرجل قميصه فإذا تاب وراجع عاد إليه إيمانه” (السنة للخلال وانظر مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى).

وبهذا قال عطاء وطاووس والحسن رحمهم الله (التمهيد لابن عبد البر).

ومن قال بهذا القول لا يعني أن إيمان العاصي زال عنه بالكلية بحيث خرج من الدين بالكلية فهذا ليس قولاً لأهل السنة، وإنما هو قول الخوارج والمعتزلة، وإنما المقصود زال عنه نوره الذي يدفعه للخير ويحجزه عن الشر، وبقي له من الإيمان اسم لا يدفع عنه العقوبة يوم القيامة.

♦ قال شيخ الإسلام في الفتاوى في حديث أبي هريرة :قوله “خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة” دليل على أن الإيمان لا يفارقه بالكلية، فإن الظلة تظل صاحبها وهي متعلقة ومرتبطة به نوع ارتباط – ثم بين رحمه الله، أن التصديق الذي يفرق بين المسلم والكافر، والذي يمنع الخلود في النار وترجي به الشفاعة والمغفرة ويستحق به المناكحة والموارثة لم ينعدم من مرتكب الكبيرة، إنما زال عنه الإيمان الذي ينال به النجاة من العذاب وتكفير السيئات وكرامة الله ومثوبته ويكون به محموداً مرضياً، وبين أيضاً، أن الزاني ونحوه لفرط شهوته، أو لغفلته عن التحريم، وعظمة الرب، غمر مقتضى إيمانه، ومنعه من التأثير وذلك مثل عقل السكران، فإن عقل السكران مستور بسبب سكره فلو قال قائل :السكران ليس بعاقل، فإذا صحا عاد عقله إليه كان صادقاً، مع العلم بأنه ليس بمنزلة البهيمة إذ أن عقل السكران مستور وعقل البهيمة معدوم، فكذلك معنى الحديث أصل إيمانه موجود، ولكن الإيمان الذي يمنع ارتكاب المنكرات ويبلغ أعلى الدرجات في الجنة معدوم.

القول الثاني :إنه بارتكابه للكبائر يخرج من الإيمان إلى الإسلام، وذلك أن الإيمان مرتبة عالية والإسلام دونها، فارتكابه للذنوب ووقوعه في القبائح يتنافى مع الرتبة العالية في الدين، وهي الإيمان، فيخرج منها إلى المرتبة التي دونها وهي الإسلام، ولا يعني ذلك أنه لم يبق في قلبه شيء من الإيمان، وإنما معه إيمان ينجيه من الخلود في النار، وقد قال بهذا أبو جعفر الباقر وهو قول للإمام أحمد.

القول الثالث :أن المنفي في هذه الأحاديث هو الكمال الواجب الذي يعاقب تاركه، قال أبو عبيد القاسم بن السلام رحمه الله ” :فكلما خالطت هذه المعاصي هذا الإيمان المنعوت تعبيرها (يقصد بذلك الآيات التي وصفت المؤمنين بالصفات الكاملة) قيل ليس هذا من الشرائط التي أخذها الله على المؤمنين، ولا الأمارات التي يعرف

بها أنه الإيمان، فنفت عنهم حينئذ حقيقته ولم يزل عنهم اسمه . ”فإن قال قائل كيف يجوز أن يقال :ليس بمؤمن، واسم الإيمان غير زائل عنه؟ قيل :هذا كلام العرب المستفيض عندنا غير المستكر في إزالة العمل عن عامله إذا كان عمله على غير حقيقته، ألا ترى أنهم يقولون للصانع إذا كان ليس بمحكم لعمله :ما صنعت شيئاً ولا عملت عملاً، وإنما وقع معناها هاهنا على نفي التجويد لا على الصنعة نفسها، فهو عندهم عامل بالاسم وغير عامل في الإتيان (الإيمان لأبي عبيد ص ٩٠ . وانظر نحوه عند المروزي في تعظيم قدر الصلاة).

وهو قول للإمام أحمد، وأخذ به القاضي أبو يعلى، ورجحه بقوة المروزي وقال به النووي، وابن عبد البر، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والسفاري (مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى ، شرح النووي على مسلم . مجموع الفتاوى ، الانتصار في الرد على المعتزلة ، التمهيد لابن عبد البر ، لوامع الأنوار البهية ، تعظيم قدر الصلاة للمروزي). القول الرابع :إن أحاديث الوعيد كلها تمر كما جاءت ولا تفسر، وأنها على التأكيد والتشديد.

وممن روي عنه ذلك الزهري حيث سئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم “ليس منا من لطم الخدود” وما أشبهه، فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه فقال: “من الله عز وجل العلم وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم”. (السنة للخلال ، مجموع الفتاوى).

وهو قول للإمام أحمد، وعزا شيخ الإسلام إلى عامة علماء السلف أنهم يقرون هذه الأحاديث ويمرونها كما جاءت، ويكرهون أن تتأول تأويلات تخرجها عن مقصود الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك عزا ابن حجر إلى كثير من السلف إطلاق لفظ الأخبار في الوعيد، وعدم التعرض لتأويله ليكون أبلغ في الزجر.

القول الخامس :قول من يرى أن أحاديث الوعيد عموماً خرجت مخرج التغليظ والمبالغة في الزجر عن المعاصي، وعزا هذا القول ابن حجر إلى الطيبي، وقد استنكر هذا القول أبو عبيد وقال عنه :أفطع ما تأول على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، أن جعلوا الخبر عن الله وعن دينه وعيلاً لا حقيقة له، وهذا يؤول إلى إبطال العقاب، لأنه إن أمكن ذلك في واحد منها كان ممكناً في العقوبات كلها (الإيمان لأبي عبيد . الانتصار في الرد على القدريّة ، فتح الباري).

القول السادس :إن الحديث ليس خبراً، وإنما هو نهى فيكون معناه “لا يزني الزاني وهو مؤمن ... “، أي لا ينبغي للمؤمن أن يزني تنزيهاً للإيمان وتعظيماً له، وقال بهذا الضحاك وكذلك الخطابي، وقد رده العلماء :بأن الحديث صريح زفي الخبر وليس النهي.

القول السابع :إن المراد به مستحل الزنا وشرب الخمر، وأن المنفي في ذلك هو الإيمان بالكلية ٢ . فهذه أشهر الأقوال في معنى هذه الأحاديث، وظاهر منها أن الأقوال الأربعة الأولى متقاربة، وهي تؤكد أن الكبيرة والذنب عموماً يؤثر على الإيمان، إما بنفي كماله، أو نوره وما يكون به خضوع لهيبة الله وجلاله، أو بإخراجه من دائرة أهل الإيمان إلى مرتبة أدنى في الدين وهي الإسلام، وإما أن يترك اللفظ الشرعي كما ورد ولا يؤول ليكون

أبلغ في الزجر، مع اعتقاد أن مرتكب الكبيرة لا يكفر بذلك. (ينظر بحث مسمى الايمان لسعود بن عبد العزيز الخلف).

^١ — قال ابن عبد البر رحمه الله: " أجمع المسلمون على أن جاحد فرض الصلاة كافر يقتل إن لم يتب من كفره ذلك ، واختلفوا في المقر بها وبفرضها التارك عمدا لعملها ، وهو على القيام بها قادر " انتهى من "الاستذكار" (٢ / ١٤٩).

♦ وقال ابن قدامة رحمه الله: " تَارَكَ الصَّلَاةَ لَا يَخْلُو ؛ إِمَّا أَنْ يَكُونَ جَاحِدًا لِوُجُوبِهَا ، أَوْ غَيْرَ جَاحِدٍ ، فَإِنْ كَانَ جَاحِدًا لِوُجُوبِهَا نَظَرَ فِيهِ ، فَإِنْ كَانَ جَاهِلًا بِهِ ، وَهُوَ مِمَّنْ يَجْهَلُ ذَلِكَ ، كَالْحَدِيثِ الْإِسْلَامِ ، وَالنَّاشِئِ بِبَادِيَةٍ ، عُرِفَ وَجُوبُهَا ، وَعَلِمَ ذَلِكَ ، وَلَمْ يُحْكَمْ بِكُفْرِهِ ؛ لِأَنَّهُ مَعْدُورٌ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَجْهَلُ ذَلِكَ ، كَالنَّاشِئِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَمْصَارِ وَالْقُرَى ، لَمْ يُعَذَّرْ ، وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ ادِّعَاءُ الْجَهْلِ ، وَحُكِمَ بِكُفْرِهِ ؛ لِأَنَّ أَدْلَةَ الْوُجُوبِ ظَاهِرَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَالْمُسْلِمُونَ يَفْعَلُونَهَا عَلَى الدَّوَامِ ، فَلَا يَخْفَى وَجُوبُهَا عَلَى مَنْ هَذَا حَالُهُ ، فَلَا يَجْحَدُهَا إِلَّا تَكْذِيبًا لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ ، وَهَذَا يَصِيرُ مُرْتَدًّا عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَحُكْمُهُ حُكْمُ سَائِرِ الْمُرْتَدِّينَ ، فِي الْإِسْتِثْنَةِ وَالْقَتْلِ ، وَلَا أَعْلَمُ فِي هَذَا خِلَافًا " انتهى من "المغني" (٢ / ١٥٦).

ومن تركها تهاونا بها واستخفافا بحقها ، فهذا الذي اختلف العلماء في شأنه ، فمنهم من يحكم بكفره ، ومنهم من يحكم بعدم كفره ، ومنهم من يحكم بكفره إذا كان تاركا لها بالكلية ، أما إذا كان يصلي أحيانا وأحيانا لا يصلي فهذا لا يحكم بكفره.

♦ وقال ابن عثيمين رحمه الله: " الذي يظهر لي أنه لا يكفر إلا بالترك المطلق بحيث لا يصلي أبداً ، وأما من يصلي أحيانا فإنه لا يكفر " انتهى من "مجموع فتاوى ابن عثيمين"
فتارك الصلاة كسلا اختلف فيه اهل العلم على قولين :-

القول الاول :انه لا يكفر وقد حكي الاجماع على عدم كفر تارك الصلاة كسلا عن بعضهم كما حكي الاجماع على خلافه

♦ جاء في المغني " أنه لا يكفر بل هو فاسق مرتكب لكبيرة من أعظم الكبائر، وهذا القول هو قول جمهور الفقهاء، وقد استدلو على عدم كفره بأدلة أتى على معظمها الإمام ابن قدامة المقدسي في المغني قال رحمه الله تعالى :والرواية الثانية -عن أحمد-، يقتل حدا، مع الحكم بإسلامه، كالزاني المحصن، وهذا اختيار أبي عبد الله بن بطة، وأنكر قول من قال: إنه يكفر. وذكر أن المذهب -أي مذهب أحمد- على هذا، لم يجد في المذهب خلافا فيه.

وهذا قول أكثر الفقهاء، وقول أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وروى عن حذيفة أنه قال: يأتي على الناس زمان لا يبقى معهم من الإسلام إلا قول لا إله إلا الله. فقيل له: وما ينفعهم؟ قال: تنجيهم من النار، لا أبا لك. وعن والآن، قال: انتهيت إلى داري، فوجدت شاة مذبوحة، فقلت: من ذبحها؟ قالوا: غلامك. قلت: والله إن غلامي لا يصلي، فقال النسوة: نحن علمناه يسمي، فرجعت إلى ابن مسعود فسألته عن ذلك، فأمرني بأكملها. والدليل على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله.

وعن أبي ذر، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة.

وعن عبادة بن الصامت، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل.

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة. متفق على هذه الأحاديث كلها، ومثلها كثير.

وعن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خمس صلوات كتبهن الله على العبد في اليوم والليلة، فمن جاء بهن، لم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن، فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة. ولو كان كافرا لم يدخله في المشيئة.

وقال الخلال في (جامعه): ... عن أبي شميلة أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى قباء فاستقبله رهط من الأنصار يحملون جنازة على باب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما هذا؟ قالوا: مملوك لآل فلان، كان من أمره، قال: أكان يشهد أن لا إله إلا الله؟ قالوا: نعم، ولكنه كان وكان. فقال لهم: أما كان يصلي؟ فقالوا: قد كان يصلي ويدع. فقال لهم: ارجعوا به، فغسلوه وكفنوه، وصلوا عليه، وادفنوه، والذي نفسي بيده، لقد كادت الملائكة تحول بيني وبينه. وروى بإسناده عن عطاء عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صلوا على من قال لا إله إلا الله.

ولأن ذلك إجماع المسلمين، فإننا لا نعلم في عصر من الأعصار أحداً من تاركي الصلاة ترك تغسيله، والصلاة عليه، ودفنه في مقابر المسلمين، ولا منع ورثته ميراثه، ولا منع هو ميراث مورثه، ولا فُرّق بين زوجين لترك الصلاة من أحدهما، مع كثرة تاركي الصلاة، ولو كان كافرا لثبتت هذه الأحكام كلها، ولا نعلم بين المسلمين خلافا في أن تارك الصلاة يجب عليه قضاؤها، ولو كان مرتدا لم يجب عليه قضاء صلاة ولا صيام. وأما الأحاديث المتقدمة - الدالة على كفر تارك الصلاة - فهي على سبيل التغليظ، والتشبيه له بالكفار، لا على الحقيقة، كقوله عليه السلام: سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر. وقوله: كفر بالله تبرؤ من نسب وإن دق. وقوله: من قال لأخيه يا كافر فقد باء

بها أحدهما. وقوله: من أتى حائضا أو امرأة في دبرها، فقد كفر بما أنزل على محمد. قال: ومن قال: مطرنا بنوء الكواكب، فهو كافر بالله، مؤمن بالكواكب. وقوله: من حلف بغير الله فقد أشرك. وقوله: شارب الخمر كعابد وثن. وأشبه هذا مما أريد به التشديد في الوعيد، وهو أصوب القولين. انتهى.

وأما القول الثاني :- ان تارك الصلاة بالكليّة تهاونا أو كسلا، كافر كفرا مخرجاً من الملة، وهذا مذهب الحنابلة ، ووجه عند الشافعية ، وقول عند المالكية ، وبه قالت طائفة من السلف ، وهو مذهب جمهور أصحاب الحديث ، وذهب إلى هذا ابن تيمية ، وابن القيم ، واختاره ابن عثيمين الأدلة:

أولاً: من الكتاب

١ - قول الله تعالى: { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا } [مريم: ٥٩] وَجْه الدلالة:

أن الله تعالى قال في المضيعين للصلاة المتبعين للشهوات: { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ }؛ فدل على أنهم حين إضاعتهم للصلاة واتباع الشهوات غير مؤمنين

٢ - قوله تعالى: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الروم: ٣١] وَجْه الدلالة:

بين الله عز وجل أن علامة كونهم من المشركين تركهم إقامة الصلاة

ثانياً: من السنة

١ - عن جابر رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشَّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرَكَ الصَّلَاةَ))

٢ - عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ))

وجْه الدلالة من الحديثين:

أن المعنى الكلي كالجنس، لا ينتفي بانتفاء فرد من أفرادهِ؛ فَمَنْ أَفْطَرَ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ رَمَضَانَ؛ لَا يُعَدُّ تَارِكًا لِفَرِيضَةِ الصَّيَامِ مُطْلَقًا؛ وَمَنْ تَرَكَ بَعْضَ الدُّرُوسِ؛ لَا يُعَدُّ تَارِكًا لَطَلَبِ الْعِلْمِ؛ لِذَا يُحْمَلُ النَّصُّ عَلَى التَّارِكِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَئِنَّهُ قَالَ: ((تَرَكَ الصَّلَاةَ))، وَهَذَا يَصْدُقُ عَلَى مَنْ تَرَكَهَا بِالْكُلِّيَّةِ، فَمَنْ تَرَكَ صَلَاةً أَوْ صَلَاتَيْنِ لَا يُقَالُ لَهُ: تَرَكَ الصَّلَاةَ

٣ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا غَزَا بِنَا قَوْمًا، لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ))

وجْه الدلالة:

دَلَّ الحديثُ على أنَّ إقامة الصلاة تُوجِبُ الحُكْمَ بالإسلام؛ فَإِنَّ الأَذَانَ إِنَّمَا هو دعاءٌ إلى الصلاة، فإذا كان موجباً للحُكْمِ بالإسلام، فالصلاة التي هي المقصودُ الأعظمُ أولى

٤- حديثُ عوفِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: ((خيارُ أئمتِّكم الذين تُحبُّونهم ويحبُّونكم، ويصلُّون عليكم وتُصلُّون عليهم، وشرارُ أئمتِّكم الذين تُبغضونهم ويُبغضونكم، وتَلعنونهم ويلعنونكم، قيل: يا رسولَ الله، أفلا تُنايذهم بالسَّيفِ؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاةَ))

٥- حديثُ عبادة بن الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: ((دعانا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبايعناهُ، فقال فيما أَخَذَ علينا: أَنْ بايعنا على السَّمْعِ والطاعةِ في مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا ، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ علينا ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ))

وَجْهَ الدَّلَالَةِ مِنَ الْحَدِيثَيْنِ:

دَلَّ مجموعُ الحديثينِ على أَنَّ تَرْكَ الصلاةِ وعدمَ إقامتها كُفْرٌ بَوَاحٍ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ ثَالِثًا:

إجماعُ الصَّحابةِ

ومِمَّا يدلُّ على الإجماعِ ما يلي:

١- عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ أَنَّهُ دَخَلَ مع ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا على عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حينَ طَعِنَ، فقال ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، الصلاةُ! فقال: أَجَلْ! إِنَّهُ لَا حَظَّ في الإسلامِ لِمَنْ أَضَاعَ الصلاةَ) وَجْهُ الدَّلَالَةِ:

أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ قالَ هذا بِمَحْضَرٍ مِنَ الصَّحابةِ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْهِ؛ فَصارَ إجماعًا منهم

٢- قال عبدُ اللهِ بنُ شَقِيقٍ القُفَيْلِيُّ: (كانَ أَصْحابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصلاةِ) وَجْهُ الدَّلَالَةِ:

هذه الصَّيْغَةُ تدلُّ على أَنَّ الصَّحابةَ اجْتَمَعُوا على هذه المقالة؛ لِأَنَّ قولَهُ: (كانَ أَصْحابُ رسولِ اللهِ) جُمْعٌ مُضَافٌ، وَهُوَ مِنَ المُشْعِرَاتِ بِذلك

نَقَلَ إجماعَ الصَّحابةِ على ذلك: إِسْحاقُ ابنُ رَاهَوَيْهَ ، وابنُ القَيْمِ ، والشُّوكَانِيُّ

ومِثْلُ هذا يكونُ محلَّ اجتِهادٍ مِنَ الفَرِيقَيْنِ ؛ فالأولونَ رَأَوْا أَنَّ قولَ عبدِ اللهِ بنِ شَقِيقِ المُتَقَدِّمِ ظاهِرٌ في إجماعِ الصَّحابةِ على كُفْرِ تاركِ الصلاةِ ، وَمِنْ ثَمَّ حَكَوْهُ إجماعًا.

والآخرونَ رَأَوْا أَنَّ في فعلِ المُسلمينَ في كُلِّ عَصَرٍ : من تَغْسِيلِ تاركِ الصلاةِ والصلاةِ عَلَيْهِ ودَفْنِهِ في مقابرِ المُسلمينَ ونحو ذلك ، دليلاً على إجماعِ المُسلمينَ على القولِ بِعدمِ كُفْرِهِ.

والاسم في الاسلام والايمان	ان يُفردا تتحد المعاني
خلاف ذا الاسلام للذي انكشف	وما خفا الايمان في قول السلف ^(١)

ورأوا أن الأحاديث التي تدل بظاهرها على كفره إنما يراد بها التغليظ والتشديد في الوعيد ، ومن ذلك قول عبد الله بن شقيق .

والمسألة خلافية ، فكما يختلفون في النصوص وفهمها ، فكذلك اختلفوا فيما يكون ظاهره حكاية الإجماع ، فكما لا يقال : إذا كان هؤلاء يحتجون بالنصوص الشرعية فكيف خفيت على أولئك تلك النصوص ؟ لأنه يقال : إنها لم تخف عليهم ، ولكنهم اجتهدوا في فهمها وما تؤدي إليه من الحكم ، فكذا في مسألة الإجماع ، فالقائلون بعدم كفر تارك الصلاة لا ينكرون هذه الأحاديث ، ولا ينكرون قول ابن شقيق المتقدم ، ولكنهم يرون أن هذه النصوص وإن أطلقت لفظ الكفر على تارك الصلاة ؛ إلا أنها لا تدل على كفره الكفر المخرج عن الملة ، ولذلك كانت هذه المسألة من الخلاف السائغ .

فالفريق الأول حكى الإجماع بالنظر إلى ظاهر النصوص ، والتي لا يخالف في تصحيحها أحد ، ويقول ابن شقيق ، وإسحاق بن راهويه ، ونحو ذلك .

والفريق الثاني حكى الإجماع بما رآه من عمل الأمة في كل عصر ومصر .

فحكاية الإجماع من الفريقين محل نظر واجتهاد ، ولو ثبت إجماع كل فريق عند الفريق الآخر ، ورآه إجماعاً منضبطاً محفوظاً ، لم يخالفه إن شاء الله ، وإنما الشأن في أن يسلم ثبوت ذلك الإجماع .

^١ - إذا ورد أحد هذين اللفظين (الاسلام والايمان) مفرداً عن الآخر فالمقصود به دين الإسلام كله، ولا فرق حينئذ بين الإسلام والإيمان .

وإذا ورد هذان اللفظان معاً في سياق واحد، فالإيمان يراد به الأعمال الباطنة، وهي أعمال القلوب كالإيمان بالله تعالى، وحبه وخوفه ورجائه سبحانه وتعالى والإخلاص له . وأما الإسلام فيراد به الأعمال الظاهرة التي قد يصحبها الإيمان القلبي، وقد لا يصحبها فيكون صاحبها منافقاً أو مسلماً ضعيف الإيمان .

قال ابن باز في فتاويه : " الإيمان هو الإسلام ، والإسلام هو الإيمان عند الإطلاق ؛ لأن الإيمان تصديق القلوب وكل ما يتعلق بالإسلام من قول أو عمل ، والإسلام كذلك هو الانقياد لله والخضوع له بتوحيده والإخلاص له وطاعة أوامره وترك نواهيه ؛ فإذا أطلق أحدهما شمل الآخر ، كما قال : { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } [آل عمران : ١٩] ، يعني : والإيمان داخل في ذلك .

أما إذا جمعا فإن الإسلام هو الأعمال الظاهرة ، والإيمان هو الأعمال الباطنة ، إذا جمع بينهما كما في حديث جبريل أنه سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان ، فسر له النبي ﷺ الإسلام بالأمر الظاهرة كالشهادتين والصلاة

لمن يشاء تحصل الشفاعة^(١)

وفي ذوي التوحيد حين الساعة

والزكاة والصيام والحج، وفسر له الإيمان بالأُمور الباطنة قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

هذا هو الفرق بينهما عند الاجتماع يكون الإسلام المراد به الأعمال الظاهرة، والإيمان الأعمال الباطنة، وإن أطلق بأحدهما يدخل فيه الآخر، وهكذا قوله ﷺ: الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان، الإيمان بضع وسبعون شعبة، هذا يدخل فيه الإسلام، ولهذا ذكر: أفضل الإيمان لا إله إلا الله، وهي أصل الإسلام، فدل ذلك على أن الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام، وهكذا إذا أطلق الإسلام دخل فيه الإيمان عند أهل السنة . نعم."

^١ — يوم القيامة وإن كان يوم المخاوف والأهوال ، إلا أن رحمة الله تعالى تدرك عباده المؤمنين ، وتتجلى تلك الرحمة في إذنه سبحانه لمن شاء من عباده أن يشفعوا في العصاة ممن يرضى الله عنهم ، قال تعالى : { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } [البقرة: من الآية ٢٥٥] ، وقال تعالى : { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } [الأنبياء : ٢٨] ، فالشفاعة في ذلك اليوم من أعظم الرحمات التي يمتن الله بها على عباده ، ولا سيما في حق العصاة ممن استحقوا دخول النار أو دخلوها ، فكم هي فرحتهم وكم هي سعادتهم عندما يحال بينهم وبين دخول النار ، أو عندما يخرجون منها بعد دخولهم فيها .

وأعظم الشفاعات التي تجري في ذلك اليوم هي شفاعته صلى الله عليه وسلم في بدء الحساب للفصل بين العباد ، ذلك أن الخلق يطول بهم المقام في ساحة الحساب ، وتدنون الشمس من رؤوسهم مقدار ميل ، ويبلغ بهم الجهد والعرق مبلغاً عظيماً ، فيجتمع رأيهم حينئذ على طلب الشفاعة من الأنبياء ، ليشفعوا لهم عند ربهم ، فيأتون آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وكلهم يأبى عليهم ، ويذكر لنفسه ذنبا إلا عيسى بن مريم ، فلا يذكر لنفسه ذنبا ولكنه يأبى الشفاعة ويحيل الناس على النبي صلى الله عليه وسلم فيأتونه ، فيقول أنا لها ، أنا لها ، فيشفع صلى الله عليه وسلم إلى ربه ليفصل بين عباده ويريحهم مما هم فيه .

وهذه الشفاعة مما اختص الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم وهي المقام المحمود الذي وعده ، وهناك شفاعات أخرى يكرم الله بها نبيه ، ويخصه بها دون سائر الأنبياء ، منها شفاعته صلى الله عليه وسلم في استفتاح باب الجنة ، قال صلى الله عليه وسلم : ((أنا أول شافع في الجنة)) رواه مسلم .

ومن أنواع شفاعته صلى الله عليه وسلم شفاعته في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب ، فقد قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أغنيت عن عمك - يعني أبا طالب - فإنه كان يحوطك -

يحميك - ويغضب لك ، قال : ((هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)) متفق عليه . وهي شفاعاة خاصة .

ومن أنواع الشفاعاة شفاعته صلى الله عليه وسلم في عصاة المؤمنين ، وهذه المرتبة من الشفاعاة يشركه فيها سائر إخوانه من الأنبياء عليهم السلام ، والملائكة ، وصالحى الأمة وشهادتها ، وهي تكون فيمن استحق النار ألا يدخلها ، ومن دخلها أن يخرج منها . وقد تواترت الأدلة في إثبات هذا النوع من الشفاعاة ، منها ما ثبت في صحيح البخاري أن المؤمنين الذين اجتازوا الصراط يقفون يجادلون في إخوانهم الذين دخلوا النار فيقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فيُخرجون خلقا كثيرا ، منهم من قد أخذته النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه . ثم يقولون : ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به ، فيقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيرا ، فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط - أي مع إتيانهم بأصل التوحيد وأركانه - قد عادوا حمما ، فيلقىهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل - جانب - السيل .

هذه هي الشفاعاة رحمة الله لعباده المؤمنين في ذلك اليوم العظيم ، الذي لم يغضب الله قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ومع شدة غضبه سبحانه إلا أن رحمته سبقت غضبه فمن على عباده بالشفاعة ، فيا لها من رحمة ويالها من منة ، فينبغي للمسلم أن يحرص على تعاطي الأسباب الموجبة لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأعظم تلك الأسباب توحيد الله سبحانه حقاً ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : ((أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)) رواه البخاري ، ومن الأسباب الموجبة لشفاعته صلى الله عليه وسلم ، الدعاء له بالمقام المحمود ، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة)) رواه البخاري ، ومن أسباب شفاعته صلى الله عليه وسلم الصلاة عليه عشراً في الصباح وعشراً في المساء ، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من صلى علي حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة)) رواه الطبراني وحسنه الشيخ الألباني وهناك تمنع صاحبها استحقاق الشفاعاة يوم القيامة منها :-

أولاً: التلبس بالشرك: فالشرك مانعٌ من حصول الشفاعاة لصاحبها؛ ذلك أن مقتضى الشفاعاة حصول الصّبح والتجاوز عن المشفوع له، والله سبحانه وتعالى قد أخبر عن نفسه أنه لن يتجاوز أبداً عمن تلبس بالشرك وخالط

الكفر فقال : { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً } [النساء: ٤٨] ، والشرك محبطٌ للعمل مبطلٌ له، فمهما عمل صاحبه من أعمال فلن تُقبل منه، وستكون هباءً منثوراً : { ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين } [الزمر: ٦٥].

وإنما ينتفع بالشفاعات الثابتة من كان على حالٍ من التقصير والزلل والمعصية، لا سيما أهل الكبائر والموبقات، فعسى الله أن يعفو عنهم ويتجاوز عنهم بشفاعة الشافعين، أما أهل الشرك وأصحاب المعتقدات الكفرية فلن تنفعهم شفاعاة أحدٍ مهما علت منزلته عند ربه، قال الله تعالى واصفاً أهل النار { فما تنفعهم شفاعاة الشافعين } [المدثر: ٤٨] ، وقال سبحانه { ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع } [غافر: ١٨].

ثانياً : أصحاب الغدر والظلم العظيم : ومنهم ثلاثة أصناف أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى به ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفه أجره.. ثالثاً : اللاعانون : عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». رواه مسلم .

رابعا الاحداث في الدين :- وقد دلت النصوص على أنها تمنع من ورود الحوض يوم القيامة، فلا تنفع معه شفاعاة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((ألا وإنه سيحيا برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب! أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح : { وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد، إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم، فإنك أنت العزيز الحكيم } [المائدة: ١١٨] متفق عليه.

وقد أنكر الشفاعاة كل من الخوارج والمعتزلة ومن قلدهم واتبع قولهم من المعاصرين واستدلوا على ذلك بامور :-
١- استدلالهم بعموم بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : { واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعاة } ، وقوله تعالى : { ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع } ، قالوا والظالم اسم لكل من ظلم نفسه أو ظلم غيره لا تخص المشركين .

٢- قالوا عن أحاديث الشفاعاة: أنها لا تصح، ومن صححها منهم قال أنه خبر واحد لا يعارض القطعي، ولو لم يعارض القطعي لما أوجب العلم، فلا يحتج به في مثل هذه المسائل وبعضهم، قال: لا تصح لمخالفتها ما في القرآن، وذكر بعضهم روايات تخالف هذه الرواية ونصها ((لا تنال شفاعةي أهل الكبائر من أمتي)).

٣- والبعض أول هذه الأحاديث على فرض تصحيحه لها، على أن المراد به: شفاعةي لأهل الكبائر من أمتي إذا تابوا.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره : (مذهب أهل الحق: أن الشفاعة حق، وأنكرها المعتزلة وخلدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار في العذاب، والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين الذين تنالهم شفاعاة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين، وقد تمسك القاضي عليهم في الرد بشيئين:

أحدهما: الأخبار الكثيرة التي تواترت في المعنى.

والثاني: الإجماع من السلف على تلقي هذه الأخبار بالقبول.

ولم يبد من أحد منهم في عصر من الأعصار نكير، فظهور روايتها وإطباقهم على صحتها، وقبولهم لها، دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق، وفساد دين المعتزلة.

فإن قالوا قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هذه الأخبار مثل قوله { ما للظالمين من حميم ولا شفيع

يطاع } قالوا وأصحاب الكبائر ظالمون وقال { من يعمل سوءا يجز به } ، { ولا يقبل منها شفاعاة } ؟

قلنا: ليست هذه الآيات عامة في كل ظالم، والعموم لا صيغة له فلا تعم هذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل

نفس. (يعني أن ألفاظ العموم في القرآن (مثل: "كل"، أو "من") لا تفيد العموم المطلق في كل سياق، بل

تُخصَّص بالأدلة. لذا، فإن الآيات المتوَعَّدة للعصاة لا تشمل الموحدين من أهل الكبائر، بل تخص الكفار فقط

بدليل الأحاديث الثابتة في الشفاعة. ولذلك قال: " وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة

في ذلك، وأيضا فإن الله تعالى أثبت شفاعاة لأقوام ونفاها عن أقوام، فقال في صفة الكافرين { فما تنفعهم شفاعاة

الشافعين } ، وقال { ولا يشفعون إلا لمن ارتضى } وقال { ولا تنفع الشفاعاة عنده إلا لمن أذن له } فعلمنا بهذه

الجملة أن الشفاعاة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين، وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى { واتفقوا

يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعاة } النفس الكافرة لا كل نفس، ونحن وإن قلنا بعموم

العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول إنهم مخلدون فيها بدليل الأخبار التي رويناها وبدليل قوله { ويغفر ما دون

ذلك لمن يشاء } ، وقوله { إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون } ١٠. هـ

ثانياً: الرد على عدم قبولهم لأحاديث الشفاعاة، وتضعيفهم لها، وزعمهم أن خبر الواحد لا يحتج به في مثل هذه

المسائل، وقولهم إن ثبتت هذه الأحاديث فإنها لا تفيد القطع.

ويرد على هؤلاء بما يلي:

أولاً: وجوب الأخذ بالسنة وعدم معارضتها:

قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم } [سورة محمد ٣٣].

وَعَنْ الْعُرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ

مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودَّعٌ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،

وَأَيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ سُنَّتِي وَسُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ)) رواه الترمذي وصححه الالباني

والآيات الموجبة لطاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإتباع سنته والعمل بما فيها والتحاكم إليها كثيرة جداً، فيجب التحاكم إلى الكتاب والسنة عند وجود النزاع والاختلاف.

والتحاكم إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاته إنما هو بإتباع آثاره وهديه ورد الأمور إلى سنته الشريفة، لا ردها ومعارضتها بالأهواء والعقول، ولقد أوجب الله تعالى طاعته على الأنبياء والأمم قبلنا، قال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي، قَالُوا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوا وأنا معكم من الشاهدين } [ال عمران ٨١-٨٢]

قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حي ليؤمنن به ولننصرنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم أحياء ليؤمنن به ولننصرنّه.

قال ابن كثير في تفسيره : فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له - صلى الله عليه وسلم - والذي يحدد عنه أولوا العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النبوة إليه فيكون هو المخصوص به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ فَقَالَ أَمْتَهُوْكَونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقِّ فَتَكْذِبُوا بِهِ، أَوْ يَبَاطِلُ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي)) رواه احمد وحسنه الالباني .

فذا كان الأمر هكذا بالنسبة لمن قبلنا، فكيف يكون أمر الوجوب بالإتباع والتمسك التصديق والسمع والطاعة في حق هذه الأمة.

كما أن الله تعالى جعل علامة صدق محبته سبحانه وتعالى هي متابعة النبي - صلى الله عليه وسلم -، فمن ادعى محبة الله عز وجل وطاعته، ولم يتبع سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كاذب في دعواه.

قال تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [ال عمران

♦ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله.

كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) ولهذا قال {إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول.

كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب. وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" ا. هـ

وكما أن الله أمر بمتابعته، نهى عن تقديم رأي أو قول بين يدي الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي قبله، بل كونوا تبعاً في جميع الأمور. قال ابن عباس رضي الله عنه: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

وقال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه. وقال سفيان الثوري رحمه الله: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله بقول ولا فعل، ومن قدم قوله أو فعله على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد قدمه على الله تعالى، لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما يأمر عن أمر الله، فقوله تعالى ((لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ)) أصل في ترك التعرض لأقوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإيجاب إتباعه والإقتداء به.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول لكم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقولون قال أبو بكر وعمر.

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: إذا صح الحديث فهو مذهبي.

وقال: إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاتركوا قولي.

وقال رحمه الله: حرام على من يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً.

وقال الإمام مالك رحمه الله: ليس أحد بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه.

وكان رحمه الله يفتي بترك تحليل الأصابع في الوضوء، ويقول ليس ذلك على الناس، فجاءه ابن وهب وقال له: عندنا في ذلك سنة، فأخبره الحديث، فقال مالك: إن هذا حديث حسن وما سمعت به قط إلا الساعة، ثم أنه كان يأمر بالتحليل بعد ذلك.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يحل له أن يدعها لقول أحد.

وقال رحمه الله: كل مسألة صح فيها الخبر عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أهل النقل بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي.

وقال أيضاً: كل حديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو قولي وإن لم تسمعه مني.

وقال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله: لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا، لا تقلد دينك أحد من هؤلاء، ما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه فخذ به، ثم التابعين بعد الرجل فيه مخير.

وقال رحمه الله: رأي الأوزاعي ورأي مالك ورأي أبي حنيفة، كله رأي وهو عندي سواء، وإنما الحج في الآثار.

وقال أيضاً: من رد حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو على شفا هلكة. (صفة الصلاة للالباني).

قال ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسلة: عن سعيد بن جبير أنه حدث بحديث فقال له رجل من أهل الكوفة: إن الله تعالى يقول في كتابه كذا وكذا، فغضب سعيد وقال: لا أراك تعرض في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم بكتاب الله منك.

فإذا كان هذا إنكارهم على من عارض سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقرآن، فماذا تراهم قائلين لمن عارضها بآراء المتكلمين، ومنطق المتفلسفين، وأقيسة المتكلمين، وخيالات المتصوفة، وسياسات المعتدين.

ولله بلال بن سعد حيث يقول: ثلاث لا يقبل معهن عمل: الشرك والكفر والرأي.

قلت: يا أبا عمر وما الرأي؟

قال: يترك سنة الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقول بالرأي.

وقال أبو العالية في قوله تعالى { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا } قال: أخلصوا لله الدين والعمل والدعوة، أن جردوا الدعوة إليه وإلى كتابه وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقط لا إلى رأي فلان وقول فلان.

وقال سفيان في قوله تعالى { فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة } قال: يطبع على قلوبهم .. وقال الإمام أحمد: إنما هي الكفر.

ولقى عبدالله بن عمر جابر بن زيد في الطواف فقال له: يا أبا الشعثاء إنك من فقهاء البصرة، فلا تفت إلا بقرن ناطق أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلك.

وقال ابن خزيمة: قلت لأحمد بن نصر وحدث بخبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أما تأخذ به؟

فقال: أترى على وسطي زناراً، لا تقل لخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتأخذ به، وقل أصحيح هو ذا؟ فإذا صح الخبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلت به شئت أم أبيت.

وقال أفلح مولى أم سلمة رضي الله عنها: إنها كانت تحدث أنها سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول على المنبر وهي تمتشط: أيها الناس.

ف قالت لماشطتها: كفي رأسي.

قالت: فديتك إنما يقول أيها الناس.

قالت: ويحك ألسنا من الناس!

فكفت رأسها وقامت في حجرتها، فسمعت - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((يا أيها الناس بينا أنا على حوضي، إذ مر بكم زمراً زمراً، فتفرقت بكم الطرق، فناديتكم ألا هلم إلى الطرق، فينادي: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: سحفاً سحفاً)) .

وهذه الطرق التي تفرقت بهم هي الطرق والمذاهب التي ذهبوا إليها، وأعرضوا عن طريقه ومذهبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجوزون على الطريق التي هو عليها يوم القيامة، كما لم يسلكوا الطريق التي كان عليها هو وأصحابه. وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: إياكم والرأي فإن الله رد على الملائكة الرأي، وقال ((إني أعلم ما لا تعلمون)) وقال لنبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله)) ولم يقل بما رأيت.

وقال بعض العلماء: ما أخرج آدم من الجنة إلا بتقديم الرأي على النص، وما لعن إبليس وغضب عليه إلا بتقديم الرأي على النص، ولا هلك أمة من الأمم إلا بتقديم آرائها على الوحي، ولا تفرقت الأمة فرقاً وكانوا شيعاً إلا بتقديم آرائهم على النصوص.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برأي اجتهداً، والله ما آلو على الحق، وذلك يوم أبي جندل، والكتاب بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين أهل مكة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال بل تكتب كما نكتب "بسمك اللهم"، فرضي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبيت عليه، حتى قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تراني أَرْضَى وتَأبَى. ١. هـ

وكان عمر رضي الله عنه يقول بعد ذلك: "فعملت لذلك أعمالاً"، أي أنه أكثر من الأعمال الصالحة والتوبة حتى يغفر الله تعالى له اعتراضه يوم الحديبية، مع أنه رضي الله عنه إنما قال ما قاله دفاعاً عن الدين وانتصاراً للحق، ولم يقصد به. وحاشاه. الاعتراض على أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذه هي نصوص الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وأئمة الهدى، وشيوخ الإسلام الكبار عليهم رحمت رب العالمين ... لا كلام أهل الزيغ والأهواء، دعاة الضلالة الذين يردون آيات الكتاب العزيز،

ويردون ما صح من السنة المشرفة، ويطلون العمل بها، أو يعارضونها بكلامهم الباطل وآرائهم الفاسدة، لنشر مذاهبهم الهدامة، فتباً لها، وسحقاً سحقاً، وبعداً بعداً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)) رواه البخاري ومسلم.

- وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى؟! قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)) رواه البخاري ومسلم.

وقال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ)) رواه مالك في الموطأ وصححه الالباني في صحيح الترغيب .

ثالثاً: أحاديث الشفاعة متواترة، وهي تفيد القطع واليقين، وأحاديث الآحاد حجة يجب الأخذ والعمل بها: يقال لهم: إنكم لم تستندوا في ذلك لأي قاعدة من قواعد نقد الرواية، ولا إلى كلام أهل العلم بالحديث، وأحاديث الشفاعة من الأحاديث المتواترة، أما قولهم إنها لو صحت فهي خبر واحد لا يحتج به، فهذا من أصولهم الفاسدة التي ردوا بها أحاديث كثيرة، ويقال لهم قد نقلنا عن أئمة الحديث تواتر الأحاديث وعن أكثر من عشرين صحابياً، فإذا لم يكن مثل ذلك متواتراً، فما هو المتواتر؟!

• قال ابن الوزير رحمه الله في العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم -: ((وأحاديث الشفاعة المصرحة بخروج الموحدين من النار قاطعة في معناها بالإجماع، وهي قاطعة في ألفاظها، لورودها من عشرين صحابياً أو تزيد))

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى:

((وَأَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ كَثِيرَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ مِنْهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ أَحَادِيثٌ مُتَعَدِّدَةٌ وَفِي السُّنَنِ وَالْمَسَانِدِ مِمَّا يَكْثُرُ عَدْدُهُ)) .

وقال رحمه الله:

((.. وَالصَّحِيحُ مَا عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ: أَنَّ الْعِلْمَ يَحْصُلُ بِكَثْرَةِ الْمُخْبِرِينَ تَارَةً، وَقَدْ يَحْصُلُ بِصِفَاتِهِمْ لِدِينِهِمْ وَضَبْطِهِمْ، وَقَدْ يَحْصُلُ بِقَرَأَيْنِ تَحْتَفُ بِالْخَبَرِ، يَحْصُلُ الْعِلْمُ بِمَجْمُوعِ ذَلِكَ وَقَدْ يَحْصُلُ الْعِلْمُ بِطَائِفَةٍ دُونَ طَائِفَةٍ. وَأَيْضًا فَالْخَبَرُ الَّذِي تَلْقَاهُ الْأُئِمَّةُ بِالْقَبُولِ تَصَدِيقًا لَهُ أَوْ عَمَلًا بِمُوجِبِهِ يُفِيدُ الْعِلْمَ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْخَلْفِ وَالسَّلَفِ وَهَذَا فِي مَعْنَى الْمُتَوَاتَرِ.

لَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُسَمِّيهِ الْمَشْهُورَ وَالْمُسْتَفِيزَ وَيُقَسِّمُونَ الْخَبَرَ إِلَى مُتَوَاتِرٍ وَمَشْهُورٍ وَخَبَرٍ وَاحِدٍ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ.

فَأَكْثَرُ مُتُونِ الصَّحِيحَيْنِ مَعْلُومَةٌ مُتَقَنَّةٌ تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ وَأَجْمَعُوا عَلَى صِحَّتِهَا
وَأَجْمَاعُهُمْ مَعْصُومٌ مِنَ الْخَطَا كَمَا أَنَّ إِجْمَاعَ الْفُقَهَاءِ عَلَى الْأَحْكَامِ مَعْصُومٌ مِنَ الْخَطَا وَلَوْ أَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ عَلَى حُكْمٍ
كَانَ إِجْمَاعُهُمْ حُجَّةً وَإِنْ كَانَ مُسْتَنَدُ أَحَدِهِمْ خَبَرٌ وَاحِدٌ أَوْ قِيَاسًا أَوْ عُمُومًا فَكَذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ إِذَا
أَجْمَعُوا عَلَى صِحَّةِ خَبَرٍ أَفَادَ الْعِلْمُ وَإِنْ كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْخَطَا ؛ لَكِنَّ إِجْمَاعَهُمْ مَعْصُومٌ عَنِ الْخَطَا .
ثُمَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي أَجْمَعُوا عَلَى صِحَّتِهَا قَدْ تَتَوَاتَرَتْ وَتَسْتَفِيزُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ وَقَدْ يَحْصُلُ الْعِلْمُ
بِصِدْقِهَا لِبَعْضِهِمْ لِعِلْمِهِ بِصِفَاتِ الْمُخْبِرِينَ وَمَا افْتَرَنَ بِالْخَبَرِ مِنْهُ الْقَرَّائِنُ الَّتِي تُفِيدُ الْعِلْمَ كَمَنْ سَمِعَ خَبَرًا مِنْ
الصَّدِيقِ أَوْ الْفَارُوقِ يَرْوِيهِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَقَدْ كَانُوا شَهِدُوا مِنْهُ مَا شَهِدَ وَهُمْ مُصَدِّقُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ وَهُمْ
مُقَرَّرُونَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ وَقَوْلُهُ (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ) هُوَ مِمَّا تَلَقَّاهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ وَلَيْسَ هُوَ فِي أَصْلِهِ
مُتَوَاتِرًا ؛ بَلْ هُوَ مِنْ غَرَائِبِ الصَّحِيحِ لَكِنْ لَمَّا تَلَقَّوْهُ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ صَارَ مَقْطُوعًا بِصِحَّتِهِ .

وَفِي السُّنَنِ أَحَادِيثُ تَلَقَّوْهَا بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا وَصِيَّةَ لِرَاثٍ) فَإِنَّ هَذَا مِمَّا تَلَقَّاهُ
الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِمُوجِبِهِ وَهُوَ فِي السُّنَنِ لَيْسَ فِي الصَّحِيحِ .
وَأَمَّا عَدَدُ مَا يَحْصُلُ بِهِ التَّوَاتُرُ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ لَهُ عَدَدًا مَحْصُورًا ثُمَّ يُفَرِّقُ هَؤُلَاءِ فَقِيلَ: أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَقِيلَ:
اثنَا عَشَرَ وَقِيلَ: أَرْبَعُونَ وَقِيلَ: سَبْعُونَ وَقِيلَ: ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ وَقِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بَاطِلَةٌ
لِتَكَافُفِهَا فِي الدَّعْوَى .

وَالصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ: أَنَّ التَّوَاتُرَ لَيْسَ لَهُ عَدَدٌ مَحْصُورٌ وَالْعِلْمُ الْحَاصِلُ بِخَبَرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ يَحْصُلُ فِي
الْقَلْبِ ضَرُورَةً كَمَا يَحْصُلُ الشَّبَعُ عَقِيبَ الْأَكْلِ وَالرَّيِّ عِنْدَ الشُّرْبِ وَلَيْسَ لَمَّا يَشْبَعُ كُلُّ وَاحِدٍ وَيَرْوِيهِ قَدْرٌ مُعَيَّنٌ ؛ بَلْ
قَدْ يَكُونُ الشَّبَعُ لِكثَرَةِ الطَّعَامِ وَقَدْ يَكُونُ لِحُجُودَتِهِ كَاللَّحْمِ وَقَدْ يَكُونُ لاسْتِغْنَاءِ الْإِكْلِ بِقَلِيلِهِ ؛ وَقَدْ يَكُونُ لاشتغال
نَفْسِهِ بِفَرَحٍ أَوْ غَضَبٍ ؛ أَوْ حُزْنٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ . كَذَلِكَ الْعِلْمُ الْحَاصِلُ عَقِيبَ الْخَبَرِ تَارَةً يَكُونُ لِكثَرَةِ الْمُخْبِرِينَ وَإِذَا
كَثُرُوا فَقَدْ يُفِيدُ خَبَرُهُمُ الْعِلْمَ وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا . وَتَارَةً يَكُونُ لِدِينِهِمْ وَضَبْطِهِمْ . فَرُبَّ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ يَحْصُلُ مِنَ الْعِلْمِ
بِخَبَرِهِمْ مَا لَا يَحْصُلُ بِعَشْرَةٍ وَعِشْرِينَ لَا يُوَثِّقُ بِدِينِهِمْ وَضَبْطِهِمْ وَتَارَةً قَدْ يَحْصُلُ الْعِلْمُ بِكَوْنِ كُلِّ مِنَ الْمُخْبِرِينَ أَخْبَرَ
بِمِثْلِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْآخَرُ مَعَ الْعِلْمِ بَأَنَّهُمَا لَمْ يَتَوَاطَا وَأَنَّهُ يَمْتَنِعُ فِي الْعَادَةِ الْإِتِّفَاقُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِثْلَ مَنْ يَرْوِي حَدِيثًا
طَوِيلًا فِيهِ فُصُولٌ وَيَرْوِيهِ آخَرٌ لَمْ يَلْقَهُ وَتَارَةً يَحْصُلُ الْعِلْمُ بِالْخَبَرِ لِمَنْ عِنْدَهُ الْفِطْنَةُ وَالذِّكَاءُ وَالْعِلْمُ بِأَحْوَالِ الْمُخْبِرِينَ
وَبِمَا أَخْبَرُوا بِهِ مَا لَيْسَ لِمَنْ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ . وَتَارَةً يَحْصُلُ الْعِلْمُ بِالْخَبَرِ لِكَوْنِهِ رُويَ بِحَضْرَةِ جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ شَارَكُوا
الْمُخْبِرَ فِي الْعِلْمِ وَلَمْ يَكْذِبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّ الْجَمَاعَةَ الْكَثِيرَةَ قَدْ يَمْتَنِعُ تَوَاطُؤُهُمْ عَلَى الْكِتْمَانِ كَمَا يَمْتَنِعُ
تَوَاطُؤُهُمْ عَلَى الْكُذْبِ . وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ الْعِلْمَ بِأَخْبَارِ الْمُخْبِرِينَ لَهُ أَسْبَابٌ غَيْرُ مُجَرَّدِ الْعَدَدِ عِلْمٌ أَنَّ مَنْ قَيَّدَ الْعِلْمَ
بِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ وَسَوَّى بَيْنَ جَمِيعِ الْأَخْبَارِ فِي ذَلِكَ فَقَدْ غَلَطَ غَلَطًا عَظِيمًا
وَلِهَذَا كَانَ التَّوَاتُرُ يَنْقَسِمُ إِلَى: عَامٍّ ؛ وَخَاصٍّ .

فَأَهْلُ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ قَدْ تَوَاتَرَ عَنْدهُمْ مِنَ السُّنَّةِ مَا لَمْ يَتَوَاتَرَ عِنْدَ الْعَامَّةِ كَسُجُودِ السَّهْوِ وَوُجُوبِ الشُّفْعَةِ وَحَمْلِ الْعَاقِلَةِ الْعَقْلَ وَرَجْمِ الزَّانِي الْمُخْصَنِ ؛ وَأَحَادِيثِ الرُّؤْيَةِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ ؛ وَالْحَوْضِ وَالشَّقَاعَةِ ؛ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ الْخَبَرُ قَدْ تَوَاتَرَ عِنْدَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ وَقَدْ يَحْصُلُ الْعِلْمُ بِصِدْقِهِ لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ فَمَنْ حَصَلَ لَهُ الْعِلْمُ بِهِ وَجَبَ عَلَيْهِ التَّصَدِيقُ بِهِ وَالْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ كَمَا يَجِبُ ذَلِكَ فِي نَظَائِرِهِ .

وَمَنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ الْعِلْمُ بِذَلِكَ فَعَلَيْهِ أَنْ يُسَلِّمَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الْإِجْمَاعِ الَّذِينَ أَجْمَعُوا عَلَى صِحَّتِهِ كَمَا عَلَى النَّاسِ أَنْ يُسَلِّمُوا الْأَحْكَامَ الْمُجْمَعَةَ عَلَيْهَا إِلَى مَنْ أَجْمَعَ عَلَيْهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ .

فَإِنَّ اللَّهَ عَصَمَ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ تَجْتَمَعَ عَلَى ضَلَالَةٍ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ إِجْمَاعُهَا بِأَنْ يُسَلِّمَ غَيْرُ الْعَالِمِ لِلْعَالِمِ . إِذْ غَيْرُ الْعَالِمِ لَا يَكُونُ لَهُ قَوْلٌ ، وَإِنَّمَا الْقَوْلُ لِلْعَالِمِ ، فَكَمَا أَنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ أَدْلَةَ الْأَحْكَامِ لَا يُعْتَدُّ بِقَوْلِهِ ، فَمَنْ لَا يَعْرِفُ طُرُقَ الْعِلْمِ بِصِحَّةِ الْحَدِيثِ لَا يُعْتَدُّ بِقَوْلِهِ ، بَلْ عَلَى كُلِّ مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ أَنْ يَتَّبَعَ إِجْمَاعَ أَهْلِ الْعِلْمِ)) .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله أيضاً في الفتاوى :

أَمَّا مَنْ أَنْكَرَ تَوَاتُرَ حَدِيثٍ وَاحِدٍ فَيَقَالُ لَهُ :

التَّوَاتُرُ نَوْعَانِ : تَوَاتُرٌ عَنِ الْعَامَّةِ ؛ وَتَوَاتُرٌ عَنِ الْخَاصَّةِ وَهُمْ أَهْلُ عِلْمِ الْحَدِيثِ .

وَهُوَ أَيْضًا قِسْمَانِ : مَا تَوَاتَرَ لَفْظُهُ ؛ وَمَا تَوَاتَرَ مَعْنَاهُ .

فَأَحَادِيثُ الشَّقَاعَةِ وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ وَالرُّؤْيَةِ وَفَصَائِلِ الصَّحَابَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مُتَوَاتِرَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَهِيَ مُتَوَاتِرَةٌ الْمَعْنَى وَإِنْ لَمْ يَتَوَاتَرَ لَفْظٌ بَعَيْنِهِ وَكَذَلِكَ مُعْجَزَاتُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْخَارِجَةُ عَنِ الْقُرْآنِ مُتَوَاتِرَةٌ أَيْضًا وَكَذَلِكَ سُجُودُ السَّهْوِ مُتَوَاتِرٌ أَيْضًا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَكَذَلِكَ الْقَضَاءُ بِالشُّفْعَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَعُلَمَاءُ الْحَدِيثِ يَتَوَاتَرُ عَنْدهُمْ مَا لَا يَتَوَاتَرُ عَنْدهُمْ غَيْرُهُمْ ؛ لِكَوْنِهِمْ سَمِعُوا مَا لَمْ يَسْمَعْ غَيْرُهُمْ وَعَلِمُوا مِنْ أَحْوَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ غَيْرُهُمْ .

وَالْتَوَاتُرُ لَا يُشْتَرَطُ لَهُ عَدَدٌ مُعَيَّنٌ ؛ بَلْ مِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ ادَّعَى أَنَّ لَهُ عَدَدًا يَحْصُلُ لَهُ بِهِ الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ كُلُّ مُخْبِرٍ وَنَفَوْا ذَلِكَ عَنِ الْأَرْبَعَةِ وَتَوَقَّفُوا فِيمَا زَادَ عَلَيْهَا وَهَذَا غَلَطٌ فَالْعِلْمُ يَحْصُلُ تَارَةً بِالْكَثَرَةِ ؛ وَتَارَةً بِصِفَاتِ الْمُخْبِرِينَ ؛ وَتَارَةً بِقَرَائِنٍ تَقْتَرِنُ بِأَخْبَارِهِمْ وَبِأُمُورٍ أُخَرَ . وَأَيْضًا فَالْخَبَرُ الَّذِي

رَوَاهُ الْوَاحِدُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْإِثْنَانِ : إِذَا تَلَقَّيْتُمُ الْأُمَّةَ بِالْقَبُولِ وَالتَّصَدِيقِ أَفَادَ الْعِلْمَ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُسَمِّي هَذَا : الْمُسْتَفِيزَ .

وَالْعِلْمُ هُنَا حَصَلَ بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ عَلَى صِحَّتِهِ ؛ فَإِنَّ الْإِجْمَاعَ لَا يَكُونُ عَلَى خَطَأٍ ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ مُتُونِ الصَّحِيحَيْنِ مِمَّا يُعْلَمُ صِحَّتُهُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الطَّوَائِفِ : مِنَ الْحَنْفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ وَإِنَّمَا خَالَفَ فِي ذَلِكَ فَرِيقٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ))

• وقال ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسله :

الأخبار المقبولة في باب الأمور الخبرية العملية أربعة أقسام :

أحده: متواتر لفظاً ومعنى.

والثاني: أخبار متواترة معنى وإن لم تتواتر بلفظ واحد.

الثالث: أخبار مستفيضة متلقاة بالقبول بين الأمة.

الرابع: أخبار آحاد مروية بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط عن مثله، حتى تنتهي إلى رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأما القسمان الأولان: فكالأخبار الواردة في عذاب القبر، والشفاعة، والحوض، ورؤية الرب تعالى وتكليمه لعباده يوم القيامة، وأحاديث علوه فوق سماواته على عرشه، وأحاديث إثبات العرش، والأحاديث الواردة في إثبات المعاد والجنة والنار ونحو ذلك مما يعلم بالاضطرار أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - جاء بها، كما يعلم بالاضطرار أنه جاء بالتوحيد وفرائض الإسلام وأركانه، وجاء بإثبات الصفات للرب تبارك وتعالى.

فإنه ما من باب من هذه الأبواب إلا وقد تواتر به المعنى المقصود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - تواتراً معنوياً، لنقل ذلك عنه بعبارات متنوعة، من وجوه متعددة، يمتنع في مثلها في العادة التواطؤ على الكذب عمداً أو سهواً، وإذا كانت العادة العامة والخاصة المعهودة من حال سلف الأمة وخلفها تمنع التواطؤ على الاتفاق على الكذب في هذه الأخبار، ويمتنع في العادة وقوع الغلط فيها أفادت العلم اليقين، ثم للناس في حصول العلم بها طريقان:

أحدهما: أنه ضروري؛ والثاني: نظري.

فأصحاب الضرورة يستدلون بحصول العلم لهم ضرورة على حصول التواتر الموجب له، وأصحاب النظر يعكسون الأمر، ويقولون نحن نستدل بتواتر المخبرين على إفادة العلم.

والطريق الأول أعلى التقديرين، فكل عالم بهذه الأحاديث وطرقها ونقلها وتعددتها يعلم علماً يقينياً لا شك فيه، بل يجد نفسه مضطرة إلى ثبوتها أولاً، وثبوت مخبرها ثانياً، ولا يمكنه دفع هذين العلمين عن نفسه:

العلم الأول: ينشأ من جهة معرفته بطرق الأحاديث وتعددتها وتباين طرقها واختلاف مخارجها وامتناع التواطؤ زماناً ومكاناً على وضعها.

العلم الثاني: ينشأ من جهة إيمانه بالرسالة، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يخبر به.

وهذا عند أهل الحديث أعظم من علم الأطباء بوجود بقراط وجالينوس فإنهما من أفاضل الأطباء، وأعظم من علم النحاة بوجود سيويه والخليل والفراء وعلمهم بالعربية.

ولكن أهل الكلام وأتباعهم في غاية قلة المعرفة بالحديث وعدم الاعتناء به وكثير منهم بل أفضلهم عند أصحابه لا يعتقد أنه روى في الباب الذي يتكلم فيه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - شيئاً، أو يظن أن المروي فيه حديث أو حديثان، كما يجده لأكابر شيوخ المعتزلة كأبي الحسين البصري يعتقد أنه ليس في الرؤية إلا حديث واحد وهو حديث جرير، ولم يعلم أنه فيها ما يقارب ثلاثين حديثاً وقد ذكرناها في صفة الجنة وحادي الأرواح.

فإنكار هؤلاء لما علمه أهل الورثة النبوية من كلام نبيهم - صلى الله عليه وسلم -، أقبح من إنكار ما هو مشهور عن مذاهب الأئمة عند أتباعهم، وما يعلم أن كثيرًا من الناس قد تطرق سمعه هذه الأحاديث ولا تفيد علمًا لأنه لم تجتمع طرقها وتعددتها واختلاف مخارجها من قبله، فإذا اتفق له إعراض عنها أو نفرة عن روايتها وإحسان ظن بمن قال بخلافها أو تعارض خيال شيطاني يقوم بقلبه، فهناك يكون الأمر كما قال تعالى ((قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمي، أولئك ينادون من مكان بعيد)) .

فلو كانت أضعاف ذلك لم تحصل لهم إيمانًا ولا علمًا.

وحصول العلم في القلب بموجب التواتر مثل الشيع والري ونحوهما، وكل واحد من الأخبار يفيد قدرًا من العلم، فإذا تعددت الأخبار وقويت أفادت العلم إما للكثرة وإما للقوة وإما لمجموعهما كما يحصل الشيع إما بكثرة أو بقوة المأكول وإما لمجموعهما.

والعلم بمخبر الخبر لا يكون بمجرد سماع حروفه، بل يفهم معناه مع سماع لفظه، فإذا اجتمع في قلب المستمع لهذه الأخبار كالعلم بطريقها ومعرفة حال روايتها وفهم معناها حصل له العلم الضروري الذي لا يمكن دفعه.

ولهذا كان جميع أئمة الحديث الذين لهم لسان صدق في الأمة قاطعين بمضمون هذه الأحاديث شاهدين بها على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جازمين بأن من كذب بها أو أنكر مضمونها فهو كافر.

مع علم من له إطلاع على سيرتهم وأحوالهم بأنهم من أعظم الناس صدقًا، وأمانة، وديانة، وأوفرهم عقولًا، وأشدهم تحفظًا وتحريًا للصدق ومجانبة للكذب، وأن أحدًا منهم لا يحابي في ذلك أباه ولا ابنه ولا شيخه ولا صديقه، وأنهم حرروا الرواية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحريًا لم يبلغه أحد سواهم، لا من الناقلين عن الأنبياء ولا من غير الأنبياء، وهم شاهدوا شيوخهم على هذه الحال وأعظم، وأولئك شاهدوا من فوقهم كذلك وأبلغ، حتى انتهى الأمر إلى من أثنى الله عليهم أحسن الثناء وأخبر برضاه عنهم واختياره لهم، واتخاذهم إياهم شهداء على الأمم يوم القيامة.

ومن تأمل ذلك أفاده علمًا ضروريًا بما ينقلونه عن نبيهم أعظم من كل علم ينقله كل طائفة عن صاحبه، وهذا أمر وجداني عندهم لا يمكنكم جحده، بل هو بمنزلة ما تحسونه من الألم واللذة والحب والبغض، حتى إنهم يشهدون بذلك ويحلفون عليه ويباهون من خالفهم عليه.

وقول هؤلاء القادحين في أخباره وسنته يجوزون أن يكون رواة هذه الأخبار كاذبين أو غالطين، بمنزلة قول أعدائه يجوز أن يكون الذي جاء به شيطان كاذب.

وكل أحد يعلم أن أهل الحديث أصدق الطوائف كما قال عبدالله بن المبارك: وجدت الدين لأهل الحديث، والكلام للمعتزلة، والكذب للرافضة، والحيل لأهل الرأي، وسوى الرأي والتدبير لآل بني فلان.

وإذا كان أهل الحديث عالمين بأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال عن هذه الأخبار وحدث بها في الأماكن والأوقات المتعددة، وعلمهم بذلك ضروري، لم يكن قول من لا عناية له بالسنة والحديث . وأن هذه أخبار آحاد

لا تفيد العلم . مقبولا عليهم، فإنهم يدعون العلم الضروري وخصومهم إما أن ينكروا حصوله لأنفسهم أو لأهل الحديث، فإن أنكروا حصوله لأنفسهم لم يقدح في ذلك في حصوله لغيرهم، وإن أنكروا حصوله لأهل الحديث كانوا مكابرين، لهم على ما يعلمونه من نفوسهم بمنزلة من يكابر غيره على ما يجده في نفسه من فرحه وألمه وخوفه وحبه، والمناظرة إذا انتهت إلى هذا الحد لم يبق فيها فائدة، وينبغي العدول إلى ما أمر الله به ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المباهلة، قال تعالى ((فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)) ١. هـ

- وقال ابن القيم أيضاً في الصواعق المرسلة :

((بل نقول خبر الواحد يفيد العلم في مواضع:

أحدها: خبر من قام به الدليل القطعي على صدقه، وهو خبر الواحد القهار جل وعلا، وخبر رسوله - صلى الله عليه وسلم - في كل ما يخبر به.

الثاني: خبر الواحد بحضرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يصدقه، كخبر الحبر الذي أخبر بحضرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أن الله يضع السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع" فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعجباً وتصديقاً له، وكخبر من أخبره أنه رأى السد مثل البرد المحبر فقال "قد رأيته"، ومن هذا تربيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خبر المخبر له مقتضاه كغزو من أخبر بنقض قوم العهد، وخبر من أخبره عن رجل أنه شتمه ونال من عرضه فأمر بقتله.

فهذا تصديق للمخبر بالفعل وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقطع بصدق أصحابه كما قطع بصدق تميم الداري لما أخبره بقصة الدجال، وروى ذلك عنه على المنبر، ولم يقل أخبرني جبريل عن الله، بل قال: "حدثني تميم الداري"، ومن له أدنى معرفة بالسنة يرى هذا كثيراً فيما يجزم بصدق أصحابه، ويرتب على أخبارهم مقتضاها من المحاربة والمسالمة والقتل والقتال.

ونحن نشهد بالله، والله شهادة على البت والقطع لا نمتري فيها ولا نشك على صدقهم ونجزم به جزاً ضرورياً لا يمكننا دفعه عن نفوسنا، ومن هذا أنه كان يجزم بصدقهم فيما يخبرونه به من رؤيا المنام، ويجزم لهم بتأويلها ويقول إنها رؤية حق، وأثنى الله تعالى عليه بذلك في قوله ((وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ)) وأثنى عليه ومدحه بتصديقه لمن أخبره من المؤمنين.

ومن هذا إخبار الصحابة بعضهم بعضاً، فإنهم كانوا يجزمون بما يحدث به أحدهم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يقل أحد منهم لمن حدثه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرك خبر واحد لا يفيد العلم حتى يتواتر، وتوقف من توقف منهم حتى عضده آخر منهم لا يدل على رد خبر الواحد عن كونه خبر واحد، وإنما كان يستثبت أحياناً نادراً جداً إذا استخبر.

ولم يكن أحد من الصحابة ولا أهل الإسلام بعدهم يشكون فيما يخبر به أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا عمر ولا عثمان، ولا علي، ولا عبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو ذر، ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وعبدالله بن عمر، وأمثالهم من الصحابة رضي الله عنهم؛ بل كانوا لا يشكون في خبر أبي هريرة مع تفرد به بكثير من الحديث، ولم يقل أحد منهم يوماً من الدهر خبرك خبر واحد لا يفيد العلم، وكان حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجل في صدورهم من أن يقبل ذلك، وكان المنخر لهم أجل في أعينهم وأصدق عندهم من أن يقولوا له مثل ذلك.

وكان أحدهم إذا روى لغيره حديثاً عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصفات تلقاه بالقبول، واعتقد تلك الصفة به على القطع واليقين كما اعتقد رؤية الرب تعالى وتكليمه ونداءه يوم القيامة لعباده بالصوت الذي يسمعه البعيد كما يسمعه القريب، ونزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة، وضحكه وفرحه وإمساك سماواته على إصبع من أصابع يده وإثبات القدم له.

من سمع هذه الأحاديث ممن حدث بها عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عن صاحب اعتقد ثبوت مقتضاها بمجرد سماعها من العدل الصادق، ولم يَرْتَبْ فيها حتى أنهم ربما تثبتوا في بعض أحاديث الأحكام حتى يستظهروا بآخر كما استظهر عمر رضي الله عنه برواية أبي مسلمة على رواية المغيرة بن شعبة في توريث الجدة، ولم يطلب أحد منهم الاستظهار في رواية أحاديث الصفات البتة، بل كانوا أعظم مبادرة إلى قبولها وتصديقها والجزم بمقتضاها وإثبات الصفات بها من المنخر لهم بها عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن له أدنى إمام بالسنة والتفات إليها يعلم ذلك، ولولا وضوح الأمر في ذلك لذكرنا أكثر من مائة موضع.

فهذا الذي اعتمده نفاة العلم عن أخبار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرقوا به إجماع الصحابة المعلوم بالضرورة وإجماع التابعين وإجماع الإسلام، ووافقوا به المعتزلة والجهمية والرافضة والخوارج الذين انتهكوا هذه الحرمة، وتبعهم بعض الأصوليين والفقهاء، وإلا فلا يعرف لهم سلف من الأئمة بذلك، بل صرح الأئمة بخلاف قولهم.

فممن نص على أن خبر الواحد يفيد العلم:

مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة وداود بن علي وأصحابه كأبي محمد بن حزم، ونص عليه الحسين بن علي الكرابيسي والحرث بن أسد المحاسبي.

قال ابن خراز منداد في كتاب أصول الفقه: وقد ذكر خبر الواحد الذي لم يروه إلا الواحد والاثنان: ويقع بهذا الضرب أيضاً العلم الضروري نص على ذلك مالك.

وقال أحمد في حديث الرؤية: نعلم أنها حق ونقطع على العلم بها.

وكذلك روى المروزي قال: قلت لأبي عبدالله: ههنا اثنان يقولان إن الخبر يوجب عملاً ولا يوجب علماً.. فعابه وقال: لا أدري ما هذا.. قال القاضي: وظاهر هذا أنه يسوي بين العلم والعمل.

وقال القاضي: خبر الواحد يوجب العلم إذا صح سنده، ولم تختلف الرواية فيه وتلقته الأمة بالقبول، قال: والمذهب على ما حكيت لا غير .. فقد صرح بأن هذا هو المذهب ((١. هـ

– وقال ابن القيم رحمه الله أيضاً:

((وقال ابن أبي يونس في أول الإرشاد: وخبر الواحد يوجب العلم والعمل جميعاً، ونص أبو يعلى على هذا القول في الكفاية.

وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتبه الأصول كالتبصرة وشرح اللمع وغيرهما وهذا لفظه في الشرح: وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول يوجب العلم والعمل سواء عمل به الكل أو البعض، ولم يحك فيه نزاعاً بين أصحاب الشافعي، وحكى هذا القول القاضي عبد الوهاب من المالكية عن جماعة من الفقهاء، وصرحت الحنفية في كتبهم بأن الخبر المستفيض يوجب العلم ومثله بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لا وصية لوارث"، قالوا مع أنه إنما روي من طريق الآحاد (قالوا) ونحوه عن ابن مسعود في المتابعين إذا اختلفا أن القول قول البائع أو يترادان (قالوا) ونحوه حديث عبدالرحمن بن عوف في أخذ الجزية من المجوس (قالوا) وكذلك حديث المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة في إعطاء الجدة السدس، قد اتفق السلف والخلف على استعمال هذه الأخبار حين سمعوها، فدل ذلك من أمرها على صحة مخرجها وسلامتها، وإن قد خالف فيها قوم، فإنهم عندنا شذوذ ولا يعتد بهم في الإجماع ((١. هـ

وما أحسن الأثر الذي نقله ابن القيم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

((تلق الحق ممن قاله، فإن على الحق نوراً، ولكن أظلمت القلوب وعميت البصائر بالإعراض عما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وازدادت الظلمة باكتفائها بآراء الرجال، التبس عليهم الحق بالباطل فجوزت على أحاديثه الصحيحة التي رواها أعدل الأمة وأصدقها أن تكون كذباً، وجوزت على الأحاديث الباطلة المكذوبة المختلفة التي توافق أهواءها أن تكون صدقاً فاحتجت بها ((١. هـ

هذا وقد قرر علماء الأمة قديماً وحديثاً بأن خبر الآحاد حجة يوجب العلم والعمل فمن شاء أن يستزيد فليراجع كلامهم في ذلك .

رابعاً: الرد على الحديث الذي ذكروا وهو: (لا تنال شفاعتي أهل الكبائر من أمتي) :

فهو حديث موضوع باطل، وفي أسنى المطالب في أحاديث مختلف المراتب: أنه من أكاذيب المعتزلة. (نواقض الإيمان للوهبي).

خامساً: الرد على قولهم أن الشفاعة لمن تاب من أهل الكبائر.

فيجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الأحاديث ليس فيها هذا الاستثناء.

الثاني: عندكم يجب عللته قبول التوبة، فإذا قبل الله توبة المذنب لا يحتاج إلى الشفاعة، ولا إلى الاستغفار.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره :

فإن قالوا فقد قال تعالى { ولا يشفعون إلا لمن ارتضى } والفاسق غير مرتضى؟

قلنا: لم يقل لمن لا يرضى وإنما قال ((لمن ارتضى)) ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحدون بدليل قوله ((لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا)) وقيل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما عهد الله مع خلقه قال (أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا) وقال المفسرون إلا من قال لا إله إلا الله.

فإن قالوا المرتضى هو النائب الذي اتخذ عند الله عهدا بالإجابة إليه بدليل أن الملائكة استغفروا لهم وقال { فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك } وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هي لأهل التوبة دون أهل الكبائر؟ قلنا: عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة فإذا قبل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشفاعة ولا إلى الاستغفار وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله "فاغفر للذين تابوا" أي من الشرك "واتبعوا سبيلك" أي سبيل المؤمنين سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم كما قال تعالى "ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" .

فإن قالوا جميع الأمة يرغبون في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم فلو كانت لأهل الكبائر خاصة بطل سؤالهم؟ قلنا إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويرغب إلى الله في أن تناله لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى فليل ولا أنت يا رسول الله؟ فقال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته) .1. هـ

ومن شبههم العقلية (من كتاب نواقض الإيمان للوهبي) :

. قولهم لو لم يعاقب الله العصاة لاقتضى ذلك الخلف والتبديل والكذب في خبره.

والرد على ذلك من وجوه:

• أن الله عز وجل علق وعيده لأهل الكبائر بالمشيئة، فإذا تخلف الوعيد في حق بعضهم لم يكن في ذلك كذباً ولا تبديلاً.

• الخلف والكذب يحصل إذا لم يعذب جميع العصاة، وأهل السنة لا يقولون ذلك، وإنما يقولون: إنهم تحت المشيئة فبعضهم يعذب ويغفر للآخرين، فهم يقولون بالوعيد المجمل ومقتضاه، أنه لا بد أن يدخل بعض أهل الكبائر النار لورود الأحاديث في ذلك، ثم يخرجون منها، وقد مر ذكر هذه الأحاديث سابقاً.

• قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين :

((.. إخلاف الوعيد لا يذم، بل يمدح، والله تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد، ولا يجوز عليه إخلاف الوعد، والفرق بينهما: أن الوعيد حقه، وإخلافه عفو وهبة، وإسقاط ذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه؛ والوعد حق عليه أوجبه على نفسه، والله لا يخلف الميعاد)) .

. قولهم: من علم أن من أتى كبيرة لا يعذب سارع في إتيانها، ففي ذلك إغراء لهم.

والجواب عن ذلك من وجهين:

• الأول: لا أحد من أهل الكبائر يعلم أنه لا بعذب، بل النصوص الواردة دالة على دخول بعضهم النار كما سبق، فأين الإغراء؟!

• الثاني: يمكن أن يقال لكم عكس ذلك: وهو أن من قال أن المذنب بمجرد ارتكاب المعصية يخلد في النار إن مات غير تائب، فهذه المقالة تفتح أمامه باب اليأس والقنوط، ومن ثم يبقى على عصيانه ومعاصيه.
أما استدلالهم على نفي الشفاعة لأهل الكبائر بأنه يلزم من ذلك أن المرء إذا سأل الله أن يجعله من أهل الشفاعة، كأنه سأل أن يجعله من الفساق.

• فيرد عليهم بأن المرء إنما يطلب الشفاعة لاعتقاد أنه غير سالم من الذنوب، ولا قائم بكل ما افترض الله عليه، بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص، فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة، وقد مر كلام القرطبي في ذلك.
حكم من أنكر الشفاعة

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى

((.. فَأَلْمَعَانِي الثَّابِتَةُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: يَجِبُ اثْبَاتُهَا وَالْمَعَانِي الْمُنْفِيَّةُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ يَجِبُ نَفْيُهَا وَالْعِبَارَةُ الدَّالَّةُ عَلَى الْمَعَانِي نَفْيًا وَاثْبَاتًا إِنْ وُجِدَتْ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَجِبَ إِفْرَارُهَا. وَإِنْ وُجِدَتْ فِي كَلَامِ أَحَدٍ وَظَهَرَ مُرَادُهُ مِنْ ذَلِكَ رُتْبٌ عَلَيْهِ حُكْمُهُ وَإِلَّا رُجِعَ فِيهِ إِلَيْهِ. وَقَدْ يَكُونُ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِبَارَةٌ لَهَا مَعْنَى صَحِيحٌ لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَفْهَمُ مِنْ تِلْكَ غَيْرَ مُرَادِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَذَا يُرَدُّ عَلَيْهِ فَهْمُهُ)).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى :- ((.. وَمَنْ خَالَفَ مَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: فَإِنَّهُ يَكُونُ إِمَّا كَافِرًا، وَإِمَّا فَاسِقًا، وَإِمَّا عَاصِيًا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا فَيُثَابُ عَلَى اجْتِهَادِهِ وَيُعْفَرُ لَهُ خَطْوُهُ؛ وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ لَمْ يَبْلُغْهُ

الْعِلْمُ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ بِهِ الْحُجَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ ((وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)). وَأَمَّا إِذَا قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الثَّابِتَةُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَخَالَفَهَا: فَإِنَّهُ يُعَاقَبُ بِحَسَبِ ذَلِكَ إِمَّا بِالْقَتْلِ وَإِمَّا بِدُونِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) ١. هـ

• قال ابن باز رحمه الله:

((.. وقال تعالى في سورة النساء ((من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظًا)) وكيف يمكن طاعته ورد ما تنازع فيه الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كانت سنته لا يحتاج بها!!، أو كانت كلها غير محفوظة!!).

وعلى هذا القول يكون الله قد أحال عباده إلى شيء لا وجود له، وهذا من أبطل الباطل ومن أعظم الكفر بالله، وسوء الظن به.

وقال الله عز وجل في سورة النحل ((وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون)) وقال فيها أيضاً ((وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)) فكيف يكل الله سبحانه وتعالى إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبين المنزل إليهم، وسنته لا وجود لها، أو لا حجة فيها. وذكر رحمه الله الآيات الدالة على وجوب طاعة الرسول وإتباع سنته .. إلى أن قال: والآيات في هذا المعنى كثيرة وكلها تدل على وجوب طاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإتباع ما جاء به كما سبقت الأدلة على وجوب إتباع كتاب الله والتمسك به وطاعة أوامره ونواهيه.

وهما أصلان متلازمان، من جحد واحداً منهما فقد جحد الآخر، وكذب، وذلك كفر وضلال، وخروج عن دائرة الإسلام، بإجماع أهل العلم والإيمان ((رسالة وجوب العلم بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وكفر من أنكرها)) ص ٩ - ١٢. وقال رحمه الله:

((.. وقال السيوطي رحمه الله في رسالته المسماة مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ما نصه: اعلموا رحمكم الله أن من أنكر أن كون حديث النبي صلى الله عليه وسلم قولاً كان أو فعلاً بشرطه المعروف في الأصول حجة .. كفر وخروج عن دائرة الإسلام، وحشر مع اليهود والنصارى أو مع من شاء الله من فرق الكفرة)) .

• ومن فتاوى هيئة كبار العلماء:

((.. إذا خالف مسلم حكماً ثابتاً بنص صريح من الكتاب والسنة لا يقبل التأويل ولا مجال فيه للاجتهاد، أو خالف إجماعاً قطعياً ثابتاً، بين له الصواب في الحكم فإن قبل فالحمد لله، وإن أبى بعد البيان وإقامة الحجة وأصر على تغيير حكم الله، حكم بكفره وعومل معاملة المرتد عن دين الإسلام)) . فهذه قاعدة جلية في الحكم على المخالف للكتاب والسنة، رأيت أنه من الضروري ذكرها قبل ذكر كلام العلماء في حكم منكر الشفاعة.

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى :-

((الْحَمْدُ لِلَّهِ: قَدْ ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ الْمُسْتَفِيضَةِ بِلِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ: أَنَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشَّافِعُ الْمُشْفَعُ وَأَنَّهُ يُشْفَعُ فِي الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنَّ النَّاسَ يَسْتَشْفِعُونَ بِهِ يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ وَأَنَّهُ يُشْفَعُ لَهُمْ. ثُمَّ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّهُ يُشْفَعُ فِي أَهْلِ الْكِبَائِرِ وَأَنَّهُ لَا يُخْلَدُ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ أَحَدٌ. وَأَمَّا الْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَرِلَةُ فَأَنْكَرُوا شَفَاعَتَهُ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ وَلَمْ يُنْكِرُوا شَفَاعَتَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ ؛ وَهَؤُلَاءِ مُبْتَدِعَةٌ ضَالَّةٌ وَفِي تَكْفِيرِهِمْ نِزَاعٌ وَتَفْصِيلٌ.

وَأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ مَا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ وَالْإِجْمَاعِ فَهُوَ كَافِرٌ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ وَسَوَاءٌ سَمِيَ هَذَا الْمَعْنَى اسْتِغَاثَةً أَوْ لَمْ يُسَمَّ.

وَأَمَّا مَنْ أَقَرَّ بِشَفَاعَتِهِ وَأَنْكَرَ مَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَفْعَلُونَهُ مِنَ التَّوَسُّلِ بِهِ وَالِاسْتِشْفَاعِ بِهِ ؛ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ إِذَا فَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَنِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا فَيُسْقَوْنَ. وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ (أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَهَدْتَ الْأَنْفُسُ وَجَاعَ الْعِيَالُ وَهَلَكَ الْمَالُ فَادْعُ اللَّهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ. فَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ أَصْحَابِهِ وَقَالَ: وَيْحَكَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُسْتَشْفَعُ بِهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ) وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ فَأَنْكَرَ قَوْلَهُ نَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ وَلَمْ يُنْكِرْ قَوْلَهُ نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ بَلْ أَقَرَّهُ عَلَيْهِ فَعَلِمَ جَوَازَهُ .. فَمَنْ أَنْكَرَ هَذَا فَهُوَ ضَالٌّ مُخْطِئٌ مُبْتَدِعٌ ؛ وَفِي تَكْفِيرِهِ نِزَاعٌ وَتَفْصِيلٌ)) .

وقال رحمه الله

((فَمَنْ أَنْكَرَ شَفَاعَةَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَهْلِ الْكِبَائِرِ: فَهُوَ مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ، كَمَا يُنْكِرُهَا الْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ مَخْلُوقًا يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ فَقَدْ خَالَفَ إجماعَ الْمُسْلِمِينَ وَنُصُوصَ الْقُرْآنِ)) .

وقال رحمه الله

((وَلَفْظُ التَّوَسُّلِ قَدْ يُرَادُ بِهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ. يُرَادُ بِهِ أَمْرَانِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِمَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ: أَحَدُهُمَا: هُوَ أَصْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَهُوَ التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ. وَالثَّانِي: دُعَاؤُهُ وَشَفَاعَتُهُ وَهَذَا أَيْضًا نَافِعٌ يَتَوَسَّلُ بِهِ مَنْ دَعَا لَهُ وَشَفَعَ فِيهِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ. وَمَنْ أَنْكَرَ التَّوَسُّلَ بِهِ بِأَحَدِ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ مُرْتَدًّا. وَلَكِنَّ التَّوَسُّلَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِّ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ فَمَنْ أَنْكَرَ هَذَا الْمَعْنَى فَكُفْرُهُ ظَاهِرٌ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ.

وَأَمَّا دُعَاؤُهُ وَشَفَاعَتُهُ وَانْتِفَاعُ الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ: فَمَنْ أَنْكَرَهُ فَهُوَ أَيْضًا كَافِرٌ لَكِنَّ هَذَا أَخْفَى مِنَ الْأَوَّلِ، فَمَنْ أَنْكَرَهُ عَنْ جَهْلِ عُرْفِ ذَلِكَ ؛ فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى انْكَارِهِ فَهُوَ مُرْتَدٌّ.

أَمَّا دُعَاؤُهُ وَشَفَاعَتُهُ فِي الدُّنْيَا فَلَمْ يُنْكِرْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - وَهُمْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرِ أئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ - أَنَّ لَهُ شَفَاعَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، خَاصَّةً وَعَامَّةً، وَأَنَّهُ يُشْفَعُ فِيمَنْ يَأْذُنُ اللَّهُ لَهُ أَنْ يُشْفَعَ فِيهِ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ. وَلَا يَنْتَفِعُ بِشَفَاعَتِهِ إِلَّا أَهْلُ التَّوْحِيدِ الْمُؤْمِنُونَ ؛ دُونَ أَهْلِ الشِّرْكِ وَلَوْ كَانَ الْمُشْرِكُ مُجَبًّا لَهُ مُعْظَمًا لَهُ لَمْ تُنْقِذْ شَفَاعَتُهُ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا يُنَجِّيه مِنَ النَّارِ التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ)) .

• وقال ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسلة : ((.. ولهذا كان جميع أئمة الحديث الذين لهم لسان صدق في الأمة قاطعين بمضمون هذه الأحاديث شاهدين بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم جازمين بأن من كذب بها أو أنكر مضمونها فهو كافر)) .

وقال ابن أبي عاصم رحمه الله: ((والأخبار التي رويها عن نبينا صلى الله عليه وسلم فيما فضله الله به من الشفاعة، وتشفيعه إياه فيما يشفع فيه، أخبار ثابتة موجبة بعلم حقيقة ما حوت عليه ما اقتصصنا، والصاد عن الأخبار الموجبة للعلم المتواترة كافر، جعلنا الله وكل مؤمن بها مؤمل لها من أهلها)) كتاب السنة لابن أبي عاصم (ص ٣٨٥) .

الخلاصة

من أقوال العلماء يتبين:

. أن من أنكر الشفاعة مطلقاً أو أنكر الشفاعة العظمى في الخلائق يوم القيامة لفصل القضاء بينهم، فهو كافر لأنه أنكر ما ثبت بالتواتر والإجماع.

. من أنكر بعض أنواع الشفاعة دون الشفاعة العظمى، كشفاعته صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر ولم ينكر شفاعته صلى الله عليه وسلم للمؤمنين فهذا مبتدع ضال، وفي تكفيره نزاع وتفصيل.

وأهل السنة والجماعة يشتون الشفاعة ويؤمنون بها، وقد أجمعوا على ذلك، وكتبهم ذخيرة بإثبات هذه العقيدة، وأنها عندهم من المسلمات في العقيدة، وفيما يلي نقل لبعض أقوال أئمة أهل السنة والجماعة التي تمثل العقيدة الصحيحة التي كان عليها سلف الأمة، وما نذكره هو على سبيل المثال وليس الحصر فإن حصر ذلك يطول.

• الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ فَذَكَرَ الرَّجْمَ فَقَالَ: لَا تُخَدَعَنَّ عَنْهُ فَإِنَّهُ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ رَجِمَ وَرَجِمْنَا بَعْدَهُ وَلَوْلَا أَنْ يَقُولَ قَائِلُونَ زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ لَكُنْتُهُ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْمُصْحَفِ شَهِدَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ رَجِمَ وَرَجِمْنَا مِنْ بَعْدِهِ؛ أَلَا وَإِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ بَعْدِكُمْ قَوْمٌ يُكَذِّبُونَ بِالرَّجْمِ، وَبِالدَّجَالِ، وَبِالشَّفَاعَةِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَيَقُومُ يُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا ائْتَحَشُوا)) رواه أحمد في مسند عمر رضي الله عنه (١٥١) ، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح .

• قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه:

((إذا كان يوم القيامة جمع الناس في صعيد واحد فيقال: يا محمد، فيقول: لبيك وسعديك والخير بين يديك والشر ليس إليك، تباركت وتعاليت، والمهدي من هديت، ومنك وإليك، ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحان رب البيت، قال: عند ذلك يشفع)) رواه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٦/ ١١٨٢) ، وذكر المزي أن النسائي رواه في السنن الكبرى موقوفاً (تحفة الأشراف ح/ ٣٣٥٥) وذكر ابن حجر في حاشيته أن الحديث صحيح.

• قال أنس بن مالك رضي الله عنه:

((من كذب بالشفاعة فلا نصيب له فيها)) رواه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٦ / ١١٨٢) ، والآجري في الشريعة (٣٣٧) .

وعن عبد الله بن الرومي قال: ((كنت عند أنس بن مالك ودخل عليه رجل فقال: يا أبا حمزة لقيت قومًا يكذبون بالشفاعة ويعذاب القبر؛ قال أنس: أولئك الكذابون لا تجالسهم)) رواه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة • عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال ((إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُثًّا كُلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ يَا فُلَانُ اشْفَعْ يَا فُلَانُ اشْفَعْ حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ)) رواه البخاري.

• قال حماد بن زيد: سمعت أيوب يقول:

((من كذب بالشفاعة فلا ينالها)) رواه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة .

• قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله:

((وشفاعة نبينا عليه الصلاة والسلام للمؤمنين المذنبين ولأهل الكبائر منهم المستوجب العقاب حق ثابت

((الفقه الأكبر ص ٣٠٥ . نقلاً عن كتاب أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة ص ٤٩٣ .

• قال رحمه الله:

((وشفاعة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق لكل من هو من أهل الجنة، وإن كان صاحب كبيرة)) الوصية مع

شرحها ص ٣٢ . نقلاً عن كتاب أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة ص ٤٩٣ .

• قال الإمام أحمد رحمه الله:

((والإيمان بشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقوم يخرجون من النار بعد ما احترقوا وصاروا فحمًا، فيؤمر بهم

إلى نهر على باب الجنة، كما جاء في الأثر كيف شاء الله، وكما شاء، إنما هو الإيمان والتصديق به)) كتاب

أصول السنة لإمام أحمد ص ٥٧ .

• وقال رحمه الله في رسالته لمسدد بن مسرهد:

((والإيمان بالشفاعة)) كتاب المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد (٢ / ٢١٣) .

• وقال في موضع آخر:

((وأن الله يخرج أقوامًا من النار بشفاعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) .

• وقال رحمه الله:

((والإيمان بأن الموحدين يخرجون من النار بعد ما امتحشوا، كما جاءت الأحاديث في هذه الأشياء عن النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

• وعن حنبل قال:

قلت لأبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - ما يروى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشفاعة؟ فقال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر، وكل ما روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأسانيد جيدة نؤمن بها ونقر.

قلت له: وقوم يخرجون من النار؟

فقال: نعم، إذا لم نقر بما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودفعناه، رددنا على الله أمره، قال عز وجل { وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا } .

قلت: والشفاعة؟

قال: كم حديث يروى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشفاعة والحوض، فهؤلاء يكذبون بها ويتكلمون، وهو قول صنف من الخوارج، وأن الله تعالى لا يخرج من النار أحداً بعد إذ أدخله، والحمد لله الذي عدل عنا ما ابتلاهم به)) (اعتقاد أهل السنة لللالكائي) ..

• وقال علي بن المديني رحمه الله:

((الإيمان والتصديق بالشفاعة وبأقوام يخرجون من النار بعد ما احترقوا وصاروا فحمًا كما جاء في الأثر، والتصديق به والتسليم)) (اعتقاد أهل السنة لللالكائي).

• وقال ابن أبي عاصم رحمه الله:

((والأخبار التي رويها عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما فضله الله به من الشفاعة، وتشفيعه إياه فيما يشفع فيه، أخبار ثابتة موجبة بعلم حقيقة ما حوت عليه ما اقتصصنا، والصادُّ عن الأخبار الموجبة للعلم المتواترة كافر، جعلنا الله وكل مؤمن بها مُؤَمِّلٍ لها من أهلها)) (كتاب السنة لأبي عاصم).

• قال الإمام أبو بكر الآجري رحمه الله:

((باب وجوب الإيمان بالشفاعة:

اعلموا رحمكم الله أن المنكر للشفاعة يزعم أن من دخل النار فليس بخارج منها، وهذا مذهب المعتزلة يكذبون بها، وبأشياء سنذكرها إن شاء الله مما لها أصل في كتاب الله عز وجل وسنن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنن الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان وقول فقهاء المسلمين.

والمعتزلة يخالفون هذا كله، لا يلتفتون إلى سنن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا إلى سنن الصحابة رضي الله عنهم، وإنما يعارضون بمتشابه القرآن، وبما أراهم العقل عندهم، وليس هذا طريق المسلمين، وإنما هذا طريق من قد زاغ عن طريق الحق، وقد لعب به الشيطان)) (كتاب الشريعة).

• قال الإمام ابن أبي القيرواني رحمه الله: ((.. وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته)) (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)) ومن عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته { فمن

يعمل مثقال ذرة خيراً يره { ويخرج منها بشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شفع له من أهل الكبائر من أمته ((عقيدة السلف (مقدمة ابن أبي زيد القيرواني) ص (٥٨) ..

• قال ابن زمنين رحمه الله:

((وأهل السنة يؤمنون بالشفاعة)) (أصول السنة لابن زمنين (ص ١٧٢) ، وابن زمنين رحمه الله من علماء أهل السنة توفي سنة ٣٩٩ هـ).

• قال الإمام اللالكائي رحمه الله:

((باب الشفاعة لأهل الكبائر:

سياق ما روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شفاعته لأمته، وأن أهل الكبائر إذا ماتوا من غير توبة يدخلهم الله إن شاء النار، ثم يخرجهم منها بفضل رحمته ويدخلهم الجنة .. ثم ساق رحمه الله الأحاديث والآثار في ذلك)) (اعتقاد أهل السنة).

• قال ابن عبد البر رحمه الله:

قال بعد أن ساق الأحاديث والآثار في الشفاعة: ((كل هذا يكذب به جميع طوائف أهل البدع: الخوارج والمعتزلة والجهمية وسائر فرق المبتدعة؛ وأما أهل السنة .. أئمة الفقه والأثر في جميع الأمصار فيؤمنون بذلك كله، ويصدقونه، وهم أهل الحق، والله المستعان)) (فتح البر).

• وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى :

((وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - وَهُمْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرِ أئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ - أَنَّ لَهُ شَفَاعَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَاصَّةً وَعَامَّةً وَأَنَّهُ يُشَفَّعُ فِيْمَنْ يَأْذَنُ اللَّهُ لَهُ أَنْ يُشَفَّعَ فِيهِ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ . وَلَا يَنْتَفِعُ بِشَفَاعَتِهِ إِلَّا أَهْلُ التَّوْحِيدِ الْمُؤْمِنُونَ ؛ دُونَ أَهْلِ الشِّرْكِ وَلَوْ كَانَ الْمُشْرِكُ مُحِبًّا لَهُ مُعَظَّمًا لَهُ لَمْ تُنْقِذْهُ شَفَاعَتُهُ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا يُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ بِهِ)) .

• وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى :

((أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْفَعُ لِلْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ أَنْ يَسْأَلَهُ النَّاسُ ذَلِكَ وَبَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ .

ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مُتَّفِقُونَ عَلَى مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رَضَوَانِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَاسْتَفَاضَتْ بِهِ السُّنَنُ مِنْ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْفَعُ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ وَيَشْفَعُ أَيْضًا لِعُمُومِ الْخَلْقِ . فَلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَفَاعَاتٌ يَخْتَصُّ بِهَا لَا يَشْرُكُ فِيهَا أَحَدٌ وَشَفَاعَاتٌ يَشْرُكُ فِيهَا غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَكِنْ مَا لَهُ فِيهَا أَفْضَلُ مِمَّا لغيرِهِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ الَّتِي مَيَّزَهُ اللَّهُ بِهَا عَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ مَا يَصِيقُ هَذَا الْمَوْضِعَ عَنْ بَسْطِهِ وَمِنْ ذَلِكَ "الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ" الَّذِي يَغِطُّهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ وَأَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ كَثِيرَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ مِنْهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ أَحَادِيثٌ مُتَعَدِّدَةٌ وَفِي السُّنَنِ وَالْمَسَانِدِ مِمَّا يَكْثُرُ عَدْدُهُ)) اهـ.

• قال الإمام الطحاوي رحمه الله :

((والشفاعة التي ادخرها لهم حق، كما روي في الأخبار)) .

• قال الإمام النووي رحمه الله:

قوله (بَابُ إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ وَإِخْرَاجِ الْمُؤَحَّدِينَ مِنَ النَّارِ)

قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ جَوَّازُ الشَّفَاعَةِ عَقْلًا وَوُجُوبَهَا سَمْعًا بِصَرِيحِ قَوْلِهِ تَعَالَى { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } وَقَوْلُهُ { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى } وَأَمَّا لِهَمَا، وَبِخَبَرِ الصَّادِقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ جَاءَتْ الْآثَارُ النَّبِيَّةُ بَلَغَتْ بِمَجْمُوعِهَا التَّوَاتُرُ بِصِحَّةِ الشَّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ لِمُذْنَبِي الْمُؤْمِنِينَ، وَأَجْمَعَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَيْهَا وَمَنَعَتْ الْخَوَارِجُ وَبَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ مِنْهَا، وَتَعَلَّقُوا بِمَذَاهِبِهِمْ فِي تَخْلِيدِ الْمُذْنَبِينَ فِي النَّارِ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى { فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ } وَهَذِهِ الْآيَاتُ فِي الْكُفَّارِ. وَأَمَّا تَأْوِيلُهُمْ أَحَادِيثَ الشَّفَاعَةِ بِكَوْنِهَا فِي زِيَادَةِ الدَّرَجَاتِ فَبَاطِلٌ، وَأَلْفَاظُ الْأَحَادِيثِ فِي الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ صَرِيحَةٌ فِي بُطْلَانِ مَذْهَبِهِمْ وَإِخْرَاجِ مَنْ اسْتَوْجَبَ النَّارَ)) (شرح مسلم).

• قال الشيخ أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله:

((فصل في ذكر شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. وساق تحته أحاديث الشفاعة)) (الحجة في بيان المحجة).

• قال ابن قدامة رحمه الله:

((ويحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بهماً، فيقفون في موقف القيامة حتى يشفع فيهم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فيمن دخل النار من أمته من أهل الكبائر، فيخرجون بشفاعته بعد ما احترقوا وصاروا فحماً، فيدخلون الجنة بشفاعته، ولسائر الأنبياء والمؤمنين والملائكة شفاعات، قال تعالى { ولا يشفعون إلا لمن ارتضى } ، ولا تنفع الكافر شفاعة الشافعين)) (شرح لمعة الاعتقاد).

• قال الشيخ حافظ حكيم رحمه الله في معارج القبول :

((كذا له) لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الشفاعة العظمى) يوم القيامة، وهو المقام المحمود الذي قال الله تعالى ((عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)) .

• قال الشيخ ابن جبرين حفظه الله:

((وهذا أيضاً من الإيمان باليوم الآخر ومن فضائل نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ورد عنه أنه هو الشفيع المشفع في المحشر، وقد وردت أدلة كثيرة على أنه يشفع لأمته ويشفع للخلق كلهم فيشفع الشفاعة الأولى لمجيء الله تعالى لفصل القضاء حتى يفصل بين عباده عندما يطول الموقف، وبعد ما يطلبون الشفاعة من أولي العزم من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وكل منهم يعتذر فيقول - صلى الله عليه -

وسلم - أنا لها، كذلك يشفع لقوم أن ترفع درجاتهم ومنازلهم من أهل الجنة؛ أما الشفاعة التي يشاركه فيها غيره من الأنبياء والملائكة فهي شفاعته لأهل الكبائر من أهل التوحيد أن يخرجوا من النار بعد ما صاروا فحماً واحترقوا، يخرجون من النار بعد مدة طويلة قد تكون ألوف السنين أو نحو ذلك ثم يلقون في نهر الجنة، يقال له نهر الحياة فينبتون فيه كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم بعد ذلك يتنعمون بما يتنعم به أهل الجنة، وذلك لأنهم من أهل التوحيد ومن أهل العقيدة ((شرح أصول السنة).

• قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: ((والشفاعة حق إذا تحققت شروطها وهي:

أن تكون بإذن الله تعالى، ورضاه عن المشفوع.)) (الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد).

• ومن فتاوى هيئة كبار العلماء:

((شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفاعة الصالحين يوم القيامة ثابتة في القرآن، وقد وردت فيها أحاديث

صحيحة تفسر ما جاء في القرآن)) .

• وقالت:

((.. وما ذكر من الإيمان بالحوض والشفاعة، وعذاب القبر ونعيمه، كل هذا حق دلت عليه الأدلة الشرعية

الثابتة، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة)) .

• قال الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي رحمه الله:

((للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفاعات عديدة .. ثم ذكرها)) (العقائد السلفية).

• قال الدكتور ناصر العقل حفظه الله: ((أهل السنة يشتون سائر الشفاعات التي وردت بها النصوص الثابتة بعد

إذن الله تعالى ورضاه عز وجل (بشروطها) ، ومن أهم الشفاعات وأصحها وأثبتها لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

شفاعته لأهل الكبائر من أمته بعد أن يدخلون النار بأن يخرجوا منها، وخالفت في ذلك الأباضية كسائر الخوارج

فقال: إن الشفاعة لا تنال أصحاب الكبائر في أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هم مخلدون أبداً في النار،

وهذه المسألة تتفق فيها الأباضية مع المعتزلة وسائر الخوارج)) (كتاب الخوارج للدكتور ناصر العقل).

• وقال أيضاً في عقيدة أهل السنة والجماعة:

((ويؤمنون بسائر الشفاعات التي ثبتت في القرآن والسنة بشروطها يوم القيامة، وأعظمها: شفاعة محمد صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العظمى للخلائق يوم القيامة، وشفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الكبائر من أمته، وغير ذلك من

الشفاعات له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولغيره من الملائكة والنبين والمؤمنين وغيرهم، كما جاءت بذلك الآثار

(الصحيحة)) (مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة).

• قال أحمد سالم الجكني:

((ومن عقائد أهل السنة: الإيمان بما دل عليه الكتاب وتواترت به السنة من شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

من ذلك ما فسر به السلف، بل أجمع عليه أهل العلم بالتأويل من الصحابة والتابعين ومن بعدهم قوله تعالى))

عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا)) بأن المقام المحمود شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأولى في فصل القضاء وإراحة الناس من هول الموقف ((عقود الإيمان).

• قال الدكتور عبدالله نوسوك:

((ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشفاعة، ويشبتون جميع أنواعها التي وردت الأدلة فيها بإثباتها كشفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفاعات غيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين، وينفون الشفاعة التي نفتها الأدلة من الكتاب والسنة)) (منهج الشوكاني في العقيدة).

• وقال عن عقيدة الإمام الشوكاني:

((وقرر الشوكاني رحمه الله تعالى مذهب أهل السنة والجماعة في الشفاعة، فأثبت ما أثبتوه من شفاعته الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته في اليوم الآخر، وشفاعة غيره ممن يأذن الله له من النبيين والصديقين والملائكة، لتضافر الأدلة في ذلك في الكتاب والسنة ... ثم ساق جملة من الآيات والأحاديث)) .
وخلاصة الكلام :

- ان منهج التلقي عند المسلم في تلقي أمور دينه يتمثل في الكتاب والسنة، وذلك على فهم السلف الصالح وهم الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان.
الإجماع حجة شرعية.

- لا يجوز بحال معارضة نصوص الكتاب والسنة بعقل أو رأي أو قياس.

- فسر النبي - صلى الله عليه وسلم - والصحابة وعلماء الأمة قديمًا وحديثًا المقام المحمود المذكور في قوله تعالى { عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا } بالشفاعة الكبرى، وحكى الإجماع على ذلك غير واحد.

- آيات القرآن النافية للشفاعة المقصود بها نفي الشفاعة في حق الكافرين أو الشفاعة بدون إذن الله عز وجل، وهي في ذاتها دليل لإثبات الشفاعة.

- الشفاعة ملك لله تعالى لا يشاركه فيه أحد، سبحانه وتعالى، ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا تكون إلا برضاه عن الشافع والمشفوع فيه.

- أنكر القرآن الكريم ونفى الشفاعة الشريكية التي كان يعتقدونها أهل الشرك.

- تواترت الأدلة من السنة المطهرة على إثبات الشفاعة، على عكس ما ذهب إليه أهل البدع وزعموا.

- اختص الله تعالى نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشفاعات مخصوصة يوم القيامة، وجعل له السيادة على الخلق تشريفًا له وتكريمًا عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

- من تمام رحمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكمال عقله أنه اختار لأمته الشفاعة يوم القيامة حتى تعم الرحمة الجميع وتنال كل مسلم.

- كما أنه جعل دعوته شفاعاً لأُمَّته يوم القيامة.
- تواترت الروايات بأحاديث الشفاعـة الكبرى في إراحة الناس من الموقف، وتلقـتها الأمة بالقبول، ورواها أئمة الحديث في كتبهم، وهذه الشفاعـة يدخل فيها الكفار.
- الشفاعـة الكبرى يتأخر عنها أولوا العزم من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، حتى تنتهي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول أنا لها ويأذن الله له في الشفاعـة.
- الخوارج والمعتزلة يوافقون أهل السنة في الإيمان بالشفاعـة الكبرى، وبالشفاعـة في رفع الدرجات في الجنة، ولكن ينكرون الشفاعـة في أهل الكبائر، وفيمن دخل النار.
- شفاعـة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تنال إلا أهل التوحيد.
- للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفاعات اختصه الله بها وهي (الشفاعـة الكبرى واستفتاح باب الجنة، وتخفيف العذاب عن أبي طالب) ، وهناك شفاعات يشاركه فيها غيره إلا أن له النصيب الأعظم والسيادة
- يأذن الله تعالى للأنبياء والملائكة والشهداء والصديقين والمؤمنين أن يشفعوا يوم القيامة.
- وكذلك يشفع القرآن يوم القيامة لأصحابه، والصيام لأهله.
- الأطفال يشفعون لآبائهم، وكذلك تحصل الشفاعـة لمن مات وصلى عليه مائة، أو أربعون من الموحدين.
- اللعانون لا يكونون شفعاء يوم القيامة.
- لا ينال الشفاعـة كل ظلوم غشوم، وكل غالٍ في الدين مارق منه.
- أعظم الشفاعات وأعـمها رحمة: شفاعـة رب العالمين وأرحم الراحمين تبارك وتعالى.
- أسعد الناس بالشفاعـة يوم القيامة هو أكثرهم تحقيقاً للتوحيد والإخلاص.
- الشفاعـة تنال كل مسلم بإذن الله تعالى.
- ورد في السنة المشرفة أن الشفاعـة تنال كل من ((من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، ولمن تحققت براءته من الشرك، ولمن قال: اللهم رب هذه الدعوة التامة .. الحديث .. بعد الأذان، ولمن صلى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشراً حين يصبح وحين يمسي، ولأهل المدينة المنورة، ولأهل الكبائر من هذه الأمة)) .
- مذهب أهل الحق أن أهل الكبائر والمعاصي لا يخلدون في النار، وهم في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، وأن من دخل النار منهم فإنه يعذب بالقدر الذي قدره الله له، ثم يخرج من النار ويدخل الجنة، وقد تدركه الشفاعـة فلا يدخل النار، أو يخفف من عذابه فيخرج من النار، وهذا بعكس مذهب الخوارج الذين كفروا مرتكب الكبيرة وخلدوه في النار، وعكس مذهب المعتزلة الذين قالوا هو في منزلة بين المنزلتين وحكموا بخلوده في النار.
- المسلم يحرص نيل شفاعـة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويجتهد في تحصيل أسباب ذلك.

– الأدلة المتواترة من الكتاب والسنة تبطل شبه المنكرين للشفاعة، وتبين فساد مذهبهم، وقد تصدى علماء الأمة لشبهاتهم الباطلة وبينوا فساد مذهب أصحابها.

– من أنكر الشفاعة بالكلية فقد أنكر أمراً متواتراً قد أجمعت الأمة عليه وهذا قال العلماء بكفره وقال شيخ الإسلام وغيره بأنه تقام عليه الحجة ويعرف فإن رجع وإلا يحكم بكفره، أما من أنكر شيئاً من أنواع الشفاعة مع إثباته لغيرها كالخوارج الذين أنكروا الشفاعة لمن دخل النار فهؤلاء مبتدعة وهناك خلاف في تكفيرهم كما قال شيخ الإسلام.

– يجب هجر من أنكر الشفاعة أو أنكر شيئاً منها كما قال أنس رضي الله عنه وغيره من العلماء

– الشفاعة عقيدة ثابتة عند أهل السنة والجماعة. (ملخصاً عن بحث محمد سعد عبدالدايم).

^١ – تكاثرت الأحاديث الصحيحة بإثبات الحوض لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد رواها بضعة وثلاثون صحابياً، فالمكذب به مكذب بالحق، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : ((من كذب بالحوض فقد كذب بالحق)).

• وقال الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حدّ التواتر، رواها من الصحابة بضعة وثلاثون صحابياً رضي الله عنهم.

• وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: ما ورد في الحوض المحمدي سقانا الله منه يوم القيامة من الأحاديث المشهورة المتعددة من الطرق المأثورة الكثيرة المتضافرة.

قال الإمام ابن أبي عاصم رحمه الله تعالى: حوض النبي صلى الله عليه وسلم... على ما وصف به نبينا عليه السلام حوضه، فنحن به مصدقون، غير مرتابين ولا جاحدين.

• وقال الإمام البربهاري رحمه الله: والإيمان بحوض رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكل نبي حوض.

• وقال الإمام الآجري رحمه الله، في كتابه "الشریعة": باب: الإيمان بالحوض الذي أعطي للنبي صلى الله عليه وسلم.

• وقال الإمام ابن بطة العكبري رحمه الله، في كتابه "الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة": ثم الإيمان بالحوض.

• وقال الإمام الصابوني رحمه الله، في كتابه "عقيدة السلف وأصحاب الحديث": ويؤمن أهل الدين والسنة... بالحوض والكوثر.

- وقال الإمام ابن البناء الحنبلي رحمه الله في كتابه "الرد على المبتدعة": باب الإيمان بالحوض، وشرب المؤمنين منه دون الكافرين يوم القيامة.
- وقال القاضي عياض رحمه الله: الحوض... الإيمان به واجب، والتصديق به من الإيمان، وهو على وجهه عند أهل السنة والجماعة، لا يتأول ولا يحال عن ظاهره.
- وقال الحافظ عبدالغني بن عبدالواحد بن سرور المقدسي رحمه الله تعالى، في كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد": الإيمان بأن لرسول الله صلى الله عليه وسلم حوضاً ترده أمته كما صح عنه.
- صفة الحوض:
- قال حذيفة رضي الله عنه: حوض النبي صلى الله عليه وسلم أبيض مثل اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك، وآنيته مثل عدد النجوم، ما بين أيلة إلى صنعاء، من شرب منه لم يظمأ بعده أبداً.
- وقال الإمام ابن بطة العكبري رحمه الله: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن لي حوضاً ما بين أيلة وعدن)) يريد أن قدره ما بين أيلة وعدن ((أباريقه بعدد نجوم السماء)).
- وقال الإمام القرطبي رحمه الله: حوض كبير متسع الجوانب والزوايا.
- وقال الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: والذي يتخلص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر.
- من يرد الحوض، ومن يصد عنه:
- قال الإمام ابن عبدالبر رحمه الله: من أحدث في الدين ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه، والله أعلم، وأشدّهم طرداً من خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم؛ مثل: الخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تبائن ضلالها، والمعتزلة.
- وقال العلامة عبدالرحمن بن ناصر البراك: الحوض في عرصات القيامة قبل دخول الجنة، يرد عليه المستمسكون بسنته صلى الله عليه وسلم، فمن شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً؛ لأنه يصير إلى الجنة.
- وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: ورود الناس في الحوض وشربهم منه يوم العطش الأكبر بحسب ورودهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشربهم منها، فمن ورداها في هذه الدار وشرب منها وتصلّع، ورد هناك حوضه وشرب منه وتصلّع، فله صلى الله عليه وسلم حوضان عظيمان، حوض في الدنيا؛ وهو سنته وما جاء به، وحوض في الآخرة، فالشاربون من هذا الحوض في الدنيا هم الشاربون من حوضه يوم القيامة، فشارب ومحروم، ومستقل ومستكثر، فمن ظمئ من سنته في هذه الدنيا ولم يكن له منها شرب، فهو في الآخرة ظمأً وأحر كبدًا.
- وقال العلامة عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله: هذا الحوض العظيم... يرده أهل الإيمان من هذه الأمة، ويشربون منه شربة عظيمة... ويذاد عنه أقوام يوم القيامة؛ لأنهم بدلوا وغيروا، كما تذاذ الإبل الغريبة عن إبل

الإنسان، حتى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ((أُمّتي)) وفي رواية : ((أصحابي))، فيقال : ((إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول سحقاً سحقاً)) ؛ أي: لمن بدّل بعدي.

وقال رحمه الله: يردّه أهل الإيمان من هذه الأمة، ويصدّ عنه أقوام أعرضوا عن دين الله، وكفروا بالله، ولهذا يصدون عنه ويذادون عنه، نسأل الله السلامة والعافية.

- وقال العلامة صالح بن فوزان الفوزان: يمنع من وروده أهل البدع المضلة المخالفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كفروا وارتدوا على أعقابهم، تاركين السُّنة، وذاهبين بأهوائهم وآرائهم المذاهب المنحرفة، هؤلاء يمنعون من حوض النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم بدّلوا وغيّروا من هدى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يردّه إلا من كان مُتَّبِعاً لِسُنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً واعتقاداً.

أسباب ورود الحوض:

قال الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ: إن الشرب من الحوض وورود الحوض له أسباب في هذه الدنيا ينبغي بل يجب على الموحّد أن يحرص عليها، بل يجب على كل مسلم أن يحرص عليها:

السبب الأول: أن يكون غير محدث في الدين حدثاً، يعني: كل ما لم يكن على عهد صلى الله عليه وسلم من أنواع الاعتقاد والعلم، فإنه يجب رده، يعني ألاّ يعتبره حقاً.

السبب الثاني: أن يُخلص قلبه من الغش والغل لخيرة هذه الأمة، وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يُحشر معه من أحبه، والصحابة رضي الله عنه معه يوم القيامة؛ كما ثبت في الحديث : ((أنت مع من أحببت))، وإذا كان كذلك، فلا يجوز لأحد أن ينتقد الصحابة رضي الله عنهم، أو أن يبغض بعضاً منهم، أو نحو ذلك، بل يجب عليه أن يحب الجميع.

السبب الثالث: أن يكون بعيداً عن الافتراء في دين الله عز وجل، كما جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أن من صفة الذين لا يردون عليه الحوض، قال : ((سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه، وليس بوارد عليّ الحوض)).

السبب الرابع: أن يتعد المرء عن الكبائر والذنوب، وعن المداومة عليها.

الطوائف التي أنكرت الحوض:

قال الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله: أنكرت المعتزلة الحوض.

وقال الإمام ابن البناء الحنبلي رحمه الله: والمعتزلة تُكذبُ به.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: الحوض...أنكره الخوارج، وبعض المعتزلة.

الإنكار على من ينكر الحوض:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ذكر الحوض عند عبيد الله بن زياد فأنكره، فبلغ أنسًا، فقال: لا جرم والله لأفعلنَّ به، فأتاه، فقال: ما ذكرتم من الحوض ما أنكرتم من الحوض؟ قال عبيد الله: هل سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يذكره؟ قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من كذا وكذا مرة يقول: ((ما بين طرفيه - يعني الحوض - ما بين أيلة ومكة، أو ما بين صنعاء ومكة، وإن آيته أكثر من نجوم السماء)).

التعجب ممن يشك في الحوض:

عن أنس قال: دخلت على ابن زياد، وهم يتذاكرون في الحوض، فلما رأوني طلعت عليهم، قالوا: جاءكم أنس، فقالوا: يا أنس، ما تقول في الحوض؟ فقلت: والله ما شعرت أني أعيش حتى أرى أمثالكم، تشكون في الحوض، لقد تركت عجائز المدينة، ما تصلي واحدة منهن صلاة إلا سألت ربها عز وجل أن يوردها حوض محمد صلى الله عليه وسلم.

• قال الإمام الآجري رحمه الله: ألا ترون إلى أنس بن مالك رضي الله عنه، يتعجب ممن يشك في الحوض؛ إذ كان عنده أن الحوض مما يؤمن به الخاصة والعامة، حتى العجائز يسألن الله عز وجل أن يسقيهن من حوضه صلى الله عليه وسلم.

• قال الإمام ابن أبي عاصم رحمه الله: الحوض... نرغب إلى الذي وفقنا للتصديق به، وخذل المنكرين له، والمكذبين به عن الإقرار به، والتصديق به، ليحرمهم لذة شربه.

وعن عبد السلام بن أبي حازم، قال: شهدت أبا برزة دخل على عبيد الله بن زياد... فقال له عبيد الله:.... إنما بعث إليك لأسألك عن الحوض، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر فيه شيئًا، فقال أبو برزة: نعم، لا مرة، ولا ثنتين، ولا ثلاثًا، ولا أربعًا، ولا خمسًا، فمن كذب به، فلا سقاه الله منه. ثم خرج مُغضبًا

. ويزيد القصة وضوحاً حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي رواه أبو يعلى في مسنده قال -يعني: أنس:

دخلت على ابن زياد وهم يذكرون الحوض، فقال: هذا أنس، فقلت: (لقد كانت عجائز المدينة كثيراً ما يسألن ربهن أن يسقيهن من حوض نبيهن) وإسناده صحيح.

وكذلك روى أبو داود من طريق يزيد بن حبان التيمي قال: شهدت زيد بن أرقم وبعث إليه ابن زياد -وهو عبيد الله بن زياد - فقال: (ما أحاديث تبلغني أنك تزعم أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم حوضاً في الجنة؟ قال: حدثنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم).

وعبيد الله بن زياد هو من النواصب الذين كانوا يبغضون علي بن أبي طالب، بل ربما تكلم على بعض الصحابة،

فلما جاءه عائذ بن عمرو رضي الله عنه وقال له: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن شر الرعا

الحطمة)، وإني أخشى أن تكون منهم، فقال: اجلس إنما أنت من نخالة أصحاب محمد، فقال له عائذ: وهل كان فيهم نخالة؟! إنما كانت النخالة فيمن بعدهم.

يقصده.

♦ من كَذَّبَ بالحوض حريًّا أن يُحال بينهم وبين ورده:

♦ وقال الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض، وأخلق بهم أن يُحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر.

♦ وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: المبتدعة المكابرة القائلين بجحوده، المنكرين لوجوده، وأخلق بهم أن يُحال بينهم وبين ورودهم، كما قال بعض السلف: من كذب بكرامة لم ينلها.

فهذه هي مسألة الحوض، والأقوال في هذه المسألة، وإنما أنكره الخوارج والمعتزلة لمخالفته للعقل في زعمهم، فإن لهم أصلاً في باب السمعيات الخبريات التي لا تقبل العقل: يؤولونها جميعاً، فيؤولون الميزان، ويؤولون الصراط، ويؤولون الحساب، ويؤولون الحوض وغير ذلك من السمعيات.

وأما الأشاعرة فإنهم يشبّون الحوض، ويقولون: إن كل السمعيات بعد إثبات النبوة تكون مشبهة، هذا هو أصلهم في هذه القضية (شرح الطحاوية لعبد الرحيم السلمي)

وأما الاحاديث الواردة في ذكر الحوض فكثيرة نذكر منها :-

فعن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنِّي فَرَطُكُم عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا ، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، فَأَقُولُ : إِنَّهُمْ مِنِّي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ : سَحَقًا ، سَحَقًا ، لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي) رواه البخاري ومسلم .

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى الْمَقْبَرَةَ فَقَالَ : (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا) قَالُوا : أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : (أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدَ) فَقَالُوا : كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدَ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : (أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْنِ خَيْلٍ ذُهُمٌ بُوْهُمُ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ) قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : (فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، أَلَا لِيَذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يَذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ ؛ أَنَادِيهِمْ : أَلَا هَلُمَّ . فَيُقَالُ : إِنَّهُمْ قَدْ بَدَلُوا بَعْدَكَ . فَأَقُولُ : سَحَقًا سَحَقًا) رواه مسلم .

وعن عَائِشَةَ قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ أَنْتَظِرُ مَنْ يَرُدُّهُ عَلَيَّ مِنْكُمْ ، فَلْيَقْطَعَنَّ رِجَالٌ دُونِي ، فَلَا قَوْلَ : يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَلْيَقَالَنَّ لِي : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ ، مَا زَالُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ) رواه أحمد (٤١ / ٣٨٨) وصححه المحققون .

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ الْحَوْضَ رِجَالٌ مِمَّنْ صَاحِبَنِي ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُهُمْ وَرَفَعُوا إِلَيَّ اخْتَلَجُوا دُونِي ، فَلَا قَوْلَ : أَيُّ رَبِّ أَصِحَابِي أَصِحَابِي ، فَلْيَقَالَنَّ لِي : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ) . رواه البخاري ومسلم .

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ لَيَرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأَنَاوِلَهُمْ اخْتَلَجُوا دُونِي ، فَأَقُولُ : أَيُّ رَبِّ أَصْحَابِي يَقُولُ : لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ) .

رواه البخاري ومسلم .

وعند التأمل في الأحاديث السابقة نجد أن الكلام قد انحصر في مجموعات ترد حوض النبي صلى الله عليه وسلم لتشرب منه ، فتردهم الملائكة ، ويناديهم النبي صلى الله عليه وسلم بألفاظ هي " أمتي " ، " أصحابي " ، " أصيحابي " ، وليس بينها اختلاف تضاد ، بل هي محمولة على أناس تشملهم معاني تلك الكلمات ، ويمكننا أن نجملهم بهذه الطوائف :

١. مرتدون عن الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أسلموا في حياته ورأوه وهم على الإسلام .

٢. مرتدون عن الإسلام في أواخر حياته صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن يعلم بكفرهم .

٣. أهل النفاق ممن أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر .

٤. أهل الأهواء الذين غيروا سنة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه ، كالروافض ، والخوارج .

٥. وبعض العلماء يدخل فيهم : أهل الكبائر ، وله ما يؤيد من السنة ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده (٩ /

٥١٤) عَنْ ابْنِ عُمرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَأْمُرُونَكُمْ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضَ) وصححه المحققون . ولفظ " أمتي " في الأحاديث يصدق على أهل القول الرابع ، والخامس ، ولفظ " أصحابي " و " أصيحابي " على الأقوال الثلاثة الأول .

ومما يدل على أنهم من أمته صلى الله عليه وسلم : أنه عرفهم بالغرة والتحجيل ، وهي سيما خاصة بهذه الأمة ، ويكون تعرف النبي صلى الله عليه وسلم هناك بصفاتهم ، لا بأعيانهم ؛ لأنهم جاءوا بعده .

ومما يدل على دخول المنافقين في اسم " أصحابي " : قوله صلى الله عليه وسلم (لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ

يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) رواه البخاري (٣٥١٨) ، وهذا معنى لغوي بحث للصحة ، ليس أنهم استحقوا شرفها ؛ لأن تعريف الصحابي الاصطلاحي لا يصدق على هؤلاء .

وهذه طائفة من أقوال أهل العلم في تلك الأحاديث :

١. قال النووي - رحمه الله - في شرح الحديث - :

هذا مما اختلف العلماء في المراد به على أقوال :

أحدها : أن المراد به المنافقون ، والمرتدون ، فيجوز أن يُحشروا بالغرة والتحجيل ، فيناديهم النبي صلى الله عليه وسلم للسيما التي عليهم ، فيقال : ليس هؤلاء مما وعدت بهم ، إن هؤلاء بدّلوا بعدك ، أي : لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم .

والثاني : أن المراد من كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد بعده ، فيناديهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يكن عليهم سيما الوضوء ، لما كان يعرفه صلى الله عليه وسلم في حياته من إسلامهم ، فيقال : ارتدوا بعدك .

والثالث : أن المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد ، وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام . " شرح مسلم " (٣ / ١٣٦ ، ١٣٧) .

٢. وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - :

وقال الخطابي : لم يرتد من الصحابة أحد ، وإنما ارتد قوم من جفاة العرب ، ممن لا نصرة له في الدين ، وذلك لا يوجب قدحاً في الصحابة المشهورين ، ويدل قوله : (أصحابي) بالتصغير على قلة عددهم . " فتح الباري " (١١ / ٣٨٥) .

٣. وقال الشيخ عبد القاهر البغدادي - رحمه الله - :

أجمع أهل السنة على أن الذين ارتدوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من كندة ، وحنيفة ، وفزارة ، وبني أسد ، وبني بكر بن وائل ، لم يكونوا من الأنصار ، ولا من المهاجرين قبل فتح مكة ، وإنما أطلق الشرع اسم المهاجرين على من هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل فتح مكة ، وأولئك بحمد الله ومنه درجوا على الدين القويم ، والصراط المستقيم .

وأجمع أهل السنة على أن من شهد مع رسول الله بدرًا : من أهل الجنة ، وكذلك كل من شهد معه بيعة الرضوان بالحديبية . " الفرق بين الفرق " (ص ٣٥٣) .

٤. وقال الشاطبي - رحمه الله - :

والأظهر : أنهم من الداخلين في غمار هذه الأمة ؛ لأجل ما دل على ذلك فيهم ، وهو الغرة والتحجيل ؛ لأن ذلك لا يكون لأهل الكفر المحض ، كان كفرهم أصلاً ، أو ارتداداً .

ولقوله : (قد بدلوا بعدك) ، ولو كان الكفر : لقال : " قد كفروا بعدك " ، وأقرب ما يحمل عليه : تبديل السنة ، وهو واقع على أهل البدع ، ومن قال : إنه النفاق : فذلك غير خارج عن مقصودنا ؛ لأن أهل النفاق إنما أخذوا الشريعة تقيّةً ، لا تعبدًا ، فوضعوها غير مواضعها ، وهو عين الابتداع .

ويجري هذا المجرى كل من اتخذ السنة والعمل بها حيلةً وذريعةً إلى نيل حطام الدنيا ، لا على التعبد بها لله تعالى ؛ لأنه تبديل لها ، وإخراج لها عن وضعها الشرعي . " الاعتصام " (١ / ٩٦) .

٥. قال القرطبي - رحمه الله - :

قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين : فكل من ارتد عن دين الله ، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ، ولم يأذن به الله : فهو من المطرودين عن الحوض ، المبعدين عنه ، وأشدّهم طردًا : من خالف جماعة المسلمين ، وفارق سبيلهم ، كالخوارج على اختلاف فرقها ، والروافض على تباين ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها ، فهؤلاء كلهم مبدّلون ، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور ، والظلم ، وتطميمس الحق ، وقتل أهله ، وإذلالهم ، والمعلنون بالكبائر ، المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزيغ ، والأهواء ، والبدع .

ثم البعد قد يكون في حال ، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ، ولم يكن في العقائد ، وعلى هذا التقدير يكون نور الوضوء ، يُعرفون به ، ثم يقال لهم (سحقاً) ، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يُظهرون الإيمان ، ويُسرون الكفر : فيأخذهم بالظاهر ، ثم يكشف له الغطاء فيقول لهم : (سحقاً سحقاً) ، ولا يخلد في النار إلا كافر ، جاحد ، مبطل ، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان . " التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة " (ص ٣٥٢) .

ومما يبين كذب من زعم أن الصحابة الأجلاء أبا بكر وعمر وعثمان من أولئك المرتدين : أنه قد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه قد حصلت ردة ، وقتال للمرتدين ، فمن قاتل من ؟ إن الذي ارتد هم الذين ذكرنا وصفهم ، من بعض قبائل العرب ، وإن الذي قاتلهم هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وإخوانه من المهاجرين والأنصار - وقد شاركهم في قتالهم : علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وسبي من بني حنيفة امرأة ، أنجبت له فيما بعد الإمام العلم " محمد بن الحنفية " - ؛ فإذا كان الصحابة الكرام : أبو بكر وعمر ، ومن معهما من المهاجرين والأنصار : مرتدين ؛ فماذا يكون حال مسلمة وأتباعه ، والعنسي وأتباعه ؟! إلا إن هذا هو عين النفاق والشقاق ، وقول الباطل وشهادة الزور .

ونحن نعتقد أن المهاجرين والأنصار في الجنة خالدين فيها أبداً ، قال تعالى : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) التوبة / ١٠٠ .

ونعتقد أن أبا بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وهكذا كل من سماهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن هؤلاء جميعاً سيُشربون من حوض النبي صلى الله عليه وسلم شرباً هنيئاً .

^١ - قال الشيخ حافظ بن أحمد حكيم في كتابه معارج القبول : العَرَضُ لَهُ مَعْنَيَانِ:

مَعْنَى عَامٌّ: وَهُوَ عَرَضُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، بِأَدِيَّةٍ لَهُ صَفَحَاتُهُمْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ، هَذَا يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ وَمَنْ لَا يُحَاسَبُ

وَالْمَعْنَى الثَّانِي: عَرَضُ مَعَاصِي الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيرُهُمْ بِهَا وَاسْتِرْهَا عَلَيْهِمْ وَمَغْفِرَتُهَا لَهُمْ، وَالْحِسَابُ وَالْمُنَاقَشَةُ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ إجمالاً وَتَفْصِيلاً، كَمَا قَالَ: { يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ } [الْحَاقَّةُ: ١٨] الْآيَاتِ، وَقَالَ تَعَالَى: { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [الْكَهْفِ: ٤٨] الْآيَاتِ، وَقَالَ تَعَالَى: { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ }

[النمل: ٨٣ - ٨٤] وَقَالَ تَعَالَى: يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ {الزُّلْزَلَةُ: ٦-٨} وَقَالَ تَعَالَى: {فَوَرَّبِكَ لَسَأَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {الحجر: ٩٢} وَقَالَ تَعَالَى: وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ {الصَّافَّاتِ: ٢٤} وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ {الغاشية: ٢٦} وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ عُمَرَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَالَ: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَزِنُوا أَعْمَالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، فَإِنَّهُ أَخَفُّ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ، وَتَزِينُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ {الحاقة: ١٨} وَرَوَى أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَأَمَّا عَرَضَتَانِ: فَجَدَالٌ وَمَعَادِيرٌ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي، فَأَخِذْ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَأَخِذْ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ . وَلِلتَّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . نَحْوُهُ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ نَحْوَهُ مُوقُوفًا، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخُمْرِ، فَقَالَ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ الْفَادَّةَ الْجَامِعَةَ: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ {الزُّلْزَلَةُ: ٧ - ٨} وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَمَّ الْفَرَزْدَقِ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ {الزُّلْزَلَةُ: ٧ - ٨} قَالَ حَسْبِي، لَا أَبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ {الزُّلْزَلَةُ: ٧-٨} فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أُجْزَى بِمَا عَمِلْتُ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ شَرٍّ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ؛ مَا رَأَيْتَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا تَكْرَهُ فَمِثْقَالَ ذَرَّةٍ الشَّرِّ، وَيَذْخُرُ اللَّهُ لَكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ الْخَيْرِ حَتَّى تَوَفَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: {فَوَرَّبِكَ لَسَأَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {الحجر: ٩٢} قَالَ يَسْأَلُ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ عَنْ خُلَّتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَعَمَّاذَا أَجَابُوا الْمُرْسَلِينَ . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَخْلُو اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا يَخْلُو أَحَدُكُمْ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَيَقُولُ: ابْنَ آدَمَ مَاذَا غَرَّكَ مِنِّي يَبْنِي؟ ابْنَ آدَمَ مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ ابْنَ آدَمَ مَاذَا أَجَبْتَ الْمُرْسَلِينَ؟ وَلَا بِنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا مُعَاذُ، إِنَّ الْمَرْءَ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ جَمِيعِ سَعْيِهِ حَتَّى كُحِلَ عَيْنَيْهِ، وَعَنْ فُتَاتِ الطَّيْنَةِ بِأَصْبُعِهِ، فَلَا أَلْفَيْتَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدَ غَيْرِكَ أَسْعُدُ بِمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْكَ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: {فَوَرَّبِكَ لَسَأَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {الحجر: ٩٢} قَالَ: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ {الرَّحْمَنِ: ٣٩} قَالَ لَا يَسْأَلُهُمْ هَلْ عَمِلْتُمْ كَذَا، لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ يَقُولُ: لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسِبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: [فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا {الانشقاق: ٨} فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقِشُ الْحِسَابَ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ إِلَّا عَذَّبَ . وَفِيهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيُقَالُ لَهُ : قَدْ كُنْتَ سَأَلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ . وَفِيهِ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ : مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيَّكَلُمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهَهُ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ . وَفِيهِ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحَرَّرٍ قَالَ : بَيْنَمَا ابْنُ عُمَرَ يَطُوفُ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ . أَوْ قَالَ يَا ابْنَ عُمَرَ . هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَجْوَى؟ فَقَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : يَدْنُو الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ، يَقُولُ أَعْرِفُ ، يَقُولُ : رَبِّ أَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ ، فَيَقُولُ : أَنَا سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ تُطَوَّى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ أَوْ الْكُفَّارُ : فَيُنَادَى عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي بَزْرَةَ الْأَسْلَمِيِّ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا عَمِلَ فِيهِ ، وَعَنْ مَالِهِ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ . وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ . انتهى .

١ - يمكن تفصيل الكلام في الميزان في مسائل:

الأولى: ذكر الميزان في القرآن، قال تعالى: {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة} [الأنبياء: ٤٧] قال في شرح الطحاوية: يحتمل أن تكون ثمة موازين متعددة، توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات، جمع باعتبار تنوع الأعمال.

وقال تعالى: {فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون} [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]. روى الطبري في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار.. ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف". قلت: هذا إن عامل الله العبد بعدله، فحاسبه على الصغير والكبير، وإلا ففضل الله واسع، ورُبَّ رجل قد غرق في الذنوب حتى أذنيه، ثم شملته رحمة الله، ما لم يكن مشركاً، كما قال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} [النساء: ٤٨].

الثانية ذكر الميزان في السنة:

من ذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة. وقال اقرؤوا إن شئتم: {فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً}."

وفيها أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم."

وروى أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول له أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمت كتبت الحافظون؟ قال: لا يارب، فيقول ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا، يارب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فيقول أحضره، فيقول: يارب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفه، والبطاقة في كفه، قال: فطاشت السجلات، ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم."

الثالثة: في صفة الميزان: فصفة الميزان كما دلت عليه الأحاديث أن له كفتين حسيتين مشاهدتين توزن فيه الصنائف، وربما وزن الشخص نفسه، أو أعماله، وكل ذلك مذكور في الأحاديث.

ووزن الأعمال من مواقف يوم القيامة المشهودة، قال القرطبي في التذكرة، قال العلماء: "إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها" أهـ. كلام القرطبي. وعليه فالوزن كما نص عليه القرطبي. أيضاً. لا يكون في حق كل أحد، ذلك أن الله يدخل الجنة عبداً من غير حساب، فلا وزن عليهم إذاً. والله أعلم.

قال ابن عثيمين في الشرح الممتع: "والموازين: جمع ميزان، وهو: ما توزن به أعمال العباد يوم القيامة. واختلف العلماء هل هو ميزان حقيقي أو كناية عن إقامة العدل؟

فذهبت المعتزلة إلى أنه كناية عن إقامة العدل، وأنه ليس هناك ميزان حسي.

والصواب أنه ميزان حسي لحديث صاحب البطاقة «أن ذنوبه تُجعل في كفة، ولا إله إلا الله في كفة» (١)، وهو ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان» (٢)، فهو ميزان له كفتان، ولكن هاتين الكفتين لا نعلم كيفيتهما؛ لأن ذلك من أمور الغيب التي لم نعلم عنها.

وهل الذي يوزن العمل، أو العامل، أو صحائف العمل؟

على أقوال ثلاثة للعلماء:

القول الأول: أن الذي يوزن العمل.

القول الثاني: أن الذي يوزن العامل.

وحكمنا لمسلمٍ بالنَّارِ	او جَنَّةٍ يَأْبَاهُ ذُو الْإِبْصَارِ
لكن نقول في الذي استقاما	ثم على دين الهدى اقاما
مجنباً كبائر الافعال	يُرجى له النجاة في المآل ^(١)

القول الثالث: أن الذي يوزن صحائف الأعمال.

وذلك لاختلاف النصوص في ذلك.

فحجة من قال: إن الذي يوزن العمل ما يلي:

١ . قوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} * [الزلزلة] .

٢ . قول النبي صلى الله عليه وسلم: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان» .

وحجة من قال إن الذي يوزن صاحب العمل ما يلي:

١ . قوله تعالى: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: ١٠٥] .

٢ . حديث ابن مسعود . رضي الله عنه .: لما قام فهبت الريح فضحك الناس منه؛ لأنه . رضي الله عنه . دقيق

الساقين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن ساقيه في الميزان أعظم من أحد» (١) .

وحجة من قال: إن الذي يوزن صحائف الأعمال: حديث صاحب البطاقة «الذي يؤتى له بسجلات عظيمة كلها

ذنوب، حتى إذا رأى أنه قد هلك، قيل له: إن لك عندنا حسنة واحدة فيؤتى ببطاقة صغيرة فيها لا إله إلا الله،

فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع

هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم شيئاً، ثم توضع البطاقة في كفة، وبقية الأعمال في كفة، فترجح بهنَّ

وتميل» (١) .

فيجاب: إن حقيقة هذا وزن الأعمال؛ لأن الصحائف إنما تثقل وتخف بما فيها من العمل.

وقد يقال: إن الأكثر وزن الأعمال، وقد توزن صحائف الأعمال.

ولكن الراجح والذي عليه الجمهور أن الذي يوزن العمل.

وقال في شرح رياض الصالحين: "والمهم أنه يوم القيامة توزن الأعمال أو صحائف الأعمال أو العمال {فَمَنْ

ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} . "

١ - منهج وعقيدة أهل السنة والجماعة عدم الحكم والشهادة لأحدٍ من أهل القبلة (الإسلام) بعينه بجنة ولا نار،

إلا ما ورد نص صحيح فيه، لأن دخول أحد الجنة أو النار أمر غيبي، لا يعلمه إلا الله عز وجل، والله سبحانه يغفر

لمن يشاء، ويعذب من يشاء، فمن حكم وشهد لأحدٍ أنه من أهل الجنة أو من أهل النار . ممن لم يدل الدليل

الصحيح من القرآن والسنة النبوية على ذلك . فقد تجرأ وقال على الله بلا علم، قال الله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } [الإسراء: ٣٦] قال ابن كثير: "قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقول: لا تقل. وقال العوفي عنه: لا ترم أحدا بما ليس لك به علم. وقال محمد بن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكره: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم". ومن القول على الله بلا علم أن يُشْهَدَ أو يقال أن الله عز وجل لا يغفر لفلان، أو أن فلاناً من أهل الجنة، أو أن فلاناً من أهل النار، فهذه المسألة غيبية مدارها على قاعدة الإيمان بالأمور الغيبية، فعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَخْبَطْتُ عَمَلَك)) رواه مسلم. قال النووي والقاضي عياض: "معنى ((يَتَأَلَّى)) يحلف، وَالْأَلِيَّةُ اليمين، وفيه دلالة لمذهب أهل السنة في غفران الذنوب بلا توبة إذا شاء الله غفرانها". ومن ثم فالمسلم لا يشهد لأحد بالجنة مهما بلغ من الصلاح والثقى، ولا يحكم لأحد من المسلمين بالنار مهما عمل من المعاصي، لأنه لا يدري بما خُتِمَ له به، وما مات عليه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم ((إن العبد ليعمل فيما يرى الناس عمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار، ويعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بخواتيمها)) رواه البخاري.

• وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَبِيٍّ مِنْ صِبْيَانِ الْأَنْصَارِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: طَوْبِي لِهَذَا، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا وَلَمْ يُدْرِكْهُ! قَالَ: أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ، خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا، وَخَلَقَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا، وَخَلَقَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ)) رواه النسائي وصححه الألباني. قال ابن الجوزي: "إنما نهاها أن تقطع للأطفال بالجنة، لأن القطع على علم الغيب ليس إليها". وقال العراقي: "لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع على ذلك". وقال النووي: "أجمع من يُعْتَدُ به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة لأنه ليس مُكَلَّفًا، وتوقف فيه بعض من لا يعتد به لحديث عائشة هذا. وأجاب العلماء بأنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع.. ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة."

• وعن خارجة بن زيد بن ثابت رضي الله عنه: (أن أمَّ العلاء . امرأة من نسائهم قد بايعت النبي صلى الله عليه وسلم . أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم في السُّكْنَى، حين اقترعت الأنصار على سُكْنَى المهاجرين، قالت أم العلاء : فاشتكى (مرض) عثمان عندنا فمرَّضناه حتى تُوفِّيَ، ثم جعلناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب (كُنية عثمان بن مظعون)، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وما يدريك أن الله أكرمك؟ قالت: قلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن؟ قال صلى الله عليه وسلم: أما هو فقد جاءه والله اليقين (الموت)، والله إني لأرجو له الخير، وما أدري والله وأنا

رسول الله ما يفعل بي، قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده)) رواه البخاري.

لم يعترض النبي صلى الله عليه وسلم على قول أم العلاء رضي الله عنها: (رحمة الله عليك يا أبا السائب) إذ هو دعاء له بالرحمة، أما حينما قالت: (فشهادتي عليك لقد أكرمك الله)، وفي رواية قالت: (هنيئاً لك الجنة يا أبا السائب)، اعترض النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال: (وما يدريك أن الله أكرمهم؟) ثم قال: (والله إني لأرجو له الخير)، وفي ذلك تصحيح وتعليم من النبي صلى الله عليه وسلم لأم العلاء رضي الله عنها، إذ لا حرج ولا بأس في أن يدعو الإنسان للميت، بل هو مطالب بذلك لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من أحاديث صحيحة في ذلك، لكن إطلاق الحكم لإنسان ما بأنه من أهل الجنة، أو آخر بأنه من أهل النار، مخالف لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه. وفي شرح الطيبي على مشكاة المصابيح: "قوله (لا أدري، وأنا رسول الله) فيه وجوه: أحدها: أن هذا القول منه حين قالت امرأة لعثمان بن مظعون - لما تُوفي - هنيئاً لك الجنة، زجراً لها على سوء الأدب بالحكم على الغيب، ونظيره قوله لعائشة رضي الله عنها حين سمعها تقول: (طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة: أو غير ذلك يا عائشة) ولا يجوز حمل هذا الحديث وما ورد في معناه على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متردداً في عاقبة أمره، غير متيقن بماله عند الله من الحسن، لما ورد عنه من الأحاديث الصحاح التي ينقطع العذر دونها بخلاف ذلك، وأنى يُحمَل على ذلك؟ وهو المخبر عن الله تعالى أنه يبلغه المقام المحمود، وأنه أكرم الخلائق على الله تعالى، وأنه أول شافع وأول مشفع."

من عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم لا يشهدون لمُعَيَّن بجنة ولا بنار، إلا من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، ولكن يرجون للمحسنين لإحسانهم وطاعتهم، ويخافون على المسيئين لذنوبهم وإساءتهم، هذا من حيث التعيين، أما من حيث العموم: فيشهدون على الظالم بالنار دون تنزيله على إنسان مُعَيَّن، ويشهدون للمطيع بالجنة دون تنزيله على إنسان مُعَيَّن.. قال الشيخ ابن عثيمين: "كل إنسان يشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بأنه في الجنة فهو في الجنة، وكل إنسان يشهد أنه في النار فهو في النار، وأما من لم يشهد له الرسول فنشهد له بالعموم، نقول: كل مؤمن في الجنة، وكل كافر في النار، ولا نشهد لشخص معين بأنه من أهل النار، أو من أهل الجنة، إلا بما شهد له الله ورسوله."

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون ويعتقدون بأن المسلمين في الجنة، فمن مات على التوحيد موقناً أنه لا إله إلا الله فهو من أهل الجنة، وقد يدخل النار فيُعَذَّب بما عليه من الإثم، وقد يغفر الله له، وهو إن عُدَّ بما عليه فمآله إلى الجنة، وهذا مما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وإجماع السلف واتفق العلماء المعبرين، قال الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [النساء: ١١٦]. وكذلك. أهل السنة والجماعة. يؤمنون ويعتقدون أن الذي لم يؤمن بالإسلام ولم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر مُخلد في النار، للآيات الكثيرة الدالة على ذلك، ومنها قول الله تعالى: { وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [آل عمران: ٨٥]، قال السعدي: "أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله

واشهد لفردٍ جاء باليقينِ		على سبيل القطع واليقينِ
بأنَّه في جنَّةِ الأبرارِ		واشهد كذا لو قال ذا في النارِ ^(١)
وبالعذاب في القبورِ نؤمنُ		لمن يشاء ربنا المهيمُن

لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصا وانقيادا لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وكل دين سواه فباطل". وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} [البينة: ٦]. وهذا الاعتقاد من لوازم ومقتضيات الإيمان، فإن من آمن بالله ربًّا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا، لزمه أن يصدق الله تعالى، ويصدق رسوله صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر به، ومن ذلك خلود الكافرين في النار، وهذا على سبيل العموم في الكافرين، وأما الكافر المُعَيَّن فإنه لا يُقْطَع بأن فلاناً سيدخل النار إلا بنص خاص فيه، قال الشيخ ابن عثيمين: "الشهادة بالنار على نوعين: عامة وخاصة. فالعامة: أن نشهد على عموم الكفار بأنهم في النار، ودليها قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا} [النساء: ٥٦]. والخاصة: أن نشهد لشخص مُعَيَّن بالنار، وهذا يتوقف على دليل من الكتاب والسنة مثل: أبي لهب وامراته، ومثل أبي طالب".

لا يعلم الخواتيم وعواقب الأمور إلا الله سبحانه وتعالى، ومن ثم فلا يُحْكَمُ لإنسانٍ مُعَيَّن بجنة أو نار، إلا ما حكم له الوحي. القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة. بذلك، فإذا حكم الوحي لأحد أنه من أهل الجنة فالمقطوع به أنه من أهل الجنة، وإذا حكم الوحي لأحد أنه في النار، فالمقطوع به كذلك أنه في النار، ومع ذلك فأهل السنة والجماعة يرجون للمحسن الجنة، ويخافون على المسيء النار، والله عز وجل أعلم بالخواتيم.

^١ - بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم بالجنة، وجاء ذكر عشرة من هؤلاء الصحابة المبشرين بالجنة في حديث واحد، وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فعن سعيد بن زيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (عشرة في الجنة: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي وعثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص، قال: فعَدَّ هؤلاء التسعة، وسكتَ عن العاشر، فقال القوم: نشدكَ الله يا أبا الأعور (كنية سعيد بن زيد) من العاشر؟ قال: نشدْتُموني بالله، أبو الأعور في الجنة) رواه الترمذي وصححه الألباني. فمن شهد له الله تعالى، أو شهد له رسوله صلى الله عليه وسلم بالجنة بعينه فهو من أهلها قطعاً، مثل الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم. غير هؤلاء العشرة. الذين بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة. ومن شهد الله تعالى له، أو شهد له رسوله بالنار على التعيين فهو من أهلها قطعاً، كفرعون، وأبي لهب، وأبي جهل وغيرهم.

تواترت في ذلك النصوص	ومن اباهها دينه منقوص
ثم سؤال الملكين يجري	لكل عبد داخل في القبر
وحينها يثبت الرحمان	من آمنوا ومن غوى يُهان ^(١)

^١ - عذاب القبر ونعيمه ثابتان بنصوص الكتاب والسنة، ويجب الإيمان بهما، ويلحقان الروح والبدن معاً، وقد نُقل على ذلك اتفاق أهل السنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٢٨٢/٤) بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين، كما يكون للروح منفردة عن البدن. وقال (٢٦٢/٤): وإثبات الثواب والعقاب في البرزخ ما بين الموت إلى يوم القيامة: هذا قول السلف قاطبة وأهل السنة والجماعة، وإنما أنكر ذلك في البرزخ قليل من أهل البدع. والأدلة على إثبات عذاب القبر ونعيمه كثيرة منها:

١- ما في الصحيحين ومسنند أحمد وأبي داود والنسائي من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ -لمحمد- فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما، ويفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملاً عليه خضراً إلى يوم يبعثون. وأما الكافر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه".

فقوله صلى الله عليه وسلم: (يسمع قرع نعالهم - فيقعدانه - ضربة بين أذنيه - فيصيح صيحة - حتى تختلف أضلاعه) كل ذلك دليل واضح على شمول الأمر للروح والجسد.

٢- وروى الترمذي من حديث أبي هريرة بسند حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل، فيقول: ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال: نم. فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم. فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً.

قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله ، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك".
فقوله: "فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه " صريح في ذلك.

٣- وعند أحمد من حديث عائشة بسند حسن: " فإذا كان الرجل الصالح أجلس في قبره غير فزع، وإذا كان الرجل السوء أجلس في قبره فزعاً"

٤- وفي حديث البراء بن عازب الطويل الذي رواه أحمد وأبو داود وابن خزيمة والحاكم وغيرهم بسند صحيح وأوله: "إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه " وفيه: " يحملونها (الروح) في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط... ويصعدون بها... فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في علين، وأعيدوا عبدي إلى الأرض، فأني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه..... وفيه: " فيفسح له في قبره مد بصره " . وفيه عند الحديث عن العبد الكافر وأن الملائكة تصعد بروحه فلا تفتح له أبواب السماء " فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرْحاً، فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه " وفيه: " ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه " ، وهذا صريح في أن الروح مع الجسد يلحقها النعيم أو العذاب. ويمكنك الوقوف على نص هذا الحديث العظيم كاملاً بالبحث عنه في موسوعة الحديث الشريف بهذا الموقع.

وأما الدليل على أن النعيم قد يلحق الروح منفردة عن البدن فهو في ما سبق من كون الروح تصعد إلى السماء وتفتح لها أبواب السماء ، وأيضاً: روى أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنما نسمة المؤمن طائر معلق في شجر الجنة، حتى يبعثه الله إلى جسده يوم يبعثه".
فمجموع النصوص يدل على أن الروح تنعم مع البدن الذي في القبر، أو تعذب، وأنها تنعم في الجنة وحدها.
ومما ينبغي التنبيه عليه أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه إن لم يتجاوز الله عنه، قبر أم لم يقبر ، فلو أكلته السباع، أو حرق حتى صار رماداً، أو نسف في الهواء، أو أغرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل من المقبور، قاله ابن القيم رحمه الله ونقله عنه السفاريني في لوامع الأنوار.

وقد نسب أبو الحسن الأشعري في المقالات (١١٦ / ٢) نفي عذاب القبر إلى المعتزلة والخوارج، كما نسب به البغدادي في أصول الدين (ص/ ٢٤٥) إلى الجهمية والضرارية، ونسب الملطي في التنبيه والرد على أهل الأهواء (ص/ ١٢٤) إلى جهنم بن صفوان إنكار عذاب القبر ومنكر ونكير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فأما أحاديث عذاب القبر، ومسألة مُنكر ونكير، فكثيرة متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ مثل ما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ بقبرين، فقال: ((إنهما ليُعذبان، وما يعذبان في كبير؛ أما أحدهما، فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر، فكان لا يستتر من

بوله))، ثم دعا بجريدة رطبة، فشققها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، فقالوا: يا رسول الله، لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: ((لعله يُخَفِّفَ عنهما ما لَمْ يبيس)). ((وفي صحيح مسلم وسائر السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير، فليقل: أعوذُ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال)). وساق الشيخ أحاديث كثيرة في هذا الباب... إلى أن قال: وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الملكين؛ فيجب اعتقاد ذلك، والإيمان به، ولا نتكلم عن كيفيته؛ إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته؛ لكونه لا عهد له في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تُحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول؛ فإنَّ عودَ الرُّوح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تُعادُ الرُّوح إليه إعادةً غيرَ الإعادة المألوفة في الدنيا. إلى أن قال: واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ؛ فكل من مات وهو مستحق للعذاب، ناله نصيبه منه؛ قُبِرَ أو لَمْ يُقْبَر، أكلته السباع، أو احترق حتى صار رماداً ونُسِفَ في الهواء، أو صُلِبَ، أو غرق في البحر؛ وصل إلى رُوحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من إجلالِه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك، فيجب أن يفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم مراده، من غير غلو ولا تقصير، فلا يُحمَلُ كلامه ما لا يحتمله، ولا يُقَصَّرُ به عن مراده وما قصد من الهدى والبيان، فكم حصل من إهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله. إلى أن قال: فالحاصل أن الدُّورَ ثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وقد جعل الله لكل دار أحكاماً تخصُّها، وركب هذا الإنسان من بدنٍ ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم، صار الحُكْم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً. فإذا تأملت هذا المعنى حقَّ التأمل، ظهر لك أن كون القبر روضةً من رياض الجنة، أو حفرةً من حفر النار - مطابق للعقل، وأنه حق لا مِريَّة فيه، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم. ويجب أن يُعلَم أن النار التي في القبر والنَّعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها، وإن كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه والتي تحته، حتى يكون أعظم حرّاً من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا، لم يُحسُّوا بها، بل أعجب من هذا أن الرُّجلين يُدفن أحدهما إلى جنب صاحبه، وهذا في حفرة من النار، وهذا في روضة من رياض الجنة، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حرِّ ناره، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب، ولكن النفوس مُولَّعة بالتكذيب بما لَمْ تُحِطْ به علماً. وقد أَرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير، وإذا شاء الله أن يُطَّلِع على ذلك بعض عباده، أطلعه، وغيبه عن غيره، ولو أطلع الله على ذلك العباد كلهم، لزالَت حِكْمَةُ التكليف والإيمان بالغيب، ولَمَّا تدافن الناس؛ كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: ((لولا ألا تدافنوا، لدعوتُ الله أن يُسمِعكم من عذاب القبر ما أسمع)). قال العلامة ابن باز رحمه الله: فالمقصود: أن من أنكر عذاب القبر يستتاب، فإن تاب؛ وإلا قتل كافراً، نسأل الله العافية.

والمنكرون لعذاب القبر أصناف متفاوتون، فمنهم من ينكره مطلقاً، ومنهم من ينكر وقوعه على البدن، ومنهم من ينكر وقوعه على الروح، ومنهم من قال بوقوعه على الكافرين دون المؤمنين.

وكل هذه الأقوال فاسدة، تردّها الأحاديث الصحيحة الثابتة، والذي عليه جماعات أهل السنة ما يلي:

١ - إثبات عذاب القبر ونعيمه على الروح والجسد، يقول العلامة ابن حجر الهيتمي في جواب عن سؤال مفاده: هل عذاب القبر على الروح والجسد أم على أحدهما؟

فأجاب بقوله: "ذهب أهل السنة إلى أن الله يحيي المكلف في قبره، ويجعل له من العقل مثل ما عاش عليه، ليعقل ما يُسأل عنه، ويجب عنه، وما يفهم به ما أتاه من ربه، وما أعد له في قبره من كرامة وهوان، وبهذا نطق الأخبار والأصح: أن العذاب على الروح والجسد".

والأحاديث على إثبات هذا متضافرة، يقول الإمام ابن تيمية في الفتاوى: "وهذا الباب فيه من الأحاديث والآثار ما يضيق هذا الوقت من استقصائه، مما يبين أن الأبدان التي في القبور تنعم وتعذب - إذا شاء الله ذلك - كما يشاء، وأن الأرواح باقية بعد مفارقة البدن، ومنعمة أو معذبة.

وهذا القول هو الذي أجمع عليه أهل السنة، يقول الإمام ابن تيمية: "العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً، باتفاق أهل السنة والجماعة"

٢ - أن العذاب قد يكون على النفس منفردة أحياناً، يقول الإمام ابن تيمية: "تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين، كما يكون للروح منفردة عن البدن"

♦ ويقول الإمام ابن رجب في تفسيره: "وقولهم: إن الأرواح عند الله تعالى تعاقب وتتاب، لا ينافي أن تتصل بالبدن أحياناً، فيحصل بذلك إلى الجسد نعيم أو عذاب، وقد تستقل الروح أحياناً بالنعيم والعذاب إما عند استحالة الجسد أو قبل ذلك"

٣ - أن عذاب القبر ليس مختصاً بالكافرين، بل يقع على عصاة الموحدين كذلك، يقول الإمام عبد الحق الإشبيلي: "واعلم أن عذاب القبر ليس مختصاً بالكافرين، ولا موقوفاً على المنافقين، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين وكل على حاله من عمله، وما ستوجبه بخطيئته وزلله"

♦ ويقول الحافظ ابن حجر في الفتح: "إثبات عذاب القبر وأنه واقع على الكفار ومن شاء الله من الموحدين" وقد ذكر الإمام ابن رجب أنواع عذاب القبر، وذكر منها: تضيق القبر على الميت حتى تختلف فيه أضلاعه ثم قال: "وقد ورد ما يدل على أن التضيق عام للمؤمن والكافر، وصرّح بذلك طائفة من العلماء منهم ابن بطّة وغيره"

ومن أنواع عذاب القبر التي أوردها الإمام ابن رجب ودل عليها غير ما سبق -الضرب إما بمطراق من حديد أو غيره.

-تسليط الحيات والعقارب عليه.

-رض رأس الميت بحجر، أو شق شذقه أو نحو ذلك.

٤ - أن كل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر.

فلوا أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب ... أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور (الروح لابن القيم).

يقول الإمام النووي " :قال أصحابنا: ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تفرقت أجزأؤه، كما نشاهد في العادة أو أكلته السباع، أو حيطان البحر، أو نحو ذلك، فكما أن الله تعالى يعيده للحشر، وهو سبحانه قادر على ذلك فكذا يعيد الحياة إلى جزء منه أو أجزاء، وإن أكلته السباع والحيتان "

٥ - ذكر بعض أهل العلم: أن عذاب القبر نوعان: دائم ومنقطع:

فالدائم: عذاب الكفار، وبعض العصاة، والمنقطع: هو عذاب من خفت جرائمه من العصاة، فإنه يعذب بحسب جريمته ثم يرفع عنه، وقد يرفع عنه بدعاء أو صدقة أو نحو ذلك

وقد يكون عذاب القبر سببا موجبا لرفع العقوبة الأخروية، يقول الإمام ابن تيمية " :قد دلت نصوص الكتاب

والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب: السبب الثامن: ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة، فإن هذا مما يكفر به الخطايا "

وقال العلامة ابن أبي العز " :فإن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة: السبب الخامس: عذاب القبر "

٦ - تتبع العلماء واستقروا النصوص الواردة في عذاب القبر، وذكروا الأسباب التي يعذب بها أصحابها وهي كثير ومنها: أ. النميمة والبول وترجم لها الإمام البيهقي في جزء " :إثبات عذاب القبر "

وذكر حديث الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: مرّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قبرين فقال: ((أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : ((أَكْثَرُ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ))

ب. النياحة على الميت، وترجم لها الإمام البيهقي بقوله " :باب ما يخاف من عذاب القبر في النياحة على الميت، قال بعض أهل العلم: إذا كان قد أوصى بها)) .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((الْمَيِّتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ)) .

ج. الغلول من الغنيمة، وترجم لها الإمام البيهقي بقوله " :باب ما يخاف من عذاب القبر في الغلول "

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في قصة الرجل الذي أخذ الشملة من الغنيمة، قال عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلْ عَلَيْهِ نَارًا)) ((فَجَاءَ رَجُلٌ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - بِشِرَاكِ أَوْ بِشِرَاكَيْنِ، فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ كُنْتُ أَصَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : - شِرَاكِ - أَوْ شِرَاكَيْنِ - مِنْ نَارٍ)).

فهذه الأسباب وغيرها كثير، هي من الأسباب المفصلة التي يعذب هاب أصحابها في القبور. وأما الأسباب المجملية التي تكون سبباً في العذاب هو: الجهل بالله جل وعلا، وإضاعة أمره، وارتكاب معاصيه، إذ إن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله تعالى وسخطه على عبده، فمن أغضب الله جل وعلا وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك، كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله تعالى وسخطه عليه، فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب

قال الإمام القرطبي: "قال علماؤنا: لا أبين في أحوال المعذبين في قبورهم من حديث البخاري، وإن كان مناماً، فمنامات الأنبياء عليهم السلام وحي"

٧ - وكذا تتبع العلماء واستقصوا الأسباب التي تنجي من عذاب القبر وهي أسباب كثيرة وردت في السنة المطهرة ومنها:

أ- الشهادة في سبيل الله، وترجم لها الإمام البيهقي بقوله: "ما يرجى في ... الشهادة في سبيل الله من الأمن من عذاب الله في القبر"

عن المقدم بن معدي كرب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُرْوَجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ رُوحَةً مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ)).

ب - الرباط في سبيل الله تعالى، وترجم لها الإمام البيهقي بقوله: "باب ما يُرجى في الرباط من الأمان من فتنة القبر".

عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَانَ)).

٣ - قراءة سورة الملك، وترجم لها الإمام البيهقي بقوله: "باب ما يرجى في قراءة سورة الملك من المنع من عذاب القبر".

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إِنَّ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال لرجل: ألا أتحنك بحديث تفرح به، قال الرجل: بلي، قال: اقرأ: تبارك الذي بيده الملك، احفظها وعلمها أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك، فإنها المنجية والمجادلة، تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له إلى ربها أن ينجيها من عذاب النار إذا كانت في جوفه، وينجي الله بها صاحبها عن عذاب القبر

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: تبارك الذي بيده الملك منجية قال الإمام القرطبي: "اعلم رحمك الله، أن هذا الباب لا يعارض ما تقدم من الأبواب، بل يخصها ويبين من لا يسأل في قبره ولا يفتن فيه، ممن يجري عليه السؤال، ويقاسي تلك الأهوال، وهذا كله ليس فيه مدخل للقياس، ولا مجال للنظر فيه، وإنما فيه التسليم والانقياد لقول الصادق المرسل إلى العباد - صلى الله عليه وسلم -

[شبهات المنكرين لعذاب القبر]

تعلق المنكرون لعذاب القبر بشبهات واهية متهافئة، لا قيام لها عند قدم التحقيق، لأنهم لم يسلموا لأخبار الله تعالى وأخبار رسوله عليه الصلاة والسلام، إذ الواجب على المكلف أن يذعن ويسلم لأخبار ونصوص الوحيين، ولا يعارضها بشبهات عقلية فاسدة، لأن عذاب القبر ونعيمه من أمور الغيب التي يجب التصديق والإيمان بها، دون أي معارض عقلي.

يقول الإمام ابن رجب: " فإن عذاب القبر ليس من جنس عذاب الدنيا ... وإنما هو نوع آخر، يصل إلى الميت بمشيئة الله وقدرته "

ويقول الإمام القرطبي: " فأحوال المقابر وأهلها على خلاف عادات أهل الدنيا في حياتهم، فليس تنقاس أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، وهذا مما لا خلاف فيه، ولولا خبر الصادق بذلك لم نعرف شيئاً مما هنالك " وشبه القوم تلخص في الآتي:

[أ. شبه نقلية]

١ - زعموا أن القرآن الكريم لم يدل على عذاب القبر:

الرد: هذا القول غلط، لأن هذا شأن من لم يتدبر القرآن، ولم يتأمل في معانيه، وإلا فإن القرآن الكريم مليء بذكر عذاب القبر تصريحاً وتلميحاً، كما سبق ذكره في الأدلة، يقول الإمام ابن تيمية عن هذا القول: "وهو غلط، بل القرآن قد بين في غير موضع بقاء النفس بعد فراق البدن، وبين النعيم والعذاب في البرزخ " .

٢ - زعموا أن القرآن الكريم يدل على نفي عذاب القبر، واحتجوا على نفي عذاب القبر بما يلي: قال الله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ رُجْعُونَ} [البقرة: ٢٨]،

قال المنكرون: دلت هذه الآية على بطلان عذاب القبر، وذلك: أنه تعالى بين أنه يحييهم مرة في الدنيا، وأخرى في الآخرة، ولم يذكر حياة القبر، قالوا: ويؤكد قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ} * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ١٥ - ١٦]. ولم يذكر حياة فيما بين هاتين الحياتين.

الرد: أولاً: اختلف المفسرون في تفسير الحياتين والموتيتين، والذي عليه السلف وعلى رأسهم ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، وجماعة التابعين، وجمهور أهل التفسير كقتادة ومقاتل والفراء وثعلب والزجاج وابن قتيبة وابن الأنباري، ورجحه ابن الجوزي وابن كثير وغيرهم، أن معنى الآية: أن الموتة الأولى: كونهم نطفاً وعلقاً ومضغاً، فأحياهم في الأرحام، ثم يميتهم بعد خروجهم إلى الدنيا، ثم يحييهم للبعث يوم القيامة

ثانياً: لا يلزم من عدم ذكر حياة القبر في هذه الآية ألا تكون حاصلة، فقد وردت في آيات أخرى تدل عليها.

ثالثاً: يمكن قلب الدليل عليكم فيقال: إن الله تعالى ذكر حياة القبر في هذه الآية، لأن قوله في { يحييكم } ليس هو الحياة الدائمة، وإلا لم صح أن يقول: { ثم إليه ترجعون } لأن كلمة { ثم } تقتضي التراخي والرجوع إلى الله تعالى حاصل عقب الحياة الدائمة من غير تراخ، فلو جعلنا الآية من هذا الوجه دليلاً على حياة القبر كان قريباً ب. قال الله تعالى: { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } [المؤمنون: ١٥ - ١٦]. قال المنكرون: هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر، لأنه قال: { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ }، ولم يذكر بين الأمرين الإحياء في القبر والإماتة.

الرد: أولاً: أن معنى الآية الكريمة: أنه بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } يعني النشأة الآخرة فتحيون للجزاء.

ثانياً: أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة، فقد ورد ذكرها والإشارة إليها في مواضع أخرى، على أن قوله جل وعلى في الآية { ثم إنكم يوم القيامة تبعثون } فيه دلالة على حياة القبر، وذلك أن البعث هو الإطلاق، فكأنهم حسبوا مدة ثم أطلقوا

وثالثاً: أن الغرض هو ذكر هذه الأجناس الثلاثة: الإنشاء، والإماتة، والإعادة، والذي ترك ذكره فهو من جنس الإعادة

ج. قال الله تعالى { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ } [المؤمنون: ١١٢ - ١١٣] قال المنكرون: قوله: { كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ } يتناول زمان كونهم أحياء فوق الأرض، وزمان كونهم أمواتاً في بطن الأرض، فلو كانوا معذبين في القبر لعلموا أن مدة مكثهم في الأرض طويلة، فما كانوا يقولون: { لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ }.

الرد: أولاً: معنى هذه الآية الكريمة: أن الله عز وجل قال لهؤلاء الأشقياء الذين كانوا يظنون أنهم لا يبعثون، وأن الدنيا باقية { كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ } من الزمان بعد موتكم، فأجابوا وقالوا: { لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } فنسوا عظيم ما كانوا فيه من البلاء، وطول مكثهم في القبور في العذاب، لما حل عليهم من نقم الله في الآخرة، حتى ظنوا أنهم لم يلبثوا في البرزخ إلا يوماً أو بعض يوم

ثانياً: أن الجواب لا بد وأن يكون بحسب السؤال، وإنما سألوا عن موت لا حياة بعده إلا في الآخرة، وذلك لا يكون إلا بعد عذاب القبر.

ثالثاً: يحتمل أن يكونوا سألوا عن قدر اللبث الذي اجتمعوا فيه، فلا يدخل في ذلك تقدم موت بعضهم على بعض، فيصح أن يكون جوابهم { لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } عند أنفسنا.

د. قال الله تعالى: { أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ، إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } [الصفات ٥٨ - ٥٩] قال المنكرون: قوله في هذه الآية، يدل على أن الإنسان لا يموت إلا موتة واحدة، ولو حصلت الحياة في القبر لكان الموت حاصلًا مرتين.

الرد: أن قوله تعالى { إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى } المراد منه: كل ما وقع في الدنيا وهذا الاستثناء في الآية، استثناء منقطع، والمعنى: أي لكن الموتة الأولى كانت لنا في الدنيا، وهذا قريب في المعنى من قوله تعالى: { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } [الدخان ٥٦].

وقد قال الله جل ثناؤه فيمن حكم بالعذاب ولو ترى إذ يتوفى الله الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم و أن الله ليس بظلام للعبيد

وقال ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت و الملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق و كنتم عن آياته تستكبرون

وقال في آل فرعون النار يعرضون عليها غدوا و عشيا و يوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب فحكم عليهم بضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم حين تتوفاهم وإن كنا لا نشاهده وبما تقول لهم الملائكة عند الموت وهم باسطوا أيديهم وإن كنا لا نسمعه وعلى آل فرعون بعرضهم على النار غدوا وعشيا ما دامت الدنيا وإن كنا لا نقف عليه وفي كل ذلك دلالة على عذاب القبر.

[ب. شبهة عقلية]

١ - ردهم النصوص الواردة في السنة المطهرة المثبتة لعذاب القبر بناء على أنها أحاديث آحاد، وهي لا تفيد إلا

الظن دون القطع الواجب في باب العقائد، وليس في القرآن ما هو نص فيها

الرد: تتابع العلماء في الرد على هذه الشبهة، ويكفي في ردها النظر في تراجم الأئمة في مصنفاتهم في بيان وجوب قبول خبر الواحد العدل ... والعمل به.

♦ يقول الإمام البخاري في صحيحه: " كتاب أخبار الآحاد " وذكر تحته عدة أبواب مضمنة لمجموعة من الآيات، كلها تدل على وجوب قبول خبر الواحد، فقال:

" -باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام

- "باب بعث النبي - صلى الله عليه وسلم -، الزبير طليعة وحده".

- "باب قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ } [الأحزاب: ٥٣]. فإذا أذن له واحد جاز "

- "باب ما كان يبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - من الأمراء والرسل واحداً بعد واحد".

- " باب وصاة النبي - صلى الله عليه وسلم - وفود العرب أن يبلغوا من رواءهم".

- " باب خبر المرأة الواحدة"

♦ ويقول الإمام الدارقطني في سننه : " خبر الواحد يوجب العمل".

ويقول الإمام البيهقي في السنن : " الحجة في تثبيت خبر الواحد "

♦ ويقول الإمام الخطيب البغدادي في الكفاية : " باب ذكر بعض الدلائل على صحة العمل بخبر الواحد ووجوبه "

وقد حُكي الإجماع في بيان وجوب العمل بخبر الواحد:

♦ يقول الإمام السمعاني : " ومشهور معلوم استدلال أهل السنة بالأحاديث ورجوعهم إليها، فهذا إجماع منهم

على القول بأخبار الآحاد "

♦ ويقول الإمام أبو القاسم الأصبهاني : " إن الخبر إذا صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورواه

الثقات والأئمة وأسندوه خلفهم عن سلفهم إلى رسول الله وتلقته الأمة بالقبول، فإنه يوجب العلم فيما سبيله العلم،

وهذا قول عامة أهل الحديث والمتقين من القائمين على السنة "

♦ ويقول الإمام القرطبي في بيان قبول خبر الواحد : " وهو مجمع عليه من السلف معلوم بالتواتر من عادة النبي -

صلى الله عليه وسلم - في توجيهه ولاته ورسله آحاداً للأفاق، ليعلموا الناس دينهم فيبلغوهم سنة رسولهم - صلى

الله عليه وسلم - من الأوامر والنواهي "

♦ وقال العلامة التفتازاني : " أن خبر الواحد في أحكام الآخرة من عذاب القبر، وتفصيل الحشر والصراط

والحساب والعقاب وغير ذلك، مقبول بالإجماع، مع أنه لا يفيد إلا الاعتقاد، إذ لا يثبت به عمل من الفروع "

♦ وقال الإمام ابن عبد البر : " أجمع العلم من أهل الفقه والأثر في جميع الأمصار فيما علمت على قبول خبر

الواحد العدل وإيجاب العمل به إذا ثبت "

وقد أفرد جماعات من أهل العلم، مصنفات خاصة في بيان حجية أخبار الآحاد، كالإمام ابن عبد البر والإمام

الخطيب البغدادي وغيرهما

وعقد الأئمة رحمهم الله في مصنفاتهم أبواباً؛ لبيان الأدلة المستفيضة على حجية خبر الآحاد كالإمام الشافعي في

كتابه الرسالة

واحتج الأئمة يرحمهم الله تعالى بحديث الآحاد بشموله سواء فيما يتعلق بمسائل الاعتقاد أو مسائل الأحكام فلم

يفرقوا في التعامل به بينهما، كما جرت عليه بعض الطوائف، حيث أعملت خبر الآحاد فيما يتعلق بمسائل

الأحكام، والفت حجيته في مسائل الاعتقاد، وهذا من قصورهم في التعامل مع السنة، وإلا فإن الأئمة احتجوا به

في مسائل الأحكام ومسائل الاعتقاد.

♦ يقول الإمام السمعاني: " أجمع أهل الإسلام، متقدموهم ومتأخروهم على رواية الأحاديث في صفات الله عز وجل، وفي مسائل القدر والرؤية، وأصل الإيمان، والشفاعة، والحوض، وإخراج الموحدين المذنبين من النار، وفي صفة الجنة والنار، وفي الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وفي فضائل النبي - صلى الله عليه وسلم - ومناقب أصحابه، وأخبار الأنبياء المتقدمين عليه، وكذلك أخبار الرقائق والعظات، وما أشبه ذلك، مما يكثر عده وذكره، وهذه الأشياء كلها علمية لا عملية، وإنما تروى لوقوع علم السامع بها "

ولذا فالتفريق بين أخبار والمتواترة والآحاد في العمل، والقول بأن خبر الواحد لا يفيد العلم بحال، وأنه "لا بد من نقله بالتواتر لوقوع العلم به شيء اخترعته القدريّة والمعتزلة، وكان قصدهم منه رد الأخبار، وتلقفه بعض الفقهاء، ولم يقفوا على مقصودهم من هذا القول "

والعجيب أن الفرق التي تفرق بين أخبار التواتر والآحاد في العمل، تجدها مع اختلاف طرائقها وعقائدها، تستدل كل فرقة منهم على صحة ما تذهب إليه بأخبار الآحاد.

ولذا إذا قلنا: " إن خبر الواحد لا يجوز أن يوجب العلم، حملنا أمر الأمة في نقل الأخبار على الخطأ، وجعلناهم لاغين مشغولين بما لا يفيد أحداً شيئاً ولا ينفعه، ويصير كأنهم قد دونوا في أمور ما لا يجوز الرجوع إليه، والاعتماد عليه، وربما يرتقي هذا القول إلى أعظم من هذا، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - أدى هذا الدين إلى الواحد، فالواحد من أصحابه ليؤدوه إلى الأمة، فإذا لم يقبل قول الراوي، لأنه واحد، رجع هذا العيب إلى المؤدّي - نعوذ بالله من هذا القول الشنيع والاعتقاد القبيح " -

وقد ذكر الإمام أبو عمرو الداني في رسالته الوافية في اعتقاد أهل السنة: "قولهم: إن من تمام السنة وكمالها، قبول خبر الواحد والاستمسك به والعمل بموجبه من الصحابة من الرجال والنساء، إذا حدث به الثقة المعروف عن مثله إلى أن يتصل الإسناد بالصحابي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وذلك إذا لم يعارضه خبر مثله، ولا نسخه أثر، ولا اتفق الجميع على ترك استعماله "

وهذا الذي ذكره الإمام أبو عمرو الداني في قبول أخبار الآحاد، هو الذي اتفق عليه الأئمة، إلا أنه أشار إلى موجبات رد خبر الثقة، وقد أشار إليها الإمام الخطيب البغدادي، فقال: "إذا روى الثقة المأمون خبراً متصل الإسناد رد بأمور:

أحدها: أن يخالف موجبات العقول، فيعلم بطلانه؛ لأن الشرع إنما يرد بمجوزات العقول، وأما بخلاف العقول فلا. والثاني: أن يخالف نص الكتاب أو السنة المتواترة، فيعلم أنه لا أصل له، أو منسوخ. والثالث: أن يخالف الإجماع فيستدل على أنه منسوخ أو لا أصل له، لأنه لا يجوز أن يكون صحيحاً غير منسوخ، وتجمع الأمة على خلافه.

والرابع: أن ينفرد الواحد برواية ما يجب على كافة الخلق علمه، فيدل على أنه لا أصل له، لأنه لا يجوز أن يكون له أصل، وينفرد هو بعلمه من بين الخلق العظيم.

والخامس: أن ينفرد الواحد برواية ما جرت به العادة بأن ينقله أهل التواتر فلا يقبل، لأنه لا يجوز أن ينفرد في مثل هذا بالرواية "

ومن الشواهد التي تدل على احتياج الأئمة بخبر الواحد، ذكرهم قبول خبر الواحد في فوائد الأحاديث والآثار التي يتولون شرحها والتعليق عليها وهذا كثير لا يمكن حصره، ومنه:

-استدل الإمام الشافعي بقبول خبر الواحد، ببعض الآثار الواردة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال : " وكان عمر بن الخطاب يقضي أن الدية للعاقلة، ولا يورث المرأة من دية زوجها، حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها فرجع إليه عمر، وقال :وسأل عمر بن الخطاب من عنده علم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في الجنين فأخبره حمل بن مالك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قضى فيه بغرة، فقال عمر بن الخطاب :إن كدنا أن نقضي في مثل هذا برأينا، أو قال :لو لم نسمع هذا لقضينا فيه بغير هذا، في كل هذا دليل على أنه يقبل خبر الواحد إذا كان صادقاً عند من أخبر " وقال الإمام الخطابي في شرحه لحديث " :أَنَّمَا عَلَى ابْنِي جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ "

وفي الحديث دليل على قبول خبر الواحد "

♦ وقال الإمام ابن بطال في شرحه لحديث ضمام في صحيح الإمام البخاري : " وفي حديث ضمام: قبول خبر الواحد؛ لأن قومه لم يقولوا له :لا نقبل خبرك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى يأتينا من طريق آخر " -وقال الإمام ابن عبد البر في شرحه لحديث عروة عن عائشة قالت " :كَانَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - يُصَلِّي صَلَاةَ الْعَصْرِ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ فِي حُجْرَتِي لَمْ يَظْهَرْ الْفَيْءُ بَعْدُ "

وفي رواية معمر لهذا الحديث عن ابن شهاب قال عمر لعروة :انظر ما تقول يا عروة، أو أن جبريل هو سن وقت الصلاة، فقال له عروة، كذلك حدثني بشير بن أبي مسعود، فما زال عمر يعتلم وقت الصلاة بعلامة حتى فارق الدنيا .. وفيه دليل :على قبول خبر الواحد، لأن عمر قبل خبر عروة وحده، لأن عمر قبل خبر عروة وحده، فيما جهل من أمر دينه وهذا منا على التنبيه "

♦ وقال الإمام ابن الجوزي : " وفي الحديث السادس والأربعين بعد المائة: استدارة أهل قباء إلى القبلة بقول واحد، وهو أصل في قبول خبر الواحد إذا كان ثقة "

والشواهد تطول جداً في هذا الباب، في بيان احتياج العلماء بالحديث الآحاد والحجة في إثبات خبر الواحد والعمل به قائمة من الكتاب والسنة، ودلائل الإجماع والقياس

-وينبغي أن يعلم في هذا المقام: أن التحقيق في مذهب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب هو قبوله خبر الواحد، يقول الإمام ابن عبد البر : " وقد زعم قوم أن في قصة أبي موسى الأشعري مع عمر في الاستئذان، دليل على أن عمر كان لا يقبل خبر الواحد العدل، حتى يقع إليه العلم الظاهر به كالشاهدين، ليس كما زعموا، لأنه

معروف عن عمر من وجوه متواترة قبله لخبر الواحد العدل، ومحال أن يقبل خبر الواحد العدل، وهو يدين برده "

ولذا قال الإمام ابن بطال فيمن ذهب إلى هذا القول : " وهذا خطأ في التأويل وجهل بمذهب عمر وغيره من السلف "

فخبر الواحد مقبول عند عمر، معمول به، وأما مراجعته لأبي موسى في حديث الاستئذان لم يكن إلا للاستظهار أو لغير ذلك من الوجوه
وقد ذكر الإمام ابن تيمية أن خبر الواحد قد يعلم صدقه بأنواع من الدلائل وقرائن تقترن بالخبر يعلم بها صدقه فمنها:

-دلائل وقرائن قد تكون في المُخْبِر، من علمه، ودينه، وتحريه للصدق والخلاصة: أن خبر الواحد المتلقي بالقبول، يوجب العلم عند جمهور العلماء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد

٢ - قال المنكرون: قد ثبت في العقل يقيناً وقطعاً، أن الميت لا يحس ولا حياة فيه، وأن الألم في وصوله وحصوله، إنما هو مقيد مشروط بالحياة، فإذا عدمت الحياة زال الإحساس، وبطل العذاب، ومثل هذا لا يقبل بأحاديث الآحاد.

الرد: أولاً: أن مثل هذا الكلام لا يقابل الأخبار الواردة الصحيحة الصريحة فيوقفها ولا تُترك لأجله. ثانياً: أن الذي جاء بإثبات هذا الأمر هو الذي جاء بالصلوات الخمس وغيرها، وليس لنا طريق إلا ما نقلوه من ذلك.

ثالثاً: أن هذا من أمور الغيب التي يجب التصديق والإيمان بها، ولا قياس أو مقارنة بين الدنيا والآخرة، ولذا لو أن الله جل وعز أطلع الناس على العذاب لأدى إلى مفساد منها: عدم التدافن، إذ أن سماع أصوات المعذبين يؤدي لذلك، ويؤيد ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : ((إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنَّ لَا تَدَافِنُوا، لَدَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ)) ومعنى قوله : ((لولا أن لا تدافنوا)) أي: أنهم لو سمعوا عذاب القبر ... لتركوا التدافن حذراً من عذاب القبر، أو لاشتغل كل بخويصته، حتى يقضي بهم إلى ترك التدافن

فالمانع من الدعاء: هو الخوف والحيرة والدهشة وانخلاع القلب، وقيل: المانع ترك الإعانة في التدافن فلو كان عذاب القبر شهادة وحساً، لكان فضيحة للمعذب، ولكان هذا قلقاً على أهله وذويه، إذ يسمعون صياح صاحبهم، فلا يقر لهم قرار، لكن من رحمة الله تعالى، أن جعله غيباً لا يعلم عنه، ولو سمع الناس صراخ المعذبين لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الشهادة، لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تفوت مصلحة الامتحان(شرح رياض الصالحين لابن عثيمين).

رابعاً: أن الله جل وعز يجعل في الأجسام خاصة الإحساس مع الإنفراد عن الأرواح، وهذا أمر لا يعجزه ولا يمتنع في قدرته، فإذا وردت الآثار وجب ترك المعقول الظاهر معه

٣ - قال المنكرون: نحن نشاهد الميت على حاله في قبره، فكيف يجلس ويقعد ويضرب بمطارق من حديد، ولا يظهر له أثر؟

الرد: أن ذلك غير ممتنع، بل له نظير في العادة، وهو النائم فإنه يجد لذة وآلاماً لا نحس نحن شيئاً منها، وكذا يجد اليقظان لذة وآلاماً لما يسمعه أو يفكر فيه، ولا يشاهد ذلك جليسه منه، وكذا كان جبرائيل يأتي النبي - صلى الله عليه وسلم - فيخبره بالوحي الكريم، ولا يدركه الحاضرون، وكل هذا ظاهر جلي (شرح النووي على مسلم).

فإذا كان النائم يحصل لروحه وبدنه من النعيم والعذاب ما يحس به، والذي إلى جنبه لا يحس به، حتى قد يصيح النائم من شدة الألم، أو الفرع الذي يحصل له، ويسمع اليقظان صياحه، واليقظان يسمع ذلك وهو نائم عينية مغمضة، ولو خوطب لم يسمع، فكيف ينكر حال المقبور الذي أخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه يسمع قرع نعالهم، وهذا تقريب وتقدير لإمكان ذلك، فلا يجوز أن يقال: ذلك الذي يجده الميت من النعيم والعذاب مثلما يجده النائم في منامه، بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم، وهو نعيم حقيقي وعذاب حقيقي، ولكن يذكر هذا المثل لإمكان ذلك (فتاوى ابن تيمية).

وعليه: فما يقال: أنا نشاهد الميت كما كان لم يتغير، حتى لو كان على بطنه قدح من ماء لم يتغير عن حاله! يقال لهم: إن مثل هذه الاستبعادات لا يعول عليها، وهو مثل استبعاد الكفرة إحياء العظم البالية، وإعادة الخلق بعد إفنائهم، والله جل وعلا قادر على أن يبقى صورته على حاله، والماء على بطنه ويكون هو معذباً، كما أنا نشاهد الرجل به الوجع الشديد والألم العظيم وهو على صفته

٤ - قال المنكرون: نحن نرى المصلوب على صلبه مدة طويلة، وهو لا يسأل ولا يحيى، وكذلك يشاهد الميت على سريره وهو لا يجيب سائلاً ولا يتحرك، ومن افترسته السباع ونهشته الطيور وتفرقت أجزاؤه في أجواف الطير وبطون الحيتان وحواصل الطير وأقاصي التخوم ومدارج الرياح فكيف تجتمع أجزاؤه؟ أم كيف تتألف أعضاؤه؟ وكيف تتصور مساءلة الملكين لمن هذا وصفه؟ أم كيف يصير القبر على من هذا حاله روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار؟

الرد: أولاً: لا يبعد أن تعاد الحياة إلى المصلوب، ونحن لا نشعر به، كما أنا نحسب المغمى عليه ميتاً، وكذلك صاحب السكتة وندفنه على حسبان الموت ومن تفرقت أجزاؤه، فلا يبعد أن يخلق الله الحياة في أجزائه ويعيده كما كان كما فعل سبحانه وتعالى بالرجل الذي أمر إذا مات أن يحرق ثم يسحق ثم يذرى حتى تنسف الرياح، وفيه: "فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبُخْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، أَوْ

قال: مخافتك "

ثانياً: يقال: ليس من شرط الحياة بنية مجتمعة، ولا جثة كبيرة، فإذا لم يكن كثر الجثة شرطاً، فالله تعالى يجمع منها جزءاً يعلمه، ويرد إلى الروح، ويتوجه إليه سؤال والعقاب، وليس ذلك بمستحيل.

فالبنية ليس بشرط عند أهل السنة، حتى لو كان متفرق الأجزاء، بحيث لا تتميز الأجزاء، بل هي مختلطة بالتراب، فإن عذب، جعلت الحياة في تلك الأجزاء، وإن الله على كل شيء قدير

وفي ختام هذا المطلب، نؤكد إلى التفريق بين فتنة القبر وعذابه، كما فرق بينهما شيخ الإسلام في عقيدته إلى أهل واسط، وهذا الذي تدل عليه النصوص، وعليه نصوص أهل العلم.

يقول الإمام ابن عبد البر: "وجائز أن يكون عذاب القبر غير فتنة القبر وقد ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يستعيد من فتنة القبر وعذاب القبر وعذاب النار في حديث واحد، وذلك دليل على أن عذاب القبر غير فتنة القبر"

والفتنة ترد على أوجه منها:

الامتحان والاختبار والعذاب كقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [البروج: ١٠] فإن حملت الفتنة على العذاب اتحد المعنى، والأولى حمل الفتنة على الامتحان والاختبار ليحصل التغاير، لاسيما وقد ذكروا أن هذا هو أصل مدلول الفتنة، ذكره الإمام العراقي .

وقال بعضهم: الفرق بين عذاب القبر وفتنته، أن الفتنة تكون بامتحان الميت بالسؤال، وأما العذاب فعام يكون ناشئاً عن عدم جواب السؤال ويكون عن غير ذلك

وفسر العلماء قول النبي - صلى الله عليه وسلم : ((ومن فتنة الممات))، في الدعاء الذي كان يدعو به في الصلاة: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا، وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ))، بفتنة القبر، وعلى هذا الوجه لا يكون هناك تكرار مع قوله: ((عذاب القبر))؛ لأن العذاب مرتب على الفتنة، والسبب غير المسبب (الايمان باليوم الآخر /مازن بن محمد بن عيسى).

^١ - المرء في الدين هو الجدال والمخاصمة بقصد إثبات خطأ الآخر، أو إظهار التفوق والانتصار للنفس، لا لبيان الحقيقة. وهو خلق مذموم يورث الأحقاد ويُقسي القلب. لذا حث الإسلام على تركه، وجعل تركه دليلاً على كمال الإيمان .

فالجِدال منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، فالجدال الم محمود: ما كان لبيان الحق، وهداية الخلق بحسن خلق، قال الله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال جل وعلا: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

والمراء: الجدل المذموم؛ وهو ما كان لمجرد المغالبة والمجادلة، وحب العلو والظهور، وهو من أسباب ضلال الناس، فعن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما ضلَّ قوم بعد هُدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل))، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]؛ [أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح]، قال الإمام ابن الأثير الجزري رحمه الله: الجدل المراد به في الحديث: الجدل على الباطل، وطلب المغالبة.

والمراء وإن كان قائله محققاً فتركه أفضل، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً...)) [أخرجه أبو داود رحمه الله، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله]، قال فضيلة الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ: النبي صلى الله عليه وسلم تكفل لمن ترك المراء وإن كان محققاً ببيت في الجنة؛ لأن المراء أحياناً، وأنت تُماري يأتيك الحق؛ لكن تغلبك نفسك للانتصار لنفسك لا للحق، والإنسان بين هذه وهذه يكون بين الانتصار للحق وبين الانتصار لنفسه، وكثيراً ما تشبه على أكثر الناس؛ يعني: تنتصر لنفسك أو تنتصر للحق.

وللسلف رحمهم الله أقوال في ذم الجدل والمراء:

- قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله: ليس هذا الجدل من الدين في شيء.
- قال مسلم بن يسار رحمه الله: إياكم والمراء، فإنها ساعة جهل العالم، وفيها يلتمس الشيطان زلته.
- قال إسحاق بن عيسى: سمعت مالك بن أنس يعيب الجدل في الدين، ويقول: كلما جاءنا رجل هو أجدل من رجل، أردنا أن نترك ما جاء به جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
- قال الحسن البصري رحمه الله: إنما يخاصم الشاك في دينه.
- قال معروف الكرخي رحمه الله: إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً فتح له باب عمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد بعبد شراً فتح عليه باب الجدل، وأغلق عنه باب العمل.
- قال الإمام البرهاري رحمه الله: العجب كيف يجترئ الرجل على المراء والخصومة والجدال، والله تعالى يقول: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]، فعليكم بالتسليم والرضا بالآثار، وأهل الآثار، والكف والسكوت.

• قال الإمام ابن مفلح المقدسي رحمه الله: سأل الإمام أحمد رجلاً، فقال: أكون في المجلس، فتذكر فيه السنة لا يعرفها غيري أفأتكلم بها؟ فقال: أخبر بالسنة، ولا تخاصم عليها، فأعاد عليه القول، فقال: ما أراك إلا رجلاً مخاصماً.

وهذا المعنى قاله مالك، فإنه أمر بالإخبار بالسنة، وقال: فإن لم يقبل منك فاسكت.

• قال الإمام العكبري رحمه الله: إياك والمراء والجدال في الدين.

• قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: ومما أنكره أئمة السلف: الجدل والخصام والمراء في مسائل الحلال والحرام أيضاً، ولم يكن ذلك طريقة أئمة الإسلام، وإنما أحدث ذلك بعدهم. وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا، فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين، فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض.

وقال رحمه الله: السؤال عن العلم إنما يحمد إذا كان للعمل، لا للمراء والجدال.

• قال العلامة السعدي رحمه الله: المتعلم... ليحذر من طلب العلم للأغراض الفاسدة والمقاصد السيئة؛ من المباحة والمماراة.

• قال العلامة بكر بن عبدالله أبو زيد رحمه الله: كُن سلفياً على الجادة، طريق السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم، فمن بعدهم ممن قفا أثرهم في جميع أبواب الدين؛ من التوحيد، والعبادات، ونحوها، بالتزام آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوظيف السنن على نفسك، وترك الجدل والمراء، والخوض في علم الكلام، وما يجلبُ الآثام، ويصُدُّ عن الشرع.

وقال رحمه الله: إياك والمماراة فإنها نقمة، أما المناظرات في الحق فإنها نعمة؛ إذ المناظرة الحق فيها إظهار الحق على الباطل، والراجع على المرجوح، فهي مبنية على المناصحة، والحلم، ونشر العلم، أما المماراة في المحاورات والمناظرات فإنها تحجج ورياء، ولغط وكبرياء، ومغالبة ومراء، واختيال وشحناء، ومجاراة للسفهاء، فاحذرهما واحذر فاعلها تسلم من المآثم، وهتك المحارم.

عدم الدخول في الجدل والمراء:

• قال ابن أبي ليلى: ما ماريثُ أخي، لأني إن ماريته إما أن أكذبه، وإما أن أغضبه.

• عن معن بن عيسى، قال: انصرف مالك بن أنس رحمهما الله يوماً من المسجد، وهو متكئ على يدي، قال:

فلحقه رجل... كان يتهم بالإرجاء، فقال: يا أبا عبدالله، اسمع مني شيئاً أكلمك به، وأحاجك، وأخبرك برأيي، قال: فإن غلبتني؟ قال: فإن غلبتك اتبعني، قال: فإن رجل جاء آخر فكلما فغلبنا؟ قال: نتبعه، فقال مالك: يا عبدالله، بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بدين واحد، وأراك تنتقل من دين إلى دين.

• جاء رجل إلى الحسن، رحمه الله فقال: يا أبا سعيد، تعال حتى أخاصمك في الدين، فقال الحسن: أما أنا فقد أبصرت ديني، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه.

• الحسن البصري رحمه الله كان ينهى عن الخصومات في الدين.

الباعث على المراء والجدال:

• قال الإمام الغزالي رحمه الله: أما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها.

• قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: ما سكت من سكت - عن كثرة الخصام والجدال من سلف الأمة - جهلاً ولا عجزاً؛ ولكن سكتوا عن علم وخشية لله، وما تكلم من تكلم، وتوسع من توسع بعدهم لاختصاصه بعلم دونهم؛ ولكن حباً للكلام، وقلة ورع.

الجدال والمراء المذموم:

• قال الإمام ابن الأثير الجزري رحمه الله: المراء: الجدال، والتماري والمماراة: المُجادلة على مذهب الشك والريبة.

• قال الإمام ابن بطة العكبري رحمه الله: المراء الذي يحذرهُ المؤمنون، ويتوقاه العاقلون، المراء الذي بين أصحاب الأهواء وأهل المذاهب والبدع، وهم الذين يخوضون في آيات الله، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، الذي لا يعلمه إلا الله، والراسخون في العلم، يتأولونه بأهوائهم، ويفسرونه بأهوائهم، ويحملونه على ما تحمله عقولهم، فيضلون بذلك، ويضلُّون من اتبعهم عليهم.

• قال الإمام الغزالي رحمه الله: وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه؛ إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم.

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: ولا تُماري في دين الله؛ معناه: لا نخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم؛ التماساً لامترانهم وميلهم؛ لأنه في معنى الدعاء إلى الباطل، وتلبيس الحق، وإفساد دين الإسلام.

• قال العلامة السعدي رحمه الله: المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها؛ إما أن يكون الخصم معانداً، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها.

• قال فضيلة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر البراك: المراء: الجدال، وأكثر ما يطلق المراء على الجدال بالباطل؛ إما من جهة القصد، أو من جهة ما يجادل به، ويحتج به من الحجج الباطلة الداحضة، فالاحتجاج بالحجج الباطلة؛ كالاحتجاج والاستدلال بالشبه العقلية والروايات المكذوبة، أو الجدال على وجه التعصب، لا لقصد إظهار وبيان الحق والوصول إليه، كل هذا من الجدال بالباطل، ومن المراء في الدين، ومن ذلك الجدال أو المراء على وجه المعارضة لما جاءت به النصوص، فكل هذا من المراء في الدين.

• قال العلامة صالح الفوزان: في دين الله لا نماري؛ أي: نجادل، ونقول: هذا نؤمن به، وهذا نتوقف في الإيمان به، فما دام ثبت في الكتاب والسنة فليس فيه مجال للخوض؛ بل نؤمن به ونسلم، وإن كانت عقولنا ما لا يدرك هذا الشيء فعقولنا قاصرة.

• قال فضيلة الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ: المراء ضابطه هو: أن يورد الشيء لقصد الانتصار للنفس، أو إضعاف من أمامه؛ يعني: المغالبة، والتشكيك، وإيراد الشبه.

• قال فضيلة الشيخ سعد بن ناصر الشثري: المراد بالمراء المجادلة فيما لا فائدة فيه، ولا يوصل إلى تحقيق حكم شرعي، سواء كان في المعتقد أو في غيره، ومنه المناقشات التي تكون لإظهار صفات النفس، ولإعلان

الإنسان لنفسه على غيره، وقد ورد في النصوص النهي عن المراء... والمؤمن مطالب بإبراز الحق وإظهاره، وأما المناقشة العقيمة فيه فليست من شأن المؤمن.

وقال: قد يغلب لفظ المراء على المجادلة بالباطل، أو على جهة التعصب.

من الآثار الخطيرة للمراء والجدال:

- قال جعفر بن محمد رحمه الله: إياكم والخصومة في الدين؛ فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق.
- قال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجًا مماريًا يعجب برأيه فقد تمت خسارته.
- قال مالك بن أنس رحمه الله: المراء يُذهب بنور العلم، ويقسي القلوب، يورث الضغائن.
- قال لقمان رحمه الله: يا بني، لا تجادل العلماء فيمقتوك.
- قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: من كثرت خصوماته لم يزل ينتقل من دين إلى دين.
- قال الإمام الأوزاعي رحمه الله: إذا أراد الله عز وجل بقوم شرًّا فتح عليهم الجدل، ومنعهم العمل.
- قال الإمام الشافعي رحمه الله: المراء في العلم يقسي القلوب، ويورث الضغائن.
- قال محمد بن علي بن الحسين رحمه الله: الخصومة تمحق الدين، وتثبت الشحناء في صدور الرجال.
- قال الإمام البرهاري رحمه الله: اعلم - رحمك الله - أنه ما كانت زندقة قط، ولا كفر، ولا شك، ولا بدعة، ولا ضلالة، ولا حيرة في الدين إلا من الكلام، وأصحاب الكلام، والجدال والمراء والخصومة. وقال رحمه الله: الكلام والخصومة والجدال والمراء يحدث يقدح الشك في القلب، وإن أصاب صاحبه الحق والسنة.
- قال الإمام العكبري رحمه الله: المراء والجدال في الدين..... يخرج صاحبه وإن كان سنيًّا إلى البدعة؛ لأن أول ما يدخل على السني من النقص في دينه إذا خاصم المبتدع مجالسته للمبتدع ومناظرته إياه، ثم لا يأمن أن يدخل عليه من دقيق الكلام، وخبيث القول ما يفتنه أو لا يفتنه، فيحتاج أن يتكلف له من رأيه مما يرد عليه قوله مما ليس له أصل في التأويل، ولا بيان في التنزيل، ولا أثر من أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم.
- قال الإمام الغزالي رحمه الله: الخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال.
- وقال: معاصي اللسان... الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضًا وتصريحًا.
- وقال: الأسباب المهيجة للغضب: الزهو، والعجب، والمزاح، والمماراة، والغدر.
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: المتكلمين... تجدهم أعظم الناس شكًا واضطرابًا، وأضعف الناس علمًا و يقينًا... وإنما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل، ومن المعلوم أن الاعتراض والقدح ليس بعلم ولا فيه منفعة.
- قال العلامة ابن القيم رحمه الله: معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة والمراء.
- قال الإمام الشوكاني رحمه الله: أسباب الخروج عن الإنصاف، والوقوع في موبقات التعصب:.... السبب الثالث: الجدل والمراء.

• قال العلامة السعدي رحمه الله: الممارسة... فإن في كثرة المناقشات تضييعًا للزمان، وتأثيرًا في مودة القلب بغير فائدة.

• قال فضيلة الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ: من صفة أهل السنة والجماعة ومن سماتهم أنهم لا يمارون في دين الله.... لأن المراء يورث العداوة.
ترك المراء سبب لوجود حلاوة الإيمان:

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ثلاث من كن فيه يجدن بهن حلاوة الإيمان: ترك المراء في الحق، والكذب في المزاح، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

من أسباب الفلاح ترك المراء:

• قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: قد أفلح من عصم من المراء، والغضب، والطمع.
من أسباب علاج المراء:

• قال الإمام الغزالي رحمه الله: أما علاجه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار نفسه. وكل من اعتاد المجادلة مدة، وأثنى الناس عليه، ووجد لنفسه بسببه عزًا وقبولًا، قويت فيه هذه المهلكات، ولا يستطيع عنها نزوحًا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء، وحب الجاه، والتعزز بالفضل، وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها، فكيف بمجموعها؟

فإن كان المراء بمعنى الجدال، فالمراد بالحديث أن الاستمرار فيه بعد بيان الحق وعناد المجادل ليس فيه نفع، مع ضياع الوقت والجهد، قال ابن علان في دليل الفالحين: أي وإن كان ذا الحق في نفس الأمر، وذلك لأنه بعد أن يرشد خصمه إليه ويأبى عن قبوله، وليس من طالبي الاستبصار، فلا ثمرة للمراء إلا تضييع الوقت فيما هو كالعبت. اهـ.

وقال السندي في حاشيته على ابن ماجه: خوفا من أن يقع صاحبه في اللجاج الموقع في الباطل. اهـ.
وقال المناوي في فيض القدير: كثرة المخاصمة تفضي غالبا في ما يذم صاحبه. اهـ.

وإن كان المراد بالمراء: الطعن في كلام غيرك، تحقيرا له، وإظهارا لفضلك، فالمعنى أشد وضوحا، قال الصنعاني في سبل السلام: حقيقة المراء طعنك في كلام غيرك لإظهار خلل فيه لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيتك عليه... ولا يكون إلا اعتراضا، وهو قبيح إذا لم يكن لإظهار الحق وبيانه وإدحاض الباطل وهدم أركانه، وأما مناظرة أهل العلم للفائدة، وإن لم تخل عن الجدال فليست داخلة في النهي، وقد قال تعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} [العنكبوت: ٤٦] وقد أجمع عليه المسلمون سلفا وخلفا. اهـ بتصريف يسير.

اختيار الصاحب فالخلافة	ثابتة لابن ابي قحافة
وبعدها الفاروق باستخلافه	فسار عزما في اقتفى اسلافه
من ثم عثمان بحكم الشورى	فسار سيرا لم يزل مشكورا
ثم علي بعده قد بايعه	من اهل بدر جملة وشايعة ^(١)

ويحتمل أن يكون المرء هنا هو ما يفسد ذات البين من غير مصلحة راجحة، قال الشيخ العباد في شرح سنن أبي داود: يعني المجادلة التي تؤدي إلى الخصومة والشقاق والوحشة، فالإنسان يبتعد عنها حتى تسلم القلوب، وحتى تصفى النفوس. اهـ.

١ - اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ فِي الْفَضْلِ، وَاخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ؛ فَجُمُهورُ السَّلَفِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا.

وَقَدْ حَكَى مَالِكُ إِجماعَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: (مَا أَدْرَكْتُ أَحَدًا مِمَّنْ أَقْتَدِي بِهِ يَشْكُ فِي تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ). (يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/٤٢١))

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: " مَا اخْتَلَفَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي تَفْضِيلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَتَقْدِيمِهِمَا عَلَى جَمِيعِ الصَّحَابَةِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ مَنْ اخْتَلَفَ مِنْهُمْ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ، وَنَحْنُ لَا نُحْطِئُ وَاحِدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا فَعَلُوا ". (يُنظر: ((الاعتقاد)) للبيهقي (ص ٤٣٦)).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: " خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، نُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ كَمَا قَدَّمَهمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي ذَلِكَ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ الثَّلَاثَةِ أَصْحَابُ الشُّورَى الْخَمْسَةُ: عَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ، كُلُّهُمْ يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ وَكُلُّهمْ إِمَامٌ، كَمَا فَعَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ". (يُنظر: ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) للالكائي (١/١٨٧)).

وَقَالَ النَّوَوِيُّ: " اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، وَقَالَ جُمُهورُهُمْ: ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ " (يُنظر: ((شرح مسلم)) (١٥/١٤٨)).

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: " أَمَّا تَفْضِيلُ أَبِي بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرَ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ فَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْهُورِينَ بِالْإِمَامَةِ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَأَهْلِ مِصْرَ، وَالْأَوْزَاعِيِّ وَأَهْلِ الشَّامِ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَأَبِي حَنِيفَةَ، وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، وَحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ، وَإِسْحَاقَ، وَأَبِي عُبَيْدٍ، وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَيْمَةِ ". (يُنظر: ((مجموع

الفتاوى)) (٤/٤٢١).

ومن أقوال العلماء في تفضيل الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم:

- قال أبو حنيفة: "نُقِرُّ بأنَّ أفضلَ هذه الأُمّةِ بعدَ نبيِّنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أبو بكرٍ الصّدِّيقُ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، رضوانُ اللهِ عليهم أجمعين؛ لقوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} * أولئك الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنّاتِ النَّعِيمِ { [الواقعة: ١٠-١٢] ، وكُلُّ مَنْ كَانَ أَسْبَقَ فَهُوَ أَفْضَلُ، وَيُحِبُّهُمْ كُلُّ مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ، وَيُبْغِضُهُمْ كُلُّ مُنَافِقٍ شَقِيٍّ" (يُنظر: ((شرح وصية الإمام أبي حنيفة)) للبابرتي (ص ١٤٣).

- قال الشافعي: "أفضلُ النَّاسِ بعدَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ،

رضوانُ اللهِ عليهم" (يُنظر: ((مناقب الشافعي)) للبيهقي (١/٤٣٣).

- قال عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ حنبلٍ: "سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: أَمَّا التَّفْضِيلُ فَأَقُولُ: أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ" (يُنظر: ((السنة)) (٢/٥٧٣).

وقال أحمدُ في روايةٍ مُحَمَّدُ بنِ عوفٍ الحِمَصيِّ: (خَيْرُ النَّاسِ بعدَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أبا عَبْدِ اللهِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّكَ وَقَفْتَ عَلَى عُثْمَانَ؟ فَقَالَ: كَذَبُوا وَاللهِ عَلَيَّ، إِنَّمَا حَدَّثْتُهُمْ بِحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ: "كُنَّا نُفَاضِلُ بَيْنَ أَصْحَابِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَقُولُ: أبو بكرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ، فَيُلْغُ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فلا يُنْكِرُهُ". ولم يَقُلِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لا تُخَايِرُوا بعدَ هؤَلاءِ بَيْنَ أَحَدٍ، لَيْسَ لِأَحَدٍ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ، فَمَنْ وَقَفَ عَلَى عُثْمَانَ وَلَمْ يُرَبِّعْ بَعَلِيَّ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السُّنَّةِ يا أبا جَعْفَرٍ". (يُنظر: ((طبقات الحنابلة)) لابن أبي يعلى (١/٣١٣).

- قال المُرَنيُّ: "يُقَالُ بِفَضْلِ خَلِيفَةِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَبِي بَكْرٍ الصّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَخْيَرُهُمْ بعدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وَنُشِنِي بَعْدَهُ بِالْفَاروقِ، وَهُوَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَهُمَا وَزِيرَا رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وَضَجِيعَا فِي قَبْرِهِ، وَجَلِيسَا فِي الْجَنَّةِ، وَنُثِلْتُ بِذِي الثَّوَرَيْنِ عُثْمَانُ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ بِذِي الْفَضْلِ وَالثُّقَيَّ عَلِيٌّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أجمعين، ثُمَّ الْبَاقِينَ مِنَ الْعَشْرَةِ الَّذِينَ أَوْجَبَ لَهُمُ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الْجَنَّةَ، وَنُخْلِصُ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مِنَ الْمَحَبَّةِ بِقَدْرِ الَّذِي أَوْجَبَ لَهُمُ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ التَّفْضِيلِ، ثُمَّ لِسَائِرِ أَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين" (يُنظر: ((شرح السنة)) (ص ٨٥).

- قال حربُ الكَرَمانيُّ: "خَيْرُ هَذِهِ الْأُمّةِ بعدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أبو بكرٍ، وَخَيْرُهُمْ بعدَ أَبِي بَكْرٍ عُمَرُ، وَخَيْرُهُمْ بعدَ عُمَرَ عُثْمَانُ. وَقَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ: وَخَيْرُهُمْ بعدَ عُثْمَانَ عَلِيٌّ. وَوَقَفَ قَوْمٌ عَلَى عُثْمَانَ، وَهُمْ خُلَفَاءُ رَاشِدُونَ مَهْدِيُونَ". (يُنظر: ((إجماع السلف في الاعتقاد)) (ص ٧٠).

- قال أبو الحسن الأشعري في بيان عقيدة السلف: "ويقدمون أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علياً، رضوان الله عليهم، ويُقرُّون أنَّهم الخلفاء الراشدون المَهْدِيُّونَ، أَفْضَلُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". (يُنظر: ((مقالات الإسلاميين)) (١/٢٢٨)).
- قال ابن أبي زيد القيرواني: (أَفْضَلُ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ). (يُنظر: ((الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ)) (ص ١١٥)).
- قال أبو عمرو الدَّانِي: "أَفْضَلُ الْأَرْبَعَةِ: أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ". (يُنظر: ((الرسالة الوافية)) (ص ٢٣٩)).
- قال عياض: "المَشْهُورُ عَنْ مَالِكٍ وَسُفْيَانَ، وَكَافَّةِ أئِمَّةِ الْحَدِيثِ وَالْفُقَهَاءِ، وَكَثِيرٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ: تَرْتِيبُ الْأَرْبَعَةِ فِي الْفَضْلِ حَسَبَ تَرْتِيبِهِمْ فِي الْخِلَافَةِ" (يُنظر: ((إكمال المعلم)) (٧/٣٨٢)).
- قال يحيى العمراني: "مَرَاتِبُ الْخِلَافَةِ فِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَمَا وَقَعَتْ: أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ... وَأَنَّ مَرَاتِبَهُمْ فِي الْفَضْلِ كَمَرَاتِبِهِمْ فِي الْخِلَافَةِ". (يُنظر: ((الانتصار في الرد على المعتزلة القدريَّة الأشرار)) (١/١٠١)).
- قال عَبْدُ الْغَنِيِّ الْمَقْدِسِيُّ: "نَعْتَقِدُ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَفْضَلَهَا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبُهُ الْأَخْصُ، وَأَخُوهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَرَفِيقُهُ فِي الْهَجْرَةِ وَالْعَارِ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَزَيْرُهُ فِي حَيَاتِهِ، وَخَلِيفَتُهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْمَانَ عَتِيقُ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، ثُمَّ بَعْدَهُ الْفَارُوقُ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، الَّذِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهِ، وَأَظْهَرَ الدِّينَ. ثُمَّ بَعْدَهُ ذُو التَّوَرَيْنِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، الَّذِي جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَأَظْهَرَ الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ، ثُمَّ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَتَنُهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَهَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَالْأَئِمَّةُ الْمَهْدِيُّونَ". (يُنظر: ((الاقتصاد في الاعتقاد)) (ص ١٩٨)).
- قال ابن الصَّلاح: "أَفْضَلُهُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ: أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ إِنَّ جُمْهُورَ السَّلَفِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ". (يُنظر: ((مقدمة ابن الصلاح)) (ص: ٤٠١)).
- قال ابن تيمية: "أَمَّا جُمْهُورُ النَّاسِ فَفَضَّلُوا عُثْمَانَ، وَعَلَيْهِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَمَشَايِخِ الزُّهْدِ وَالتَّصَوُّفِ وَأَئِمَّةِ الْفُقَهَاءِ؛ كَالشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ، وَأَحْمَدَ وَأَصْحَابِهِ، وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ، وَإِحْدَى الرَّوَائِثِ عَنْ مَالِكٍ وَعَلَيْهَا أَصْحَابُهُ... وَهُوَ أَيْضًا مَذْهَبُ جَمَاهِيرِ أَهْلِ الْكَلَامِ: الْكِرَامِيَّةِ وَالْكَلَابِيَّةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ. وَقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتْيَانِيُّ: مَنْ لَمْ يُقَدِّمِ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ فَقَدْ أَرَى بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. وَهَكَذَا قَالَ أَحْمَدُ وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُمَا: أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ". (يُنظر: ((منهاج السنة)) (٨/٢٢٥)).
- وقال أيضاً: "سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ رَجَّحُوا عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ سُفْيَانُ وَغَيْرُهُ، وَبَعْضُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ تَوَقَّفَ فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَهِيَ إِحْدَى الرَّوَائِثِ عَنْ مَالِكٍ، لَكِنَّ

وعن رفاق المصطفى الإله		أخبرنا بوحيه رضاه
فضّلهم على الانام الباري		واختارهم لصحة المختار
فارخصوا لاجله الارواحا		وكافحوا عن دينه كفاحا
قد بايعوه بيعة الرضوان		على قتال الكفر بالسنان

الرّواية الأخرى عنه تقدّم عُثْمَانُ عَلَى عَلِيٍّ كما هو مذهبُ سائرِ الأئمّة؛ كالشّافعيّ وأبي حنيفةٍ وأصحابه، وأحمدَ وأصحابه، وغيرِ هؤلاءِ من أئمّة الإسلام". (يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٤٢٦)).

وقال أيضاً: "فليسَ في أهلِ السُّنّةِ مَنْ يُقدّمُ عليه أي على عليّ رضي الله عنه أحدًا غيرَ الثّلاثة، بل يُفضّلونه على جُمهورِ أهلِ بدرٍ، وأهلِ بيعة الرّضوانِ، وعلى السّابقينِ الأوّلينَ مِنَ المُهاجرينِ والأنصارِ، وما في أهلِ السُّنّةِ مَنْ يقولُ: إنّ طلحةَ والزّبيرَ وسعدًا وعبدَ الرّحمنِ بنَ عوفٍ أفضلُ منه، بل غايةُ ما قد يقولون السُّكوتُ عن التّفصيلِ بينَ أهلِ الشّورى". (يُنظر: ((منهاج السنة)) (٤/ ٣٩٦)).

- قال ابنُ كثيرٍ في أنّ التّرتيبَ بينَ الأربعةِ في الفضلِ كالترتيبِ بينهم في الخلافِ: " هذا رأيُ المُهاجرينِ والأنصارِ. حينَ جعلَ عمرُ الأمرَ من بعده شوريَ بينَ ستّةٍ، فانحصَرَ في عُثمانَ وعليّ، واجتهدَ فيهما عبدُ الرّحمنِ بنُ عوفٍ ثلاثةَ أيّامٍ بلياليها، حتّى سألَ النّساءَ في خُدورهنّ، والصّبيانَ في المكاتِبِ، فلم يَرَهُم يَعدِلونَ بعُثمانَ أحدًا، فقدمَهُ على عليّ، وولّاهُ الأمرَ قبلَهُ؛ ولهذا قال الدّارقطنيّ: من قدّمَ عليًّا على عُثمانَ فقد أزرى بالمُهاجرينِ والأنصارِ. وصدّقَ رضي الله عنه". (يُنظر: ((اختصار علوم الحديث)) (ص: ١٨٣)).

وقال أيضاً: "أفضلُ الصّحابةِ، بل أفضلُ الخلقِ بعدَ الأنبياءِ عليهم السّلامُ: أبو بكرٍ... ثُمَّ من بعده عمرُ بنُ الخطّابِ ثُمَّ عُثمانُ بنُ عفّانَ ثُمَّ عليّ بنُ أبي طالبٍ" (يُنظر: ((اختصار علوم الحديث)) (ص: ١٨٣)).

- قال ابنُ أبي العزّ: "تَرتيبُ الخُلفاءِ الرّاشدينَ رضي الله عنهم أجمعينَ في الفضلِ كترتيبهم في الخلافِ" (يُنظر: ((شرح الطحاوية)) (٢/ ٧٢٧)).
- قال ابنُ حجرٍ: "قد سبقَ بيانُ الاختلافِ في أيِّ الرّجلينِ أفضلُ بعدَ أبي بكرٍ وعمرَ: عُثمانُ أو عليّ؟ وأنّ الإجماعَ انعقدَ بأخوةِ بينَ أهلِ السُّنّةِ أنّ ترتيبهم في الفضلِ كترتيبهم في الخلافِ، رضي الله عنهم أجمعينَ". (يُنظر: ((فتح الباري)) (٧/ ٣٤)).

فنالهم من ربهم جميعا		مغفرةً اذ احسنوا صنيعا
فحبهم من جملة الشريعة		وبغضهم مذمة شنيعة
بذكرهم بالخير ربي امرا		وكف عما بينهم قد شجرا(١)

١ - أجمع أهل السنة والجماعة على وجوب الشكوت والإعراض عن الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم بعد قتل عثمان رضي الله عنه، والاسترجاع على تلك المصائب التي أصيبت بها هذه الأمة، والاستغفار للقتلى من الطرفين، والترحم عليهم أجمعين، وحفظ فضائل الصحابة والاعتراف لهم بسوابقهم، ونشر مناقبهم؛ عملاً بقول الله عز وجل: { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ } [الحشر: ١٠] الآية .

• قال القرطبي: " هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظاً في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم " .

ويجب اعتقاد أن الكل منهم مجتهد، إن أصاب فله أجران؛ أجر على اجتهد، وأجر على إصابته، وإن أخطأ فله أجر الاجتهاد، والخطأ مغفور، ولا نقول: إنهم معصومون، بل مجتهدون؛ إمّا مصيبون، وإمّا مخطئون لم يتعمدوا الخطأ في ذلك، وما روي من الأخبار في مساوئهم فالكثير منها مكذوب، ومنها ما قد زيد فيه أو نقص منه وغير عن وجهه، والصحيح منها هم فيه معذورون .

• قال ابن حزم: " وأما أهل الجمل فما قصدوا قتل قتال علي رضي الله عنه، ولا قصد علي رضي الله عنه قتالهم، وإنما اجتمعوا بالبصرة للنظر في قتل عثمان رضي الله عنه، وإقامة حق الله تعالى فيهم، فتسرع الخائفون على أنفسهم أخذ حد الله تعالى منهم، وكانوا أعداداً عظيمة يقربون من الألوف، فأثاروا القتال خفية حتى اضطر كل واحد من الفريقين إلى الدفاع عن أنفسهم إذ رأوا السيف قد خالطهم " .

وقال عند قول الله تعالى: { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحجرات: ٩] : "سمّاهم الله عز وجل مؤمنين باغين، بعضهم إخوة بعض، في حين تقاتلهم وأهل العدل المبغي عليهم والمأمورين بالإصلاح بينهم وبينهم، ولم يصفهم عز وجل بفسق من أجل ذلك التقاتل، ولا بنقص إيمان، وإنما هم مخطئون باغون، ولا يريد واحد منهم قتل آخر... وليس هذا كقتل عثمان رضي الله عنه؛ لأنه لا مجال للاجتهاد في قتله؛ لأنه لم يقتل أحداً، ولا حارب ولا قاتل ولا دافع، ولا زنى بعد إحصان ولا ارتد؛ فيسوغ

لِمُحَارِبِهِ تَأْوِيلٌ، بَلْ هُمْ فُسَّاقٌ مُّحَارِبُونَ، سَافِكُونَ دَمًا حَرَامًا عَمْدًا بِلَا تَأْوِيلٍ، عَلَى سَبِيلِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَهُمْ فُسَّاقٌ مَلْعُونُونَ .

ففي هذه الآية أَمَرَ الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا جرى بينهم قتال؛ لأنهم إخوة، وهذا الاقتتال لا يُخرجهم عن وصف الإيمان؛ حيث سَمَّاهُم الله عَزَّ وَجَلَّ مُؤْمِنِينَ، وأَمَرَ بالإصلاح بينهم، وإذا حَصَلَ اقْتِتَالٌ بَيْنَ عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يُخْرِجْهُمْ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ فَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ اقْتَتَلُوا فِي مَوْقِعَةِ الْجَمَلِ وَصَفَيْنَ أَوَّلَى بِالذُّخُولِ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الَّذِي ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَهُمْ لَا يَزَالُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ مُؤْمِنِينَ، وَلَمْ يُؤَثَّرْ مَا حَصَلَ بَيْنَهُمْ مِنْ شِجَارٍ فِي إِيْمَانِهِمْ بِحَالٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَنْ اجْتِهَادٍ .

• قال ابنُ العَرَبِيِّ: "قَدْ تَحَكَّمَ النَّاسُ فِي التَّحْكِيمِ، فَقَالُوا فِيهِ مَا لَا يُرْضِي اللَّهَ، وَإِذَا لَاحَظْتُمُوهُ بَعَيْنِ الْمُرُوءَةِ -دُونَ الدِّيَانَةِ- رَأَيْتُمْ أَنَّهَا سَخَافَةٌ حَمَلَ عَلَى سَطَرِهَا فِي الْكُتُبِ فِي الْأَكْثَرِ عَدَمُ الدِّينِ، وَفِي الْأَقَلِّ جَهْلُ بَيِّنٍ .

• وقال ابنُ تَيْمِيَّةَ: " لَمْ يَكُنْ يَوْمَ الْجَمَلِ لِهَؤُلَاءِ قَصْدٌ فِي الْقِتَالِ، وَلَكِنْ وَقَعَ الْإِقْتِتَالُ بَغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا تَرَأَسَلَ عَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَقَصَدُوا الْإِتِّفَاقَ عَلَى الْمُصَالَحَةِ، وَأَنَّهُمْ إِذَا تَمَكَّنُوا طَلَبُوا قَتْلَ عُثْمَانَ أَهْلَ الْفِتْنَةِ، وَكَانَ عَلِيٌّ غَيْرَ رَاضٍ بِقَتْلِ عُثْمَانَ، وَلَا مُعِينًا عَلَيْهِ كَمَا كَانَ يَخْلِفُ فَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا قَتَلْتُ عُثْمَانَ، وَلَا مَالَأْتُ عَلَى قَتْلِهِ ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْبَارُّ فِي يَمِينِهِ، فَخَشِيَ الْقَتْلُ أَنْ يَتَّفَقَ عَلَيٌّ مَعَهُمْ عَلَى إِمْسَاكِ الْقَتْلَةِ، فَحَمَلُوا عَلَى عَسْكَرِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَظَنُّ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَنَّ عَلِيًّا حَمَلَ عَلَيْهِمْ، فَحَمَلُوا دَفْعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَظَنَّ عَلِيٌّ أَنَّهُمْ حَمَلُوا عَلَيْهِ فَحَمَلَ دَفْعًا عَنْ نَفْسِهِ؛ فَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بَغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ " .

وقال أيضاً: " أَمَّا الصَّحَابَةُ فَجُمُهُورُهُمْ وَجُمُهُورُ أَفَاضِلِهِمْ مَا دَخَلُوا فِي فِتْنَةٍ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، يَعْنِي ابْنَ عُثَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ يَعْنِي السَّخْتِيَانِيَّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: هَاجَتِ الْفِتْنَةُ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَةُ آلَافٍ، فَمَا حَضَرَهَا مِنْهُمْ مِائَةٌ، بَلْ لَمْ يَبْلُغُوا ثَلَاثِينَ! . وَهَذَا الْإِسْنَادُ مِنْ أَصَحِّ إِسْنَادٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ فِي مَنْطِقِهِ، وَمَرَّاسِيلُهُ مِنْ أَصَحِّ الْمَرَّاسِيلِ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: قَالَ الشَّعْبِيُّ: لَمْ يَشْهَدْ الْجَمَلَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرُ عَلِيٍّ وَعَمَّارٍ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَإِنْ جَاؤُوا بِخَامِسٍ فَأَنَا كَذَّابٌ! وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أُمَيَّةُ بْنُ خَالِدٍ قَالَ: قِيلَ لِشُعْبَةَ: إِنَّ أَبَا شَيْبَةَ رَوَى عَنِ الْحَكَمِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: شَهِدَ صَفِيْنٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ سَبْعُونَ رَجُلًا! فَقَالَ: كَذَبَ وَاللَّهِ، لَقَدْ ذَاكَرْتُ الْحَكَمَ بِذَلِكَ، وَذَاكَرْنَاهُ فِي بَيْتِهِ، فَمَا وَجَدْنَاهُ شَهِدَ صَفِيْنٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ غَيْرَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ. قُلْتُ: هَذَا النَّفْيُ يَدُلُّ عَلَى قِلَّةٍ مَنْ حَضَرَهَا، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ حَضَرَهَا سَهْلُ بْنُ خُنَيْفٍ وَأَبُو أَيُّوبَ. وَكَلَامُ ابْنِ سِيرِينَ مُقَارِبٌ، فَمَا يَكَادُ يُذَكِّرُ مِائَةً وَاحِدٍ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ بَطَّةَ عَنْ بَكْرِ بْنِ الْأَشَجِّ قَالَ: أَمَا إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ لَزِمُوا يُبَوِّتُهُمْ بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ، فَلَمْ يَخْرُجُوا إِلَّا إِلَى قُبُورِهِمْ! " .

• وقال العراقي في شرح حديث: ((لا تقوم الساعة حتى تقتل فتان عظيمتان، وتكون بينهما مقتلة عظيمة، ودعواهما واحدة)) : " فيه علم من أعلام النبوة لوقوع ذلك كما أخبر به، والمراد بالفئتين العظيمتين فئة علي ومعاوية رضي الله عنهما، وقوله: ((دعواهما واحدة)) أي: دينهما واحد؛ إذ الكل مسلمون يدعون بدعوى الإسلام عند الحرب، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويحتمل أن يكون المراد بكون دعواهما واحدة أن كلا منهما يقول: إنه ناصر للحق، طالب له، ذاب عن الدين، فالقائمون مع علي رضي الله عنه هم المصليون القائمون بنصرة من تحب نصرتة؛ لكونه أفضل الخلق ذلك الوقت، وأحقهم بالإمامة، مع تقدم بيعته من أهل الحل والعقد بدار الهجرة، والقائمة مع معاوية رضي الله عنه تأولوا وجوب القيام بتغيير المنكر في طلب قتلة عثمان رضي الله عنه الذين في عسكر علي... الواجب تحسين الظن بهم، وأن يتأول لهم ما فعلوه بحسب ما يليق بفضليهم، وما عهدناه من حسن مقصدهم، ثم إن عدالتهم قطعية لا تزول بملاسة شيء من الفتن، والله أعلم".

• وقال ابن كثير عند شرح حديث: ((تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق)) : (هذا الحديث من دلائل النبوة؛ لأنه قد وقع الأمر طبق ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة أهل الجهل والجور من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب علي أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن علياً هو المصيب وإن كان معاوية مجتهداً في قتاله له، وقد أخطأ وهو مأجور إن شاء الله، ولكن علياً هو الإمام المصيب إن شاء الله تعالى، فله أجران، كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر)) .

وجاء عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب جاء الحسن فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين)) . وكان سفيان بن عيينة يقول: (قوله: فئتين من المسلمين، يعجبنا جداً) .

قال البيهقي معلقاً: (إنما أعجبهم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم سماهما جميعاً مسلمين، وهذا خبر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان من الحسن بن علي بعد وفاة علي في تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان) . ومن أقوال السلف الصالح وغيرهم من أهل العلم حول الإمساك عما وقع بين الصحابة رضي الله عنهم وحسن الظن بهم:

١ - سئل عمر بن عبد العزيز عن القتال الذي وقع بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فقال: " تلك دماء طهر الله منها أيدي فلا أحب أن أخضب لسانی بها" .

قال البيهقي معلقاً على قول عمر بن عبد العزيز: "هذا رأي حسن جميل من عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، في السكوت عما لا يعنيه إذا لم يحتج إلى القول فيه" .

٢- سُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ قِتَالِ الصَّحَابَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَقَالَ: "قِتَالُ شَهْدَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغِبْنَا، وَعَلِمُوا وَجَهَلْنَا، واجْتَمَعُوا فَاتَّبَعْنَا، واخْتَلَفُوا فَوَقَفْنَا".

قال المُحَاسِبِيُّ: "فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ، وَنَعْلَمُ أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا أَعْلَمَ بِمَا دَخَلُوا فِيهِ مِنَّا، وَنَتَّبِعُ مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَنَقِفُ عِنْدَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَلَا نَبْتَدِعُ رَأْيًا مِنَّا، وَنَعْلَمُ أَنَّهُمْ اجْتَهَدُوا وَأَرَادُوا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ إِذْ كَانُوا غَيْرَ مُتَّهِمِينَ فِي الدِّينِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ".

٣- قال العَوَّامُ بْنُ حَوْشَبٍ: "أَدْرَكْتُ مَنْ أَدْرَكْتُ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضُهُمْ يَقُولُ لِبَعْضٍ: اذْكُرُوا مَحَاسِنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَأْتَلَفَ عَلَيْهَا الْقُلُوبُ، وَلَا تَذْكُرُوا مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ فَتَحَرَّشُوا النَّاسَ عَلَيْهِمْ".

٤- قال الشَّافِعِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ: "وَأَعْرِفْ حَقَّ السَّلَفِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأُحَدِّثْ بِفَضَائِلِهِمْ، وَأُمْسِكْ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ صَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ".

٥- قال أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: "رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَجْمَعِينَ، وَمُعَاوِيَةُ وَعُمَرُو بْنُ الْعَاصِ وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَالْمُعِيزَةُ كُلُّهُمْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: {سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [الفتح: ٢٩]".

وقال فِي رِسَالَتِهِ إِلَى مُسَدَّدٍ: "... وَالْكَفُّ عَنْ مَسَاوِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَحَدَّثُوا بِفَضَائِلِهِمْ، وَأُمْسِكُوا عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ".

وقال أَبُو بَكْرٍ الْمُرُودِيُّ: قِيلَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ وَنَحْنُ بِالْعَسْكَرِ، وَقَدْ جَاءَ بَعْضُ رُسُلِ الْخَلِيفَةِ، وَهُوَ يَعْقُوبُ، فَقَالَ: "يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، مَا تَقُولُ فِيمَا كَانَ مِنْ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: مَا أَقُولُ فِيهَا إِلَّا الْحُسْنَى، رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَجْمَعِينَ".

وقال حَنْبَلُ بْنُ إِسْحَاقَ: "أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ كِتَابَ صِفِّينَ وَالْجَمَلِ عَنْ خَلْفِ بْنِ سَالِمٍ، فَأَتَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَكَلَّمُهُ فِي ذَاكَ وَأَسْأَلُهُ، فَقَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِذَاكَ، وَلَيْسَ فِيهِ حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ؟! وَقَدْ كَتَبْتُ مَعَ خَلْفٍ حَيْثُ كَتَبَهُ، فَكَتَبْتُ الْأَسَانِيدَ، وَتَرَكْتُ الْكَلَامَ، وَكَتَبْتُهَا خَلْفًا، وَحَضَرْتُ عِنْدَ غُنْدَرٍ وَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ، فَكَتَبْتُ أُسَانِيدَ حَدِيثِ شُعْبَةَ، وَكَتَبْتُهَا خَلْفًا عَلَى وَجْهِهَا، قُلْتُ لَهُ: وَلَمْ كَتَبْتَ الْأَسَانِيدَ وَتَرَكْتَ الْكَلَامَ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ مَا رَوَى شُعْبَةُ مِنْهَا. قَالَ حَنْبَلٌ: فَأَتَيْتُ خَلْفًا فَكَتَبْتُهَا، فَبَلَغَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ لِأَبِي: خُذِ الْكِتَابَ فَاحْبِسْهُ عَنْهُ، وَلَا تَدْعُهُ يَنْظُرُ فِيهِ".

وقال إِبْرَاهِيمُ بْنُ آزَرَ الْفَقِيهِي: (حَضَرْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ وَسَأَلْتُهُ رَجُلًا عَمَّا جَرَى بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: اقْرَأْ: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ١٤١]".

٦- قال الْمُزَنِّيُّ: "وَنُمِسَ الْخَوْضُ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ؛ فَهُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ، ارْتِضَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ، وَخَلَقَهُمْ أَنْصَارًا لِدِينِهِ، فَهُمْ أَيْمَةُ الدِّينِ، وَأَعْلَامُ الْمُسْلِمِينَ، فَرَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ".

٧- قال حربُ الكَرْمَانِيُّ: "مِنَ السُّنَّةِ الواضِحَةِ البَيِّنَةِ الثَّابِتَةِ المَعْرُوفَةِ ذِكْرُ مَحَاسِنِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ أَجْمَعِينَ، وَالْكَفُّ عَنِ ذِكْرِ مَسَاوِيهِمْ وَالْخِلَافِ الَّذِي شَجَرَ بَيْنَهُمْ، فَمَنْ سَبَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ أَحَدًا مِنْهُمْ، أَوْ تَنَقَّصَهُ، أَوْ طَعَنَ عَلَيْهِمْ أَوْ عَرَّضَ بَعْضَهُمْ، أَوْ عَابَ أَحَدًا مِنْهُمْ بِقَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ أَوْ دِقٍّ أَوْ جَلٍّ، مِمَّا يَتَطَرَّقُ بِهِ إِلَى الْوَقِيعَةِ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ - فَهُوَ مُبْتَدِعٌ رَافِضِيٌّ خَبِيثٌ مُخَالَفٌ".

٨- قال أبو الحَسَنِ الأَشْعَرِيُّ: "وَيَعْرِفُونَ حَقَّ السَّلَفِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَأْخُذُونَ بِفَضَائِلِهِمْ، وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ".

وقال أيضًا: "أَمَّا مَا جَرَى بَيْنَ عَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَإِنَّمَا كَانَ عَلَى تَأْوِيلٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعَلِيٌّ الْإِمَامُ، وَكُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِجْتِهَادِ، وَقَدْ شَهِدَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَنَّةِ وَالشَّهَادَةِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ فِي اجْتِهَادِهِمْ، وَكَذَلِكَ مَا جَرَى بَيْنَ سَيِّدِنَا عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ عَلَى تَأْوِيلٍ وَاجْتِهَادٍ، وَكُلُّ الصَّحَابَةِ أَيْمَةٌ مَأْمُونُونَ غَيْرُ مُتَّهَمِينَ فِي الدِّينِ، وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى جَمِيعِهِمْ، وَتَعَبَّدْنَا بِتَوْقِيرِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ وَمَوَالَاتِهِمْ، وَالتَّبَرِّيِّ مِنْ كُلِّ مَنْ يُنْقَضُ أَحَدًا مِنْهُمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ".

٩- قال البرْبَهَارِيُّ: "نَتَرَحَّمُ عَلَيْهِمْ، وَنَذْكُرُ فَضْلَهُمْ، وَنَكْفُ عَنْ زَلْلِهِمْ، وَلَا نَذْكُرُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ".

وقال أيضًا: "وَالْكَفُّ عَنِ حَرْبِ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ، وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ، وَلَا تُخَاصِمُ فِيهِمْ، وَكُلَّ أَمْرِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى".

١٠- قال ابنُ أَبِي زَيْدٍ الْقَيْرَوَانِيُّ فِي بَيَانِ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ اعْتِقَادُهُ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَأَنْ لَا يُذْكَرَ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بِأَحْسَنِ ذِكْرٍ، وَالْإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ أَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ أَحْسَنُ الْمَخَارِجِ، وَيُظَنَّ بِهِمْ أَحْسَنُ الْمَذَاهِبِ".

١١- قال ابنُ بَطَّةَ: "أَمَّا مَا يَجِبُ عَلَيْنَا تَرْكُهُ، وَفَرَضَ عَلَيْنَا الْإِمْسَاكُ عَنْهُ، وَحَرَامٌ عَلَيْنَا الْفَحْصُ وَالتَّنْقِيرُ عَنْهُ؛ هُوَ النَّظَرُ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَالْخُلُقُ الَّذِي كَانَ جَرَى مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ مُشْتَبِهٌ، وَنُرْجِي الشُّبُهَةَ إِلَى اللَّهِ، وَلَا نَمِيلُ مَعَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا نَظْلِمُ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَلَا نُخْرِجُ أَحَدًا مِنْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَا نَجْعَلُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ حُجَّةً فِي سَبِّ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَلَا نَسُبُّ أَحَدًا مِنْهُمْ لِسَبِّهِ صَاحِبَهُ، وَلَا نَقْتَدِي بِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ جَرَى مِنْهُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى هُدًى وَتَقَى وَخَالِصِ إِيْمَانٍ؛ لِأَنَّا عَلَى يَقِينٍ مِنْ نَصِّ التَّنْزِيلِ وَقَوْلِ الرَّسُولِ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَخَيْرُهُ بَعْدَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

وقال أيضًا: "نَكْفُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَدْ شَهِدُوا الْمَشَاهِدَ مَعَهُ، وَسَبَقُوا النَّاسَ بِالْفَضْلِ، فَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُمْ، وَأَمَرَكَ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَحَبَّتِهِمْ، وَفَرَضَ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا سَيَكُونُ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ سَيَقْتَتِلُونَ، وَإِنَّمَا فَضَّلُوا عَلَى سَائِرِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ الْخَطَأَ وَالْعَمَدَ قَدْ وُضِعَ عَنْهُمْ، وَكُلُّ مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ مَغْفُورٌ لَهُمْ، وَلَا تَنْظُرُ فِي كِتَابِ صِفِّينَ وَالْجَمَلِ وَوَقْعَةِ الدَّارِ، وَسَائِرِ الْمُنَازَعَاتِ الَّتِي جَرَتْ

بينهم، ولا تكتبه لنفسك ولا لغيرك، ولا تزوه عن أحد، ولا تقرأه على غيرك، ولا تسمعه ممن يرويه؛ فعلى ذلك اتفق سادات علماء هذه الأمة، من النبي عمّا وصفناه .

١٢- قال أبو نعيم الأصبهاني: " الواجب على المسلمين في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إظهار ما مدحهم الله تعالى به، وشكرهم عليه من جميل أفعالهم وجميل سوابقهم، وأن يغضوا عمّا كان منهم في حال الغضب والإغفال، وفرط منهم عند استزلال الشيطان إياهم، ونأخذ في ذكرهم بما أخبر الله تعالى به، فقال تعالى: { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ } [الحشر: ١٠] الآية؛ فإن الهفوة والزلل والغضب والحدة والإفراط لا يخلو منه أحد، وهو لهم مغفور، ولا يوجب ذلك البراءة منهم، ولا العداوة لهم، ولكن يحب على السابقة الحميدة، ويتولى للمنقبة الشريفة .

وقال أيضاً: " الإمساك عن ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر زللهم، ونشر محاسنهم ومنافيتهم، وصرف أمورهم إلى أجمل الوجوه: من أمارات المؤمنين المتبعين لهم بإحسان، الذين مدحهم الله تعالى فقال: { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا } مع ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإكرام أصحابه، وأوصى بحقهم وصيانتهم وإجلالهم .

١٣- قال أبو بكر الباقلاني: " يجب أن يعلم: أن ما جرى بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم من المشاجرة نكف عنه، ونترحم على الجميع، ونثني عليهم، ونسأل الله تعالى لهم الرضوان والأمان والفوز والجنان، ونعتقد أن علياً عليه السلام أصاب فيما فعل وله أجران، وأن الصحابة رضي الله عنهم أن ما صدر منهم كان باجتهاد، فلهم الأجر ولا يفسقون ولا يبدعون، والدليل عليه قوله تعالى: { رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ }، وقوله تعالى: { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا } [الفتح: ١٨] ، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر)) ، فإذا كان الحاكم في وقتنا له أجران على اجتهداه فما ظنك باجتهاد من رضي الله عنهم ورضوا عنه؟! ويدل على صحة هذا القول: قوله صلى الله عليه وسلم للحسن عليه السلام: ((إن ابني سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)) ، فأثبت العظم لكل واحدة من الطائفتين، وحكم لهم بصحة الإسلام... وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى: { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ } [الحجر: ٤٧] ... ويجب الكف عن ذكر ما شجر بينهم والسكوت عنه .

١٤- قال أبو عمرو الداني في اعتقاد أهل السنة: " من قولهم: أن يحسن القول في السادات الكرام أصحاب محمد عليه السلام، وأن تذكر فضائلهم، وتشر محاسنهم، ويمسك عمّا سوى ذلك مما شجر بينهم... ويجب أن يلتزم لهم أحسن المخارج، وأجمل المذاهب، لمكانهم من الإسلام، وموضعهم من الدين والإيمان...) .

١٥- قال أبو عثمان الصَّابُونِيُّ فِي عَقِيدَةِ السَّلَفِ وَأَصْحَابِ الْحَدِيثِ: (وَيَرُونَ الْكَفَّ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَتَطْهِيرِ الْأَلْسِنَةِ عَنْ ذِكْرِ مَا يَتَضَمَّنُ عَيْبًا لَهُمْ، وَنَقْصًا فِيهِمْ، وَيَرُونَ التَّرْحُمَ عَلَى جَمِيعِهِمْ، وَالْمَوَالَاةَ لِكَافَتِهِمْ) .

١٦- قال أبو الوليد بن رُشد المالكِي: " كُلُّهُمْ مَحْمُودٌ عَلَى مَا فَعَلَهُ، الْقَاتِلُ مِنْهُمْ وَالْمَقْتُولُ فِي الْجَنَّةِ، فَهَذَا الَّذِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْتَقِدَهُ فِيَمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَثْنَى عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [آل عمران: ١١٠] ، وَقَالَ: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا [البقرة: ١٤٣] أَي: خَيْرًا عُذُولًا... وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((عَشْرَةٌ مِنْ فُرَيْشٍ فِي الْجَنَّةِ)) فَسَمِيَ فِيهِمْ عَلِيًّا وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، وَالَّذِي يَقُولُ أُمَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَقِّ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ اتَّبَعَهُ كَانُوا عَلَى الصَّوَابِ وَالْحَقِّ، وَأَنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ كَانَا عَلَى الْخَطِإِ إِلَّا أَنَّهُمَا رَأَيَا ذَلِكَ بِاجْتِهَادِهِمَا، فَكَانَ فَرَضُهُمَا مَا فَعَلَاهُ؛ إِذْ هُمَا مِنْ أَهْلِ الْاجْتِهَادِ... وَالَّذِي قُلْنَاهُ مِنْ أَنَّهُمْ اجْتَهِدُوا فَأَصَابَ عَلِيٌّ وَأَخْطَأَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ هُوَ الصَّحِيحُ الَّذِي يَلْزَمُ اعْتِقَادُهُ، فَلَعَلِّي أَجْرَانِ لِمُوَافَقَتِهِ الْحَقَّ بِاجْتِهَادِهِ، وَلِطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ أَجْرٌ لِاجْتِهَادِهِمَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ " .

١٧- قال ابنُ قُدامة: " مِنْ السُّنَّةِ تَوَلَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَحَبَّتُهُمْ وَذِكْرُ مَحَاسِنِهِمْ، وَالتَّرْحُمُ عَلَيْهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ وَالْكَفُّ عَنْ ذِكْرِ مَسَاوِيهِمْ وَمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَاعْتِقَادُ فَضْلِهِمْ وَمَعْرِفَةُ سَابِقَتِهِمْ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا } [الحشر: ١٠] " .

١٨- قال القُرْطُبِيُّ: " لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ خَطَأٌ مَقْطُوعٌ بِهِ؛ إِذْ كَانُوا كُلُّهُمْ اجْتَهِدُوا فِيَمَا فَعَلُوهُ، وَأَرَادُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُمْ كُلُّهُمْ لَنَا أُمَّةٌ، وَقَدْ تَعَبَّدْنَا بِالْكَفِّ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَلَّا نَذَكِّرَهُمْ إِلَّا بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ لِحُرْمَةِ الصَّحْبَةِ، وَلَنَهْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ سَبِّهِمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَهُمْ وَأَخْبَرَ بِالرِّضَا عَنْهُمْ " .

١٩- قال النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ)) : " أَعْلَمُ أَنَّ الدِّمَاءَ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَيْسَتْ بِدَاخِلَةٍ فِي هَذَا الْوَعِيدِ، وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَقِّ إِحْسَانُ الظَّنِّ بِهِمْ، وَالْإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَتَأْوِيلُ قِتَالِهِمْ وَأَنَّهُمْ مُجْتَهِدُونَ مُتَأَوِّلُونَ لَمْ يَقْصِدُوا مَعْصِيَةً وَلَا مَحْضَ الدُّنْيَا، بَلِ اعْتَقَدَ كُلُّ فَرِيقٍ أَنَّهُ الْمُحِقُّ، وَمُخَالَفَةُ بَاغٍ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ قِتَالُهُ لِيَرْجَعَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ مُصِيبًا، وَبَعْضُهُمْ مُخْطِئًا مَعْدُورًا فِي الْخَطِإِ؛ لِأَنَّهُ لَا اجْتِهَادَ، وَالْمُجْتَهِدُ إِذَا أَخْطَأَ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَكَانَ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الْمُحِقُّ الْمُصِيبُ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ، هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَكَانَتِ الْقَضَايَا مُشْتَبِهَةً، حَتَّى إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ تَحَيَّرُوا فِيهَا، فَاعْتَزَلُوا الطَّائِفَتَيْنِ وَلَمْ يَقَاتِلُوا، وَلَمْ يَتَيَقَّنُوا الصَّوَابَ " .

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مُبَيِّنًا سَبَبَ الْحُرُوبِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ الصَّحَابَةِ: " وَأَمَّا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَخِلَافَتُهُ صَحِيحَةٌ بِالْإِجْمَاعِ، وَكَانَ هُوَ الْخَلِيفَةُ فِي وَقْتِهِ لَا خِلَافَةَ لِغَيْرِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ مِنَ الْعُدُولِ الْفُضَّلَاءِ وَالصَّحَابَةِ النَّجَبَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَّا الْحُرُوبُ الَّتِي جَرَتْ فَكَانَتْ لِكُلِّ طَائِفَةٍ شُبْهَةٌ اعْتَقَدَتْ تَصْوِيبَ أَنْفُسِهَا بِسَبِّهَا، وَكُلُّهُمْ

عُدُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمُتَأَوِّلُونَ فِي حُرُوبِهِمْ وَغَيْرِهَا، وَلَمْ يُخْرِجْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَحَدًا مِنْهُمْ عَنِ الْعَدَالَةِ؛ لِأَنَّهُمْ مُجْتَهِدُونَ اخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلَ مِنْ مَحَلِّ الاجْتِهَادِ كَمَا يَخْتَلِفُ الْمُجْتَهِدُونَ بَعْدَهُمْ فِي مَسَائِلَ مِنَ الدَّمَاءِ وَغَيْرِهَا، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ نَقْصُ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَ تِلْكَ الْحُرُوبِ أَنَّ الْقَضَايَا كَانَتْ مُشْتَبِهَةً، فَلِشِدَّةِ اشْتِبَاهِهَا اخْتَلَفَ اجْتِهَادُهُمْ وَصَارُوا ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ ظَهَرَ لَهُمْ بِالاجْتِهَادِ أَنَّ الْحَقَّ فِي هَذَا الطَّرَفِ، وَأَنَّ مُخَالَفَتَهُ بَاغٍ؛ فَوَجَبَ عَلَيْهِمْ نُصْرَتُهُ وَقِتَالُ الْبَاغِيِّ عَلَيْهِ فِيمَا اعْتَقَدُوهُ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ يَحِلُّ لِمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ التَّأَخُّرُ عَنْ مُسَاعَدَةِ إِمَامِ الْعَدْلِ فِي قِتَالِ الْبُغَاةِ فِي اعْتِقَادِهِ. وَقِسْمٌ عَكْسُ هَؤُلَاءِ، ظَهَرَ لَهُمْ بِالاجْتِهَادِ أَنَّ الْحَقَّ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ، فَوَجَبَ عَلَيْهِمْ مُسَاعَدَتُهُ وَقِتَالُ الْبَاغِيِّ عَلَيْهِ. وَقِسْمٌ ثَالِثٌ اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِمُ الْقَضِيَّةُ، وَتَحَيَّرُوا فِيهَا، وَلَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ تَرْجِيحُ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ، فَاعْتَزَلُوا الْفَرِيقَيْنِ، وَكَانَ هَذَا الْإِعْتَزَالُ هُوَ الْوَاجِبُ فِي حَقِّهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحِلُّ الْإِقْدَامُ عَلَى قِتَالِ مُسْلِمٍ حَتَّى يَظْهَرَ أَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِذَلِكَ .

٢٠- قال ابنُ تيميةَ في بيانِ مُعْتَقَدِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: " وَيُمَسِّكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ، وَغَيَّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْدُورُونَ، إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ " .

وقال أيضاً: " مِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ السُّنَّةِ الْإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَّتَتْ فُضَائِلُهُمْ، وَوَجَبَتْ مُوَالَاتُهُمْ وَمَحَبَّتُهُمْ. وَمَا وَقَعَ مِنْهُ مَا يَكُونُ لَهُمْ فِيهِ عُذْرٌ يَخْفَى عَلَى الْإِنْسَانِ، وَمِنْهُ مَا تَابَ صَاحِبُهُ مِنْهُ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مَغْفُورًا. فَالْخَوْضُ فِيمَا شَجَرَ يُوقِعُ فِي نَفْسٍ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ بُغْضًا وَذَمًّا، وَيَكُونُ هُوَ فِي ذَلِكَ مُخْطِئًا بَلْ عَاصِيًا، فَيَضُرُّ نَفْسَهُ وَمَنْ خَاضَ مَعَهُ فِي ذَلِكَ، كَمَا جَرَى لِأَكْثَرِ مَنْ تَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُمْ تَكَلَّمُوا بِكَلامٍ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ: إِمَّا مِنْ ذَمٍّ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الذَّمَّ، وَإِمَّا مِنْ مَدْحٍ أُمُورٍ لَا تَسْتَحِقُّ الْمَدْحَ. وَلِهَذَا كَانَ الْإِمْسَاكُ طَرِيقَةً أَفْضَلَ السَّلَفِ " .

٢١- قال الذهبيُّ: " تَقَرَّرَ... الْكَفُّ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَقِتَالِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَمَا زَالَ يَمُرُّ بِنَا ذَلِكَ فِي الدَّوَاوِينِ وَالْكِتَابِ وَالْأَجْزَاءِ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ ذَلِكَ مُنْقَطِعٌ وَضَعِيفٌ، وَبَعْضُهُ كَذِبٌ، وَهَذَا فِيمَا بَأْيَدِنَا وَبَيْنَ عُلَمَائِنَا، فَيَنْبَغِي طَيْبُهُ وَإِخْفَاؤُهُ، بَلْ إِعْدَامُهُ لِتَصْفَوِ الْقُلُوبِ، وَتَتَوَقَّرَ عَلَى حُبِّ الصَّحَابَةِ وَالتَّرَضِيِّ عَنْهُمْ، وَكِتْمَانُ ذَلِكَ مُتَعَيِّنٌ عَنِ الْعَامَّةِ وَآحَادِ الْعُلَمَاءِ، وَقَدْ يُرَخَّصُ فِي مُطَالَعَةِ ذَلِكَ خُلُوةً لِلْعَالِمِ الْمُنْصِفِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْهَوَى، بِشَرْطِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ كَمَا عَلَّمَنَا اللَّهُ تَعَالَى؛ حَيْثُ يَقُولُ: { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا } [الحشر: ١٠] ، فَالْقَوْمُ لَهُمْ سَوَابِقُ وَأَعْمَالٌ مُكْفَرَةٌ لِمَا وَقَعَ مِنْهُمْ، وَجِهَادٌ مَحَاءٌ، وَعِبَادَةٌ مُمَحَّصَةٌ... فَأَمَّا مَا تَنَقَّلَهُ الرَّافِضَةُ وَأَهْلُ الْبِدْعِ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا نُعَرِّجُ عَلَيْهِ، وَلَا كِرَامَةً؛ فَأَكْثَرُهُ بَاطِلٌ وَكَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ، فَدَأْبُ الرِّوَاغِضِ رِوَايَةُ الْأَبَاطِيلِ، أَوْ رَدُّ مَا فِي الصَّحَاحِ وَالْمَسَانِيدِ، وَمَتَى إِفَاقَةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانٌ؟! " .

٢٢- قال ابن كثير: "أما ما شجر بينهم بعده عليه الصلاة والسلام فإنه ما وقع عن غير قصد كيوم الجمل، ومنه ما كان عن اجتihad كيوم صفين، والاجتهاد يُخطئ ويُصيب، ولكن صاحبهُ معذور وإن أخطأ، ومأجور أيضاً، وأما المصيب فله أجران اثنان، وكان علي وأصحابه أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه، رضي الله عنهم أجمعين".

٢٣- قال ابن حجر: "اتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عُرف المحق منهم؛ لأنهم لم يُقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتihad، وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد، بل ثبت أنه يُؤجر أجراً واحداً، وأن المصيب يُؤجر أجرين".

٢٤- قال القسطلاني: "مما يجب أيضاً الإمساك عما شجر بينهم، أي: ما وقع بينهم من الاختلاف، والإضراب عن أخبار المؤرخين، وجهلة الرواة، وضلال الشيعة والمبتدعين؛ القادحة في أحد منهم... وأن يلتبس لهم مما نُقل من ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويصوب لهم أصوب المخرج".

٢٥- قال محمد بن عبد الوهاب: "أجمع أهل السنة على السكوت عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم، ولا يُقال فيهم إلا الحسنى".

٢٦- قال ابن عابدين: "يجب علينا تعظيمهم واحترامهم، ويحرم سبهم والطعن فيهم، ونسكت عما جرى بينهم من الحروب، فإنه كان عن اجتihad. هذا كله مذهب أهل الحق وهم أهل السنة والجماعة، وهم الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون، ومن خرج عن هذا الطريق فهو ضال مبتدع، أو كافر".

٢٧- قال ابن باز: "قول أهل السنة والجماعة في هذه الفتنة معلوم، وهو الكف عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم والترضي عنهم جميعاً، واعتقاد أنهم مجتهدون فيما فعلوا طالبون للحق، والمصيب منهم له أجران، والمخطئ له أجر واحد، كما صح بذلك الحديث الشريف".

وقال أيضاً: "يُمكنون عما شجر بين الصحابة، ويعتقدون أنهم في ذلك مجتهدون، من أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر".

٢٨- قال ابن عثيمين: "إن الصحابة رضي الله عنهم لم ينقضوا حتى حصلت الفتنة العظيمة في مقتل عثمان رضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقبلها مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وغير ذلك من الفتن المعروفة في كتب التاريخ".

والذي يجب علينا نحن إزاء هذه الفتنة أن نمسك عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم، وألا نخوض فيه، وألا نتكلم فيه؛ لأنه كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: هذه دماء طهر الله سيوفنا منها، فيجب أن نطهر السنتنا منها، وصدق رضي الله عنه، فما فائدتنا أن نبش عما جرى بين علي بن أبي طالب وعائشة رضي الله عنهما، أو بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من الحروب التي مضت وانقضت، ذكر هذه الحروب وتذكرها لا يُفيدنا إلا ضللاً... إنني أقول: إن من مذهب أهل السنة والجماعة أن نسكت عما شجر بين الصحابة، فلا نتكلم فيه،

لما لهم من سابق في الدين	وأخذهم بحبله المتين
ومن على الاصحاب يطوي غلا	فولّه يا ربّ ما تولّى
ولتصله يا ربنا سعيرا	فلا يرى من حرّها مُجيرا ^(١)

نُعرضُ بقلوبنا وألسنتنا عمّا جرى بينهم، ونقول: كُلُّهُمْ مُجتهدون، المُصيبُ منهم له أجران، والمُخطئُ منهم له أجرٌ واحدٌ، { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [البقرة: ١٣٤] ، لو قرأ إنسانُ التاريخَ حولَ هذه الأمورِ لَوَجَدَ العَجَبَ العُجَابَ؛ وَجَدَ من يَنْتَصِرُ لبني أُمَيَّةَ، وَيَقْدَحُ في عليّ بنِ أبي طالبٍ وآلِ النبيِّ، وَوَجَدَ من يغلو في عليّ بنِ أبي طالبٍ وآلِ النبيِّ وَيَقْدَحُ قَدْحًا عَظِيمًا في بني أُمَيَّةَ؛ لِأَنَّ التَّارِيخَ يَخْضَعُ لِلسِّيَاسَةِ؛ لِذَا يَجِبُ عَلَيْنَا نَحْنُ فيما يَتَعَلَّقُ بالتَّارِيخِ أَلَّا نَتَعَجَّلَ في الحُكْمِ؛ لِأَنَّ التَّارِيخَ يَكُونُ فيه كَذِبٌ، وَيَكُونُ فيه هَوًى وَتَغْيِيرٌ لِلْحَقَائِقِ، يَنْشُرُ غَيْرَ ما يَكُونُ، وَيَحْذِفُ ما يَكُونُ، كُلُّ هَذَا تَبَعًا لِلسِّيَاسَةِ، وَلَكِنْ -عَلَى كُلِّ حَالٍ- ما جَرى بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَكُفَّ عَنْهُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ في قُلُوبِنَا غِلٌّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، نُحِبُّهُمْ كُلَّهُمْ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمِيتَنَا عَلَى حُبِّهِمْ، نُحِبُّهُمْ كُلَّهُمْ، وَنَقُولُ: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحشر: ١٠] .

^١ - علماء الإسلام يؤكّدون في كتب العقائد على مكانة الصحابة في الأمة، ويذكرون فضلهم وأثرهم، مع الدفاع عن أعراضهم وحماية حياضهم، فهم بطانة رسول الله - ﷺ - وخاصته وحملته رسالته، فدخلوا التاريخ من أوسع أبوابه، ونالوا بذلك ذرى المجد والشرف والسبق للعلا بكل أسبابه، واستحقوا استمرار ذكرهم، وذكر فضائلهم إلى يوم القيامة استحقاقا تاما كاملا.

تعريف الصحابي

لغة: قال الفيروز آبادي: صحبه كسمعه، صحابة ويكسر، وصحبه: عاشره، وهم أصحاب وأصحاب وصحبان وصحاب وصحابة وصحابة وصحب، واستصحبه: دعاه إلى الصحبة ولازمه. (القاموس المحيط).
واصطلاحا: قال ابن حجر -رحمه الله-: " وأصح ما وقفت عليه من ذلك، أن الصحابي من لقي النبي - ﷺ - مؤمنا به، ومات على الإسلام، فدخل فيمن لقيه: من طالت مجالسته له أو قصرت، من روى عنه أو لم يرو عنه، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى".
ويدخل في تعريف الصحابي: كل من اجتمع بالرسول - ﷺ - ولو حكما، كالصبي في المهد، وأيضا من

اجتمع به - ﷺ - مؤمنا به، ثم ارتد، ثم آمن ومات على الإيمان.
ويخرج من تعريف الصحابي: من أسلم في عهد النبي - ﷺ -، ولم ير النبي - ﷺ -، ولم يجتمع به،
ومن أسلم ورأى النبي - ﷺ - إسلاما ظاهرا كالمنافقين، وأيضا من اجتمع بالنبي - ﷺ - غير مؤمن به،
ثم آمن بعد موت النبي - ﷺ -، ومن اجتمع بالنبي - ﷺ - مؤمنا به، ثم ارتد بعد ذلك ومات مرتدا.
ومصطلح الصحبة: ورد في القرآن والسنة، ودليل ذلك قوله تعالى: {إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: الآية ٤٠] ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
وَأَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)). (صحيح مسلم).

ولم يحدد العلماء عدد الصحابة بدقة، بل ذكروا أنهم يزيدون على المائة ألف صحابي، وكلهم لهم الفضل والسبق، إلا أنهم يتفاضلون فيما بينهم.

وقد وردت الكثير من الآيات الصريحة ، والأحاديث الصحيحة في فضائل الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم- والثناء عليهم: قال الله عز وجل: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ يُغْفِرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِمْ رِجَالًا يُثَابِتُهُمْ} [التوبة: الآية ١٠٠] ، وقال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح: الآيتان ١٨-١٩].

وورد في السنة عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته)) رواه الشيخان، وعن واثلة بن الأسقع الليثي عن النبي - ﷺ - قال: ((لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأيي وصاحبي، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأيي وصاحب من صاحبي، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأيي من رأيي من رأيي، وصاحب من صاحبي من صاحبي)). رواه الطبراني و صححه الألباني.

وورد الكثير من أقوال السلف في فضل الصحابة، قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: ((إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد - ﷺ - خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعته برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد - ﷺ -، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئا فهو عند الله سيء)). (مسند الإمام أحمد) وعنه أيضا -رضي الله عنه- قال: ((من كان مستنًا فليستن بمن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد - ﷺ -، كانوا أفضل هذه الأمة: أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)). (ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله).

حب الصحابة عقيدة و دين

إن من عقيدة أهل السنة والجماعة وجوب محبة أصحاب رسول الله - ﷺ -، وتعظيمهم وتوقيرهم وتكريمهم، والاحتجاج بإجماعهم، والاقتداء بهم، والأخذ بآثارهم، وحرمة بغض أحد منهم؛ لما شرفهم الله به من صحبة رسوله - ﷺ -، والجهاد معه لنصرة دين الإسلام، وصبرهم على أذى المشركين والمنافقين، والهجرة عن أوطانهم وأموالهم، وتقديم حب الله ورسوله - ﷺ - على ذلك كله، وحبهم - رضي الله عنهم - دين يدان به، وقربى يتقرب بها إلى الله تعالى، إذ هو من أولى معاني الحب في الله، وموالاته أهل الإيمان التي أمر الله عز وجل بها، وقد دلت النصوص الكثيرة على وجوب محبتهم وحرمة بغضهم، فعن أنس - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : ((آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار)) صحيح البخاري ، وعن عبدالله بن مغفل - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ((الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه)) مسند الإمام أحمد.

قال الطحاوي - رحمه الله -: " ونحب أصحاب رسول الله - ﷺ -، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الحق يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان " .

وقال أيوب السخيتاني رحمه الله -: " من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد استوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استنار بنور الله، ومن أحب عليا فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن قال الحسنى في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد برئ من النفاق " . (اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)

حرمة سبهم

ويحرم سب الصحابة رضي الله عنهم: قال الذهبي - رحمه الله -: " فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدين، ومرق من ملة المسلمين، لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم، وإضرار الحقد فيهم، وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم وما لرسول الله - ﷺ - من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم؛ ولأنهم أرضى الوسائل من المأثور والوسائل من المنقول، والطعن في الوسائل طعن في الأصل، والازدراء بالنقل ازدراء بالمنقول، هذا ظاهر لمن تدبره وسلم من النفاق ومن الزندقة والإلحاد في عقيدته " .

وقال ابن عثيمين - رحمه الله -: " وفي الحقيقة إن سب الصحابة - رضي الله عنهم - ليس جرحا في الصحابة - رضي الله عنهم - فقط، بل هو قدح في الصحابة وفي النبي - ﷺ - وفي شريعة الله، وفي ذات الله عز وجل (ابن عثيمين: شرح العقيدة الواسطية).

وقد تواعد الله الذين يؤذون المؤمنين بقوله: " { والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا

بهتانا وإثما مبينا { [الأحزاب : الآية ٥٨] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ((من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)) . (الألباني : صحيح الجامع) ، وقال - صلى الله عليه وسلم - : " لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدا أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه " . (رواه الشيخان) ، وسئل الإمام أحمد عمن يشتم أبابكر وعمر وعائشة - رضي الله تعالى عنهم - فقال : (ما أراه على الإسلام) ، وسئل عمن يشتم عثمان ، فقال رحمه الله : (هذه زندقة) . (مسائل العقيدة للأحمدي) .

فإن من عقيدة أهل السنة والجماعة حبّ أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال الطحاوي - رحمه الله - : " ونحبّ أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا نفرط في حب واحدٍ منهم ، ولا نتبرأ من أحدٍ منهم ، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم إلا بخير ، وحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان " .

فأهل السنة والجماعة يُحبُّون أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ويفضّلونهم على جميع الخلق بعد الأنبياء ؛ لأنّ محبتهم من محبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومحبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من محبة الله ، وهم يُثنون على الصحابة ، ويتبرّضون عنهم ، ويستغفرون لهم ؛ وذلك للأمور التالية :

أولاً : أنهم خير القرون في جميع الأمم ؛ روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث عبد الله - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : ((خيرُ الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم)) .

ثانياً : هم الواسطة بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين أمته ، فمنهم تلقت الأمة عنه الشريعة .

ثالثاً : ما كان على أيديهم من الفتوحات الواسعة العظيمة .

رابعاً : أنهم نشروا الفضائل بين هذه الأمة ؛ من الصدق والنصح والأخلاق والآداب ، التي لا توجد عند غيرهم ، قال - تعالى - مثنيًا عليهم : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، وقال - تعالى - : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وقال - تعالى - : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : ((لا تسبوا أصحابي ؛ فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه)) .

قالت عائشة - رضي الله عنها - عندما قيل لها : إن ناساً يتناولون أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى أبا بكر وعمر ، فقالت : وما تعجبون من هذا؟! انقطع عنهم العمل ، فأحبّ الله ألاّ يقطع عنهم الأجر .

وروى الإمام أحمد في فضائل الصحابة عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال : " لا تسبوا أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فلمقام أحدهم ساعة خير من عبادة أحدكم أربعين سنة " .

قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعته برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيّه، يقاتلون على دينه. وقال أيضًا مخاطبًا أصحابه: أنتم أكثر صلاة، وأكثر صيامًا، وأكثر جهادًا من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - وهم كانوا خيرًا منكم، قالوا: فيم ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا، وأرغب منكم في الآخرة.

وقال الحسن البصري - رحمه الله - : إن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - كانوا أكياسًا، عملوا صالحًا، وأكلوا طيبًا، وقدموا فضلاً، لم يُنافسوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يجزعوا من ذلها، أخذوا صفوها، وتركوا كدرها، والله ما تعاضمت في أنفسهم حسنة عملوها، ولا تصاغرت في أنفسهم سيئة أمرهم الشيطان بها.

• قال ابن أبي العز الحنفي: "فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَكُونُ فِي قَلْبِهِ غُلٌّ عَلَى خِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَادَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ؟! بَلْ قَدْ فَضَّلَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِخَصْلَةٍ، قِيلَ لِلْيَهُودِ: مِنْ خَيْرِ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى، وَقِيلَ لِلنَّصَارَى: مِنْ خَيْرِ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ عِيسَى، وَقِيلَ لِلرَّافِضَةِ: مِنْ شَرِّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! لَمْ يَسْتَنْوُوا مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلَ، وَفِيهِمْ سُبُوهُمُ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِمَّنْ اسْتَنْوَاهُمْ بِأَضْعَافٍ مِضَاعِفَةٍ".

قوله: وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ؛ فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ فِي الْأَنْصَارِ: ((لَا يَجِبُهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مِنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ)).

• قال أبو زرعة الرازي: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَنْتَقِصُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَاعْلَمْ أَنَّهُ زَنْدِيقٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَنَا حَقٌّ، وَالْقُرْآنُ حَقٌّ، وَإِنَّمَا أَدَّى إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ وَالسَّنَنَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِنَّمَا يَرِيدُونَ أَنْ يَجْرَحُوا شَهْدَنَا؛ لِيَبْطُلُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَالْجَرْحُ بِهِمْ أَوْلَى، وَهُمْ زَنَادِقَةٌ.

• وقال يحيى بن معين في تلديد بن سليمان المحاربي الكوفي: "كذاب، كان يشتم عثمان، وكل من شتم عثمان أو طلحة أو أحدًا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دجال، لا يُكتب عنه، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين".

وام ترتبهم في الافضلية بعد الخفاء الراشدين

أولاً: الْمُهَاجِرُونَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْجَمِيعِ

قَدْ دَلَّ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى تَفْضِيلِ الْمُهَاجِرِينَ (عَلَى الْأَنْصَارِ فِي الْجُمْلَةِ).

فَقَدَّمَ اللَّهُ ذِكْرَهُمْ عَلَى ذِكْرِ الْأَنْصَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال: ٧٤] .
 وقال الله سبحانه: { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ } [التوبة: ١١٧] .

وقال الله عزَّ وجلَّ: { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر: ٨-٩] .

وأفرد سبحانه ذِكْرَ الْمُهَاجِرِينَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ.

قال الله تعالى: { فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } [آل عمران: ١٩٥] .

وقال الله سبحانه: { الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } [التوبة: ٢٠] .

وقال الله عزَّ وجلَّ: { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْؤَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [النحل: ٤١-٤٢] .

• قال أبو عمرو الداني: (من قولهم: إِنَّ أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الْمُهَاجِرُونَ مَعَهُ، وَالذَّابُّونَ عَنْهُ) .

• وقال ابنُ تيمية: (وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ) .

• وقال حافظُ الْحَكَمِيِّ: (أَفْضَلُهُمُ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ) .

ثانيًا: أَفْضَلُ الْمُهَاجِرِينَ هُمُ الْعَشْرَةُ الْمُبَشَّرُونَ بِالْجَنَّةِ

• قال ابنُ أَبِي زَيْدٍ الْفَيَرَوَانِيُّ: (خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنُ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلَوِّنُهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلَوِّنُهُمْ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ أَفْضَلَ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ... ثُمَّ بَقِيَّةُ الْعَشْرَةِ) .

• وقال أبو منصور البغدادي: (أَصْحَابُنَا يَعْنِي الشَّافِعِيَّةُ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَهُمُ: الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ، ثُمَّ السَّبْعَةُ

الْبَاقُونَ بَعْدَهُمْ إِلَى تَمَامِ الْعَشْرَةِ، وَهُمْ: طَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ عَامِرُ بْنُ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) .

• وقال أبو عمرو الداني: (أَفْضَلُ الْمُهَاجِرِينَ: الْعَشْرَةُ الْمَعْدُودُونَ لِلْجَنَّةِ، وَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ،

وطلحة، والزُّبَيْرُ، وسعدٌ، وسعيدٌ، وعبدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وأبو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَأَفْضَلُ هَؤُلَاءِ الْعَشْرَةِ الْأَيْمَةُ الْأَرْبَعَةُ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ، وَأَفْضَلُ الْأَرْبَعَةِ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ

عَلِيٌّ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ) .

- وقال عَبْدُ الْغَنِيِّ الْمَقْدِسِيُّ: (... فَهَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَالْأَئِمَّةُ الْمَهْدِيُّونَ، ثُمَّ السُّنَّةُ الْبَاقُونَ مِنَ الْعَشْرَةِ: طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَهَؤُلَاءِ الْعَشْرَةُ الْكَرَامُ الْبَرَّةُ، الَّذِينَ شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَنَّةِ، فَشَهِدَ لَهُمْ بِهَا كَمَا شَهِدَ لَهُمْ بِهَا؛ اتِّبَاعًا لِقَوْلِهِ، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِهِ) .
- وقال ابنُ تَيْمِيَّةَ: (ما في أهلِ السُّنَّةِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَسَعْدًا وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ أَفْضَلُ مِنْهُ (يعني من عليّ) بَلْ غَايَةُ مَا يَقُولُونَ السُّكُوتُ عَنِ التَّفْضِيلِ بَيْنَ أَهْلِ الشُّورَى، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الشُّورَى عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا) .
- وقال ابنُ أَبِي الْعَزَّ: (قَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى تَعْظِيمِ هَؤُلَاءِ الْعَشْرَةِ وَتَقْدِيمِهِمْ؛ لِمَا اشْتَهَرَ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ) .
- قال أَبُو الثَّنَاءِ مَحْمُودُ الْأَلُوسِيُّ: (أَفْضَلُهُمُ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ الرَّاشِدُونَ... ثُمَّ تَمَامُ الْعَشْرَةِ) .

- ثَالِثًا: أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الْعَشْرَةِ أَهْلُ بَدْرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ثُمَّ مِنَ الْأَنْصَارِ
- عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عَنْ أَهْلِ بَدْرٍ: ((لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)) . وفي لَفْظٍ: ((فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ)) .
 - قال ابنُ أَبِي زَيْدٍ الْقَيَّرَوَانِيُّ: (خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنُ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ أَفْضَلَ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ... ثُمَّ بَقِيَّةُ الْعَشْرَةِ، ثُمَّ أَهْلُ بَدْرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ثُمَّ مِنَ الْأَنْصَارِ وَمِنْ جَمِيعِ أَصْحَابِهِ عَلَى قَدْرِ الْهَجْرَةِ وَالسَّابِقَةِ وَالْفَضِيلَةِ) .
 - وقال أَبُو مَنْصُورٍ الْبَغْدَادِيُّ: (أَصْحَابُنَا يَعْنِي الشَّافِعِيَّةُ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَهُمُ: الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ، ثُمَّ السُّنَّةُ الْبَاقُونَ بَعْدَهُمْ إِلَى تَمَامِ الْعَشْرَةِ، وَهُمْ: طَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ عَامِرُ بْنُ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ الْبَدْرِيُّونَ) .
 - وقال ابنُ تَيْمِيَّةَ: (ثُمَّ مِنْ بَعْدِ أَصْحَابِ الشُّورَى: أَهْلُ بَدْرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ثُمَّ أَهْلُ بَدْرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَدْرِ الْهَجْرَةِ وَالسَّابِقَةِ أَوَّلًا فَأَوَّلُ) .
 - قال أَبُو الثَّنَاءِ مَحْمُودُ الْأَلُوسِيُّ: (أَفْضَلُهُمُ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ الرَّاشِدُونَ... ثُمَّ تَمَامُ الْعَشْرَةِ، ثُمَّ أَهْلُ بَدْرٍ) .

رَابِعًا: اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْأَفْضَلِ بَعْدَ أَهْلِ بَدْرٍ: أَهْلُ أُحُدٍ أَمْ أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ؟

فَقِيلَ: أَهْلُ أُحُدٍ مُقَدَّمُونَ عَلَى أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ.

- قال أَبُو مَنْصُورٍ الْبَغْدَادِيُّ: (أَصْحَابُنَا يَعْنِي الشَّافِعِيَّةُ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَهُمُ: الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ، ثُمَّ السُّنَّةُ الْبَاقُونَ بَعْدَهُمْ إِلَى تَمَامِ الْعَشْرَةِ... ثُمَّ الْبَدْرِيُّونَ، ثُمَّ أَصْحَابُ أُحُدٍ، ثُمَّ أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ بِالْخُدَيْبِيَّةِ) .

فتركها من اقبح البضاعة		ثم الصلاة صلّها جماعة
ولو يصير فاجر إماما		خلف الذي يعتنق الاسلاما

- وقال ابن كثير: (... ثم بقيّة العشرة، ثم أهل بدر، ثم أهل أحد، ثم أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية) .
- وقال أبو الثناء محمود الألوسي: (أفضلهم الخلفاء الأربعة الراشدون... ثم تمام العشرة، ثم أهل بدر، ثم أهل أحد، ثم أهل بيعة الرضوان... وقال بعضهم: أفضل الصحابة أهل الحديبية، وأفضلهم أهل أحد، وأفضلهم أهل بدر، وأفضلهم العشرة، وأفضلهم الخلفاء الأربعة، وأفضلهم أبو بكر رضي الله عنه) .
- وقال حافظ الحكمي: (أفضلهم السابقون الأولون من المهاجرين، ثم من الأنصار، ثم أهل بدر فأخذ فبيعة الرضوان، فمن بعدهم) .
- ورجح السفاريني تقديم أهل بيعة الرضوان على أهل أحد، قال: (لأن الله تعالى قال في أهل بيعة الرضوان: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨] . وقال في أهل غزوة أحد: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران: ١٥٥] . وفي الآية الأخرى: {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ} [آل عمران: ١٥٢] . فوصفهم في الموضعين بالعفو، ووصف أهل البيعة بالرضا، وهو أعلى وأسمى وأفضل من العفو) .
- وقال ابن عثيمين: (من المعلوم أن من الصحابة من كان من أهل بدر ومن العشرة ومن أهل بيعة الرضوان ومن أهل أحد، أي: أن بعض الصحابة اجتمعت لهم الأوصاف الأربعة، وبعضهم ليس كذلك. وإذا قلنا: إن أهل أحد مقدمون على أهل بيعة الرضوان، مع أن أهل بيعة الرضوان أكثر عدداً؛ حيث إن أهل بيعة الرضوان ألف وأربعمائة نفر، أما أهل أحد فتحو سبعمائة نفر، لكن أصابهم من البلاء والتّمحيص والقتل ما لم يكن في بيعة الرضوان؛ ولهذا رجّح بعض العلماء أهل أحد على أهل بيعة الرضوان. ولكن الذي يظهر القول الأول؛ أن أهل بيعة الرضوان أفضل، لأن أهل بيعة الرضوان استحقوا الرضا؛ قال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح: ١٨] ، أما أهل أحد فاستحقوا العفو، وفرق بين هذا وهذا... فالحاصل أن غزوة أحد قد حصل فيها من البلاء والتّمحيص ما لم يحصل في غيرها؛ ولهذا قال بعض العلماء: إنها أفضل من غزوة الحديبية، ولكن الصحيح أن أهل الحديبية أفضل من أهل أحد؛ وذلك لأن الله تعالى أحلّ عليهم رضوانه، وأما هؤلاء فقال عنهم: {وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ} [آل عمران: ١٥٢] .

مع علمه بحالة الإمام^(١)

اذ جاء امر الرب للأئام

^١ - الأصل أن من صحت صلاته صحت إمامته وأيد ذلك فعل الصحابة. فقد أخرج البخاري في التاريخ عن عبد الكريم قال: أدركت عشرة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يصلون خلف أئمة الجور. ولما كان السلطان أو الخليفة قد يصلي بالناس الجمع والأعياد وغيرها من الصلوات، لزم بيان حكم أداء هذا الركن الإسلامي، ألا وهو الصلاة خلفه إذا كان مبتدعاً، سواء كان داعية أو مستتراً بدعته لا يظهرها. فإن كان الحاكم المبتدع داعياً إلى بدعته، ولم يمكن إقامة الجمع والأعياد والجماعات إلا خلفه، وهذا يكون غالباً إذا كان الخليفة هو المتولي لأمر الصلاة كما في العهد السابق، فإن الصلاة خلفه في هذه الحال صحيحة مجزئة عند عامة أهل السنة من السلف والخلف، بل قد عد عدد من أهل العلم تاركها في هذه الحال مبتدعاً، وذلك لأن هذه الصلاة من شعائر الإسلام الظاهرة، وتليها الأئمة دون غيرهم فتركها خلفهم يفضي إلى تركها بالكلية.

ومما يدل على ذلك ما جاء عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتابعين لهم، ومن جاء بعدهم من سلف هذه الأمة، ومن ذلك:

ما جاء عن عبيد الله بن عدي رضي الله عنه أنه دخل على عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو محصور، فقال: إنك إمام عامة ونزل بك ما نرى، ويصلي لنا إمام فتنة، ونتخرج، فقال: (الصلاة أحسن ما يعمل الناس فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم) رواه البخاري من حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار رضي الله عنه .

وقد بوب الإمام البخاري رحمه الله على هذا الأثر بقوله: (باب إمامة المفتون والمبتدع) .

فأمر عثمان رضي الله عنه بالصلاة مع إمام الفتنة، والمقصود به هنا كنانة بن بشر وهو أحد رؤوس الخوارج الذين حاصروا عثمان رضي الله عنه كما رجح ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح. وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وفي هذا الأثر الحض على شهود الجماعة، ولا سيما في زمن الفتنة؛ لئلا يزداد تفرق الكلمة، وفيه أن الصلاة خلف من تكره الصلاة خلفه أولى من تعطيل الصلاة) .

وعن سوار بن شبيب أنه قال: حج نجدة الحروري في أصحابه فوادع ابن الزبير، فصلى هذا بالناس يوماً وليلة، وهذا بالناس يوماً وليلة، فصلى ابن عمر خلفهما فاعترضه رجل، فقال: يا أبا عبد الرحمن أتصلي خلف نجدة الحروري؟ فقال ابن عمر: (إذا نادوا حي على خير العمل أجبن، وإذا نادوا إلى قتل نفس قلنا: لا، ورفع بها صوته) رواه ابن أبي زمنين في أصول السنة .

وجاء عن ابن عمر رضي الله عنهما (أنه قيل له زمن ابن الزبير والخوارج والخشبية: أتصلي مع هؤلاء ومع هؤلاء وبعضهم يقتل بعضاً؟ فقال: من قال: حي على الصلاة. أجبتة، ومن قال: حي على الفلاح. أجبتة، ومن قال: حي على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله. قلت: لا) رواه البيهقي في (السنن).

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى: (وكان عبد الله بن عمر وغيره من الصحابة يصلون خلف الحجاج بن يوسف، وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف ابن أبي عبيد وكان متهماً بالإلحاد وداعياً إلى الضلال).

وسار التابعون ومن تبعهم بإحسان من أئمة السلف على هذا، فقرروه قولاً وفعلاً، فمن ذلك: ما جاء عن الأعمش رحمه الله أنه قال: (كان كبار أصحاب عبد الله -يعني ابن مسعود- يصلون الجمعة مع المختار ويحتسبون بها) (رواه ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي زمنين في أصول السنة). وقد كان أبو وائل رحمه الله يصلي الجمعة مع المختار بن أبي عبيد. (رواه ابن أبي شيبة في المصنف وعبد الرزاق في المصنف).

وعن الحسن رحمه الله أنه سئل عن الصلاة خلف صاحب البدعة، فقال الحسن: (صل خلفه، وعليه بدعته). وعن الحكم بن عطية رحمه الله أنه قال: سألت الحسن وقلت: رجل من الخوارج يؤمننا، أنصلي خلفه؟ قال: (نعم، قد أم الناس من هو شر منه) (رواه ابن أبي زمنين في أصول السنة).

وعن ابن وضاح رحمه الله: قال: سألت الحارث بن مسكين: هل ندع الصلاة خلف أهل البدع؟ فقال: (أما الجمعة خاصة فلا، وأما غيرها من الصلاة فنعم) (رواه ابن أبي زمنين في أصول السنة).

وقال ابن وضاح أيضاً: سألت يوسف بن عدي عن تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم: ((صلوا خلف كل بر وفاجر))، قال: (الجمعة خاصة)، قلت: وإن كان الإمام صاحب بدعة، قال: (نعم، وإن كان صاحب بدعة لأن الجمعة في مكان واحد ليس توجد في غيره) (رواه ابن أبي زمنين في أصول السنة).

وقال سفيان الثوري رحمه الله في وصيته لشعيب بن حرب: (يا شعيب، لا ينفعلك ما كتبت، حتى ترى الصلاة خلف كل بر وفاجر). قال شعيب لسفيان: يا أبا عبد الله الصلاة كلها؟ قال: (لا، ولكن صلاة الجمعة والعيدين، صل خلف من أدركت، وأما سائر ذلك فأنت مخير، لا تصل إلا خلف من تثق به، وتعلم أنه من أهل السنة والجماعة...) (رواه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة).

وهكذا سار أهل العلم على تقرير ذلك، وأن الصلاة خلف أهل البدع من الولاة جائزة وصحيحة، لا يجوز إعادتها؛ إن لم يكن هناك من أهل العدل من يمكن الصلاة خلفه، لهذا خص بعض من تقدم ذلك بصلاة الجمعة؛ وذلك لأن صلاة الجمعة لا يمكن إقامتها إلا خلف الولاة، أما بقية الصلوات فإنها يمكن أن تصلى خلف سني عادل، أو من يوثق به.

أما أقوال محققي أهل العلم في ذلك، فقد قال ابن قدامة رحمه الله في المغني (فأما الجمع والأعياد فإنها تصلى خلف كل بر وفاجر، وقد كان أحمد يشهدا مع المعتزلة، وكذلك العلماء الذين في عصره، ... ولأن هذه الصلاة من شعائر الإسلام الظاهرة، وتليها الأئمة دون غيرهم، فتركها خلفهم يفضي إلى تركها بالكلية).

وقال النووي رحمه الله في المجموع: (وكذا تكره -أي الصلاة- وراء المبتدع الذي لا يكفر ببدعته، وتصح، فإن كفر ببدعته فقد قدمنا أنه لا تصح الصلاة وراءه كسائر الكفار، ونص الشافعي في المختصر على كراهة الصلاة خلف الفاسق والمبتدع، فإن فعلها صحت).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى: (وأما إذا لم يمكن الصلاة إلا خلف المبتدع أو الفاجر كالجمعة التي إمامها مبتدع أو فاجر وليس هناك جمعة أخرى، فهذه تصلى خلف المبتدع والفاجر عند عامة أهل السنة والجماعة، وهذا مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة أهل السنة، بلا خلاف عندهم).

وقال أيضاً: (وأما الصلاة خلف المبتدع فهذه المسألة فيها نزاع وتفصيل، فإذا لم تجد إماماً غيره كالجمعة التي لا تقام إلا بمكان واحد، وكالعيدين وكصلوات الحج خلف إمام الموسم، فهذه كلها تفعل خلف كل بر وفاجر باتفاق أهل السنة والجماعة).

فظهر من ذلك أن الأئمة لا يختلفون في جواز الصلاة خلف أئمة البدع الدعاة إلى بدعهم، إن لم يكن إقامتها خلف غيرهم من أهل السنة.

• وأما إن أمكنه أن يصلي خلف إمام من أهل العدل، ومع ذلك صلى خلف الحاكم المبتدع، فهنا حصل النزاع بين العلماء في صحة صلاته، مع اتفاقهم على كراهية ذلك. ولهم في ذلك قولان:

القول الأول: أن الصلاة صحيحة ولكنها مكروهة، وهذا مذهب أبي حنيفة، والشافعي، وهو أحد القولين في مذهب مالك وأحمد، وعليه عامة أهل العلم وجمهور أصحاب الأئمة الأربعة.

والقول الثاني: أن الصلاة لا تصح ويجب على المصلي خلف الولاية المبتدعة أن يعيد صلاته، وهو الرواية الأخرى عن مالك وأحمد - رحم الله الجميع - وهذه الرواية هي المذهب عند الحنابلة.

والقول الأول (هو الصحيح - إن شاء الله - فبالإضافة إلى أنه قول عامة السلف فهو الذي تقتضيه أصول الشريعة وقواعد الدين. فإن الحكم بطلان عمل ما مما شرعه الله لعباده لا يكون إلا بانحرام أحد شروط الصحة المقررة لقبوله في الشرع).

أما إن كان الحاكم يخفي بدعته ويسر بها، فإن لم يمكن أداء الصلاة إلا خلفه كالجمع والجماعات، فمن باب أولى أن الصلاة خلفه صحيحة، وأن معيها بعد أن صلاها خلفه معدود من أهل البدع، وذلك لأن المستتر أخف من المعلن ببذعته فلما صحت هناك كان من الأولى أن تصح هنا.

أما إن أمكن أن تصلى خلف غيره من أهل العدل، فإن الصلاة خلف أهل العدل أولى من الصلاة خلف الحاكم المبتدع المسر ببذعته، مع صحتها خلف الحاكم المبتدع المسر ببذعته، فالحكم بصحة الصلاة هنا أولى من الحكم بصحة الصلاة خلف المعلن ببذعته.

• قال ابن قدامة رحمه الله في المغني: (فإن كان ممن يخفي بدعته وفسوقه صحت الصلاة خلفه).

لكن ينبغي التنبيه على أن الصلاة لا تترك خلف المبتدع المسر ببذعته غير المعلن لها إنكاراً عليه، لأن الإنكار يكون على من أظهر البدعة، أما المسر بها الساكت عنها، لا ينكر عليه في الظاهر بل ينصح سراً. وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى: (وأما الصلاة خلف أهل الأهواء والبدع، وخلف أهل الفجور، ففيه نزاع مشهور وتفصيل ليس هذا موضع بسطه.

ولكن أوسط الأقوال في هؤلاء أن تقديم الواحد من هؤلاء في الإمامة، لا يجوز مع القدرة على غيره، فإن من كان مظهرًا للفجور أو البدع يجب الإنكار عليه ونهيه عن ذلك، وأقل مراتب الإنكار هجره لينتهي عن فجوره وبذعته، ولهذا فرق جمهور الأئمة بين الداعية وغير الداعية، فإن الداعية أظهر المنكر فاستحق الإنكار عليه، بخلاف الساكت فإنه بمنزلة من أسر بالذنوب، فهذا لا ينكر عليه في الظاهر، فإن الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، ولكن إذا أعلن فلم تنكر ضرت العامة، ولهذا كان المنافقون تقبل منهم علانيتهم، وتوكل سرائرهم إلى الله تعالى بخلاف من أظهر الكفر).

• وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى:

فإذا كان داعية -أي إلى البدع- منع من ولايته وإمامته وشهادته وروايته لما في ذلك من النهي عن المنكر لا لأجل فساد الصلاة أو اتهامه في شهادته وروايته فإذا أمكن لإنسان ألا يقدم مظهرًا للمنكر في الإمامة وجب ذلك. لكن إذا ولاه غيره ولم يمكنه صرفه عن الإمامة أو كان هو لا يتمكن من صرفه إلا بشر أعظم ضرراً من ضرر ما أظهره من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ولا دفع أخف الضررين بتحصيل أعظم الضررين فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان. ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعاً ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً. فإذا لم يمكن منع المظهر للبدعة والفجور إلا بضرر زائد على ضرر إمامته لم يجز ذلك بل يصلى خلفه ما لا يمكنه فعلها إلا خلفه كالجمع والأعياد والجماعة. إذا لم يكن هناك إمام غيره ولهذا كان الصحابة يصلون خلف الحجاج والمختار بن أبي عبيد الثقفي وغيرهما الجمعة والجماعة فإن تفويت الجمعة والجماعة أعظم فساداً من الاقتداء فيهما بإمام فاجر لا سيما إذا كان التخلف عنهما لا يدفع فجوره فيبقى ترك المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة.

ولهذا كان التاركون للجمعة والجماعات خلف أئمة الجور مطلقا معدودين عند السلف والأئمة من أهل البدع .
وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر فهو أولى من فعلها خلف الفاجر . وحينئذ فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر فهو موضع اجتهاد للعلماء . منهم من قال : أنه يعيد لأنه فعل ما لا يشرع بحيث ترك ما يجب عليه من الإنكار بصلاته خلف هذا فكانت صلاته خلفه منهيًا عنها فيعيدها . ومنهم من قال : لا يعيد . قال : لأن الصلاة في نفسها صحيحة وما ذكر من ترك الإنكار هو أمر منفصل عن الصلاة وهو يشبه البيع بعد نداء الجمعة . وأما إذا لم يمكنه الصلاة إلا خلفه كالجمعة فهذا لا تعاد الصلاة وإعادتها من فعل أهل البدع وقد ظن طائفة من الفقهاء أنه إذا قيل : إن الصلاة خلف الفاسق لا تصح أعيدت الجمعة خلفه وإلا لم تعد وليس كذلك . بل النزاع في الإعادة حيث ينهى الرجل عن الصلاة . فأما إذا أمر بالصلاة خلفه فالصحيح هنا أنه لا إعادة عليه لما تقدم من أن العبد لم يؤمر بالصلاة مرتين .

• وأما الصلاة خلف من يكفر ببدعته من أهل الأهواء فهناك قد تنازعوا في نفس صلاة الجمعة خلفه . ومن قال إنه يكفر أمر بالإعادة لأنها صلاة خلف كافر . مجموع الفتاوى لابن تيمية - ٢٣ / ٣٤٣ - ٣٤٥
ولو علم المأموم أن الإمام مبتدع يدعو إلى بدعته أو فاسق ظاهر الفسق وهو الإمام الراتب الذي لا تمكن الصلاة إلا خلفه كإمام الجمعة والعيدين والإمام في صلاة الحج بعرفة ونحو ذلك . فإن المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف وهو مذهب أحمد والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم . ولهذا قالوا في العقائد : إنه يصلي الجمعة والعيد خلف كل إمام برا كان أو فاجرا وكذلك إذا لم يكن في القرية إلا إمام واحد فإنها تصلى خلفه الجماعات فإن الصلاة في جماعة خير من صلاة الرجل وحده وإن كان الإمام فاسقا . هذا مذهب جماهير العلماء : أحمد بن حنبل والشافعي وغيرهما بل الجماعة واجبة على الأعيان في ظاهر مذهب أحمد .
ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند الإمام أحمد .

وغيره من أئمة السنة . كما ذكره في رسالة عبدوس وابن مالك والطار . والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها فإن الصحابة كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون كما كان ابن عمر يصلي خلف الحجاج وابن مسعود وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة وكان يشرب الخمر حتى أنه صلى بهم مرة الصبح أربعاً ثم قال : أزيدكم؟ فقال ابن مسعود : ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة ولهذا رفعوه إلى عثمان . وفي صحيح البخاري (أن عثمان رضي الله عنه لما حصر صلى بالناس شخص فسأل سائل عثمان . فقال : إنك إمام عامة وهذا الذي يصلي بالناس إمام فتنة . فقال : يا ابن أخي إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس فإذا أحسنوا فأحسن معهم وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم) . ومثل هذا كثير . والفاسق والمبتدع صلاته في نفسه صحيحة فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ومن ذلك أن من أظهر بدعة أو فجورا لا يرتب إماما للمسلمين فإنه يستحق التعزير حتى يتوب فإذا أمكن هجره حتى يتوب كان حسنا وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي

الناس عن مثل ذنبه. فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان فيه مصلحة ولم يفت المأموم جمعة ولا جماعة. وأما إذا كان ترك الصلاة يفوت المأموم الجمعة والجماعة فهذا لا يترك الصلاة خلفهم إلا مبتدع مخالف للصحابة رضي الله عنهم. وكذلك إذا كان الإمام قد رتبته ولاية الأمور ولم يكن في ترك الصلاة خلفه مصلحة فهذا ليس عليه ترك الصلاة خلفه بل الصلاة خلف الإمام الأفضل أفضل وهذا كله يكون فيمن ظهر منه فسق أو بدعة تظهر مخالفتها للكتاب والسنة كبدعة الرافضة والجهمية ونحوهم. مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٣ / ٣٥٢ - ٣٥٥

ثانيا: الصلاة خلف المستور

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يصلون الجمع والأعياد والجماعات لا يدعون الجمعة والجماعة كما فعل أهل البدع من الرافضة وغيرهم فإن كان الإمام مستورا لم يظهر منه بدعة ولا فجور صلى خلفه الجمعة والجماعة باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين ولم يقل أحد من الأئمة إنه لا تجوز الصلاة إلا خلف من علم باطن أمره بل ما زال المسلمون من بعد نبيهم يصلون خلف المسلم المستور ولكن إذا ظهر من المصلي بدعة أو فجور وأمكن الصلاة خلف من يعلم أنه مبتدع أو فاسق مع إمكان الصلاة خلف غيره فأكثر أهل العلم يصححون صلاة المأموم وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وهو أحد القولين في مذهب مالك وأحمد. وأما إذا لم يمكن الصلاة إلا خلف المبتدع أو الفاجر كالجمعة التي إمامها مبتدع أو فاجر وليس هناك جمعة أخرى فهذه تصلى خلف المبتدع والفاجر عند عامة أهل السنة والجماعة. وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة أهل السنة بلا خلاف عندهم. وكان بعض الناس إذا كثرت الأهواء يحب أن لا يصلي إلا خلف من يعرفه على سبيل الاستحباب كما نقل ذلك عن أحمد أنه ذكر ذلك لمن سأله. ولم يقل أحمد إنه لا تصح إلا خلف من أعرف حاله.

ولما قدم أبو عمرو عثمان بن مرزوق إلى ديار مصر وكان ملوكها في ذلك الزمان مظهرين للتشيع وكانوا باطنية ملاحدة وكان بسبب ذلك قد كثرت البدع وظهرت بالديار المصرية - أمر أصحابه أن لا يصلوا إلا خلف من يعرفونه لأجل ذلك ثم بعد موته فتحها ملوك السنة مثل صلاح الدين وظهرت فيها كلمة السنة المخالفة للرافضة ثم صار العلم والسنة يكثر بها ويظهر. فالصلاة خلف المستور جائزة باتفاق علماء المسلمين ومن قال إن الصلاة محرمة أو باطلة خلف من لا يعرف حاله فقد خالف إجماع أهل السنة والجماعة ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يصلون خلف من يعرفون فجوره كما صلى عبد الله بن مسعود وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان قد يشرب الخمر وصلى مرة الصبح أربعاً وجلده عثمان بن عفان على ذلك . وكان عبد الله بن عمر وغيره من الصحابة يصلون خلف الحجاج بن يوسف . وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف ابن أبي عبيد وكان متهماً بالإلحاد وداعياً إلى الضلال. مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣ - ٢٨٠ / ٢٨١ -

وهم يرون مثل ذا الجهادا	وان يكن عن الهدى قد حادا
فليس شرطاً عصمة الامير	فذا محال ليس باليسير ^(١)

وقال: ويجوز للرجل أن يصلي الصلوات الخمس والجمعة وغير ذلك خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين. وليس من شرط الانتماء أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ولا أن يمتحنه فيقول: ماذا تعتقد؟ بل يصلي خلف مستور الحال. مجموع الفتاوى لابن تيمية - ٢٣ / ٣٥١

^١ - عند أهل السنة والجماعة، الأصل هو وجوب طاعة الحاكم المسلم وإن كان ظالمًا أو فاسقًا، ويحرم الخروج عليه بالسيف. ومع ذلك، فإنهم يرون وجوب الجهاد والقتال تحت رايته لدفع العدو الخارجي، لأن الجهاد مع الحاكم الظالم جائز ومحقق للمصلحة العامة، ودرء المفساد مقدم على جلب المصالح. [٢] فيرى علماء أهل السنة أن الجهاد ماضٍ مع كل إمام، برًّا كان أو فاجرًا. والمقصود بذلك قتال الكفار والدفاع عن الأمة، فطاعة الحاكم واجبة في طاعة الله، والقتال تحت قيادته يحفظ بيضة الإسلام (كيان الأمة) ويدفع شر الأعداء عن الديار. يحرم أهل السنة الخروج المسلح على الحاكم الظالم أو شق عصا الطاعة؛ لقول النبي محمد ﷺ: "تسمع وتطيع للأمر، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك" (رواه مسلم). والسبب في ذلك هو حقن دماء المسلمين، وتجنب الفوضى والفتن التي يستغلها الأعداء، حيث أثبت التاريخ أن الخروج على الحاكم يجر دمارا. قال السعدي في اعلام السنة: "الواجب لهم النصيحة بموالاتهم على الحق وطاعتهم فيه، وأمرهم به وتذكيرهم برفق، والصلاة خلفهم والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، والصبر عليهم وإن جاروا، وترك الخروج بالسيف عليهم، ما لم يظهروا كفرا بواحا، وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصلاح والتوفيق". ومن آثار السلف في ذلك ما جاء عن الإمام أحمد رحمه الله أنه كان يحث على الجهاد أيام المأمون والمعتصم في قتال بابك الخرمي.

ومن ذلك كتاب الإمام أحمد إلى علي بن المديني، ونصه: (إلى أبي الحسن علي بن عبد الله من أحمد بن محمد:

سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد:

أحسن الله إليك في الأمور كلها، وسلمك وإيانا من كل سوء برحمته، كتبت إليك وأنا ومن أعنى به في نعم من الله متظاهرة، أسأله العون على أداء شكر ذلك فإنه ولي كل نعمة، كتبت إليك -رحمك الله- في أمر لعله أن يكون قد بلغك من أمر هذا الخرمي، الذي قد ركب الإسلام بما قد ركبه به، من قتل الذرية وغير ذلك وانتهاك المحارم وسيي النساء وكلمني في الكتاب إليك بعض إخوانك، رجاء منفعة ذلك عند من يحضرك ممن له نية في النهوض

لمن ولي والعدل والفلاح^(١)

كذا الدعا يرون بالصلاح

إلى أهل أردبيل، والذب عنهم وعن حريمهم ممن ترى أنه يقبل منك، فإن رأيت -رحمك الله- لمن حضرك ممن ترى أنه يقبل منك ذلك، فإنهم على شفا هلكة وضیعة وخوف من هذا العدو المظل، كفأك الله وإيانا كل مهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) (رواه الخلال في السنة).

وعن حسين الصائغ قال: لما كان من أمر بابك جعل أبو عبد الله يحرض على الخروج إليه وكتب معي كتاباً إلى أبي الوليد والي البصرة يحرضهم على الخروج إلى بابك. (رواه الخلال في السنة).

فظهر أن ارتكاب الحاكم للبدعة لا يكون سبباً للتخاذل عنه وعدم نصرته والجهاد معه، لأن في ذلك خذلاناً للمسلمين وقد يكون سبباً لنصر أعداء الله عليهم خاصة إن كانوا في مواجهة الكفار.

لكن ينبه هنا على أن الجهاد أو القتال الذي لا يترك مع الخليفة المبتدع هو الجهاد الشرعي الذي نص أهل العلم على أنه جهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، ويدخل في ذلك قتال الخوارج والبغاة مع الإمام، أما القتال في الفتنة فإن هذا مما يحرم متابعة الإمام فيه، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. (ضوابط معاملة الحاكم عند أهل السنة والجماعة وأثرها على الأمة لخالد ضحوي الظفيري).

^١ - يعتقد أهل السنة والجماعة أن الدعاء لولي الأمر (الحاكم) بالهداية والصلاح والتوفيق من أهم القربات

وأعظم الطاعات؛ لأن في صلاحه صلاحاً للعباد والبلاد. ويرون أن الدعاء له، سواء كان عادلاً أو ظالماً، من مقتضيات النصيحة الصادقة ومنهج السلف الصالح

إن من موجب النصيحة لأئمة المسلمين: الدعاء لهم بالصلاح، وعلى هذا درج أئمة السلف في أقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم.

قال الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله: (مَنْ قَالَ: الصَّلَاةُ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، وَالْجِهَادُ مَعَ كُلِّ خَلِيفَةٍ، وَلَمْ يَرْخُجْ عَلَى السُّلْطَانِ بِالسَّيْفِ، وَدَعَا لَهُمْ بِالصَّلَاحِ، فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَوْلِ الْخَوَارِجِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ. (شرح السنة للبرهاري)

وقال الإمام ابن بطة العكبري رحمه الله في الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة: (ونحن الآن ذاكرون شرح السنة ووصفها، وما هي في نفسها، وما الذي إذا تمسك به العبد ودان الله به سمي بها، واستحق الدخول في جملة أهلها، وما إن خالفه أو شيئاً منه، دخل في جملة من عباه وذكرناه وحذرنا منه من أهل البدع والزيف، مما أجمع على شرحنا له أهل الإسلام، وسائر الأئمة، منذ بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا... وقد اجتمعت العلماء من أهل الفقه والعلم والنسك والعباد والزهاد، من أول هذه الأمة إلى وقتنا هذا: أن صلاة الجمعة والعيد، ومنى وعرفات، والغزو والجهاد والهدي مع كل أمير بر وفاجر... والسمع والطاعة لمن ولوه وإن كان

عبدًا حَشِيًّا، إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَيْسَ لِمَخْلُوقٍ فِيهَا طَاعَةٌ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ اعْتِقَادُ الدِّيَانَةِ بِالنَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ وَسَائِرِ الْأُمَّةِ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا، وَمَحَبَّةُ الْخَيْرِ لِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، تُحِبُّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ.

- وقال الإمام إسماعيل الصابوني رحمه الله في عقيدة السلف وأصحاب الحديث: (ويرى أصحاب الحديث: الجمعة، والعيد، وغيرهما من الصلوات، خلف كلِّ إمام مسلم، برًّا كان أو فاجرًا، ويرون جهاد الكفرة معهم وإن كانوا جورًا فجورًا، ويرون الدُّعاء لهم بالإصلاح والتوفيق والصالح.
- ولا يرون الخروج عليهم بالسيف، وإن رأوا منهم العُدول عن العدل إلى الجور والحيث
- وقال البربهاري رحمه الله في شرح السنة للبرهاري: (إذا رأيتَ الرَّجُلَ يدعوا على السلطان، فاعلم أنه صاحب هوى، وإذا رأيتَ الرَّجُلَ يدعو للسلطان بالصالح، فاعلم أنه صاحبُ سُنَّةٍ إن شاء الله تعالى).

يقول فضيل بن عياض: «لو كانت لي دعوة ما جعلتها إلا في السلطان»... قيل له: يا أبا عليٍّ: فسِّر لنا هذا؟.

قال: إذا جعلتها في نفسي لم تَعُدْني، وإذا جعلتها في السلطان صَلُحَ، فَصَلَحَ بِصَلَاحه العباد والبلاد.» فأمرنا أن ندعو لهم بالصالح، ولم نُؤمر أن ندعو عليهم وإن ظلموا وإن جاروا، لأن ظلمهم وجورهم على أنفسهم، وصالحهم لأنفسهم وللمسلمين".

- وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله مُعَلِّقًا على قول الفضيل بن عياض رحمه الله: (يا مُعَلِّمَ الْخَيْرِ مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَى هَذَا غَيْرِكَ) (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة).

وقال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: (ولا نرى الخروجَ على أئمتنا وولاةِ أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزعُ يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عزَّ وجلَّ فريضةً ما لم يأمرُوا بمعصيةٍ، وندعو لهم بالصالح والمعافاة) (شرح العقيدة الطحاوية).

- وقال الخلال رحمه الله في كتاب السنة: (أخبرنا أبو بكر المروذي قال: سمعتُ أبا عبد الله وذكرَ الخليفة المتوكل رحمه الله فقال: إني لأدعو له بالصالح والعافية، وقال: لَإِنْ حَدَّثَ بِهِ حَدَّثٌ لَتَنْظُرَنَّ مَا يَحِلُّ بِالْإِسْلَامِ.
- وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: (واني لأرى طاعةَ أميرِ المؤمنين في السرِّ والعَلَانِيَةِ، وفي عُسْرِي وَيُسْرِي، وَمَنْشَطِي وَمَكْرَهِي، وَأَثَرِي عَلَيَّ، واني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار. (البداية والنهاية).
- وقال البيهقي رحمه الله في شعب الإيمان: (قال أبو عثمان رحمه الله: فانصح للسلطان، وأكثر له من الدُّعاء بالصالح والرِّشَاد، بالقول والعمل والحكم، فإنهم إذا صلحوا صلح العباد بصالحهم، وإياك أن تدعو عليهم باللعنة، فيزدادوا شرًّا، ويزداد البلاء على المسلمين، ولكن ادع لهم بالتوبة، فيتركوا الشرَّ، فيرتفع البلاء عن المؤمنين".

- وقال أبو عمر بن الصلاح رحمه الله في صيانة صحيح مسلم : (والنصيحة لأئمة المسلمين: أي لخلفائهم وقادتهم: معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وتنبههم وتذكيرهم في رفق ولطف، ومجانبة الخروج عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق، وحث الأغيار على ذلك".
 - وقال النووي عن حكم الدعاء لولاة أمور المسلمين في خطبة الجمعة في المجموع شرح المذهب: (الدعاء لأئمة المسلمين وولاة أمورهم بالصلاح والإعانة على الحق والقيام بالعدل ونحو ذلك، ولجيش الإسلام، فمستحب بالاتفاق".
 - وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في السياسة الشرعية: (ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وسهل بن عبد الله التستري، وغيرهم، يُعظَّمون قدرَ نعمة الله به - أي بالسلطان - ويرون الدعاء له ومناصحته من أعظم ما يتقربون به إلى الله تعالى، مع عدم الطمع في ماله وراثته، ولا لخشيته منه، ولا لمعاونته على الإثم والعدوان".
 - وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في الرياض الناضرة: (وأما النصيحة لأئمة المسلمين، وهم ولاتهم من السلطان الأعظم إلى الأمير، إلى القاضي، إلى جميع من لهم ولاية صغيرة أو كبيرة، فهؤلاء لَمَّا كانت مُهمَّاتهم وواجباتهم أعظم من غيرهم، وَجَبَ لهم من النصيحة بحسب مراتبهم ومقاماتهم، وذلك باعتقاد إمامتهم، والاعتراف بولايتهم، ووجوب طاعتهم بالمعروف، وعدم الخروج عليهم، وحث الرعية على طاعتهم، ولزوم أمرهم الذي لا يُخالف أمر الله ورسوله، وبذل ما يستطيع الإنسان من نصيحتهم، وتوضيح ما خفي عليهم مما يحتاجون إليه في رعايتهم، كلُّ أحد بحسب حاله، والدعاء لهم بالصلاح والتوفيق، فإن صلاحهم صلاح لرعايتهم، واجتناب سبهم والقدرح فيهم وإشاعة مثالبهم، فإن في ذلك شرّاً وضراً وفساداً كبيراً، فمن نصيحتهم الحذر والتحذير من ذلك، وعلى من رأى منهم ما لا يحلّ أن يُنبِّههم سرّاً لا علناً، بلطف، وعبرة تليق بالمقام، ويحصل بها المقصود، فإن هذا مطلوبٌ في حقِّ كلِّ أحد، وبالأخص ولاة الأمور، فإن تنبيههم على هذا الوجه فيه خيرٌ كثير، وذلك علامة الصدق والإخلاص، واحذر أيها الناصح لهم على هذا الوجه المحمود أن تُفسد نصيحتك بالتمدح عند الناس فتقول لهم: إني نصحتهم، وقلتُ، وقلتُ، فإن هذا عنوان الرِّياء، وعلامة ضعف الإخلاص، وفيه أضرار أخرى معروفة".
 - وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: (يقولُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: « الدِّينُ النصيحة، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامَّتْهم » أخرجه مسلمٌ في صحيحه، فعليك بالنصيحة لهذه الجهات الخمس:
- لله: بتوحيده، والإخلاص له، وطاعة أوامره، وترك نواهيه، وتحكيم كتابه.
- وللرسول صلى الله عليه وسلم: بطاعته، واتباعه.
- وللقرآن العظيم: بتحكيمة واتباعه، والإيمان بأنه كلامُ الله حقّاً، وليس بمخلوق.

والنصيحة لولاة الأمور: بتوجيههم إلى الخير، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر بالأساليب الحسنة، وبالدعاء لهم بظهر الغيب أن الله يُوفِّقهم، تدعو لولاة الأمور: اللهم وفِّقهم، اللهم اهدهم سواء السبيل، اللهم اهدهم للحق، اللهم أعنهم على تنفيذه، في أيِّ مكان، حتى ولو كنت في بلادٍ كافرة، تدعو الله بأن يهديهم للحق، كما قال بعض الناس: « يا رسولَ الله، إن دوساً كَفَرَتْ واعتدت، قال: اللهم اهدِ دوساً وأتِ بهم»، فهداهم الله وجاءوا وأسلموا، تدعو الله لأميرك في بلدك تقول: اللهم اهد، اللهم أصلح قلبه وعمله، اللهم اهد للحق، اللهم أعنه على تنفيذ الحق، اللهم وفِّقه لما يُرضيك، اللهم اكف المسلمين شرّاً، اللهم اهد للصواب". (مجلة البحوث).

وقال أيضاً في مجموع فتاويه : (ومن النصيحة لله ولعباده: الدُّعاء لولاة أمور المسلمين وحُكَّامهم بالتوفيق والهداية والصلاح في النية والعمل، وأن يمنحهم الله البطانة الصالحة، التي تُعينهم على الخير، وتُدِّرهم به. وهذا حقٌّ على كُلِّ مسلمٍ في كُلِّ مكانٍ، في هذه البلاد وفي غيرها، الدُّعوة لولاة الأمر بالتوفيق والهداية، وحُسن الاستقامة، وصلاح البطانة، وأن يُعينهم الله على كُلِّ خيرٍ، وأن يُسدِّدَ خطاهم ويمنحهم التوفيق لما فيه صلاح العباد والبلاد، فكلُّ مسلمٍ يدعو لولاة أمور المسلمين بأن يُصلحهم الله وأن يَرُدَّهُم للصواب، وأن يهديهم لما يُرضيه سبحانه، هكذا يجبُ عليك يا عبد الله أن تدعو لولاة الأمور، بأن يهديهم الله ويَرُدَّهُم للصواب، إذا كانوا على غير الهدى، تدعو الله لهم بالهداية والصلاح، حتى يستقيموا على أمر الله، وحتى يُحكِّموا شريعة الله، ففي تحكيم شريعة الله صلاح الجميع في كُلِّ مكان، وفي تحكيم شريعة الله، واتباع كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، صلاح الدنيا والآخرة، لأن الله إذا عَرَفَ من عبده نيةً صالحة وعزيمة صادقة، سدَّدَ رأيه وأعانته على كُلِّ عملٍ يُرضيه، في أيِّ مكان، لأن في اتباع الشريعة، وتعظيم أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم صلاح أمر الدنيا والآخرة.

فكلُّ مسلمٍ في دولته عليه أن يسأل الله لها التوفيق والهداية، وينصح لها، ويُعينها على الخير، ويسأل الله لها التوفيق والساد، ولا يسأم ولا يضعف عليه أن يستعمل الحكمة والأسلوب الحسن، والكلام الطيب، لعلَّ الله يجعله مباركاً في دعوته ونصيحته، فيكون سبباً لهداية مَنْ أراد الله له الهداية، من أميرٍ أو حاكمٍ أو غيرهما، ممن له شأنٌ في الأمة، لأن هداية المسئول وهداية مَنْ له شأنٌ في الأمة، ينفعُ الله بها العباد والبلاد، ويقتدي به الكثير من الأمة".

• وقال الشيخ محمد العثيمين رحمه الله في التعليق على السياسة الشرعية: (إذا وجدت من ولاة الأمور شيئاً مُخالفاً، فادعُ الله لهم، لأن بصلاحهم صلاح الأمة.

لكن تسمع بعض السفهاء، إذا قلنا: الله يُصلح ولاة الأمور، الله يهديهم، قال: الله لا يصلحهم. سبحان الله العظيم!

إذا لم يُصلحهم الله فهو أردى لك!

ادعُ الله لهم بالهداية والصلاح، والله على كُلِّ شيءٍ قدير".

وان رأوا لنفسه إشارا	ويصبرون ان امام جارا

• وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: (من أصول أهل السنة والجماعة: وجوب طاعة ولادة أمور المسلمين، ما لم يأمرُوا بمعصية، فإذا أمرُوا بمعصية فلا تجوز طاعتهم فيها، وتبقى طاعتهم بالمعروف في غيرها.. ويرون الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، والدُّعاء لهم بالصالح والاستقامة، ومناصحتهم". (مجلة البحوث).

وذكر في الملخص الفقهي أن مما يُشرع للخطيب يوم الجمعة: (أن يدعو للمسلمين بما فيه صلاح دينهم ودنياهم، ويدعو لإمام المسلمين وولادة أمورهم بالصالح والتوفيق، وكان الدُّعاء لولادة الأمور في الخطبة معروفاً عند المسلمين، وعليه عملهم؛ لأن الدُّعاء لولادة أمور المسلمين بالتوفيق والصالح من منهج أهل السنة والجماعة، وتركه من منهج المبتدعة، قال الإمام أحمد: «لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها للسلطان»، لأن في صلاحه صلاح المسلمين.

وقد تركت هذه السنة حتى صار الناس يستغربون الدُّعاء لولادة الأمور، ويُسيئون الظن بمن يفعله".

وقال الشيخ عبد الرحمن البراك حفظه الله في شرح العقيدة الطحاوية: (الدُّعاء لهم بالصالح، هذا مُوجب النصيحة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الدِّين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم». »

والنصيحة أن تدعو لهم بالصالح، اللهم أصلحهم، اللهم أصلح بطانتهم، اللهم اهدهم صراطك المستقيم، ادع لهم لعل الله يُصلح حالهم، لكن جرت عادة الناس أنهم لا يلتزمون بهذا المنهج.. فأهل العلم والإيمان والصالح والتجرد عن الهوى وإيثار الدنيا، يُحبُّون الخير لإخوانهم المسلمين، ولا سيما ولادة الأمر، سواء أعطوهم من الدنيا أم لم يعطوهم، وفي الحديث الصحيح: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يُزكِّيهم، ولهم عذابٌ أليم - وذكر منهم -...: ورجلٌ بايع إماماً لا يُبايعه إلاّ لدنيا، فإن أعطاه منها وفى، وإن لم يعطه منا لم يف». »

فهو دائرٌ مع الدنيا، وهذا واقعٌ، فأكثرُ الناس إنما يُنكرون على الولاية أمر الدنيا لا أمر الدين، فلا ينقمون تقصيرهم في حقوق الله، إنما نقمتهم الأثرة، ويطلبون منافستهم في الدنيا، ولهذا أوصى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه الأنصار فقال: «إنكم ستلقون بعدي أثره، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». »

وقوله صلى الله عليه وسلم: «أثرة»: استبداد بالولايات وبالمال.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «فاصبروا»: أي: لا تنازعوا ولادة الأمر من أجل ذلك.

ويكثر الخروج على الولاية من أجل المنازعة على السلطة باسم الإصلاح الديني أيضاً، فينتج عنه شرٌّ مستطيرٌ على الناس، فتُسفك الدماء، وتنتهك الحُرُمات، وتذهب الأموال، وينتشر الفساد، خصوصاً إذا لم يكن هناك استقرار في الأمر فتعمُّ الفوضى، ويتمكّن كلُّ مجرمٍ من بلوغ مرامه، واقتراف إجرامه".

ولم يروا في فتنة ولوجا^(١)

ولا يرون ان بغى الخروجا^(١)

^١ - إن الصبر على جور وظلم الحكام ، وعدم الخروج عليهم ومنازعتهم ، أمر وردت النصوص الشرعية به ، ومن ذلك :

*عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فإنه من فارق الجمعة شبراً فمات فميتة جاهلية) .

*وفي رواية : (من كره من أميره شيئاً ، فليصبر عليه ، فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً ، فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية) .

*وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تكرهونها) . قالوا : يا رسول الله ! فما تأمرنا ؟

قال : (تؤدون الحق الذي عليكم ، وتسالون الله الذي لكم) .

و(الأثرة) هي : الإنفراد بالشيء عمن له فيه حق.

♦ قال النووي في شرح هذا الحديث : ” فيه الحث على السمع والطاعة وإن كان المتولي ظالماً عسواً ، فيُعْطَى حَقُّهُ من الطاعة ، ولا يُخْرَج عليه ، ولا يُخْلَع ، بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه ، ودفع شره ، وإصلاحه . ”

♦ قال ابن حجر العسقلاني (رحمه الله) : قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ) : أي بذل المال الواجب في الزكاة والنفس في الخروج إلى الجهاد عند التعيين ونحو ذلك . وقوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (وَسَلُّوا اللَّهَ حَقَّكُمْ) أي بأن يلهمهم إنصافكم أو يبدلكم خيراً منهم . (فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ١٣ ص ٨)

♦ قال ابن بطل (رحمه الله) : في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار . (فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ١٣ ص ٩) .

♦ وقال ابن حجر العسقلاني (رحمه الله) : أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حَقْن الدماء وتسكين الدهماء وحجتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح فلا تجوز طاعته في ذلك بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها . (فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ١٣ ص ٩) .

♦ قال ابن رجب الحنبلي : (رحمه الله) : وأما الخروج على الحكام بالسيف فيخشى منه الفتن التي تؤدي إلى سفك دماء المسلمين . (جامع العلوم والحكم لابن رجب ج ٣ ص ٩٥٥) .

♦ وقال الشيخ العثيمين : ”أما حديث عبد الله بن مسعود فأخبر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنها ستكون بعدي أثرة والأثرة يعني الاستئثار عمن له فيه حق.

يريد بذلك أنه يستولي على المسلمين ولاية يستأثرون بأموال المسلمين يصرفونها كما شاءوا ويمنعون المسلمين حقهم فيها.

وهذه أثره وظلم من الولاية أن يستأثروا بالأموال التي للمسلمين فيها الحق ويستأثروا بها لأنفسهم عن المسلمين ولكن قالوا ما تأمرنا ؟ قال تؤدون الحق الذي عليكم يعني لا يمنعكم استئثارهم بالمال عليكم أن تمنعوا ما يجب عليكم نحوهم من السمع والطاعة وعدم الإثارة.... بل اصبروا واسمعوا وأطيعوا ولا تنازعوهم الأمر الذي أعطاهم الله وتسالون الله الذي لكم أي اسألوا الحق الذي لكم من الله . أي اسألوا الله أن يهديهم حتى يؤدوكم الحق الذي عليهم لكم. "...

وقال أيضاً : "فأرشدته النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن يصبروا على ما سيرونه من الأثرة فإن صبرهم على ظلم الولاية من أسباب الورود على الحوض والشرب منه.

إذا في هذين الحديثين حث على الصبر على استئثار ولاية الأمور في حقوق الرعية ولكن يجب أن نعلم أن الناس كما يكونون يولى عليهم . إذا أساءوا فيما بينهم وبين الله فإن الله يسلط عليهم ولاتهم كما قال تعالى : (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) فإذا صلحت الرعية يسر الله لهم ولاية صالحين وإذا كانوا بالعكس كان الأمر بالعكس ويذكر أن رجلاً من الخوارج جاء إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال له يا علي ما بال الناس انتقدوا عليك ولم ينتقدوا على أبي بكر وعمر ؟ فقال له إن رجال أبي بكر وعمر كنت أنا وأمثالي أما رجالي فكنت أنت وأمثالك. "

"ويذكر أن أحد ملوك بني أمية سمع أن أناسا يتكلمون فيه وفي خلافته فجمع أشراف الناس ووجهائهم وتكلم فيهم وقال لهم إنكم تريدون منا أن نكون مثل أبي بكر وعمر قالوا نعم أنت خليفة وهم خلفاء قال كونوا أنتم مثل رجال أبي بكر وعمر نحن مثل أبي بكر وعمر وهذا جواب عظيم فالناس إذا تغيروا لا بد أن يغير الله ولاتهم كما تكونون يولى عليكم أما أن يريد الناس من الولاية أن يكونوا مثل الخلفاء وهم أبعد ما يكونون عن رجال الخلفاء هذا غير صحيح."

*وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : (بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم - عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَعَلَى (أَثَرَةٍ عَلَيْنَا) وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ).

*وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام : « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ فَاسْمَعْ وَأَطِع. »

قال الحسن البصري : "اعلم - عافاك الله - أن جور الملوك نقمة من نعم الله تعالى ، ونقم الله لا تلاقي بالسيوف وإنما تتقى وتستدفع بالدعاء والتوبة والإنابة والإقلاع عن الذنوب ، إن نعم الله متى لقيت بالسيف كانت هي أقطع".

ذكر الإمام أبو بكر الخلال في كتابه السنة عن أبي الحارث أنه حدثهم وقال : ” سألت أبا عبد الله في أمر كان حدث ببغداد وهم قوم بالخروج فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم ؟ فأنكر ذلك عليهم وجعل يقول سبحان الله الدماء ، الدماء ، لا أرى ذلك ولا أمر به ، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء ويستباح فيها الأموال وينتهك فيها المحارم“

♦ قال ابن تيمية : ”وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير“ وسرد جملة من الأحداث وعددها مما يوضح ما قال.

وقال ابن القيم : ”نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتال الأمراء والخروج على الأئمة- وإن ظلموا أو جاروا- ما أقاموا الصلاة، سدا لذريعة الفساد العظيم والشر الكثير بقتالهم كما هو الواقع، فإنه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم أضعاف ما هم عليه، والأمة في بقايا تلك الشرور إلى الآن“

♦ قال ابن أبي العز الحنفي : ”وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا ، لأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم ، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ، ومضاعفة الأجور ، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا ، و الجزاء من جنس العمل . فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل . قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وقال تعالى : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) وقال تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقال تعالى (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فليتركوا الظلم“ أ.هـ

♦ وقال المعلمي : ”وقد جرب المسلمون الخروج فلم يروا منه إلا الشر“

روى مسلمٌ عَنْ عُرْفَجَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ (فتنٌ وشدائدٌ وأُمُورٌ عِظَامٌ) وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَانِئًا مَنْ كَانَ“.

♦ قال الإمام النووي (رحمه الله) : قوله صلى الله عليه وسلم (فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَانِئًا مَنْ كَانَ). فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام أو أراد تفريق كلمة المسلمين ونحو ذلك، ويُنهى عن ذلك، فإن لم ينته قُوتل، وإن لم يندفع شره إلا بقتله قُتِلَ. (مسلم بشرح النووي ج٦ ص٤٨٤). وروى مسلمٌ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنَكِرُونَ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ (أَيُّ مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ وَأَنْكَرَ بِقَلْبِهِ وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: لَا مَا صَلَّوْا.

♦ قال الإمام النووي (رحمه الله) : قوله (أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: لَا مَا صَلَّوْا) فيه أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم أو الفسق ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام. (مسلم بشرح النووي ج٦ ص٤٨٦).

وروى مسلم عن عوف بن مالك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم. قيل يا رسول الله أفلا ننبذهم بالسيف فقال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة. وإذا رأيتم من ولايتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة.

وروى الشيخان عن حذيفة بن اليمان قال: كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله إننا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر قال نعم قلت وهل بعد ذلك الشر من خير قال نعم وفيه دخن قلت وما دخنه قال: قوم يهدون بغير هدي تعرف منهم وتنكر قلت فهل بعد ذلك الخير من شر قال نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت يا رسول الله صفهم لنا قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا قلت فما تأمري إن أدركني ذلك قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.

♦ قال الإمام النووي (رحمه الله): قوله (دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها) قال العلماء: هؤلاء من كان من الأمراء يدعو إلى بدعة أو ضلال آخر كالخوارج والقرامطة وأصحاب المحنة. وفي حديث حذيفة هذا لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي من أخذ الأموال وغير ذلك فتجب طاعته في غير معصية. (مسلم بشرح النووي ج ٦ ص ٤٨٢).

♦ قال ابن حجر العسقلاني (رحمه الله): قوله -صلى الله عليه وسلم- (تعص بأصل شجرة) كناية عن لزوم جماعة المسلمين وطاعة سلاطينهم ولو عصوا. (فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ١٣ ص ٤٠).

♦ قال البيضاوي (رحمه الله): قوله (فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعص بأصل شجرة) المعنى إذا لم يكن في الأرض خليفة فعليك بالعزلة والصبر على تحمل شدة الزمان، وعص أصل الشجرة كناية عن مكابدة المشقة. (فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ١٣ ص ٤٠).

وروى الشيخان عن عبادة بن الصامت قال: دعانا النبي -صلى الله عليه وسلم- فبايعناه فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً (ظاهراً) عندكم من الله فيه برهان.

*فائدة هامة: عندكم من الله فيه برهان: أي نص آية من القرآن، أو حديث صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يحتمل التأويل.

أقوال علماء أهل السنة والجماعة

• قال الإمام النووي (رحمه الله): لا تنازعوا ولاية الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيث ما كنتم وأما الخروج عليهم

وقتلهم فحرّامٌ بإجماع المسلمين ، وإن كانوا فسقة ظالمين ، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته وأجمع أهل السُّنة أنه لا ينعزل السلطان . قال العلماء وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين ، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقاءه . (مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٢٩) .

• وقال القاضي عياض (رحمه الله) : (وفاته : ٥٤٤ هـ) قال جماهيرُ أهل السُّنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: لا ينعزل السلطان بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ولا يخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك بل يجب وعظه وتخويله للأحاديث الواردة (مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٢٩) .

• روى ابنُ سعد عن أبي التياح قال: كان الحسن البصري ينهى عن الخروج على الحجاج بن يوسف الثقفي ويأمر بالكف عنه . (الطبقات الكبير لابن سعد ج ٧ ص: ١٦٤) .

وروى ابنُ سعد عن عمرو بن يزيد العبدي قال: سمعت الحسن البصري يقول: لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا، ما لبثوا أن يُفَرَّجَ عنهم، ولكنهم يجزعون إلى السيف فيؤكّلونَ إليه فوالله ما جاؤوا بيوم خير قط . (الطبقات الكبير لابن سعد ج ٧ ص: ١٦٤: ١٦٥) .

• قال الإمام: علي بن المديني (رحمه الله) : (شيخ البخاري)

السمع والطاعة للأئمة وأمرء المؤمنين، البر والفاجر ومن ولي الخلافة بإجماع الناس ورضاهم، لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ليلة إلا وعليه إمام برأ كان أو فاجراً، فهو أمير المؤمنين، والغزو مع الأمراء ماضٍ إلى يوم القيامة البر والفاجر، لا يُترك . وقسمة الفيء وإقامة الحدود للأئمة الماضية ليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم ودفع الصدقات إليهم جائزة نافذة قد بريء من دفعها إليهم وأجزأت عنه برأ كان أو فاجراً، وصلاة الجمعة خلفه وخلف من ولاه جائزة قائمة ركعتان . من أعادها فهو مبتدع تارك للإيمان مخالف وليس له من فضل الجمعة شيء إذا لم ير الجمعة خلف الأئمة من كانوا برهم وفاجرهم . والسُّنة أن يصلوا خلفهم لا يكون في صدره حرج من ذلك . ومن خرج علي إمام من أئمة المسلمين وقد اجتمع عليه الناس فأقروا له بالخلافة بأي وجه كانت برضا أو بغلبة، فهو شاق . هذا الخارج عليه العصا وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية . ولا يحل قتال السلطان، ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن عمل ذلك، فهو مبتدعٌ، على غير السُّنة . (شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة للالكائي ج ١ ص: ١٨٨: ١٨٩) .

• وقال الخلال: أخبرني محمد بن أبي هارون ومحمد بن جعفر أن أبا الحارث حدثهم قال سألت أبا عبد الله (أحمد بن حنبل) في أمر كان حدث ببغداد وهم قوم بالخروج فقلت يا أبا عبد الله ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم فأنكر ذلك عليهم وجعل يقول: سبحان الله الدماء ، الدماء لا أرى ذلك، ولا آمر به . الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء ويستباح فيها الأموال وينتهك فيها المحارم أما علمت ما كان الناس فيه يعني أيام الفتنة قلت والناس اليوم أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله؟ قال: وإن كان فإنما هي فتنة خاصة فإذا وقع السيف

عمت الفتنة وانقطعت السبل الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك ورأيتك ينكر الخروج على الأئمة وقال الدماء لا أرى ذلك ولا آمر به. (السنة لأبي بكر الخلال ج ١ ص ١٣٢: ١٣٣ رقم ٨٩).

• وقال الخلال أخبرني علي بن عيسى قال: سمعت حنبل يقول في ولاية الواثق اجتمع فقهاء بغداد إلى أبي عبد الله (أحمد بن حنبل) أبو بكر بن عبيد وإبراهيم بن علي المطبخي وفضل بن عاصم فجاءوا إلى أبي عبد الله فاستأذنت لهم فقالوا: يا أبا عبد الله هذا الأمر قد تفاقم وفشا، يعنون إظهاره لخلق القرآن وغير ذلك، فقال لهم أبو عبد الله فما تريدون؟ قالوا: أن نشاورك في أنا لسنا نرضى بإمرته ولا سلطانه فناظرهم أبو عبد الله ساعة وقال لهم: عليكم بالنكرة بقلوبكم ولا تخلعوا يداً من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم. (السنة لأبي بكر الخلال ج ١ ص ١٣٣ رقم ٩٠).

• وقال أبو زرعة الرازي (رحمه الله): لا نُكفّر أهل القبلة بذنوبهم ونكل أسرارهم إلى الله عز و جل، ونقيم فرض الجهاد والحج مع أئمة المسلمين في كل دهر وزمان، ولا نرى الخروج على الأئمة ولا القتال في الفتنة ونسمع ونطيع لمن ولاه الله عز و جل أمرنا ولا ننزع يداً من طاعة نتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة، فإن الجهاد ماض منذ بعث الله عز و جل نبيه عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة مع أولي الأمر من أئمة المسلمين لا يبطله شيء والحج كذلك ودفع الصدقات من السوائم إلى أولي الأمر من أئمة المسلمين. (شرح أصول اعتقاد أهل السنة لللالكائي ج ١ ص ١٩٩).

• وقال الإمام سفيان الثوري (رحمه الله): الصلاة خلف كل بر وفاجر، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، والصبر تحت لواء السلطان، جار أم عدل. (شرح أصول اعتقاد أهل السنة لللالكائي ج ١ ص ١٧٣).

• وقال الإمام أبو الحسن الأشعري (رحمه الله): وأجمع علماء أهل السنة على السمع والطاعة لأئمة المسلمين وعلى أن كل من ولي شيئاً من أمورهم عن رضى أو غلبة وامتدت طاعته من بر وفاجر لا يلزم الخروج عليهم بالسيف جار أو عدل وعلى أن يغزوا معهم العدو ويحج معهم البيت وتدفع إليهم الصدقات إذا طلبوها. ويصلي خلفهم الجمع والأعياد. (رسالة إلى أهل الثغر لأبي الحسن الأشعري ص ٢٩٧: ٢٩٨).

• وقال الإمام أبو الحسن الأشعري أيضاً: عن اعتقاد أهل السنة: ويرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصالح وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف وأن لا يقاتلوا في الفتنة. (مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ج ١ ص ٢٩٥).

• وقال ابن النحاس (رحمه الله): ليس لأحد أن يمنع السلطان بالقهر باليد، ولا أن يشهر عليه سلاحاً أو يجمع له أعواناً، لأن ذلك تحريك للفتن وتهيج للشر، وإذهاب لهيبة السلطان من قلوب الرعية، وربما أدى ذلك إلى تجرئهم على الخروج عليه وتخريب البلاد. (الموازن لابن النحاس ص ٤٣).

• وقال الإمام الطحاوي (رحمه الله): لا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعوا عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز و جل فريضة ما لم يأمرنا بمعصية وندعوا لهم بالصالح والمعافاة. (شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الحنفي ج ٢ ص ١٣٢).

- وقال أبو العز الحنفي (رحمه الله): "وَأَمَّا وَلِي الْأَمْرِ فَقَدْ يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ ، فَلَا يُطَاعُ إِلَّا فِيَمَا هُوَ طَاعَةٌ لِلَّهِ ورسوله . وَأَمَّا لُزُومُ طَاعَتِهِمْ وَإِنْ جَارُوا ، فَلأنه يَتَرْتَّبُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ طَاعَتِهِمْ مِنَ الْمَفَاسِدِ أضعافُ مَا يَحْصُلُ مِنْ جَوْرِهِمْ ، بَلْ فِي الصَّبْرِ عَلَى جَوْرِهِمْ تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ وَمُضَاعَفَةُ الْأُجُورِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا سَلَطَهُمْ عَلَيْنَا إِلَّا لِفَسَادِ أَعْمَالِنَا ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَعَلَيْنَا الْاجْتِهَادُ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ وَإِصْلَاحِ الْعَمَلِ .
- قَالَ تَعَالَى : { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [الشورى: ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى : { أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } [آل عمران: ١٦٥] وَقَالَ تَعَالَى : { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } (سورة النساء: ٧٩) وقال سبحانه . (وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأنعام: ١٢٩] . فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّةُ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ظُلْمِ الْأَمِيرِ الظَّالِمِ . فَلْيَتَرَكُوا الظُّلْمَ . (شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الحنفي ج ٢ ص ١٣٥) .
- وقال ابن تيمية (رحمه الله): لَا يَجُوزُ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ بِمَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ ؛ وَلِهَذَا حَرَّمَ الْخُرُوجُ عَلَى وُلاةِ الْأَمْرِ بِالسَّيْفِ ؛ لِأَجْلِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ لِأَنَّ مَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكِ وَاجِبِ أَعْظَمَ مِمَّا يَحْصُلُ بِفِعْلِهِمُ الْمُنْكَرَ وَالذُّنُوبَ وَإِذَا كَانَ قَوْمٌ عَلَى بِدْعَةٍ أَوْ فُجُورٍ وَلَوْ نُهُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَعَ بِسَبَبِ ذَلِكَ شَرٌّ أَعْظَمَ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَلَمْ يُمَكِّنْ مِنْهُمْ مِنْهُ وَلَمْ يَحْصُلْ بِالنَّهْيِ مَصْلَحَةٌ رَاحِحَةٌ لَمْ يُنْهَوْا عَنْهُ . (مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٤ ص ٤٧٢) .
- وقال ابن تيمية (رحمه الله): المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة فلا يدفع أعظم الفسادين بالنزاع أدناهما ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته . (منهاج السنة النبوية ج ٣ ص ٣٩١) .
- وقال ابن تيمية (رحمه الله): كان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة كما كان عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وغيرهم ينهون عن الخروج على يزيد بن معاوية، وكما كان الحسن البصري ومجاهد بن جبر وغيرهما ينهون عن الخروج في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم . (منهاج السنة النبوية ج ٤ ص ٣١٥: ٣١٦) .
- وقال ابن تيمية (رحمه الله): الفتنة إِذَا وَقَعَتْ عَجَزَ الْعُقُلَاءُ فِيهَا عَنْ دَفْعِ السُّفَهَاءِ . وَهَذَا شَأْنُ الْفِتَنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الأنفال: ٢٥] وَإِذَا وَقَعَتْ الْفِتْنَةُ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ التَّلَوُّثِ بِهَا إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ . (منهاج السنة النبوية ج ٤ ص ٣٤٣) .

وقال الإمام ابن القيم (رحمه الله) : إن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شرع لأئمة إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر وقد استأذن الصحابة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال: لا، ما أقاموا الصلاة. وقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يداً من طاعته. (أعلام الموقعين لابن القيم ج ٣ ص ٤٠).

وقال الإمام الشوكاني (رحمه الله) : : ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن يناصحه ولا يظهر الشناعة عليه على رؤوس الأشهاد ، كما ورد في الحديث أنه يأخذ بيده ويخلو به ويبدل له النصيحة ، ولا يُذل سلطان الله ، ولا يجوز الخروج على الأئمة وإن بلغوا في الظلم أي مبلغ ما أقاموا الصلاة ولم يظهر منهم الكفر البواح ، والأحاديث الواردة في هذا المعنى متواترة ، ولكن على المأموم أن يطيع الإمام في طاعة الله ويعصيه في معصية الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . (السييل الجرار للشوكاني ج ٤ ص ٥٥٦).

١ - مذهب أهل السنة والجماعة في "قتال الفتنة" (وهو القتال الذي يقع بين المسلمين وتلتبس فيه الحقائق ولا يُعرف فيه المحق من المبطل) هو وجوب اعتزال القتال، ولزوم البيوت، وحفظ اللسان واليد. يجب على المسلم أن يتجنب الفتن ويعتزلها، فراراً بدينه، وذلك بالبقاء في بيته، أو مكان عمله، أو أي مكان آخر، يأمن فيه على دينه.

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ (رؤوس) الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ (المطر) يَقْرُبُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: سَتَكُونُ فِتْنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَشَتَّرَفَهُ فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَادًا (الملجأ) فَلْيَعُدْ بِهِ.

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ فَقَالَ: إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ مَرَجَتْ (اِخْتَلَطَتْ) عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ؟ قَالَ: الزَّمْ بَيْتَكَ وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةٍ نَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ. (حديث حسن صحيح) (صحيح أبي داود للألباني).

وروى أبو داود عن المقداد بن الأسود قال: إني لله (أسلوب قسم) لقد سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: إن السعيد لمن جنب الفتن إن السعيد لمن جنب الفتن ولمن ابتلي فصبر. (حديث صحيح) (صحيح سنن أبي داود للألباني).

اعتزال سلفنا الصالح للفتن:

١- سعد بن أبي وقاص:

اعتزل سعد بن أبي وقاص الفتنة، فلم يحضر موقعة الجمل ولا موقعة صفين ولا التحكيم.

• قال أيوب السخيتاني اجتمع سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وابن عمر وعمار بن ياسر فذكروا الفتنة فقال سعد: أما أنا فأجلس في بيتي ولا أدخل فيها. (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ١ ص ٩٤).

• قال محمد بن سيرين: قيل لسعد بن أبي وقاص ألا تقاتل فإنك من أهل الشورى وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك؟ فقال: لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عنان ولسان وشفطان، يعرف المؤمن من الكافر فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد. (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ١ ص ٩٤).

• جاء هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى عمه سعد فقال: ههنا مائة ألف سيف يرونك أحق بهذا الأمر (أي بالخلافة) فقال أريد منها سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً ، وإذا ضربت به الكافر قطع. (الإصابة لابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ٣١).

٢- عبد الله بن عمر بن الخطاب

روى البخاري عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا إن الناس صنعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي - صلى الله عليه وسلم - فما يمنعك أن تخرج فقال يمنعني أن الله حرم دم أخي فقالا: ألم يقل الله { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً }

فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله. وروى البخاري عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر قال: دخلت على حفصة فقلت قد كان من أمر الناس (أي ما حدث بين علي ومعاوية من قتال) ما ترين فلم يجعل لي من الأمر شيئاً. فقالت: الحق فإنهم ينتظرونك وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب. فلما تفرق الناس (اختلف الحكماء: عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري) خطب معاوية قال: من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه (فليظهر لنا نفسه، ولا يخفيها) فلنحز أحق به منه ومن أبيه قال حبيب بن مسلمة: فهلاً أجبتة. قال عبد الله: فحللت حبوتي (نوع من الثياب) وهممت أن أقول أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام، فحشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدماء ويحمل عني غير ذلك، فذكرت ما أعد الله في الجنان (أي لمن صبر وآثر الآخرة على الدنيا). قال حبيب: حفظت وعصمت.

٣- أبو بكر الثقيفي: (نفع بن الحارث)

روى الشيخان عن الأحنف بن قيس قال خرجت وأنا أريد هذا الرجل فلقيني أبو بكره فقال أين تريد يا أحنف؟ قال قلت: أريد نصر ابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعني علياً قال: فقال لي يا أحنف ارجع فإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قال فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه قد أراد قتل صاحبه.

أكثر الصحابة قد اعتزلوا قتال الفتنة:

اعلم، أخي الكريم، أن أكثر أصحاب نبينا -صلى الله عليه وسلم- قد اعتزلوا قتال الفتنة واتبعوا النصوص الثابتة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك الأمر. روى الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية عن أيوب عن محمد بن سيرين قال: هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عشرة آلاف، فلم يحضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين. (البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٦٤).

• مُطَرِّف بن عَبْدِ الله:

قال بشير بن عقبة قلت ليزيد بن عبد الله بن الشخير: ما كان مُطَرِّف بن عبد الله يصنع إذا هاج في الناس هيج؟ قال: يلزم فُقر بيته، ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة حتى تنجلي لهم عما انجلت. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٤٢).

وقد جاءت الشريعة بتبيان الموقف الصحيح في الفتن، فإن الفتن نعوذ بالله من الفتن، لا تبقي في صاحب عقل عقلاً، تدع الحليم حيران، وتفضي إلى التقاتل بين الناس، الفتن حتى لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قتل، هذه الفتنة، نسأل الله أن يجنبنا الفتنة، هذه الفتنة جاءت النصوص الشرعية في توضيحها، وتوضيح الموقف فيها، والتحذير منها، جاءت النصوص من الصادق المصدوق، الحريص على أمته، الشفيق عليهم، صلى الله عليه وسلم يبين الموقف في الفتنة، الفتنة التي قد تقع بين المسلمين أنفسهم، هذه الفتنة ينبغي أن يكون فيها للمسلم بصيرة، ونور من ربه، قال صلى الله عليه وسلم: ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتله جاهلية، ومن خرج على أمتي، يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه، ليس مني، يقول صلى الله عليه وسلم: فليس مني ولست منه، هذا الذي يفعل هذا الفعل.

وقد روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومن تشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به.

فما هو الحل إذا اضطربت الفتنة بين المسلمين؟ الحل تهدئتها، الحل إيقافها، الحل منع وقوعها قبل أن تقع أصلاً، الحل القضاء على أسبابها، وجذورها، ويحذر صلى الله عليه وسلم من تأجيج نارها، وقذح أوارها، يحذر صلى الله عليه وسلم من تأليب الأطراف بعضهم على بعض، يحذر صلى الله عليه وسلم من أي عمل يزيد الفتنة، فيقول: القاعد فيها خير من القائم،

والقائم فيها خير من الماشي، وهكذا، وفي رواية: القاعد فيها خير من القائم، والماشي فيها خير من الساعي، فكسروا قسيكم، وقطعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دُخل على أحد منكم فليكن كخير ابني آدم، لماذا لم يقل له: قم فقاتل من دخل عليك في الفتنة، حتى لا تزيد الفتنة، ولا يزيد اضطرابها، وإنما يكون فيها كخير ابني آدم، ولذلك قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: إن كان المعتدي عليه كافراً وجب دفعه؛ لإظهار علو الدين، وإن كان مسلماً في وقت الفتنة، كل منهما يظن أنه على حق ربما، قال الإمام أحمد: دفع الصائل جائز لا واجب في حال المسلمين، لقول النبي ﷺ في حال الفتنة: اجلس في بيتك، وقال: تكون فتن، فكن فيها عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل .

إذن جاءت هذه الشريعة بالقضاء على الفتن، والموقف منها. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: بينا نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكر الفتنة، فقال: إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أمانتهم، وكانوا هكذا - وشبك بين أصابعه - وكانوا هكذا يعني في هرج ومرج، قال: فقمتم إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة، فالشخص إذا كان في موقع الفتنة، في وقت الفتنة، في مكان الفتنة، ينبغي عليه أن يسعى لتهدئتها، وأن يسعى إلى إيقافها، فإن لم يملك ذلك، واضطربت عليه الأمور، وتكاثر الحائضون في الفتنة وجب عليه أن يعتزل، ولا يشارك فيها، ولا في أحد من أطرافها، وإنما يلزم بيته، ويملك عليه لسانه، يمسك هذا اللسان، يمسكه، فإن اللسان يزيد الفتنة اشتعالاً، ويزيد الفتنة اضطراباً، إذا لم يستغل في الإصلاح بين الناس، وفي تهدئة الأمور، انشغل بنفسك، يقول: عليك بأمر خاصة نفسك، اعبد الله حتى تلقاه سليم الصدر من هذه الفتن، وقال ﷺ: إنه ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس، والجالس فيها خيراً من القائم، والقائم فيها خيراً من الماشي، والماشي فيها خيراً من الساعي، قال: يا رسول الله ما تأمرني؟ قال: من كانت له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، قال: فمن لم يكن له شيء من ذلك؟ قال: فليعتمد إلى سيفه فليضرب بحده على حرة - على صخرة عظيمة - ثم لينجو ما استطاع النجاء حتى لا يكون هذا، لماذا قال ذلك؟ حتى لا يكون سبباً في زيادة الفتنة، وزيادة الدماء، نسأل الله السلامة.

وعن أبي ذر ر. قال: ركب رسول الله ﷺ حماراً، وأردفني خلفه، ثم قال: أبا ذر أرايت إن أصاب الناس جوع شديد، حتى لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، ماذا تفعل، قلت: الله ورسوله أعلم،

قال: تعفف قال: أبا ذر أرايت إن أصاب الناس موت شديد حتى يكون البيت بالعبد القبر يشتري بالعبد لغلاء القبور وقتلتها، وكثرة الموتى، كيف تصنع؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: تصبر وفي رواية: اصبر، يا أبا ذر أرايت إن قتل الناس بعضهم بعضاً، حتى تغرق حجارة الزيت في الدماء، وهي حجارة معروفة في المدينة، كيف تصنع؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك، قال: أرايت إن لم أترك؟ قال: انت من أنت منه فكن فيهم، قال: فأخذ سلاحه؟ قال: إذن تشاركهم، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف من

الطاغية المعتدي على رأسك، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف رداك على وجهك يوء بإثمه وإثمك. هذا طرف من حديث طويل يتعلق بتهدة الفتنة، وعدم الاشتراك فيها، وعدم تأجيج نارها، ألا فليتنق الله أناس يطوفون في المجالس والمجامع يؤججون نار الفتنة، ويحرضون الأطراف بعضهم على بعض، والواجب تقوى الله، وتسكين الأمور حتى يسلم للمسلمين دينهم.

وقد روى احمد عن عبد الله بن خباب عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذكر فتنة: القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، قال: فإن أدركت ذاك فكن عبد الله المقتول. قال أيوب: ولا أعلمه إلا قال: ولا تكن عبد الله القاتل. قال الشيخ الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين، وصححه ابن حجر في الفتح. وهذا الحديث دار في ترك القتال عند وقوع الفتن بين الأمة، قال الشوكاني في نيل الأوطار في شرح هذا الحديث: معناه بيان عظم خطر الفتنة، والحث على تجنبها والهرب منها ومن التسبب في شيء من أسبابها، فإن شرها وفتنتها يكون على حسب التعلق بها. انتهى. وقد اختلف العلماء في موقف المسلم عند الفتن، والجمهور على أن الوقوف في جانب الحق واجب، لعموم الأدلة على وجوب نصره المظلوم والأخذ على يد الظالم، والكف عن القتال يكون في حالة اشتباه الأمر على المسلم، بحيث لا يستطيع تمييز الحق من الباطل، وقد بين الشوكاني رحمه الله ذلك بياناً وافياً في نيل الأوطار نذكره لك فيه تفصيل مفيد، قال رحمه الله: والأحاديث المذكورة في الباب تدل على مشروعية ترك المقاتلة وعدم وجوب المدافعة عن النفس والمال، وقد اختلف العلماء في ذلك فقالت طائفة: لا يقاتل في فتن المسلمين، وإن دخلوا عليه بيته وطلبوا قتله، ولا تجوز له المدافعة عن نفسه، لأن الطالب متأول، وهذا مذهب أبي بكر الصحابي وغيره، وقال ابن عمرو وعمران بن الحصين وغيرهما: لا يدخل فيها لكن إن قُصِدَ دَفْعَ نفسه، قال النووي: فهذان المذهبان متفقان على ترك الدخول في جميع فتن المسلمين، قال القرطبي: اختلف السلف في ذلك فذهب سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وغيرهم إلى أنه يجب الكف عن المقاتلة، فمنهم من قال: يجب عليه أن يلزم بيته، وقالت طائفة: يجب عليه التحول عن بلد الفتنة أصلاً، ومنهم من قال: يترك المقاتلة، حتى لو أراد قتله لم يدفعه عن نفسه، ومنهم من قال: يدافع عن نفسه وعن ماله وعن أهله، وهو معذور إن قُتل أو قُتل. وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نصر الحق وقتال الباغيين، وكذا قال النووي وزاد: أنه مذهب عامة علماء الإسلام، واستدلوا بقوله تعالى: {فَقَاتِلُوا الَّذِينَ تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} [الحجرات: ٩].

قال النووي: وهذا هو الصحيح، وتتأول الأحاديث على من لم يظهر له المحق، أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما، قال: ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد واستطال أهل البغي والمبطلون. انتهى. وقال بعضهم بالتفصيل، وهو أنه إذا كان القتال بين طائفتين لا إمام لهما فالقتال ممنوع يومئذ، وتنزل الأحاديث على هذا، وهو قول الأوزاعي كما تقدم، وقال الطبري: إنكار المنكر واجب على من يقدر عليه، فمن أعان المحق أصاب، ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشكل فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها، وذهب البعض إلى أن الأحاديث

مع الامام قاتلوا لردّها(١)

فان بغت طائفة لصدّها

وردت في حق ناس مخصوصين، وأن النهي مخصوص بمن خوطب بذلك، وقيل: إن النهي إنما هو في آخر الزمان، حيث يحصل التحقق أن المقاتلة إنما هي في طلب الملك، وقد أتى هذا في حديث ابن مسعود، فأخرج أبو داود عنه أنه قال له وابصة بن معبد: ومتى ذلك يا ابن مسعود؟ فقال: تلك أيام الهرج، وهو حيث لا يأمن الرجل جليسه.، ويؤيد ما ذهب إليه الجمهور قوله الله تعالى: { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } [البقرة: ١٩٤]، وقوله: { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } [الشورى: ٤٠]. ونحو ذلك من الآيات والأحاديث، ويؤيده أيضاً الآيات والأحاديث الواردة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسيأتي للمقام زيادة تحقيق في باب ما جاء في توبة القاتل من كتاب القصاص، وحديث سهل بن حنيف، وما ورد في معناه، يدل على أنه يجب نصر المظلوم، ودفع من أراد إذلاله بوجه من الوجوه، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً، وهو مندرج تحت أدلة النهي عن المنكر. انتهى. ولا شك أن هذا الحديث يمكن تطبيقه في الفتن التي ترد على الأمة في كل زمان، دون تفريق بين زمان وزمان. والله أعلم.

١ - ومن الأمور التي جاءت بها الشريعة في حفظ النفس، الإصلاح بين المتخاصمين، قال الله تعالى: { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبْغِي } [سورة الحجرات ٩]، إذا كان قتال التي تبغي يسكت التي تبغي فعلاً، إذا كان هناك سلطان للمسلمين يقهر الفئة الباغية، { فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [سورة الحجرات ٩]، { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [سورة الحجرات ٩-١٠].

ثبت في صحيح البخاري كما قال ابن كثير رحمه الله تحت هذه الآية في تفسيره: عن الحسن عن أبي بكرة: أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه علي المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى، حاملاً إياه بيده الشريفة، يحمل الحسن بيده، ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى، ويقول: إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فكان كما قال ﷺ أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة، إذن ينبغي أن يصلح بين المسلمين، إذا حدث بينهم اقتتال، هذا هو الأصل، والخلاف من طبيعة البشر، ونادراً ما يسلم اثنين من خلاف دائم الدهر في حياتهما، وقد ورد في سبب نزول آية الحجرات حديث أنس قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، هذا المنافق رأس المنافقين، لو أتيت عبد الله بن أبي دعوته تتألف قلبه لعل الله أن يهديه، فانطلق إليه نبي الله ﷺ، وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبي ﷺ قال المنافق لما وصل إليه رسول الله ﷺ: إليك عني، ابتعد ابتعد، إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله

أطيب ريحاً منك، قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، وكان فيهم أناس من المسلمين، من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه للذي سب عبد الله بن أبي ولعبد الله بن أبي، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: **وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا، فَلَمْ يَخْرُجْهُمَ عَنْ كَوْنِهِمْ مُؤْمِنِينَ، وَأَمْرٌ بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمْ.** رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

وهنا للمسلم وقفة، في القوم، في فريق من الفريقين عبد الله بن أبي رأس الفتنة، في أحد الفريقين عبد الله بن أبي منافق عظيم من المنافقين، ومع ذلك لم يقل الله لنبيه: خذ الطائفة الأولى واقتل كل من تعصب لعبد الله بن أبي، لم يقل ذلك، هدى الفتنة، أصلح بين المسلمين، ما دام فيه مسلمين أصلح بينهم، مع أن في الطائفة الأخرى منافق، لكن لأجل هذا المنافق لا نقتل طائفة من المسلمين، لأجل وجود أناس من المشركين في أحد الصنفين لا نقتل كل المسلمين الذين معهم، وإنما علينا أن نستنقذ ما نستطيع استنقاذه من المسلمين؛ لأن دم المسلمين عظيم، وما الذي سيجنيه المسلمون لو قتلوا إخوانهم إذن؟

فلا يقولن قائل: نقتلهم وهم في النار، وإنما لا بد من تهدئة الفتنة، فإذا خلصت الصفوف، وصار معسكر أهل الإسلام في جهة، ومعسكر أهل الشرك في جهة، نقاتلهم قتالاً لا يردنا عن قتلهم، وعن استئصال شأفتهم كلهم. والخوض في الفتن يا عباد الله يزيدنا اشتعالاً، ومن أعظم ذلك الخوض باللسان، والسكوت يدفن الفتنة، ويقتلها، ويئدها، وهو الواجب.

وإننا نقول: إن من أسباب حفظ النفس أيضاً ودراء الفتنة العدل في القول، والتثبت في الأمور، ألم يقل الله تعالى: **{ فَتَّبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ }** [سورة الحجرات ٦]، وينبغي العدل في القول والحكم حتى بيننا وبين أعدائنا، لو كان الطرف الآخر خصم وعدو لنا أمرنا الله أن نعدل، **{ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ }** [سورة المائدة ٨] ، لو كان عدواً لوجب أن نعدل، فكيف لو كان فيهم مسلمون، قال **صلی الله علیه وسلم**: ((إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة بين يدي الرحمن، بما أقسطوا في الدنيا)) إسناده جيد قوي.

وقال **صلی الله علیه وسلم**: ((إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل ، من هم هؤلاء، من هم، طوبى لهم منهم؟ الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما ولوا وما كان تحت أيديهم من الخدم، والموظفين، و... إلى آخره. طوبى لهؤلاء المقسطين الذين يكونون عن يمين الرحمن، على منابر من نور يوم القيامة، هؤلاء المقسطون.

♦ قال الشيخ عبدالرحمن البراك: "يأمر الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات بالإصلاح بين المقتتلين من المسلمين: **{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا}** بتقريب وجهات النظر، وقد يكون بتحمل مال لكل من الطائفتين أو لإحداهما؛ ليرجعوا عن الفتنة وعن القتال **{فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا}** .

{ فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى } يعني: تجاوزت ولم تستجب للإصلاح { فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي } قاتلوها، فأمر بالصُّلْحِ أولاً، فإذا اقتتل المسلمون فإنه يُسعى في الإصلاح بينهم وتقريب وتخفيف الخلاف والشقاق والنصيحة للجميع بأن يتركوا هذا الأمر القبيح الفظيع فإن القتال بين المسلمين من أعظم الذنوب، (لا ترجعوا بعدي...) يقول عليه الصلاة والسلام: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)، ويقول: (إذا التقى المسلمان سيِّفَيْهِمَا فَاَلْقَاتِلْ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ) قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ: (إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ). يعني: عازم على القتل.

{ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ } يعني: ترجع، حتى ترجع { إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } تستجيب للحق وتقبل الصُّلْحَ. { فَإِنْ فَاءَتْ } إن رجعت الطائفة الباغية { فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا } لأنه لا بد أن يبقى أمور فيما بينهم من الإتلافات، وما قُتل بينهم من القتلى، إذا فهذا صلح آخر، الصُّلْحُ الأوَّلُ لكف ومنع القتال، والصُّلْحُ الثَّانِي لأداء الحقوق ولتستوفي كل طائفة من الأخرى ما أتلقت عليها.

ثم قال تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } فأثبت الأخوة مع الاقتتال، وهذا يدل على أن المسلم لا يكفر بارتكاب الذنب الكبير ولو كان قتلاً، فالقاتل أخو المقتول ما دام مسلمين وكلاهما إخوة، كما في الآية الأخرى: { فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ } [البقرة: ١٧٨] فأثبت أخوة الدين وأخوة الإيمان مع الاقتتال ومع القتل، سبحانه الله. { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } إنها الأخوة العظيمة، هذه الأخوة التي فوق كل الروابط والعلاقات البشرية، أخوة الدين وأخوة الإيمان، فالمؤمنون إخوة وإن اختلفت أزمانهم وديارهم وقبائلهم وأنسابهم فهم إخوة، الإيمان يجمعهم، الدين -دين الإسلام- يجمعهم، (وكونوا عباد الله إخواناً) يقول عليه الصلاة والسلام: (وكونوا عباد الله إخواناً)، { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً ... فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا } [آل عمران: ١٠٣]

ثم نهى المؤمنين والمؤمنات عن السُّخْرِيَةِ ببعضهم: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ } القوم هم الرجال، القوم في اللغة العربية اسم يختص بالرجال، ولهذا قال: { وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ }، { لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ... وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ } ولعل الذي يُسخر به خير من السَّاخِرِ ففي هذا...، والسُّخْرِيَةُ إنما تصدر عن الاحتقار، السُّخْرِيَةُ تصدر عن الاحتقار، وقد يكون من سخر به هو خير من السَّاخِرِ: { عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ }، { عَسَى أَنْ يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُمْ }.

ثم نهى عن اللَّمَزِ والتَّعْيِيرِ بالألقاب: { وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }.

وروى البخاري أن قيل لعبد الله بن عمر يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا } [الحجرات: ٩] إلى آخر الآية، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي، أغتر بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلي من أن أغتر بهذه الآية التي يقول الله تعالى: { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا }

[النساء: ٩٣] إلى آخرها، قال: فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [الأنفال: ٣٩]، قال ابنُ عُمَرَ: قد فعلنا على عهدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ كَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا، فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ؛ إِمَّا يَقْتُلُونَهُ، وَإِمَّا يُوَثِّقُونَهُ، حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يُوَافِقُهُ فِيمَا يُرِيدُ قَالَ: فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؟ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا قَوْلِي فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؟ أَمَّا عُثْمَانُ فَكَانَ اللَّهُ قَدْ عَفَا عَنْهُ، فَكَرِهْتُمْ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَتَنَهُ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ - وهذه ابنته - أو بنته - حَيْثُ تَرَوْنَ. حَرَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ سَفْكَ الدِّمَاءِ الْمَعْصُومَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَتَوَعَّدَ مَنْ سَفَكَهَا عَمْدًا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَكَمٌ عَدْلٌ لَا تَضِيعُ عِنْدَهُ الْحَقُوقُ.

وفي هذا الحديثِ يحكي عبدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ - قيل: هو حَبَّانُ صَاحِبُ الدُّنْيَةِ، أو العلاءُ بنُ عرارٍ، أو نافعُ بنُ الأزرقِ، وقيل غير ذلك - فسأله: يا أبا عبدِ الرَّحْمَنِ - وهي كُنْيَةُ عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ - أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: ٩] ، أي: وإن حدث قتالٌ بين طائفتين من المؤمنين، فعليكم يا أولي الأمر من المؤمنين أن تتدخلوا بينهما بالإصلاح؛ عن طريقِ بَذْلِ النَّصِيحِ، وإزالةِ أسبابِ الخلافِ. فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى، وتجاوزت حدودَ العَدْلِ والْحَقِّ؛ فقاتلوا - أيها المؤمنون - الفِئَةَ الْبَاغِيَّةَ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمْرِهِ، وَحَتَّى تَقْبَلَ الصُّلْحَ الَّذِي أَمْرُكُمْ بِأَنْ تُقِيمُوهُ بَيْنَهُمْ. فَإِنْ رَجَعَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ عَنْ بَغْيِهَا، وَقَبِلَتِ الصُّلْحَ، وَأَقْلَعَتِ عَنِ الْقِتَالِ؛ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ إِصْلَاحًا مُتَّسِمًا بِالْعَدْلِ التَّامِّ وَالْقِسْطِ الْكَامِلِ. إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ مَنْ يَقُومُ بِالْعَدْلِ وَإِعْطَاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

وبعد أن ذكر الرجلَ لابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذه الآيةَ سأله: ما يَمْنَعُكَ يا ابنُ عُمَرَ أَلَّا تُقَاتِلَ الْفِئَةَ الْبَاغِيَّةَ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ؟ حيث إن ابنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لم يُقَاتِلْ فِي أَيِّ مِنْ حُرُوبِ الْفِتَنِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ كَصَفِيِّنَ وَالْجَمَلِ، أو حَرْبِ عبدِ اللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وكان هذا الكلامُ مِنَ السَّائِلِ لابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي أَيَّامِ فِتْنَةِ عبدِ اللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما في روايةٍ عند البخاريِّ.

فأجابه ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَعْتَرْتُ» من الاغترارِ - وهو العَفْلَةُ والخِدَاعُ - في تأويلِ هذه الآية: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} ولا أُقَاتِلُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَرَّ بِهِذِهِ الْآيَةِ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣] ، فاجتنب بها قَتْلَ الْمُسْلِمِ؛ ففِي الْآيَةِ تَغْلِيظٌ شَدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ عَظِيمٌ لِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا.

قال الرجلُ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [البقرة: ١٩٣] ، فأجابه ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمْ قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ وَقَاتَلُوا الْقِتَالَ الْحَقَّ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ كَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا، أي: أَتْبَاعُهُ، فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ؛ إِمَّا أَنْ يَقْتُلَهُ الْكُفَّارُ، وَإِمَّا أَنْ يُوَثِّقُوهُ، وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى اسْتِمْرَارِ التَّعْذِيبِ

لا للهوى من عابث او لاهي(١)

يبلغون في ذا نصر دين الله

حتى يرتد عن دينه، فلما كثر الإسلام لم تكن فتنة، وحاصل جوابه: أن الصمير في قوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ} يعود على الكفار؛ فأمر المؤمنين بقتال الكافرين حتى لا يبقى أحد يفتن عن الإسلام ويرتد إلى الكفر. فلما رأى الرجل أن ابن عمر رضي الله عنهما لا يوافقهما فيما يريد من القتال، سأل: فما قولك في علي وعثمان؟ فأجابه ابن عمر رضي الله عنهما: أما عثمان فكان الله قد عفا عنه لما فر في غزوة أحد في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران: ١٥٥] ، فكبره ثم أن يعفو الله عنه، وأما علي فابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم «وختنه»، أي: زوج ابنته، وأشار بيده، وهذه ابنته، والمراد بها فاطمة رضي الله عنها «حيث ترون» منزلها بين منازل أبيها، والمراد: بيان قرب علي بن أبي طالب من رسول الله صلى الله عليه وسلم مكاناً ومكانة. وفي الحديث: علم ابن عمر رضي الله عنهما بتأويل القرآن وفصائل الصحابة، وسلامة صدره لهم، وعظيم فقهه وبصره بحال المستفتي.

وفيه: حرمة دم المسلم وخطورة الوقوع فيه بغير حق.

١ - عن أبي موسى رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل : يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ويقاتل رياء . أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله)).

في الحديث دليل على وجوب الإخلاص في الجهاد وتصريح بأن القتال للشجاعة والحمية ، والرياء : خارج عن ذلك . فأما " الرياء " فهو ضد الإخلاص بذاته لاستحالة اجتماعهما أعني أن يكون القتال لأجل الله تعالى ، ويكون بعينه لأجل الناس ، وأما " القتال للشجاعة " فيحتمل وجوها: أحدها : أن يكون التعليل داخلاً في قصد المقاتل ، أي قاتل لأجل إظهار الشجاعة ، فيكون فيه حذف مضاف ، وهذا لا شك في منافاته للإخلاص.

وثانيها : أن يكون ذلك تعليلًا لقتاله من غير دخول له في القصد بالقتال كما يقال : أعطى لكرمه ، ومنع لبخله ، وآذى لسوء خلقه وهذا بمجرد من حيث هو هو : لا يجوز أن يكون مراداً بالسؤال ، ولا الدم فإن الشجاع المجاهد في سبيل الله إنما فعل ما فعل لأنه شجاع ، غير أنه ليس يقصد به إظهار الشجاعة ، ولا دخل قصد إظهار الشجاعة في التعليل . وثالثها : أن يكون المراد بقولنا " قاتل للشجاعة " أنه يقاتل لكونه شجاعاً فقط ، وهذا غير المعنى الذي قبله ؛ لأن الأحوال ثلاثة : حال يقصد بها إظهار الشجاعة ، وحال يقصد بها إعلاء كلمة الله تعالى ، وحال يقاتل فيها ؛ لأنه شجاع ، إلا أنه لم يقصد إعلاء كلمة الله تعالى ، ولا إظهار الشجاعة عنه ، وهذا يمكن فإن الشجاع الذي تدهمه الحرب ، وكانت طبيعته المسارعة إلى القتال : يبدأ بالقتال لطبيعته ، وقد لا

يستحضر أحد الأمرين ، أعني أنه لغير الله تعالى ، أو لإعلاء كلمة الله تعالى ، ويوضح الفرق بينهما أيضا : أن المعنى الثاني لا ينافيه وجود قصد فإنه يقال : قاتل لإعلاء كلمة الله تعالى ؛ لأنه شجاع ، وقاتل للرياء ؛ لأنه شجاع ، فإن الجبن مناف للقتال ، مع كل قصد يفرض.

وأما المعنى الثالث : فإنه ينافيه القصد ؛ لأنه أخذ فيه القتال للشجاعة بقيد التجرد عن غيرها ، ومفهوم الحديث : يقتضي أنه في سبيل الله تعالى إذا قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، وليس في سبيل الله إذا لم يقاتل لذلك . فعلى الوجه الأول : تكون فائدته بيان أن القتال لهذه الأغراض مانع ، وعلى الوجه الأخير : تكون فائدته : أن القتال لأجل إعلاء كلمة الله تعالى شرط ، وقد بينا الفرق بين المعنيين ، وقد ذكرنا أن مفهوم الحديث الاشتراط ، لكن إذا قلنا بذلك ، فلا ينبغي أن نضيق فيه ، بحيث تشترط مقارنته لساعة شروعه في القتال ، بل يكون الأمر أوسع من هذا . ويكتفى بالقصد العام لتوجهه إلى القتال ، وقصده بالخروج إليه لإعلاء كلمة الله تعالى ، ويشهد لهذا : الحديث الصحيح في أنه ((يكتب للمجاهد استئذان فرسه ، وشربها في النهر)) من غير قصد لذلك ، لما كان القصد الأول إلى الجهاد واقعا لم يشترط أن يكون ذلك في الجزئيات ، ولا يبعد أن يكون بينهما فرق ، إلا أن الأقرب عندنا ما ذكرناه من أنه لا يشترط اقتران القصد بأول الفعل المخصوص ، بعد أن يكون القصد صحيحا في الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى دفعا للحرج والمشقة ، فإن حالة الفرع حالة دهش.

وقد تأتي على غفلة فالتزام حضور الخواطر في ذلك الوقت حرج ومشقة . ثم إن الحديث يدل على أن المجاهد في سبيل الله : مؤمن ، قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، والمجاهد لطلب ثواب الله تعالى والنعيم المقيم : مجاهد في سبيل الله ويشهد له : فعل الصحابي - وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ((قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)) - فألقى الثمرات التي كن في يده ، وقاتل حتى قتل ، وظاهر هذا : أنه قاتل لثواب الجنة ، والشرعية كلها طافحة بأن الأعمال لأجل الجنة أعمال صحيحة ، غير معلولة ؛ لأن الله تعالى ذكر صفة الجنة ، وما أعد فيها للعاملين ترغيبا للناس في العمل ، ومحال أن يرغبهم للعمل للثواب ، ويكون ذلك معلولا مدخولا ، اللهم إلا أن يدعى أن غير هذا المقام أعلى منه ، فهذا قد يتسامح فيه ، وأما أن يكون علة في العمل فلا . فإذا ثبت هذا ، وأن المقاتل لثواب الله ، وللجنة : مقاتل في سبيل الله تعالى فالواجب أن يقال : أحد الأمرين إما أن يضاف إلى هذا المقصود - أعني القتال لإعلاء كلمة الله تعالى - ما هو مثله ، أو ما يلزمه ، كالقتال لثواب الله تعالى.

وإما أن يقال : إن المقصود بالكلام وسياقه بيان أن هذه المقاصد منافية للقتال في سبيل الله . فإن السؤال إنما وقع عن القتال لهذه المقاصد ، وطلب بيان أنها في سبيل الله أم لا ؟ فخرج الجواب عن قصد السؤال ، بعد بيان منافية هذه المقاصد للجهاد في سبيل الله : هو بيان أن هذا القتال لإعلاء كلمة الله تعالى هو قتال في سبيل الله ، لا على أن " سبيل الله " للحصر ، وأن لا يكون غيره في سبيل الله مما لا ينافي الإخلاص ، كالقتال لطلب الثواب

ودار إسلام يرون الدار	ان الأذان رفعه جهارا
اذ ليس يدي كفره من كفرا	الا بإذن قبله منهم جرى
على الظهور حكم ذا يدور	كي تستبين عندنا الامور ^(١)

، والله أعلم.

وأما القتال حمية : فالحمية من فعل القلوب فلا يقتضي ذلك إلا أن يكون مقصود الفاعل : إما مطلقا ، وإما في مراد الحديث ودلالة السياق ، وحينئذ يكون قادحا في القتال في سبيل الله تعالى ، إما لانصرافه إلى هذا الفرض ، وخروجه عن القتال لإعلاء كلمة الله ، وإما لمشاركته المشاركة القادحة في الإخلاص ، ومعلوم أن المراد بالحمية : الحمية لغير دين الله وبهذا يظهر لك ضعف الظاهرية في مواضع كثيرة ، ويتبين أن الكلام يستدل على المراد منه بقرائنه وسياقه ودلالة الدليل الخارج على المراد منه ، وغير ذلك.

فإن قلت : فإذا حملت قوله " قاتل للشجاعة " أي لإظهار الشجاعة فما الفائدة بعد ذلك في قولهم " يقاتل رياء " ؟ قلت : يحتمل أن يراد بالرياء : إظهار قصده للرغبة في ثواب الله تعالى ، والمسارة للقربات ، وبذل النفس في مرضاة الله تعالى . والمقاتل لإظهار الشجاعة : مقاتل لغرض دنيوي ، وهو تحصيل المحمدة ، والثناء من الناس عليه بالشجاعة ، والمقصدان مختلفان ، ألا ترى أن العرب في جاهليتها كانت تقاتل للحمية وإظهار الشجاعة ، ولم يكن لها قصد في المراءة بإظهار الرغبة في ثواب الله تعالى والدار الآخرة ؟ فافترق القصدان ، وكذلك أيضا القتال للحمية مخالف للقتال شجاعة والقتال للرياء ؛ لأن الأول : يقاتل لطلب المحمدة بخلق الشجاعة وصفتها وأنها قائمة بالمقاتل وسجية له ، والقتال للحمية : قد لا يكون كذلك ، وقد يقاتل الجبان حمية لقومه ، أو لحريمه " مكره أخاك لا بطل " ، والله أعلم.

^١ — أقوال العلماء في الدارين: قال القاضي أبو يعلى الحنبلي "كل دار كانت الغلبة فيها لأحكام الكفر دون

أحكام الإسلام فهي دار الكفر" (المعتمد في أصول الدين) .

وقال الشيخ منصور البهوتي "وتجب الهجرة على من يعجز عن إظهار دينه بدار الحرب وهي ما يغلب فيها حكم الكفر" (كشاف القناع) ٤٣ / ٣ .

وجاء في السيل الجرار للشوكاني رحمه الله (٥٧٥/٤) قوله: "الاعتبار بظهور الكلمة، فإن كانت الأوامر والنواهي في الدار لأهل الإسلام، بحيث لا يستطيع من فيها من الكفار أن يتظاهروا بكفره، إلا لكونه مأذونا له بذلك من أهل الاسلام، فهذه دار الإسلام، ولا يضر ظهور الخصال الكفرية فيها، لأنها لم تظهر بقوة الكفار ولا

بصولتهم، كما هو مشاهد في أهل الذمة من اليهود و النصارى، و المعاهدين الساكنين في المدائن الإسلامية، و إذا كان الأمر بالعكس فالدار بالعكس."

وقال ابن مفلح الحنبلي -رحمه الله-: "فكل دار غلب عليها أحكام المسلمين فدار الإسلام، وإن غلب عليها أحكام الكفار فدار الكفر، ولا دار لغيرهما"

وقال المرادوي -رحمه الله-: "ودار الحرب ما يغلب فيها حكم الكفر"

وقال الشيخ سليمان بن سحمان -رحمه الله-: "فإذا كان لأهل الدين حوزة، واجتماع على الحق، وليس لهم معارض فيما يظهرون به دينهم، ولا مانع يمنعهم من ذلك، وكون الولاة مرتدين عن الدين، بتوليهم الكفار، وهم مع ذلك لا يجرون أحكام الكفر في بلادهم، ولا يمنعون من إظهار شعائر الإسلام، فالبلد حينئذ بلد إسلام، لعدم إجراء أحكام الكفر، كما ذكر ذلك شيخنا الشيخ عبداللطيف -رحمه الله- عن الحنابلة وغيرهم من العلماء"

وأما قول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن بلدة (مَارْدِين) "هل هي بلد إسلام أو بلد كفر؟" فأجاب رحمه الله: "وأما كونها دار حرب أو سلم فهي مركبة فيها المعنيان ليست بمنزلة دار السلم التي تجري عليها أحكام الإسلام؛ لكون جندها مسلمين، ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار، بل هي قسم ثالث يعامل المسلم فيها بما يستحقه، ويقا تل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه"

قال الصنعاني رحمه الله "وأما الأقطار التي استولى عليها المسلمون، وغلبوا عليها منذ الفتوحات الإسلامية، أيام الدولتين الأموية والعباسية، وهلم جرا، فبعد ظهور كلمة الإسلام بهذا المعنى هي دار الإسلام، إذ الأصل في كل قطر من أقطار الإسلام بعد ظهور كلمة الإسلام؛ أن يكون إسلام أهله من البقاء على يقين فلا يرتفع عنه إلا بيقين، فمتى علمنا يقيناً ضرورياً بالمشاهدة أو السماع تواتر أن الكفار استولوا على بلد من بلاد الإسلام التي تليهم وغلبوا عليها وقهروا أهلها بحيث لا يتم لهم إبراز كلمة الإسلام إلا بجوار من الكفار صارت دار حرب، وإن أقيمت فيه الصلاة... وبما حررناه تبين لك أن عدن وما والاها إن ظهرت فيها الشهاداتان والصلوات ولو ظهرت فيها الخصال الكفرية بغير جوار فهي دار إسلام، وإلا فدار حرب، وكذا سائر بلاد الهند، وما والاها الحكم عليها بهذا الاعتبار"

وأما قول أبو حنيفة -رحمه الله- "لا تصير دار الاسلام دار حرب إلا بأمور ثلاثة: بإجراء أحكام أهل الشرك،

وباتصالها بدار الحرب، وبأن لا يبقى فيها مسلم أو ذمي آمن بالامان الاول"

قد خالفه صاحبا أبو يوسف ومحمد رحمهما الله .

قال الكاساني رحمه الله: لا خلاف بين أصحابنا في أن دار الكفر تصير دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها، واختلفوا في دار الإسلام أنها بماذا

تصير دار الكفر، قال أبو حنيفة: إنها لا تصير دار الكفر إلا بثلاث شرائط، أحدها: ظهور أحكام الكفر فيها، والثاني: أن تكون متاخمة لدار الكفر، والثالث: أن لا يبقى فيها مسلم ولا ذمي آمن بالأمان الأول وهو أمان المسلمين.

وقال أبو يوسف ومحمد رحمهما الله: إنها تصير دار الكفر بظهور أحكام الكفر فيها، وجه قولهما: أن قولنا دار الإسلام ودار الكفر إضافة دار إلى الإسلام وإلى الكفر، وإنما تضاف الدار إلى الإسلام أو إلى الكفر لظهور الإسلام أو الكفر فيها، كما تسمى الجنة دار السلام والنار دار البوار لوجود السلامة في الجنة والبوار في النار، وظهور الإسلام والكفر بظهور أحكامهما فإذا ظهر أحكام الكفر في دار فقد صارت دار كفر فصحت الإضافة، ولهذا صارت الدار دار الإسلام بظهور أحكام الإسلام فيها، فكذا تصير دار الكفر بظهور أحكام الكفر فيها والله أعلم.

وجه قول أبي حنيفة رحمه الله أن المقصود من إضافة الدار إلى الإسلام والكفر ليس هو عين الإسلام والكفر وإنما المقصود هو الأمن والخوف، ومعناه أن الأمن إن كان للمسلمين فيها على الإطلاق والخوف للكفرة على الإطلاق فهي دار الإسلام، وإن كان الأمن فيها للكفرة على الإطلاق والخوف للمسلمين على الإطلاق فهي دار الكفر، والأحكام مبنية على الأمن والخوف لا على الإسلام والكفر، فكان اعتبار الأمن والخوف أولى... إلى قوله:

وقياس هذا الاختلاف في أرض لأهل الإسلام ظهر عليها المشركون وأظهروا فيها أحكام الكفر أو كان أهلها أهل ذمة فنقضوا الذمة وأظهروا أحكام الشرك هل تصير دار الحرب فهو على ما ذكرنا من الاختلاف، فإذا صارت دار الحرب فحكمها إذا ظهرنا عليها وحكم سائر دور الحرب سواء وقد ذكرناه. اهـ

وقد ذكر السرخسي رحمه الله عن الإمامين أبي يوسف ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: إنه إذا أظهروا الشرك فقد صارت دارهم دار حرب، لأن البقعة إنما تنسب إلينا أو إليهم باعتبار القوة والغلبة ورد عليه كذلك ابن قدامة في المغنى بقوله: (ومتى ارتد أهل بلد وجرت فيه أحكامهم صاروا دار حرب في اغتنام أموالهم وسبي ذراريهم

الحادثين بعد الردة وعلى الإمام قتالهم، فإن أبا بكر الصديق قاتل أهل الردة بجماعة الصحابة، ولأن الله تعالى قد أمر بقتال الكفار في مواضع من كتابه، وهؤلاء أحقهم بالقتال لأن تركهم ربما أغرى أمثالهم بالتشبه بهم والارتداد معهم فيكسر الضرر بهم، وإذا قاتلهم قتل في قدر عليه ويتبع مدبرهم ويجاز على جريحهم وتغنم أموالهم وبهذا قال الشافعي، وقال أبو حنيفة: لا تصير دار حرب حتى تجمع فيها ثلاثة أشياء: أن تكون متاخمة لدار الحرب لا شيء بينهما من دار الإسلام، الثاني: أن لا يبقى فيها مسلم ولا ذمي آمن، الثالث: أن تجري فيها أحكامهم، ولنا إنها دار كفر فيها أحكامهم فكانت دار حرب كما لو اجتمع فيها هذه الخصال أو دار الكفرة الأصليين.

وقال السرخسي فقد قال في المبسوط: "أن البقعة إنما تنسب إلينا أو إليهم باعتبار القوة والغلبة، فكل موضع ظهر فيه حكم الشرك، فالقوة في ذلك الموضع للمشركين فكانت دار حرب، وكل موضع كان الظاهر فيه حكم الإسلام فالقوة فيه للمسلمين."

♦ وقال ابن القيم رحمه الله: "قال الجمهور: دار الإسلام هي التي نزلها المسلمون وجرت عليها أحكام الإسلام، وما لم تجر عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام وإن لاصقها، فهذه الطائف قريبة إلى مكة جدا ولم تصر دار إسلام بفتح مكة وكذلك الساحل"

♦ قال ابن تيمية رحمه الله: "فأما التوحيد فهو شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحصص الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد هذا هو التوحيد الظاهر الجلي الذي نفى الشرك الأعظم وعليه نصبت القبلة وبه وجبت الذمة وبه حققت الدماء والأموال وانفصلت دار الإسلام من دار الكفر" وقد ورد في اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل أنه كان يقول: "الدار إذا ظهر فيها القول بخلق القرآن والقدر وما يجري مجرى ذلك فهي دار كفر."

وقال ابن حزم رحمه الله: "وإذا كان أهل الذمة في مدائنهم لا يماذجهم غيرهم فلا يسمى الساكن فيهم لإمارة عليهم أو لتجارة بينهم كافرا ولا مسيئا بل هو مسلم محسن، ودارهم دار إسلام لا دار شرك لأن الدار إنما تنسب للغالب عليها والحاكم فيها والمالك لها."

♦ وسئلت اللجنة الدائمة: ما الشروط الواجب توفرها في بلد حتى تكون دار حرب أو دار كفر؟ فأجابت: كل بلاد أو ديار يقيم حكامها وذوو السلطان فيها حدود الله، ويحكمون رعيته بشريعة الإسلام، وتستطيع فيها الرعية أن تقوم بما أوجبه الشريعة الإسلامية عليها، فهي دار إسلام، فعلى المسلمين فيها أن يطيعوا حكامها في المعروف، وأن ينصحوها لهم، وأن يكونوا عوناً لهم على إقامة شؤون الدولة، ودعمها بما أوتوا من قوة علمية وعملية، ولهم أن يعيشوا فيها وألا يتحولوا عنها إلا إلى ولاية إسلامية، تكون حالتهم فيها أحسن وأفضل، وذلك كالمدينة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها، وإقامة الدولة الإسلامية فيها، وك مكة بعد الفتح، فإنها صارت بالفتح وتولي المسلمين أمرها دار إسلام بعد أن كانت دار حرب تجب الهجرة منها على من فيها من المسلمين القادرين عليها، وكل بلاد أو ديار لا يقيم حكامها وذوو السلطان فيها حدود الله، ولا يحكمون في الرعية بحكم الإسلام، ولا يقوى المسلم فيها على القيام بما وجب عليه من شعائر الإسلام، فهي دار كفر، وذلك مثل مكة المكرمة قبل الفتح، فإنها كانت دار كفر، وكذا البلاد التي ينتسب أهلها إلى الإسلام، ويحكم ذوو السلطان فيها بغير ما أنزل الله، ولا يقوى المسلمون فيها على إقامة شعائر دينهم، فيجب عليهم أن يهاجروا منها، فرارا بدينهم من الفتن إلى ديار يحكم فيها بالإسلام، ويستطيعون أن يقوموا فيها بما وجب عليهم شرعا، ومن عجز عن الهجرة منها من الرجال والنساء والولدان فهو معذور، وعلى المسلمين في الديار الأخرى أن ينقذوه من ديار الكفر إلى بلاد الإسلام، قال الله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا

كما يرون أنّ شخصاً لو دخل		الى الجنان ذاك عن فضلٍ حصل
فالعبد للطاعات ان تحوّلًا		من الإله كان ذا تفضُّلاً ^(١)

مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا { . وقال تعالى: { وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا } . أما من قوي من أهلها على إقامة شعائر دينه فيها، وتمكن من إقامة الحجة على الحكام وذوي السلطان، وأن يصلح من أمرهم، ويعدل من سيرتهم، فيشرع له البقاء بين أظهرهم، لما يرجى من إقامته بينهم من البلاغ والإصلاح، مع سلامته من الفتن . اهـ.

♦ وسئل فضيلة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: بماذا تصير بلد الإسلام دار حرب، وهل الدول التي تحكم بالقانون الوضعي دار إسلام أم دار حرب، وما هو إظهار الدين في بلد الكفر؟
فأجاب بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم، دار الإسلام لا يمكن أن تكون دار حرب، إلا أن تكون حرباً على أعداء الله، ودار الإسلام هي التي تعلن فيها شعائر الإسلام، كالأذان وصلاة الجماعة وصلاة الجمعة وما أشبه ذلك، ويكون أهلها ينتمون إلى الإسلام مطبقون لشرائعه، وأما الحكم بغير ما أنزل الله عز وجل: فهذا قد يؤدي إلى الكفر، وقد يؤدي إلى ما دون الكفر، كما ذكر الله في سورة المائدة: الكافرون، والظالمون، والفاسقون . حسب ما تقتضيه حال هذا الذي حكم بغير ما أنزل الله، وإذا قدر أنه وصل إلى درجة الكفر فإنه لا يغير دار الإسلام ما دام أهلها مسلمون كارهين لما عليه هذا الحاكم، وأما إظهار الدين في دار الكفر: فدار الكفر إذا كان الإنسان لا يستطيع إظهار دينه فيها فإنه يجب عليه الهجرة منها، وإن كان يستطيع فإنه ينبغي أن يخرج منها، لأن بقاءه فيها على خطر، فإذا كان في بلد الكفر يصلي ويتصدق ويقيم الجماعة والجمعة ولا أحد يمنعه من ذلك، فهذا قادر على إظهار دينه، لكن مع ذلك لا نحب له أن يبقى في دار الكفر . اهـ.

^١ — دخول الجنة هو فضل من الله ورحمة، وليس ثمناً أو مقابلاً لأعمالنا . العمل الصالح هو ببساطة السبب

الذي يرضي الله ويجلب رحمته، بينما رحمة الله هي الأساس الذي ننجو ونفوز به .

قال الطحاوي: " ويعتقدون ويشهدون أن أحداً لا تجب له الجنة، وإن كان عمله حسناً وعبادته أخلص العبادات، وطاعته أزكى الطاعات، وطريقه مرتضى، إلا أن يتفضل الله عليه فيوجبها له بمنه وفضله، إذ عمل الخير الذي عمله لم يتيسر له إلا بتيسير الله عز اسمه، فلو لم ييسره له لم يتيسر، ولو لم يهده لفعله لم يهتد له أبداً، قال الله عز

وجل : { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ } [النور: ٢١] وفي آيات سواها، وقال مخبراً عن أهل الجنة : { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ } [الأعراف: ٤٣] وفي آيات سواها".

قال الراجحي في الشرح : " يعتقد أهل السنة والجماعة ويشهدون أن دخول المؤمنين الجنة برحمة الله وفضله، وأن أحداً لا تجب له الجنة، وإن كان عمله حسناً، وعبادته أخلص العبادات، وطاعته أزكى الطاعات، وطريقه مرتضى، إلا أن يتفضل الله عليه فيوجبها له بمنه وفضله، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ ! قال : ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضله منه ورحمة)) فدخل الجنة برحمة الله حتى الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن هذه الرحمة لها سبب وهو العمل الصالح والتوحيد والإيمان، فمن جاء بالسبب نالته الرحمة، ومن لم يأت به لم تنله الرحمة، وهذا ما جاءت به النصوص قال الله تعالى : { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل: ٣٢]، وقال : { جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [السجدة: ١٧]، فالله حرم الجنة على الكافرين؛ لأنهم ليسوا من أهل رحمته، فقد يئسوا منها، وأما المؤمنون فهم من أهل رحمته ويدخلهم الله الجنة بسبب أعمالهم، والله تعالى هو الذي من على الإنسان بالعمل، ولولا أن الله وفقه للعمل لما عمل، وهو الذي خلق الإنسان ورباه بنعمه، وأعطاه السمع والبصر والفؤاد، ومن عليه بالإسلام، وهداه، وهذا فضل من الله، قال سبحانه وتعالى : { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ } [النور: ٢١] .

وقال مخبراً عن أهل الجنة : { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ } [الأعراف: ٤٣]، فالهداية من الله".

♦ وقال ابن باز في فتاويه : " الله جل وعلا بين أن أسباب دخول الجنة أعمالهم الصالحة، كما قال تعالى : { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل: ٣٢] { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا } [الكهف: ١٠٧] والآيات في هذا المعنى كثيرة، تبين أن الأعمال الصالحة هي أسباب دخول الجنة، كما أن الأعمال الخبيثة هي أسباب دخول النار، والحديث يبين أن دخولهم الجنة ليس بمجرد العمل، بل لا بد من عفو الله ورحمته سبحانه وتعالى، فهم دخلوها بأسباب أعمالهم، ولكن الذي أوجب ذلك رحمته سبحانه، وعفوه ومغفرته، ولهذا يقول عليه السلام : والذي نفسي بيده، لا يدخل الجنة أحد منكم بعمله، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل فالباء هنا باء العوض، يعني : ليست عوض العمل، ولكنه مجرد رحمة الله وعفوه سبحانه وتعالى، حصل بذلك قبول العمل، ودخول الجنة والنجاة من النار، فهو الذي تفضل بالقوة على العمل ويسر العمل وأعان عليه، فكل خيرٍ منه سبحانه وتعالى، ثم تفضل بإدخال العبد الجنة، وإنجائه من النار بأسباب أعماله الصالحة، فالمعول على عفوه ورحمته، لا على عمل العبد، فعمل العبد لو شاء الله جل وعلا لما كان هذا العمل، ولما وفق له، فهو الذي وفق له وهداه له، سبحانه وتعالى، فله الشكر وله الحمد جل

ان مات شخص في الحيا او قُتلا(١)

والله سَمَى للعباد أَجَلا

وعلا، فدخلهم الجنة برحمته وفضله ومغفرته، لا بمجرد أعمالهم، بل أعمالهم أسباب، والذي يسرها وأوجب دخول الجنة ومن بذلك هو الله وحده سبحانه وتعالى".

^١ - قال طحاوي: "ويعتقدون ويشهدون أن الله عز وجل أجل لكل مخلوق أجلاً، وأن نفساً لن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً، وإذا انقضى أجل المرء فليس إلا الموت، وليس له عنه فوت، قال الله عز وجل: { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف: ٣٤].

وقال: { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا } [آل عمران: ١٤٥]

ويشهدون أن من مات أو قتل فقد انقضى أجله المسمى له، قال الله عز وجل: { قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ } [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ } [النساء: ٧٨].

قال الراجحي في الشرح: "ويعتقد أهل السنة وأهل الحديث ويشهدون أن الله عز وجل أجل لكل مخلوق أجلاً، وأن نفساً لن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً، فلن يموت أحد حتى ينقضي أجله، ويستوفي رزقه، ولهذا جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن روح القدس نفث في روعي-أي: في قلبي- أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها))، وثبت في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود في قصة خلق الإنسان في بطن أمه أنه يأتيه الملك بعد أن يكون أربعين يوماً نطفة، ثم أربعين يوماً علقة، ثم أربعين يوماً مضغة، وهي مائة وعشرون يوماً أي (أربعة أشهر)، فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، وجاء في اللفظ الآخر: يا رب! ما الرزق؟ فيكتب، يا رب! ما الأجل؟ ما الشقاء؟ وما السعادة؟ وهكذا، فلن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها الذي قدره الله لها، وإذا انقضى أجل المرء فليس له إلا الموت، قال الله عز وجل: { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف: ٣٤]، وقال عز وجل: { وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المنافقون: ١١]، وقال سبحانه: { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا } [آل عمران: ١٤٥] وهذا

عام لكل ميت، سواء مات بسبب أو بغير سبب مات مثلاً لأنه قتل، أو مات بالسهم، أو لأنه تردى من جبل، أو صدم، أو مات بمرض، أو مات على فراشه، فلم يمت في هذه الأسباب إلا لأنه قد انقضى أجله، ولهذا قال المؤلف: (ويشهدون أن من مات أو قتل فقد انقضى أجله المسمى)، وهذا خلافاً للمعتزلة الذين يقولون: إن المقتول قطع عليه أجله، فلو لم يقتل لاستمر في الحياة، فالمقتول عند المعتزلة له أجلا، أجل طويل وأجل قصير، فإذا قتل قطع عليه أجله الطويل، فهذا الكلام من أبطال الباطل؛ لأن الله قدر له أن يموت بهذا

كلُّ رزقٍ رُبُّنا اجراهُ		لا رازقٌ في كونهِ سواءُ
وهو الذي قد فتح الابوابا		لمن يشا وسبب الاسبابا
فمنه رزقٌ انبت الاجساما		كان حلالا ذاك او حراما ^(١)

السبب، ولهذا قال الله عز وجل عن المنافقين: { قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ } [آل عمران: ١٥٤]، وذلك لما قتل من قتل في غزوة أحد من المسلمين، قالوا: لو أنهم لم يذهبوا لما قتلوا، فقال الله عز وجل: { قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ } [آل عمران: ١٥٤] أي: لو كنتم في بيوتكم وجاء الأجل فلا بد أن تخرجوا للقتال؛ حتى توافوا آجالكم. وقال تعالى: { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ } [النساء: ٧٨] أي: ولو كان الإنسان في بروج مشيدة، وأخذ بجميع الاحتياطات، فإذا جاءه فلا بد أن يموت".

^١ — كل ما يجري للإنسان قد سبق به علم الله تعالى، وجرى به القلم في اللوح المحفوظ قبل خلق الخلق، كما قال تعالى: { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } [التوبة: ٥١] وقال عز وجل: { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر: ٤٩] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني. وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)). رواه مسلم.

ومن جملة هذا القدر المكتوب: الرزق وأسبابه، ووقته ومقداره، ومكانه وكيفيته. والله تعالى إذا أراد شيئا هيأ له أسبابه، وربطها بالأمر المقدّر، كما يشير إليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: إذا قضى الله لعبدا أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة. رواه أحمد والترمذي وقال: صحيح. وصححه الألباني. قال المظهر في شرح المصباح: يعني: إذا كان الرجل في بلدة، وقدر أن يموت في بلد آخر أوقع الله تعالى في قلبه ميلا إلى قصد ذلك البلد، أو أظهر له إليه حاجة من تجارة أو زيارة أو ما أشبه ذلك؛ ليأتي ذلك البلد ليموت فيه؛ يعني: كل شيء يكون كما قدره الله تعالى، لا يقدر أحد أن يغيره. اهـ.

وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن الجنين في بطن أمه إذا مضى عليه أربعة أشهر، بعث الله إليه ملكاً نفخ فيه الروح، ويكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد. والرزق أيضاً مكتوب مقدر بأسباب لا يزيد ولا ينقص، فمن الأسباب أن يعمل الإنسان لطلب الرزق كما قال الله -تعالى: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا

فِي مَنَاقِبِهَا وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: ١٥] ومن الأسباب أيضاً صلة الرحم من بر الوالدين، وصلة القربات، فإن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((من أحب أن ييسر له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه)) ومن الأسباب تقوى الله - عز وجل - كما قال - تعالى: { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً } [الطلاق: من الآية ٢] { وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ } [الطلاق: من الآية ٣] ولا تقل إن الرزق مكتوب ومحدد ولن أفعل الأسباب التي توصل إليه فإن هذا من العجز. والكياسة والحزم أن تسعى لرزقك، ولما ينفعلك في دينك ودنياك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان)) أخرجه الترمذي .

والرزق الحلال هو ما أباحه الله وجاء من طريق مشروع (كالعمل الصالح والتجارة)، ويجلب البركة وطمأنينة القلب. أما الرزق الحرام فهو ما منعه الله (كالسرقة والربا)، ويمحق البركة ويعاقب فاعله. لتجنب الحرام، ادعُ الله دائماً قائلاً: "اللهم اكفني بحلالك عن حرامك."

قال القرطبي رحمه الله: والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالاً كان أو حراماً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام وإنما يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك.

قالوا: فلو نشأ صبي مع اللصوص ولم يأكل شيئاً إلا ما أطعمه اللصوص إلى أن بلغ وقوي صار لصاً، ثم لم يزل يتلصص ويأكل ما تلصصه إلى أن مات، فإن الله لم يرزقه شيئاً إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئاً.

وهذا فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التملك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقاً، ولا البهائم التي ترتع في الصحراء، ولا السخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال.

ولما اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم من كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء، ولأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين، فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه. والذي يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق: { هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ }. وقال: { إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ }. وقال: { وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها }. وهذا قاطع... إلا أن الشيء إذا كان مأذوناً له في تناوله فهو حلال حكماً، وما كان منه غير مأذون له في تناوله فهو حرام حكماً، وجميع ذلك رزق.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في هذا الموضوع كلام نفيس يحسن إيراد هـنا، فقال رحمه الله في مجموع الفتاوى: والرزق يراد به شيان:

أحدهما: ما ينتفع به العبد، والثاني: ما يملكه العبد فهذا الثاني هو المذكور في قوله { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ }، وقوله { أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ }، وهذا هو الحلال الذي ملكه الله إياه، وأما الأول فهو المذكور في قوله { وما من دابة

وللقلوب رزقها كذا	لشكره رب الورى دعاكا
في اللوح ذاك كُله مكتوب	كما البقاء يا فتى محسوب ^(١)

في الأرض إلا على الله رزقها}، وقوله {إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها} ونحو ذلك، والعبد قد يأكل الحلال والحرام فهو رزق بهذا الاعتبار لا بالاعتبار الثاني، وما اكتسبه ولم ينتفع به هو رزق بالاعتبار الثاني دون الأول.

^١ — والرزق في الحقيقة تتنوع أصنافه، وتباين صورته، فمنه الحسي كالمال والأولاد والزوجة والعقارات والمنصب والدرجة العلمية، ومنه المعنوي كالعلم والرضا والسعادة وراحة البال، ومنه ما يشمل جانبا حسيا وآخر معنويا كالصحة.

ومن الرزق أيضا الإيمان واليقين. ففي الحديث: “إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه”، وفي الحديث الآخر: “إن للمعصية ظلمة في القلب وسوادا في الوجه وإن للحسنة ضياء في القلب وسعة في الصدر ونورا في الوجه.

وليس هذا كله إلا حديث عن الإيمان، إذ أنه لون من ألوان الرزق، يتفاوت ويتباين بتباين صلة العبد بالله، ومقدار استعداده لتلقي رزق الله. وهذا ما يعنيه طيف من أطيايف حديث رسول الله ﷺ: “إن للقلوب إقبالا وإدبارا، فإن أقبلت فزیدوها وإن أدبرت فالزموها الفرائض”.

وإذا كان الرزق هكذا فلا بد أن القلوب النابضة بالإيمان، القلوب المحببة لله، القلوب التي تستشعر المعصية عن بعد، هي نفسها رزق من الله عز وجل، يقسمه بين عبادته كما يقسم المعاش بينهم: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: ٣٢].

وقلبك هذا رزق من الله، فمن ذا الذي غرس فيه الرحمة سواه، ومن الذي ينعم عليك بإحساس الحنو والرفق، حينما ترى ما يدعو لذلك.

من ذا الذي يرزقك إحساس الوجع والخشية حينما تتلى عليك آيات الله: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [الأنفال: ٢]. من ذا الذي يلين قلبك لذكره: {ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ} [الزمر: ٢٣].

أليس من رزق الله لك أن وهبك قلبا متحركا حساسا يطرب للخير، وينشرح به، ويفزع من الشر وينقبض منه؟ أليس من رزقه لك أن وهبك قلبا تتحرك أوتاره، حينما تتلى كلمات الله، فيرسل إشارته للعين لتدحرج على الخد دمة ساخنة من قلب حرارة المعصية والتفريط؟

أليس من رزقه ووافر نعمته أن وهبك قلبا، يرحم الضعيف ويثنى لأنين المساكين، يحب الصغار، ويرسل إشارته لليدين لتتحركا بلمسة حانية على رأس يتيم، أو صدقة ضئيلة لجيب مسكين، فتضع البسمة على شفثيه، طالما عاشرها الحزن وقست عليها الأيام.

وإن قالوا إن الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يحس به إلا المرضى، لقلنا إن الرزق نعمة في يد أصحابه، لا يحس به إلا من فقده. والقلب رزق لا يحس به إلا من حرم نعمة القلب. ولنا في القرآن خير دليل، حين نقرأ: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤].

فكان القرآن يعرض بالقلوب التي حرمت رزقها من نعمة التدبر، فصارت موصدة الأبواب لا تستقبل نعمة الله. وفي الحديث عن الرجل الذي قال للنبي حين رآه يقبل الحسن والحسين: "إن لي عشرة من البنين ما قبلت واحدا منهم قط"، فرد عليه النبي قائلا: "وما علي إن كان الله قد نزع الرحمة من قلبك، من لا يرحم لا يُرحم. وكان النبي يشير من طرف خفي إلى أن هذا الرجل قد رزق الرحمة، التي يفيضها الله على قلب من أراد من عباده. وحرمانه من الرزق يجعل قلبه في مصاف القلوب التي منعت فضل الله سبحانه. بل إن القرآن يعيب على من تملكوا القلوب -آلة وجسما- ثم حرموا نعمة الرزق القلبي، الذي يمكنهم من إدراك نعمة الله في الكون: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا} [الأعراف: ٧].

فكانهم حازوا آلة القلب وحرموها رزقها من الفقه والفهم والوعي. ومن حرمان رزق القلوب أن يختم الله على القلب، فلا يتنسم روائح الإيمان، ولا يذوق برد اليقين، وذلك حين ينشغل المرء بلذة الجسد عن لذة الروح، ويقطع قلبه عن مصدر رزقه وولي نعمته: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: ٢٣].

وحينما يحرم القلب رزقه من المشاعر والأحاسيس الفاضلة تنعدم فيه نوازع الخير وتنضب فيه منابع الهدى، فلا يتحرك لنداء ولا يستجيب لدعوة، ويحال بينه وبين صاحبه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٢٤]. وحينئذ يقسو القلب، ويتحجر حتى يصير أشد قسوة من الحجارة نفسها: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [البقرة: ٧٤].

ومن الارزاق ان يرزقك الله محبة في قلوب عباده المؤمنين وما رزق النبي ﷺ هذا الرزق الواسع من القلوب إلا بمحبة الله له، ومعاونته له على كسب قلوب الناس والتأثير فيهم، ثم بصره الواسع المتين ورأفته ورحمته بهم، وحكمته التي جعلته أرعى لحالهم منهم وأبصر بأمرهم من أنفسهم: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات: ٧].

وربنا قد خلق الشيطاننا		لحكمة بأذنه اغوانا
حيث جرى تسليطه في الناس		بالمسّ والاغراء والوسواس ^(١)

وكل ذلك قدره الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ قبل خل الناس كما صحت بذلك الايات والاحاديث الصحيحة .

روى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء))
 وروى الحاكم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تستبطنوا الرزق؛ فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغه آخر رزقٍ هو له؛ فاتقوا الله وأجملوا في الطلب: أخذ الحلال، وترك الحرام))؛ حديث صحيح (صحيح الجامع - للألباني) .
 وروى الطبراني وأبو نعيم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: أضاف النبي صلى الله عليه وسلم ضيفاً، فأرسل إلى أزواجه يتغني عندهن طعاماً، فلم يجد عند واحدةٍ منهن، فقال: ((اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك؛ فإنه لا يملكها إلا أنت))، قال: ((فأهدي إليه شاة مصلية)) (أي مشوية)، فقال: ((هذه من فضل الله، ونحن ننتظر الرحمة)) حديث صحيح (السلسلة الصحيحة للألباني).

^١ — قال ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل:

"قولهم أي حكمة في خلق إبليس وجنوده؟ ففي ذلك من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله ، فمنها: أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته في الله وإغاظته وإغاية أوليائه والاستعاذة به منه والإلجاء إليه أن يعيذهم من شره وكيدته فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه، وقدمنا أن الموقوف على الشيء لا يحصل بدونه.
 ومنها: خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعد ما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبليسية يكون أقوى، وأتم ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى وخضوع آخر وخوف آخر كما هو المشاهد من حال عبيد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التي بلغت منه كل مبلغ وهم يشاهدونه فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد.

ومنها: أنه سبحانه جعله عبرة لمن خالف أمره وتكبر عن طاعته وأصر على معصيته كما جعل ذنب أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهيه أو عصى أمره ثم تاب وندم ورجع إلى ربه فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه وهذا الأب عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه فلله كم في ضمن ذلك من الحكم الباهرة

والآيات الظاهرة.

ومنها: أنه محك امتحن الله به خلقه ليتبين به خبيثهم من طيبهم فإنه سبحانه خلق النوع الإنساني من الأرض وفيها السهل والحزن والطيب والخبيث فلا بد أن يظهر فيهم ما كان في مادتهم كما في الحديث الذي رواه الترمذي مرفوعاً "أن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على مثل ذلك، منهم الطيب والخبيث والسهل والحزن وغير ذلك" فما كان في المادة الأصلية فهو كائن في المخلوق منها فاقتضت الحكمة الإلهية إخراجه وظهوره فلا بد إذا من سبب يظهر ذلك وكان إبليس محكاً يميز به الطيب من الخبيث كما جعل أنبياءه ورسله محكاً لذلك التمييز، قال تعالى { ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب } فأرسله إلى المكلفين وفيهم الطيب والخبيث فانضاف الطيب إلى الطيب والخبيث إلى الخبيث واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم في دار الامتحان ، فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم وجعل لهؤلاء داراً على حدة ولهؤلاء داراً على حدة حكمة بالغة وقدرة قاهرة.

ومنها: أن يظهر كمال قدرته في خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيتته وسلطانه فإنه خالق الأضداد كالسما والأرض والضياء والظلام والجنة والنار والماء والنار والحر والبرد والطيب والخبيث.

ومنها: أن خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده فإن الضد إنما يظهر حسنه بضده فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى كما تقدم بيانه قريباً. ومنها: أنه سبحانه يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه ولا ريب أن أوليائه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن ليحصل لهم بدونه فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه ثم اجتبه ربه وتاب عليه وقبله.

ومنها: أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها أحب العبودية إلى الله سبحانه وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله وتقديم محبته على كل ما سواه فالجهاد ذروة سنام العبودية وأحبها إلى الرب سبحانه، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصى حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله.

ومنها: أن في خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعته ما وجوده أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه كما تقدم من ظهور آية الطوفان والعصا واليد وخلق البحر وإلقاء الخليل في النار وأضعاف أضعاف ذلك من آياته وبراهين قدرته وعلمه وحكمته فلم يكن بد من وجود الأسباب التي يترتب عليها ذلك كما تقدم.

ومنها: أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد وفيها الإشراق والإضاءة والنور فأخرج منها سبحانه هذا وهذا كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث والسهل والحزن والأحمر والأسود والأبيض فأخرج منها

ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة وآية دالة على أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ومنها: أن من أسمائه الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل المنتقم وهذه الأسماء تستدعي متعلقات يظهر فيها أحكامها كأسماء الإحسان والرزق الرحمة ونحوها ولا بد من ظهور متعلقات هذه وهذه.

ومنها: أنه سبحانه الملك التام الملك ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالشواب والعقاب والإكرام والإهانة والعدل والفضل والإعزاز والإذلال فلا بد من وجود من يتعلق به أحد النوعين كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر. ومنها: أن من أسمائه الحكيم والحكمة من صفاته سبحانه وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي لا يليق به سواه فافتضت خلق المتضادات وتخصص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص وهل تتم الحكمة إلا بذلك فوجود هذا النوع من تمام الحكمة كما أنه من كمال القدرة.

ومنها: أن حمده سبحانه تام كامل من جميع الوجوه فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه وانتقامه وإهانته كما هو محمود على فضله وعظائه ورفعته وإكرامه فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا وهو يحمد نفسه على ذلك كله ويحمده عليه ملائكته ورسله وأوليائه ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم، وما كان من لوازم كمال حمده وتماحه فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة كما له عليه الحمد التام فلا يجوز تعطيل حمده كما لا يجوز تعطيل حكمته. ومنها: أنه سبحانه يحب أن يظهر لعباده حلمه وصبره وأناة وسعة رحمته وجوده فافتضى ذلك خلق من يشرك به ويضاده في حكمه ويجهده في مخالفته ويسعى في مساخطه بل يشبهه سبحانه، وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات ويرزقه ويعافيه ويمكن له من أسباب ما يلتذ به من أصناف النعم ويجيب دعاءه ويكشف عنه سوء ويعامله من بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفره وشركه وإساءته، فله كم في ذلك من حكمة وحمد، ويتحجب إلى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال "لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يجعلون له الولد وهو يرزقهم ويعافيه" وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه "شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك أما شتمه إياي فقلوه اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد وأما تكذيبه إياي فقلوه لن يعيدني كما بدأتي وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته" وهو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب يرزق الشاتم المكذب ويعافيه ويدفع عنه ويدعوه إلى جنته ويقبل توبته إذا تاب إليه ويبدله بسيئاته حسنات ويلطف به في جميع أحواله ويؤهله لإرسال رسله ويأمرهم بأن يلبسوا له القول ويرفقوا به. قال الفضيل بن عياض: ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل جل جلاله: من أعظم مني جوداً، الخلاق لي عاصون وأنا أكأهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، أجود بالفضل على العاصي وأفضل على المسيء، من ذا الذي دعاني فلم ألبه ومن ذا الذي سألتني فلم أعطه أنا الجواد ومني الكريم ومني الكرم ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألتني وأعطيه ما لم يسألني ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني فأين عني يهرب الخلق وأين عن بابي يتنحى العاصون. وفي أثر إلهي: إني والإنس والجن في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر سواي.

وفي أثر حسن ابن آدم ما أنصفتني، خيرني إليك نازل وشرك إلى صاعدكم أتجيب إليك بالنعم وأنا غني عنك وكم تتبغض إلى بالمعاصي وأنت فقير إلي ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بعمل قبيح.

وفي الحديث الصحيح "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم" فهو سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقا يظهر فيهم أحكامها وآثارها فلمحبته للعفو خلق من يحسن العفو عنه، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ويصبر عليه ولا يعاجله، بل يكون يحب أمانه وإمهاله، ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته، ولمحبته للجود والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان فلولا خلق من يجري على أيديهم أنواع المعاصي والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعاف أضعافها فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ذو الحكمة البالغة والنعم السابغة الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته وله في كل شيء حكمة باهرة كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات إنما ذكرنا منه قطرة من بحر وإلا فعقول البشر أعجز وأضعف وأقصر من أن تحيط بكمال حكمته في شيء من خلقه فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب المسخوط له من محبوب له تبارك وتعالى، يتصل في حبه ما حصل به من مكروهه.

والحكيم الباهر الحكمة هو الذي يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذي يبغضه ويسخطه إذا كان طريقا إلى حصول ذلك المحبوب ووجود المألوم بدون لازمه محال فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من السرور والمعاصي ما حصل فكم حصل بسبب وجوده ووجود جنوده من طاعة هي أحب إلى الله وأرضى له، من جهاد في سبيله ومخالفة هوى النفس وشهوتها له وتحمل المشاق والمكاره في محبته ومرضاته وأحب شيء للحبيب أن يرى محبه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته.

من أجلك قد جعلت خدي أرضا للشامت والحسود حتى ترضى، وفي أثر إلهي بغيتي ما يتحمل المتحملون من أجلي، فلله ما أحب إليه احتمال محبيه أذى أعدائه لهم فيه وفي مرضاته، وما أنفع ذلك الأذى لهم وما أحمدهم لعاقبته وماذا ينالون به من كرامة حبيبهم وقربه قرّة عيونهم به، ولكن حرام على منكري محبة الرب تعالى أن يشموا لذلك رائحة أو يدخلوا من هذا الباب أو يذوقوا من هذا الشراب، فقل للعيون العمى للشمس أعين سواك يراها في مغيب ومطلع، وسامح يؤسا لم يؤهل لحبهم فما يحسن التخصيص في كل موضع فان أغضب هذا المخلوق ربه فقد أرضاه فيه أنبياءه ورسله وأوليائه وذلك الرضى أعظم من ذلك الغضب وإن أسخطه ما يجري على يديه من المعاصي والمخالفات فإنه سبحانه أشد فرحا بتوبة عبده من الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه إذا وجدها في المفاز المهلكات، وإن أغضبه ما جرى على أنبيائه ورسله من هذا العدو فقد سره وأرضاه ما جرى على أيديهم من حرية ومعصيته ومراغمته وكتبته وغيظه وهذا الرضى أعظم عنده وأبر لديه من فوات ذلك المكروه المستلزم لفوات هذا المرضي المحبوب، وإن أسخطه أكل آدم من الشجرة فقد أرضاه توبته وإنابته وخضوعه وتذلل بين يديه وانكساره له، وإن أغضبه إخراج أعدائه لرسوله من حرمة وبلدته ذلك الخروج، فقد أرضاه أعظم الرضى دخوله

إليها ذلك الدخول، وإن أسخطه قتلهم أوليائه وأحبائه وتمزيق لحومهم وإراقة دمائهم فقد أرضاه نيلهم الحياة التي لا أطيب منها ولا أنعم ولا ألد في قربه وجواره.

وإن أسخطه معاصي عباده فقد أرضاه شهود ملائكته وأنبيائه ورسله وأوليائه سعة مغفرته وعفوه وبره وكرمه وجوده والثناء عليه بذلك وحمده وتمجيده بهذه الأوصاف التي حمده بها والثناء عليه بها أحب إليه وأرضى له من فوات تلك المعاصي وفوات هذه المحبوبات.

وأعلم أن الحمد هو الأصل الجامع لذلك كله فهو عقد نظام الخلق والأمر، والرب تعالى له الحمد كله بجميع وجوهه واعتباراته وتصاريفه فما خلق شيئاً ولا حكم بشيء إلا وله فيه الحمد فوصل حمده إلى حيث وصل خلقه وأمره حمداً حقيقاً يتضمن محبته والرضا به وعنه والثناء عليه والإقرار بحكمته البالغة في كل ما خلقه وأمر به، فتعطيل حكمته عين تعطيل حمده كما تقدم بيانه، فكما أنه لا يكون إلا حميداً فلا يكون إلا حكيماً فحمده وحكمته كعلمه وقدرته وحياته من لوازم ذاته ولا يجوز تعطيل شيء من صفاته وأسمائه عن مقتضياتها وآثارها فإن ذلك يستلزم النقص الذي يناقض كماله وكبريائه وعظمته. انتهى كلامه رحمه الله. "

وقال الراجحي في شرح عقيدة السلف الصالح اصحاب الحديث: "[ويتيقنون أن الله سبحانه خلق الشياطين يوسوسون للآدميين ويعتدون استزلالهم، ويقصدون استنزالهم، ويترصدون لهم، قال الله عز وجل: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٢١]، وأن الله تعالى يسلطهم على من يشاء، ويعصم من كيدهم ومكرهم من يشاء، قال الله عز وجل: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَعْظَمَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا} [الإسراء: ٦٤ - ٦٥].

وقال: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} [النحل: ٩٩ - ١٠٠ الآية].

يعتقد أهل السنة وأهل الحديث أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، خالق الشياطين وخالق الملائكة، وخالق الآدميين، وخالق الحيوانات والدواب، كما قال سبحانه: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الرعد: ١٦].

وخلق الشياطين لحكمة، والشيطان: هو من لم يؤمن، فكل كافر من الجن يسمى شيطانياً، ومن آمن من الجن لا يسمى شيطانياً، ومن حكمة خلق الشياطين أنهم يوسوسون لبني آدم، ابتلاءً وامتحاناً ليتبين الصادق من الكاذب،

والمؤمن من الكافر، والمجاهد لنفسه من غير المجاهد لها، خلقهم ليغويوا بني آدم، ويزينوا لهم المعاصي ويحسنونها، ويترصدوا لهم، كما قال الله تعالى عن أبيهم إبليس: {قَالَ فِعْزَتِكَ لِأَعْوِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: ٨٢]، وقال في آية الأعراف: {ثُمَّ لَا تَنِيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: ١٧]، وقال في آية أخرى: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر: ٣٩]، فقال الله عز وجل: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: ٤٢].

والسحر موجودٌ كذاكَ السحرة		يجري على أيدِ العصاة الفجرة
ولا يضرُّ السحرُ لو مثقالاً		بغيرِ اذن ربِّنا تعالى
ومن يظنُّ ضرَّهُ قد نالا		بغيرِ إذنِ دينه قد زالاً ^(١)

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الشياطين خلقهم الله وسلطهم على بني آدم لحكمة بالغة؛ ليتبين الصادق من الكاذب، ولينقسم الناس إلى مؤمن وكافر، قال الله عز وجل: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٢١].

وأن الله يسلمهم على من يشاء ويعصم من كيدهم ومكرهم من يشاء، قال الله عز وجل خطاباً لإبليس: {وَاسْتَفْزِرْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِّلْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا} [الإسراء: ٦٤ - ٦٥].
وقال في الآية الأخرى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل: ٩٩ - ١٠٠]، فهذا ابتلاء وامتحان من الله عز وجل لعباده في هذه الحياة قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢].

^١ — قال الراجحي في شرح عقيدة السلف الصالح اصحاب الحديث: "[ويشهدون أن في الدنيا سحراً وسحرة، إلا أنهم لا يضرّون أحداً إلا بإذن الله عز وجل، قال تعالى: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ١٠٢]، ومن سحر منهم واستعمل السحر واعتقد أنه يضر أو ينفع بغير إذن الله تعالى فقد كفر بالله جل جلاله.

وإذا وصف ما يكفر به استتيب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وإذا وصف ما ليس بكفر أو تكلم بما لا يفهم نهي عنه، فإن عاد عزر، وإن قال: السحر ليس بحرام، وأنا أعتقد بإباحته، وجب قتله؛ لأنه استباح ما أجمع المسلمون على تحريمه].

يشهد أهل السنة وأهل الحديث ويعتقدون أن في الدنيا سحراً وسحرة، إلا أنهم لا يضرّون أحداً إلا بإذن الله، خلافاً للمعتزلة الذين أنكروا السحر والسحرة، وقالوا: لو كان هناك سحرة وتجري على أيديهم الخوارق لالتبس الأمر في الأنبياء، فأنكروا خوارق السحرة، وأنكروا كرامات الأولياء؛ لأنها تلتبس بمعجزات الأنبياء، وهذا باطل فالسحر والسحرة موجودون، والله تعالى أخبر في القرآن الكريم بوجودهم، فقال تعالى: {وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ} [البقرة: ١٠٢] إلى

أن قال: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ١٠٢]، فالسحر والسحرة موجودون لكنهم لا يضرون أحداً إلا بإذن الله الكوني القدرى، ومن تعلم السحر أو علمه أو فعله فقد كفر. والسحر في اللغة: عبارة عنما خفي سببه ولطف مأخذه.

وفي الشرع: عبارة عن عزائم ورقى وعقد وأدوية وتمائم تؤثر في القلوب والأبدان فتمرض وتقتل وتفرق بين المرء وزوجه.

والسحر نوعان: النوع الأول: سحر يتصل صاحبه بالشياطين، وحكم صاحبه أنه كافر؛ لأن الساحر الذي يتصل بالشياطين يعقد معهم عقد، يلتزم الساحر بمقتضى هذا العقد أن يكفر بالله عز وجل بأن يتقرب إلى الشيطان بالشركيات التي يريدها، كأن يطلب منه أن يلطخ المصحف بالنجاسة، أو يسجد له أو يتقرب إليه بما يريد، وبمقتضى ذلك فإن الشيطان يستجيب لمطالب الساحر، فيخبره عن بعض المغيبات الموجودة في البلد، وإذا أمره أن يلطم شخصاً لطمه أو أن يقتل شخصاً قتله.

إذاً: هناك عقد بين الساحر وبين الشيطان الجني، بمقتضى هذا العقد تكون بينهما خدمة متبادلة، وهذا النوع من السحر كفر.

والنوع الثاني: سحر لا يتصل صاحبه بالشياطين، لكنه يستعمل الأدوية ويعالج الناس ويضرهم ويأكل أموالهم بالباطل، فتجده يتخذ العلاج مهنة وهو ليس من أهلها، فكل من جاءه يشكو يقول له: عندي علاجك، ويأتي بأنواع من الأعشاب والأدوية فيقول له: هذا تدهن به، وهذا اشربه، وهذا اغتسل به وهكذا، فيأكل أموال الناس بالباطل وقد يضرهم بهذه الأدوية، فهذا حكمه أنه إذا استحل أكل أموال الناس بالباطل فقد كفر، وإن لم يستحلها فإنه مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب، أما الساحر الذي يتصل بالشياطين فإنه كافر ويجب قتله، وإذا قتل فإنه يكون كافراً في أصح قولي العلماء، وعلى هذا فلا يغسل، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين في مقابرهم.

وقيل: إن قتله حد لمنع شره وفساده، والصواب: أنه يقتل كفراً؛ لأنه كافر بالله عز وجل، وفي الحديث: (حد الساحر ضربة بالسيف).

روي موقوفاً ومقطوعاً.

وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عماله أن يقتلوا كل ساحر وساحرة قال الراوي: فقتلنا ثلاث سواحر.

وصح عن حفصة أم المؤمنين أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت.

أما الساحر الذي لا يتصل بالشياطين فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل؛ لأنه يؤذي الناس ويأكل أموالهم بالباطل ويضرهم.

ولا يجوز الإتيان إلى السحرة، ولا سؤالهم ولا العلاج عندهم؛ لأن الإتيان إليهم رفع لمعنوياتهم وفي الحديث: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء فلن تقبل له صلاة أربعين يوماً).

وفي الحديث الآخر: (من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم).

وفي الحديث أيضاً: (ليس منا من سحر أو سحر له، أو تكهن أو تكهن له، أو تطير أو تطير له)، والمريض سواء كان مرضه بالسحر أو بغيره، فإنه يعالج مرضه بالطرق المشروعة لا الممنوعة، أما النشرة: وهي حل السحر عن المسحور، فإن لها حالتان: الحالة الأولى: حلها بسحر مثله فهذا حرام لا يجوز، وفي الحديث: (لا يحل السحر إلا ساحر).

الحالة الثانية: حل السحر بأدوية وعقاقير طبية، أو برقية شرعية: كآيات من القرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية شرعية أو أدعية.

فمثال النشرة الجائزة ما روي عن بعض السلف: أنه يقرأ في إناء فيه ماء سبع آيات في السحر منها خمس آيات في سورة الأعراف وهي: {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: ١١٨ - ١٢٢].

وآية في سورة طه: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [طه: ٦٩].

وآيتان في سورة يونس: {قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: ٨١ - ٨٢].

فتقرأ هذه الآيات في إناء فيه ماء وتصب على رأس المسحور فيشفي بإذن الله، ويسن أيضاً قراءة آية الكرسي والإخلاص والمعوذتين: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} [الفلق: ١] و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس: ١]، وكذلك التعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، ويدعو بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم! رب الناس أذهب الباس، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً)، وكذلك يعالج بالعقاقير والأدوية.

فالساحر إذا سحر أو استعمل السحر واعتقد أنه يضر أو ينفع فإنه يكفر، ولو لم يعتقد أنه يضر وينفع، هذا هو الصواب، قال الله تعالى: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ} [البقرة: ١٠٢]، وكذلك إذا تعلم السحر أو علمه؛ لأن الساحر الذي يتصل بالشياطين لا بد أن يفعل الشرك.

قوله: (وإذا وصف ما يكفر به استتيب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه) هذه مسألة خلافية بين أهل العلم، هل يستتاب الساحر أو لا يستتاب؟! لأهل العلم فيها قولان أصحهما: أنه لا يستتاب الساحر؛ بل يقتل دفعاً لشره وفساده.

وقوله: (وإن وصف ما ليس بكفر أو تكلم بما لا يفهم نهى عنه، فإن عاد عزز، وإن قال: السحر ليس بحرام وأنا أعتقد إباحته وجب قتله؛ لأنه استباح ما أجمع المسلمون على تحريمه)، فوجب قتله لأنه كافر، نسأل الله السلامة والعافية. " .

♦ قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :

" إذا كان قد تسبب في سحره في قتل أحد من الناس ، أو عدوانٍ عليه فيما دون القتل ، فإنه يضمن لحق الآدمي، فإن كان بقتل قصاصاً، وإن كان بتمريض نظر في أمره، وإن كان بإفساد مال ضمن هذا المال " انتهى من "فتاوى نور على الدرب" (١٥ / ٦) .

ومن اعتقد أن السحر يؤثر بذاته دون مشيئة الله وإذنه الكوني القدرى فقد وقع في الكفر الأكبر المخرج من الملة . هذا الاعتقاد ينافي توحيد الربوبية، لأن تصريف الكون والنفع والضرر بيد الله وحده عز وجل .

♦ قال الشيخ ابن باز في فتاويه : " دل كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام على أن السحر قد يقع بالنسبة إلى بعض الناس وقد يؤثر في المسحور بإذن الله تعالى كما قال الله تعالى: { وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } [البقرة: ١٠٢] .

فبين سبحانه أنهم قد يضررون به لكن بإذن الله، يعني بقضاء الله وقدره، ثم قال بعدها: { وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ } [البقرة: ١٠٢]، يعني: اعتاضه { مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [البقرة: ١٠٢]، يعني: باعوا أنفسهم لو كانوا يعلمون، { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [البقرة: ١٠٣] .

فهذا يدل على خطر السحر، وأن صاحبه لا خلاق له عند الله، يعني: لا حظ له ولا نصيب، وأنه ضد الإيمان وضد التقوى وأنه كفر، كما قال عن الملكين أنهم يقولان لمن يتعلم: إنه كفر، { فَلَا تَكْفُرْ } [البقرة: ١٠٢]، { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا } [البقرة: ١٠٢]، يعني: للمتعليم: { إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ } [البقرة: ١٠٢] .

فدل ذلك على أن تعلم السحر وتعليمه والعمل به كفر - نسأل الله العافية - وما ذاك إلا لأنه عبادة للشياطين وتقرب إليهم بالذبائح والندور والدعاء والاستغاثة ونحو ذلك، فلا يكون الساحر ساحراً إلا بتقربه للشياطين والجن وعبادتهم من دون الله تعالى فقد يقع تأثر في المسحور ببغضه لزوجته، أو بغضها لزوجها إذا كانت هي

المسحورة؛ ولهذا قال سبحانه: { فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ } [البقرة: ١٠٢] بين المرء يعني: الرجل، وزوجه يعني: زوجته، { وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } [البقرة: ١٠٢]، يعني: لا يضر السحرة أحداً إلا بإذن الله يعني بمشيئته عز وجل .

فدل ذلك على أن ما يقع من الضرر بمشيئة الله ليس من قدرة الساحر، بل الساحر سبب، والله جل وعلا هو مقدر الأمور سبحانه وتعالى وهو الذي قضاه بحكمته وقدره السابق سبحانه وتعالى، وكل ما في الوجود فهو بمشيئة الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، من كفر وسحر ومعاص وطاعات كله بقدر الله عز وجل وله الحكمة البالغة جل وعلا، كما قال عز وجل: { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا } [الحديد: ٢٢]، قال تعالى: { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر: ٤٩]، فالأمر كلها بيده ولا يقع منها شيء في هذه الدنيا إلا بمشيئته سبحانه وتعالى وقدره السابق، فالطاعات بقدره السابق والمعاصي بقدره السابق والعبد له اختيار وله مشيئة يفعل ويختار، ويعرف ما يضره وما ينفعه فهو مؤاخذ باختياره إذا اختار ما يضره، كما أنه مثاب إذا اختار ما ينفعه من طاعات الله عز وجل، ولكنه مع هذا تابع لمشيئة الله، كما قال سبحانه: { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } [التكوير: ٢٨] { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [التكوير: ٢٩]، قال سبحانه: { فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ } [المدثر: ٥٥] { وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } [المدثر: ٥٦] .

وقد يكون السحر تخيلاً وتزويراً ليس له أثر في بدن الإنسان، كما قال جل وعلا في قصة موسى وفرعون: { يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } [طه: ٦٦]، فهم أوجدوا حبالاً وعصياً أمام الناس فظنهم الناس حيات في الأرض، وإنما هي حبال وعصي، لكن خيل للناس أنها حيات لما فعلوا من التزوير والتضليل على عيونهم بأشياء عرفوها وأقدرهم الله عليها، حتى ظن العصي والحبال ظنها المشاهدون حيات وخافوا منها، والحقيقة أنها ليست حيات، ولكنها حبال وعصي؛ ولهذا يقول سبحانه: { يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } [طه: ٦٦]، بخلاف يد موسى فإنها حقيقة، وبخلاف عصاه فإنها حقيقة، جعل الله العصا حية تسعى، ثم أعادها سبحانه سيرتها الأولى جل وعلا، وهكذا يده جعلها بيضاء ليس فيها مرض ولكنه آية، فعرفت بهذا أيها السائل وأيها المستمع أن السحر له حالان: أحدهما: حقيقية تؤثر في المسحور بمرض أو قتل أو بغضاء بينه وبين صاحبه أو بينه وبين زوجته.

والحال الثاني: تخييل وتزوير، وليس لها أثر في نفس الإنسان، ولكنه يخيل إليه أن زوجته غير زوجته، وأن أخاه غير أخاه، وأن صاحبه غير صاحبه وهكذا، فيخيل إليه أشياء تنفره من صاحبه، وتنفره من زوجته، أو تنفرها من زوجها بسبب ما وضعوا من الأشياء التي شوهدت منظر الزوج أو الزوجة أو صاحب؛ حتى صار غير حاله الأولى، فوقع البغضاء والتغير والتكدر لما حصل من التزوير والتخييل من الساحر بين هذا وهذا، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وله علاج والحمد لله، الله جعل له علاجاً من القرآن الكريم؛ فإن الله جعل في القرآن شفاء من كل داء، فالقراءة على المسحور من آيات الله التي نزلت في السحر وآية الكرسي، { وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } [الكافرون: ١]، { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [الإخلاص: ١] وسورتي المعوذتين، هذه إذا قرئت على المسحور أو قرئ عليه بها ودعي له بالعافية ينفعه الله بذلك، أو تقرأ في ماء ينفث في الماء آيات السحر التي في الأعراف، والتي في يونس، والتي في طه،

ثم يقرأ معها آية الكرسي و {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: ١] و {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] والمعوذتين، ثم يشرب منها المسحور أو المسحورة أو المحبوس عن زوجته ثلاث حسوات، ثم يغتسل بالباقي، هذا بإذن الله مجرب لزوال السحر وزوال الحبس الذي حبس عن زوجته، هذا مجرب وواقع والحمد لله، وهو من الدواء النافع المجدي الناجع بحمد الله.

وقد يعرف المسحور من سحره في مسامير ينظم بعضها في بعض، أو في شعر عقد بعضه ببعض أو خرق أو أشباه ذلك قد يعرفها المسحور، فإذا عرفها وأزالها بطل السحر، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والآيات التي تقرأ من سورة الأعراف قوله تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ فَغَلِبُوا هنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ } [الأعراف: ١١٩]، ومن سورة يونس: { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ } [يونس: ٧٩] { فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ } [يونس: ٨٠] { فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ } [يونس: ٨١] وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ [يونس: ٨٢]، وفي سورة طه يقول سبحانه: { قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى } قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كِبَيدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى [طه: ٦٩]، فهذه الآيات وآية الكرسي و {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: ١]، و {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١]، و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} [الفلق: ١] و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس: ١].

كلها تقرأ في الماء أو على المسحور أو المحبوس عن زوجته، ويدعى له بالشفاء والعافية بالدعاء المشهور الذي علمه النبي أصحابه عليه الصلاة والسلام، اللهم رب الناس أذهب البأس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً، وإذا كررها ثلاثاً كان أحسن؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان إذا دعا دعا ثلاثاً، وهكذا الدعاء المشهور الذي رقى به جبرائيل النبي عليه الصلاة والسلام باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك، هذا أيضاً ينبغي أن يكرر ثلاثاً، كما فعل جبرائيل مع النبي صلى الله عليه وسلم فإنه رقا به هذه الرقية العظيمة، باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك، وإذا دعا له معه بدعوات أخرى فلا بأس، من الدعوات الطيبة، كاللهم اشفه وعافه، اللهم أزل عنه السوء، اللهم أبرئه من مرضه، نحو هذه الدعوات لا بأس، كله طيب.

المقدم: بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً، شيخ عبد العزيز كون السحر يقع هل يخرج عن قدرة الله وإرادته؟

الشيخ: مثلما تقدم، كله بمشيئة الله، مثلما قال سبحانه: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ١٠٢].

فالشيء كله بإذن الله وقضائه، إذا أراده سبحانه وقع، وإذا ما أراده لم يقع، ولو فعل الساحر ما فعل.

وهناك أشياء ينبغي التحرز منها ومن غير هؤلاء وهي: التعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق صباحاً ومساءً ثلاث مرات، وقول: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات صباحاً ومساءً، كل هذا من أسباب السلامة من السحر والعين وغير ذلك، كذلك قراءة آية الكرسي بعد كل صلاة وقراءتها عند النوم، كذلك قراءة قل هو الله أحد والمعوذتين بعد كل صلاة مرة، وبعد الفجر والمغرب ثلاث مرات، كل هذا من أسباب العافية من كل سوء ياذن الله عز وجل.

المقدم: جزاكم الله خيراً، شيخ عبدالعزيز سمعت من بعض طلبة العلم إنكاره للسحر حتى أنه قال: اتنوا بالسحرة ليسحروني إن كانوا صادقين، توجيهكم لو سمحتوا ولا سيما إذا كانت هذه العبارة من شخص مشهور وله شعبية لا بأس بها؟

الشيخ: هذا جهل وغلط، هذه المقالة تصدر عن جهل، فقد سحر النبي ﷺ وهو أفضل الخلق، وقد صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه سحر وعافاه الله من ذلك وشفاه الله سبحانه وتعالى، هذا شيء معروف، وقد أجمع المسلمون على أنه يقع ياذن الله سبحانه وتعالى، لكن بعضه يؤثر على المريض وبعضه بالتخييل كما تقدم.

ولا يجوز تصديق الجني إذا ادعى أن فلاناً هو من صنع السحر، فشياطين الجن بطبيعتهم معروفون بالكذب، ويهدفون من هذه الادعاءات إلى إشعال الفتنة، ونشر العداوة والبغضاء، وتخريب العلاقات الأسرية والاجتماعية. والأصل في الإسلام هو براءة ذمة المسلم، ولا يجوز اتهام أي شخص أو مقاطعته إلا بوجود دليل مادي قاطع وشهود.

فإلقاء التهم بمجرد "كلام الجن" يعد ظلماً محرماً، وقد تسببت هذه الأقوال في قطيعة الرحم وتدمير الكثير من العلاقات.

فيجب التركيز على الرقية الشرعية وتحصين النفس، وعدم الانشغال بالبحث عن الفاعل أو تصديق هذه الادعاءات، حيث تهدف الرقية للشفاء وليس للتحقيق.

فلا يصدق الجني الذي يتكلم على لسان المصاب بالسحر إن ذكر اسم من سحره؛ فشأن الشياطين الكذب، وربما يكون المقصود من ذلك الفتنة، وإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، وعادة السحرة والشياطين السعي في تفريق القلوب، كما قال تعالى: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [البقرة: ١٠٢]، وثبت في صحيح مسلم عن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته - قال - فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت.

والفخر(١) والآثام(٢) ثم فلتدع

ولتجنب سبيل اصحاب البدع(٣)

فالأصل براءة الذمة وانتفاء التهمة، فلا يجوز أن يساء الظن بالمسلم من غير بينة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث.

١ - الواجب التمسك بالسنة التي درج عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، والحذر مما أحدثه الناس، هذا هو الواجب على جميع الثقلين: السير على الصراط المستقيم الذي درج عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، والحرص على اتباع ما جاء به صلى الله عليه وسلم، والحذر مما أحدثه الناس، قال الله جل وعلا: {فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ} [يونس: ٣٢]، الحق هو: ما بعث الله به نبيه صلى الله عليه وسلم، وما كان ضده فهو الضلال، قال جل وعلا: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [آل عمران: ٣١]، فالمغفرة والسعادة في اتباع ما جاء به عليه الصلاة والسلام، وذلك سبب لمحبة الله لعبده وتوفيقه له، وقال جل وعلا: {فَإِنْ تَنَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء: ٥٩]، وقال: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [المائدة: ٩٢]. فالواجب على جميع الثقلين -الجن والإنس- طاعة الله ورسوله، والسير على الصراط المستقيم الذي رسمه الله لعباده، وهو اتباع الكتاب والسنة.

وقد ذمَّ الله من شرع في الدين ما لم يأذن به الله: فقال سبحانه: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} [الشورى: ٢١]، وقال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى يُعَلِّمُ عِبَادَهُ: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦] الصراط المستقيم هو: توحيد الله، وطاعته، واتباع شريعته، والإيمان به، وبرسوله عليهم الصلاة والسلام، ولا سِماً خاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله، والسير على المنهاج الذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: بأداء الفرائض، وترك المحارم، والوقوف عند حدود الله، هذا هو الصراط المستقيم.

وفي الحديث: عن عائشة رضي الله عنها: يقول النبي صلى الله عليه وسلم: مَنْ أحدث في أمرنا يعني: في ديننا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ، وفي اللفظ الآخر: مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ، فالمعنى: مَنْ أحدث في الدين شيئاً -صلاةً أو صياماً أو غير ذلك- لم يشرعه الله فهو مردودٌ، يجب على الناس اتباع ما شرعه الله، أمَّا الحوادث فيجب ردُّها، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ.

وفي حديث جابر: يقول صلى الله عليه وسلم: إِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، ومن ذلك ما أحدثه الناس من البناء على القبور، واتخاذ المساجد عليها،

هذه من وسائل الشرك -والعياذ بالله- اتخاذ القباب على القبور كل هذا من وسائل الشرك، واتخاذ المساجد عليها، أو وضعهم في المساجد وجعل القبور في المساجد، كل هذا من وسائل الشرك ومن البدع المحدثه. ولأهل البدع علامات كثيرة متعددة، منها: شدة معاداتهم لأهل السنة والحديث،

♦ قال الإمام الصابوني رحمه الله في كتابه "عقيدة السلف وأصحاب البدع": علامات أهل البدع على أهلها ظاهرة بادية، وأظهر آياتهم وعلاماتهم: شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي صلى الله عليه وسلم، واحتقارهم لهم، وتسميتهم إياهم حشوية، وجهلة، وظاهرية، ومشبهة، اعتقاداً منهم أن أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعزل عن العلم، وأن العلم ما يلقيه الشيطان إليهم، من نتائج عقولهم الفاسدة، ووساوس صدورهم المظلمة، وهواجس قلوبهم الخاوية عن الخير، العاطلة، وحججهم بل شبههم الداحضة الباطلة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣] ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

♦ وقال الإمام اللالكائي رحمه الله في كتابه "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة": قال بقية: قال لي الأوزاعي رحمه الله: يا أبا محمد، ما تقول في قوم يغيضون حديث نبيهم؟ قال: قوم سوء. ليس من صاحب بدعة تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف بدعته إلا أبغض الحديث. وأهل البدع مختلفون، مستوحشون، متباغضون، قال الإمام العكبري رحمه الله في كتابه "الإبانة عن شريعة الفرق الناجية": "أعاذنا الله وإياكم من الآراء المخترعة، والأهواء المتبعة، والمذاهب المبتدعة، فإن أهلها خرجوا عن اجتماع إلى شتات، وعن نظام إلى تفرق، وعن أنس إلى وحشة، ومن ائتلاف إلى اختلاف، ومن محبة إلى بغضة، ومن نصيحة وموالاتة إلى غش ومعاداة.

وقد ذكر أهل العلم أنه لا يُصَلَّى خلف أهل البدع، قال الإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمه الله في كتابه "السنة": سألت أبي عن الصلاة خلف أهل البدع، قال: لا يُصَلَّى خلفهم، مثل الجهمية والمعتزلة.

والشغب، والكذب، والكفر عند أهل البدع، قال الإمام ابن البناء الحنبلي رحمه الله في كتابه "الرد على المبتدعة": قال هارون الرشيد: طلبت أربعة فوجدتها في أربعة: طلبت الكفر فوجدته في الجهمية، وطلبت الكلام والشغب فوجدته مع المعتزلة، وطلبت الكذب فوجدته مع الرافضة، وطلبت الحق فوجدته مع أصحاب الحديث.

والبدع لا تظهر إلا بمعاونة السلطان وتزيين الشيطان، قال الإمام اللالكائي رحمه الله في كتابه: "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة": مقالة أهل البدع لم تظهر إلا بسلطان قاهر أو بشيطان معاند فاجر يضل الناس خفياً ببدعته، أو يقهر ذاك بسيفه وسلطانه أو يستميل القلوب بماله ليضلّه عن سبيل الله حمية لبدعته وذباً عن ضلالته ليرد المسلمين على أعقابهم، ويفتنهم عن أديانهم، بعد أن استجابوا لله وللرسول.

ومن مال إلى بدعة، فسيكون متحيراً ميت القلب، قال قوام السنة الأصهباني رحمه الله في كتابه "الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة": قال أهل السنة: لا نرى أحداً مال إلى هوى أو بدعة إلا وجدته متحيراً، ميت القلب ممنوعاً من النطق بالحق.

إن من أسباب وقوع البعض في البدع: كثرة السؤال عما لا يعني، ومجالسة أهل البدع، قال الإمام العكبري رحمه الله في كتاب "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية": اعلّموا إخواني أنني فكرت في السبب الذي أخرج أقوامًا من السنة والجماعة، واضطّروهم إلى البدعة والشناعة، وفتح باب البلية على أفئدتهم، وحجب نور الحق عن بصيرتهم، فوجدت ذلك من وجهين:

أحدهما: البحث والتنقيب وكثرة السؤال عما لا يعني، ولا يضر العاقل جهله، ولا ينفع المؤمن فهمه. والآخر: مجالسة من لا تؤمن فتنته، وتفسد القلوب صحبته.

وللوقاية من البدع أسباب، منها:

الأول: أن يترك المسلم السؤال عما لا يعنيه والبحث والتنقيب عما لا يضره جهله، قال الإمام العكبري رحمه الله في كتابه "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية": الله الله إخواني يا أهل القرآن ويا حملة الحديث، لا تنظروا فيما لا سبيل لعقولكم إليه، ولا تسألوا عما لم يتقدمكم السلف الصالح من علمائكم إليه، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا قوة بأبدانكم الضعيفة، ولا تنقروا ولا تبحثوا عن مصون الغيب، ومكنون العلوم، فإن الله جعل للعقول غاية تنتهي إليها، ونهاية تقصر عنها، فما نطق به الكتاب وجاء به الأثر فقولوه، وما أشكل عليكم فكلوه إلى عالمه... أتراكم أرجح أحلامًا وأوفر عقولًا من الملائكة المقربين حين قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

السبب الثاني: أن يتجنب مصاحبة ومجالسة أهل البدع، أو الاختلاط بهم، قال الإمام الأشعري رحمه الله، في "رسالته إلى أهل الثغر": أجمعوا على ذم سائر أهل البدع والتبري منهم وهم: الروافض، والخوارج والمعتزلة والقدرية، وترك الاختلاط بهم

وقال الإمام العكبري رحمه الله في كتابه "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية": فالله الله إخواني، احذروا من مجالسة من قد أصابته الفتنة فراغ قلبه وعشيت بصيرته واستحكم للباطل نصرته، فهو يخطب في عشواء ويعشو في ظلمة أن يصيبكم ما أصابهم.

لا يحملن أحدًا منكم حسن ظنه بنفسه وما عهده من معرفته بصحة مذهبه على المخاطرة بدينه في مجالسة بعض أهل هذه الأهواء فيقول: أداخله لأناظره أو لا ستخرج منه مذهبه، فإنهم أشد فتنة من الدجال، وكلامهم ألصق من الجرب، وأحرق للقلوب من اللهب، ولقد رأيت جماعة من الناس كانوا يلعنونهم ويسبّونهم، فجالسوه على سبيل الإنكار والرد عليهم، فما زالت بهم المباشطة وخفي المكر ودقيق الكفر حتى صبا إليهم.

وقال رحمه الله في كتابه "الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة": لا تشاور أحدًا من أهل البدع في دينك، ولا ترافقه في سفرك، وإن أمكنك ألا تقاربه في جوارك... ولا تجالس أصحاب الخصومات فإنهم يخوضون في آيات الله.

♦ وقال الإمام الصابوني رحمه الله في كتابه "عقيدة السلف وأصحاب الحديث": "أهل السنة والجماعة... يبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم، ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونهم، ولا يجادلونهم في الدين ولا يناظرونهم، ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرّت بالآذان وقُرّت في القلوب ضرّت، وجرت إليها من الوسوس والخطرات الفاسدة ما جرّت، وفيه أنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]. السبب الثالث: عدم قراءة كتبهم، قال الحافظ ابن عساكر رحمه الله في كتابه "تبيين كذب المفتري": وجدت تصانيف كثيرة في هذا الفن من العلم للمعتزلة، مثل: عبد الجبار الرازي، والجبائي، والكعبي، والنظام، وغيرهم، ولا يجوز إمساك تلك الكتب ولا النظر فيها، كيلا تحدث الشكوك ويوهن الاعتقاد، فكذا المجسمة صنفوا كتباً في هذا الفن، مثل: محمد بن الهيصم، وأمثاله، ولا يحل النظر فيها ولا إمساكها، فإنهم شر أهل البدع، وقد وقع في يدي بعض هذه التصانيف فما أمسكت منها شيئاً.

السبب الرابع: بغض أهل البدع: قال الإمام الصابوني رحمه الله في كتابه "عقيدة السلف وأصحاب الحديث": إحدى علامات أهل السنة: حبهم لأئمة السنة وعلمائهم وأنصارها وأوليائها، وبغضهم لأهل البدع، الذين يدعون إلى النار، ويدلون أصحابهم على دار البوار، وقد زين الله سبحانه قلوب أهل السنة ونورها بحب علماء السنة. السبب الخامس: اتباع مذهب السلف، قال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي رحمه الله، في كتابه "أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمتشبهات": من السلامة للمرء في دينه اقتفاء طريقة السلف، الذين أمر أن يقتدي بهم من جاء بعدهم من الخلف، فمذهب السلف أسلم، ودع ما قيل من أن مذهب الخلف أعلم، فإنه من زخرف الأقاويل، وتحسين الأباطيل، فإن أولئك قد شاهدوا الرسول والتنزيل، وهم أدرى بما نزل به الأمين جبريل، ومع ذلك فلم يكونوا يخوضون في حقيقة الذات، ولا في معاني الأسماء والصفات، ويؤمنون بمتشابه القرآن، وينكرون على من يبحث عن ذلك من فلان وفلان، وإنكار الإمام مالك على من سأله عن معنى الاستواء أمر مشهور.

السبب السادس: ترك الجدل والمراء في الدين، قال الإمام العكبري رحمه الله، في كتابه "الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة": إياك والمراء والجدال في الدين، فإن ذلك يحدث الغل ويخرج صاحبه وإن كان سنياً إلى البدعة؛ لأن أول ما يدخل على السني من النقص في دينه إذا خاصم المبتدع مجالسته للمبتدع ومناظرته إياه، ثم لا يأمن أن يدخل عليه من دقيق الكلام، وخبيث القول ما يفتنه، أو لا يفتنه، فيحتاج أن يتكلف له من رأيه مما يرد عليه قوله مما ليس له أصل في التأويل ولا بيان في التنزيل ولا أثر من أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال قوام السنة الإمام الأصبهاني رحمه الله في كتابه "الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة": قال محمد بن مزاحم: سمعت أخي سهل بن مزاحم يقول: مثل الذي ينازع في الدين، مثل الذي يصعد على الشرف، إن سقط هلك، وإن نجا لم يحمده.

السبب السابع: التسليم للنصوص وعدم الاعتراض عليها، قال الإمام الزهري رحمه الله: على الله البيان وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم. وقال بعض السلف: قدم الإسلام لا يثبت إلا على قنطرة التسليم.

♦ وقال الإمام اللالكائي رحمه الله في كتابه "شرح أصول أهل السنة والجماعة": "لم نجد في كتاب الله وسنة رسوله وآثار صحابته إلا الحث على الاتباع، وذر التكلف والاختراع، فمن اقتصر على هذه الآثار كان من المتبعين، وكان أولاهم بهذا الاسم، وأحقهم بهذا الوسم، وأخصهم بهذا الرسم: "أصحاب الحديث"؛ لاختصاصهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، واتباعهم لقوله، وطول ملازمتهم له، وتحملهم علمه، وحفظهم أنفاسه وأفعاله.

السبب الثامن: اجتناب الشاذ من أقوال العلماء: قال الإمام الدارمي رحمه الله، في كتابه "الرد على الجهمية": إن الذي يريد الشذوذ عن الحق يتبع الشاذ من قول العلماء، والذي يؤم الحق في نفسه يتبع المشهور من قول جماعتهم، ويتقلب مع جمهورهم، فهما آيتان بيتان يُستدلُّ بهما على اتباع الرجل وعلى ابتداعه.

السبب التاسع: الحذر من الزواج بامرأة من أهل البدع، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في كتاب "تهذيب التهذيب": عمران بن حيطان بن ظبيان بن لوزان بن عمرو بن الحارث بن سدوس... السدوسي قال يعقوب بن شيبة: صار في آخر أمره أن رأى رأي الخروج، كان سبب ذلك فيما بلغنا أن ابنة عمه رأت رأي الخوارج، فتزوجها ليُرَدَّها عن ذلك، فصرفته إلى مذهبها.

١ - إن من آيات الله عز وجل أن خلق الناس مختلفين، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، قال تعالى: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} [الزخرف: ٣٢]، لكن هذا الاختلاف لا يعني أفضلية أحد على أحد. فليس الغني بأفضل من الفقير، ولا ذو الحسب والنسب بأفضل ممن ليس كذلك. قال الله تعالى: {فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى} [النجم: ٣٢]. أي: لا تبرئوها عن الآثام ولا تمدحوها بحسن أعمالها.

وعن عياض بن حمار - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: - ((إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد)) رواه مسلم.

ولو دقت النظر لوجدت غالب ما يفخر به الناس ليس من كسبهم، كالنسب والغنى والصحة والوظيفة... إلخ.

التفاخر بالأنساب:

إن أساس التفاضل بين الناس عند الله تعالى هو التقوى، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣]. إلا أن بعض الناس قد يجعل من نسبه أو وضعه الاجتماعي أو المادي مصدراً للفخر والمباهاة، وقد نهى ديننا الحنيف عن التفاخر والتعالي على الناس بسبب النسب، وجعله من بقايا الجاهلية. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَشْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَخْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ،

والتَّيَّاحَةُ)) رواه مسلم. وأعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم صريحة أن الأنساب لا تغني عن العبد شيئاً ما لم يكن ذا عمل يقربه من ربه فقال : ((مَنْ بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)) رواه مسلم.

ولا شك أن للنسب مكانة بين الناس، لذلك لم يأت الإسلام بإلغائه نهائياً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإنَّ صلة الرَّحِمِ محبَّةٌ في الأهلِ مَثْرَاءٌ في المالِ مَنَسَاءٌ في الأثرِ)) رواه الترمذي وأحمد. وإنَّما دعا إلى تهذيبه وعدم التفاخر والتعالي على الناس بسببه. وما جعل الله الناس شعوباً وقبائل إلا لأجل أن يعرف بعضهم بعضاً بتمييز القبيلة والجنس كالتمييز بالاسم لا لأجل التفاخر. أما حينما يستعمل في الفخر المذموم والتعالي على الناس فقد حذر منه الشرع أشد التحذير، حتى إن رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم يقول : ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)) أي: كبرها (وفخرها بالآباءِ ، الناسُ بنو آدَمَ ، وآدَمُ من ترابٍ ، مؤمِّنٌ تَقِيٌّ ، وفاجرٌ شَقِيٌّ ، لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِرِجَالٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ جَهَنَّمُ ، أو لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلَانِ ؛ التي تدفعُ النَّتَنَ بِأَنْفِهَا)) رواه الترمذي.

التفاخر بالمال:

كما نهى الإسلام عن التفاخر والمباهاة بالمال، وبيَّن أنَّ ملكيته الحقيقية لله عزَّ وجلَّ، فقال تعالى : { لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [البقرة: ٢٨٤] ، وأنَّ الإنسان مستخلف فيما خوله من فضله ومنحه من رزقه، قال تعالى { وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ } [الحديد: ٧] وقال عز وجل { وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } [الأنعام: ١٦٥]، يقول ابن عطية رحمه الله: (ليختبركم في الذي أنعم به عليكم، أي امتحنكم ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره). وفي صحيح مسلم أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال ((إنَّ الدنيا حلوة خضرة، وإنَّ الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون)) رواه مسلم، لذلك على المسلم ألا يفخر ولا يباهي الآخرين بماله، بل عليه أن يعرف أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو مَنْ وهب ومنح، وأنَّ من واجبه الشكر وصرفه في وجوهه المشروعة؛ لأنَّه مسؤول عن هذا المال كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ أَكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جَسَمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ)) رواه الترمذي.

التفاخر بالعلم:

الأصل أن العبد كلما ازداد علماً ازداد تواضعاً لله عز وجل وخشية له، قال الله تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر: ٢٨] . قال ابن كثير رحمه الله: أي : (إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى – كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر).

لكن بعض الناس إذا تعلم تكبر بعلمه، وارتفع على الناس، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أشد التحذير من المراءاة والتكبر بالعلم وابتغاء غير وجه الله تعالى بهذا العلم، فقال ((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ

لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءُ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وَجْهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ)) رواه ابن ماجه. فالأصل أن يكون طلب العلم لوجه الله؛ ليعمل به العبد ويتقرب إلى مولاه. ومن كان كذلك زاده علمه تواضعا كما كان حال النبي صلى الله عليه وسلم يرقع ثوبه بنفسه، ويحلب شاته، ويجلس على الأرض، ويصافح الغني والفقير، ويقول ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر)) رواه أحمد والترمذي.

وهناك أسباب أخرى تدعو بعض الناس إلى المباهاة والتفاخر كالمنصب والجمال، ولو تفكر العبد وتدبر لوجد أن الله عز وجل هو المنعم المتفضل؛ فلا معنى لعجب عامل بعمله، ولا جميل بجماله ولا ذو مال بماله. قال النبي صلى الله عليه وسلم ((إن الله أوحى إلي أن تواضعوا)). وفي هذا علاج لكثير من آفات النفوس وإعجاب المرء بنفسه أو بشيء مما أنعم الله به عليه. وإذا جعل الإنسان التواضع شعارا له كان من ذوي الخصال الحميدة والشيم الكريمة من الرحمة وحسن الخلق وسلامة الصدر، لذلك نجد الله عز وجل يعد المتواضعين الذين لا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء والمباهاة بما أنعم الله عز وجل عليهم بقوله { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص: ٨٣].

وقد اشتهر عن علي رضي الله عنه وأرضاه أنه قال:

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم نسب يفاخرون به فالطين والماء

١ — الايات الواردة في كتاب الله تعالى في التحذير من الذنوب والمعاصي وانها سبب لكل شر وبلاء كثير جدا وكذلك الشأن مع الاحاديث النبوية الشريفة فقد حذرنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من خطورة المعاصي في كثير من أحاديثه الشريفة، وسوف نذكر بعضاً منها:

• روى الشيخان عن أبي بكرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً فقال - ألا وقول الزور))، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت)).

• روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات "المهلكات")، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: ((الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات (العفاف) المؤمنات الغافلات)).

• روى الشيخان عن زينب بنت جحش رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فرعاً يقول: ((لا إله إلا الله، ويل للعرب، من شر قد اقترب، فتُح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه))، وحلَّق بإصبعه

الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفيما الصالحون؟ قال: ((نعم، إذا كثر الخبث "أي المعاصي").

- روى البخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)). قالوا: يا رسول الله، ومن أبى؟ قال: ((مَن أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أبى)).
- روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلَّله منه اليوم، قبل ألا يكون دينارٌ ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِلَ عليه)).
- روى مسلمٌ عن حذيفة بن اليمان، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا يدخل الجنة نَمَام)).
- روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَلَ الرِّبَا، وَمُؤْكَلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدِيهِ)، وقال: ((هم سَوَاءٌ)).

• روى مسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((مَن حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَن غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)).

• روى مسلمٌ عن أبي ذر الغفاري، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ((يا عبادي، إني حَرَمْتُ الظلمَ على نفسي، وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا)).

• روى مسلم عن عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبَرٍ)). قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنةً، قال: ((إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ)).

• روى أبو داود عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمَشُونَ وَجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قال: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحُومَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ)). (حديث صحيح)، (صحيح أبي داود - للألباني).

كما حذر سلفنا الصالح نصحا للامة من خطورة الذنوب والمعاصي في مواطن كثيرة واليك بعضها :-

• قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (يا أهل مكة، اتقوا الله في حرمكم هذا، أتدرون مَن كان ساكن حرمكم هذا من قبلكم؟ كان فيه بنو فلانٍ فأحلُّوا حرمةَ فلهلكوا، وبنو فلانٍ فأحلُّوا حرمةَ فلهلكوا، حتى عد ما شاء الله، ثم قال: والله لأن أعملَ عشرَ خطايا بغيره أحب إليَّ من أن أعملَ واحدةً بمكة)؛ (شعب الإيمان - للبيهقي - ج ٥ - ص ٤٦٤ - رقم: ٣٧٢٣).

• قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (توشك القرى أن تخرب وهي عامرة، قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجَّارُها أبرارُها، وساد القبيلة منافقوها)؛ (الجواب الكافي - لابن القيم - ص ٧٢).

- قال عبدالله بن مسعود: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ مر على أنفه، فقال به هكذا)؛ (البخاري حديث: ٦٣٠٨).
- قالت عائشة زوجة نبينا صلى الله عليه وسلم: (أقلُّوا الذنوب؛ فإنكم لن تلقوا الله بشيءٍ أفضل من قلة الذنوب)؛ (الزهد لوكيع بن الجراح - ص ٥٣٥ - رقم: ٢٧٣).
- قال عبدالله بن عباس: (يا صاحب الذَّنْب، لا تأمَنَّ من سوء عاقبته، ولَمَّا يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا علمته؛ فإن قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال، وأنت على الذنب، أعظم من الذنب الذي عملته، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا حرَّكت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته)؛ (حلية الأولياء - أبو نعيم الأصبهاني - ج ١ - ص: ٣٢٤).
- قال عبدالله بن عباس: (إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وسعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمةً في القبر والقلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق)؛ (الجواب الكافي - لابن القيم - ص ٧٩).
- قال عبدالرحمن بن أبي ليلى: (كتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن مخلد: أما بعد، فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله، فإذا أحبه الله، حبَّبه إلى خلقه، وإن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، فإذا أبغضه الله بغَّضه إلى خلقه)؛ (الزهد لوكيع بن الجراح - ص ٨٤٧ - رقم: ٥٢٤).
- روى أبو نعيم عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: (ليحذر امرؤ أن تُبغِضَه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر)، ثم قال: (أتدري ما هذا؟) قلت: لا، قال: (العبدُ يخلو بمعاصي الله عز وجل، فيُلقي الله بُغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر)؛ (حلية الأولياء - أبو نعيم الأصبهاني - ج ١ - ص: ٢١٥).
- روى أبو نعيم عن جبير بن نفير قال: لما فُتحت قبرص فُرِّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، ورأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: (ويحك يا جبير! ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره! بينا هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى)؛ (حلية الأولياء - أبو نعيم الأصبهاني - ج ١ - ص: ٢١٦).
- قال عمر بن عبدالعزيز إن الله تبارك وتعالى لا يعذب العامة بذنوب الخاصة، ولكن إذا عُمل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم)؛ (العقوبات - لابن أبي الدنيا - ص ٥١ - رقم: ٥٥).
- قال محمد بن واسع: (الذنب على الذنب يُميت القلب)؛ (العقوبات - لابن أبي الدنيا - ص ٥٨ - رقم: ٧٠).

- قال مالك بن دينار: (إن الله عز وجل إذا غضب على قوم، سلط عليهم صيانتهم)؛ (العقوبات - لابن أبي الدنيا - ص ٦٠ - رقم: ٧٤).
- قال مكحول الشامي: (رأيت رجلاً يبكي في صلاته، فاتهمته بالرياء، فخرمت البكاء سنة)؛ (العقوبات - لابن أبي الدنيا - ص ٦٣ - رقم: ٨٣).
- قال أبو بكر بن عياش: (لما أذنب بنو إسرائيل، سلط الله عليهم الروم فسبوا نساءهم)؛ (العقوبات - لابن أبي الدنيا - ص ٥٥ - رقم: ٦٠).
- قال قتادة بن دعامة: (إن دواب الأرض تدعو على خطائي بني آدم إذا احتبس القطر في السماء، يقولون: هذا عمل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم)؛ (العقوبات - لابن أبي الدنيا - ص ٦٩ - رقم: ١٠١).
- قال الفضيل بن عياض: (بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، ويقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله)؛ (سير أعلام النبلاء - للذهبي - ج ٨ - ص ٤٢٧).
- قال الفضيل بن عياض: (إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي)؛ (ذم الهوى - لابن الجوزي - ص ١٨٥).
- قال سليمان التيمي: (إن الرجل ليصيب الذنب في السر، فيصبح وعليه مذنبته)؛ (صفة الصفوة - لابن الجوزي - ج ٢ - ص ١٧٧).
- قال كعب الأحبار: (إنما تنزل الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي، فترعد فرقا خوفاً من الرب جل جلاله أن يطلع عليها)؛ (العقوبات - لابن أبي الدنيا - ص ٣١ - رقم: ٢١).
- روى أبو نعيم عن ابن عون، عن محمد بن سيرين: أنه لما ركب الدّين اغتمّ لذلك، فقال: (إني لأعرف هذا الغمّ بذنب أصبته منذ أربعين سنة)؛ (حلية الأولياء - أبو نعيم الأصبهاني - ج ٢ - ص ٢٧١).
- قال الحسن البصري: (إن المؤمن لا يصبح إلا خائفاً، ولا يصلحه إلا ذاك؛ لأنه بين ذنبتين: ذنب مضى لا يدري كيف يصنع الله فيه، وآجل، أو قال: آخر، لا يدري ما كتب عليه فيه)؛ (الزهد - أحمد بن حنبل - ص ٢٢٦ - رقم: ١٥٩٤).

١ - فلا ريب أن السعي للإفساد بين المسلمين وتحريض بعضهم على بعض من أعظم المنكرات ومن كبائر الذنوب، فعن أبي الدرداء قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا بَلَى، قَالَ: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ. رواه أبو داود.

قال العظيم آبادي: أي هي الخصلة التي من شأنها أن تحلق الدين وتستأصله كما يستأصل موسى الشعر، وفي الحديث حث وترغيب في إصلاح ذات البين واجتناب عن الإفساد فيها، لأن الإصلاح سبب للاعتصام بحبل الله وعدم التفرق بين المسلمين وفساد ذات البين ثلثة في الدين.

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة. رواه الترمذي.

♦ قال المناوي: أي التسبب في المخاصمة والمشاجرة بين اثنين أو قبيلتين بحيث يحصل بينهما فرقة أو فساد، فإنها الحالقة أي الماحية للشواب المؤدية إلى العقاب.

كما أن إثارة النزعات الجاهلية وإحياء العصبية للجنسيات والبلدان أمر مخالف للشريعة ومناف لمقاصده وقد نهى الله عن الفرقة والتحزب، وأمر الله بالاجتماع، ونهى عن الاختلاف: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٦]، ويقول - جل وعلا -: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]، فالله عز وجل أمر بالاجتماع ونهى عن الاختلاف، فنشر الفرقة بين الناس بسبب الحسب، أو النسب، أو توالي وتعقد الولاء من أجل الرجال، فإن هذا سبب من أسباب الفرقة، ومن يسعى إلى نشر الفرقة بين المجتمع ويسعى إلى الإفساد فيهم فيجب نصحه، وإلا حذرنا منه لأنه يسعى للإفساد في الأرض. وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم خطورة هذا الأمر وبين سبيل النجاة فقال صلى الله عليه وسلم، فعن أبي نجيح العرياض بن سارية رضي الله عنه، قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها الدموع، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: ((أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخفاء الراشدين المهديين عضو عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)) رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح) فعلى المسلم أن يسعى لجمع الكلمة وإلى توحيدها، فإن الله عز وجل أمر به، وأمر به نبينا صلى الله عليه وسلم.

١ - التكبر صفة ذميمة يتصف به إبليس وجنوده من أهل الدنيا ممن طمس الله تعالى على قلبه.

وأول من تكبر على الله وخلقه هو إبليس اللعين لما أمره الله تعالى بالسجود لآدم فأبى واستكبر وقال "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين".

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [الأعراف / ١١ - ١٢].

فالكبر خلق من أخلاق إبليس، فمن أراد الكبر فليعلم أنه يتخلق بأخلاق الشياطين، وأنه لم يتخلق بأخلاق الملائكة المكرمين الذين أطاعوا ربهم فوقوا ساجدين.

ناهيك عن كون الكبر سبباً لحرمات صاحبه من الجنة ويحرم نفسه من أن ينظر رب العزة إليه كما جاء في الحديثين الآتيين:

• عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر : بَطْر الحق وَغَمَط الناس)). رواه مسلم .

وبطّر الحق : رده بعد معرفته. وغمط الناس : احتقارهم.

• وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((مَنْ جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة ، فقال أبو بكر : إن أحد شقي ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لست تصنع ذلك خيلاء)). رواه البخاري.

ثانياً:

والكبر صفة من الصفات التي لا تنبغي إلا لله تعالى ، فمن نازع الله فيها أهلكه الله وقصمه وضيق عليه.

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : ((العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبتة)) . رواه مسلم.

قال النووي: هكذا هو في جميع النسخ ، فالضمير في " إزاره " ، " ورداؤه " : يعود إلى الله تعالى للعلم به ، وفيه محذوف تقديره : " قال الله تعالى : ومن ينازعني ذلك أعذبه".

ومعنى " ينازعني " : يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك.

وهذا وعيد شديد في الكبر مصرح بتحريمه. شرح مسلم " (١٦ / ١٧٣) .

وكل من حاول الكبر والارتفاع خفضه الله تعالى في الأسفلين وجعله في الأذلين لأنه خالف الأصل فجازاه الله تعالى بنقيض قصده ، وقد قيل : الجزاء من جنس العمل.

والذي يتكبر على الناس يكون يوم القيامة مداساً تحت أقدام الناس فيذله الله تعالى جزاء ما كان منه من الكبر.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يُحْشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ في صُور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى " بولس " تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال)). رواه الترمذي وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

ثالثاً:

وللكبر صور عدة منها:

• ألا يقبل الرجل الحق ويجادل بالباطل ، كما ذكرنا في حديث عبد الله بن مسعود " الكبر : بطر الحق وغمط الناس".

• أن تعجبه نفسه من جمال أو حسن ، أو ثراء في الملبس أو المأكل فيتبختر ويتكبر ويفخر على الناس.

عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم أو قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : ((بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل جمته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة)) . رواه البخاري ومسلم .
ومنه ما كان من ذلك الرجل صاحب الذي قال الله تعالى فيه : { وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً } [الكهف / ٣٤] .
وقد يكون ذلك بالتفاخر بالعشيرة والنسب .

رابعاً:

ومن طرق علاج الكبر أن ترى نفسك كالناس وأنهم مثلك ولدوا من أم وأب كما ولدت وأن التقوى هي المعيار الحق .

قال الله تعالى : { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } [الحجرات / ١٣] .

وليعلم المسلم المتكبر أنه مهما بلغ فهو أضعف من أن يبلغ طول الجبال أو أن يخرق الأرض كما قال الله تعالى : { ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور } . واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير { [لقمان / ١٨ - ١٧] .

قال القرطبي: قوله تعالى : { ولا تمش في الأرض مرحاً } وهذا نهى عن الخيلاء وأمر بالتواضع ، والمرح : شدة الفرح ، وقيل : التكبر في المشي ، وقيل : تجاوز الإنسان قدره .
وقال قتادة : هو الخيلاء في المشي ، وقيل : هو البطر والأشر ، وقيل : هو النشاط .
وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين :

أحدهما : مذموم ، والآخر : محمود .

فالتكبر والبطر والخيلاء وتجاوز الإنسان قدره : مذموم .

والفرح والنشاط محمود " . تفسير القرطبي " (١٠ / ٢٦٠) .

ومن العلاج أن يعلم الإنسان أن التكبر يوم القيامة يحشر صغيراً كأمثال الذر تدوسه الأقدام ، والمتكبر مبعوض عند الناس كما أنه مبعوض عند الله تعالى ، والناس يحبون المتواضع السمع اللين الهين ويبغضون الغليظ والشديد من الرجال .

ومنه أن يتذكر الإنسان أنه خرج هو والبول من مكان واحد ، وأن أوله نطفة قدرة وآخره جيفة نتنة وأنه بين ذلك يحمل العذرة (أي البراز) فبم يتكبر !!؟

نسأل الله تعالى أن يعيدنا من الكبر وأن يرزقنا التواضع .

^١ - إن العُجب من أشد الأدواء التي تفتك بقلب العبد، وهو إنما ينشأ من جهل العبد بحاله، وذنوبه، وعيوبه، وجهله كذلك بعظمة ربه سبحانه، وما يستحقه من العبودية،

♦ قال ابن القيم في مدارج السالكين: رضاء العبد بطاعته، دليل على حسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبودية، وعدم علمه بما يستحقه الرب جل جلاله، ويليق أن يعامل به.

وحاصل ذلك أن جهله بنفسه، وصفاتها، وآفاتهما، وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه، وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاء بطاعته، وإحسان ظنه بها، ويتولد من ذلك من العجب، والكبر، والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنى، وشرب الخمر، والفرار من الزحف، ونحوها. فالرضى بالطاعة من رعونات النفس، وحقاقتها. اهـ من مدارج السالكين.

وعلاج العجب يحصل باستشعار نعمة الله، ومثته على العبد بالطاعة، وأن يجعل العبد نصب عينيه عيوب نفسها، وآفاتهما، وتقصيرها.

♦ قال ابن القيم: فمن أراد الله به خيرًا، فتح له باب الذل، والانكسار، ودوام اللجأ إلى الله تعالى، والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه، وجهلها، وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه، وإحسانه، ورحمته، وجوده، وبره، وغناه، وحمده. فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما، فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

♦ قال شيخ الإسلام: العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل.

وهذا معنى قوله -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح من حديث بريدة -رضي الله تعالى عنه-: «سيد

الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، فجمع في قوله -صلى الله عليه وسلم-: (أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي) مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل:

فمشاهدة المنة، توجب له المحبة، والحمد، والشكر لولي النعم والإحسان.

ومطالعة عيب النفس والعمل، توجب له الذل، والانكسار، والافتقار، والتوبة في كل وقت. اهـ. من الوابل الصيب. وأولياء الله حقًا لا يرون أنفسهم شيئًا تواضعًا منهم، وإخبارًا لله؛ بخلاف حال الحمقى المعجبين بأنفسهم.

♦ قال ابن القيم: ومن خصائص عائشة -رضي الله عنها-:

أن الله سبحانه برأها مما رماها به أهل الإفك.

وأُنزل في عذرها وبراءتها وحيا يتلى في محارب المسلمين، وصلواتهم إلى يوم القيامة.

وشهد لها بأنها من الطيبات.

ووعدها المغفرة والرزق الكريم.

وأخبر سبحانه أن ما قيل فيها من الإفك، كان خيرًا لها، ولم يكن ذلك الذي قيل فيها شرًا لها، ولا عائبًا لها، ولا خافضًا من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها، وأعظم شأنها، وصار لها ذكرًا بالطيب، والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من منقبة ما أجلها.

وتأمل هذا التشريف، والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها، واستصغارها لنفسها، حيث قالت: ولشأنني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بوحى يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا يبرئني الله بها.

فهذه صدّيقة الأمة، وأم المؤمنين، وحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي تعلم أنها بريئة مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون لها، مفترون عليها، قد بلغ أذاهم إلى أبيها، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا كان احتقارها لنفسها، وتصغيرها لشأنها، فما ظنك بمن صام يومًا أو يومين، أو شهرًا أو شهرين، وقام ليلة أو ليلتين، فظهر عليه شيء من الأحوال، فلاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، والمكاشفات، والمخاطبات، والمنازلات، وإجابة الدعوات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم، ويغتنم صالح دعائهم، وأنهم يجب على الناس احترامهم، وتعظيمهم، وتعزيزهم، وتوقيرهم، فيتمسح بأثوابهم، ويقبل ثرى أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التي ينتقم لهم لأجلها ممن تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ ممن أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وأن إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شيء إلا رضاهم، ولو كان هذا من وراء كفاية لهان، ولكن من وراء تخلف.

وهذه الحماقات والرعنات نتائج الجهل الصميم، والعقل غير المستقيم؛ فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وذنوبه، مغتر بامهال الله تعالى له عن أخذه بما هو فيه من الكبر، والإزراء على من لعله عند الله - عز وجل - خير منه - نسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة -.

وينبغي للعبد أن يستعيز بالله أن يكون عند نفسه عظيمًا، وهو عند الله حقير. اهـ من جلاء الأفهام.

ثم إن من الوهم الكبير الظن بأن أولياء الله لا يبتلون في الدنيا، بل العكس هو الصحيح؛ فأولياء الله هم أشد الناس بلاء، كما جاء في الحديث: عن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان دينه صلبًا، اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة.

أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وصححه الحاكم.

♦ قال ابن القيم: ابتلاء المؤمن كالدواء له، يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه،

وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر، وعلو المنزلة.

ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء، إلا كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له.

ولترتدي من التقى لباساً^(١)بالاغتيال^(١) او تخون الناس^(١)

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره، وعزه، وعافيته؛ ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأقرب إليهم، فالأقرب. اهـ. من إغاثة اللفهان.

وليس للعجب كفارة خاصة سوى التوبة منه، والإقلاع عنه.

فالعجب من الذنوب المهلكة لعُجْب كبيرة من كبائر الذنوب التي تستحق غضب الله ومقتته، وعذابه في الدنيا والآخرة.

فهو سَجِيَّة مدمومة، وطبعٌ سيئٌ مبغوض؛ قال ابن حزم: (إنَّ العُجْب من أعظم الذنوب وأمحقها للأعمال، فتَحَفَّظُوا، حَفِظْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِنَ العُجْبِ والرِّيَاءِ) .

ويقول الغزالي: (اعلم أنَّ العُجْب مدمومٌ في كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ قال الله تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا} [التوبة: ٢٥] ، ذكر ذلك في معرض الإنكار، وقال عز وجل: { وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا } [الحشر: ٢] ، فردَّ على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى: { وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } [الكهف: ١٠٤]. بل عدَّه ابن تيمية من باب الإشراك بالنفس، فقال: (وكثيراً ما يقرن الرياء بالعُجْب؛ فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعُجْب من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المُستَكبر، فالمرائي لا يحقق قوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ، والمُعْجَب لا يحقق قوله: وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، فمن حقق قوله إِيَّاكَ نَعْبُدُ خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ خرج عن الإعجاب)

^١ — حرم الإسلام القتل واعتبره من أعظم الكبائر. فقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق يعد جريمة كبرى، حيث جعله الله تعالى مساوياً لقتل الناس جميعاً في العظم، قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

فإن من الأسس العظيمة التي قام عليها التشريع الإسلامي تحقيق مصالح العباد جميعاً والحفاظ عليهم ، من أجل ذلك كانت الضروريات الخمس التي أوصت الشريعة بالحفاظ عليها ورعايتها وهي حفظ الدين ، وحفظ النفس ، وحفظ العرض ، وحفظ المال ، وحفظ النسل ، ومن حفظ النفس حفظ الدماء من أن تهدر وتسفك بغير حق. قال الله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}. وقال تعالى في صفات عباد الرحمن : {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)}

وقال تعالى: { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) }

قال الإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله:

وجعل قتل النفس الواحدة كقتل جميع الناس مبالغة في تعظيم أمر القتل الظلم وتفخيما لشأنه أي كما أن قتل جميع الناس أمر عظيم القبح عند كل أحد فكذلك قتل الواحد يجب أن يكون كذلك فالمراد مشاركتهما في أصل الاستعظام لا في قدره إذ تشبيه أحد النظيرين بالآخر لا يقتضي مساواتهما من كل الوجوه وأيضا فالناس لو علموا من إنسان أنه يريد قتلهم جدوا في دفعه وقتله فكذا يلزمهم إذا علموا من إنسان أنه يريد قتل آخر ظلما أن يجدوا في دفعه وأيضا من فعل قتلا ظلما رجح داعية الشر والشهوة والغضب على داعية الطاعة ومن هو كذلك يكون بحيث لو نازعه كل إنسان في مطلوبه وقدر على قتله قتله ونية المؤمن في الخيرات خير من عمله كما ورد فكذلك نيته في الشر شر من عمله فمن قتل إنسانا ظلما فكأنما قتل جميع الناس بهذا الاعتبار).
قال ابن عباس رضي الله عنهما: من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا ومن شد عضد أحد فكأنما أحيا الناس جميعا.

وقال مجاهد رحمه الله: من قتل نفسا محرمة يصلى النار بقتلها كما يصلها لو قتل الناس جميعا ومن أحياها أي من سلم من قتلها فكأنما سلم من قتل الناس جميعا.
وقال قتادة رحمه الله: أعظم الله أجرها وأعظم وزرها أي من قتل مسلما ظلما فكأنما قتل الناس جميعا في الإثم لأنهم لا يسلمون منه ومن أحياها وتورع عن قتلها فكأنما أحيا الناس جميعا في الثواب لسلامتهم منه.
وقال الحسن رحمه الله: فكأنما قتل الناس جميعا أي أنه يجب عليه من القصاص ما يجب عليه لو قتل الكل ومن أحياها أي عفا عمن له عليه قود فكأنما أحيا الناس جميعا.

ثانياً: حرمة الدماء في السنة النبوية:

عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ، ما لم يصب دما حراما)) رواه البخاري.

وعن البراء بن عازب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق)) رواه الترمذي وابن ماجة وصححه الالباني

وعن أبي هريرة ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج - وهو القتل القتل - حتى يكسر فيكم المال فيفيض)) رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((اجتنبوا السبع الموبقات " ، قالوا : يا

رسول الله وما هن ؟ قال : " الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ") متفق عليه .
وعن عبد الله بن عمر ، قال : ((إن من ورطات الأمور ، التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها ، سفك الدم الحرام بغير حله)) رواه البخاري .

وعن عبد الله بن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يجيء الرجل آخذاً بيد الرجل فيقول : يا رب ، هذا قتلي ، فيقول الله له : لم قتلته ؟ فيقول : قتلته لتكون العزة لك ، فيقول : فإنها لي . ويجيء الرجل آخذاً بيد الرجل فيقول : إن هذا قتلي ، فيقول الله له : لم قتلته ؟ فيقول : لتكون العزة لفلان ، فيقول : إنها ليست لفلان فيبوء بإثمه)) رواه النسائي وصححه الالباني .

عن أبي هريرة ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل ، ولا يدري المقتول على أي شيء قتل)) رواه مسلم .

عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما ، يقول : يا رب ، قتلي هذا ، حتى يدينه من العرش " قال : فذكروا لابن عباس ، التوبة ، فتلا هذه الآية : ومن يقتل مؤمناً متعمداً ، قال : " ما نسخت هذه الآية ، ولا بدلت ، وأنى له التوبة)) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وصححه الالباني .

وعن سالم بن أبي الجعد ، سئل ابن عباس عن رجل قتل مؤمناً ، ثم تاب وآمن وعمل صالحاً ، ثم اهتدى ، قال : ويحك ، وأنى له الهدى ، سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم ، يقول : " يجيء المقتول متعلقاً بالقاتل ، يقول : يا رب ، سل هذا فيم قتلي ؟ " والله لقد أنزلها الله عز وجل على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وما نسخها بعد إذ أنزلها ، قال : ويحك ، وأنى له التوبة ؟)) رواه النسائي وصححه الالباني .

وعن ابن عباس ، أنه سأله سائل فقال : يا أبا العباس ، هل للقاتل من توبة ؟ فقال ابن عباس كالمتعجب من شأنه : ماذا تقول ؟ فأعاد عليه المسألة ، فقال له : ماذا تقول ؟ مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال ابن عباس : أنى له التوبة ؟ سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : ((يأتي المقتول متعلقاً رأسه بإحدى يديه ، متلبساً قاتله بيده الأخرى يشخب أوداجه دما ، حتى يأتي به العرش ، فيقول المقتول لله : رب هذا قتلي ، فيقول الله عز وجل للقاتل : تعست ، ويذهب به إلى النار)) رواه الترمذي وحسنه والطبراني في الأوسط ورواه رواة الصحيح واللفظ له وصححه الالباني .

عن ابن سيرين ، سمعت أبا هريرة ، يقول : قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم :
((من أشار إلى أخيه بحديدة ، فإن الملائكة تلعنه ، حتى يدعه وإن كان أخاه لأبيه وأمه)) رواه البخاري .

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم :

فيه تأكيد حرمة المسلم والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه والتعرض له بما قد يؤذيه وقوله صلى الله عليه وسلم

وإن كان أخاه لأبيه وأمه مبالغة في إيضاح عموم النهي في كل أحد سواء من يتهم فيه ومن لا يتهم وسواء كان هذا هنلا ولعبا أم لا لأن ترويع المسلم حرام بكل حال ، ولأنه قد يسبقه السلاح كما صرح به في الرواية الأخرى ، ولعن الملائكة له يدل على أنه حرام .
عن عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ((من حمل علينا السلاح فليس منا)) .

قال ابن دقيق العيد رحمه الله في احكام الاحكام :
قوله : (حمل السلاح) : يجوز أن يراد به ما يضاد وضعه ويكون ذلك كناية عن القتال به وأن يكون حمله ليراد به القتال ودل على ذلك قرينة قوله عليه السلام : "علينا" ويحتمل أن يراد به ما هو أقوى من هذا وهو الحمل للضرب فيه أي في حالة القتال والقصد بالسيف للضرب به وعلى كل حال فهو دليل على تحريم قتال المسلمين وتغليظ الأمر فيه.

و قوله : "فليس منا" : قد يقتضي ظاهره الخروج عن المسلمين لأنه إذا حمل "علينا" على أن المراد به المسلمون كان قوله : "فليس منا" كذلك ، وقد ورد مثل هذا فاحتاجوا إلى تأويله كقوله عليه السلام : "من غشنا فليس منا" ، وقيل فيه : ليس مثلنا أو ليس على طريقتنا أو ما يشبه ذلك .
وقال الإمام الصنعاني رحمه الله في سبل السلام :

قوله صلى الله عليه وسلم : "من حمل علينا السلاح فليس منا" أي من حمله لقتال المسلمين بغير حق كني بحمله عن المقاتلة إذ القتل لازم لحمل السيف في الأغلب ويحتمل أنه لا كناية فيه وأن المراد حمله حقيقة لإرادة القتال ويدل له قوله : (علينا) وقوله : (فليس منا) المراد ليس على طريقتنا وهدينا فإن طريقته صلى الله عليه وسلم نصر المسلم والقتال دونه لا ترويعه وإخافته وقتاله ، وهذا في غير المستحل فإن استحلال القتال للمسلم بغير حق فإنه يكفر باستحلاله المحرم القطعي والحديث دليل على تحريم قتال المسلم والتشديد فيه ، وأما قتال البغاة من أهل الإسلام فإنه خارج من عموم هذا الحديث بدليل خاص .

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم :

قاعدة مذهب أهل السنة والفقهاء أن من حمل السلاح على المسلمين بغير حق ولا تأويل ولم يستحلّه فهو عاص ولا يكفر بذلك فإن استحلّه كفر فأما تأويل الحديث فقليل هو محمول على المستحل بغير تأويل فيكفر ويخرج من الملة وقيل معناه ليس على سيرتنا الكاملة وهدينا .

وكان سفيان بن عيينة رحمه الله : يكره قول من يفسره بليس على هدينا ويقول : بئس هذا القول يعني بل يمسك عن تأويله ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر والله أعلم .

وقال ايضا:

قوله : (فليس منا) : معناه عند أهل العلم أنه ليس ممن اهتدى بهدينا واقتدى بعملنا وحسن طريقتنا كما

يقول الرجل لولده إذا لم يرض فعله لست منى وهكذا القول فى كل الأحاديث الواردة بنحو هذا.
وعن الأحنف بن قيس ، قال : ذهبت لأنصر هذا الرجل ، فلقيني أبو بكرة فقال أين تريد ؟ قلت : أنصر هذا الرجل ، قال : ارجع فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)) ، فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال : ((إنه كان حريصا على قتل صاحبه)).

قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله:

هذا إنما يكون كذلك إذا لم يكونا يقتتلان على تأويل إنما على عداوة بينهما و عصبية أو طلب دنيا أو رئاسة أو علو فأما من قاتل أهل البغي على الصفة التي يجب قتالهم بها أو دفع عن نفسه أو حريمه فإنه لا يدخل في هذه لأنه مأمور بالقتال للذب عن نفسه غير قاصد به قتل صاحبه إلا إن كان حريصا على قتل صاحبه و من قاتل باغيا أو قاطع طريق من المسلمين فإنه لا يحرص على قتله إنما يدفعه عن نفسه فإن انتهى صاحبه كف عنه و لم يتبعه فإن الحديث لم يرد في أهل هذه الصفة فأما من خالف هذا النعت فهو الذي يدخل في هذا الحديث الذي ذكرنا و الله أعلم. (الكبائر : للإمام الذهبي ص ١٢٠).

وعن عبد الله بن عمر ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ، ويقول : ((ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده ، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ، ماله ، ودمه ، وأن نظن به إلا خيرا)) رواه ابن ماجه وصححه الألباني فى صحيح الترغيب والترهيب.

وعن يزيد الرقاشي قال : حدثنا أبو الحكم البجلي ، قال : سمعت أبا سعيد الخدري ، وأبا هريرة يذكران عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ((لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار)) رواه الترمذي وصححه الألباني.

وانظروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يؤسس لنا قواعد حقوق الإنسان فى الإسلام فى هذا الحديث العظيم والخطبة النبوية الجامعة فى حجة الوداع فى الحديث الذى أخرجه البخاري فى صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر فقال : ((يا أيها الناس أي يوم هذا ؟ " ، قالوا : يوم حرام ، قال : " فأى بلد هذا ؟ " ، قالوا : بلد حرام ، قال : " فأى شهر هذا ؟ " ، قالوا : شهر حرام " ، قال : " فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا " ، فأعادها مرارا ، ثم رفع رأسه فقال : " اللهم هل بلغت ، اللهم هل بلغت - قال ابن عباس رضي الله عنهما : فو الذى نفسى بيده ، إنها لو وصيته إلى أمته ، فليبلغ الشاهد الغائب ، لا ترجعوا بعدي كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض)) رواه البخاري .

حرمة دماء غير المسلم فى الشريعة الإسلامية

من عظمة الشريعة الإسلامية أن حرمة الدماء ليست قاصرة على المسلمين فحسب بل تشمل كذلك غير

المسلمين من المعاهدين والذميين والمستأمنين حرم الإسلام الاعتداء عليهم وذلك في أحاديث كثيرة من سنة النبي صلى الله عليه وسلم منها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما)) رواه البخاري .

وعن أبي بكر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((من قتل معاهدا في غير كنهه ، حرم الله عليه الجنة)) رواه الدارمي وصححه الالباني في صحيح الجامع .

وعن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلًا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما)) رواه النسائي في الكبرى وصححه الالباني في صحيح الترغيب والترهيب.

^١ — قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:

٢٧]، قال ابن كثير - رحمه الله - : (الخيانة تَعُمُّ الذنوبَ الصَّغَارَ وَالْكِبَارَ اللَّازِمَةَ وَالْمُتَعَدِّيَةَ)، فالله تعالى يُحذِّرنا من خيانتِهِ، وخیانة رسوله صلى الله عليه وسلم، وخیانات الأمانات عموماً.

وأيضاً حذَّر النبيُّ صلى الله عليه وسلم من الخيانة بقوله: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» رواه البخاري.

والخيانة جريمةٌ كبيرة، وعقوبتها شديدة، وكُلُّ مَنْ أُسِنِدَ إِلَيْهِ أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَقُمْ بِهِ، وَلَمْ يُؤَدِّهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ - مع قُدْرَتِهِ - فهو خائنٌ غادر؛ لقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ» رواه مسلم.

قال الذهبي - رحمه الله - في كتاب الكبائر : (الخيانة قبيحةٌ في كلِّ شيءٍ، وبعضها شرٌّ من بعض، وليس مَنْ خَانَكَ فِي فَلْسٍ كَمَنْ خَانَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَارْتَكَبَ الْعِظَائِمَ .

فالخيانة تكون في أمانات الناس، وما افترضه الله تعالى على عباده وائتمنهم عليه، وما أَمَرَ به رسوله صلى الله عليه وسلم من واجبات، فَمَنْ ضَيَّعَ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِمَّا نَهَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْهُ، وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَلَا يَكُونُ عَدْلًا؛ وَقَدْ لَزِمَهُ اسْمُ الْخِيَانَةِ، وَهُوَ اللَّائِقُ بِهِ.

وأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بأداء الأمانة، وحذَّر من الخيانة بقوله: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» صحيح - رواه أبو داود والترمذي. فلا تُقَابِلْ خِيَانَةً مَنْ خَانَ بِخِيَانَةٍ مِثْلِهَا، فَالْخِيَانَةُ لَا تُبَاحُ فِيهَا الْعُقُوبَةُ بِالْمِثْلِ.

والمؤمن مَفْطُورٌ عَلَى الْأَمَانَةِ وَسَلَامَةِ الْخُلُقِ؛ إِذْ لَا تَجْتَمِعُ فِيهِ صِفَتَا الْخِيَانَةِ وَالْأَمَانَةِ جَمِيعًا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَالْكَفَرُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ، وَلَا يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا، وَلَا تَجْتَمِعُ الْخِيَانَةُ وَالْأَمَانَةُ جَمِيعًا» حسن - رواه أحمد في "المسند".

إِنَّ الْخِيَانَةَ سَبِيلٌ كُلُّ شَرٍّ، وَدَاءٌ وَبِيلٌ إِذَا اسْتَشْرَتْ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي انْحِلَالِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي شَأْنِ رَفْعِ الْأَمَانَةِ وَالْإِيمَانِ، وَنَزْعِهِمَا مِنْ قُلُوبِ الرِّجَالِ، وَانْهِيارِ فَضِيلَةِ الْأَمَانَةِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ: «... فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا. وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلُهُ وَمَا أَظْرَفُهُ وَمَا أَجْلَدُهُ. وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ» رواه البخاري ومسلم.

وَالْخَائِنُ تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَلَا تُقْبَلُ؛ تَعْزِيرًا لَهُ، وَتَنْفِيرًا لِلنَّاسِ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ الْبَغِيضِ؛ لِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَدَّ شَهَادَةَ الْخَائِنِ وَالْخَائِنَةِ» حسن - رواه أبو داود. وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجُوزُ (بِمَعْنَى لَا تُقْبَلُ) شَهَادَةُ خَائِنٍ وَلَا خَائِنَةٍ» حسن - رواه أبو داود وابن ماجه. وَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا، لَا تَرْفَعُ عُقُوبَةُ الْخَائِنِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ.

وَحَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْخِيَانَةِ، وَتَوَعَّدَ صَاحِبَهَا بِالنَّارِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: «أَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ - وَذَكَرَ مِنْهُمْ: الْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ - وَإِنْ دَقَّ - إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمَسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ» رواه مسلم.

وَمِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُفْلِحِينَ رِعَايَتُهُمُ لِلْأَمَانَةِ، وَبِالْمُقَابَلِ؛ فَإِنَّ صِفَةَ الْخِيَانَةِ مُلَازِمَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]. فَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ هُمُ الَّذِينَ قَامُوا بِالْأَمَانَةِ وَرَعَوْهَا، وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْمُشْرِكَاتُ؛ فَقَدْ أَظْهَرُوا الْأَمَانَةَ كَذِبًا وَزُورًا، وَهُمْ خَوْنَةٌ. فَسِمَةُ الْخِيَانَةِ وَصِفٌ لَهُمْ؛ لَكُونِهِمْ يَخُونُونَ الْأَمَانَاتِ، وَيُخَادِعُونَ النَّاسَ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَيَنْتَقِضُونَ عَهْدَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى - عَنِ الْكُفَّارِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]؛ وَقَالَ سُبْحَانَهُ - فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

وَقَدْ اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْخِيَانَةِ؛ لِأَنَّهَا أَسْوَأُ مَا يُطِئُهُ الْإِنْسَانُ، فَكَانَ مِنْ دَعَائِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ؛ فَإِنَّهُ بُسُّ الصَّجِيعِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ؛ فَإِنَّهَا بُسُّ الْبِطَانَةِ» حسن - رواه أبو داود. بُسُّ الْبِطَانَةِ: أَيُّ الْخِصْلَةِ الْبَاطِنَةِ، هِيَ ضِدُّ الطَّهَارَةِ، وَأَصْلُهَا فِي الثَّوْبِ، فَاسْتُعِيرَ لِمَا يَسْتَبْطِنُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَجْعَلُهُ بِطَانَةً حَالِهِ. انظر: عون المعبود

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ؛ إِلَّا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ» رواه مسلم. فهو يقتص يوم القيامة من الخائن ليأخذ من حسناته ويستكثر منها ما شاء.

بل يحرم على المسلم أن يخون الكافر؛ إذا منحه حق الأمان، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أَيُّمَا رَجُلٍ آمَنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ، ثُمَّ قَتَلَهُ، فَأَنَا مِنَ الْقَاتِلِ بَرِيءٌ، وَإِنْ كَانَ الْمُقْتُولُ كَافِرًا» حسن - رواه ابن حبان. وفي رواية: «مَنْ آمَنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ؛ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ لَوَاءَ غَدْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» صحيح - رواه ابن ماجه.

ويكفي في التنفير من الخيانة؛ أنها من علامات المنافقين؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ

ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ» رواه البخاري ومسلم. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوتِيَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» رواه البخاري ومسلم.

والخيانة من صفات اليهود وسماتهم التي لا تكاد تفارقهم على مدار التاريخ، ولا يسلم من ذلك إلا القليل منهم، قال الله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، فقد حرّف اليهود كلام الله تعالى عن مواضعه، وخانوا الله تعالى فأشركوا به غيره، وأخذ عليهم العهد - وهم على الفطرة - فخانوا عهده.

وقال الله تعالى مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١]، وأيضاً خانوا أنبياء الله من قبل، وقد أبرموا المعاهدات والمواثيق مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ إلا أنهم سرعان ما غدروا وخانوا ومكروا.

والله تعالى أمر بالإيفاء بأمانة العهد، قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، كما أن الله تعالى أرشدنا إلى المسلك في التعامل مع مَنْ لَا ثِقَةَ بعهودهم وأمانتهم؛ مِنَ الَّذِينَ يُخْشَى مِنْهُمْ نَقْضُهَا عندما تَسَنِّحَ لَهُمُ الْفُرْصَةَ، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، والنبي صلى الله عليه وسلم أرشدنا إلى ذلك، بقوله: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلَا يَخْلُهَا، حَتَّى يَنْقُضِيَ أَمْدُهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» صحيح - رواه أبو داود. ومعنى

الحديث: (مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً): أي لَا يَتَصَرَّفُ تَصَرُّفًا يُخَالِفُ الْعَقْدَ. (وَلَا يَخْلُهَا): أي

تلك العقدة. (حَتَّى يَنْقُضِيَ أَمْدُهَا): وهذه إشارة إلى أنه لَا يَعمَلُ أَيَّ شَيْءٍ يُخَالِفُ الْعَقْدَ. (أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى

سَوَاءٍ): بِأَنْ يُخْبِرَهُمْ؛ وَذَلِكَ إِذَا خَافَ مِنْهُمْ خِيَانَةً فيقول: العهد الذي بيني وبينكم انتهى، فيكونون على علم بأن

العهد انتهى (انظر: شرح سنن أبي داود، د. عبد المحسن بن حمد العباد (١٥ / ٧٨))، فمتى بدت بوادر الخيانة

ونقض العهد، فليقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعه، فيرد عليهم عهدهم، ويُعلمون بذلك. (انظر: الأمانة في

الإسلام وآثارها في المجتمع، د. عبد اللطيف بن إبراهيم الحسين (ص ١١٧)).

١- التقوى هي امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، واستشعار مراقبة الله في السر والعلن. وهي مفتاح كل خير، وباب لتيسير الأمور وتفريج الكربات، حيث ترتقي بسلوك المسلم وتوجهه نحو الأعمال الفاضلة في كافة شؤون حياته. فمما لا شك فيه أن الإنسان ليس متروكا في هذه الحياة مهماً يمرح بلا قيد، أو متروكاً من غير هدي ولا قانون، ولا أوامر أو نواهي: { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

إن سنن الله في خلقه جاءت لحفظ مصالحهم، وتدرأ عنهم الشرور والآفات. وإذا كانت القوانين الوضعية إنما شرعت للانتظام وصلاح المعاش، فالقانون الإلهي أولى بالاتباع، وأعظم نفعاً، لأنه صادر ممن خلق فسوى، وقدر فهدى.

ومحور هذا القانون الرباني: التزام التقوى، وهي امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والعمل بما يرضي الله، والبعد عما يسخطه. ولا خير فيمن أعرض عن هذا النهج، فإن ترك التقوى بابٌ للهلاك، ومدخل للفوضى والفساد، وتعطيل للمصالح، وتغذية للمساوئ. وإذا فشت المفاسد في أمة أصابها الذل والانكسار، والضعف والحرمان، وتتابعت عليها المصائب التي لا دواء لها.

وحينئذٍ لا يجد العقلاء بُدًّا من تلمس العلاج، واستبصار الطريق الذي يعيد للمجتمع عزته وكرامته، وبقيه غوائل الانحراف، ويعرضه لبركات الله والطافه: { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأعراف: ٩٦].

ولذلك أمر الله عباده بالتقوى، فقال جل ثناؤه: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } [النساء: ١].

وخاطب المؤمنين خصوصاً بقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران: ١٠٢].

وقال سبحانه مؤكداً الأمر: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [الحشر: ١٨].

ومع هذه الأوامر العظيمة، لم يضيق الله على عباده، بل تركهم في دائرة القدرة والطاقة، فقال: { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } [التغابن: ١٦].

حقيقة التقوى

التقوى - كما قال السلف - هي: عملٌ بالطاعة على نور من الله، رجاء ثواب الله، وتركٌ للمعصية على نور من الله، خوف عقاب الله.

فالقول فيها: الكلمة الصادقة السديدة.

والعمل فيها: الامتثال لما أمر الله، والبعد عما نهى عنه.

وقد جمعت السنة النبوية أصولها، ففي حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع فقال: ((اتقوا الله، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم، تدخلوا جنة ربكم)) رواه الترمذي.

ولأهمية التقوى كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل الله العون عليها، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول: ((اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)) رواه مسلم.

من ثمرات التقوى

إن للتقوى ثماراً زكية، لا تنقطع في الدنيا ولا في الآخرة، ومن أعظمها: أولاً: رضا الله ومغفرة الذنوب

من اتقى ربه نال رضوانه، وكُفِّرَتْ عنه خطاياه، ووُعدَ بجنات النعيم، قال تعالى: { إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ } [الأنفال: ٢٩].

ثانياً: نورٌ في القلب وتمييزٌ بين الحق والباطل

فالفرقان المذكور في الآية: نورٌ يقذفه الله في قلب التقى، فيميز به بين الهدى والضلال، والصدق والباطل. قال بعض الشعراء:

ليس السعيد بكثرة المال التي تُعطي الفؤادَ توهماً الإغناء

إنَّ السعيدَ هو التقى إذا سرى في الليلِ دأَمَ عليه نورُ ضياءِ

ثالثاً: النجاة من الشدائد وتيسير الرزق

ومن أعظم ثمرات التقوى: كشف الكربات، ودفع المكاره، وتيسير الرزق الحلال المبارك، قال تعالى:

{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: ٢-٣].

وإذا خشيت من الأمور مظنة فتوقها بتقاة رب العالمين

من يتق الرحمن جلّ جلاله يجد الفرج بعد الشدائد والأنين

التقوى جماع الخير

وبعد تأمل آيات القرآن، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم يتبين أن التقوى: أساس الدين، وجماع الفضائل، وعصمة من الأخطار، وسبيل النجاة في الدنيا والآخرة، وطريق السعادة والطمأنينة والرزق الواسع.

ولقد بشر القرآن الكريم المتقين بشارات عديدة منها:

العون والنصرة، والتكريم، والعلم والحكمة، وتكفير الذنوب وتعظيم الأجر، والمغفرة، واليسر والسهولة في الأمر،

والخروج من الغم والمحنة، ومنها الرزق الواسع في الدنيا، والنجاة من العقوبة في الآخرة، ومنها التوفيق والعصمة

والفوز بالمراد، وشهادة الله لهم بالصدق، ومحبة الله وإكرامه، ونيل الوصال، وقبول الصدقة والصفاء وكمال

العبودية، ومنها المقام الأمين، والجنات والعيون، والأمن من البلية، وعزّ الفوقية، وزوال الحزن والخوف من

كفى بذاك يا اخي هلاكاً^(١)

وَكُفَّ عَنْ كُلِّ الْوَرَى إِذَاكَ

العقوبة، والزّوجات الحسان في الجنّة، وأعظم من هذا كلّهُ القرب من الله تعالى عند الفوز بمقعد صدق عند مليك مقتدر.

إن التقوى زاد المسافر، ونور السائر، وعتاد المؤمن في دروب الحياة، وهي وصية الله للأولين والآخرين : {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ} [النساء: ١٣١].

^١ — عن أبي موسى الأشعري قال: قلنا يا رسول الله: أي الإسلام أفضل؟ قال: ((من سلم المسلمون من لسانه ويده)).

بيّن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف قرينة وعبادة يغفل عنها كثير من المسلمين، وهي عبادة كف الأذى عن الناس، فإن المسلم كما يؤجر على فعل الفرائض والطاعات، فإنه كذلك يؤجر على كف الأذى وصرف الشر عن الناس، لأن الإسلام جاء لكي يرفع الأذى والضرر والشر عن خلق الله، لكي يعيشوا في راحة وطمأنينة وأمان.

بل إن كف الشر والأذى في الإسلام يعدل الصدقة بالمال، قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله، أرايت إن ضَعُفْتُ عن بعض العمل؟ قال: ((تَكُفُّ شَرَكُ عَنْ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ)).

عباد الله، إن الله عز وجل كما تعبدنا بفعل الطاعات، تعبدنا أيضاً بترك إيذاء الناس والاعتداء عليهم، فبعض الناس يحرص على صلاته وصيامه وزكاته، ولكنه لا يبالي بإيذاء أهل بيته وإخوانه، وجيرانه وسائر الناس، ومثل هذا يخشى عليه من عذاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾، عن أبي هريرة قال: ((قال رجل: يا رسول الله إن فلانة تذكّر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقته، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: هي في النار...))، فهذا وعيد شديد لمن اعتاد على إيذاء الناس، وإن كان من أهل الصلاة والصيام والصدقة .

عباد الله، إن إيذاء الناس يؤدي إلى وقوع العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع، وعدم الشعور بالأمان، فالأذى مذموم شرعاً وعقلاً وعرفاً، لذلك فقد حرم الإسلام كل ما يؤدي إلى أذية الناس، قال عليه الصلاة والسلام: ((لا يتناجي اثنان دون واحد، فإن ذلك يؤذي المؤمن، والله عز وجل يكره أذى المؤمن)).

فكل صور الأذى محرمة شرعاً، سواء كان الأذى معنوياً أم حسياً، فيشمل الأذى الاعتداء على الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ويشمل الأذى باللسان كالاستهزاء واللمز بالألقاب والسخرية بالآخرين، والطعن في أنسابهم، والتنقيص من شأنهم، والتعيير بما فيهم من عيوب، ويشمل كذلك ما هو منتشر في مجالس الناس، وهو الغيبة، وهي أن تذكر إخوانك في حال غيابهم بما يكرهون .

فكل ما يصدر باللسان من أذى تجاه الآخرين داخل في هذا الباب، لذلك لما سأل معاذ بن جبل رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ((تَكَلَّمْتَ أَتُكُّ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))، وقال عليه الصلاة والسلام: (يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بَلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ)).

إن كف الأذى عن كل مسلم عبادة جليلة دل الكتاب والسنة على فضلها وعظم منزلتها. قال تعالى: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا). وعن أبي موسى الأشعري قال: قلنا يا رسول الله: أي الإسلام أفضل؟ قال: ((من سلم المسلمون من لسانه ويده)). متفق عليه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يتناج اثنان دون واحد فإن ذلك يؤذي المؤمن والله عز وجل يكره أذى المؤمن)). رواه الترمذي.

إن الشارع نهى عن أذى المسلمين لعظم حرمة المسلم ولأن ذلك يفضي إلى وقوع العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع ويؤدي إلى انتشار الفوضى وزعزعة الأمن الاجتماعي وقطيعة الرحم وانصرام حبال المودة بين الأصحاب. إن المسلم كما يؤجر على فعل الطاعات وبذل المعروف كذلك يؤجر على كف الأذى وصرف الشر عن المسلمين لأن ذلك من المعروف وداخل في معنى الصدقة. قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله أرايت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: ((تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك)). متفق عليه.

إن الله عز وجل كما تعبدنا بفعل الطاعات تعبدنا أيضا بحفظ حرمة المسلمين وعدم التعدي عليها بنوع من الأذى. وبعض الناس هداهم الله لا يستشعر في حسه عظم هذا الأمر فتراه مع حرصه على الصلاة والصيام وسائر العبادات يتعدى على أخيه المسلم ويؤذي المسلمين ويتهاون في هذا الأمر تهاونا شديدا. إن الباعث على الاستخفاف بحرمة المسلم والتساهل في إيذاء المسلمين ناشئ عن الجهل وقلة الوعي وبلاذة الطبع وقد تكون البيئة عاملا مؤثرا في تكوين هذه الشخصية العدائية ولا شك أن تربية الأسرة عامل مؤثر أيضا على سلوك الفرد هذا السلوك والتخلق به.

إن إيذاء المسلمين ورد فيه وعيد شديد وعقوبة أخروية قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا}. وعن أبي هريرة قال: ((قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدققتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: هي في النار. قال: يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها وصدققتها وأنها تصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها بلسانها. قال: هي في الجنة)). أخرجه أحمد.

إن إيذاء الغير يشمل كل أذى حسي ومعنوي فيدخل في ذلك الاعتداء على مال الغير وأهله وولده ودمه والاستيلاء على أملاكه بغير وجه حق ويشمل أيضا الاستهزاء واللمز والسخرية بالغير. ومن الإيذاء الشائع الطعن

في أنساب الناس والنقيصة لهم في المجالس على سبيل التشهي واللهو.

ومن الإيذاء الذي يستهين فيه البعض التدخل في خصوصيات الأقارب والجيران وتبعية عوراتهم وإبداء الرأي في أحوالهم وإلقاء اللوم عليهم ونقد تصرفاتهم دون استشارة منهم أو إذنبهم وعلمهم بذلك في الوقت الذي لا يسمح المتكلم لأحد التدخل في شؤونه. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله)). رواه الترمذي.

ومن صور الأذى أن يتفكه بعض الناس في المجالس بغيبة المسلمين والسخرية بهم ويجعل ذلك مادة للضحك والفرشة وجذب الأنظار إليه واعتبار هذا السلوك من الظرافة وخفة الروح وهو مع تحريمه يدل على سفه العقل ونقص المروءة.

ومن الأذى الشائع أن يقف الانسان في طريق أو مكان عام يراقب المارة ويتكلم عليهم ويضايقهم ويلمزهم ويؤذيهم بكل قبيح وقد نهى عن ذلك فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا: يا رسول الله مالنا بد من مجالسنا نتحدث فيها فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا: وما حقه قال: غص البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)). متفق عليه.

ومن الإيذاء الذي يجمله بعض الناس التدخل في عمل الغير ومتابعته وتقويمه وهو لا يمت بصلة بهذا العمل من أي جهة وليس مسؤولاً ولا مخولاً بذلك فترى هذا الشخص إذا رأى موظفاً في أي مجال تكلم عليه وأثار المسؤول عليه وتدخل في شؤونه وأفسد عليه بينما كان الواجب عليه أن ينصحه إذا رأى تقصيراً واضحاً بعد سؤاله والتثبت في ذلك.

ومن الأذى الخطير الذي ينبغي على المسلم الحذر الشديد منه حسد الناس في أموالهم والتطلع لما في أيديهم وسؤال أهل الدنيا عن أحوالهم فإن ذلك يؤذيهم وينغص عليهم.

ومن أعظم الأذى الذي يبتلى فيه بعض الجهال تنقص العلماء والخط من قدرهم ولمزهم واتهامهم في نياتهم وإخلاصهم والتطاول عليهم وجحد معروفهم وجهودهم في الأمة.

ومن أعظم الأذى أن يكون لسان المسلم سفاحاً يلعن المسلمين ويكفرهم ويبدعهم ويفسقهم لأدنى شبهة وأقرب مخالفة لمذهبه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)). رواه مسلم. وحذر من التكفير فقال: ((من دعا رجلاً بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه)). رواه مسلم.

ومن الأذى العظيم الذي يستخف فيه بعض النساء السفهات التدخل في المشاكل الزوجية وإفساد المرأة على زوجها وتحريضها على نزع يد الطاعة والخروج من بيت الزوج والنشوز عليه.

ومن الأذى الخفي الذي لا يفتن إليه بعض الصالحين أن يبالغ في العقوبة ويفجر في الخصومة مع خصمه وينتصر

ثم اغتيا ب الخلق بالشفاه		عنه نهانا الرب في النواهي
الا الذي لبدعة قد اقترف		ثم النصيح جاءه ثم انحرف
حيث اصر بعد ما استبانا		وصار فينا مفسدا فتانا
فالقول فيه جاز قدر ذاك		فلا تزد عن قدره اذكا
اذ جاز عند الحاجة اغتيا		وخير خلق الله من قد تابا ^(١)

لنفسه بالباطل ويتجاوز القدر الشرعي المأذون فيه وربما تعدى تصرفه إلى النيل من عرض الظالم والطعن في عرضه وتتبع عورته وإظهار فضائحه بينما كان المباح له أخذ الحق الشرعي والرد بالعقوبة المماثلة. وأفضل له أن يعفو ويصفح ويسامح ابتغاء رضا الله وثوابه.

وإن بعض الناس هداه الله مؤذ في طبيعته معتد في طبعه لا يخالط أناسا إلا آذاهم ولا ينزل في مكان إلا حلت فيه المشاكل لا يطيقه أحد فهذا يجب عليه أن يستصلح نفسه ويكف شره فإن شق عليه ذلك أو تعذر فليعتزل الناس في اجتماعاتهم العامة إلا الجمع والجماعات يلزمه المداومة عليها. قيل : يا رسول الله أي الناس أفضل فذكر المجاهد ثم قال: (مؤمن في شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره). متفق عليه. وكل ما ورد في النصوص في فضل العزلة فمحمول على كون الشخص يتعدى شره للغير ويغلب ذلك على طبعه. إن التقصير في هذا الباب عظيم لا يمكن تداركه في الآخرة فينبغي للمؤمن أن يكون ورعا حريصا على أن لا يلقي الله وقد آذى مسلما وعرض نفسه للخطر وأذهب حسناته وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أندرون من المفلس قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال صلى الله عليه وسلم: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته من قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)). رواه مسلم.

^١ - الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره في غيبته.

والفرق بين الغيبة والبهتان والشتم:

• الغيبة: ذكر مساوئ الإنسان في غيبته.

• البهتان: ذكر مساوئ للإنسان وهي ليست فيه.

• الشتم: ذكر المساوئ في مواجهة المقول فيه. (نصرة النعيم - ج ١١ - ص ٥١٦٣).

الأدلة على تحريم الغيبة:

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

• روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أتدرون ما الغيبة؟))، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((ذكرك أخاك بما يكره))، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: ((إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته)) رواه مسلم.

• روى أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاسٍ يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم)) صححه الالباني في صحيح أبي داود.

• روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه)).

• روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: حسبك من صفية كذا وكذا (تعني قصيرة)، فقال: ((لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته)) صححه الالباني. خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه؛ لشدة فُبحها.

• روى أبو داود عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته)) (صحيح أبي داود للالباني).

• روى أبو داود عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن من أربى الربا: الاستطالة في عرض المسلم بغير حق)) (صحيح أبي داود للالباني).

قال النووي في الاذكار: (اعلم أن الغيبة تُباح لغرضٍ صحيحٍ شرعيٍّ لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو سِتُّ أبوابٍ: الأول: التَّظَلُّمُ، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السُّلطان والقاضي وغيرهما ممَّا له ولايةٌ أو قدرةٌ على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلانٌ كذا).

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر وردِّ العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلانٌ يعمل كذا؛ فازجره عنه.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي، أو زوجي، أو فلانٌ بكذا.

الرابع: تحذير المسلمين من الشرِّ ونصيحتهم.

الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس، وغيرها.

السَّادِسُ: التَّعْرِيفُ، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مَعْرُوفًا بَلَقَبِ الْأَعْمَشِ وَالْأَعْرَجِ وَالْأَصَمِّ وَالْأَعْمَى وَالْأَحُولِ، وَغَيْرِهِمْ، جَازَ تَعْرِيفُهُمْ بِذَلِكَ.

فَهَذِهِ سِتَّةُ أَسْبَابٍ ذَكَرَهَا الْعُلَمَاءُ، وَأَكْثَرُهَا مَجْمَعٌ عَلَيْهَا، دَلَالُهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مَشْهُورَةٌ. ضَوَابِطُ إِبَاحَةِ الْغَيْبَةِ:

لِلْغَيْبَةِ الَّتِي أَبَاحَهَا الشَّرْعُ لِأَعْرَاضٍ صَحِيحَةٍ ضَوَابِطُ يَنْبَغِي مَرَاعَاتُهَا، وَمِنْ هَذِهِ الضَّوَابِطُ:

(١) - الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَى فِي النَّيَّةِ، فَلَا تَقُلْ مَا أَيْبَحُ لَكَ مِنَ الْغَيْبَةِ تَشْفِيًّا لَغِيظٍ، أَوْ نِيْلًا مِنْ أَخِيكَ، أَوْ تَنْقِصًا مِنْهُ.

٢- عَدَمُ تَعْيِينِ الشَّخْصِ مَا أَمَكَّنَكَ ذَلِكَ.

٣- أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ بِمَا فِيهِ، بِمَا يَبَاحُ لَكَ، وَلَا تَفْتَحْ لِنَفْسِكَ بَابَ الْغَيْبَةِ عَلَى مِصْرَاعِيهِ، فَتَذْكُرَ مَا تَشْتَهِي نَفْسُكَ مِنْ غُيُوبِهِ.

٤- التَّأَكُّدُ مِنْ عَدَمِ وَقُوعِ مَفْسَدَةٍ أَكْبَرَ مِنْ هَذِهِ الْفَائِدَةِ.

(وَيُشْتَرَطُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ تَكُونَ الْحَاجَةُ مَاسَّةً لَذَلِكَ، وَأَنْ يَقْتَصِرَ النَّاصِحُ مِنَ الْغُيُوبِ عَلَى مَا يُخِلُّ بِتِلْكَ الْمَصْلَحَةِ خَاصَّةً، الَّتِي حَصَلَتْ الْمَشَاوَرَةُ فِيهَا، أَوِ الَّتِي يَعْتَقِدُ النَّاصِحُ أَنَّ الْمَنْصُوحَ شَرَعَ فِيهَا، أَوْ هُوَ عَلَى عَزْمٍ ذَلِكَ، فَيَنْصَحُهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَشِرْهُ؛ فَإِنَّ حِفْظَ مَالِ الْإِنْسَانِ وَعِرْضِهِ وَدَمِهِ عَلَيْكَ وَاجِبٌ، وَإِنْ لَمْ يَعْزِضْ لَكَ بِذَلِكَ فَالْشَّرْطُ الْأَوَّلُ احْتِرَازٌ مِنْ ذِكْرِ غُيُوبِ النَّاسِ مُطْلَقًا؛ لِحُجُوزِ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخَالَطَةِ مَا يَقْتَضِي ذَلِكَ، فَهَذَا حَرَامٌ لَا يَجُوزُ إِلَّا عِنْدَ مَسِيسِ الْحَاجَةِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَبِيحَتِ الْغَيْبَةُ مُطْلَقًا؛ لِأَنَّ الْجَوَازَ قَائِمٌ فِي الْكُلِّ، وَالشَّرْطُ الثَّانِي احْتِرَازٌ مِنْ أَنْ يُسْتَشَارَ فِي أَمْرِ الزَّوْجِ فَيَذْكُرَ الْغُيُوبَ الْمُخِلَّةَ بِمَصْلَحَةِ الزَّوْاجِ، وَالْغُيُوبَ الْمُخِلَّةَ بِالشَّرِكَةِ وَالْمَسَاقَاةِ، أَوْ يُسْتَشَارَ فِي السَّفَرِ مَعَهُ فَيَذْكُرَ الْغُيُوبَ الْمُخِلَّةَ بِمَصْلَحَةِ السَّفَرِ، وَالْغُيُوبَ الْمُخِلَّةَ بِالزَّوْاجِ؛ فَالزِّيَادَةُ عَلَى الْغُيُوبِ الْمُخِلَّةِ بِمَا اسْتُشِيرَ فِيهِ حَرَامٌ، مِثْلًا إِنْ كَفَى نَحْوُ: لَا يَصْلُحُ لَكَ، لَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ، وَإِنْ تَوَقَّفَ عَلَى ذِكْرِ عَيْبٍ ذَكَرَهُ، وَلَا تَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهِ، أَوْ عَيَّيْنِ اقْتَصَرَ عَلَيْهِمَا، وَهَكَذَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كِبَاحَةُ الْمَيْتَةِ لِلْمُضْطَرِّ، فَلَا يَجُوزُ تَنَاوُلُ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ، وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ بَذْلَ النَّصِيحَةِ لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ حَظِّ آخَرَ، وَكَثِيرًا مَا يَغْفُلُ الْإِنْسَانُ عَنْ ذَلِكَ، فَيَلْبَسُ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى التَّكَلُّمِ بِهِ حِينَئِذٍ لَا نُصَحَّا، وَيُزَيِّنُ لَهُ أَنَّهُ نُصَحٌ وَخَيْرٌ)

قال القرطبي -في التفسير -: لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحداً عليه أن يتوب إلى الله عز وجل.

والغيبة كما أنها محرمة على المتكلم بها الذي هو المغتاب، فإنها تحرم من جهة سماعها وإقرارها. فلا يجوز لمن سمع الغيبة أن يرضى بذلك ويقره.

قال النووي -في الأذكار -: اعلم أن الغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرها، يحرم على السامع استماعها وإقرارها، فيجب على من سمع إنساناً يتدبى بغيبة محرمة أن ينهأ إن لم يخف ضرراً ظاهراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار

بقلبه، ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقتها، فإن قدر على الإنكار بلسانه، أو على قطع الغيبة بكلام آخر لزمه ذلك، فإن لم يفعل عصى.

ودليل ما قاله النووي قول الله تعالى : { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

فالمستمع للغيبة مشارك للمغتتاب فيها وفي وزرها، ولهذا وجب على المسلم إذا سمع من يغتاب أخاه أن يمنعه على حسب قدرته ذبا عن عرض أخيه. وقد قال صلى الله عليه وسلم: مَنْ رَدَّ عَنْ عَرَضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. رواه الترمذي.

فتقرر أن الغيبة محرمة المتكلم بها المستمع المقر لها.

ومع أن الغيبة محرمة، إلا أنها قد تباح لوجود مصلحة متمثلة في وجود غرض شرعي صحيح؛ لا يمكن الوصول إليه إلا بالغيبة.

قال ابن حجر -في الفتح -: قال العلماء: تباح الغيبة في كل غرض صحيح شرعا.

وقال ابن كثير -في تفسيره -: وَالْغَيْبَةُ مُحَرَّمَةٌ بِالْإِجْمَاعِ، وَلَا يُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا رَجَحَتْ مَصْلَحَتُهُ، كَمَا فِي الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالنَّصِيحَةِ، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْفَاجِرُ: ائْذِنُوا لَهُ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وكَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَقَدْ خَطَبَهَا مُعَاوِيَةُ وَأَبُو الْجَهْمُ: أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُغْلُوكُ وَأَمَّا أَبُو الْجَهْمُ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَكَذَا مَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ، ثُمَّ بَقِيَّتُهَا عَلَى التَّحْرِيمِ الشَّدِيدِ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهَا الزَّجْرُ الْأَكِيدُ.

فذكر ابن كثير هنا ما يستثنى من الغيبة وهو الجرح والتعديل الذي هو من النصيحة.

وقال النووي -في رياض الصالحين -: باب ما يباح من الغيبة اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه بها وهو ستة أسباب: الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه: منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع.

ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو محاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساوئ التي فيه بنية النصيحة.

ومنها إذا رأى متفقهًا يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصيحة فليتفطن لذلك.

وقال الصنعاني -في معرض ذكر مستثنيات الغيبة في سبل السلام:

(الرَّابِعُ) التَّحْذِيرُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِهِ. كَجَرْحِ الرَّوَاةِ وَالشُّهُودِ، وَمَنْ يَتَصَدَّرُ لِلتَّدْرِيسِ، وَالْإِفْتَاءِ مَعَ عَدَمِ الْأَهْلِيَّةِ، وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ. وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُغْلُوكُ.

وَذَلِكَ أَنَّهَا جَاءَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ قَيْسٍ تَسْتَأْذِنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَسْتَشِيرُهُ وَتَذَكُرُ أَنَّهُ خَطَبَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَخَطَبَهَا أَبُو جَهْمٍ فَقَالَ: أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُغْلُوكَ لَا مُحَالَ لَهُ وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، ثُمَّ قَالَ: انْكحِي أُسَامَةَ... الْحَدِيثَ.

وقد ذكر الصنعاني هنا أدلة استثناء الجرح من الغيبة المحرمة. فقد استدلل العلماء على جواز الغيبة في هذا الموضوع بأدلة:

* ما رواه البخاري ومسلم أَنَّ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْ عُرْوَةَ بِنَ الزَّيْرِ قَالَتْ: اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ائْذِنُوا لَهُ، بِنَسِ أَخُو الْعَشِيرَةِ، أَوْ ابْنُ الْعَشِيرَةِ. فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْكَلَامَ؟ قَالَ: أَيُّ عَائِشَةَ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ، أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ، اتَّقَاءَ فُحْشِهِ.

هذا الحديث ترجم له البخاري بقوله: باب ما يجوز من اغتيال أهل الفساد والريب.

قال الخطيب البغدادي -في الكفاية في علم الرواية عن هذا الحديث :-دليل على أَنَّ إِخْبَارَ الْمُخْبِرِ بِمَا يَكُونُ فِي الرَّجُلِ مِنَ الْعَيْبِ عَلَى مَا يُوجِبُهُ الْعِلْمُ وَالِدَيْنِ مِنَ النَّصِيحَةِ لِلسَّائِلِ لَيْسَ بِغِيْبَةٍ ، إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ غِيْبَةً لَمَا أَطْلَقَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا ذَكَرَ فِيهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، أَنَّ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ الْحَالَةَ الْمَذْمُومَةَ مِنْهُ وَهِيَ الْفُحْشُ فَيَجْتَنِبُوهَا ، لَا أَنَّهُ أَرَادَ الطَّعْنَ عَلَيْهِ وَالتَّلَبُّ لُهُ ، وَكَذَلِكَ أَثْمَنَّا فِي الْعِلْمِ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، إِنَّمَا أَطْلَقُوا الْجَرْحَ فِيمَنْ لَيْسَ بِعَدْلٍ لئَلَّا يَتَغَطَّى أَمْرُهُ عَلَى مَنْ لَا يَخْبُرُهُ ، فَيَظُنُّهُ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ فَيَحْتَجُّ بِخَبَرِهِ ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ إِذَا كَانَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ لَا يَكُونُ غِيْبَةً.

* وما أخرجه مسلم عن فاطمة بنت قيس في قصة طلاقها قالت: فَلَمَّا حَلَلْتُ ذَكَرْتُ لَهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَبَا جَهْمٍ خَطَبَانِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا أَبُو جَهْمٍ، فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُغْلُوكَ لَا مَالَ لَهُ، انْكحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ.

قال أبو عمر بن عبد البر -في التمهيد :-ففيه دليل على أَنَّ قَوْلَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِهِ مَا فِيهِ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ عِنْدَ الْخُطْبَةِ جَائِزٌ وَأَنَّ إِظْهَارَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ عَيْبٍ فِيهِ صَوَابٌ لَا بَأْسَ بِهِ وَلَيْسَ مِنْ بَابِ الْغِيْبَةِ فِي شَيْءٍ وَهُوَ يُعَارِضُ قَوْلَهُ إِذَا قُلْتُ فِي أَحِيكَ مَا فِيهِ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ جَائِزٌ تَبَيَّنُ حَالُ الشَّاهِدِ إِذَا سَأَلَ عَنْهُ الْحَاكِمُ وَتَبَيَّنُ حَالُ نَاقِلِ الْحَدِيثِ وَتَبَيَّنُ حَالُ الْخَاطِبِ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ وَفِي ذَلِكَ أَوْضَحُ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ حَدِيثَ الْغِيْبَةِ لَيْسَ عَلَى عُمُومِهِ. وهنا ذكر ابن عبد البر إجماع العلماء على استثناء ذلك من الغيبة المحرمة. ونقل الإجماع -أيضا- ابن رجب - في كتابه شرح العلل -، حيث قال: وجوب الكلام في الجرح والتعديل.

مقصود الترمذي رحمه الله أن يبين أن الكلام في الجرح والتعديل جائز، قد أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها، لما فيه من تمييز ما يجب قبوله من السنن مما لا يجوز قبوله.

وهذا الإجماع الذي نقله ابن رجب لا يختص بتجريح الرواة فقط، بل يشمل أيضا جرح أهل الأهواء والبدع

وأصحاب التأويلات الفاسدة؛ لذا قال في -الفرق بين النصيحة والتعيير :-ولا فرق بين الطعن في رواية حفاظ الحديث ولا التمييز بين من تقبل روايته منهم ومن لا تقبل، وبين تبيين خطأ من أخطأ في فهم معاني الكتاب والسنة وتأوّل شيئاً منها على غير تأويله وتمسك بما لا يتمسك به ليُحذّر من الاقتداء به فيما أخطأ فيه، وقد أجمع العلماء على جواز ذلك أيضاً.

فهذه الأدلة من السنة والإجماع تدل على أن الجرح ليس من الغيبة المحرمة. فهذا فيه الرد على من يسوّي بين الجرح والرد على المخالف وبين الغيبة. حيث تجده ينقّر من جرح أهل الأهواء والرد على المخالف بحجة أن هذا غيبة ويذكر أدلة تحريم الغيبة. والحقيقة أن مراده هو تنفير الناس من دعوة الحق. وقد علمنا من النصوص وأقوال العلماء التي نقلتها. الفرق بين الأمرين.

وقد قال ابن رجب -في الفرق بين النصيحة والتعيير :-وقد قرر علماء الحديث هذا في كتبهم في الجرح والتعديل وذكروا الفرق بين جرح الرواة وبين الغيبة وردّوا على من سوّى بينهما من المتعبدین وغيرهم ممن لا يتسع علمه. ففي الحديث السابق النبي صلى الله عليه وسلم نصح لفاطمة بنت قيس وذكر لها عيب رجلين خطبها. ومثل هذا كان في مصلحة خاصة. فكيف بما كانت المصلحة فيه عامة. فيه مصلحة للإسلام والمسلمين. ولهذا يقول ابن رجب -في شرح العلل :-وقد ظن بعض من لا علم عنده أن ذلك من باب الغيبة، وليس كذلك، فإن ذكر عيب الرجل إذا كان فيه مصلحة، ولو كانت خاصة كالقدح في شهادة شاهد الزور، جائز بغير نزاع، فما كان فيه مصلحة عامة للمسلمين أولى.

فالنبي صلى الله عليه وسلم الذي حرم الغيبة وبين معناها، هو الذي ذكر معاوية وأبا الجهم بما يكرهون. وهذا كما ذكرت آنفاً في مصلحة خاصة. فكيف بمصلحة المسلمين العامة. ومن ذلك تحذيرهم من البدع وأهلها. فهذا ليس من الغيبة في شيء.

قال العلامة ابن العثيمين - لقاء الباب المفتوح ١٢٠ :-الكلام في أهل البدع ومن عندهم أفكار غير سليمة أو منهج غير مستقيم، هذا من النصيحة وليس من الغيبة، بل هو من النصيحة لله ولكتابه ولرسوله وللمسلمين، فإذا رأينا أحداً مبتدعاً ينشر بدعته، فعلينا أن نبين أنه مبتدع حتى يسلم الناس من شره، وإذا رأينا شخصاً عنده أفكار تخالف ما كان عليه السلف فعلينا أن نبين ذلك حتى لا يغتر الناس به، وإذا رأينا إنساناً له منهج معين عواقبه سيئة علينا أن نبين ذلك حتى يسلم الناس من شره، وهذا من باب النصيحة لله ولكتابه ورسوله ولأئمة والمسلمين وعامتهم. وسواء كان الكلام في أهل البدع فيما بين الطلبة أو في المجالس الأخرى فليس بغيبة، وما دمنا نخشى من انتشار هذه البدعة أو هذا الفكر أو هذا المنهج المخالف لمنهج السلف يجب علينا أن نبين حتى لا يغتر الناس بذلك.

إذا تقرر هذا فإنني أنبه على أمرين:

الأمر الأول: أن الجرح الذي ليس من الغيبة، لا ينبغي أن يتصدى له كل أحد من الناس. لأن الذي يتصدى لهذا

الباب العظيم هو الذي تحققت فيه شروط قد ذكرها أهل العلم. فإذا تصدى له من لا يحسنه فإنه يفسد وهو يحسب نفسه مصلحا.

قال شيخنا محمد علي فركوس -في الفتوى رقم ١١٠٣ :-والكلام في بيان أحوال المجروحين يُعدُّ وسيلة لا غاية في حدِّ ذاته، لا يقوم بهذه المهمَّة إلاَّ أهلُ العلم المعروفون بالأمانة والنزاهة والعدل في الحكم، مع الدقَّة في البحث عن أحوالهم، إلى جانب التقوى والورع، والتجرُّد من التعصُّب والهوى، والتزام الحيطة والأدب في نقد الرجال؛ حذرًا من انتهاك الأعراض وتجريح الناس من غير مسوِّغ شرعيٍّ؛ لذلك اشترط العلماء في قبول الجرح بيان سببه مفصلاً على أرَّجَح الأقوال.

ويقول الشيخ محمد بن آدم الأثيوبي -في قرة عين المحتاج مبينا شروط من يتصدى للجرح والتعديل :-فمنها: العلم، والتقوى، والورع، والصدق، والأمانة، والابتعاد عن التعصُّب، ومعرفة أسباب الجرح والتعديل، وأن يكون مستيقظاً، مستحضراً، متحرِّياً لأقوال العلماء، ضابطاً لما يصدر منه؛ لئلا يقع في التناقض، عالماً بتصاريف الكلام؛ لئلا يُغيِّر كلام الناس إلى عكس ما يريدونه، وأن لا تحمله العداوة الشخصية في الجرح، وأن يكون حليماً صبوراً، فلا يغضب في كلام الناس فيه، فيرميهم بما لا يستحقُّونه، وأن لا تحمله القراية على العدول عن قول الحق في الراوي.

فمن خلال هذا نعلم خطورة الإقبال على هذا الباب لمن ليس أهلاً. فباب الجرح والتعديل يترك لأهله ثم لا بأس بعد بيانهم من نقله وحكايته عنهم. ومن نصائح الشيخ أحمد النجمي -كما في الفتاوى الجليلة الجزء الثاني :-لا تتسرعوا أنتم أيها الطلاب الصغار بالحكم على أي شخص بالتبديع حتى ولو كان عنده بدعة حتى تعرضوا ذلك على العلماء، و يؤيدونكم فيه، بدون هذا لا تفعلوا شيئاً من ذلك.

وقال -أيضاً :-لا يجوز لطالب العلم المبتدئ أن يبدع أو يكفر إلا بعد أن يتأهل لذلك، و عليه إسناد الأمر لكبار أهل العلم خاصة.

الأمر الثاني: وهو التنبيه على أن أعراض المسلمين محرمة. وقد جَوَّزها الشرع لمقاصد. ومن ثمة فلا يجوز تجاوز هذه المقاصد بسبب الهوى أو التعصب وغير ذلك؛ لأن هذا انحراف عن الحق.

قال ابن دقيق العيد -في الاقتراح :-أَعْرَاضُ الْمُسْلِمِينَ حُفْرَةٌ مِنْ حَفْرِ النَّارِ وَقَفَ عَلَى شَفِيرِهَا طَائِفَتَانِ مِنَ النَّاسِ الْمُحَدَّثُونَ وَالْحُكَّامُ. ومن ثم فلا يجوز التساهل في هذا الباب والتكلم فيه بلا تثبت ولا علم. حتى تجد من يقع بذلك في الغيبة وهو يتستر بالجرح والتعديل.

فالجرح أبيض من الغيبة بقصد النصيحة فلا يجوز تعدي ذلك؛ كأن يقصد الجراح التهكم والتفكه بتمزيق الأعراض. بل يذكرون بما هم عليه؛ كما قال الشاطبي في الاعتصام.

وقال ابن القيم -في كتابه الروح :-وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّصِيحَةِ وَالْغِيْبَةِ أَنَّ النَّصِيحَةَ يَكُونُ الْقَصْدُ فِيهَا تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِ مِنْ مُبْتَدَعٍ أَوْ فِتْنَانٍ أَوْ غَاشٍ أَوْ مُفْسِدٍ فَتَذَكَّرَ مَا فِيهِ إِذَا اسْتَشَارَكَ فِي صَحْبَتِهِ وَمَعَامَلَتِهِ وَالتَّعْلُقِ بِهِ... فَإِذَا وَقَعَتِ الْغِيْبَةُ

على وجه النصيحة لله ورَسُوله وعباده المُسلمين فَهِيَ قَرِبةٌ إِلَى الله من جملة الحَسَنات وَإِذَا وَقَعَت على وَجهِ دَمٍ أَخِيكَ وتمزيق عرضه والتفكه بِلَحْمِهِ والغض مِنْهُ لتَضَعْ مَنْزِلَتَهُ من قُلُوبِ النَّاسِ فَهِيَ الدَّاءُ العضال ونار الحَسَنات الَّتِي تَأْكُلُهَا كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ.

وقال ابن رجب -في الفرق بين النصيحة والتعيير -: اعلم أن ذكر الإنسان بما يكره محرم إذا كان المقصود منه مجرد الذم والعيب والنقص. فأما إن كان فيه مصلحة لعامة المسلمين خاصة لبعضهم وكان المقصود منه تحصيل تلك المصلحة فليس بمحرم بل مندوب إليه.

قال القرافي -في الفروق -: الفرق الثالث والخمسون والمائتان بين قاعدة الغيبة المحرمة وقاعدة الغيبة الَّتِي لَا تَحْرُمُ... (الرابعة) أَرْبَابُ الْبِدْعِ وَالتَّصَانِيفِ الْمُضِلَّةِ يَنْبَغِي أَنْ يُشْهَرَ النَّاسُ فَسَادَهَا وَعَيْبَهَا وَأَنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ الصَّوَابِ لِيَحْذَرَهَا النَّاسُ الضُّعْفَاءُ فَلَا يَقَعُوا فِيهَا، وَيُنْفَرُ عَنْ تِلْكَ الْمَفَاسِدِ مَا أَمَكْنَ بِشَرْطِ أَنْ لَا يُتَعَدَّى فِيهَا الصَّدَقُ وَلَا يُفْتَرَى عَلَى أَهْلِهَا مِنَ الْفُسُوقِ وَالْفَوَاحِشِ مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ بَلْ يُقْتَصَرُ عَلَى مَا فِيهِمْ مِنَ الْمُنْفَرَاتِ خَاصَّةً فَلَا يُقَالُ عَلَى الْمُبْتَدِعِ إِنَّهُ يَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَلَا أَنَّهُ يَزْنِي وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ.

قال ابن العثيمين -في شرح رياض الصالحين -: وقد شاع عند الناس كلمة غير صحيحة وهي قولهم: [لا غيبة لفاسق] هذا ليس حديثاً وليس قولاً مقبولاً بل الفاسق له غيبة مثل غيره، وقد لا يكون له غيبة فإذا ذكرنا فسقه على وجه العيب والسب فإن ذلك لا يجوز، وإذا ذكرناه على سبيل النصيحة والتحذير منه فلا بأس بل قد يجب. ولو نظرت فيما يشغل الناس به مجالسهم وقت فراغهم واستجمامهم، لرأيت ما يروغ من لغو الحديث؛ غيبة وازدراء، وسخرية وتقعر في الكلام وتشدقاً به؛ من أجل التعالي، أو استدرار المديح، أو غيرهما، وهذا ليس في كل المجالس، وإنما في بعضها، ففي الناس من يعيش صفيق الوجه، شرس الطبع، لا تحجزه مروءة، ولا يردعه دين أو أدب، جرّد لسانه مقراضاً للأعراض، بكلمات تنضح فحشاً، وألفاظ تنهش نهشاً، يُسْرِفُ في التجني على عباد الله؛ سخرية ولمزاً، فهذا طويل وذاك قصير، وهذا أحق وذاك جهول، وهذا ثقيل وذاك خفيف، وهذا كريم وذاك بخيل، وكأنه قد وكل إليه القدح والتجريح، وقد غفل عن قوله - سبحانه -: ﴿سَكَتُوبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١]، وعن قوله - سبحانه -: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ويزداد الأمر وتعظم البلية حين ترى من عليه علامات الوقار، وملامح الاحتشام، وسيما الوجاهة، يُسْفِرُ عن بداءة وثرثرة، يُصِمُّ بالخوض بالباطل أذني جليسه، ولا يدع لأصحاب فضل فضلاً، يحمل عليهم الحملات الشعواء أحياء أو أمواتاً، من جرّاء زلة لسان أو سبق قلم، فلا تطمئن له نفس، ولا يهدأ له بال حتى يتكلم في فلان، أو يسخر بفلان، فديدنه في المجالس الحديث في الآخرين سباً وازدراء، وكذلك شأنه في مكتبه، وفي سوقه، وفي سائر اجتماعاته، فلا يرى أن الغيبة ممقوتة، ولا يرى أنها مُحِبَّةٌ لِمَا لديه من عمل صالح، كان اكتسبه من صوم وصلاة، ونحوهما. والغريب في الأمر أنه مع ما هو فيه من نهش لأعراض الأبرياء، سواء كان الكلام فيهم حقاً أم كذباً، الغريب في ذلك أن من هذا شأنه، لو سَمِعَ مقالةً من آخر تُفِيدُ الذمَّ له، لاحمرَّ وجهه، وانتفخت أوداجه، وتأبط الشر لمن

تحدّث فيه ونال منه، فلا ندري حقيقةً لِمَا يغضب لنفسه من جرّاء سهم واحد وُجّه إليه، وهو الذي يوجّه سهامًا عديدة في كلّ يوم، بل في كلّ ساعة أحيانًا؟ أيعتقد من هذه شاكِلته أن عِرضه يختلف عن أعراض غيره من المسلمين؟ أم يرى أن الوعيد في الغيبة يشمل غيره ولا يشملُه، فغيره مأخوذون ومُحاسِبون وهو وحده قد سقطت عنه التكاليف، فلا يُحاسِب على ما يُصدره لسانه من سوء!

فإلى كلّ من أَرخى العنان للسانه، ليقُل ما يشاء، وليتحرّك كما يشاء، فيكذب عندما يريدُ الكذب، ويَش عندما يَهْوَى الوشاية، ويسخر عندما تحلو له المجالس، إلى كلّ مسلم قد ابتلي بهذا الداء، أوجّه إليه هذه الآيات والأحاديث الزاجرة؛ لتكونَ منقذةً له من مُوبقات اللسان:

يقول - جلّ وعلا -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١ - ١٢].

وأما الأحاديث، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - قال: ((أتدرون من المفلس؟)) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: ((المفلس من أمّتي من يأتي يومَ القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مالَ هذا، وسفك دَمَ هذا، وضربَ هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فُيِّتَ حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرِحَ في النار))؛ أخرجه الإمام مسلم - رحمه الله.

يقول ابن حجر الهيتمي عن الغيبة: إن فيها أعظم العذاب، وأشدّ النكال، فقد صحَّ فيها أنها أربى الرّبا، وأنها لو مُرِجت بماء البحر لأنتنته وغيّرت ريحَه، وأن أهلها يأكلون الجيف في النار، وأن لهم رائحةً مُنتنة فيها، وأنهم يُعذَّبون في قبورهم، وبعض هذه كافية في كون الغيبة من الكبائر، فكيف إذا اجتمعت؟! وكلُّ هذا في الأحاديث الصحيحة.

ويقول ابن حجر في تعريفها: وجدت بخط الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد أنّه روى بسنده إلى النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - قال: ((ما كرهت أن تُواجه به أخاك فهو غيبة))، ولمعاذ بن أنس الجهني: أن النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - قال: ((من حمى مؤمنًا من منافق يغتابه بعث الله إليه ملكًا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مؤمنًا بشيء يُريد سبّه حبسه الله على جسْر جهنم، حتى يخرج ممّا قال))؛ رواه أحمد في "مسنده". ولقد ذُكرت امرأة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - ذُكرت بكثرة صلاحها وصومها، ولكنها تُؤذي جيرانها بلسانها، فقال: ((هي في النار)).

قالت عائشة - رضي الله عنها - : قلت للنبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - : حسبك من صفية كذا وكذا، قال بعض الرواة: تعني قصيرة، فقال - صلوات الله وسلامه عليه - : ((لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته))؛ أي: لأننته وغيّرت ريحه.

وعن أبي بكر - رضي الله عنه - أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - قال في خطبته في حجة الوداع : ((إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟)). فهذه الآيات والأحاديث وغيرها كثير، كلها تأتي مُحذّرة من الغيبة ومن الوقوع في أعراض المسلمين والمسلمات؛ ليعيش أفراد الأمة المسلمة حياةً تعلوها المحبة، وتكسوها المودة، وليكونوا إخوةً تجمعهم رابطة الأخوة في الدين يتحلّون بحفظ ألسنتهم عن إخوانهم، فكلّموا رأوا عيباً في أحدهم دفنوه رهبةً من الله، ورغبةً في أن يعيش كل فردٍ منهم حياةً الأنس والرخاء والطمأنينة، فالألسن مشغولةٌ بذكر المحاسن عن المساوئ، شغلتهم عيوبهم عن عيوب غيرهم، هكذا يريد منّا الإسلام، فهذا هو ديننا، وهذه تعاليمه .

ولكنّ ناساً يابون أن تسيّر الأمة على هذا المنوال بأعراضٍ مَصُونَة، وبكرامة محفوظة، وبعيوب مستورة، يابون ذلك فيستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، وقد يتساءل المسلم عن كُنه الدوافع، وماهيّة الدوافع للغيبة، فألخصها جواباً لسؤاله بهذه النقاط الموجزة:

أولها :إشفاء الغَيْظ، فقد يغضب الإنسان من أخيه؛ لسوء تصرّف صدر منه، فلا يجد ذلك الإنسان مجالاً للانتقام أخصب من مجال الغيبة.

ومن الدوافع أيضاً: قصد الرّفعة والاستعلاء على الغير، ومحاولة الصعود على أكتاف الآخرين، فيرمي بالكلمة على فلان من الناس؛ ليوهم من حوله بأنّه على خلافها، فتارةً يتّهم زيداً بالبخل والشح؛ ليعتقد من حوله أنّه كريم، وتارةً يتهم عمراً بالجهل؛ ليفهم من حوله أنّه عالم، أو طالب علم .

ومن المؤسف حقاً أنّ هذا الدافع له وجود عند بعض طلاب العلم - هداهم الله - فتسمع في المجالس أحياناً ممّن يُنتظر منه الخير، ويؤمن منه الشرّ من ينتقد الخطيب الفلاني، أو المحاضر الفلاني، ويسمّ ذاك بكذا، والآخر بكذا، فالخطيب الفلاني يلحن، والآخر أسلوبه ركيك، والثالث لا يُشبع الموضوع، والرابع فيه كذا، وكأنّه الرقيب عليهم، بل يعتقد أنّ ما يقوله داخلٌ ضمن إطار النقد الهادف والبناء، وأنّي له ذلك، فالمقصود بالنقد الهادف والبناء أن يكون في وجه المنتقد نفسه، من أجل أن يستفيد ويستقيم، وأمّا في حالة غياب المنتقد، فإنّ هذا من باب الغيبة، والدافع له في أغلب الأحيان إيهام من حوله بأنّه هو الخطيب أو الداعية المثالي، مع أنّ من هذا دأبه في الغالب لا يستطيع أن يقف مجرد وقفة أمام المجموع، فضلاً عن حسن اختيار الموضوع، وجميل طرحه .

ومن الدوافع أيضاً :حسد الغير، فمن الناس من تثور ثائرتة، وتشمئز نفسه، ويزداد صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء عند سماعه الشاء على أحد من الناس، فلا يجد مُتنفّساً لذلك الضيق إلّا بالقدح فيه، مُحاولاً أن يُشبههم عن المدح والثناء؛ حباً لزوال تلك النعمة من ذلك الممدوح، فإذا لم يجد قدحاً أورد كلماتٍ للتشكيك في أمره،

كَمَا يَرُونَ السَّعْيَ فِي تَحْصِيلِ	عِلْمِ دِينِ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ
عِلْمِ الْكِتَابِ وَالْحَدِيثِ وَالسُّنَنِ	مِمَّنْ عَلَيْهَا فِي الْأَنَامِ يُؤْتَمَنُ
كَذَاكَ عِلْمُ الْمَرْءِ بِالْآثَارِ	بِمَا أَتَى عَنْ صُحْبَةِ الْمُخْتَارِ ^(١)

فتارة يقول: لا تُبالِغوا في المدح، وتارة يقول: الإخلاصُ صعبٌ جدًّا، وتارة يقول: قُلْتُم فيه ما لا يستحق، إلى غير ذلك من الكلمات، والعجيب في الأمر أنهم لو قدحوا فيه لَمَّا نَهَرُهم، مع أنهم يَأْتُمون في القدح، ويُوجرون في المدح - إذا كان ذلك في غياب الممدوح!

ومن الدوافع أيضًا: إرادةُ السُّخْرية والاستهزاء به، من باب إضحاك الآخرين، فأحيانًا يُقَلَّد فلانًا في مشيته، وأحيانًا يُقَلَّد كلامه، وأحيانًا يأتي بكلِّ حركةٍ من الحركات المضحكة فيه؛ طمعًا في إضحاك من حوله، دون مبالاة بذلك العَرَض النفيس المهدر.

^١ - طلب العلم ليس من العمل فقط، بل هو من أفضل الأعمال، فمن أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه تبارك وتعالى بعد أداء ما افترضه عليه هو طلب العلم، قال الله تعالى: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [الزمر: ٩].

وقال تعالى: { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } [المجادلة: ١١].

والآيات والأحاديث وأقوال أهل العلم في هذا المعنى كثيرة، قال ابن الحاج في المدخل: الاشتغال بالعلم أفضل الأعمال وأزكاها، وأبركها..

وقال النووي في المجموع: والحاصل أنهم مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِالْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنَ الْإِشْتَغَالِ بِنَوَافِلِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ نَوَافِلِ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ: وَمِنْ دَلَائِلِهِ سَوَى مَا سَبَقَ أَنَّ نَفْعَ الْعِلْمِ يَعُمُّ صَاحِبَهُ وَالْمُسْلِمِينَ، وَالنَّوَافِلُ الْمَذْكُورَةُ مُخْتَصَّةٌ بِهِ، وَلِأَنَّ الْعِلْمَ مُصَحِّحٌ فَغَيْرُهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ مُقْتَرِفٌ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْعَكِسُ: وَلِأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا يُوصَفُ الْمُتَعَبِّدُونَ بِذَلِكَ: وَلِأَنَّ الْعَابِدَ تَابِعٌ لِلْعَالِمِ مُقْتَدٍ بِهِ مُقَلِّدٌ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ. اهـ

وفي صحيح مسلم عن نافع بن عبد الحارث الخزاعي - وكان عاملاً لعمر على مكة - أنه لقيه بعُسْفَانَ فقال له: من استخلفت؟ فقال: استخلفت ابن أوزي مولى لنا، فقال عمر: استخلفت مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، فقال عمر: أما إن نبيكم قد قال: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ»، وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى: { نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ } [يوسف: ٧٦] قال: بالعلم، وقوله عز وجل: { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي

علماء { [طه: ١١٤]، واضح الدلالة في فضل العلم، لأن الله تعالى لم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب
الازدياد من شيء إلا من العلم.

والمراد بالعلم: العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم
بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه من النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه.
والسعي في طلب العلم والرحلة إليه واجب، فقد روى البخاري في باب الخروج في طلب العلم أن جابر بن عبد
الله رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد، وفيه: حدثنا أبو القاسم خالد بن خَلِيٍّ قال: حدثنا
محمد بن حرب قال: قال الأوزاعي أخبرنا الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس أنه
تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى، فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال:
إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، هل سمعت النبي صلى الله عليه
وسلم يذكر شأنه؟ فقال أبي: نعم، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه يقول: «بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَأٍ مِنْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَتَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى،
عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ السَّبِيلَ إِلَى لُقْيِهِ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْخُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الْخُوتَ فَارْجِعْ، فَإِنَّكَ
سَتَلْقَاهُ، فَكَانَ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَّبِعُ أَثَرَ الْخُوتِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى
الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} قَالَ مُوسَى: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا
قَصَصًا} فَوَجَدَا خَضِرًا، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِي قَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ» [رواه البخاري]، قال ابن حجر:
وقد أخرج مسلم حديث أبي هريرة رضي الله عنه رفعه: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا
إِلَى الْجَنَّةِ»، ثم أورد قصة رحلة جابر رضي الله عنه فقال: عن محمد بن عقيل أن جابر بن عبد الله يقول: بلغني
عن رجلٍ حَدِيثٌ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاشْتَرَيْتُ بَعِيرًا ثُمَّ شَدَدْتُ رَحْلِي فَسِرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا حَتَّى
قَدِمْتُ الشَّامَ إِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ، فَقُلْتُ لِلْبَوَّابِ: قُلْ لَهُ جَابِرٌ عَلَى الْبَابِ فَقَالَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ قُلْتُ نَعَمْ فَخَرَجَ
فَاعْتَقَنِي فَقُلْتُ حَدِيثٌ بَلَّغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ
أَسْمَعَهُ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَحْشُرُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرَاةً» فذكر الحديث.
وفي رواية أخرى أنه كان بمصر، وقد روي مثل هذا عن غير جابر إلى سائر البلاد حتى قال الشعبي: إن كان
الرجل ليرحل فيما دونها إلى المدينة أي من العراق، وعن سعيد بن المسيب: إن كنت لأرحل الأيام والليالي في
طلب الحديث الواحدة، وكان ابن مسعود يقول: لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني لرحلت إليه.
والأحاديث والروايات في فضل العلم والحث على طلبه والرحلة إليه والحرص عليه كثيرة لما ذكرنا من قبل من
فضل العلم ومكانته، مما يدل على أن الإسلام أعطى العلم المساحة الكبرى التي تليق به وبآثاره، مما كان له
أكبر الأثر في تكوين الحضارة الإسلامية على العلم الصحيح، تلك الحضارة التي امتدت آثارها إلى العالم أجمع.
قال الذهبي :

العِلْم قال الله قال رسوله *** قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة *** بين الرسول وبين رأى فقيه
وقال ابن القيم في التوبة :

العِلْم قال الله قال رسوله *** قال الصحابة هم أولو العرفان
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة *** بين الرسول وبين رأى فلان
فمصادر العلم الشرعي

قال الله: الاعتماد على كتاب الله عز وجل وما جاء فيه من أحكام وهداية.
وقال رسوله: الأخذ بسنة النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة والثابتة عنه.
وقال الصحابة: الرجوع إلى فهم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم لأنهم أولو العرفان والمعرفة الصحيحة.
الآثار الواردة على السلف على أنواع؛

النوع الأول : آثار موقوفة أو مقطوعة ولها حكم الرفع، يعني يأتي قول صحابي أو أثر عن تابعي له حكم الحديث
المرفوع، فهذا حكمه حكم الحديث المروي. وجملة كثيرة من الأحاديث النبوية نقلت على هذه الصورة.
فالاهتمام بالآثار فيه حفظ جملة كثيرة قد تكون ثلث أو ربع أو خمس الأحاديث فيها، والله اعلم.
النوع الثاني : آثار ينقل فيها فقه السلف للآية أو الحديث، في تفسيره وبيان معناه، ومعلوم ن الراوي أدرى
بمرويه، وأنهم أقرب عهداً من غيرهم بزمان البعثة والوحي، بل وشاهد الصحابة نزول القرآن العظيم، وعلموا قرائن
الأحوال التي حفت به، فهم أعلم منا بالقرآن وبالسنة، وفقههم هو المعتبر في فقه الشريعة. وهذه فائدة ثانية
نحصلها بالاهتمام بالآثار.

النوع الثالث : آثار ينقل فيها اختلافهم في المسألة، وهذا النوع يهتم به وبمعرفة لمعرفته لاختلاف، فإن العلماء
من قاعدتهم أن لا يخرج الباحث في المسألة عن خلافهم ولا يحدث قولاً خارجاً عن أقوالهم. وهذه فائدة
للاهتمام بآثار السلف.

النوع الرابع : آثار يعرف منها اجماعهم سكوتياً على القول. وهذه فائدتها معرفة مسائل الإجماع السكوتي.
النوع الخامس : آثار يعرف منها طريقتهم في الاستنباط والاستدلال ، وهذه فائدتها أن نعرف ذلك ونقتبس منه
في منهج الفقه للكتاب والسنة.

فهذه خمس فوائد لمعرفة الآثار وجمعها ودراستها، فإذا اضفت إليها أن في ذلك امتثالاً لأمر الله لنا باتباع سبيل
المؤمنين {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥]

وأن في اتباعهم العصمة من الاختلاف المذموم، والدخول في الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، قال صلى الله عليه وسلم: "وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قيل: من هي يارسول الله؟ قال: الجماعة"، وفي رواية قال: "ما أنا عليه واصحابي". زاد عدد الفوائد وعظم نفع الآثار.

والآثار الواردة عن الصحابة رضوان الله عليهم جاءت في شتى فروع الشريعة . ولا شك أن قول الصحابي له من القوة في الاستدلال ما جعل كثيرا من أهل العلم يحتاجون بقول الصحابي ، خاصة إذا لم يكن في الباب غيره .

ولذا شدد أهل العلم في الثبوت مما نقل عن الصحابة في باب العقائد والأحكام . أما ما نقل عنهم في الزهد والرقائق والآداب والمواعظ ونحوها ، فإنهم تسامحوا في شروط قبول هذه الروايات عنهم ، ما دام الأثر محصورا في تلك الأبواب ، التي يطلب فيها الحكم ، والأقوال السائرة ، وتذكر للعبرة ، والتأديب ، والتهذيب ، ونحو ذلك ، مما لا يحتاج النظر والاعتبار فيه إلى إسناد أصلا ؛ فضلا عن أن يبحث في صحة الإسناد أو ضعفه .

قال الخطيب البغدادي في "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" (٢/٢١٣) : "وَأَمَّا أَخْبَارُ الصَّالِحِينَ وَحِكَايَاتُ الزُّهَادِ وَالْمُتَعَبِّدِينَ وَمَوَاعِظُ الْبُلَغَاءِ وَحِكْمُ الْأُدَبَاءِ فَلَا سَانِيدَ زِينَةٍ لَهَا وَلَيْسَتْ شَرْطًا فِي تَأْدِيتِهَا" انتهى .
ثانيا :

إذا كانت الأحاديث المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، في أبواب الزهد والرقائق والأخلاق والآداب : قد سهل العلماء في رواياتها ، وقبول أسانيدها ، ما لم يسهلوا في أبواب العقائد والأحكام .

هذا ، مع ما في باب التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحجر والتشديد ؛ فكيف بما ينقل عن السلف وأهل العلم من السابقين ؟ لا شك أن الأمر فيه أسهل ، والرخصة فيه أوسع .

قال الخطيب البغدادي في "الكفاية" (ص ١٣٣) : "قد ورد عن غير واحد من السلف أنه لا يجوز حمل الأحاديث المتعلقة بالتحليل والتحريم ؛ إلا عمن كان بريئا من التهمة بعيدا من الظنة .

وأما أحاديث الترغيب والمواعظ ونحو ذلك فإنه يجوز كتبها عن سائر المشايخ " انتهى .

وروى ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" (١/٤١) عن سفيان بن عينة أنه قال : " لا تسمعوا من (بقية) ما كان في سنة ، وأسمعوا منه ما كان في ثواب وغيره " انتهى .

وروى الحاكم في "المستدرک" (١/٦٦٦) بسنده عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ ، أنه قال: " إِذَا رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَلَالِ ، وَالْحَرَامِ ، وَالْأَحْكَامِ ، شَدَّدْنَا فِي الْأَسَانِيدِ ، وَانْتَقَدْنَا الرَّجَالَ .

وَإِذَا رَوَيْنَا فِي فَصَائِلِ الْأَعْمَالِ وَالْثَوَابِ ، وَالْعِقَابِ ، وَالْمُبَاحَاتِ ، وَالِدَعَوَاتِ تَسَاهَلْنَا فِي الْأَسَانِيدِ " انتهى .

وقال ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" (٢/٣٠) : " باب في الآداب والمواعظ : أنها تحتل الرواية عن الضعاف " .

ثم روى بسنده عن أبيه عن عبدة بن سليمان ، قال : " قيل لابن المبارك وروى عن رجل حديثاً ، فقيل هذا رجل ضعيف؟

فقال يحتمل أن يروى عنه هذا القدر أو مثل هذه الأشياء.

قلت لعبدة: مثل أي شيء كان؟ قال: في أدب ، موعظة ، في زهد " انتهى .

وهذا الإمام أحمد بن حنبل يفرق كذلك بين رواية أحاديث الأحكام وأحاديث المغازي والفضائل .

جاء في "طبقات الحنابلة" لأبي يعلى (١/٢٥٤) ، أن الإمام أحمد قال : " إذا روينا عن رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ شَدَدْنَا فِي الْأَسَانِيدِ ، وَإِذَا رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي

فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ وَمَالًا يَضَعُ حُكْمًا وَلَا يَرْفَعُهُ تَسَاهَلْنَا فِي الْأَسَانِيدِ " انتهى .

وقال ابن الملقن في "التوضيح" (٢/٦٧) : " لا يجوز العمل في الأحكام ولا يثبت إلا بالحديث الصحيح أو

الحسن ، ولا يجوز بالضعيف لكن يُعمل به فيما لا يتعلق بالعقائد والأحكام ، كفضائل الأعمال والمواعظ وشبههما " انتهى .

إلا أن هذا كما قدمنا لم يكن على إطلاقه ، بل اشترطوا في ذلك ألا يكون في الإسناد كذاب أو متهم بالكذب .

قال ابن رجب في "شرح علل الترمذي" (ص ١٢٦) : " وأما ما ذكره الترمذي أن الحديث إذا انفرد به من هو متهم

بالكذب ، أو من هو ضعيف في الحديث ، لغفلته وكثرة خطئه ، ولم يعرف ذلك الحديث إلا من حديثه : فإنه لا

يحتج به .

فمراده : أنه لا يحتج به في الأحكام الشرعية ، والأمور العلمية ، وإن كان قد يروي حديث بعض هؤلاء في

الرقائق والترغيب والترهيب ، فقد رخص كثير من الأئمة في رواية الأحاديث الرقاق ونحوها عن الضعفاء . منهم

ابن مهدي وأحمد بن حنبل ...

وإنما يروي في الترغيب والترهيب والزهد والآداب أحاديث أهل الغفلة الذين لا يهتمون بالكذب ، فأما أهل

التهمة فيطرح حديثهم ، كذا قال ابن أبي حاتم وغيره " انتهى .

وقال النووي في "شرح مسلم" (١/١٢٥) في معرض حديثه عن أسباب رواية العلماء حديث الراوي الضعيف ،

قال : " قَدْ يَرْوُونَ عَنْهُمْ أَحَادِيثَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ وَفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ وَالْقَصَصِ وَأَحَادِيثَ الزُّهْدِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ

، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَسَائِرِ الْأَحْكَامِ .

وَهَذَا الصَّرْطُ مِنَ الْحَدِيثِ : يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِمُ التَّسَاهُلُ فِيهِ ، وَرَوَايَةُ مَا سِوَى الْمَوْضُوعِ مِنْهُ وَالْعَمَلُ

بِهِ ، لِأَنَّ أَصُولَ ذَلِكَ صَحِيحَةٌ مُقَرَّرَةٌ فِي الشَّرْعِ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ أَهْلِهِ " انتهى .

وإذا ثبت هذا في التعامل مع الأحاديث المرفوعة المنقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي روايتها ضعف ،

فما يُروى عن الصحابة والتابعين في الترغيب والترهيب ، والزهد والرقائق ، والحكم والمواعظ ، وأخبار الصالحين

والعباد = أمره أسهل ، وبابه أوسع ، كما سبق بيانه ، وما زال ذلك دأب أهل العلم ، وطريقتهم في التصنيف ، كما يعلم ذلك من طرائقهم في الرواية ، ومن مصنفاتهم في الزهد والرقائق والآداب والمواعظ .
ثالثا :

أما عن الكتب المصنفة التي اهتم مؤلفوها بنقل أقوال الصحابة ، فهي كثيرة بفضل الله ، إلا أن مؤلفيها لم يلتزموا رواية الصحيح فقط ، وذلك لقاعدتين :
الأولى : أن من أسند فقد أحال .

أي من روى لك الحديث أو الأثر بالسند فقد برئت عهده ، وقد نص على هذه القاعدة ابن عبد البر في "التمهيد" (٣/١).

وقال الحافظ ابن حجر في "لسان الميزان" (١٢٥/٤) : "أكثر المحدثين في الأعصار الماضية من سنة مائتين وهلم جرا إذا ساقوا الحديث بإسناده اعتقدوا أنهم برئوا من عهده " انتهى .

الثانية : ما قدمناه من أنه يتساهل ويتسامح في أبواب الترغيب والترهيب ، والمغازي ، والحكايات والقصص وقد اهتم بعض أهل العلم بنقل ما جاء عنهم في أبواب الاعتقاد ، ومن هؤلاء :

للالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" ، وابن بطة في "الإبانة الكبرى" ، والآجري في "الشرعية" ، والهروي في "ذم الكلام وأهله" .

واهتم بعضهم بنقل أقوالهم في الأحكام ، ومن هذه الكتب :

مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، ومصنف ابن أبي شيبة ، وسنن الدارمي ، وسنن سعيد بن منصور ، و"شرح معاني الآثار" للطحاوي ، و"تهذيب الآثار" للطبري ، و"المحلى" لابن حزم ، و"السنن الكبرى" للبيهقي واهتم بعضهم بنقل أقوالهم في باب الزهد والرقائق ، والترغيب والترهيب ، ونحو ذلك ، ومن هذه الكتب :

الكتب المعنونة بالزهد ، مثل "الزهد" للإمام أحمد ، و"الزهد" لوكيع ، و"الزهد" لعبد الله بن المبارك ، و"الزهد" لهناد ، و"حلية الأولياء" لأبي نعيم ، و"المجالسة وجواهر العلم" للدينوري ، و"صفة الصفوة" لابن الجوزي .

هذا وقد قام بعض أهل العلم المعاصرين بجمع ما صح من آثار الصحابة ، ومن هؤلاء :

الشيخ : زكريا بن غلام قادر الباكستاني ، حيث صنف مؤلفا فيما صح من آثار الصحابة في الفقه ، إلا أنه لم يستوعب ، وهو كتاب "ما صح من آثار الصحابة في الفقه" .

الشيخ : أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي ، حيث صنف كتاب : "سلسلة الآثار الصحيحة أو الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين" .

والمنهج الذي يجب اتباعه في التعامل مع آثار الصحابة في باب الزهد والرقائق ونحوها ، أن ينحى منها ما في رواته كذاب أو متهم بالكذب ، وما كان ضعيفا إلا أن معناه لا يعارض ما ثبت بالأدلة الصحيحة ، وكان من باب

وكفَّ عنهم واحذر الوقعة		فالنيل منهم صفة شنيعة
فلا تكن بدمهم جهولا		فلست عنهم يا فتى مسئولا ^(١)

الترغيب والترهيب ، والثواب والعقاب ، وأخبار الصالحين ، فلا بأس به حينئذ ، وعلى ذلك صنيع العلماء كما تقدم .

^١ - علم يا أخي - وقانا الله وإياك الفتن ، ما ظهر منها وما بطن - أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هم أفضل أصحاب لأفضل نبي ، وخاصة الخلفاء الأربعة الراشدين المهديين .
قال الله تعالى : { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } [التوبة/ ١٠٠] .

قال ابن كثير رحمه الله : " قد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، فيما ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم " انتهى . "تفسير ابن كثير" (٢٠٣/٤)
وقال الله تعالى عن المهاجرين : { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [الحشر/ ٨] ، وقال سبحانه عن الأنصار : { وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } [الحشر/ ٩] .

وقال عن الذين جاءوا من بعدهم من المؤمنين : { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحشر/ ١٠] .
أما ما حصل بين الصحابة من الاختلاف والافتتال : فيجب علينا الكف عنه ، مع اعتقاد أنهم أفضل الأمة ، ومحبتهم والترضي عنهم ، وعلى هذا تتابعت كلمة أهل السنة والجماعة .

سئل عمر بن عبد العزيز رحمه الله عن علي وعثمان والجمال وصفين وما كان بينهم ؟
فقال : " تلك دماء كف الله يدي عنها ، وأنا أكره أن أغمس لساني فيها " . "الطبقات الكبرى" (٣٩٤/٥) .
وسأل رجل الإمام أحمد بن حنبل عما جرى بين علي ومعاوية ؟ فأعرض عنه ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، هو رجل من بني هاشم ، فأقبل عليه فقال : اقرأ : { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . "مناقب الإمام أحمد" لابن الجوزي (ص ١٢٦) .

وقال الإمام أحمد أيضا بعد أن قيل له : ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية ؟ قال : " ما أقول فيهم إلا الحسنى " . "مناقب الإمام أحمد" لابن الجوزي (ص ١٦٤) .

وقال الميموني : " قال لي أحمد بن حنبل : يا أبا الحسن ، إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام . وقال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله يسأل عن رجل تنقص معاوية وعمر بن العاص أيقال له رافضي ؟ فقال إنه لم يجترئ عليهما إلا وله خبيثة سوء ، ما انتقص أحد أحداً من الصحابة إلا وله داخله سوء " انتهى . "البداية والنهاية" (١٣٩/٨) .

وقال أبو زرعة الرازي : " إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق ؛ وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حق والقرآن حق ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى وهم زنادقة " انتهى . "الكفاية في علم الرواية" (ص ٤٩) .

وقال القرطبي : " لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم ، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ، لحرمة الصحبة ولنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن سبهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم " انتهى . "تفسير القرطبي" (٣٢١/١٦) .

وقال ابن أبي زيد القيرواني وهو بصدد عرضه لما يجب أن يعتقده المسلم في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ينبغي أن يذكروا به قال : " وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر ، والإمساك عما شجر بينهم ، وأنهم أحق الناس أن يلتبس لهم أحسن المخارج ، ويظن بهم أحسن المذاهب " انتهى . "عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام" (٧٣٤/٢) .

وقال أبو عبد الله بن بطة - رحمه الله - أثناء عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة : " ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل ، فقد غفر الله لهم وأمرهم بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم ، وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتلون ، وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم ، وكل ما شجر بينهم مغفور لهم " . "كتاب الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة" (ص/٢٦٨) .

وقال أبو عثمان الصابوني وهو بصدد عرض عقيدة السلف وأصحاب الحديث : " ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيباً ونقصاً فيهم ، ويرون الترحم على جميعهم والموالاتة لكافتهم " . "عقيدة السلف وأصحاب الحديث - ضمن مجموعة الرسائل المنيرية" (١٢٩/١) . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية " من أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما وصفهم الله به في قوله تعالى : { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحشر/١٠] .

وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَذْرَكَ مُدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)) .

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم .

ولا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ، بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة ، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم ؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم .

ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له بفضل سابقته أو بشفاعه محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق الناس بشفاعته ، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه ، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف بالأمر التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور لهم ؟

ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح .

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله به عليهم من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ، لا كان ولا يكون مثلهم ، وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى " انتهى باختصار من "مجموع الفتاوى" (١٥٢/٣ - ١٥٦) .

وقال الحافظ ابن حجر : " اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى وَجُوبِ مَنَعِ الطَّعْنِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ بِسَبَبِ مَا وَقَعَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَلَوْ عَرَفَ الْمُحِقُّ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ إِلَّا عَنْ اجْتِهَادٍ ، وَقَدْ عَفَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْ الْمُخْطِئِ فِي الاجْتِهَادِ ، بَلْ ثَبَتَ أَنَّهُ يُؤْجَرُ أَجْرًا وَاحِدًا وَأَنَّ الْمُصِيبَ يُؤْجَرُ أَجْرَيْنِ " انتهى . "فتح الباري" (٣٤/١٣) .

ومثل هذا كثير في كلام أهل العلم ، وهو المتعين الأخذ به ؛ لأن فيه العصمة من الزلل ، والتعريف بحق أفضل الناس بعد النبيين .

أما عن مقتل عثمان وعلي رضي الله عنهما ، فلا شك أنهما قتلا مظلومين ، ونشهد لهما بالجنة ، ونشهد على من تلبس بهذا الأمر أو شارك فيه أو رضيه ، أو علمه ولم ينكره بأنه ضال مضل خبيث الطوية ، متبع غير سبيل المؤمنين ، والله يحاسبه يوم القيامة على صنيعه ، وسيحكم الله تعالى بينهم يوم القيامة . قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

ولتَرْضَ من دنياك بالقناعة^(١)والخير لازم^(١) والزم الجماعة^(١)

^١ - المداومة على أعمال الخير مستحبة في الشرع، وهي من أحب الأعمال إلى الله عز وجل حتى وإن كانت قليلة، ودليل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل".

عباد الله.. وللمداومة على العمل الصالح ثمرات كثيرة، ومن أهمها:

١- نِيلُ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى: جاء في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ» رواه البخاري. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اعلموا أنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ؛ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ» رواه مسلم. قال ابن الجوزي رحمه الله: (إِنَّمَا أَحَبُّ الدَّائِمِ لِمَعْنِيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ التَّارِكَ لِلْعَمَلِ بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ، كَالْمُعْرِضِ بَعْدَ الْوُصْلِ، فَهُوَ مُتَعَرِّضٌ لِلدَّمَ. الثَّانِي: أَنَّ مُدَاوِمَ الْخَيْرِ مُلَازِمٌ لِلْخِدْمَةِ، وَلَيْسَ مَنْ لَازَمَ الْبَابَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا مَّا، كَمَنْ لَازَمَ يَوْمًا كَامِلًا ثُمَّ انْقَطَعَ).

٢- الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا عَمَلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ [أَي: دَاوَمَ عَلَيْهِ]» رواه مسلم. وقالت - رضي الله عنها: «كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً، وَأَيْكُمُ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطِيقُ؟» رواه البخاري. وفي رواية لمسلم: «وَأَيْكُمُ يَسْتَطِيعُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَطِيعُ؟».

٣- تَنْظِيمُ الْوَقْتِ، وَعَدَمُ الْمَلَلِ مِنْ تَكَرُّارِ عَمَلٍ وَاحِدٍ: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ لَيْلَةً حَتَّى الصَّبَاحِ، وَمَا صَامَ شَهْرًا مُتَابِعًا إِلَّا رَمَضَانَ» رواه البخاري. فالتنوع في العمل الصالح - قَوْلًا وَفِعْلًا - يُبْعِدُ الْمَلَلَ وَالسَّامَةَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥، ٢٦].

وكان صلى الله عليه وسلم يَنْهَى عَنْ قَطْعِ الْعَمَلِ وَتَرْكِهِ؛ كما قال لعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ؛ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ» رواه البخاري. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟» قَالَتْ: فُلَانَةٌ؛ تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا. قَالَ: «مَهْ! عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ؛ فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ؛ مَا دَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ» رواه البخاري. وقالت عائشة رضي الله عنها: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا دُوِّمَ عَلَيْهِ؛ وَإِنْ قَلَّتْ. وَكَانَ إِذَا صَلَّى صَلَاةً دَاوَمَ عَلَيْهَا» رواه البخاري. وقالت أيضًا: «كَانَ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا عَمِلُوا عَمَلًا أَثْبَتُوهُ» رواه مسلم. إِذَا؛ الْمَلَلُ وَالسَّامَةُ لِلْعَمَلِ؛ يُوجِبُ قَطْعَهُ وَتَرْكَهُ. وَمَنْ تَرَكَ عَمَلَهُ؛ انْقَطَعَ عَنْهُ ثَوَابُهُ وَأُجْرُهُ - إِذَا كَانَ قَطْعَهُ لغير عُذْرٍ؛ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ سَفَرٍ، أَوْ هَرَمٍ.

٤ - المداومة على النوافل تجبر نقص الفرائض: فمن جملة ما شرعت له النوافل جبر الفرائض، والله تعالى يقبل من النوافل عوضاً عن الصلوات المفروضة؛ كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ؛ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ؛ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ» صحيح - رواه الترمذي.

فالمداومة على النوافل والتطوعات والسُنَنِ شأنها عظيم، وفائدتها كبيرة؛ لأنها تكون وقايةً للفرائض، وبها تتم الفرائض - عند المحاسبة - إذا كان فيها نقص؛ لأنَّ النقص والخلل والسهُو والغفلة أمورٌ مُلازمةٌ للإنسان، مهما بذل، وحرص على الكمال. وما يحصل في الصلاة، يحصل في سائر التكاليف الشرعية؛ كالزكاة، والصيام، والحج، وسائر العبادات.

٥ - استمرار الأجر: يكتب للعبد أجر عمله الدائم حتى إذا فتر لعذر كمرض أو سفر.

١ - وردت في القرآن العظيم، آيات تأمر المؤمنين، وتحثهم على لزوم الجماعة والاتلاف، وتبين لهم أن الأمة

الإسلامية أمة واحدة، وهي حقيقة جاء تأكيدها في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ومن ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٢ - وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

٣ - وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:

١٥٣].

٤ - وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فهذه الآيات وغيرها - مما جاء في معناها - واضحة الدلالة، وكلها تهدف إلى منع التفرق في الآراء والمعتقدات.

وقد ذكر ابن جرير - رحمه الله - بأسانيده - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال - في قوله

تعالى: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾. قال: الجماعة.

وذكر - بأسانيده - أقوالاً أخرى عن السلف، في تفسير معنى (حبل الله) منها: القرآن، والإخلاص لله وحده، والإسلام.

وهذه الأقوال مؤداها واحد، ونتيجتها واحدة، فإنَّ الاعتصام بالقرآن، والإخلاص لله وحده، والتمسك بالإسلام الصحيح الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلها مما ينتج عنه تآلف المسلمين واجتماعهم، وتربطهم، وتماسك مجتمعهم.

وقال ابن جرير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: (يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه؛ من الألفة، والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله).

وقال ابن كثير - رحمه الله -: (وقوله ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أمرهم بالجماعة، ونهاهم عن التفرقة... وقد ضمنت لهم العصمة - من الخطأ - عند اتفاقهم، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضاً. وخيف عليهم الافتراق والاختلاف، فقد وقع ذلك في هذه الأمة؛ فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة، ومسلّمة من عذاب النار، وهم الذين على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه).

وقال الشوكاني - رحمه الله -: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾. الحبل: لفظ مشترك، وأصله في اللغة: السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وهو إمّا تمثيل، أو استعارة. أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام، أو بالقرآن، ونهاهم عن التفرق، الناشئ عن الاختلاف في الدين).

كذلك تعددت الأدلة من السنة النبوية، ومنها:

- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا - وذكر منها: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...» رواه مسلم.
- وفي حديث حذيفة - رضي الله عنه - في الفتن، والشاهد فيه: قوله صلى الله عليه وسلم: «دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا». قُلْتُ [أي: حذيفة]: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَكَلِّمُونَ بِالسِّنِّتِ». قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَدْرِكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلَزُمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْصَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ، وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ» رواه البخاري ومسلم.

وبؤب النوي - رحمه الله - لهذا الحديث وغيره: (باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال، وتحريم الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة).

ويقول ابن بطل - رحمه الله - عن هذا الحديث: (فيه حُجَّةٌ لجماعة الفقهاء، في وجوب لزوم جماعة المسلمين، وترك الخروج على أئمة الجور).

- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» رواه مسلم.

• وعن عَرْفَجَةَ - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَفْرُقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ - وَهِيَ جَمِيعٌ - فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ، كَانِنًا مَنْ كَانَ» رواه مسلم.

• وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ - يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّيَ رَسُولُ اللَّهِ - إِلَّا يَأْخُذَ ثَلَاثٌ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيْبُ الرَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ» رواه البخاري.

فهذه الأحاديث تؤكد على وجوب لزوم الجماعة، والتحذير من التفرق، ولو تمسك بها المسلمون، وحققوها؛ لكانوا على الخير الذي مضى عليه السلف الكرام؛ من الصحابة، ومن تبعهم بإحسان، ولعَاد - للمسلمين - سؤددهم، وكرامتهم التي فقدت في عصرنا الحاضر؛ بسبب التفرق، وعدم الإذعان لتعاليم الشريعة السمحاء، ومع ذلك: لا يزال الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، إلى أن تقوم الساعة، ما داموا متمسكين بالحق؛ قولاً وعملاً.

- ومن النصوص التي تحت على الجماعة، وترغب بلزومها، وتبين أجر من لزم ولم يفارق، وتؤكد: أن العصمة في وقت الفتن والمحن؛ هو في التمسك بجماعة المسلمين: قوله صلى الله عليه وسلم: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزِمِ الْجَمَاعَةَ» صحيح - رواه الترمذي. فانظر - أخي الكريم - عظم الأجر على لزوم الجماعة.
- والخير كل الخير في لزوم الجماعة؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ» صحيح - رواه الترمذي.

- ومنها ما في صحيح البخاري عن أبي الدرداء، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»، قال زائدة: قال السائب: يعني بالجماعة: الصلاة في الجماعة.

- في مسند الإمام أحمد عن الحارث الأشعري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا آمركم بخمس الله أمرني بهن بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر، فقد خلع ريق الإسلام من عنقه، إلى أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثا جهنم»، قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «وإن صام وصلى، وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بما سماهم المسلمين المؤمنين عباد الله».
- وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اثنان خير من واحد، وثلاثة خير من اثنين، وأربعة خير من ثلاثة، فعليكم بالجماعة، فإن الله لن يجمع أمتي إلا على هدى».

- قال ابن حجر في الفتح: والمراد بالجماعة أهل الحل والعقد من كل عصر وقال الكرمانى مقتضى الأمر بلزوم الجماعة أنه يلزم المكلف متابعة ما أجمع عليه المجتهدون وهم المراد بقوله وهم أهل العلم.
- وفي مسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، وإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامّة».

- يقول القاري في مرقاة المفاتيح: قوله "وعليكم بالجماعة والعامّة" أي عامة الجماعة، يعني: عليكم بمتابعة جمهور العلماء من أهل السنة والجماعة، أو عليكم بمخالطة عامة المسلمين وإياكم ومفارقتهم والعزلة عنهم واختيار الجبال والشعاب البعيدة عن العمران، وهذا أظهر للفظ التمثيل والأول أوفق لمعناه والله أعلم.

- إذ قد يفهم البعض أحاديث الأمر بلزوم الجماعة بمتابعة جمهور الناس وعامتهم في كل شيء، ولو فيما كان مخالفا للشرع، ويتردد على ألسنة البعض التمسك بذلك عند أمرهم بالمعروف أو نهيمهم عما شاع فيهم من العادات والأفكار الخاطئة، وهذا لا ينسجم مع تلك الأحاديث، فالجماعة المأمور بلزومها هي الجماعة التي لزمت أمر الشرع، واحتكمت إليه، وفيهم أهل العلم وأهل الحل والعقد، فمثل هؤلاء يكون إجماعهم وجماعتهم مأمّن من الضلال، وملجأ من الخطأ، فالله تعالى يكتب لهم العصمة من أن يجتمعوا على ضلالة.
- قال ابن بطال في شرحه على البخاري: والجماعة التي أمرهم بلزومها: السواد الأعظم، وقالوا: كل ما كان عليه السواد الأعظم من أهل الإسلام من أمر دينهم فهو الحق الواجب والفرض الثابت، الذي لا يجوز لأحد من المسلمين خلافه، وسواء خالفهم في حكم من الأحكام أو خالفهم في إمامهم القيم بأمرهم وسلطانهم، فهو للحق مخالف.
- قال ابن الهمام في فيض القدير: قال أبو شامة: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك به قليلا والمخالف كثيرا أي الحق هو ما كان عليه الصحابة الأول من الصحب ولا نظر لكثرة أهل الباطل بعدهم قال البيهقي: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانوا عليه من قبل وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ.
- مقاصد الأمر بلزوم الجماعة:
- وأما مقصد هذه الأحاديث الآمرة بلزوم الجماعة، والناحية عن الفرقة، فهو مقصد عظيم يتجاوز الأشخاص والمناصب إلى الحفاظ على كليات المصالح الضرورية، فالفرقة وشق عصا المسلمين بلاء لا يجلب إلى البلاء على كل المستويات، سواء في دين الناس، ونفوسهم، وأموالهم، وأعراضهم، فاضطراب الأحوال، وذهاب الأمن، باب لكل شر وفتنة.
- ومن مقاصده: سد باب الابتداع والتفرد بالأقوال والآراء الشاذة التي تخالف قول العامة من أهل العلم، وما استقر عليه العمل لقرون، فهذا مما يوهن أمر الجماعة، ويشتت أمرها، ولا سيما في بعض المسائل التي جرى العمل فيها على قول عامة أهل العلم، فأحداث قول في المسألة يفضي إلى فتنة وفرقة ولا سيما عند عامة الناس، وأمثلة هذا في الواقع كثيرة، ولا سيما في الفقهيات والمسائل العملية.
- ومن مقاصد هذا التوجيه النبوي: الترغيب بالخلطة بالناس التي يكون خيرها رابيا على شرها، والتحذير من العزلة التي تضر بالإنسان في دينه وشعوره، فاختيار العزلة باب إلى ترك الجماعة، إلا في حالات خاصة نبه عليها العلماء؛ ولذلك جاء في الرواية "وإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة".
- ومن مقاصد التوجيه بلزوم الجماعة: تعزيز الانتماء لجماعة المسلمين، والوحدة الشعورية والوجدانية، فالأمر بالجماعة ليس أمرا شكليا، بل هو اجتماع وتناسل ومحبّة وائتلاف، وسائر الفروض الكفائية الاجتماعية، من الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وحماية ثغور المسلمين، والحض على الإحسان إليهم، فهذه لا تقوم إلا بلزوم الجماعة وتعزيز الانتماء إليها.

ومن المقاصد: الوفاء بالعهد الذي بين الراعي والرعية، إذ إن الخروج على جماعة المسلمين وإمامهم نقض للعهد، وخيانة للأمانة، وافتئات على حق الأمة، والإسلام يعزز العلاقة بين الرعية وولايتهم، حتى يستقيم الحال، ويتحقق الأمن والرخاء للمجتمع.

١ - القناعة الرضا بالقسم.

فالدنيا دار ممر لا دار مقر، وأنها بالنسبة للإنسان إنما هي محطة من المحطات في طريق طويل يمتد إلى ما لا نهاية له في الدار الآخرة، وإنما يتبلغ بها المرء في طريق سفره إلى الله سبحانه وتعالى، ويوضح هذا ما ذكره سلمان -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم عهد إليه : ((أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكب)) (رواه ابن ماجه وصححه الألباني)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا)) (رواه الترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني).

ومن أبرز هذه التصورات أيضاً: أن الإنسان في هذه الدنيا لن ينال إلا ما قسمه الله وقدره له؛ فقد جف القلم بما هو كائن، ولن تموت نفس قبل استيفاء ما كُتِبَ لها كاملاً غير منقوص، ويوضحه قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حُرِّم)) (رواه ابن ماجه وصححه الألباني).
وقوله: (أجملوا) أي: وأحسنوا في الطلب.

للتحلي بخلق القناعة فضائل كثيرة دلت عليها السنة النبوية، منها:

١- أنها سبب لفلاح صاحبها: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه)) (رواه مسلم).

وقوله: (كفافاً)، قال المناوي: ما كفاه في أمر دنياه وكفه عما سواه. أ.هـ.

٢- القناعة تكسب صاحبها محبة الله ومحبة الناس، وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس)) (رواه ابن ماجه وصححه الألباني).

وعلى قدر ما يقنع الإنسان عما في أيدي الناس على قدر ما تأنس إليه نفوسهم، وتطمئن له قلوبهم، ذلك أن الناس لا يحبون من يتطلع لما في أيديهم من الأموال، فهو غفيف عما في أيدي الناس، وقلبه متعلق بالله وبمحبتته فلذلك ليس في قلبه التفات للدنيا وزخرفها، فاستحق محبة الله ومحبة الناس.

٣- أنها سبب لنيل الشاء وطيب العيش : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع)) (رواه الترمذي وصححه الألباني).

وقوله : (طوبى)، قال المناوي: قال الطيبي: طوبى مصدر من طاب كبُشْرِى وزُلْفَى، ومعنى طوبى لك: أصبت خيراً وطيباً. أ.هـ

٤- أن القناعة تورث صاحبها غنى النفس واستعلائها عن الشهوات واللذائذ: وهو ما قرره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: " ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس " (رواه البخاري ومسلم). قوله: (العَرَض)، قال ابن الأثير: العَرَض: متاع الدنيا وحطامها، وفي الحديث الصحيح: (يا ابن آدم ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس) رواه مسلم.

٥- القناعة تورث صاحبها العزة وتكف وجهه عن الذل للمخلوقين: ففي الحديث أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ((يا محمد: شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس)) (رواه الحاكم وصححه الذهبي).

٦- القناعة تمنح صاحبها رضا الله وهو غاية المقصود: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط)) (رواه الترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني).

قال المناوي: (فمن رضي) أي: بالبلاء. (فله الرضا) أي: فليعلم أن له الرضا من المولى، أو فيحصل له الرضا في الآخرة والأولى.

٧- أن بها يتحقق شكر العبد لربه: ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي هريرة رضي الله عنه : " ((يا أبا هريرة كن ورعاً، تكن أعبد الناس، وكن قنعاً، تكن أشكر الناس))" (رواه ابن ماجه وصححه الألباني). فالطامع المستشرف للعالم قل أن يشكر الله على نعمة، إذ أنه يرى نفسه محروماً مهاناً، فهو ساخط عن أقدار الله، فكيف يتحقق في قلبه معنى الشكر وهو يحمل هذا الكم من الطمع والسخط.

٨- أن التحلي بالقناعة سبب لنيل البركة في الرزق: ففي الحديث عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سأله فأعطاني، ثم سأله فأعطاني، ثم قال لي : ((يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه)) (رواه البخاري ومسلم).

وقوله: (بطيب نفس)، قال القاضي عياض: فيه احتمالان: أظهرهما أنه عائد إلى الآخذ، أي من أخذه بغير حرص وطمع وإشراف عليه.

الآثار السيئة لترك التحلي بالقناعة من خلال السنة النبوية:

وكما أن للتحلي بخلق القناعة من الفضائل الشيء الكثير، فإن لفقدان هذا الخلق الجليل آثاراً سيئة وعواقب وخيمة، أشارت السنة النبوية إليها، فمن ذلك :

١- أنه سبب لفقدان البركة : ففي الحديث : ((إن هذا المال خضرة حلوة، . . . ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع)) (رواه البخاري ومسلم).
وقوله: (بإشراف نفس)، قال النووي في شرح مسلم: " قال العلماء: إشراف النفس تطلعها إليه وتعرضها له وطمعها فيه ".

٢- ومن الآثار: أن في عدم القناعة، والسخط لما قسمه الله تعرض لسخط الله عز وجل: فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : ((فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط)) (رواه الترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني).

٣- ومن الآثار: ما جاء من الوعيد الشديد لمن يسأل أموال الناس تكثرا لعدم قناعته بما قدره الله له: ففي الحديث : ((من سأل الناس أموالهم تكثرا، فإنما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر)) (رواه مسلم). وقوله: (تكثرا)، أي ليتكثر بها.

٤- ويتجلى الأثر السيئ لفقدان هذا الخلق فيما خافه النبي -صلى الله عليه وسلم- على أمته من أن يهلكوا كما هلك من قبلهم، حيث قال: ((والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)) (رواه البخاري ومسلم).

٥- ومن الآثار: أن ترك القناعة يدفع المرء لأكل الحرام : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لقبيصة رضي الله عنه بعد أن عدد له الحالات التي يجوز فيها سؤال الناس شيئا من الدنيا: " فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتا يأكلها صاحبها سحتا " (رواه مسلم).

قال ابن الأثير في النهاية: " والسحت: الحرام الذي لا يحل كسبه، لأنه يسحت البركة: أي يذهبها "

الوسائل المعينة على تحصيل القناعة من خلال السنة النبوية:

رغم أن الحرص على الدنيا والاستكثار منها شيء راسخ في نفوس بني آدم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((لو كان لابن آدم واديان من مال لا يبغي ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)) (رواه البخاري ومسلم)، إلا أن السنة النبوية جاءت بتوجيهات وإرشادات تعين المرء على التحلي بهذا الخلق الفضيل وتحصيله، فمن ذلك:

١- أن ينظر المرء في أمور الدنيا لمن هو دونه؛ ليرى فضل الله عليه فيقنع به ولا يزدريه، ففي الحديث : ((انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم)) (رواه مسلم)، وفي الحديث الآخر: ((إذا رأى أحدكم من فوقه في المال والحسب، فلينظر إلى من هو دونه في المال والحسب)) (رواه ابن حبان في صحيحه وصححه الألباني).

٢- دعاء الإنسان ربه أن يرزقه القناعة ويجنبه الشح والطمع: فقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : ((اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)) (رواه مسلم).

٣- أن يسعى الإنسان للتكسب بما يغنيه عن التطلع لما عند الآخرين: ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا، فيسأله أعطاه أو منعه)) (رواه البخاري).

٤- التأمل في الفضائل التي ينالها من اتصف بالقناعة، والردائل والعواقب الوخيمة التي يقع فيها من فقد القناعة، بما يقوي في نفسه الدافع لمجاهدة نفسه للتحلي بهذا الخلق الحميد.

أمثلة في القناعة من حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم:

لقد كانت حياة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم حافلة بالشواهد والتطبيقات العملية لخلق القناعة، ولقد كان عليه الصلاة والسلام - رغم تقديم الصحابة رضي الله عنهم نفسه على أنفسهم فضلا عن أموالهم، ورغم كون أموال الدولة المسلمة تحت تصرفه - كان معرضا عن الدنيا راغبا فيما عند الله، يرى حاله مع الدنيا كالمسافر الذي استظل تحت ظل شجرة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء، فقال: ((ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)) (رواه الترمذي وحسنه الألباني)،

ومن هذه الأمثلة:

١- قناعته صلى الله عليه وسلم في مأكله: فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: ((ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة، من طعام بر ثلاث ليال تباعا، حتى قُبِض)) (رواه البخاري ومسلم).
وعنها أيضا أنها قالت: ((ما أكل آل محمد صلى الله عليه وسلم أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر)) (رواه البخاري).

وعنها أيضا رضي الله عنها أنها قالت لعروة: ((ابن أختي: إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار، فقلت يا خالة: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار، كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانهم، فيسقيننا)) (رواه البخاري ومسلم).
والمنائح: قال ابن حجر في الفتح: " جمع منيحة، وأصلها عطية الناقة أو الشاة ".

والأمر بالمعروف والفضائل		والنهي والإنكار للردائل
إِنْ لَمْ يُوَدَّ الْأَمْرُ بِالْإِنْكَارِ		بَأَنْ يَزِيدَ الشَّرَّ فِي الْأَقْطَارِ
فَالْأَمْرُ إِنْ زَادَتْ بِهِ الْمَفَاسِدُ		فَذَاكَ أَمْرٌ مَنَكْرٌ وَفَاسِدٌ ^(١)

- ٢- قناعته صلى الله عليه وسلم في مسكنه : فقد قال الحسن البصري رحمه الله : ((كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي)) (رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني).
- وعن داود بن قيس قال: ((رأيت الحجرات من جريد النخل مغشياً من خارج بمسوح الشعر)) (رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني).
- قال في مرقاة المفاتيح: " المسوح: جمع المسح بالكسر، وهو اللباس الخشن ".
- ٣- قناعته صلى الله عليه وسلم في أثائه : وقد سبق فيه حديث ابن مسعود رضي الله عنه في نومه صلى الله عليه وسلم على الحصير.
- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: " كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم من آدم، وحشوه من ليف " (رواه البخاري).
- وعن أنس- رضي الله عنه- قال: " لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات " (رواه البخاري).
- والخوان: قال ابن الأثير في النهاية: " هو ما يوضع عليه الطعام عند الأكل ".
- ٤- حرصه صلى الله عليه وسلم على الإنفاق والصدقة : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو كان لي مثل أحد ذهباً ما يسرتني أن لا يمر عليّ ثلاث وعندي منه شيء، إلا شيء أرصده لدين " (رواه البخاري ومسلم).

^١ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، والمهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لفشت الضلالة وشاعت الجهالة، وخربت البلاد وهلك العباد . وقد تابعت النصوص تدل على فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحذر من تركه والتفريط فيه:

أ- من الكتاب:

١- قال ربنا جلّ وعلا: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤] .

٢- قال تبارك وتعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران: ١١٠] .

قال القرطبي: (قوله تعالى: { تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطؤوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سبباً لهلاكهم) .

وقال ابن كثير: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَمَنْ اتَّصَفَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي هَذَا الشَّأْنِ عَلَيْهِمُ الْمَدْحُ لَهُمْ، وَمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ أَشْبَهَ أَهْلَ

الكِتَابِ الَّذِينَ ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: { كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [المائدة: ٧٩]) .

٣- قال سبحانه: { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة: ٧١] .

قال القرطبي: (جعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) .

٤- قال جل ثناؤه: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [التوبة: ١١١-١١٢] .

٥- قال تقدست أسماؤه: { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [الحج: ٤١] .

٦- قال تعالى ذكره: { لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } [آل عمران: ١١٣ - ١١٥] .

٧- قال جلَّ وعزَّ لرسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم: { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } [الأعراف: ١٩٩] .

وقال: { وَرَحِمْتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الأعراف: ١٥٦-١٥٧] .

٨- قال جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ [التوبة: ٦٧-٦٨] .

٩- قال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [المائدة: ٧٨ - ٨١] .

وقال جلَّ جلاله: { وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٥] .

١٠- قال عَزَّ وَجَلَّ: { وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [المائدة: ٦٢-٦٣] . قال القرطبي: (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ لَوْلَا بِمَعْنَى: أَفَلَا يَنْهَاهُمْ يَرْجُرُهُم. الرَّبَّانِيُّونَ عُلَمَاءُ النَّصَارَى. وَالْأَحْبَارُ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ. قَالَهُ الْحَسَنُ. وَقِيلَ: الْكُلُّ فِي الْيَهُودِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهِمْ.

ثُمَّ وَبَّخَ عُلَمَاءَهُمْ فِي تَرْكِهِمْ نَهْيَهُمْ، فَقَالَ: لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ كَمَا وَبَّخَ مَنْ يُسَارِعُ فِي الْإِثْمِ بِقَوْلِهِ: لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، وَذَلِكَ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ تَارِكَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ كَمُتْرِكِ الْمُنْكَرِ؛ فَالآيَةُ تَوْبِيخٌ لِلْعُلَمَاءِ فِي تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ) .

ب- مِنَ السُّنَّةِ:

١- عن طارق بن شهاب قال: أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرَوَانُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ. فَقَالَ: قَدْ تَرَكْتُ مَا هُنَاكَ! فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)) .

٢- عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ((أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ! قَالَ: أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟ إِنَّ بَكْلًا تَسِيحُهُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي

أَحَدُنَا شَهَوْتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟! قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ)) .

٣- عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: ((يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ؛ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى)) .

٤- عن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ((عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يَعْتَمِلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ، قَالَ قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قَالَ قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: يُمَسِّكُ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ)) .

٥- عن خُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تَكْفُرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ)) .

٦- عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((يَاكُمْ وَالْجُلُوسَ بِالطَّرِيقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِذَا أُبَيِّتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ)) .

٧- عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ((الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ لَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَسْلِمَ عَلَى أَهْلِكَ، فَمَنْ انْتَقَصَ شَيْئًا مِنْهُنَّ فَهُوَ سَهْمٌ مِنَ الْإِسْلَامِ يَدْعُهُ، وَمَنْ تَرَكَهُنَّ كُلَّهِنَّ فَقَدْ وَلَّى الْإِسْلَامَ ظَهْرَهُ)) .

٨- عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بَقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ)) .

٩- عن قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: قَامَ أَبُو بَكْرٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ [المائدة: ١٠٥] ، وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ لَا يُغَيِّرُونَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ)) .

١٠- عن الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهْمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا

إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا، وَنَجَّوْا جَمِيعًا)) .

وفيما يلي نذكر أهم آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١- النية الصالحة يَنْبَغِي لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ أَنْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِعْزَازَ الدِّينِ

٢- العلم والفقه :- لا بُدَّ لِمَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ الْحِسْبَةِ وَحُدُودِهَا وَمَجَارِيهَا وَمَوَانِعِهَا؛ لِيَقْتَصِرَ عَلَى حَدِّ الشَّرْعِ، وَإِذَا كَانَ جَاهِلًا غَيْرَ فَقِيهٍ بِالْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ ضَرَّ مِنْ حَيْثُ رَامَ نَفْعًا، وَأَفْسَدَ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ إِصْلَاحًا .

فوائد:

فقهُ الأَمْرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ

١- قال ابنُ تيمية: (قيل: ليكنْ أمركَ بالمعروفِ بالمعروفِ ونهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ غَيْرُ مُنْكَرٍ. وإذا كانَ هو من أعظمِ الواجباتِ والمستَحَبَّاتِ فالواجباتُ والمستَحَبَّاتُ لا بُدَّ أن تكونَ المصلحةُ فيها راجحةً على المفسدة؛ إذ بهذا بُعِثَتِ الرُّسُلُ ونَزَلَتِ الْكُتُبُ، واللَّهُ لا يُحِبُّ الفسادَ، بَلْ كُلُّ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فهو صَلاحٌ، وقد أَثْنَى اللَّهُ على الصَّلاحِ والمُصلِحينَ والذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وذَمَّ المُفْسِدِينَ في غَيْرِ مَوْضِعٍ؛ فحيثُ كانت مفسدةُ الأمرِ والنَّهيِ أعظمَ من مصلحتهِ لم تُكُنْ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وإن كان قد تُرِكَ وَاجِبٌ وفُعِلَ مُحَرَّمٌ؛ إذ المُؤْمِنُ عليه أن يَتَّقِيَ اللَّهَ في عِبَادِهِ، وليسَ عليه هُدامُهم، وهذا مَعْنَى قَوْلِهِ تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ [المائدة: ١٠٥] ، والاهْتِدَاءُ إِنَّمَا يَتِمُّ بِإِدَاءِ الْوَاجِبِ، فإذا قامَ المُسْلِمُ بما يَجِبُ عليه مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ كما قامَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ لم يَضُرَّهُ ضَلَالُ الضَّالِّينَ. وذلك يَكُونُ تَارَةً بِالْقَلْبِ، وتَارَةً بِاللِّسَانِ، وتَارَةً بِالْيَدِ. فَأَمَّا الْقَلْبُ فَيَجِبُ بكَلِّ حَالٍ؛ إذ لا ضَرَرَ في فِعْلِهِ، وَمَنْ لم يَفْعَلْهُ فليسَ هو بِمُؤْمِنٍ، كما قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وذلك أدنى - أو - أضعفُ - الإيمانِ» ، وقال: «ليسَ وراءَ ذلكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ».

وقيل لابن مسعود: مَنْ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ؟ فقال: الذي لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا.

وهذا هو المَفْتُونُ المَوْصُوفُ في حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ .

وهنا يغلطُ فريقانِ مِنَ النَّاسِ: فريقٌ يَتْرُكُ مَا يَجِبُ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ تَأْوِيلًا لِهَذِهِ الْآيَةِ، كما قال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خُطْبَتِهِ: إِنَّكُمْ تَقْرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ { عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } { الْمَائِدَةُ:

١٠٥] ، وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْ شَكَّ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ» .

والفريق الثاني: مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى إِمَّا بِلِسَانِهِ وَإِمَّا بِيَدِهِ مُطْلَقًا؛ مِنْ غَيْرِ فِقْهِ وَحِلْمٍ وَصَبْرٍ، وَنَظَرٍ فِيمَا يَصْلُحُ مِنْ ذَلِكَ وَمَا لَا يَصْلُحُ، وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَمَا لَا يَقْدِرُ...

وَجَمَاعُ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ: فِيمَا إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ وَالْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ أَوْ تَرَاخَمَت، فَإِنَّهُ يَجِبُ تَرْجِيحُ الرَّاجِحِ مِنْهَا فِيمَا إِذَا ازْدَحَمَتِ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ، وَتَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ. فَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَإِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ وَدَفْعِ مَفْسَدَةٍ فَيُنْظَرُ فِي الْمَعَارِضِ لَهُ؛ فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَفُوتُ مِنَ الْمَصَالِحِ أَوْ يَحْصُلُ مِنَ الْمَفَاسِدِ أَكْثَرَ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِهِ، بَلْ يَكُونُ مُحَرَّمًا إِذَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ، لَكِنَّ اعْتِبَارَ مَقَادِيرِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ هُوَ بِمِيزَانِ الشَّرِيعَةِ، فَمَتَى قَدَرَ الْإِنْسَانُ عَلَى اتِّبَاعِ التُّصَوُّصِ لَمْ يَعْدِلْ عَنْهَا، وَإِلَّا اجْتَهَدَ بِرَأْيِهِ لِمَعْرِفَةِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ، وَقَالَ أَنْ تُعَوِّزَ التُّصَوُّصُ مَنْ يَكُونُ خَبِيرًا بِهَا وَبِدَلَالَتِهَا عَلَى الْأَحْكَامِ. وَعَلَى هَذَا إِذَا كَانَ الشَّخْصُ أَوْ الطَّائِفَةُ جَامِعِينَ بَيْنَ مَعْرُوفٍ وَمُنْكَرٍ بَحِثْ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمَا، بَلْ إِمَّا أَنْ يَفْعَلُوهُمَا جَمِيعًا أَوْ يَتْرَكُوهُمَا جَمِيعًا؛ لَمْ يَجْزُ أَنْ يُؤْمَرُوا بِمَعْرُوفٍ وَلَا أَنْ يُنْهَوْا مِنْ مُنْكَرٍ؛ يُنْظَرُ: فَإِنْ كَانَ الْمَعْرُوفُ أَكْثَرَ أَمْرَ بِهِ وَإِنْ اسْتَلْزَمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنَ الْمُنْكَرِ، وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مُنْكَرٍ يَسْتَلْزِمُ تَقْوِيَتَ مَعْرُوفٍ أَعْظَمَ مِنْهُ، بَلْ يَكُونُ النَّهْيُ حِينَئِذٍ مِنْ بَابِ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّعْيِ فِي زَوَالِ طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَزَوَالِ فِعْلِ الْحَسَنَاتِ، وَإِنْ كَانَ الْمُنْكَرُ أَغْلَبَ نَهَى عَنْهُ وَإِنْ اسْتَلْزَمَ فَوَاتَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ. وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِذَلِكَ الْمَعْرُوفِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْمُنْكَرِ الرَّائِدِ عَلَيْهِ أَمْرًا بِمُنْكَرٍ وَسَعْيًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَإِنْ تَكَافَأَ الْمَعْرُوفُ وَالْمُنْكَرُ الْمُتَلَازِمَانِ لَمْ يُؤْمَرْ بِهِمَا وَلَمْ يُنْهَ عَنْهُمَا؛ فَتَارَةً يَصْلُحُ الْأَمْرُ، وَتَارَةً يَصْلُحُ النَّهْيُ، وَتَارَةً لَا يَصْلُحُ لَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ؛ حَيْثُ كَانَ الْمَعْرُوفُ وَالْمُنْكَرُ مُتَلَازِمَيْنِ، وَذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الْمُعَيَّنَةِ الْوَاقِعَةِ.

وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ التَّوَعُّفِ فَيُؤْمَرُ بِالْمَعْرُوفِ مُطْلَقًا وَيُنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ مُطْلَقًا. وَفِي الْفَاعِلِ الْوَاحِدِ وَالطَّائِفَةِ الْوَاحِدَةِ يُؤْمَرُ بِمَعْرُوفِهَا وَيُنْهَى عَنِ مُنْكَرِهَا، وَيُحَمَّدُ مَحْمُودُهَا وَيُذَمُّ مَذْمُومُهَا؛ بَحِثْ لَا يَتَضَمَّنُ الْأَمْرُ بِمَعْرُوفٍ فَوَاتَ أَكْثَرَ مِنْهُ أَوْ حُصُولُ مُنْكَرٍ فَوْقَهُ، وَلَا يَتَضَمَّنُ النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ حُصُولَ أَنْكَرٍ مِنْهُ أَوْ فَوَاتَ مَعْرُوفٍ أَرْجَحَ مِنْهُ. وَإِذَا اشْتَبَهَ الْأَمْرُ اسْتِبَانِ الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ؛ فَلَا يُقَدِّمُ عَلَى الطَّاعَةِ إِلَّا بِعِلْمٍ وَنِيَّةٍ، وَإِذَا تَرَكَهَا كَانَ عَاصِيًا، فَتَرُكُ الْأَمْرِ الْوَاجِبِ مَعْصِيَةٌ، وَفِعْلُ مَا نُهِيَ عَنْهُ مِنَ الْأَمْرِ مَعْصِيَةٌ. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ إِقْرَارُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَمَثَالِهِ مِنْ أَيْمَةِ النَّفَاقِ وَالْفُجُورِ لِمَا لَهُمْ مِنْ أَعْوَانٍ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ بَنُو عِقَابِهِ مُسْتَلْزِمَةً إِزَالَةَ مَعْرُوفٍ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بَغْضَبِ قَوْمِهِ وَحَمِيَّتِهِمْ، وَبُفُورِ النَّاسِ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ.

الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ... لَا يَكُونُ عَمَلُهُ صَالِحًا إِنْ لَمْ يَكُنْ بِعِلْمٍ وَفِقْهِ، وَكَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: مَنْ عَدَلَ اللَّهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ. وَكَمَا فِي حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْعِلْمُ إِمَامُ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ. وَهَذَا ظَاهِرٌ؛ فَإِنَّ الْقَصْدَ وَالْعَمَلَ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِعِلْمٍ كَانَ جَهْلًا وَضَلَالًا وَاتِّبَاعًا لِلْهَوَى، وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَهْلِ الْإِسْلَامِ.

فلا بُدَّ مِنَ الْعِلْمِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا. وَلَا بُدَّ مِنَ الْعِلْمِ بِحَالِ الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهِيِّ... وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الرَّفْقِ... وَلَا بُدَّ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ خَلِيمًا صَبُورًا عَلَى الْأَذَى؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ أَذَى، فَإِنْ لَمْ يَحْلَمْ وَيَصْبِرْ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ...

فلا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ: الْعِلْمُ، وَالرَّفْقُ، وَالصَّبْرُ؛ الْعِلْمُ قَبْلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالرَّفْقُ مَعَهُ، وَالصَّبْرُ بَعْدَهُ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِّنَ الثَّلَاثَةِ مُسْتَصْحَبًا فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ.

وَلْيُعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الْخِصَالِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِمَّا يُوْجِبُ صُعُوبَةً عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّفُوسِ، فَيُظَنُّ أَنَّهُ بِذَلِكَ يَسْقُطُ عَنْهُ فَيَدْعُهُ، وَذَلِكَ مِمَّا يَضُرُّهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْصُرُهُ الْأَمْرُ بِدُونِ هَذِهِ الْخِصَالِ أَوْ أَقَلِّ؛ فَإِنْ تَرَكَ الْأَمْرَ الْوَاجِبَ مَعْصِيَةً، فَالْمُنْتَقِلُ مِنْ مَعْصِيَةٍ إِلَى مَعْصِيَةٍ أَكْبَرَ مِنْهَا كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ، وَالْمُنْتَقِلُ مِنْ مَعْصِيَةٍ إِلَى مَعْصِيَةٍ كَالْمُنْتَقِلِ مِنْ دِينٍ بَاطِلٍ إِلَى دِينٍ بَاطِلٍ، وَقَدْ يَكُونُ الثَّانِي شَرًّا مِنَ الْأَوَّلِ، وَقَدْ يَكُونُ دُونَهُ، وَقَدْ يَكُونَانِ سَوَاءً، فَهَكَذَا تَجِدُ الْمُقْصَرَّ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْمُعْتَدِي فِيهِ قَدْ يَكُونُ ذَنْبُ هَذَا أَعْظَمَ، وَقَدْ يَكُونُ ذَنْبُ هَذَا أَعْظَمَ، وَقَدْ يَكُونَانِ سَوَاءً.

٢- قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: (النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَرَعَ لِأُمَّتِهِ إِجَابَ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ لِيَحْصُلَ بِإِنْكَارِهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا كَانَ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ يَسْتَلْزِمُ مَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ وَأَبْغَضُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَسَوْغُ إِنْكَارَهُ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ يُبْغِضُهُ وَيَمَقُّتُ أَهْلَهُ، وَهَذَا كَالْإِنْكَارِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُ أَسَاسُ كُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، ... قَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ مَا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِ»، وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا جَرَى عَلَى الْإِسْلَامِ فِي الْفِتَنِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ رَأَاهَا مِنْ إِضَاعَةِ هَذَا الْأَصْلِ وَعَدَمِ الصَّبْرِ عَلَى مُنْكَرٍ، فَطَلَبَ إِزَالَتَهُ فَتَوَلَّدَ مِنْهُ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ؛ فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرَى بِمَكَّةَ أَكْبَرَ الْمُنْكَرَاتِ وَلَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهَا، بَلْ لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ وَصَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ عَزَمَ عَلَى تَغْيِيرِ الْبَيْتِ وَرَدَّهُ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْعَهُ مِنْ ذَلِكَ -مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ- خَشْيَةً وَقُوعٍ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ عَدَمِ احْتِمَالِ قَرِيشٍ لَذَلِكَ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَكَوْنِهِمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَأْذَنْ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى الْأُمَرَاءِ بِالْيَدِ؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ وَقُوعٍ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، كَمَا وَجَدَ سَوَاءً.

فَإِنْكَارُ الْمُنْكَرِ أَرْبَعُ دَرَجَاتٍ؛ الْأُولَى: أَنْ يَزُولَ وَيَخْلُقَهُ ضِدُّهُ، الثَّانِيَةُ: أَنْ يَقْلَّ وَإِنْ لَمْ يَزُلْ بِجُمْلَتِهِ، الثَّالِثَةُ: أَنْ يَخْلُقَهُ مَا هُوَ مِثْلُهُ، الرَّابِعَةُ: أَنْ يَخْلُقَهُ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ؛ فَالدَّرَجَتَانِ الْأُولَيَانِ مَشْرُوعَتَانِ، وَالثَّالِثَةُ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ، وَالرَّابِعَةُ مُحَرَّمَةٌ؛ فَإِذَا رَأَيْتَ أَهْلَ الْفُجُورِ وَالْفُسُوقِ يَلْعَبُونَ بِالشَّطْرَنِجِ كَانَ إِنْكَارُكَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدَمِ الْفِقْهِ وَالْبَصِيرَةِ، إِلَّا إِذَا نَقَلْتَهُمْ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَرَمِي النَّشَابِ وَسِبَاقِ الْخَيْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِذَا رَأَيْتَ الْفُسَّاقَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى لَهْوٍ وَلَعِبٍ أَوْ سَمَاعِ مُكَاءٍ وَتَصَدِيقَةٍ فَإِنْ نَقَلْتَهُمْ عَنْهُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَهُوَ الْمُرَادُّ، وَإِلَّا كَانَ تَرْكُهُمْ عَلَى ذَلِكَ خَيْرًا مِنْ أَنْ تُفَرِّغَهُمْ لِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، فَكَانَ مَا هُمْ فِيهِ شَاغِلًا لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَكَمَا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُشْتَغِلًا بِكُتُبِ الْمُجَوِّنِ وَنَحْوِهَا وَخَفَتْ مِنْ نَقْلِهِ عَنْهَا انْتِقَالُهُ إِلَى كُتُبِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ وَالسَّحَرِ، فَدَعَاهُ وَكُتِبَتْهُ الْأُولَى، وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ وَنَوَّرَ ضَرْيَحَهُ يَقُولُ: مَرَرْتُ أَنَا وَبَعْضُ أَصْحَابِي فِي زَمَنِ التَّارِ بِقَوْمٍ مِنْهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مَعِي، فَأَنْكَرْتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ لَهُ: إِنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ الْخَمْرَ لِأَنَّهَا تَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، وَهَؤُلَاءِ يَصُدُّهُمْ الْخَمْرُ عَنْ قِتْلِ النَّفُوسِ وَسَبِي الدَّرِيَّةِ وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ؛ فَدَعَّاهُمْ.

تَلْبِيسُ الشَّيْطَانِ عَلَى مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي ذِكْرِ تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ عَلَى الْأَمْرَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيَيْنِ عَنِ الْمُنْكَرِ: (هَمَّ قِسْمَانِ: عَالِمٌ وَجَاهِلٌ؛ فَدُخُولُ إِبْلِيسَ عَلَى الْعَالِمِ مِنْ طَرِيقَيْنِ:

الطَّرِيقُ الْأَوَّلُ: التَّزْيِينُ بِذَلِكَ وَطَلْبُ الذِّكْرِ، وَالْعُجْبُ بِذَلِكَ الْفِعْلِ، رُوَيْنَا بِإِسْنَادٍ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْخَوَارِثِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَلْمَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الْمَنْصُورَ يَبْكِي فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَاسْتَقْبَلَنِي الْغَضَبُ وَحَضَرَتْنِي نِيَّةُ أَنْ أَقُومَ فَأَعْظِمَهُ بِمَا أَعْرِفُ مِنْ فِعْلِهِ إِذَا نَزَلَ، قَالَ: فَكَرِهْتُ أَنْ أَقُومَ إِلَى خَلِيفَةٍ فَأَعْظِمَهُ وَالنَّاسُ جُلُوسٌ يَرْمُقُونَنِي بِأَبْصَارِهِمْ، فَيَعْرِضَ لِي تَزْيِينٌ، فَيَأْمُرَ بِي فَأُقْتَلَ عَلَى غَيْرِ صَحِيحٍ، فَجَلَسْتُ وَسَكَتُ.

وَالطَّرِيقُ الثَّانِي: الْغَضَبُ لِلنَّفْسِ، وَرُبَّمَا كَانَ ابْتِدَاءً، وَرُبَّمَا عَرَضَ فِي حَالَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ لِأَجْلِ مَا يَلْقَى بِهِ الْمُنْكَرَ مِنَ الْإِهَانَةِ، فَتَصِيرُ خُصُومَةً لِنَفْسِهِ، كَمَا قَالَ عُمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِرَجُلٍ: لَوْلَا أَنِّي غَضَبَانُ لِعَاقَبْتُكَ! وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّكَ أَغْضَبْتَنِي فَخَفْتُ أَنْ تَمْتَرِجَ الْعُقُوبَةُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَلِي.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ جَاهِلًا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَلَاعَبُ بِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ إِفْسَادُهُ فِي أَمْرِهِ أَكْثَرَ مِنْ إِصْلَاحِهِ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ جَائِزٍ بِالْإِجْمَاعِ، وَرُبَّمَا أَنْكَرَ مَا تَأَوَّلَ فِيهِ صَاحِبُهُ وَتَبَعَ فِيهِ بَعْضَ الْمَذَاهِبِ، وَرُبَّمَا كَسَرَ الْبَابَ وَتَسَوَّرَ الْحِيطَانَ وَضَرَبَ أَهْلَ الْمُنْكَرِ وَقَذَفَهُمْ، فَإِنْ أَجَابُوهُ بِكَلِمَةٍ تَصْغُبُ عَلَيْهِ صَارَ غَضَبُهُ لِنَفْسِهِ، وَرُبَّمَا كَشَفَ مَا قَدْ أَمَرَ الشَّرْعُ بِسْتَرِهِ.

الْإِنْكَارُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَالْاجْتِهَادِ

الْخِلَافُ نَوْعَانِ: خِلَافٌ سَائِغٌ مُعْتَبَرٌ وَلَهُ حَظٌّ مِنَ النَّظَرِ، وَخِلَافٌ غَيْرُ سَائِغٍ وَغَيْرُ مُعْتَبَرٍ وَلَا حَظٌّ لَهُ مِنَ النَّظَرِ. وَالْخِلَافُ السَّائِغُ دَرَجَاتٌ، كَمَا أَنَّ غَيْرَ السَّائِغِ كَذَلِكَ دَرَجَاتٌ أَوْ دَرَكَاتٌ.

فَمَا كَانَ مِنَ الْمَسَائِلِ الْاجْتِهَادِيَّةِ الَّتِي لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ، أَوْ كَانَتْ أَدِلَّتْهَا مُتَكَافِئَةٌ لَدَى الطَّرَفَيْنِ، وَتَجَادَبَهَا دَلِيلَانِ شَرْعِيَّانِ صَحِيحَانِ يَتَعَدَّرُ الْجَزْمُ بِصَوَابِ أَحَدِهِمَا؛ فَهَذِهِ مِنَ مَسَائِلِ الْخِلَافِ الْمُعْتَبَرِ، وَتَسْمِيَّتُهَا بِالْمَسَائِلِ الْاجْتِهَادِيَّةِ أُولَى مِنْ تَسْمِيَّتِهَا بِالْمَسَائِلِ الْخِلَافِيَّةِ؛ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا؛ فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ هِيَ مَسْأَلَةٌ خِلَافِيَّةٌ، وَلَيْسَ كُلُّ مَسْأَلَةٍ خِلَافِيَّةٍ هِيَ مَسْأَلَةٌ اجْتِهَادِيَّةٌ. فَإِذَا قِيلَ: الْمَسْأَلَةُ فِيهَا خِلَافٌ، يُقَالُ: هَلْ هُوَ خِلَافٌ سَائِغٌ مُعْتَبَرٌ أَمْ لَا؟ وَهَلْ هُوَ خِلَافٌ اجْتِهَادِيٌّ بَلَا نَصٍّ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ، أَمْ خِلَافٌ مَعَ النَّصِّ؟

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: (إِنَّمَا دَخَلَ هَذَا اللَّبْسُ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْقَائِلَ يَتَعَدَّدُ أَنَّ مَسَائِلَ الْخِلَافِ هِيَ مَسَائِلُ الْاجْتِهَادِ، كَمَا اعْتَقَدَ ذَلِكَ طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ. وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَيْمَةُ: أَنَّ مَسَائِلَ الْاجْتِهَادِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا دَلِيلٌ يَجِبُ الْعَمَلُ

به وجوبًا ظاهرًا، مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه، فيسوغ -إذا غُدم ذلك فيها- الاجتهاد؛ لتعارض الأدلة المتقاربة، أو لخفاء الأدلة فيها).

وقال ابن عُثيمين: (لو أننا قلنا: المسائل الخلافية لا يُنكر فيها على الإطلاق، لذهب الدين كله حين تتبع الرخص؛ لأنك لا تكاد تجد مسألة إلا وفيها خلاف).

وقد بين ابن تيمية الفرق بين مسائل الخلاف ومسائل الاجتهاد، ومتى يجب الإنكار فيها ومتى لا يجوز، بقوله: (إذا كان القول يخالف سنة أو إجماعاً قديماً وجب إنكاره وفقاً، ... وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره أيضاً بحسب درجات الإنكار... أما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع، وللاجتهاد فيها مساع، لم يُنكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً).

وقال عن مسائل الاجتهاد أيضاً لا الخلاف: (مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم يُنكر عليه ولم يُهجر).

وقال العز بن عبد السلام: (الضابط في هذا أن مأخذ المخالف إن كان في غاية الضعف والبعد من الصواب، فلا نظر إليه ولا التفات عليه، إذا كان ما اعتمد عليه لا يصح نفيه دليلاً شرعاً).

وقال الزركشي: (لم يزل الخلاف بين السلف في الفروع، ولا يُنكر أحدٌ على غيره مجتهداً فيه، وإنما يُنكرون ما خالف نصاً أو إجماعاً قطعياً أو قياساً جلياً).

فكل هذه الأقوال -وغيرها كثير جداً- تنص على أن المختلف فيه إن كان فيه نص أو قياس جلي، فإنه يُنكر على فاعله، بخلاف مسائل الاجتهاد التي لا نص فيها ولا إجماع ولا قياس، وهذا الذي جعل ابن تيمية يقول: (وقولهم: مسائل الخلاف لا إنكار فيها، ليس بصحيح).

أما ورود هذه العبارة: (لا إنكار في مسائل الخلاف) في كلام بعض العلماء فمرادهم المسائل التي الخلاف فيها خلاف سائغ ومعتبر، وقد يكونون أوضحوا مرادهم في مواضع أخرى من كتبهم.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يُنكرون على من خالف النص من الكتاب أو السنة كائناً من كان، كما أنهم اختلفوا في عدد من المسائل الاجتهادية التي لا دليل عليها، أو تجاذبها نصان عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفهمه كل واحد منهم فهماً مختلفاً عن الآخر، ولم يُنكر بعضهم على بعض.

٣- الورع ينبغي أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورعاً؛ ليردعه الورع عن مخالفة معلومه

٤- الأناة والتثبت: - من أدب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الأناة والتؤدة والتثبت.

الدليل على ذلك من الكتاب والسنة:

أ- من الكتاب

١- قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النساء: ٩٤] .

٢- قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } [الحجرات: ٦] .

ب- مِنَ السُّنَّةِ

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشج أشج عبد القيس: ((إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ))

٥- الرَّفْقُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ

نَبَغِي أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ حَسَنَ الْخُلُقِ، رَفِيقًا، مُشْفِقًا عَلَى مَنْ يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ، فَيَأْمُرُ بِاللَّيِّنِ، وَلَا يَكُونَ فَظًّا غَلِيظًا .

الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

أ- مِنَ الْكِتَابِ

١- قال الله سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام: اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ [طه: ٤٣-٤٤] .

أي: اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّهُ تَمَرَّدَ وَتَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَالتَّكْبِيرِ وَالْعُدْوَانِ، فَقُولَا لَهُ عِنْدَ دَعْوَتِهِ إِلَى اللَّهِ قَوْلًا رَفِيقًا لَطِيفًا، لَا غِلْظَةَ فِيهِ وَلَا تَنْفِيرَ.

كما قال تعالى: اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ [النازعات: ١٧ - ١٩] .

وفي هذا دلالة على أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِالْحِكْمَةِ وَالرَّفْقِ وَاللَّيِّنِ، وَأَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِأَنَّهُ الْقَوْلُ لِلطَّلَامِ عِنْدَ وَعْظِهِ؛ لَعَلَّهُ يَرْجِعُ، فَإِذَا كَانَ مُوسَى أَمَرَ بِأَنْ يَقُولَ لِفِرْعَوْنَ قَوْلًا لَيِّنًا، فَمَنْ دُونَهُ أُخْرَى بِأَنْ يَقْتَدِيَ بِذَلِكَ فِي خُطَابِهِ، وَأَمْرِهِ بِالْمَعْرُوفِ فِي كَلَامِهِ. وقد قال الله تعالى: وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا [البقرة: ٨٣] .

٢- قال تعالى لَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [آل عمران: ١٥٩] .

ب- مِنَ السُّنَّةِ

- ١- عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ)). .
- وفي رواية: ((يا عائشة، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ)). .
- ٢- عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((مَنْ يُحَرِّمَ الرَّفْقَ يُحَرِّمَ الْخَيْرَ)). .
- ٣- عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ)). .
- ٤- عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: ((إِنَّ فَتًى شَابًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزَّانَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ مَهْ ! فَقَالَ: اذْنُهُ، فَذَنَا مِنْهُ قَرِيبًا. قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: أَتُحِبُّهُ لَأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لَأُمَّهَاتِهِمْ. قَالَ: أَتُحِبُّهُ لَابْنَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ. قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأَخِيكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ. قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ. قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ. قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ. قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ)). .
- ٥- عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، قال: ((بَيْنَا أَنَا أَصْلِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ! فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَائْكُلْ أُمِّيَاهُ ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟! فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمَّتُونِي لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَاطِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي، وَلَا شَتَمَنِي. قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلَحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...)) الْحَدِيثُ .

من أقوال السلف في الرفق

- ١- عن حنبل أنه سمع أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: (النَّاسُ يَحْتَاجُونَ إِلَى مُدَارَاةٍ وَرَفْقٍ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ بِلَا غِلْظَةٍ، إِلَّا رَجُلًا مُعَلِّنًا بِالْفِسْقِ فَقَدْ وَجِبَ عَلَيْكَ نَهْيُهُ وَإِعْلَامُهُ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: لَيْسَ لِفَاسِقٍ حُرْمَةٌ، فَهَذَا لَا حُرْمَةَ لَهُ). .
- وعن مهنّا، قال: (سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَأْمُرَ؟ قَالَ: يَأْمُرُ بِالرَّفْقِ وَالْخُضُوعِ، ثُمَّ قَالَ: إِنْ أَسْمَعُوهُ مَا يَكْرَهُ لَا يَغْضَبُ؛ فَيَكُونُ يُرِيدُ يَنْتَصِرُ لِنَفْسِهِ). .

وعن أبي طالبٍ أَنَّهُ قَالَ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: (إِذَا أَمَرْتُهُ بِالْمَعْرُوفِ فَلَمْ يَنْتَهِ أَدْعُهُ، لَا أَقُولُ لَهُ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا، مُرَّ بِالْمَعْرُوفِ، قُلْتُ لَهُ: فَإِنْ أَسْمَعَنِي؟ قَالَ: دَعُهُ، إِنْ رَدَدْتَ عَلَيْهِ ذَهَبَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَصِرْتَ تَنْتَصِرُ لِنَفْسِكَ؛ فَتَخْرُجُ إِلَى الْإِثْمِ، فَإِذَا أَمَرْتَ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ قَبِلَ مِنْكَ وَإِلَّا فَدَعُهُ).

٢- عَنْ مُعْتَمِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: (مَا أَغْضَبَتْ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْكَ).

٣- عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، قَالَ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَمْضِيَ لِمَا تُرِيدُهُ مِنَ الْعَدْلِ، فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَبَالِي لَوْ غَلَتْ بِي وَبِكَ الْقُدُورُ فِي ذَلِكَ؟! قَالَ: (يَا بُنَيَّ، إِنِّي إِنَّمَا أُرَوِّضُ النَّاسَ رِيَاضَةَ الصَّعْبِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْيِيَ الْأَمْرَ مِنَ الْعَدْلِ، فَأُوَخِّرُ ذَلِكَ حَتَّى أُخْرِجَ مَعَهُ طَمَعًا مِنَ طَمَعِ الدُّنْيَا، فَيَنْفِرُوا مِنْ هَذِهِ، وَيَسْكُنُوا لِهَذِهِ).

نماذجٌ حسنةٌ في الرَّفْقِ

١- عَنْ مُهَنَّا، قَالَ: قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: (كَانَ أَصْحَابُ ابْنِ مَسْعُودٍ إِذَا مَرُّوا بِقَوْمٍ يَرَوْنَ مِنْهُمْ مَا يَكْرَهُونَ، يَقُولُونَ: مَهَلًا رَحِمَكُمُ اللَّهُ).

٢- عَنْ عُمَارَةَ، قَالَ: (حَضَرْتُ الْحَسَنَ وَدُعِيَ إِلَى عُرْسٍ، فَجِئْتُ بِجَامٍ مِنْ فِضَّةٍ عَلَيْهِ خَبِصٌ أَوْ طَعَامٌ، فَتَنَاوَلَهُ فَقَلَبَهُ عَلَى رَغِيفٍ فَأَصَابَ مِنْهُ، فَقَالَ رَجُلٌ إِلَى جَانِبِي: هَذَا نَهْيٌ فِي سُكُونٍ!).

٣- قَالَ الْغَزَالِيُّ: (وَيُذَلُّ عَلَى وُجُوبِ الرَّفْقِ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ الْمَأْمُونُ إِذْ وَعَظَهُ وَاعْظُ وَعَنَّفَ لَهُ فِي الْقَوْلِ، فَقَالَ: يَا رَجُلُ، اِرْفُقْ؛ فَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ إِلَى مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنِّي، وَأَمَرَهُ بِالرَّفْقِ، فَقَالَ تَعَالَى: { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } [طه: ٤٤]؛ فَلْيَكُنْ اقْتِدَاءُ الْمُحْتَسِبِ فِي الرَّفْقِ بِالْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ...

وَقِيلَ لِلْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ قَبَلَ جَوَائِزَ السُّلْطَانِ! فَقَالَ الْفَضِيلُ: مَا أَخَذَ مِنْهُمْ إِلَّا دُونَ حَقِّهِ. ثُمَّ خَلَا بِهِ وَعَدَّلَهُ وَوَبَّخَهُ! فَقَالَ سُفْيَانُ: يَا أَبَا عَلِيٍّ، إِنْ لَمْ نَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ فَإِنَّا لَنُحِبُّ الصَّالِحِينَ! وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ: إِنَّ صَلَةَ بْنَ أَشِيمٍ مَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ قَدْ أَسْبَلَ إِزَارَهُ فَهَمَّ أَصْحَابُهُ أَنْ يَأْخُذُوهُ بِشِدَّةٍ، فَقَالَ: دَعُونِي أَنَا أَكْفِيكُمْ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكَ يَا عَمَّ؟ قَالَ: أَحِبُّ أَنْ تَرْفَعَ مِنْ إِزَارِكَ، فَقَالَ: نَعَمْ وَكَرَامَةً! فَرَفَعَ إِزَارَهُ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: لَوْ أَخَذْتُمُوهُ بِشِدَّةٍ لَقَالَ: لَا وَلَا كَرَامَةً، وَشَتَمَكُمْ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ زَكَرِيَّا الْغَلَابِيُّ شَهِدْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنِ عَائِشَةَ لَيْلَةً وَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ يُرِيدُ مَنَزِلَهُ، وَإِذَا فِي طَرِيقِهِ غُلَامٌ مِنْ قُرَيْشٍ سَكَرَانُ وَقَدْ قَبِضَ عَلَى امْرَأَةٍ فَجَذَبَهَا فَاسْتَغَاثَتْ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ يَضْرِبُونَهُ، فَظَرَّ إِلَيْهِ ابْنُ عَائِشَةَ فَعَرَفَهُ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَنَحَّوْا عَنْ ابْنِ أَخِي، ثُمَّ قَالَ: إِلَيَّ يَا ابْنَ أَخِي، فَاسْتَحْيَا الْغُلَامُ، فَجَاءَ إِلَيْهِ فَضَمَّهُ إِلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: امْضِ مَعِي، فَمَضَى مَعَهُ حَتَّى صَارَ إِلَى مَنَزِلِهِ، فَأَدْخَلَهُ الدَّارَ وَقَالَ لِبَعْضِ غِلْمَانِهِ: بَيْتُهُ عِنْدَكَ، فَإِذَا أَفَاقَ مِنْ سُكْرِهِ فَأَعْلِمْنِي بِمَا كَانَ مِنْهُ، وَلَا تَدْعُهُ يَنْصَرِفُ حَتَّى تَأْتِيَنِي بِهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ ذُكِرَ لَهُ مَا جَرَى فَاسْتَحْيَا مِنْهُ وَبَكَى وَهَمَّ بِالْانْصِرَافِ، فَقَالَ الْغُلَامُ: قَدْ أَمَرَ أَنْ تَأْتِيَهُ، فَأَدْخَلَهُ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: أَمَا اسْتَحْيَيْتَ لِنَفْسِكَ؟! أَمَا اسْتَحْيَيْتَ لَشَرَفِكَ؟! أَمَا تَرَى مِنْ وَلَدِكَ؟! فَاتَّقِ اللَّهَ وَانْرِغْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ، فَبَكَى الْغُلَامُ مُنْكَسًا رَأْسَهُ،

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: عَاهَدْتُ اللَّهَ تَعَالَى عَهْدًا يَسْأَلُنِي عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنِّي لَا أَعُودُ لَشُرْبِ النَّبِيذِ وَلَا لَشَيْءٍ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ، وَأَنَا تَائِبٌ، فَقَالَ: ادْنُ مِنِّي، فَقَبَّلَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: أَحْسَنْتَ يَا بُنَيَّ، فَكَانَ الْغُلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ يَلْزَمُهُ وَيَكْتُبُ عَنْهُ الْحَدِيثَ، وَكَانَ ذَلِكَ بَبْرَكَةٍ رَفَقَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ النَّاسَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَكُونُ مَعْرُوفُهُمْ مُنْكَرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِالرَّفْقِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ تَنَالُونَ بِهِ مَا تَطْلُبُونَ.

وَعَنِ الْفَتْحِ بْنِ شُخْرُفٍ قَالَ: تَعَلَّقَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ وَتَعَرَّضَ لَهَا وَبِيَدِهِ سِكِّينٌ، لَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا عَقَرَهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ شَدِيدَ الْبَدَنِ، فَبَيْنَا النَّاسُ كَذَلِكَ وَالْمَرْأَةُ تَصِيحُ فِي يَدِهِ إِذْ مَرَّ بِشَرِّ بْنِ الْحَارِثِ، فَدَنَا مِنْهُ وَحَكَّ كَتِفَهُ بِكَتِفِ الرَّجُلِ، فَوَقَعَ الرَّجُلُ عَلَى الْأَرْضِ! وَمَشَى بِشَرِّ فَدَنُوا مِنَ الرَّجُلِ وَهُوَ يَتَرَشَّحُ عَرَقًا كَثِيرًا وَمَضَتْ الْمَرْأَةُ لِحَالِهَا! فَسَأَلُوهُ: مَا حَالُكَ؟ فَقَالَ: مَا أَدْرِي! وَلَكِنْ حَاكَنِي شَيْخٌ وَقَالَ لِي: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَازِلٌ إِلَيْكَ وَإِلَى مَا تَعْمَلُ! فَضَعُفْتُ لِقَوْلِهِ قَدَمَايَ وَهَبْتُهُ هَيْبَةً شَدِيدَةً، وَلَا أَدْرِي مَنْ ذَلِكَ الرَّجُلُ؟! فَقَالُوا لَهُ: هُوَ بِشَرُّ بْنُ الْحَارِثِ، فَقَالَ: وَاسْوَأَتَاهُ! كَيْفَ يَنْظُرُ إِلَيَّ بَعْدَ الْيَوْمِ، وَحُمَّ الرَّجُلُ مِنْ يَوْمِهِ وَمَاتَ يَوْمَ السَّابِعِ! فَكَذَا كَانَتْ عَادَةُ أَهْلِ الدِّينِ فِي الْحِسْبَةِ .

٦- الْحِلْمُ وَالصَّبْرُ

يَنْبَغِي لِمَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَنْ يَكُونَ ذَا حِلْمٍ وَصَبْرٍ .
الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

أ- مِنَ الْكِتَابِ

١- قَالَ تَعَالَى: { يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [لقمان: ١٧] .

فَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ إِذَا أَمَرَ وَنَهَى، فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْذَى فِي الْعَادَةِ وَأَنْ يُبْتَلَى؛ لَذَا أَمَرَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ .

٢- قَالَ تَعَالَى: { وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر: ١ - ٣] .

ب- مِنَ السُّنَّةِ

١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَشَجِّ أَشَجَّ عَبْدِ الْقَيْسِ: ((إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ)) .

٢- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ((قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسَمًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّهَا لِقِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ! قَالَ: فَاتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَارَرْتُهُ، فَغَضِبَ مِنْ ذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَذْكُرْهُ لَهُ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ!)) .
فَائِدَةٌ فِيمَا يُهَوَّنُ عَلَى الْمُسْلِمِ تَحْمُلِ الْأَذَى

١- عن أبي جعفر الخطمي، أن جدّه عمير بن حبيب -وكانت له صُحبة- أوصى بنيه، فقال: (يا بني ... إذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى، ويثق بالثواب من الله؛ فإن من وثق بالثواب لم يجد مسّ الأذى) .

٢- قال ابن رجب: (اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين، والرحمة لهم ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته، وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأنه يقتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، كما قال بعض السلف: وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله، وأنّ لحمي قرص بالمقاريض).
وكان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رحمهما الله يقول لأبيه: وددت أني غلت بي وبك القدور في الله عز وجل.

ومن لحظ هذا المقام والذي قبله هان عليه كل ما يلقي من الأذى في الله تعالى، ورُبما دعا لمن آذاه كما قال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما ضربته قومه، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون».

٦- الإسراء بالأمر والإنكار

ينبغي أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سرّاً ما استطاع المرء إلى ذلك سبيلاً ، ولا سيّما مع الكبراء والرؤساء.

الدليل على ذلك من الآثار:

١- عن أبي وائل قال: قيل لأسامة: لو أتيت فلاناً فكلمته، قال: إنكم لترون أنّي لا أكلمه إلا أسمعكم! إنّي أكلمه في السرّ دون أن أفتح باباً لا أكون أوّل من فتحه، ولا أقول لرجل أن كان عليّ أميراً: إنّه خير الناس، بعد شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: ((يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أفتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية)) .

قال عياض: (قوله: "دون أن أفتح باباً لا أكون أوّل من فتحه": يعني في المجاهرة بالنكير، والقيام بذلك على الأمراء، وما يخشى من سوء عقبا، كما تولّد من إنكارهم جهاراً على عثمان بعد هذا، وما أدّى إلى سفك دمه واضطراب الأمور بعده، وفيه التلطف مع الأمراء، وعرض ما ينكر عليهم سرّاً، وكذلك يلزم مع غيرهم من المسلمين ما أمكن ذلك) .

وقال أبو العباس القُرطبي: (قوله: "أثرون أني لا أكلّمه إلّا أسمعكم" يعني: أنه كان يجتنّب كلامه بحضرة الناس، ويكلّمه إذا خلا به، وهكذا يجب أن يعاتب الكبراء والرؤساء، يعظّمون في المأل إبقاء لحرماتهم، وينصّحون في الخلاء أداء لما يجب من نصّحهم.

وقوله: "والله لقد كَلّمته فيما بيني وبينه ما دون أن أفتح أمراً لا أحب أن أكون أوّل من فتحه" يعني: أنه كَلّمه مُشافهَةً كلام لطف؛ لأنه اتقى ما يكون عن المجاهرة بالإنكار والقيام على الأئمة؛ لعظيم ما يطرأ بسبب ذلك من الفتن والمفاسد... ففيه التلطف في الإنكار إذا ارتجى نفعه).

٢- عن سعيد بن جبّير، قال: قلت لابن عباس: أمر إمامي بالمعروف؟ قال: (إن خشيت أن يقتلك فلا، فإن كنت ولا بد فاعلاً ففيمّا بينك وبينه، ولا تغتّب إمامك).
وأما التعليل: فلأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان سراً فإنه يكون أولى بالقبول، وأجدر بالنفع، وأبعد لهتك السّتر وتحريك الأنفة

٧- ألاّ يُخالف فعله قوله

من أدب الأمر النّاهي: أن يبدأ بنفسه في التزام ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، وألاّ يُخالف فعله قوله.
الدليل على ذلك من الكتاب والسنة:

أ- من الكتاب

١- قال تعالى: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [البقرة: ٤٤].
قال السّعدي: (أتأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ أي: بالإيمان والخير وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ أي: تتزكونها عن أمرها بذلك، والحال: وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، وسَمِّيَ العقل عقلاً؛ لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره؛ وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أوّل فاعل لما يأمر به، وأوّل تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعل، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دلّ على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة).

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل فهي عامّة لكلّ أحد.

وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنها دلّت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلاّ فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه؛ فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر؛ فإنّ الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والتقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر فليس في رتبة الأوّل، وهو دون الأخير، وأيضاً فإنّ النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقيدواؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة).

بجَهْل ذاك الامر من ويلات(١)

وكم اذاق الطعن في الولاة

٢- قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } [الصف: ٢-٣] .

٣- وقال شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَأَكُمُ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود: ٨٨] .

ب- مِنَ السُّنَّةِ

عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((يُوتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى! فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟! أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟! فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ.

١ - قال ابن تيمية في منهاج السنة: " فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ

وَتَكْمِيلِهَا وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا فَإِذَا تَوَلَّى خَلِيفَةٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ كَزَيْدٍ وَعَبْدُ الْمَلِكِ وَالْمَنْصُورُ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا قَالَ يُجِبُ مِنْهُ مِنَ الْوَلَايَةِ وَقِتَالِهِ حَتَّى يُوَلَّى غَيْرَهُ كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَرَى السِّيفَ فَهَذَا رَأَى فَاسِدًا فَإِنْ مَفْسَدَةٌ هَذَا أَعْظَمُ مِنْ مَصْلَحَتِهِ وَقُلْ مِنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ ذِي سُلْطَانٍ إِلَّا كَانَ مَا تَوَلَّى عَلَى فَعْلِهِ مِنَ الشَّرِّ أَكْثَرُ مِنْ مَصْلَحَتِهِ وَمِمَّا تَوَلَّى مِنَ الْخَيْرِ كَالَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى يَزِيدَ بِالْمَدِينَةِ وَكَابُنِ الْأَشْعَثِ الَّذِي خَرَجَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بِالْعِرَاقِ وَكَابُنِ الْمُهَلَّبِ الَّذِي خَرَجَ عَلَى ابْنِهِ بِخُرَاسَانَ وَكَأَبِي مُسْلِمٍ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الَّذِي خَرَدَ عَلَيْهِمْ بِخُرَاسَانَ أَيْضًا وَكَالَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى الْمَنْصُورِ بِالْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ وَأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ

وَعَايَةُ هَؤُلَاءِ إِمَّا أَنْ يَغْلِبُوا وَإِمَّا أَنْ يَغْلِبُوا ثُمَّ يَزُولَ مَلِكُهُمْ فَلَا يَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةٌ فَإِنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَلِيٍّ وَأَبَا مُسْلِمٍ هُمَا اللَّذَانِ قَتَلَا خَلْقًا كَثِيرًا وَكِلَاهُمَا قَتَلَهُ أَبُو دَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ وَأَمَّا أَهْلُ الْحَرَّةِ وَابْنُ الْأَشْعَثِ وَابْنُ الْمُهَلَّبِ وَغَيْرُهُمْ فَهَزَمُوا وَهَزَمَ أَصْحَابُهُمْ فَلَا أَقَامُوا دِينًا وَلَا أَبْقَوْا دِينًا وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَأْمُرُ بِأَمْرٍ لَا يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ الدِّينِ وَلَا صَلَاحُ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ فَاعِلُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَسُوا أَفْضَلَ مِنْ عَلِيٍّ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَغَيْرَهُمْ وَمَعَ هَذَا لَمْ يَحْمَدُوا مَا فَعَلُوهُ مِنَ الْقِتَالِ وَهُمْ أَكْثَرُ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ وَأَحْسَنُ نِيَّةً مِنْ غَيْرِهِمْ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْحَرَّةِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِدِينِ خَلْقٌ وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ ابْنِ الْأَشْعَثِ كَانَ فِيهِمْ خَلْقٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِدِينِ وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ كُلَّهُمْ

وقد قيل للشعبي في فتنة ابن الأشعث أين كنت يا عامر قال كنت حيث يقول الشاعر ... عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى ... وصوت إنسان فكدت أطيء ...

أصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء

وكان الحسن البصري يقول إن الحجاج عذاب الله فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع فإن الله تعالى يقول ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون وكان طلق بن حبيب يقول اتقوا الفتنة بالتقوى فقليل له أجمل لنا التقوى فقال أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله رواه أحمد وابن أبي الدنيا

وكان أفاضل المسلمين يnehون عن الخروج والقتال في الفتنة كما كان عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وغيرهم يnehون عام الحرة عن الخروج على يزيد وكما كان الحسن البصري ومجاهد وغيرهما يnehون عن الخروج في فتنة ابن الأشعث ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم وصاروا يذكرون هذا فيعقائداهم ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم وإن كان قد قاتل في الفتنة خلق كثير من أهل العلم والدين

وباب قتال أهل البغي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشتهر بالقتال في الفتنة وليس هذا موضع بسطه ومن تأمل الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب واعتبر أيضا اعتبار أولى الأبصار علم أن الذي جاءت به النصوص النبوية خير الأمور ولهذا لما أراد الحسين رضي الله عنه أن يخرج إلى أهل العراق لما كاتبوه كتبوا كثيرة أشار عليه أفاضل أهل العلم والدين كابن عمر وابن عباس وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن لا يخرج وغلب على ظنهم أنه يقتل حتى إن بعضهم قال أستودعك الله من قتل وقال بعضهم لولا الشفاعة لأمسكتك ومصلحة المسلمين والله ورسوله إنما يأمر بالصالح لا بالفساد لكن الرأي يصيب تارة ويخطيء أخرى

فتبين أن الأمر على ما قاله أولئك ولم يكن في الخروج لا مصلحة دين ولا مصلحة دنيا بل تمكن أولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتلوه مظلوما شهيدا وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن حصل لو قعد في بلده فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله ونقص الخير بذلك وصار ذلك سببا لشر عظيم وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن كما كان قتل عثمان مما أوجب الفتن .

وهذا كله مما يبين أن ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد وأن من خالف ذلك متعمدا أو مخطئا لم يحصل بفعله صلاح بل فساد ولهذا أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على الحسن بقوله إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ولم يش على أحد لا بقتال في فتنة ولا بخروج على الأئمة ولا نزع يد من طاعة ولا مفارقة للجماعة .

وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الثابتة في الصحيح كلها تدل على هذا كما في صحيح البخاري من حديث الحسن البصري سمعت أبا بكر رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيد وحقق ما أشار إليه من أن الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين

وهذا يبين أن الإصلاح بين الطائفتين كان محبوبا ممدوحا يحبه الله ورسوله وأن ما فعله الحسن من ذلك كان من أعظم فضائله ومناقبه التي أثنى بها عليه النبي صلى الله عليه وسلم ولو كان القتال واجبا أو مستحبا لم يشن النبي صلى الله عليه وسلم على أحد بترك واجب أو مستحب ولهذا لم يشن النبي صلى الله عليه وسلم على أحد بما جرى من القتال يوم الجمل وصفين فضلا عما جرى في المدينة يوم الحرة وما جرى بمكة في حصار ابن الزبير وما جرى في فتنة ابن الأشعث وابن المهلب وغير ذلك من الفتن ولكن تواتر عنه أنه أمر بقتال الخوارج المارقين الذين قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنهروان بعد خروجهم عليه بحروراء فهؤلاء استفاضت السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر بقتالهم ولما قاتلهم علي رضي الله عنه فرح بقتالهم وروى الحديث فيهم واتفق الصحابة على قتال هؤلاء وكذلك أئمة أهل العلم بعدهم لم يكن هذا القتال عندهم كقتال أهل الجمل وصفين وغيرهما مما لم يأت فيه نص ولا إجماع ولا حمده أفاضل الداخلين فيه بل ندموا عليه ورجعوا عنه .

وهذا الحديث من أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث ذكر في الحسن ما ذكره وحمد منه ما حمده فكان ما ذكره وما حمده مطابقا للحق الواقع بعد أكثر من ثلاثين سنة فإن إصلاح الله بالحسن بين الفئتين كان سنة إحدى وأربعين من الهجرة وكان علي رضي الله عنه استشهد في رمضان سنة أربعين والحسن حين مات النبي صلى الله عليه وسلم كان عمره نحو سبع سنين فإنه ولد عام ثلاث من العجرة وأبو بكر أسلم عام الطائف تدلى ببكرة فقيل له أبو بكر والطائف كانت بعد فتح مكة فهذا الحديث الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم في الحسن كان بعد ما مضى ثمان من الهجرة وكان بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة التي هي خلافة النبوة فلا بد أن يكون قد مضى له أكثر من ثلاثين سنة فإنه قاله قبل موته صلى الله عليه وسلم ومما يناسب هذا ما ثبت في الصحيح من حديث سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأخذه والحسن ويقول اللهم إني أحبهما فأحبهما ففي هذا الحديث جمعه بين الحسن وأسامة رضي الله عنهما وإخباره بأنه يحبهما ودعاؤه الله أن يحبهما وحبه صلى الله عليه وسلم لهذين مستفيض عنه ف أحاديث صحيحة كما في الصحيحين من حديث شعبة عن عدى بن ثابت قال سمعت البراء بن عازب رضي الله عنه قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم والحسن بن علي على عاتقه وهو يقول اللهم إني أحبه فأحبه .

وفي الصحيحين عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا ومن يجترئ عليه إلا إسماعيل بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن دينار قال نظر ابن عمر يوما وهو في المسجد إلى رجل يسحب ثيابه في ناحية من المسجد فقال انظر من هذا ليت هذا عندي قال له إنسان أما تعرف هذا يا أبا عبد الرحمن هذا محمد بن أسامة قال فطأ ابن عمر رضي الله عنه رأسه ونقر بيديه على الأرض وقال لو راه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبه .

وهذان اللذان جمع بينهما في محبته ودعا الله لهما بالمحبة وكان يعرف حبه لكل واحد منهما منفردا لم يكن رأيهما القتال في تلك الحروب بل أسامة قعد عن القتال يوم صفين لم يقاتل مع هؤلاء ولا مع هؤلاء وكذلك الحسن كان دائما يشير على أبيه وأخيه بترك القتال ولما صار الأمر إليه ترك القتال وأصلح الله به بين الطائفتين المقتلتين .

وعلي رضي الله عنه في آخر الأمر تبين له أن المصلحة في ترك القتال أعظم منها في فعله وكذلك الحسين رضي الله عنه لم يقتل إلا مظلوما شهيدا تاركا لطلب الإمارة طالبا للرجوع إما إلى بلده أو إلى الثغر أو إلى المتولي على الناس يزيد ا قال القائل إن عليا والحسين إنما تركا القتال في آخر الأمر للعجز لأنه لم يكن لهما أنصار فكان في المقاتلة قتل النفوس بلا حصول المصلحة المطلوبة قيل له وهذا بعينه هو الحكمة التي راعاها الشارع صلى الله عليه وسلم في النهي عن الخروج على الأمراء وندب إلى ترك القتال في الفتنة وإن كان الفاعلون لذلك يرون أن مقصودهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالذين خرجوا بالحرّة وبدير الجماجم على يزيد والحجاج وغيرهما لكن إذا لم يزل المنكر إلا بما هو أنكر منه صار إزالته على هذا الوجه منكرا وإذا لم يحصل المعروف إلا بمنكر مفسدته أعظم من مصلحة ذلك المعروف كان تحصيل ذلك المعروف على هذا الوجه منكرا وبهذا الوجه صارت الخوارج تستحل السيف على أهل القبلة حتى قاتلت عليا وغره من المسلمين وكذلك من وافقهم في الخروج على الأئمة بالسيف في الجملة من المعتزلة والزيدية والفقهاء وغيرهم كالذين خرجوا مع محمد بن عبد الله بن حسن بن حسين وأخيه إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسين وغير هؤلاء فإن أهل الديانة من هؤلاء يقصدون تحصيل ما يرونه ديناً لكن قد يخطئون من وجهين

أحدهما أن يكون ما رأوه ديناً ليس بدين كراي الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء فإنهم يعتقدون رأياً هو خطأ وبدعة ويقاتلون الناس عليه بل يكفرون من خالفهم فيصرون مخطئين في رأيهم وفي قتال من خالفهم أو تكفيرهم ولعنهم

وهذه حال عامة أهل الأهواء كالجهمية الذين يدعون الناس إلى إنكار حقيقة أسماء الله الحسنة وصفاته العلى ويقولون إنه ليس له كلام إلا ما خلقه في غيره وإنه لا يرى ونحو ذلك وامتحنوا الناس لما مال إليهم بعض ولاية الأمور فصاروا يعاقبون من خالفهم في رأيهم إما بالقتل وإما بالحبس وإما بالعزل ومنع الرزق".
وقال في مجموع الفتاوى: مذهب أهل الحديث ترك الخروج بالقتال على الملوك البغاة والصبر على ظلمهم إلى أن يستريح بر، أو يستراح من فاجر. اهـ.

^١ — الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يأمر الناس بتكاليف الشرع وربما لا تشتهيه أنفسهم، ولا يرضي أهواءهم، وينهاهم عن هوى النفس وملذات الحس المحرمة، فيسمع منهم ما يؤذيه، ويرى منهم ما لا يرضيه، فلزم أن يوطن نفسه على ذلك ولا يلتفت لكل قول أو فعل وإلا انقطع العمر في الأخذ والرد، وعاد الأمر بضرر أكبر.. ولهذا قال الله لنبية صلوات الله وسلامه عليه، وهو أكبر الدعاة إلى الله: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩].
وهذه الآية العظيمة تُعدُّ بَلَسَمًا لكثيرٍ من الأدواء التي يُبتلى بها كثيرٌ من العقلاء؛ حيث يُبتلون بِمَن لا خلاقَ لهم من السفهاء الذين يُشيرون حولهم الغبار، ويُسيئون إليهم بالكلام البذيء المؤذي. وخيرُ علاجٍ لتلك الإساءات هو الإعراض عن الجاهلين؛ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ حَمَى عِرْضَهُ، وَأَرَاخَ نَفْسَهُ، وَسَلِمَ مِنْ سَمَاعِ ما يؤذيه.
ولهذا كان من وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان قوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: ٦٣].
فهذا هو الوصف الثاني لهم بعد التواضع بالمشي على الأرض هونا وتواضعا لا بطرا وكبرا، فيأتي المظهر الخارجي الثاني لعباد الرحمن، بالإعراض عن الجاهلين، حتى صَارَ فيهم سَجِيَّةً وطَبْعًا لا كُفْلَةً فيه، وهو لسانهم الرطب وَمَنْطِقُهُم العذب، فلا يردون الإساءة بالإساءة، ولا التهمة بمثلها، وإنما آثروا السلام، وكأنهم لا يعلمون شيئا مما يقولُ الجاهلون.

ومع أنَّ الإسلامَ شرع للمسلم أَخَذَ حَقَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَهُ؛ إِلَّا أَنَّهُ يَذْكُرُ هُنَا الْأَكْمَلَ لعبادِ الرحمن، خَاصَّةً الدعاة، فقد ظَلَمُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ فكان الْمُقَابِلُ السلام، وهو ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ نَبِيِّهِ {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩].

قال جعفرُ الصادقُ — رحمه الله —: "ما في القرآن أَجْمَعُ لمكارم الأخلاقِ مِنْ هذه الآية".

فوائد ومنافع الإعراض عن أهل الجهالة:

وقد جاء في كتاب مجالس تدبر القرآن، نقلا عن محمد بن إبراهيم الحمد، بعض فوائد ومنافع للإعراض عن جهل الجاهلين، وعدم مقابلة ذلك بمثله.. فكان مما قال:

بالإعراض عن الجاهلين يحفظ الرَّجُلُ على نفسه عزَّتها، إذ يرفعُها عن الطائفة التي تلذُّ المهاترة والإقذاع، قال بعض الشعراء:

إني لأعرض عن أشياء أسمعها حتى يقول رجال إن بي حمقا
أخشى جواب سفيه لا حياء له فسلي، وظن أناس أنه صدقا
وقال أبو العتاهية:

والصمت للمرء الحليم وقاية ينفي بها عن عرضه ما يكره
فكل السفيه إلى السفاهة وانتصف بالحلم أو بالصمت ممن يسفه
والعرب تقول: "إنَّ من ابتغاء الخير اتقاء الشر".

وروي أنَّ رجلا نال من عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - فلم يجبه، فقيل له: ما يمنُّك منه؟... قال: التَّقِيُّ مُلْجَمٌ.

مما يعين على ذلك

هذا وإنَّ من أعظم ما يُعِين على الإعراض عن الجاهلين - زيادة على ما مضى -
أولا: الترفع عن السباب؛ فذلك من شرف النَّفس، وعلوُّ الهمة، كما قالت الحكماء: "شرف النَّفس أنْ تحمل
المكاره كما تحمل المكارم".

قال الأصمعي: «بَلَّغَنِي أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِآخَرَ: وَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتَ وَاحِدَةً لَتَسْمَعَنَّ عَشْرًا. فَقَالَ الْآخَرُ: لَكِنَّكَ إِنْ قُلْتَ
عَشْرًا لَمْ تَسْمَعْ مِنِّي وَاحِدَةً".

وَشَتَمَ رَجُلٌ الْحَسَنَ، وَأَرَبَى عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ: "أَمَّا أَنْتَ فَمَا أَبْقَيْتَ شَيْئًا، وَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَكْثَرَ".
ثانيًا: استحضار كون الإساءة دليل على رفعة شأن المُساءِ إليه، وشرفه؛ فذلك مما يُهَوِّنُ ما يلقى من سبٍّ
وتجريح.

قال الإمام الشافعي:

إذا سبني نذل تزايدت رفعة وما العيب إلا أن أكون مسابيه
ولو لم تكن نفسي علي عزيزة لمكنتها من كل نذل تحاربه
ثالثًا: الاستهانة بالمسيء؛ فذلك من ضروب العِزَّة والأَنْفَة، ومن مُستحسن الأخلاق، ومن ذلك قول بعض الزعماء
في شعره:

أوكلما طن الذباب طردته إن الذباب إذا علي كريم
وأكثر رجل من سبِّ الأحنف وهو لا يجيبه، فقال السَّابُّ: واللَّهِ ما مَنَعَ الأحنف من جوابي إلا هواني عليه.

وَشَتَمَ رَجُلٌ الْأَحْنَفَ، وَجَعَلَ يَتَّبِعُهُ حَتَّى بَلَغَ حَيَّهٖ، فَقَالَ الْأَحْنَفُ: يَا هَذَا إِنْ كَانَ بَقِيَ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ؛ فَهَاتِهِ
وَانصَرَفْ؛ لَا يَسْمَعُكَ بَعْضُ سَفَهَائِنَا، فَتَلْقَى مَا تَكْرَهُ.
وَأَسْمَعَ رَجُلٌ ابْنَ هُبَيْرَةَ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَالَ: إِيَّاكَ أَغْنِي، فَقَالَ لَهُ: وَعَنكَ أَغْضِي.

رابعاً: أَنْ يَسْتَحْضِرَ أَنَّ مَجَارَاةَ السَّفَهَاءِ شَرٌّ وَبَلَاءٌ، فَهَنَّاكَ مَنْ إِذَا ابْتُلِيَ بِسَفِيهِ سَاقِطٌ لَا خَلَاقَ لَهُ، وَلَا مَرْوَةَ فِيهِ -
أَخَذَ يَجَارِيهِ فِي سَفَهِهِ وَقِيلِهِ وَقَالَهُ، مِمَّا يَجْعَلُهُ عُرْضَةً لِسَمَاعٍ مَا لَا يُرْضِيهِ؛ مِنْ سَاقِطِ الْقَوْلِ وَمَرْدُودِهِ، فَيُصْبِحُ بِذَلِكَ
مُساوياً للسفيه؛ إِذْ نَزَلَ إِلَيْهِ، وَانْحَطَّ إِلَى رَتْبَتِهِ.

إذا جارية في خلق دنيا فأنت ومن تجاربه سواء

قال الأحنف بن قيس: مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى كَلِمَةٍ سَمِعَ كَلِمَاتٍ، وَزُبَّ غِيْظٍ تَجَرَّعَتْهُ مَخَافَةٌ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ.
خامساً: الإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ إِكْرَامٌ لِلنَّفْسِ، فَيُكْرَمُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَيُكْرَمُ قَرَابَةُ السَّفِيهِ الْأَبْرِيَاءِ الْأَعْزَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ
لَا ذَنْبَ لَهُمْ، وَلِهَذَا قِيلَ: لِأَجْلِ عَيْنٍ تُكْرَمُ أَلْفُ عَيْنٍ".

وقد يَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ الْجَاهِلِ وَالْإِغْضَاءَ عَنِ إِسَاءَتِهِ - مع القدرة عليه مُوجِبٌ لِلدَّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ، وَأَنَّهُ قَدْ
يَجْرُ إِلَى تَطَاوُلِ السَّفَهَاءِ!

وهذا خطأ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْعَفْوَ وَالْحِلْمَ لَا يَشْتَبِهُ أَيُّ مِنْهُمَا بِالذَّلَّةِ بِحَالٍ؛ فَإِنَّ الدَّلَّةَ احْتِمَالُ الْأَذَى عَلَى وَجْهِ يُذْهِبُ
الكرامة. أَمَّا الْحِلْمُ فَهُوَ إِغْضَاءُ الرَّجُلِ عَنِ الْمَكْرُوهِ، حَيْثُ يَزِيدُهُ الْإِغْضَاءُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ رَفْعَةً وَمَكَانَةً.
فَالْعَفْوَ إِسْقَاطُ حَقِّكَ جُودًا، وَكَرَمًا وَإِحْسَانًا؛ مَعَ قُدْرَتِكَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، فَتُؤَثِّرُ التَّرْكُ؛ رَغْبَةً فِي الْإِحْسَانِ وَمَكَارِمِ
الْأَخْلَاقِ. بِخِلَافِ الدَّلِّ؛ فَإِنَّ صَاحِبَهُ يَتْرُكُ الْإِنْتِقَامَ عَجْزًا، وَخَوْفًا وَمَهَانَةً نَفْسٍ؛ فَهَذَا غَيْرُ مَحْمُودٍ، بَلْ لَعَلَّ الْمُتَنَقِّمَ
بِالْحَقِّ أَحْسَنُ حَالًا مِنْهُ؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ بَلَغَتْ بِهِ الرِّقَاعَةُ وَاللُّؤْمُ أَنْ يُفَسِّرَ الْإِكْرَامَ وَالْإِغْضَاءَ بِالضَّعْفِ، وَعَلَيْهِ
يَحْمَلُ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمَتَنِسِيِّ:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

واستعمال العفو والانتصار للنفس، أو استعمال الحزم وأخذ الحق راجعٌ إلى حكمة الإنسان، وتقديره الأمور،
وتدبيره للعواقب؛ فَيَعْرِفُ مَتَى يَأْخُذُ بِالْحَزْمِ، وَمَتَى يَأْخُذُ بِالْحِلْمِ.

وقد قال تعالى: {وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} .. ثم قال: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ
عَزْمِ الْأُمُورِ} ..

ولا يجوز قبل ذا عقوبة^(١)

مبيناً لمن عصى ذنوبه

^١ - قاعدة "لا تكليف إلا بعلم ولا عقاب إلا بعد إنذار" هي أصل شرعي صحيح وعقلاني، تعني أن الله تعالى لا يعاقب أحداً على فعل أو ترك إلا بعد أن يبلغها له ويبين له حكمه، لقوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}.

لا تكليف إلا بعلم ولا عقاب إلا بعد إنذار
وهذه القاعدة تمثل أصلاً كلياً عند شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة الله عليه -، بل هي من أكبر القواعد الكلية عنده، لتعلقها بالتكليف، ومعناها أن الله تعالى أرسل رسوله وأنزل كتبه ليدل الناس عليه ويعرفهم به، وليبين لهم ما يجوز التعبد به له مما لا يجوز وذلك لا يمكن أبداً على وجه التفصيل إلا بمعرفة ما جاءت به الرسل، وإلا فالإنسان بلا رسالة في ضلال مبين وفي ظلمة حالكة لا يبصر فيها طريقه، لكن من رحمة الله تعالى بنا أن أبان لنا الحجة وأوضح لنا المحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ومن رحمته أيضاً ومن مقتضى عدله أنه لا يعذب أحداً إلا بعد أن تقوم عليه الحجة الرسالية ببلوغها إليه وفهمه لها، قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} وقال تعالى: {وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} أي وأنذر من بلغه وأما من لم يبلغه هذا القرآن فإن النذارة لم تقم عليه، ولذلك اشترط الأصوليون العلم بالمكلف به لقيام التكليف على الشخص، فمن لم يعلم ما كلف به فهو غير مكلف به، إن كان جهله به من الجهل الذي يعذر به صاحبه، وبالتالي فلا يعاقب على تركه إن كان مأموراً بفعله ولا بفعله إن كان مأموراً بتركه، ذلك أن العقوبة لا تكون إلا بعد قيام الحجة بالإندار فالتكليف مشروط بالقدرة على العلم والعقوبة مشروطة بقيام الحجة وقد دل على هذه القاعدة أدلة كثيرة جداً قد ذكرنا طرفاً منها في كتابنا (المباحث الجلية في رد المسائل الخلافية إلى الكتاب والسنة) ونذكر هنا طرفاً منها: فمن ذلك: الآيتان السابقتان.

ومنها: كل آية تدل على أن الشريعة لا تكلف نفساً إلا وسعها ولا تحمل أحداً ما لا طاقة له به، وأنها تريد اليسر لا العسر وأن الله قد وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا، كل ذلك يدل على هذه القاعدة إجمالاً.

ومنها: حديث عدي بن حاتم لما أكل في رمضان وقد طلعت الصبح متأولاً قوله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} فأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك فقال: (إن وسادك لعريض إنما هو نور الفجر وظلمة الليل) ولم يأمره بقضاء لأنه لم تقم عليه الحجة الرسالية لعدم فهمه للآية وعدم الفهم الصحيح لمراد المتكلم نوع من أنواع الجهل كما قرر ذلك أهل اللغة فعذر؛ لأنه لم يعلم المراد ولم يعاقب؛ لأنه لم تقم عليه الحجة، ولم يؤمر بالقضاء؛ لأنه لم يكلف بما في الآية لعدم فهمه لها، فصدق قولنا أنه لا تكليف إلا بعلم ولا عقوبة إلا بإنذار.

ومنها: الرجل الذي جاء براوية خمرٍ للنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن حرمت فأهداها له فقال: (ما هذا ألم تعلم أنها حرمت) ففتح الأعرابي الزق فأراقه بين يديه والحديث عند مسلم، فهذا الأعرابي لم يكلف بامتنال ما جاء في تحريم الخمر؛ لأنه لا يعلم بها، فلا تكليف إلا بعلم، وبالتالي لم يعاقب على عمله ذلك؛ لأنه لم ينذر، ولا عقوبة إلا بعد إنذار.

ومنها: (جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد فزجره الناس فنهاهم النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك ... إلخ) الحديث، وهو من حديث أنس في الصحيحين، وهو مشهور ووجه الاستشهاد منه أن هذا الأعرابي لم يكلف بالأدلة الدالة على تحريم ذلك الفعل؛ لأنه لا يعلمها، ولا تكليف إلا بعلم ولم يعاقب على فعله ذلك لأنه لا عقوبة إلا بإنذار وهو لم تقم عليه الحجة.

ومنها: حديث الذي قال لأبنائه: إن مت فأحرقوني وهو معروف، وحديث المستحاضة، وحديث عمار في تيممه، وحديث أهل قباء في استدارتهم إلى القبلة، وحديث أصحاب الفترة وسيأتي - إن شاء الله تعالى -، كلها دليل على ذلك الأصل العظيم، فالإنسان لا يكلف إلا بالشيء الذي قامت عليه فيه الحجة فقط، أما ما لم تقم عليه الحجة فيه فلا تكليف عليه فيه، وغير المكلف لا يعاقب على ما لم يكلف به فإن العقوبة مرتبطة بالتكليف والتكليف لا يكون إلا بعلم، فمن لا يعلم بالشيء فإنه لا يعاقب عليه إن فعله وحقه الترك، أو تركه وحقه الفعل، وهذا من سعة رحمة الله تعالى وكمال فضله وعدله، وقولنا: (لا تكليف إلا بعلم) المراد بالعلم هنا هو ما تقوم به الحجة، والحجة لا تقوم إلا بالبلوغ والفهم أما الأول فبالإتفاق، وأما الثاني ففيه خلاف ويظهر أنه لفظي؛ لأن الجميع يشترط مطلق الفهم ولا يشترط الفهم المطلق كما هو محقق في كتابنا (المباحث الجلية) في المسألة الأولى وأيضاً قولنا: (ولا عقوبة إلا بعد إنذار) نريد بها ما يفيد قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} وقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} فهذا البيان هو ما نعنيه بالإنذار.

ويدخل تحت هذه القاعدة قاعدة مهمة وهي قولهم: (لا تكليف بالخطاب الناسخ إلا بعد العلم به) أي إذا شرع الله شيئاً ثم نسخه بشيء فإن هذا الخطاب الآخر لا يطالب بامتناله إلا من بلغه، وهذا هو القول الصحيح، وعلى ذلك حديث ابن عمر في نسخ القبلة وأن أهل قباء صلوا العصر إلى القبلة المنسوخة بعد نزول الناسخ وهو الأمر بالتوجه إلى الكعبة فجاءهم رجل فقال: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أنزل الليلة عليه قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها، فاستداروا نحوها وبنوا على صلاتهم، ولم ينقل أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أمرهم بإعادة هذه الصلاة التي افتحوها إلى القبلة المنسوخة، مما يدل على أنهم إنما طولبوا بامتنال الدليل الناسخ عند بلوغه إليهم، وهذا في أهل قباء مع قربها من المدينة، فكيف بالمسلمين الأعراب ومن هاجر إلى الحبشة واليمن، ومن في أقطار الأرض من المسلمين، فبال تأكيد أن الخطاب الناسخ لم يبلغهم إلا بعد مدة، ولم ينقل أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر أحداً بالإعادة، فلا تكليف إلا بعلم مطلقاً سواءً بالتشريع ابتداءً أو

بالتشريع الناسخ، وهذا هو اختيار أبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية، وبه تعلم أن الجهل عذر من الأعذار التي يعذر بها المكلف في ترك المأمور أو فعل المحظور جهلاً. وإنما الخلاف في نوع الجهل الذي يعذر به المكلف، والأقرب عندي هو أن الجهل عذر إذا لم يقدر المكلف على دفعه وكان مما يشق التحرز منه، وقد حققنا المسألة في كتابنا المذكور بأوسع من ذلك وذكرنا فيه من الفروع ما يشفي ويكفي، فليراجعه من شاء وإنما المقصود هنا هو الإشارة إلى أهمية هذه القاعدة، والله تعالى أعلى وأعلم.

والعذر بالجهل يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والمسائل، والضابط الإجمالي الذي يلخص ذلك ويقربه ما ذكره السيوطي بقوله: كل من جهل بتحريم شيء مما يشترك فيه غالب الناس، لم يقبل، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة يخفى فيها مثل ذلك: كتحريم الزنا، والقتل، والسرقة والخمر، والكلام في الصلاة، والأكل في الصوم والقتل بالشهادة إذا رجعا، وقالوا تعمدنا، ولم نعلم أنه يقتل بشهادتنا، ووطء المغصوبة، والمرهونة بدون إذن الراهن، فإن كان بإذنه قبل مطلقاً، لأن ذلك يخفى على العوام. اهـ.

فليس كل جهل يعد صاحبه معذوراً، وإلا فلو عذر كل جاهل، لكان الجهل خيراً وأنفع لصاحبه من العلم! جاء في المنثور للزركشي: إعدار الجاهل من باب التخفيف، لا من حيث جهله، ولهذا قال الشافعي رضي الله عنه: لو عذر الجاهل، لأجل جهله لكان الجهل خيراً من العلم، إذ كان يحط عن العبد أعباء التكليف ويريح قلبه من ضروب التعنيف، فلا حجة للعبد في جهله بالحكم بعد التبليغ والتمكين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. اهـ.

فهناك مسألة مهمة تتعلق بالعذر بالجهل وهي قضية وجوب التعلم، والإثم بالتفريط في طلب العلم الواجب، فمن قصر في التعلم الواجب فقد نص بعض العلماء على أن جهله لا يكون عارضاً مؤثراً في عدم مؤاخذته، بل يؤاخذ بهذا الجهل لتقصيره في دفعه بالتعلم، قال القرافي في الفروق: لأن القاعدة الشرعية دلت على أن كل جهل يمكن المكلف دفعه لا يكون حجة للجاهل، فإن الله تعالى بعث رسله إلى خلقه برسائله، وأوجب عليهم كافة أن يعلموها ثم يعملوا بها، فالعلم والعمل بها واجبان، فمن ترك التعلم والعمل وبقي جاهلاً فقد عصى معصيتين لتركه واجبين، وإن علم ولم يعمل فقد عصى معصية واحدة بترك العمل، ومن علم وعمل فقد نجا.

وقال في الفروق أيضاً: الفرق الرابع والتسعون بين قاعدة ما لا يكون الجهل عذراً فيه، وبين قاعدة ما يكون الجهل عذراً فيه: اعلم أن صاحب الشرع قد تسامح في جهالات في الشريعة، فعفا عن مرتكبها، وأخذ بجهالات فلم يعف عن مرتكبها وضابط ما يعفى عنه من الجهالات الجهل الذي يتعذر الاحتراز عنه عادة، وما لا يتعذر الاحتراز عنه ولا يشق لم يعف عنه. اهـ.

وجاء في حاشية ابن الشاط: الفرق الثالث والتسعون بين قاعدة النسيان في العبادات لا يقدر، وقاعدة الجهل يقدر، وكلاهما غير عالم بما أقدم عليه: الجهل والنسيان وإن اشتركا في أن المتصف بواحد منهما غير عالم بما أقدم عليه، إلا أنه يفرق بينهما من جهتين:

الجهة الأولى: أن النسيان يهجم على العبد قهراً، بحيث لا تكون له حيلة في دفعه عنه، بخلاف الجهل، فإن له حيلة في دفعه بالتعلم.

الجهة الثانية: أن الأمة قد أجمعت على أن النسيان لا إثم فيه من حيث الجملة، ودل قوله عليه السلام: رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. على أن الناسي معفو عنه، وأما الجهل فليس كذلك، لأن من القاعدة التي حكى الغزالي في إحياء علوم الدين والشافعي في رسالته الإجماع عليها: أن المكلف لا يجوز له أن يقدم على فعل حتى يعلم حكم الله تعالى فيه. اهـ.

بينما فصل بعض العلماء فقالوا بإمكان الإعذار بالجهل، مع التأثيم بالتفريط في طلب العلم الواجب، جاء في البحر المحيط للزركشي: مسألة: إذا فعل المكلف فعلاً مختلفاً في تحريمه غير مقلد لأحد، فهل نؤثمه، بناء على القول بالتحريم، أو لا بناء على التحليل، مع أنه ليس إضافته لأحد المذهبين أولى من الآخر، ولم يسألنا عن مذهبننا فنجيبه.

قال القرافي: لم أر فيه نصاً، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام. رحمه الله. يقول إنه آثم، من جهة أن كل أحد يجب عليه أن لا يقدم على فعل حتى يعلم حكم الله فيه، وهذا أقدم غير عالم فهو آثم بترك التعلم، وأما تأثيمه بالفعل نفسه، فإن كان مما علم في الشرع قبحه أثمناه، وإلا فلا. اهـ.

وقال ابن عثيمين: ولهذا نقول: كل إنسان فعل شيئاً محرماً جاهلاً به فإنه ليس عليه إثم، ولا يترتب عليه عقوبة، لأن الله تعالى أرحم من أن يعذب من لم يعتمد مخالفته ومعصيته، ولكن يبقى النظر إذا فرط الإنسان في طلب الحق، بأن كان متهاوناً، ورأى ما عليه الناس ففعله دون أن يبحث، فهذا قد يكون آثماً، بل هو آثم بالتقصير في طلب الحق، وقد يكون غير معذور في هذه الحال، وقد يكون معذوراً إذا كان لم يطرأ على باله أن هذا الفعل مخالفة، وليس عنده من ينهيه من العلماء، ففي هذه الحال يكون معذوراً، فالخلاصة إذاً: أن الإنسان يعذر بالجهل، لكن لا يعذر في تقصيره في طلب الحق. اهـ.

ومن الآثار الدالة على هذا ما رواه عبد الرزاق عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، حدثه قال: توفي عبد الرحمن بن حاطب، وأعتق من صلى من رقيقه وصام، وكانت له نوبة قد صلت وصامت وهي أعجمية لم تفقه، فلم يرع إلا حبلها، وكانت ثيباً، فذهب إلى عمر فزعا فحدثه، فقال له عمر: لأنت الرجل لا يأتي بخير. فأفرعه ذلك فأرسل إليها فسألها، فقال: حبلت؟ قالت: نعم من مرغوش بدرهمين، وإذا هي تستهل بذلك لا تكتمه، فصادف عنده عليا وعثمان وعبد الرحمن بن عوف فقال: أشيروا علي وكان عثمان جالسا، فاضطجع فقال علي، وعبد الرحمن: قد وقع عليها الحد، فقال: أشر علي، يا عثمان، فقال: قد أشار عليك أخواك، قال: أشر علي أنت، قال عثمان: أراها تستهل به كأنها لا تعلمه، وليس الحد إلا على من علمه، فأمر بها فجلدت مائة، ثم غربها، ثم قال: صدقت والذي نفسي بيده ما الحد إلا على من علم.

فهذه اصول اصحاب الاثر		تضمنت معالم الدين الاغر
بما به يمتاز اتباع السلف		عن الذي عن هديهم قد انحرف
فلتبع ما سَطَّروا اَتباعا		واحذر هديت يا اخي ابتداعا ^(١)

فلم يحدها لجهلها بالحكم، ولكن جلدتها تعزيراً لتفريطها في التعلم، فدل على أن العذر بالجهل وعدم المؤاخذة به في التكفير، أو إعادة العبادة، لا يقتضي رفع الإثم الحاصل بالتقصير في طلب العلم، فإذا تقرر هذا: فلا تعارض بين القول بالعذر بالجهل في بعض الأحوال، وبين السعي في دعوة الناس وإزالة الجهل عنهم، فليس المدعون كلهم جاهلين، فمنهم العالم المخالف للحق لفساد القصد والإرادة، وحتى الجاهل منهم فليس كل جهل يعد عذراً. كما تقدم. ثم إن العذر بالجهل معناه رفع الإثم أو رفع الكفر، أو عدم المطالبة بالقضاء، ونحو ذلك، وليس معنى العذر بالجهل أن الجاهل يستوي بالعالم بالحق المتبع له، كلا! فمثلاً: من جهل وجوب الصلاة. إن كان حديث عهد بإسلام أو نحوه. وعذرناه بالجهل فعنى ذلك أنه يسلم من إثم ترك الصلاة، لكن لا يقول أحد إنه يستوي مع من علم وجوب الصلاة وأقامها ابتغاء وجه الله وتعظيماً لأمره، فهذا يثاب ويؤجر ويُقَرَّب، وأما الأول فحسبه السلامة من الإثم، وهكذا، فالعذر بالجهل معناه رفع الإثم والعقوبة، قال ابن عثيمين: ولهذا نقول: كل إنسان فعل شيئاً محرماً جاهلاً به فإنه ليس عليه إثم، ولا يترتب عليه عقوبة لأن الله تعالى أرحم من أن يعذب من لم يتعمد مخالفته ومعصيته. اهـ.

^١ — البدعة في اللغة: هي الحدث في الدين بعد الإكمال، أو ما استُحدث بعد النبي صلى الله عليه وسلم من الأهواء والأعمال (انظر: القاموس المحيط (ص ٩٠٦)، لسان العرب (٨ / ٦)).
يقال: (أُبدِعْتُ الشيءَ قولاً أو فعلاً، إذا ابتدأته لا عن سابقٍ مثال) (معجم مقاييس اللغة (١ / ٢٠٣))، ومنه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]؛ أي: مخترعهما من غير مثالٍ سابقٍ مُتَقَدِّمٍ (انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ١١١)).
وجاء في "اللسان": (بَدَعَ الشيءَ يَبْدَعُهُ بَدْعًا وَابْتَدَعَهُ: أَنْشَأَهُ وَبَدَأَهُ. وفي التنزيل: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]؛ أي: ما كنتُ أَوَّلَ مَنْ أُرْسِلَ، قد أُرْسِلَ قَبْلِي رُسُلٌ كَثِيرٌ. وَابْتَدَعَ: الْخَدَثُ، وَمَا ابْتَدَعَ مِنَ الدِّينِ بَعْدَ الْإِكْمَالِ. وَأَبْدَعَ وَابْتَدَعَ وَتَبَدَّعَ: أَتَى بِبِدْعَةٍ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧]. وَبَدَّعَهُ: نَسَبَهُ إِلَى الْبِدْعَةِ. وَالبَدِيعُ: الْمُخْدَتُ الْعَجِيبُ. وَأَبْدَعْتُ الشَّيْءَ: اخْتَرَعْتُهُ لَا عَلَى مِثَالٍ. وَالبَدِيعُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِإِبْدَاعِهِ الْأَشْيَاءَ وَإِخْدَاتِهِ إِيَّاهَا، وَهُوَ الْبَدِيعُ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ) (لسان العرب (٨ / ٦)).

البدعة في "الاصطلاح الشرعي": لها عدة تعريفات عند العلماء يُكَمَّل بعضها بعضاً، ومن ذلك:

١- تعريف ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى: (الْبِدْعَةُ فِي الدِّينِ: هِيَ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ أَمْرٌ إِيْجَابِيٌّ وَلَا اسْتِحْبَابِيٌّ)، وعَرَّفَهَا أَيْضاً بِقَوْلِهِ: (الْبِدْعَةُ: مَا خَالَفَتْ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، أَوْ إِجْمَاعَ سَلَفِ الْأُمَّةِ مِنَ الْأَعْتِقَادَاتِ وَالْعِبَادَاتِ).

٢- تعريف ابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم: (والمراد بالبدعة: ما أُحْدِثَ مِمَّا لَا أَصْلَ لَهُ فِي الشَّرِيعَةِ يدل عليه، وأما ما كان له أصلٌ من الشَّرْعِ يدل عليه فليس ببدعة شرعاً، وإن كان بدعةً لغَةً).

٣- تعريف الشاطبي رحمه الله في الاعتصام: (الْبِدْعَةُ: طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ، يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ) (تُضَاهِي) أَي: أَنَّهَا تُشَبِّهِ الطَّرِيقَةَ الشَّرْعِيَّةَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ الْحَقِيقَةُ كَذَلِكَ؛ بَلْ هِيَ مُضَادَّةٌ لَهَا).

وكونُ البدعةِ تُضَاهِي الْأُمُورَ الْمَشْرُوعَةَ وَصِفَتْ لِازِمٍ لَهَا، وَإِلَّا لَكَانَتْ مِنْ بَابِ الْأَفْعَالِ الْعَادِيَةِ. وَيُبَيِّنُ ذَلِكَ: أَنَّ صَاحِبَ الْبِدْعَةِ يَخْتَرِعُهَا؛ لِيُضَاهِيَ بِهَا السُّنَّةَ، سِوَاءَ لَبَسَ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَى النَّاسِ، أَوْ كَانَتْ مِمَّا أَلْتَبَسَتْ عَلَيْهِ بِالسُّنَّةِ، وَيُؤَكِّدُ هَذَا انْتِصَارُ الْمُتَبَدِّعِ لِبِدْعَتِهِ بِأُمُورٍ تَخَيَّلَ أَنَّهَا مَشْرُوعَةٌ، وَلَوْ بِدَعْوَى الْاِقْتِدَاءِ بِفُلَانٍ الْمَعْرُوفِ مَنْصِبِهِ فِي أَهْلِ الْخَيْرِ.

(يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ): هَذَا الْقَصْدُ، قَيْدٌ لِإِخْرَاجِ الْعَادَاتِ الَّتِي لَا يُقْصَدُ بِهَا التَّعَبُّدُ مِنَ الْبِدْعِ، وَبَيَانٌ أَنَّ مَا ابْتَدِعَ مِنَ الْأُمُورِ الزَّائِدَةِ عَلَى الْمَشْرُوعِ، وَالْمَنْسُوبَةِ لِلشَّرْعِ؛ مَقْصُودٌ بِهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ، أَوْ تَجْدِيدُ النَّشَاطِ إِلَى الْعِبَادَةِ.

وَالْبِدْعُ كُلُّهَا ضَلَالَةٌ: مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ وَسَّعَ مَفْهُومَ الْبِدْعَةِ؛ لِتَشْمَلَ كُلَّ مَا حَدَثَ فِي الدِّينِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، سِوَاءَ كَانَ مَذْمُومًا أَوْ مَحْمُودًا. وَقَالُوا: مَا وَافَقَ السُّنَّةَ فَهُوَ مَحْمُودٌ وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ مَذْمُومٌ؛ وَاحْتِجُّوا: بِقَوْلِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ: (نَعَمْ الْبِدْعَةُ هَذِهِ) (رواه البخاري)، لَكِنَّهُ قَوْلٌ مَرْجُوحٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (شَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ) (رواه مسلم)؛ لِذَا يُقْتَصَرُ مَدْلُولُ الْبِدْعَةِ عَلَى الْحَادِثِ الْمَذْمُومِ الَّذِي لَمْ يَرِدْ بِهِ الشَّرْعُ، وَلَمْ يَنْدَرِجْ تَحْتَ أَصْلٍ يُعْمَلُ بِهِ، مِمَّا يَدْخُلُ فِي الْعِبَادَةِ أَوْ قَصْدٍ بِهِ التَّعَبُّدُ مِنَ الْعَادَاتِ.

وَأَجَابَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ صَنَّفَ الْبِدْعَةَ إِلَى حَسَنَةٍ وَقَبِيحَةٍ بِقَوْلِهِ: (إِنَّ الْمُحَافَظَةَ عَلَى عُمُومِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ" (رواه مسلم) مُتَعَيِّنٌ، وَأَنَّهُ يَجِبُ الْعَمَلُ بِعُمُومِهِ، وَأَنَّ مَنْ أَخَذَ يُصَنِّفُ "الْبِدْعَ" إِلَى حَسَنٍ وَقَبِيحٍ، وَيَجْعَلُ ذَلِكَ ذَرْيَةً إِلَى آلَا يُحْتَجَّ بِالْبِدْعَةِ عَلَى النَّهْيِ، فَقَدْ أَخْطَأَ؛ كَمَا يَفْعَلُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُتَفَقِّهَةِ وَالْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَعَبِّدَةِ؛ إِذَا نَهَوْا عَنْ "الْعِبَادَاتِ الْمُتَبَدِّعَةِ" وَ"الْكَلَامِ فِي التَّنْدِيهِ الْمُتَبَدِّعِ"، ادَّعَوْا أَنَّ لَا بِدْعَةَ مَكْرُوهَةً إِلَّا مَا نَهَى عَنْهُ، فَيَعُوذُ الْحَدِيثُ إِلَى أَنْ يُقَالَ: "كُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ" أَوْ "كُلُّ مَا حَرَّمَ" أَوْ "كُلُّ مَا خَالَفَ نَصَّ النُّبُوَّةِ، فَهُوَ ضَلَالَةٌ"، وَهَذَا أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ فِي رَدِّهِ إِلَى بَيَانٍ، بَلْ كُلُّ مَا لَمْ يُشْرَعْ مِنَ الدِّينِ فَهُوَ ضَلَالَةٌ) (مجموع الفتاوى).

وقال أيضاً: (وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَا لَمْ يَسْنَهُ وَلَا اسْتَحَبَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْبِدَعِ الْمُنْكَرَاتِ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ فِي مِثْلِ هَذَا: إِنَّهُ بَدْعَةٌ حَسَنَةٌ؛ الْبَدْعَةُ الْحَسَنَةُ - عِنْدَ مَنْ يُقَسِّمُ الْبِدَعَ إِلَى حَسَنَةٍ وَسَيِّئَةٍ - لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَحَبَّهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِهِمْ، وَيَقُومُ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ عَلَى اسْتِحْبَابِهَا، وَكَذَلِكَ مَنْ يَقُولُ: الْبَدْعَةُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا مَذْمُومَةٌ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: "كُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ"، وَيَقُولُ: قَوْلُ عُمَرَ فِي التَّرَاوِيحِ: "نِعْمَتِ الْبَدْعَةُ هَذِهِ" إِنَّمَا أَسْمَاهَا بَدْعَةً؛ بِاعْتِبَارِ وَضْعِ اللَّغَةِ؛ فَالْبَدْعَةُ فِي الشَّرْعِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ مَا لَمْ يَثْبُتْ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ عَلَى اسْتِحْبَابِهِ، وَمَا لَ الْقَوَائِنِ وَاحِدٌ؛ إِذْ هُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَا لَمْ يُسْتَحَبَّ أَوْ يَجِبْ مِنَ الشَّرْعِ فَلَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُسْتَحَبٍّ؛ فَمَنْ اتَّخَذَ عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ عِبَادَةً وَدِينًا وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الشَّرِيعَةِ وَاجِبًا وَلَا مُسْتَحَبًّا؛ فَهُوَ ضَالٌّ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ (مجموع الفتاوى).

وقد عُلِمَ بالضرورة أَنَّ العقول البشرية غير مستقلة بمصالحها دون الوحي، والشريعة الغراء جاءت كاملة، لا تحتل الزيادة ولا النقصان؛ لذا كان المبتدع معانداً للشرع ومشاقاً له؛ لأنَّ عمله مضاد للشريعة، وفي الوقت ذاته يكون المبتدع متبعاً لهواه؛ لأنَّ العقل إذا لم يكن متبعاً للشرع لم يبق إلا اتباعه للهوى، وهذا المبتدع قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع؛ لأنَّ الشارع الحكيم وَضَعَ الشرائع وألَزَمَ المُكَلَّفِينَ الجري على سُنَنِهَا (انظر: انظر الاعتصام (١/ ٢٩))، ولقد وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة، ومن أقوال الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان في ذم الابتداع في الدين والتحذير منه، ومن ذلك (انظر: نور السنة وظلمات البدعة في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي القحطاني (ص ٣٦، ٤٨)):

أولاً: من القرآن:

١ - قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

وجه الدلالة: أَنَّ أهل السنة والجماعة يعملون بالمُحْكَمِ من نصوص الكتاب والسنة، ويؤمنون بالمتشابه، ويَكُونُونَ ما أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ إلى عَالِمِهِ، بخلاف أهل البدع والضلال الذين يَتَّبِعُونَ المتشابه، ويتركُونَ المُحْكَمَ. ولقد حَذَرْنَا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الفعل السيئ: عن عائشة رضي الله عنها قالت: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية؛ فقال: ((إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ، فَاحْذَرُوهُمْ)) (رواه البخاري ومسلم).

٢ - قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وجه الدلالة: أَنَّ الصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو اتِّبَاعُ السُّنَّةِ، وَاتِّبَاعُ الطَّرِيقِ المخالفة لطريق أهل السنة والجماعة تُضِلُّ أصحابها وتَفَرِّقُهُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، وهي طرق أهل البدع التي توصلهم إلى الجحيم، فالآية شملت النهي عن جميع طرق أهل البدع (انظر: الاعتصام (١/ ٣٠)).

قال السعدي رحمه الله: (وَحَدَّ الصِّرَاطَ، وَأَضَافَهُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ سَبِيلٌ وَاحِدٌ، مُوصِلٌ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْمُعِينُ لِلسَّالِكِينَ عَلَى سَلُوكِهِ) (تفسير السعدي (١ / ٢٨٠)).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]. وجه الدلالة: أَنَّ السَّبِيلَ الْقَصْدُ هُوَ طَرِيقُ الْحَقِّ؛ اتَّبَاعُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا سِوَاهُ جَائِرٌ عَنِ الْحَقِّ؛ أَي: عَادِلٌ عَنْهُ، وَمِثَالٌ عَنْهُ، وَهِيَ طَرِيقُ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالَاتِ (انظر: الاعتصام (١ / ٣١)).

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وجه الدلالة: أَنَّ انْتِشَارَ الْبِدْعِ يُفَرِّقُ الْأُمَّةَ؛ لِذَا تَوَعَّدَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ، وَتَفَرَّقُوا فِيهِ؛ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ وَالضَّلَالِ الْمُفَرِّقِينَ لِلْأُمَّةِ، وَأَخَذَ كُلَّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا غَيْرَ طَرِيقِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (انظر: الاعتصام (١ / ٨٥)).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]. وجه الدلالة: أَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ تَحَزَّبَتْ وَتَعَصَّبَتْ، عَلَى نَصْرِ مَا مَعَهَا مِنَ الْبِدْعِ وَالضَّلَالَاتِ، وَنَابَذَتْ غَيْرَهَا وَحَارَبَتْهُ؛ فَهِيَ فَرِحَةٌ بِمَا لَدَيْهَا مِنَ الْعُلُومِ الْمَخَالِفَةِ لِهَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَ ذَلِكَ يَحْكُمُونَ لَأَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنَّ غَيْرَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ. قال السعدي رحمه الله: (وفي هذا تحذيرٌ للمسلمين من تشبُّهِهم وتفرُّقهم فِرَقًا، كُلُّ فَرِيقٍ يَتَعَصَّبُ لِمَا مَعَهُ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، فَيَكُونُونَ مِثْلَ مِثَابِهِينَ بِذَلِكَ لِلْمُشْرِكِينَ فِي التَّفَرُّقِ، بَلِ الدِّينَ وَاحِدٌ، وَالرَّسُولَ وَاحِدٌ، وَالْإِلَهَ وَاحِدٌ) (الاعتصام (ص ٦٤١)).

٦- قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. وجه الدلالة: تحذير المبتدعة الذين يخالفون شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم أن تصيبهم فتنة في الدنيا، أو عذاب أليم في الآخرة. قال ابن كثير رحمه الله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾؛ أَي: عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ سَبِيلُهُ وَمِنْهَا جُوهٌ وَطَرِيقَتُهُ وَسُنَّتُهُ وَشَرِيعَتُهُ، فَتَوَزَّنِ الْأَقْوَالَ وَالْأَعْمَالَ بِأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ، فَمَا وَافَقَ ذَلِكَ قَبْلَ، وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ مُرَدُّودٌ عَلَى قَائِلِهِ وَفَاعِلِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ. فليحذر وليخش مَنْ يُخَالِفُ شَرِيعَةَ الرَّسُولِ بَاطِنًا أَوْ ظَاهِرًا ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أَي: فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ بَدْعَةٍ، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أَي: فِي الدُّنْيَا بِقَتْلِ أَوْ حَدِّ، أَوْ حَبْسٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ (تفسير القرآن العظيم (٣ / ٣٠٨)).

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]. وجه الدلالة: إنكار الله تعالى على مَنْ يُحَدِّثُونَ فِي الدِّينِ فَيُحْلِلُونَ وَيُحَرِّمُونَ بِأَهْوَائِهِمْ.

٨- قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. وجه الدلالة: إنكار الله سبحانه على مَنْ شَرَعَ فِي دِينِهِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ.

ثَانِيًا: مِنَ السُّنَّةِ:

حَدَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْإِبْتِدَاعِ فِي الدِّينِ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ:

١- قوله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ)) (رواه البخاري ومسلم).

٢- قوله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ)) (رواه البخاري ومسلم).

وجه الدلالة: كُلُّ مَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ تَعَالَى بِشَيْءٍ لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ، أَوْ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ، مَرْدُودٌ عَلَيْهِ مَا ابْتَدَعَهُ وَاخْتَرَعَهُ.

قال النووي رحمه الله في شرحه على مسلم: (قال أهل العربية: الرَّدُّ هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطلٌ غير معتدٍّ به، وهذا الحديث قاعدةٌ عظيمةٌ من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم؛ فإنه صريح في ردِّ كلِّ البدع والمخترعات، وفي الرواية الثانية زيادة، وهي: أنه قد يُعاند بعضُ الفاعلين في بدعةٍ سُبِقَ إليها، فإذا احتجَّ عليه بالرواية الأولى، يقول: "أنا ما أحدثتُ شيئاً"، فيُحتجُّ عليه بالثانية، التي فيها التَّصريح برَدِّ كلِّ المُحدثات؛ سواء أحدثها الفاعلُ أو سُبِقَ بإحداثها، وفي هذا الحديث دليل لمن يقول من الأصوليين: إنَّ النهي يقتضي الفساد. وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال به).

٣- قوله صلى الله عليه وسلم: ((خَيْرُ الْهُدْيِ هُدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) (رواه مسلم).

٤- وفي رواية: ((أَحْسَنُ الْهُدْيِ هُدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ)) (رواه النسائي وصححه الألباني في (صحيح سنن النسائي)).

٥- وفي رواية: ((مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَظُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) (رواه أبو داود وصححه الألباني في (صحيح سنن أبي داود)). وجه الدلالة: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ حَارَبَ الْإِبْتِدَاعَ فِي الدِّينِ وَقَاوَمَ الْمُبْتَدِعِينَ، وَحَدَّرَ مِنَ الْإِحْدَاثِ فِيهِ، وَتَوَعَّدَ مَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى.

٦- قوله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)) (رواه مسلم).

٧- قوله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا)) (رواه مسلم).

وجه الدلالة: أَنَّ الْإِحْدَاثَ وَالْإِبْتِدَاعَ فِي الدِّينِ دَاخِلٌ فِي الْأُمُورِ السَّيِّئَةِ الْمُحَرَّمَةِ شَرْعًا؛ لِذَا كَانَ عَلَى الْمُبْتَدِعِ مِثْلُ وَزْرِ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ بِبِدْعَتِهِ وَضَلَالِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، سِوَا ابْتِدَاعِهِ هُوَ أَمْ كَانَ مَسْبُوقًا إِلَيْهِ. (انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٦ / ٢٢٦)).

ثالثًا: من أقوال الصحابة رضي الله عنهم:

- ١- قول أبي بكر رضي الله عنه: (أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَنَا زُغْتُ فَقَوِّمُونِي) (رواه القاسم بن سلام في (الأموال) (١ / ٨) (رقم ٦)، والطبري في (الرياض النضرة) (ص ١٢٣)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى) (٣ / ١٨٣)).
- ٢- قول عمر رضي الله عنه: (إِيَّاكُمْ وَأَصْحَابَ الرَّأْيِ؛ فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءُ السُّنَنِ، أَعَيَّتَهُمُ الْأَحَادِيثُ أَنْ يَحْفَظُوهَا فَقَالُوا بِالرَّأْيِ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) (رواه اللالكائي في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة) (١ / ١٢٣) (رقم ٢٠١)، والأصبهاني في (الحجة) (١ / ١٩٥)، والهروي في (ذم الكلام) (٢ / ١٠٤) (رقم ٢٥٠)).
- ٣- قول ابن مسعود رضي الله عنه: (اتَّبِعُوا، وَلَا تَبْتَدِعُوا؛ فَقَدْ كُفِّيتُمْ، كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ) (رواه وكيع في (الزهد) (١ / ٣٥٧)، وأحمد في (الزهد) (ص ١٦٢). وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (١ / ١٨١): (رجاله رجال الصحيح)).
- ٤- قول ابن عمر رضي الله عنهما: (كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَإِنْ رَأَاهَا النَّاسُ حَسَنَةً) (رواه اللالكائي في (اعتقاد أهل السنة والجماعة) (١ / ٩٢) (رقم ١٢٦). وصححه الألباني في (أحكام الجنائز) (ص ٢٠٠) (رقم ١٢٧)).
- ٥- قول ابن عباس رضي الله عنهما: (عَلَيْكُمْ بِالْإِسْتِقَامَةِ وَالْأَثَرِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّبَدُّعَ) (رواه ابن وضاح في (البدع) (ص ٦٤)، والمروزي في (السنة) (ص ٢٩) (رقم ٨٣)).
- ٦- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَا أَتَى عَلَى النَّاسِ عَامٌ إِلَّا أَحْدَثُوا فِيهِ بِدْعَةً، وَأَمَاتُوا فِيهِ سُنَّةً؛ حَتَّى تَحْيَا الْبِدْعُ، وَتَمُوتَ السُّنَّةُ» (رِجَالُهُ مُوثَقُونَ - رواه المروزي في (السنة) (ص ٣٢)، (رقم ٩٨)؛ واللالكائي في (أصول الاعتقاد)، (١ / ٩٢). وعزاه الهيثمي في (مجمع الزوائد) إلى (الطبراني) في (الكبير)، وقال: (رجاله موثقون)، (١ / ١٩٣)، وذكره الطرطوشي في (الحوادث والبدع)، (ص ١١٧)).

رابعًا: أقوال التابعين وتابعيهم بإحسان:

ما سُمِّيَ أهل السنة والجماعة بهذا الاسم إِلَّا لَاتِّبَاعِهِمْ سُنَّةَ نَبِيِّهِمْ وَهَدْيَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لَذَا شَدَّدُوا فِي التحذير من البدع والمحدثات في الدين، وتناقلوا السُّنَّةَ خَلْفًا عَنْ خَلْفٍ، كَمَا تَنَاقَلُوا فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ التَّحْذِيرَ مِنَ الْبِدْعَةِ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ: (من طريقة أهل السنة والجماعة: اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَيُؤَثِّرُونَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ؛ وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الْاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ).

ومما ورد عن السلف الصالح من آثار في تحذيرهم من البدع:

١- قول عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: (أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْاِفْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ، وَاتَّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَرْكِ مَا أَخَذَتْ الْمُحَدِّثُونَ بَعْدَ مَا جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ وَكُفُّوا مُؤْنَتَهُ، فَعَلَيْكَ بِلُزُومِ السُّنَّةِ؛ فَإِنَّهَا لَكَ بِإِذْنِ اللَّهِ عِصْمَةٌ) (رواه أبو داود وصححه الألباني في (صحيح سنن أبي داود)).

٢- قول الحسن البصري رحمه الله: (لَا يَصْلُحُ قَوْلٌ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا يَصْلُحُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بَنِيَّةٍ، وَلَا يَصْلُحُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَبَنِيَّةٌ إِلَّا بِمُتَابَعَةِ السُّنَّةِ). واه اللالكائي في (اعتقاد أهل السنة والجماعة) (١ / ٥٧) (رقم ١٨)، وابن بطة في (الإبانة)

٣- قول الإمام مالك رحمه الله: (مَنْ ابْتَدَعَ فِي الْإِسْلَامِ بَدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً، فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَانَ الرِّسَالَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ﴿فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا، فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا﴾ (الاعتصام (١ / ٤٩)، السنن والمبتدعات (ص ٦)).

٤- قول الإمام الشافعي رحمه الله: (حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنَّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْعَشَائِرِ وَالْقَبَائِلِ، وَيُقَالَ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ) (رواه الأصبهاني في (الحجة في بيان المحجة) (١ / ١٩٩)، والرازي في (ذم الكلام وأهله)).

٥- قول الإمام أحمد رحمه الله: (أَصُولُ السُّنَّةِ عِنْدَنَا: التَّمَسُّكُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالِاقْتِدَاءُ بِهِمْ، وَتَرْكُ الْبِدْعِ، وَكُلُّ بَدْعٍ فِيهِ ضَلَالَةٌ، وَتَرْكُ الْخُصُومَاتِ، وَالْجُلُوسُ مَعَ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ، وَتَرْكُ الْمَرَاءِ وَالْجِدَالِ، وَالْخُصُومَاتِ فِي الدِّينِ) (أصول السنة، للإمام أحمد (ص ١٤)، ورواه اللالكائي في

(اعتقاد أهل السنة والجماعة) (١ / ١٥٦) (رقم ٣١٧).. (ذم الابتداع في الدين د احمد بن محمد الدوسري)

٦- قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اصْبِرْ نَفْسَكَ عَلَى السُّنَّةِ، وَقِفْ حَيْثُ وَقَفَ الْقَوْمُ، وَقُلْ بِمَا قَالُوا، وَكُفَّ عَمَّا كَفُّوا، وَاسْلُكْ سَبِيلَ سَلَفِكَ الصَّالِحِ؛ فَإِنَّهُ يَسْعُكَ مَا وَسِعَهُمْ» (رواه اللالكائي في (أصول الاعتقاد)، (١ / ١٧٤)، (رقم ٣١٥)؛ وأبو نعيم في (الحلية)، (٦ / ١٤٣)؛ والهروي في (ذم الكلام)، (٥ / ١١٧)).

٧- قَالَ الْبَرْبَهَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اخْذَرْ صِغَارَ الْمُحَدِّثَاتِ مِنَ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ صَغِيرَ الْبِدْعِ يَعُودُ حَتَّى يَصِيرَ كَبِيرًا» (شرح السنة، (ص ٣٧). وانظر: طبقات الحنابلة، (٢ / ١٨)، (رقم ٥٨٨)).

٨- قَالَ الْأَجْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا حَذَرَ هَذِهِ الْفِرْقَ، وَجَانَبَ الْبِدْعَ، وَلَمْ يَتَّبِعْ، وَلَزِمَ الْأَثَرَ، فَطَلَبَ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ، وَاسْتَعَانَ بِمَوْلَاهُ الْكَرِيمِ» (الشریعة، (١ / ٣١٤)).

أَدِلَّةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تُحَرِّمُ الْبِدْعَ، وَتُحَذِّرُ مَقَارِفَتَهَا، وَالْوُقُوعَ فِيهَا؛ لِأَنَّ الْبِدْعَةَ تُزْهِدُ الْإِنْسَانَ فِي الْأَعْمَالِ الْمَشْرُوعَةِ، وَتُوجِبُ لَهُ فَسَادًا فِي الْقَلْبِ، يَنْشَأُ مِنْ نَقْصِ مَنَفَعَةِ الشَّرِيعَةِ عِنْدَ الْمُتَّبِعِ (انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية (١ / ٥٤٤)).

مقتفياً تسعى الى اجتماع		مُجانباً للخلف والنزاع
فربنا قد ارسل المختارا		محذراً من الهوى إعدارا
فآية المحبة اتباعه		مع اجتناب ما به نزاعه
ثواب ذا محبة ومغفرة		كما اتى في الشريعة المطهرة
والحمد لله ختاماً وابتدا		من لا سبيل دونه الى الهدى
مع الصلاة والسلام الابدي		على النبي الهاشمي محمد

خاتمة الشرح

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين اما بعد:

قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ ابْتَدَعَ فِي الْإِسْلَامِ بِدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً، فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَانَ الرِّسَالَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [الْمَائِدَةِ: ٣]، فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا، فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا) (الاعتصام، للشاطبي (١/٦٥)).

وَالْبِدْعُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ التَّفَرُّقِ وَالْخِلَافِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْأُمَّةِ - وَلَا يَزَالُ، بَلْ هِيَ أَصْلُ وَقُوعِ الْفِتَنِ فِي الْأُمَّةِ، وَتَفَرُّقِ وَحَدَّتِهَا، وَتَشْتَتِ شَمْلُهَا (انظر: مجموع الفتاوى، (١٤٣/٢٨)؛ الاعتصام، (٢/١٩٤)).

وَقَدْ اشْتَدَّ نَكِيرُ السَّلَفِ وَالْأُئِمَّةِ لِلْبِدْعِ، وَصَاحُوا بِأَهْلِهَا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ كُلِّهَا، وَحَذَرُوا مِنْ فِتْنَتِهِمْ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ، وَبَالَغُوا فِي ذَلِكَ مَا لَمْ يُبَالَغُوا مِثْلَهُ فِي انْكَارِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ؛ إِذْ مَضَرَّةُ الْبِدْعِ وَهْدْمُهَا لِلدِّينِ وَمُنَافَاتُهَا لَهُ أَشَدُّ (انظر: مدارج السالكين، (١/٣٧٢)).

وَأَقْوَاهُمْ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى، وَكُلُّهَا تَذُمُّ الْبِدْعَ، وَتَكْشِفُ خَطَرَهَا وَضَرَرَهَا، وَتَأْمُرُ بِسُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فَمَنْ رَغِبَ فِي الثَّبَاتِ عَلَى مَنْهَجِهِمْ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَ مَا سَلَكُوا، وَيَسِيرَ كَمَا سَارُوا، فَيَجْتَنِبَ الْبِدْعَ، وَيَحْذَرَ مِنَ الْمُحَدَّثَاتِ، وَيُفَارِقَ الضَّلَالَاتِ، وَيَسْلَمَ كَمَا سَلِمُوا، فَيَفُوزَ بِمَا فَازُوا، وَيَسْعَدَ بِمَا سَعَدُوا.

فهذه خاتمة ما تيسر جمعه وترتيبه في شرحي لمنظومتي المسماة غنية القصاد في نظم مسائل الاعتقاد ، قصدتُ به تقريب أصول اعتقاد اهل السنة والجماعة ، وبيان ما يجب لله تعالى من التوحيد والإيمان، وما يجب الإيمان به من أصول الدين، على ما دلّ عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما درج عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

وما كان في هذا الكتاب من صواب وحق فمن فضل الله وتوفيقه، وما كان فيه من خطأ أو تقصير فمن نفسي، والله ورسوله منه بريان، وأستغفر الله تعالى من الزلل والتقصير.

وإني أسأل الله الكريم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، نافعاً لكاتبه وقارئه، سبباً للثبات على الحق وحسن الاعتقاد، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يحيينا على التوحيد والسنة، ويميتنا عليهما، ويحشرنا في زمرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام.

اللهم انفع بهذا الكتاب، وبارك في أثره، واجعل ما كُتب فيه حجةً لنا لا علينا، واجعل آخر كلامنا من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المصادر

- ١ - مجموع فتاوى ابن تيمية.
- ٢ - شرح ابن أبي العز على العقيدة الطحاوية .
- ٣ - شرح الاعتقاد للالكائي.
- ٤ - أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات لمرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرّمى المقدسى الحنبلى .
- ٥ - مفتاح دار السعادة لابن القيم.
- ٦ - مدارج السالكين لابن القيم .
- ٧ - إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
- ٨ - تفسير ابن كثير.
- ٩ - تفسير القرطبي.
- ١٠ - فتاوى نور على الدرب لابن عثيمين .

- ١١ - القول المفيد شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين .
- ١٢ - شرح الواسطية لابن عثيمين.
- ١٣ - تعارض العقل والنقل لابن تيمية.
- ١٤ - الفوائد لابن القيم.
- ١٥ - بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية.
- ١٦ - الحجة في بيان المحجة لقوام السنة الابحاني.
- ١٧ - شرح الطحاوية لعبد الرحمن البراك.
- ١٨ - الرد على القائلين بوحدة الوجود لملا علي القاري.
- ١٩ - ابن عثيمين في شرح لمعة الاعتقاد.
- ٢٠ - قال ابن عثيمين في تقريب التدمرية.
- ٢١ - شرح القواعد المثلى لابن عثيمين.
- ٢٢ - في شرح السفارينية لابن عثيمين.
- ٢٣ - درء التعارض لابن تيمية.
- ٢٤ - رسالة أهل الثغر للاشعري.
- ٢٥ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم.
- ٢٦ - اعتقاد أهل السنة للالكائي .
- ٢٧ - اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم.
- ٢٨ - الابانة لابن بطة .
- ٢٩ - مفتاح دار السعادة.
- ٣٠ - شرح الواسطية لعبد الرحيم السلمي.
- ٣١ - شرح الطحاوية للفوزان.
- ٣٢ - البراهين الإسلامية لعبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن.
- ٣٣ - في التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة للسعدي.

- ٣٤ - الكواشف الجلية على الواسطية لعبدالعزیز السلمان.
- ٣٥ - مجموع فتاوى ابن باز.
- ٣٦ - نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المریسي الجهمي العنید.
- ٣٧ - اعتقاد اهل السنة لابن جبرین.
- ٣٨ - الاعتقاد لعبد الغني المقدسي.
- ٣٩ - شرح النووي على مسلم .
- ٤٠ - فتح الباري لابن حجر.
- ٤١ - تفسير البغوي.
- ٤٢ - الداء والدواء لابن القيم.
- ٤٣ - منهاج السنة لابن تيمية.
- ٤٤ - سراج الطالبین علی منهاج العابدین (للغزالي)) لاحسان محمد دحلان الکديري.
- ٤٥ - لقاء الباب المفتوح لابن عثيمين.
- ٤٦ - المغني لابن قدامة.
- ٤٧ - نواقض الايمان للوهبي.
- ٤٨ - معارج القبول للحکمي.
- ٤٩ - الارشاد الى صحيح الاعتقاد للفوزان.
- ٥٠ - كتاب الخوارج للدكتور ناصر العقل.
- ٥١ - العقائد السلفية لاحمد بن حجيرال بو طامي.
- ٥٢ - عقود الايمان لاحمد سالم الجکني.
- ٥٣ - شرح الطحاوية لعبد الرحيم السلمي.
- ٥٤ - الفرق بين الفرق عبد القادر البغدادي.
- ٥٥ - التذكرة للقرطبي.
- ٥٦ - شرح رياض الصالحين لابن عثيمين.

- ٥٧- الايمان باليوم الاخر مازن بن محمد بن عيسى.
- ٥٨- مقدمة ابن الصلاح.
- ٥٩- عقيدة السلف الصالح للصابوني.
- ٦٠- اعتقاد اهل السنة لابي عمرو الداني.
- ٦١- السنة للخلال
- ٦٢- شرح السنة للبرهاري.
- ٦٣- السيل الجرار للشوكاني.
- ٦٤- كشف القناع للبهوتي.
- ٦٥- فتاوى اللجنة الدائمة.
- ٦٦- حلية الاولياء لابي نعيم.
- ٦٧- الجواب الكافي لابن القيم.
- ٦٨- العقوبات لابن ابي الدنيا.
- ٦٩- سير اعلام النبلاء للذهبي.
- ٧٠- الزهد للامام احمد.
- ٧١- المجموع للنووي.
- ٧٢- الكافية الشافية لابن القيم.
- ٧٣- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي.
- ٧٤- عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام لابي زيد القيرواني.
- ٧٥- الاعتصام للشاطبي.